بيير داكو

انتصارات التحليل النفسي

ترجمة
وجيه أسعد

الشركة المتحدة للتوزيع

انتصارات التحليل النفسي

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثانية

١٤٠٧هـ ١٩٨٦م

حقوق الطبع محفوظة

مطبعة الرسالة

« عدد الطبع ٣٠٠٠ »

الشركة المتحدة للتوزيع

سوريا - دمشق - شارع مسلم البارودي - بناء خولي وصلاحي رقم ٣٧

هاتف ٢١٢٧٧٣ - ص . ب ١١٧٢١ - برقياً : بيوشران - تلكس ٤١١٥٢٩ رعبول

تأليف
بيير داكو

انتصارات التحليل النفسي

ترجمة
وجيه أسعد

الشركة المتحدة للتوزيع

العنوان الاصلي للكتاب :

PIERRE DACO

LES TRIOMPHES DE LA PSYCHANALYSE

DU TRAITEMENT
PSYCHOLOGIQUE
A L'EQUILIBRE
DE LA PERSONNALITE

إهداء

أهدي هذا الكتاب الى :

- أعضاء اللجنة التي تدير المؤسسة العالمية لعلم النفس وعلم النفس العلاجي (جنيف)، تلك المؤسسة التي تحتفظ ببصمة مؤسسها الراسخة :

  شارل بودوان ؛

- الدكتور رولان كاهن ، عضو المؤسسة العالمية لعلم النفس التحليلي اليونغي (زوريخ) ، الذي انتشرت بفضله مؤلفات يونغ في البلدان الناطقة بالفرنسية ؛
- السيدة جيلبرت إغريس على وجه الخصوص ، عضو هاتين المؤسستين، لقاء ما قدّمته لي من عون ؛
- وأهدي هذا الكتاب بصورة خاصة الى مرضاي ، شاكرا لهم مساهمتهم في العمل التحليلي .

أثمة « انتصارات » للتحليل النفسي ؟ بالتأكيد : ذلك أنه يجعل الأبعاد الانسانية تتجلى ، ويتيح تفتّح أخلاق جديدة ، ويلقي بالناس صوب الآخرين ، ويحقّق ، أخيرا ، هذه « الرابطة » وهذا الوفاق اللذين لا غنى عنهما في قرن أريد له أن تسوده روح الجماعة وأن يكون أصيلا أكثر فأكثر • واذا كان التحليل النفسي لا يزال يخيف بعض الناس ، فالسبب أنهم لا يخشون ما يأتي ، وانما ما يمضي •

انني أرفض ، في كتاب للتحليل النفسي ، أن يكون التأليف تأليفا « تبسيطيا » • فمثل هذا الأمر غير مطروح على بساط البحث في علم انساني هو على هذه الدرجة من الصعوبة في ايصاله الى الآخرين • ومع ذلك ، فالتحليل النفسي يزداد اتساعا وعمقا ودقة • انه يرتاد الفرد والمجتمع • وينبغي ، بوصفه كذلك ، أن يوضع في متناول الجميع • وعلى هذا النحو ، ينهل منه كل فرد ما يستطيع ، بحسب ما هو عليه ، أو بحسب ما يرغب أن يصير •

ومن المفيد ، على ما يبدو ، أن نرسم مخطط كتاب • ولكن مخطط ماذا ؟ هل هو مخطط الموجود الانساني الذي نسجنه في التعريفات ، وفي دروج تحمل لاصقات متعددة الألوان ؟

ومن المؤكد أنكم ستشعرون أحيانا بأنكم تقرؤون أفكارا مكررة ، ولكنها ستكون مسوّغة ، ذلك أننا لا نستطيع تحديد لانهائية الموجود

الانساني[1] •

ومن خلال هذا الكتاب ، سنرى الانسان الذي ينطلق لاكتشاف نفسه • وسنحاول ، بأخوة واحترام ، أن تتبعه في بحثه الشغوف عن كليته • وسنرى ضربا من التحليل العمقي ينبسط في خطوطه الكبرى • وسنرى كيف يدمّر الانسان نفسه وكيف يكتشفها • وسنرى أيضا كيف يجد نفسه غالبا للمرة الأولى في حياته • وسنراه من خلال ضروب خضوعه ، وإثميته ، ومشاعر الدونية لديـه ، وإخفاقه ، وتعجرفه ، ومازوخيته • وسنلاحظ الترسانة الهائلة التي يعرضها محاولا أن يتلاءم مع الواقع ، محاولة يائسة في بعض الأحيان •

فالى من يتوجّه هذا المؤلف ؟ إنه يتوجه الى جميع أولئك الذين يبحثون ، ويتألمون ، ويربون ، ويحاولون معرفة أنفسهم والمضي نحو أنفسهم ونحو الآخرين • وذلك ما يشكّل إذن عددا كبيرا من الناس الذين يمكنهم أن يرددوا الكلمات الرائعة ، كلمات هذه الطالبة الصبية : « أرغب في إجراء تحليل حتى أفلح في أن أحيا حياة سعيدة ، وأن أساعد مساعدة طيبة ، وأن أحب حبا خالصا ، وأن أموت وأنا مطمئنة البال » •

ذلك أن كل شخص يبحث عن نفسه بحثا شريفا يحوّل التحليل النفسي ، في نهاية المطاف ، الى ضرب من الانسانية العميقة التي لن يبقى بدونها غير التقنية ، لا علم النفس بالمعنى الأسمى للمصطلح •

بيير داكو

---

(١) من المؤكد أننا سنستعيد في هذا الكتاب بعض المعطيات التي تكلمنا عليها في مؤلفنا الاول: الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث (نشر وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق ، ٩١٨١ ، ترجمة وجيه أسعد) . ومع ذلك ، ستكون وجهة النظر مختلفة كل الاختلاف . فالمشكلات سنبحثها في هذا المؤلف من زاوية التحليل النفسي ، في حين أنها مبحوثة في المؤلف المذكور على نحو أكثر وصفية وعمومية . ومع ذلك ، فقد اشرت، لكي أتجنب التكرار ، الى الرجوع الى كتابي الاول مرات عديدة . وعلى الرغم من ان كلاً منهما يؤلف كلاً ، فان الكتاب الذي انا بصدد تاليفه يكمل الكتاب الاول .

المقدمة

وجهة نظر إنسانية النزعة ومسيحية

بقلم : جامون *

من المتعذر على وجه التقريب ان لا تثير قراءة هذا الكتاب مسائل ذات اهمية كبيرة . ألن تقلب – أو الا ينبغي أن تقلب – كشوف فرويد ، ثم يونغ وبودوان ، تصورنا للأخلاق والدين ؟ ان تبكيت الضمير لدى المجرم وشعوره بالاثم كانا يعدّان ، منذ العصور السحيقة ، على انهما البقية الاخيرة من كرامة كانت قد انحطت ، وخير أمل في ضرب من التجديد . ويعلم الناس كم يبدو المحلّفون ، في محكمة الجنايات ، حساسين للعواطف التي يعبّر عنها المتهم . والحال أن الشعور بالاثم ، في نظر المحللين النفسيين ، يتصف بأنه ، بالحري ، موضع اتهام .

ولقد رغب بيير داكو في أن يعرض هنا رد فعلي : رد فعل قارىء أول ، معنيّ ، منذ زمن طويل ، بالتحليل النفسي عن كثب ، ولكنه غير اختصاصي في هذا المجال ، قارىء أول يتصف بأنه ، فضلا عن ذلك ، مسيحي مقتنع .

ودور المحلل النفسي أن يصبح محل اللقاء : المحل الذي يمكن **للآخر** أن يلتقي بحقيقته . وليس لهذه المقدمة ، ولا للحوار الذي ينهي هذا

الكتاب(١) ، من مطمح آخر غير أن يمهّد للقاء بين مؤلف هذا الكتاب وبين القارىء ، ولكن على مستوى غير مستوى المجال السيكولوجي .

ولهذا السبب ، فان الملاحظات التي تلي لا تدّعي مطلقا صوغ حقيقة نهائية ، ولا التوضيح على أي نحو يتصف علم نفس الاعماق بأنه على وفاق مع الحقيقة . فلا يمكن لاي شخص أن يزعم بأنه يمتلك الحقيقة . بل بالعكس ، ان على الحقيقة أن تمتلكنا تدريجيا . ويبقى ذلك صحيحا بالنسبة الى المسيحي : فنحن لا نتصف أبدا بأننا مسيحيون . وبوسعنا ، على الأكثر ، أن نحاول بتواضع أن **نصبح** مسيحيين . كان ميغل دو إونامونو(*) يقول : « أي ايمان لا يشك ايمان لا حياة فيه » .

وعلى هذا النحو إذن ، ثمة رجل يحاول في هذه المقدمة أن يقول كيف يتصف بأنه مهتم ، حول بعض النقاط الاساسية ، بأن يدمج كشوف التحليل النفسي في تصوره للعالم وفي ايمانه ، آملا أن يرى القارىء في المقدمة مجرد دعوة الى الشروع بدوره في تأمل مماثل . ومن الممكن ، مع ذلك ، أن يفضي هذا التأمل الى نتائج مختلفة كل الاختلاف . ولكن « من يختلف عني ، في حضارتنا ، يغنيني ولا يسبب لي الغبن مطلقا » ، كما يقول سان أكزوبيري .

أولاً ــ هدف هذا المؤلّف

على الرغم من أن هذا المؤلف مكتوب بلغة يمكن للجميع أن يفهمها ، فانه ليس مؤلفا مبسّطا . وبيير داكو يؤكد ذلك ، والملاحظة تبدو لي أساسية .

لقد استبعد المؤلف ، عن قصد ، اداة علمية كاملة ، وهذه اللغة الحسنة الاعداد ، التي صاغها علم نفس الاعماق على غرار العلوم الاخرى

---

(١) انظر في نهاية هذا الكتاب تبادلا في وجهات النظر بين جامون وداكو .

(*) Unamino (Miguel) : كاتب اسباني عاش بين (١٨٦٤ ــ ١٩٣٦) . كان فيلسوفا ومؤلف محاولات تناولت جميع مشكلات عصره ، وكان روائيا وشاعرا « م » .

جميعها بوصفها أداة لا غنى عنها . ويرفض المؤلف أن يقتصر على تقديم فكرة تقريبية عن تحديد التحليل النفسي بوصفه علما وبوصفه تقنية . بل ان المفهوم ذاته ، مفهوم التبسيط ، بالنسبة اليه ، مفهوم ينطوي على الالتباس ، وعلى ضرب من الحط من قيمة العلم ، وعلى احتقار القارىء.

وغاية بيير داكو مختلفة كل الاختلاف : انه يريد أن يدخلنا في رؤية معينة للانسان والعالم ، وفي ضرب من الخط الانساني الذي يوشك عالمنا الحديث أن يبدعه لنفسه ، والذي يمثّل التحليل النفسي بعدا أساسيا من أبعاده . ذلك أن من المهم ان نشير الى أن هذا الاسلوب في **النظر** الى ما نحن عليه وفي **الاحساس** به **وتخيله وعيشه** ، هذه الوجهة النظر الجديدة وجدت تعبيرها في كثير من الصور الاخرى غير التحليل النفسي. فالفينومينولوجيا، وبعض اللاهوت الراهن ، والماركسية (بمعنى من المعاني على الاقل) ، وشتى الصور الفنية (في الادب والموسيقى والرسم) ، والرياضيات ، عبّرت عن هذه الرؤية الواسعة في مختلف قطاعات الوجود .

وثمة عبارتان يمكن أن تحدّدا هذا التصور الجديد للانسان والمجتمع: **انفجار النظام القديم وتاليف جديد** . فكما أن العلماء فتتوا الذرة ، وكما أن الرسامين فككوا صورة الواقع لكي يؤلفوا منها لوحة في منتهى التعقيد ، كذلك فرويد فجّر الحياة النفسية : ولكن هذا كان من أجل أن يجعل طاقة ، لا زالت مجهولة ، تنبجس منها ، طاقة أكثر فاعلية بما لا يقاس .

ولكي نقتصر على علم قريب من علم النفس كل القرب ، لا يبدو لي أن ثمة أفضل من هذه الصفحة ، لكاتبها **مرسيا إيلياد** في مؤلفه **مظاهر الأسطورة** ، ص ١١ ــ ١٢ ، في قدرتها على تحديد هذا الاتجاه ، **اتجاه الوعي** ، الذي يدعونا اليه التحليل النفسي . كتب مرسيا إيلياد ، مذكّراً بالتصرفات « البربرية » التي دمغت استقلال الكونغو ، يقول :

« ما يعنينا قبل كل شيء هو إدراك معنى هذه التصرفات الغريبة ،

وفهم السبب لهذه الضروب من المبالغات ولمبررها . ذلك أن فهمها يكافىء الاعتراف بها على انها حوادث انسانية ، وحوادث ثقافية ، ومن خلق الفكر ، لا على أنها طفح مرضي للغرائز ، وتصرفات همجية أو صبيانية . فليس ثمة من خيار ثالث : اما أن نسعى الى انكار مثل هذه المبالغات ، ونقلل من شأنها أو ننساها ، اذ نعدها حالات منفردة من « الوحشية » تختفي اختفاء كليا عندما تصبح القبائل « متمدنة » ؛ واما أن نكلف انفسنا جهد الفهم ، فهم السوابق الاسطورية التي تشرح مبالغات من هذا النوع وتبررها ، وتعزو اليها قيمة دينية . والاتجاه الاخير ، في رأينا ، هو الاتجاه الوحيد ، الجدير بأن نأخذ به . ففي منظور تاريخي ديني على سبيل الحصر ، انما يحتمل أن تتجلى تصرفات مماثلة من حيث هي حوادث ثقافية ، وأن تفقد خاصتها الشاذة أو الشنيعة ، خاصة لعب طفلي أو خاصة فعل غريزي على نحو صرف » .

وسلوكات الانسان المصاب بالعصاب ، المريض أو المنحرف ، تفتح لنا ، على النحو نفسه ، منظورات فريدة على ما نبحث عنه ، **جميعنا** ، في الاعماق . « فكثير من السلوكات الانسانية ، كما يقول بيير داكو في هذا الكتاب ، سواء كانت مجيدة أم مشوّهة ، مسحوقة أم « منحرفة الى حد الرعب » ، تمثل بحثا لاشعوريا واحدا : ايجاد السلام العميق ، والامن ، والوفاق مع الذات ومع الرموز اللاشعورية ، ومع بحث راشد عن الاله » .

وذلك ما يتصف بأنه ذو أهمية رئيسة اذا شئنا أن نتوصل الى « أن تتفجّر » الابعاد الانسانية . فلنقتصر على التفكير بالجنسية : « الاعماق السحيقة متطابقة ، سواء لدى رجل طفل يريد « العودة الى امه » ليجد عندها الغبطة مرة أخرى دون مشكلة ، أم لدى رجل حقّق قدراته الكامنة وجعلها منسجمة مع الطبيعة (الأم العظيمة !) انسجاما سعيدا »(*) .

(*) هذه العبارة واردة في الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب « م » .

ومن المؤكد أن هذه الجنسية ذاتها تتخذ عندئذ دلالة أوسع على نحو فريد . وأستشهد ايضا بيير داكو ، في هذا الكتاب : « بين جاك بقار البطون وبين العاشقين الابديين ، ليس ثمة غير فرق في المستوى . فجاك بقار البطون يبحث بصورة لاشعورية عن « العودة » الى جسم أمه **هو** ، لكي يجد فيه السلام السعيد مرة أخرى ، سلام ما قبل ولادته ، والاحساس بالابدية الذي يرتبط به . والعاشقان يعودان ، متشابكين ، صوب الاحساس بأبدية وسلام تم ايجادهما ثانية ، اذا كانا قد حققا اتحادهما على نحو صحيح بحيث لا يكوّنان سوى شخص واحد . انه الفرق بين مستوى طفالي بصورة كلية ومستوى الانجاز الراشد ، النادر جدا » .

ونود أن نشير الى أن الانتقال من مستوى الى آخر ينطوي على « تحوّل فجائي » حقيقي ، على فرق **نوعي** في اتجاهات الشعور . وهنا نستطيع أن نرى الآن كيف يتصف التحليل النفسي بأنه ذو علاقة عميقة بالدين . فليس بوسعنا ، من جهة ، أن نمضي نحو الآخرين الا في الحدود التي نتخلص بها من « الانوات المزيّفة » الطفالية . ومن جهة أخرى ، عندما نبلغ دائرة الدين ، فان الأنا الراشدة ذاتها ، **أنانا** ، هي التي ينبغي تركها بين يدي الرحمة الالهية . واذا كان صحيحا أن بامكان حتى أحد العصابيين أن يكون « ابن الرب » على نحو حقيقي ، فان ذلك انما يتحقق بقدر ما تكون لديه القدرة على تبنّي موقف حقيقي من هذا العصاب ذاته.

واذا كان العلم بالمعنى الصحيح للكلمة ، بلغته الاصطلاحية واجهزته المتخصصة ، لا بديل له مطلقا في اعداد هذا المذهب الانساني الجديد اعدادا **نظريا** ، فالامر مختلف كل الاختلاف عندما يتعلق بادخال انسان مشخص في منظور حياة جديدة . وبوسع لغتنا اليومية وحدها ــ تلك اللغة التي تدخل فيها طموحاتنا الاكثر غموضا ، وتلك اللغة التي « توافق بصورة وثيقة » ما نحن عليه واقعيا ــ أن تنقل مثل هذه « الرسالة » الى هذا المركز من الوجود ، المركز الذي يوجّه فكرنا وسلوكنا .

يضاف الى هذا ــ ووجهة النظر تلك لا يمكن اهمالها قطعا ــ انه كان بامكان لغة مباشرة ، وحدها ، لغة يسهل فهمها ، أن تتيح تهيئة القارىء ، على وجه الاحتمال ، الى أن يفكر بعمل سيكولوجي في الاعماق : اما لكي يفجّر « العقد » التي تغزو تدريجيا كل مجال وجوده ، مثلها مثل ورم سرطاني ينتشر على حساب العضوية ؛ واما على سبيل الاحتراز : فيمكن مثلا لزوجين يفكران بالطلاق أن يجدا في علم نفس الاعماق عونا لا يثمّن فيما يتعلق بمسلكهما الخاص والموقف الذي ينبغي أن يتبنياه بخصوص الاطفال ؛ أو ، أخيرا وببساطة ، بهدف القيام بمهمتنا الانسانية على نحو أفضل . ذلك انه لا وجود لراشد لا يبقى لديه بعض الاثر من صراعات تعود الى الطفولة أو الى المراهقة . ونحن نفترب دائما اغترابا قليلا أو كثيرا في المهمة التي تتصف بأنها مهمتنا . وأخيرا ، انها « حرية » مختلفة تلك التي ينبغي أن يتصرف بحسبها العازب والزوجان ورئيس المشروع ورجل الدولة . فكما أن علم الحمية يقترح نظاما غذائيا مختلفا للرياضي والعامل اليدوي والانسان المتفرغ للدراسة أو الدبلوماسي ، كذلك علم النفس يمكن أن يساعدنا على اكتساب هذه الحرية الداخلية التي تتطلبها المهمة التي أخذناها على عاتقنا .

وأخيرا ، يبرز التأكيد ، من خلال لغة المؤلف ، أن المحلل ليس تقنيا ولا يمكن أن يكون . والعلاقة التي تنعقد بين المحلل والانسان الذي يأتي صوبه تتصف بأنها ، بادىء ذي بدء وقبل كل شيء ، علاقة انسانية . ومن المؤكد ان في الخلفية علما حقيقيا وتقنية كاملة يبقيان : ولكن على المحلل أن « ينساهما » منذ أن يتصل بمريضه ، شأنه في ذلك شأن عازف البيانو الذي ينبغي أن « ينسى » كل تقنيته منذ أن يضع أصابعه على المجسة : هذه الاصابع التي كانت قد أصبحت ماهرة بسلالم الانغام التي لا يحصى عددها . والموسيقى هي الملكة الآن . وعلى هذا النحو ، فان العلاقة الانسانية وحدها هي التي تبقى في أثناء « جلسات » التحليل . بل أن ضروب صمت المحلل (وعلى وجه الخصوص ؟) ينبغي أن تكون انسانية .

ثانيا ـ الاخلاق والتحليل النفسي

١ ـ الاخلا قوالانا العليا

كتب بيير داكو في كتابه(*) هذا يقول : « ليس ثمة في علم النفس أخلاق بالمعنى الذي يفهمه الناس بصورة عامة . فالاخلاق في علم النفس هي الأنا العليا » . ونكون قد أسأنا فهم المؤلف اساءة تامة اذا استنتجنا من ذلك أن عالم النفس غير معنيّ بالاخلاق . وينبغي ، على العكس ، أن نؤكد بأن التحليل النفسي يمكن أن يقدم عونا لا مثيل له من أجل اعداد انسانية بصورة حقيقية ـ وأنا أتكلم على تحليل نفسي صحيح ، تحليل نفسي لا ينزلق في اللاانساني ، انزلاق يحدث اما لأنه يريد لنفسه أن يكون مجرد تقنية ، واما أن يتجاوز حدوده على نحو غير مشروع .

هذا القصد في اصلاح معنى المسؤولية وتألقه لدى الانسان يبدو بجلاء عندما يتكلم عالم النفس على دينامية الأنا العليا . (ان جزءا من الأنا اندمج ، خلال الطفولة والمراهقة ، بالاوامر والممنوعات الخارجية ، وتتصف هذه « المحرمات » منذئذ بأن لها فينا وجودا مستقلا على وجه التقريب) « بيير داكو » .

الأنا العليا ، إنها القانون

من المعلوم أن القانون الاخلاقي الطبيعي يقتصر على انه يصوغ بنية الواقع الانساني ، مثله في ذلك مثل القوانين الفيزيائية التي تعبّر عن بنية المادة . وفيما يخص القانون الوضعي ، فانه يوضح أي نمط من انماط الحياة شاء المتحد أن يعزوه لنفسه . ومثال القانون الطبيعي : الحياة الجماعية متعذرة بدون احترام مصلحة الغير . ومثال القانون الوضعي : يقرّر المتّحد المسيحي أن يمتنع عن تناول اللحم يوم الجمعة احياء لذكرى

(* العبارة ماخوذة من إحدى الحواشي في الفصل الرابع « م » .

موت المسيح . فالقانون ، على هذا النحو اذن ، يعبّر دائما عن واقع ، وصيغته الطبيعية في التعبير هي الفعل المضارع وليس الامر .

ومن المهم ان نشير الى أن القانون لا يمكن اطلاقا أن يغطّي الواقع برمته: أولا ، لان معرفة الواقع لدينا هي دائما معرفة قاصرة ومتنامية . ثانيا ، لأن اي قانون يتوجّه الى الجميع لا بد له من أن يهمل الجانب الوحيد ، الذي لا يوصف ، من الشخص الانساني . وهذا هو السبب الذي من اجله كان **على القانون** ان يتبدّل : ينبغي له أن يتبدل بمقدار ما نعرف على نحو افضل ما هو الانسان ، ووفقا لتطور المتحد . يضاف الى هذا أن على **القانون** ان يكون معبرا بعمق عن الفروق الدقيقة عندما يضفي الصفة الشخصية كل فرد على القانون العام بهدف دمجه في وضعه الواقعي ، بكل ما يحتويه هذا الوضع من غريب وما يتصف بأنه لا مثيل له .

والحال أننا نزّاعون بفضل سيرورة غريبة ، لأننا نخشى بصورة غريزية تلك المغامرة الكبيرة ، مغامرة **الحياة** ، الى ان نجعل من هذا **القانون** ، على نحو مستمر ، ضربا من الموجود الغامض جدا ، الذي نجعل موقعه فوقنا ، في البعيد ، والذي ينتهي ، في آخر المطاف ، الى أن يتوحّد بالاله . وعندئذ انما يبدل **القانون** أيضا من تصريف الفعل ، فيتخلى عن المضارع ، ويتبنى صيغة الامر : « ينبغي عليك » . وبدلا من أن يبقى **القانون** وسيلة (ضرورية) ليدخلنا في كثافة الواقعي كلها وفي متطلباته ، وبدلا من أن يبقى دعوة لكي نتلاءم باستمرار مع هذا الواقعي الذي يتصف دائما بأنه غير متوقع وسيّال ، فانه يصبح قاعدة الواقع عوضا عن أن يكون تعبيرا متواضعا عنه .

واحد أهداف التحليل النفسي الرئيسة أن يعيد الحياةالى هذا القانون الديكتاتوري ، والمصاب بالتصلب ، الذي يعبّر عن حالة متحجّرة الى الأبد ، لا عن دينامية .

الشعور المعذّب

وعندما يستحيل **القانون** ، على هذا المنوال ، الى اله كلي القدرة ، وقاض صارم ، كيف لا يشعر الموجود الانساني ــ الذي لا تزال أناه سريعة العطب وغير ذات قوام ــ بالرعب اذا أحس بأن في ذاته دافعا جنسيا يصعد، أو دافع كره لابويه على سبيل المثال ؟ في حين أن الابوين هما ، على نحو من الانحاء ، تجسيد هذا **القانون** ، تجسيده ذاته ! وهذا الرعب الذي تتعذر مواجهته ، يكبت حالا في الظلام . أما وقد أصبحت هذه العاطفة ، عاطفة الاثمية ، عاطفة غفلا ، فانها ستغزو السيرة كلها قريبا : من هنا منشأ الجمهور الكبير العدد من جميع أولئك الذين يعذبهم ويرهقهم شعور مرضي بعدم الجدارة ، واثمية معمّمة .

ونحن نرى السيرورة : فلكي لا يوجب المرء على نفسه أن يواجه وضعا شاقا الى حد كبير جدا ، يعترف لنفسه بأنه آثم بسبب كل شيء ، أي لا شيء . والتخلي أمام وضع يبدو مخيفا جدا (كره الأب ، على سبيل المثال) يتحوّل بالتدريج الى التخلي ازاء الحياة برمتها .

ودور التحليل النفسي أن يرافق هذه النفس المعذبة حتى أمام هذه « الجريمة الخفية » ، كما يرافق المرء طفلا في غرفة مظلمة ليبيّن له أن ليس ثمة شيء يخشاه . وهكذا فان الفرد يستطيع ، وقد عاش مجددا هذا الحدث المرعب وتحمّل تبعته ، أن يستأنف انطلاقته في الحياة بقلب غير مثقل ، وأن يقوم بالتبعات التي تنتظره .

السلام الكثيف لشعور ممتاز

ان اليهود ، الذين لم يكونوا بالتأكيد دون خطيئة ، والذين كان **القانون** القدوسي يسود حياتهم كلها ، كانوا فيما مضى قد حلّوا المسألة على طريقتهم . « ويضع هارون يديه على رأس التيس ويقرّ عليه بكل ذنوب بني اسرائيل ، وكل سيآتهم ، مع كل خطاياهم ، ويجعلها على رأس التيس ، ويرسله بيد من يلاقيه الى البرية ، ليحمل التيس عليه

كل ذنوبهم الى أرض مقفرة ، فيطلق التيس في البرية (لاويين ١٦ ، ص١٤٢ من الكتاب المقدس)(*) . فموسى كان حقا عالم نفس كبير . ولاسيما أن هذا الطقس يمثّل خطوة واسعة الى الامام بالنسبة الى التضحيات الانسانية التي كانت تمارسها القبائل المحيطة باسرائيل في ذلك العهد » .

وهذه الحاجة نفسها ، حاجة أن يعزو المرء الى الغير خطأه الخاص ، هي التي تحرّض في أيامنا هذه تلك الصحف التي تدفعها بصورة منتظمة حاجة الى السخط . وتحرض الجمهور الجاهز دائما الى انزال العقوبة بـ « مجرم » . وتحرض هذا المعادي للكهنوت الذي يرى أن الكنيسة أصل جميع الشرور التي ترهقنا . وتحرض هذا الكاثوليكي الذي يكشف في كل مكان عن ظل من نزعة الحداثة ، وعن بعض من دسائس الماسونية أو عن جواسيس موسكو أيضا .

والتحليل النفسي يفجّر هذا الوجدان المزيّف . فهو يردّنا الى واجبنا الواضح ، ويعلّمنا أن نجعل المسؤوليات ، التي هي مسؤولياتنا ، تقع على عاتقنا .

ما وراء القانون والأنا العليا

القانون (الأنا العليا) يصنعه الانسان الذي يبحث عن ذاته . ودور القانون هو دور دماغ باحث طيلة هذه المغامرة المترامية الاطراف ، التي هي تاريخ الانسانية . ولكن المهم ليس القانون ، وانما الانسان .

المهم هو الانسان الذي بدأ تاريخه مع بداية أصول الحياة ، والانسان الذي لم يكن سوى **ممكن** في العصر الجوراسي ، والانسان الذي أصبح **محتملا** بظهور القردة ، والانسان الذي ما أن « أبدع » حتى كان عليه أن يخترع بدوره حياته الخاصة : اللغة والنار والادوات والكتابة ، والانسان الذي ينبغي له في أيامنا هذه أن يخلق المتحد العالمي الكبير ، وربما الكوني .

(*) جمعيات الكتاب المقدس في الشرق الادنى ، بيروت ١٩٧٦ .

وكان **القانون** (الأنا العليا) ، دائما ، هو الذي يسجّل القفزة التي كان الانسان يقفزها الى الامام .

ولكن ، اذا كان السير الى الامام يظلّ ممكنا ، فذلك على وجه الدقة لان الانسان ، بالقياس الى هذا القانون ، أغنى بكثير دائما . ويصبح ولاؤنا للقانون خيانة عندما نرغب ، بفعل السأم والخوف من المغامرة ، في تحنيط هذا القانون (وهذه الأنا العليا) والادعاء بأننا حدّدنا المطلق .

والمرمى الاخير للتحليل النفسي أن يحرّر منابع الحياة، منابع ابداعيتنا، وأن يخلصها من الوحول ، لكي يكون بوسع الانسانية دائما أن تمضي الى الامام . وليس من قبيل المصادفة بالتأكيد ظهور التحليل النفسي عند يونغ في الفترة التي انطلقت المشكلات الانسانية بالمعنى الصحيح للكلمة انطلاقة فريدة في تاريخ الانسانية ، في الفترة التي كانت تبرز النزعة الى توحيد جميع الكنائس بصورها المختلفة ، أي الرغبة بالحوار الحقيقي : العناية بالثنائي ، ودينامية الجماعة ، والتفاهم بين الشعوب والعروق والمتحدات الدينية .

أكلّ هذا الوحل يحرّكه التحليل النفسي ؟

كان بول ريكور قد كتب عام ١٩٤٩ يقول:« ثمة في الفرويدية ، بالنسبة الى الوجدانات الضعيفة ، شيء ساحر يعبّر عنه نجاحها العالمي خير تعبير « (**فلسفة الارادة** » منشورات أوبيه) . انها ولاريب تجربة طريفة جدا أن يشهد المرء ، بوصفه مراقبا ، محاضرة عامة يحاول فيها احد الاختصاصيين أن يشرح الآليات الدقيقة ، التي تثير عصابا وتتعهده بالرعاية ، لمن يجهلون التحليل النفسي ، ثم يشرح لهم سيرورات علاج التحليل النفسي .

ويصير جو الصالة مريحا وغير متوتر ، فيما يتكلم عالم النفس على هذه الحتميات الداخلية التي تحكم في الاغلب سلوكنا : فكل مستمع من المستمعين يمسك عابرا ، والخطاب مستمر ، تفصيلا معينا يشرح له ،

أو يعتقد على الاقل انه يشرح له ، بعض السلوكات وبعض ردود الفعل التي كانت تبدو له حتى ذلك الحين غير مفهومة بصورة كلية . ويندر أن لا يسمع المرء ضربا من « أوف » الانفراج تصدر من هنا وهناك . ذلك أن المستمعين لا يفوتهم تأويل هذه التحليلات كما يلي : « ولكن لا ، انك غير مسؤول عن هذه الحركات العبثية ! » فشرح تصرف من التصرفات الانسانية ، انطلاقا من دافعيات سيكولوجية أو من حركة ردود الفعل الهرمونية ، سيان في رأي من يجهل التحليل النفسي . ونحن ، على أي حال ، لسنا مسؤولين (في اعتقادهم) ، وذلك لا يمكن الا أن يروق لخوفنا أمام الالتزامات الشاقة التي تتطلبها الحياة .

ثم يحس المرء ، احساسا يكاد يكون ماديا ، بأن صمت الصالة أصبح صمتا ثقيلا ومتوترا منذ أن يتناول المحاضر من عرضه الجزء الثاني ، أي منذ أن يتناول غشيان المحارم والغائط (ايها التهوين (*) الرائع !) والخصاء وتمنيات الموت : ولم يعد الامر ، في هذه المرة ، ضربا من اللعب ، بل ثمة اطاحة بالمحرمات . ويحس الحاضرون بقشعريرة خفيفة تدبّ على طول فقار الظهر وهم يفكرون (بصورة مبهمة جدا) بما يمكن هم أنفسهم أن « يخرجوا » لو كان عليهم ، بدورهم ، أن يتمدّدوا على الديوان . فكل هذا الكتب ، وهذه الضروب من التفريغ (تعبير بالكلام يرافقه الانفعال عن تصورات جنسية وعدوانية كانت شحنتها الانفعالية قد خنقت) ، تبدو وكأنها تقيؤ .

وليست خاصة من الخصائص الدنيا لهذا الكتاب أن يكون الجو الذي ينتشر على طول هذه الصفحات مختلفا اختلافا جذريا ، وأن يتيح لنا هذا الكتاب اكتشاف معنى الحياء الحقيقي من خلال العدد الكبير من مستخلصات الجلسات التي عرضها علينا ، بالرغم من أن المؤلف يسمي الاشياء بأسمائها دائما .

(*) التهوين : استعمال مجاز ملطف في مكان كلمة أو عبارة موجعة أو بغيضة . مثال ذلك ذلك « لفظ أنفاسه الاخيرة » بدلا من « مات » . وقس على ذلك استعمال « غشيان المحارم والغائط » « م » .

« الحياء ، كان مونيه قد كتب على نحو رائع يقول ، يشغل موقعا بالنسبة الى التقزز شبيها بالموقع الذي تحتله الحفاوة بالنسبة الى رفض الغير . انه ضرب من التراجع ، ممزوج ببعض الخشية ، ولكن حركته تحمي أكثر مما ترفض . والحياء ، بوصفه عكس النزعة الطبيعية الى الظهور ، هو الوزن المقابل الطبيعي الذي يمسك باضفاء الخارجية على حدود التلقائية وبالتواصل على حدود التشوش ... فأن يرى المرء أو ان يُرى ، كذلك أن يلمس أو أن يُلمس ، أمر يتصف في جميع الاديان بأنه مقدس ، لانه يمنح ضربا من التعالي ... والحياء الحقيقي يرعى أبواب ضرب من المقدس . انه ، بوصفه كاهنا لا بوّاب بناية ، غير بخيل ، وغير عبوس، ولا عنيف كالتصلب البوريتاني(*) . ولا يرفض، بل يتحفظ . وفي مرونة حركته من الحفاوة بقدر ما فيها من الانسحاب ، وفيها أكثر من انذار ، ان فيها دعوة الى وقار أسمى . والحياء يتميز من هذه الضروب من الحياء الزائفة ، المتعجرفة والمرضية ، التي تتسم بأنها أصناف من التعويض المغالي لحساسية عطوب الى حد الافراط ، تعترف بسرعةعطبها بواسطة السرعة التي تنهار فيها ، من وقت لاخر ، انهيارا مفاجئا ، كما تنهار جميع الزخارف . » (**المطول في الطبع** ، ص ٤٩٢ .)

ولماذا هذا الاختلاف في الجو الذي يرافق كثيرا من هذه المؤلفات التي تعالج التحليل النفسي ، كهذا المؤلف ؟

السبب في ذلك ان بيير داكو تلميذ يونغ وبودوان . وهو معجب على على نحو عميق بالكشوف الفرويدية المبتكرة . ولكن ثمة لديه خلفية كاملة من الرموز الرائعة تتدخل « فتعالج » كلا من ردود الفعل الجنسية أو العدوانية لدى المريض ، معالجة في اتجاه مختلف كل الاختلاف .

ومثال من الامثلة يجعل ذلك مفهوما على نحو أفضل . فمن المعلوم أن الرغبة في العودة الى رحم الام تتخذ ، على نحو يسير ، شكلا يتصف

(*) المذهب البوريتاني : مذهب قوامه عبادة التوراة والايمان بالقدر السابق ، ويعتمد على القوانين الاخلاقية الصارمة « م » .

بانه في منتهى الوضوح والمادية لدى المريض : ضع ذلك في صور لفظية تحصل على مشهد يتخذ طابعا يصعب احتماله بالنسبة الى حساسية أريد لها أن تكون انسانية . ولا ينكر يونغ اطلاقا وجود مثل هذه التصورات الخيالية . ولكن صورة جنس الام ، في رأي يونغ ، ليست سوى تجسيد لصور أخرى أكثر اتساعا وأكثر عمقا بما لا يقاس : ذلك ان أمنا من لحم ودم تجسّد نمطا أوليا كليا .

أو في المثال الآخر : عندما يسقط أحد المرضى ، الذين تستحوذ عليهم عقدة الخصاء ، احباطه على المحلل النفسي ، فانه يحسد هذا الرجل الذي يبدو له قويا كل القوة ، وهو يحسد فيه آلة هذه القوة : جنسه وعضوه التناسلي . فاذا لم نذهب الى أبعد من ذلك ، فان تفريغ المريض (وشرح المحلل الذي ينبغي أن لا ننساه) يتخذان مظهرا كريها الى حد ما ، ووقحا بالمعنى الاصلي لهذه الكلمة . أما من وجهة نظر يونغ ، فان الامر يمضي على نحو مختلف كل الاختلاف ، ذلك أن الجنس المذكر هو التجلي الأقرب الينا ، تجلي النمط الاولي **للأب والإله** (أي لهذه الخلفية التي تغيّر وجه كل حركة من حركاتنا ، فاضلة كانت أم منحرفة ، تغييرا بصورة خفية).

وقد فهم يونغ أن هذه الاندفاعات الجنسية أو العدوانية تخفي ضربا من « التعالي » . ومن المؤكد أن هذا التعالي نسبي ، وسنقول فيما بعد ان من المضحك أن ندّعي توحيد الانماط الاولية بالوقائع الدينية بالمعنى الصحيح للكلمة . ومع ذلك ، فان الجنسية والعدوانية لم تعد تبدوان ، بفضل الانماط الاولية ، على أنهما منظومة مغلقة بحصر المعنى على ذاتها ، بل على انهما واقع مفتوح على الاستطالات الروحية والدينية .

ونستطيع منذئذ أن نكرر قول باسكال أمام أسوأ الانحرافات : « جميع ضروب الشقاء هذه تبرهن على عظمته (عظمة الانسان) . انها تعاسات السيد العظيم .. » .

ثالثا ــ التحليل النفسي والدين

١ ــ الإثمية العصابية ومعنى الخطيئة

مجرد الاعتقاد بأن التحليل النفسي يمكن أن يضع مفهوم الخطيئة موضع التساؤل ، حين يشرع في مهاجمة الاثمية العصابية ، واقعة تبيّن تماما الى أي حد يمكن لمعنى الخطيئة المسيحي أن ينحطّ مقامه أحيانا . وليس في وسعنا ، هنا ، الا أن نقترح على القارىء بعض الموضوعات للبحث والتأمل .

نحن لا نعرف خطيئتنا الا بمقدار ما نعرف الله ، أعني الا بمقدار ما يتجلى الله لنا ، وبمقدار ما نتجلى نحن لأنفسنا . فليس ثمة خطيئة الا بالنسبة لله . « انني أخطأت تجاهك وحدك ، وأمامك يا الهي انما فعلت الشر » ، رتل صاحب المزامير .

والبحث عن الوجود يقود الآن الى ضرب من الماوراء ، الى انت المطلق . ولكن هذا الاله يظل مجهولا ، انه يصمت . وعندما يكون الانسان مكرها، وهو يتحاور مع ذاته في الحالة التي يبلغ فيها وجدانه أقصى يقظته ، على أن يلاحظ أنه يجعل من حياته ،في بعض الفترات ،ضربا من المحاكاة التهكمية للحب ، فهو في الحقيقة لا يعترف على هذا المنوال بخطيئة ، وانما ، بالحري ، يعترف بخطأ تجاه نفسه وتجاه المتحد . وبوسعنا التكهن ، على الأكثر ، أن هذا التواطؤ الأصم ، فينا ، مع الفوضى ، يتخذ جدية مطلقة اذا صح القول .

ففي الدائرة المسيحية انما تتخذ الخطيئة كل بعدها . فيسوع ، الحب اللانهائي يصنع انسانا ، مات من أجل خطيئاتنا . كذلك فان :

ــ **الخطيئة موضوع ايمان** ، شأنها شأن الحب الذي يحمله الله لنا وشأن استجابتنا لهذا الحب .

ـ الخطيئة ، موضوع الايمان ، لا يمكن أن تكون موضوع تجربة مباشرة ؛

ـ الشعور بخطيئتنا ليس سوى الجانب الآخر من حبنا للاله ؛

ـ الشعور بالخطيئة نعمة منحناها في البرهة التي منحنا الحب ؛

ـ الشعور بالخطيئة يقين بالغفران في الوقت نفسه ، وهو يجلب السلام ؛

ـ الشعور بالخطيئة صورة من صور الصلاة .

الإثمية العصابية	المعنى الحقيقي للخطيئة
ـ الانتباه مثبت على الانا	ـ الانتباه مثبت على الغير ، على الله.
ـ تحس « الأنا » بأنها في خطر	ـ اهتمام بالشر الموجّه للآخرين وبالاساءة الموجهة لله
ـ اهتمام متشنج ب « طهارة » المرء الخاصة	ـ نسيان الذات
ـ عودة لا محدودة الى الماضي	ـ اعتقاد بغفران الله
ـ الاثمية تتجه على وجه الخصوص الى الافكار والرغبات	ـ رفض لكل داخلية وسواسية « انني أسكن في أفعالي »
ـ روحية خيالية	ـ روحية مشخصة جدا
ـ هجوم على الغير بلون الفضيلة	ـ حفاوة وفهم
ـ حسد خفي	ـ اتجاه نحو الآخر بما هو آخر
ـ أولية القانون	ـ أولية الحب
ـ خوف من العمل خشية الدنس	ـ الحب التزام كلي
ـ خوف من الغير	ـ الغير منبعي

وعلى هذا النحو ، تتصف المشاعر المرضية للاثمية بأنها نقيض معنى الخطيئة الحقيقي . وعلم النفس ، اذ يستبعد هذه الاثمية المزيّفة وينظّف **الخطأ** ، يمهّد الدروب لديانة صحيحة .

٢ ـ الاعتراف والإثمية العصابية

ليس ثمة ما يدهش اذا كان ضرب من الاثمية المزيفة يلوّث على الغالب سر التوبة ويحوّله الى ممارسات شكلية ، سحرية وفيتيشية(*) .

ان **اكراها على الاقرار** ، غير ذي صلة بالندم الحقيقي ، يمكن ان يكون سبب بعض الاعترافات ، وبخاصة عندما تكون الاخطاء ذات علاقة بالمجال الجنسي . فسر التوبة ليس مخرجا بوسعنا أن نلقي فيه بالوزر الذي لا يحتمل ، وزر بعض الاثمية . وعلى أي حال ، يؤدي المعرّف اسوأ خدمة للتائب ، حتى على المستوى الديني بالمعنى الصحيح للكلمة ، اذا اشترك في هذه اللعبة ، واذا حسب أن بعض الشكاوى من الاستمناء ، وبعض الحركات من الجنسية المثلية ، وبعض الرغبات في القسوة ، لدى أحد المراهقين ، أمر « خطير جدا » . فليست هذه سوى أعراض ،والمشكل في جانب آخر .

خصّص القديس توما الاكويني مقالا كاملا من كتابه **المجمل** ليبيّن ان امكان تسمية الخطيئة ب **دنس النفس** انما هو ، على سبيل الحصر ،بمعنى أنها تفسد رؤية العقل والايمان . فكثير من التائبين يشعرون بالدنس ، على نحو مختلف كل الاختلاف ، من أخطائهم ، ويشعرون بأنهم غير جديرين بتناول القربان المقدس .

والندم الذي يقتضيه سر التوبة مختلف عن تبكيت الضمير (الحديث): اسف عبث على الماضي وجرح عاطفي صلف . فالماضي ينبغي قبوله والاضطلاع به ، بوصفه تجربة متجهة نحو المستقبل ، ومفعمة كلها

(*) الفيتيشية مشتقة من الفتيش ، وهو شيء مؤله معبود لدى القبائل المسماة بدائية (أصنام). والفتيش شيء يعزو اليه بعضهم ضربا من القدرة على جلب الحظ والسعادة. فالفيتيشية هنا ضرب من عبادة الاصنام . ولهذا المصطلح مدلول في علم النفس ، ننصح لفهمه بالرجوع الى « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » « م » .

بالامل ، حتى ولو كانت اخفاقا . ويصبح الندم كذبا عندما نعد باننا « لن نستأنف أبدا » ، في حين أننا نعرف أنفسنا عاجزين عن أن نتغير ، في اللحظة الحالية على الاقل . والوعد بالعمل على جعل مسلكنا سليما بالتدريج ، أمر يختلف كل الاختلاف . فهذا المفهوم ، مفهوم تبكيت الضمير ، أصبح الى هذا الحد من اللبس بحيث أن اللاهوتي كارل راهنر كتب يقول : « ربما سيكون أمرا حسنا لو أن الناس يتجنبون استخدام كلمة ندم خلال ما يقارب الخمسين عاما . ذلك أننا نفهم بسهولة قصوى من كلمة « ندم» أسفا ، ورغبة ليست ذات أهمية كبيرة ، على أن الاشياء كانت مختلفة ، كما لو أننا نكابد الاسف على أشياء نتمنى لو كانت مختلفة ، في حين أننا لا يمكننا تغييرها اطلاقا . »

والمسيحية الواضحة والقوية تذكّر أول الامر بأن تعبيري « اعتراف المرء بايمانه » و « اعتراف المرء بخطيئاته » متوازيان . فالاعتراف هو تأكيد ايماننا بأن الله يحبنا ، **قبل** أن يكون الاقرار بشقائنا . ولا يمكن لهذا الاقرار أن يكون مشحونا بالخزي : فالخزي يبدو بمقدار ما يكون الحب غائبا . ومن المؤكد أن علي أن أضطلع بأفعالي مع النتائج التي تترتب عليها : ولكن الله لا يدينني ما دام يحبني . فالاعتراف ينبغي أن يكون قبل كل شيء **تسبحة البتول(*)** ، وصيحة شكر وحب .

فلماذا نتجه الى انسان في الاعتراف ؟ ولماذا لا يدمدم كل منا ، ربما وهو راكع ، بكل ذلك وحيدا أمام الرب ، ولكن في خبيئة قلبه ؟ أن المعرّف يمثّل المتّحد . « وليس ثمة سلام خارج الكنيسة ! » . ولا تعني هذه الصيغة الرائعة أن أولئك الذين لا يشكلون جزءا من الكنيسة الكاثوليكية تائهون الى الأبد . بل يعني أن ليس بوسعنا انقاذ أنفسنا وحيدين . فنحن بحاجة الى جميع اخوتنا . فسر سلام المسيح ، سره العجيب ، يأتينا من خلال الآخرين (كاثوليك وغير كاثوليك) . وليس بوسعنا أن نخرج من شقائنا الا بالاندماج بالمتحد الذي نشكل جزءا منه ، اندماجا تدريجيا .

(*) « فليعظم نفسي الرب » .

ومثال ذلك أن الزوجين انما يستطيعان تحطيم حلقات الشر المفرغةعندما يعيشان علاقاتهما الزوجية على نحو افضل ما يمكن ، وعندما يصبحان أكثر قربا وأقل غربة . فليس بالهرب أبدا ، وليس بلجوئنا الى عزلة صلفة ، وبالتالي مذعورة ، انما نستطيع الخروج من مستنقعاتنا . فليس ثمة غير خطيئة واحدة : رفض الحب ، رفض الآخر .

رابعا ـ الأنماط الأولية

لنختر ، من هذا المؤلف ، فقرتين يمكن أن تظهرا على وجه الخصوص أنهما « تجرحان الاحساس » .

● ـ **الاولى حول موضوع الحب الانساني** : « ونكتشف على هذا النحو دلالة امثال تريستان وايزولد (*) ، وروميو وجوليت ، وامثال دون جوان الذين كانوا يبحثون عن **ال** مراة بصورة يائسة . **وتعتقد** هذه الشخصيات أنها تحب الآخر ، في حين أنها تبحث عن **نفسها** من خلال الاخر ، وتحاول ان تصبح كاملة مرة ثانية (رجلا وامراة معا) . فنقع هكذا على عاشقين ـ لا يؤلفان ـ غير ـ شخص ـ واحد ـ ويمضيان ـ متحدين ـ في ـ الموت ، في ضروب الحب المتعذر المحرم (كالحب بين الاخوة والأخوات ، اليائس على الغالب والمأساوي) «الفصل الثالث عشر» .

● ـ **والفقرة الثانية حول موضوع الدين** : « كان آدم يريد ان يصبح قويا وقادرا قوة رؤساء القبيلة وقدرتهم (اذا تم اسقاطهم « الى أعلى » كانوا بمثابة اله) . فاكل ثمرة شجرة (شجرة المعرفة) . وهو اذ يفعل ذلك ، فانه يأكل **الاب** (من الناحية الرمزية) لكي يصبح مثله

(*) تريستان وإيزولد أسطورة من أساطير العصر الوسيط ، ولها عدة روايات فرنسية وغير فرنسية . شرب تريستان وإيزولد من شراب سحري ، فاحب احدهما الاخر حبا ابديا وحتميا . فلم يستطع اي شيء ان يفصل بينهما ، لا ضروب الاضطهاد التي مارسها عليهما زوج إيزولد ، الملك ، ولا المكائد . وبقيا متحدين حتى في الموت « م » .

(لا يقهر ، قادرا) . ان ذلك اذن ضرب من أكل لحم البشر ومن قتل الاب ، مع يرافق هذا من الاثمية المترامية الاطراف التي تنشأ منه . ونجد مجددا ، من جهة اخرى ، هذا الطقس من أكل لحم البشر في القربان المقدس (أكل القربان ←── أن يكون الإله في ذات المتناول ←── أن يصبح قويا كالاله) « الفصل الثالث عشر » .

لماذا كانت هاتان الفقرتان « تجرحان الاحساس » ؟ لاننا نشعر بأن المؤلف يكشف عن أن الحب والدين ليسا سوى أوهام . فبين السطور المطبوعة ، نظن بأننا نكشف عن نص آخر ، نص ريبي وهدّام . ولكننا اذا قرأنا الفصل الذي يخصصه بيير داكو للانماط الاولية ، قراءة هادئة وفطنة ، نقتنع سريعا بأن قصد المؤلف ، وقصد علم النفس التحليلي ، ليس نسف الحب الانساني والدين على الاطلاق .

والهدف مزدوج : ١) أن يكشف عن حب انساني **مزيّف** وعن دين **مزيّف** ؛ ٢) أن يبيّن كم هو أساسي أن يكون نور الأنماط الأولية غير باهت حتى يكون بوسع الحب والدين أن يزدهرا على نحو صحيح .

فالمجنون هو شخص فقد كل شيء باستثناء العقل، يقول شسترتون(*) .

وفي التجربة الدينية كما في الحب ، نلمس حضورا يتصف معا بانه يغزونا ويتجاوزنا . والامر هو على هذا النحو ، من جهة اخرى ، كلما اتصلنا بالواقع . وهذا الواقعي ، الذي ندخل في تواصل معه ، حاضر بالنسبة الينا بالتأكيد ، ولكنه ينبغي في الوقت نفسه ان يظل **الاخر** ، اي المجهول والسر الغامض والذي لا ينفد . ويسفر لنا ضرب من الحضور في المعرفة والدين والحب . ولكن هذا الحضور يبقى في الوقت ذاته محجوبا لانه يمتد الى ما لا نهاية . ولن ننتهي أبدا من كشفه .

(*) شسترتون (جلبرت) : كاتب انكليزي ولد في لندن (١٨٦٤ ـ ١٩٣٦) ، روائي فكاهي وصاحب محاولات « م » .

ولهذا السبب ، فان من المحتم أن يكون الى جانب الافكار الواضحة ، والمحددة تحديدا جيـدا ، التي تعبّر عما أدركناه من هـذا الحضور ، « صور » و « رموز » تتصف بأنها شبيهة بحبل السرة والرحم الـذي تتوالد فيه أفكارنا الواضحة .

وعظمة يونغ تكمن في أنه اكتشف الانماط الاولية في أعماق هـذا الكون الذي هو حياتنا ، تلك الانماط الاولية الشبيهة بضروب سديم الكون النجمي التي تنشأ منهـا شتى مجموعات الكواكب . فالانمـاط الاولية انما هي **الوجود** الذي يبدأ الان في أن يجعل من نفسه موضوعا . انه المادة الاولى لافكار المستقبل . وهو كتلة الخشب الخام التي يمكن أن تصبح بين يدي العامل أثاثا أو تمثالا أو رمحا . ولهذا السبب ، ليس ثمة ما يدعو الى الدهشة أن نلقى ، في أصل الظاهرات الدينية ، تلـك الانماط الاولية نفسها والرموز ذاتها التي نكتشفها في أصل تجـارب انسانية اخرى ، كالحب ، والحياة الاجتماعية ، والفن ، الخ .

وبوسعنا الآن أن نفهم عبـارة شسترتون . فالمجنون شخص يدّعي صنع أثاث دون أي مادة أولية ، يدعي صنعه بمجرد الصورة . انه ذلك الذي يريد أن يبدع أثرا فنيا ، منطلقا من لا شيء . والمجنون هو ذلـك الذي بنى حائطا يفصل بين عقله وبين الانماط الاولية التي يمكـن لهـا وحدها ، في قاع وجودنا ، أن توصلنا **بالواقعي** وأن تمنح محتوى لافكارنا .

ومن وجهة النظر هذه ،لنقرأ الجمل « الكارثية » : القربان المقدس صورة من صور أكل لحم البشر . وأكل القربان ⟵ أن يكون الله في ذات المتناول⟵أن يكون قويا قوة لله . أو أيضا : خطيئة آدم هي (من الناحية الرمزية ، ومن خلال واقعة أكل ثمرة الشجرة) ضرب من أكل لحم البشر وقتل الاب .

وليس ثمة في ذلك أي محاولة لارجاع سرالقربان المقدس الى طقس بدائي لاكل لحم البشر . ولا يريد المؤلف مطلقا أن يؤكد أن خطيئة آدم ترتدّ الى محاولة وحشية من أكل لحم البشر وقتل الأب . ويقول المؤلف

ببساطة ان طقس القربان المقدس و « أسطورة » (بالمعنى القوي للكلمة) الخطيئة الاصلية يؤلفان نمطين أولين ، أعني يؤلفان **رمزين متعددي الدلالة ، يتضافر في تحديدهما عدد كبير من الشروط ، ومفتوحين على دلالات اسمى فاسمى** . ولكن علينا أيضا أن نحذر من نفي الدلالة الاكثر تواضعا ومن نفيها مجددا . فنحن لسنا ملائكة .

وثمة هنا تذكير رفيع القيمة لمن يريد أن يعيش دينا أصيلا . فالدين يبلغنا كما نحن ، وحتى في أساسنا البيولوجي . والى قعر ذواتنا يتطلب لغز السلام أن يغزونا . وأرى هنا عبرة مزدوجة . أولا ، ثمة خطر حقيقي بالنسبة لكل مسيحي ، خطر التراجع ، خطر حقيقي من أن يعيش الاسرار على مستوى بدائي جدا . فمن يجرؤ على الادعاء ، مثلا ، بأن بين أولئك الذين يتناولون سر القربان المقدس ليس ثمة من يجعلون منه ضربا من الطقس السحري ، متوهمين أن تناول القربان سيمنحهم ، **بصورة آلية** ، قوة يفتقرون اليها ليحسنوا قيادة وجودهم ، ودون أن يكون عليهم أن يبتكروا حياتهم ؟ تلك هي العبرة الاولى : فنحن مدعوون الى تطهير مقاصدنا العميقة . والعبرة الثانية هي أن بلوغ معنى الاسرار الاسمى يتطلب منا عملا حقيقيا . وسأحاول أن اقول ، في الفقرة التي تلي ، أي نوع من العمل يتطلب .

بيد انني اود ، أول الأمر ، أن أؤكد بأننا ينبغي لنا ، من وجهة النظر هذه ، أن نروز بعض الارتباطات التي تبدو عبثا بسهولة : عندما ، على سبيل المثال ، يرى علم النفس نمطا أوليا واحدا (**المنقذ**) تحت وقائع متنافرة تنافر المسيح والصحون الطائرة وهتلر . ولكن مثل هذه التأكيدات تعني ، على سبيل الحصر ، أن تجربة تناهينا ، أي تجربة عجزنا الجذري عن أن ننقذ انفسنا بأنفسنا ، ستدفع الناس جميعا الى أن يبحثوا لانفسهم عن منقذ . فمن سمع كلام يسوع ، يبحث عن سلامه في الايمان . ولكن الجمهور الذي تم تحريضه على التعصب سيصيح « يحيا هتلر ! » ويضع البخيل كل أمله في المال . ومن المثير بصورة فريدة أن يرى المرء طموحا ، بهذا المقدار من العمق في صفته الانسانية ، ينحرف على هذا النحو .

الأنماط الأولية والطقوس

لا يمكن للانسان أن يستغني عن الطقوس ، لان **الانماط الاولية** (الرموز) موجودة في قاعدة كل حياة انسانية . وهو لا يستغني عن الطقوس أيا كان بعد الوجود الذي ننظر اليه : العلاقات الاجتماعية وعلاقات الحب والحياة الدينية .

ودراسة بول ريكور حول علم التأويل (تفسير الرموز) مفيدة في هذا الأمر . ان الرموز العظيمة ، يقول بول ريكور ، تعبّر في الوقت نفسه عن خفايا رغبتنا وعن المرمى الاساسي لوجودنا . انها الوجوه العظيمة للرغبة الانسانية ، وهذا هو السبب الذي من اجله تغوص الرموز في ما يتصف بأنه أكثر نكوصا فينا ، ولكنها في الوقت نفسه ، تستخدم هذا النكوص لكي تكشف عن امكاناتنا . انها تجعلنا نعيش طفولتينا مجددا (طفولتنا الفردية وطفولة الانسانية) وتسقط امكاناتنا في الوقت ذاته . وهذا هو السبب الذي من أجله أيضا ثمة ، في الرموز ، ضرب من قلب اللغة . « أقول ان على المرء أن ينتقل تقريبا من لغة محكية ، لغة نتكلمها **نحن** ، الى **لغة موحية حيث يتجه الوجود الينا** ... وليس هذا ببساطة ضربا من المفتاح الذي نستخدمه لكي نفتح ، ولكنه **الوجود ، بالحري ، الذي يفتحنا بمفتاح اللغات الرمزية** » .

ولهذا السبب **لا جدوى من تأمل الرموز فكريا** ، ولا من دراستها فكريا ومن الخارج : ولا بد من الاعتقاد بها ، ولا بد من أن نعيشها ، لكي نفهمها .

وليس الطقس شيئا غير رمز من الرموز أو نمط أولي معاشين .

اننا انما ندخل في الشعر بطقس حقيقي . والموسيقا طقس تعزيمي . والمداعبات الغرامية طقوس حضور . والاسرار طقوس تجعل الله حاضرا .

أن المذهب العقلاني انحدر وجمّد علاقة العاشقين بسبب احتقاره طقوس الحب ، وبسبب انفصاله عن الطقوس الحية والمعاشة . وهي نزعة عقلانية واحدة تلك التي تأمر باهمال الممارسة الدينية ، واهمال الاسرار المقدسة .

وبفعل ضرب من القلب الغريب ، نرى على هذا النحو أن هذا التحليل النفسي ، المنحط القدر كثيرا في بعض الاحيان وموضع الظن لكونه يعادي الدين بصورة خفية ، ينصح بالمتواضع من الممارسات الدينية . فالانسان التقني يتعرض باستمرار الى خطر أن يصبح عقلا محضا ، ومنطقا صرفا (للمذهب الكانتي ، كان بيغوي يقول ، يدان طاهرتان ، ولكن ليس له يدان) . ومع غياب الطقوس ، نضبت الينابيع ذاتها ، ينابيع الحياة .

اننا ، بفضل الرموز ، بفضل الانماط الاولية – وبالتالي بفضل الطقوس – « انما نملك الحركة دائما لكي نمضي الى ما هو أبعد » (مالبرانش) .

الفصل الأول

من علم النفس إلى التحليل النفسي

انهم يبنون بحجارة، ولا يرون ان كل حركة من حركاتهم لوضع الحجر في الملاط يرافقها ظل حركة يضع ظلا من حجر في ظل من ملاط . والاهمية هي لبناء الظل .

(جان جيونو)

الالم النفسي بؤس وعذاب . واللاشعور واسع . كذلك لا تبحثوا عن أي « نصيحة صغيرة » في هذا الكتاب ، فقد لا تجدوها . والسبب ببساطة أن لا شيء سطحي لدى الموجود الانساني . فاذا كان أحد الناس فريسة العصاب أو الحصر (القلق) ، ثمة بالتأكيد ادوية مسكنة قيّمة . ولكن من الضروري ، على وجه الخصوص ، أن نعرف ما الحصر وما العصاب ، ومن أي الاعماق يصعدان . واذا كان ثمة هزة من الهزات الارضية متوقعة ، فاننا نجلي السكان . ولكن دواء مسكنا لن يعادل الوقاية النهاية من الاذى ابدا .

والالم النفسي بؤس كبير . ذلك ما يعرفه معرفة جيدة أولئك الذين يرهقهم الوجل الحاد ، ومشاعر الدونية والاثمية ، وضروب الرهاب والحصر ، والافكار الثابتة ، وانحرافات اخرى من انحرافات الشخصية .

وليس من اليسير أبدا ان نمضي الى مصدر عصاب ، ولا أن نشفي منه . وهذا هو السبب في ان تجار الحلول السهلة يسرحون ويمرحون . « **ينبغي قتل تجار الارادة** » ، كان يقول لي رجل نشيط يرهقه عصاب . وكان المحيطون به يدسّون (بابتسامة !) بين يديه « **مؤلفات** » من نوع : «**كيف تكتسب الارادة في ثلاثين درسا** » . وكان هـذا الرجل قاب قوسين من الانتحار ، لان زوجته كانت تعتقد بأنها ذات ارادة في حين أنها كانت سلطوية متشنّجة ، ولان أباه كان يظن في نفسه أنه صاحب ارادة ، في حين أنه لم يكن سوى عدواني ، ومذعور ، ومصاب بالحصر . ولكن اي شخص لم يتساءل ما اذا كان رهاب الخلاء ليس سوى التعرق السطحي لعصاب عميق ، استفرق الوقت الكافي لكي ينمو .

واستئصال جذر عصاب مهمة شاقة . ولهذا السبب ، يمنح تجار الحلول السهلة علاوة مجانية هي الخيبة واليأس .

فلن تصاب بالدهشة اذن من دخولك عيادة محلل نفسي ، ولا من قراءة السطور الكبرى لعلاج سيكولوجي . واذا اخترت هذا الدرب ، فلان غالبية السلوكات العميقة تتركز في تحليل نفسي . وبوسع كل فرد على هذا النحو ، في اعتقادي ، أن يجد نفسه بصورة أفضل ، وبصورة أفضل أن يفهم ذاته . يضاف الى هذا أننا نستطيع ، من خلال حالات عديدة ومن خلال العديد مما نستخلصه من الجلسات ، أن نفحص انفسنا ، بدءا من **انانا** الشعورية الى **لاشعورنا** العميق .

وهكذا نمضي الى الكشف عن الاغوار الانسانية الكبرى من خلال مهمة المحلّل النفسي ومرضاه ، مهمتهم الشاقة والرائعة . فاذا كان الانسان مريضا ، سنرى بروز العصاب مع كل ما يرافقه من ضروب الحصر ، ومشاعر الدونية والاثمية ، وحالاته الاكتئابية ، وآلاف أعراضه . وسنرى ، اذا كان الانسان غير مريض ، أنه على الغالب يحتفظ بالباب الذي يوصل الى ثرواته وطاقاته الداخلية مغلقا اغلاقا محكما .

آمل أن يساعد هذا الكتاب على أن يفهم المرء نفسه فهما افضل ، وعلى أن يتنبأ بالنتائج (القريبة والبعيدة) لبعض السلوكات . أوليس ثمة ، بعد كل شيء ، أناس يبحثون عن أنفسهم دون أن يقولوا شيئا لاي شخص ؟

اتمنى كذلك أن يتيح هذا الكتاب فهم الاهمية الواسعة لعلم أصبح في منتهى الوضوح ، ولكنه ظلّ مجهولا : **سيكولوجية الاعماق** .

التحليل النفسي ينتشر : مشكلة !

الناس يعرفون استطاعة التحليل النفسي (١) معرفة تزداد اتساعا . انه الوسيلة المثالية للنزول في اللاشعور الانساني . فمن جهة ، تتعاظم الحاجة الى التحليل النفسي . وكل فرد يفهم أهميته العلاجية ، والوقائية ، والفردية ، والاجتماعية ، والفنية ، والدينية ، ويفهم الامكانات التي يقدمها لنمو الذات . ولكن ، ليس ثمة ، من جهة أخرى ، ما يكفي من المحللين (١) ، لاننا بصدد مهنة من أكثر المهن صعوبة (وأكثرها روعة) . فنحن اذن أمام المشكل التالي : ثمة كثير من النيران ، ولكن ليس ثمة ما يكفي من المداخن لامتصاصها .

فماذا تفعل اذن ، اذا طلبت موعدا من محلل نفسي لكي تسمعه يجيب أن ليس بامكانه أن « يبدأ » قبل أربعة أشهر أو خمسة ، لا لانه « متخم » بالمرضى ، بل لان التحليل النفسي يتطلب أن يقدم المريض نفسه مرة في الاسبوع على الاقل ، خلال زمن معيّن ؟

واذا باشر المرء تحليلا نفسيا لا بهدف الشفاء ، بل بهدف أن تمتدّ أبعاد شخصيته ، فلا شيء يقتضي الاستعجال . ولكن ما العمل اذا كان

---

(١) أشير الآن الى انني ، طيلة هذا الكتاب ، اسمي على الغالب تحليلا سيكولوجية الاعماق (التحليل النفسي او علم النفس التحليلي) ، وأسمي محللا عالم النفس المختص (محلّل نفسي أو عالم نفس محلّل) .

ثمة شخص يعاني عصابا (والله يعلم ان كان موجودا) ، او اذا لاحظ احد الآباء أن سلوكه معرّض الى خطر أن ينعكس على اطفاله (ولا بد من ان يفكر الانسان بأن عدد الاشخاص المخلصين ازاء انفسهم يتزايد ...) ؟ هل ينبغي الانتظار الى أن يوجد كثير من المحللين ؟ انه أمر لن يتحقق في المستقبل القريب . فماذا نفعل ؟

اذن ، لا بد من أن يفكر الانسان بأنه لا وجود لحل آخر غير التحليل النفسي ، كما سنرى . فبعض الاحاديث التي يجريها عالم النفس مع أحد الآباء ، على سبيل المثال ، تكفي في بعض الاحيان لكي يكفّ أحد الاطفال عن أن يكون عصابيا ، حتى ولو أن هذا الطفل لم يتحرك من منزله (انني أفكر هنا بآباء يفلحون في تبديل تصرفهم حين يفهمون آلية الحصر الطفالي . وذلك ليس غير مثال من ألف) .

ولكن علينا ، قبل ان نفحص المعطيات الأولى للتحليل بالمعنى الصحيح للكلمة ، أن نرى موقعه في علم النفس بصورة عامة .

أولاً ــ شتى فروع علم النفس

اطلاع الجمهور ، بصورة عامة ، على فروع علم النفس المختلفة اطلاع قاصر . فهو حائر امام مصطلحات تقرأ ، على نحو متزايد ، في كل مكان على وجه التقريب : **التحليل النفسي وعلم النفس التحليلي وعلم النفس العلاجي وسيكولوجية الاعماق** ، الخ .

فما المقصود ؟

سأهتم على وجه الحصر هنا ، كما قلت ، بعلم النفس **العلاجي** . وهو يمتدّ من علم النفس ــ النصيحة الى التحليل النفسي . وفي علم النفس ، كما في كل مهنة ، ضروب من التراتب . فما هدف علم النفس ؟ هدفه ان يفحص السلوك الانساني ، السليم والمرضي ، وأن يقوّمه ان كان منحرفا ، وأن يمنح الشخص مجددا أصالته العميقة وحريته الداخلية .

وللنفس الانسانية اعماق لا يُسبر غورها . واذا كانت الاعمال الانسانية تمضي من السطح المرئي الى أغوار اللاشعور ، فاننا نفهم أن علم النفس ينبغي أن يكون قادرا على تفحّص كل راق(*) من هذه « الراقات » وعلى العناية بها .

وسنستعرض الترسانة التي نحوز عليها بسرعة اذن .

ولكن لنقل أولا ان مهنة عالم النفس المعالج هي أيضا اعلان مبادىء حول قيمة الانسان الاساسية .

أما وقد قلنا قولنا هذا ، فان « اعلان المبادىء » دون تجربة في العلاج لا تفيد في شيء ، ولا التقنية دون اعلان مبادىء ، من جهة أخرى ! وسترون أن عيادة عالم النفس مكان من أندر الامكنة التي تحترم فيها الفردية الانسانية على نحو مطلق ، والتي يتصف فيها السر المهني بأنه سر تضفى عليه القداسة على وجه التقريب .

ولكن ، اذا كان عالم النفس الحقيقي يعلم ذلك كله ، فان ٩٠ بالمئة من عامة الناس يجهلونه ، وهكذا يقع المقدور من الافكار المسبقة الخاطئة . . .

ما هي بالفعل صفات **عالم النفس والمحلل النفسي وعالم علم النفس التحليلي وعالم سيكولوجية الاعماق** ؟ هل شتى المدارس ، مدارس علم النفس ، على وفاق أم لا ؟ أي شيء لم يُحك عن هذا الشيء الذي يشكل جزءاً من مجموعة الاسلحة الالزامية الخاصة بالمحلل ؟ وما شأن الظلام المزعوم الذي يسود لدى المحلل ؟ في حين أن الامر سيكون أكثر بساطة مع ذلك لو فكر المرء بأن المشروع في علاج سيكولوجي يهدف الى النزول في الذات ، الامر الذي لا يمكن للانسان مع ذلك أن يفعله على صوت البوق .

(*) الراق : امتداد متسق من مادة تتوضّع على سطح من السطوح . والراق مرادف لـ « الطبقة » ، غير ان الطبقة أسمك من الراق بكثير . والكلمة يستعملها عامة الناس استعمالا صحيحا « م » .

١ ـ علم نفس السطح

آ ـ علـم النفس ـ النصيحة

قد يحدث في أغلب الاحيان أن يكون بعض الاشخاص بحاجـة الى نصائح متخصصة . ان بامكان المرء ان يرغب في « السعي للاشراف علـى الوضع بمجمله » ، وفي أن يكون على بصيرة من مشكل داخلي ، وأن يتكلم مع اختصاصي على تربية الاطفال ، وأن يحاول اصلاح زواج يترنّح ، الخ . ويمكن لهذه الامثلة بالتأكيد أن تتكاثر الى ما لا نهاية .

وعالم النفس الذي يقدّم النصائح هو ، كما يدل على ذلك المصطلح ، اختصاصي يقدم عونا **عمليا ومباشرا** لمن يطلب اليه النصيحة . وقد يكون المقصود ، في الاغلب ، ضرباً حقيقيا من « توجيه الشعور » . ويمكن لعلم النفس ـ النصيحة أن يشمل مجالا من مجرد الحس السليم الى توجيهات يعطيها اختصاصي يأخذ اللاشعور العميق لمن يطلب نصيحته بالحسبان ، أو يأخذ بالحسبان اولئك الذين يحيطون به (كعلاقات الآباء والاطفال ، على سبيل المثال) . ويمكن لعالم النفس الذي يقدم النصيحة أن يكون مؤمنا او علمانيا . والمثل الاعلى أن يكون قد نال تكوينا قويا في علـم النفس العلاجي .

وكل صورة من صور العلاج السيكولوجي صعبة وحسّاسة ، بما فيها علم نفس النصيحة . فالممارس غير الخبير ، أو المجهز بثقافة علميـة وسيكولوجية غير كافية ، يمثّل خطرا حقيقيا . وذلك صحيح سواء كان طبيبا أم لا . **وهذا هو السبب الذي من أجله كان من المفيد أن يكون قد خضع للتحليل النفسي ، تحليل في الاعماق** ، كيما لا « يسقط » مشكلاته اللاشعورية على من يطلبون اليه النصح ، وكذلك كيما يكون قادرا على أن ينظر الى شخصية من يطلب اليه النصح قبل شخصيته . ومن المؤكد أن نصائح عالم النفس تكون دقيقة وواسعة كلما ازدادت معرفته بالموجود الانساني في أعماقه . ويمكن لعالم النفس الذي يقدم النصيحة أن يساعد

في الوقت ذاته شخصين قريبين (زوجين ، على سبيل المثال) ، **الامر الذي** يتصف بأنه نادر في حالة المحلل .

ب ــ علم النفس العلاجي الجماعي

كل عمل يقوم به فرد في جماعة ، سواء كانت مؤلفة من شخصين أم من مائة ، ينعكس على من يحيط به . وذلك أمر مؤكد .

وعلم النفس العلاجي الجماعي ضرب من علم النفس العلاجي المشترك. فهو يتيح للفرد أن يحتاز الشعور بسلوكه في المجتمع ، وبالتالي أن يفهم الجوانب الايجابية والسلبية من شخصيته . ويتيح للفرد أيضا (بواسطة التمثيل السيكولوجي (*)) أن يجعل بعض الصعوبات الداخلية، التي لم يكن يشعر بها ، تصعد « الى السطح » مجددا .

والمبدأ الاساسي هو المبدأ التالي : كل شخص يشكّل جزءا من جماعة ينبغي له أن يكون عاملا علاجيا بالنسبة الى كل عنصر من عناصرها. فلا بد اذن من اصطفاء المرضى ، وتوجيههم . ولا بد أيضا من تحديد اتساع الجماعة ، واختيار التقنية ، وتعيين تواتر الجلسات ومدتها. ولا بد أيضا من أن نفحص ، بالنسبة الى بعض الاشخاص ، ما اذا كان بالامكان أن نمزج بين علم النفس العلاجي الجماعي وبين التحليل الفردي .

وينبغي للاختصاصي أن يكون حائزا على خبرة كبيرة . ويبقى هذا الاختصاصي « حياديا » . ولكن كل عضو من أعضاء الجماعة ينبغي أن يشعر الى أي حد يتصف بأنه ودود بصورة حقيقية وبأنه يتوحّد بكل عنصر من عناصر الجماعة . ومن الواضح أن توجيه جماعة من الجماعات فن شاق لا بد من تعلمه ، ولا سيما ان بعض ردود الفعل ، العنيفة في بعض

(*) التمثيل السيكولوجي أو السيكودراما : طريقة علاجية تستخدم التمثيل المسرحي المرتجل وسيلة للبحث السيكولوجي والتحرّر من العقد . وهي طريقة ابتكرها مورينو لتنمية العفوية في العلاقات الاجتماعية « م » .

الاحيان ، تحدث بين عناصر الجماعة ، هذا اذا لم تركز الجماعة برمتها عدوانيتها على عالم النفس المعالج .

ويرتبط التمثيل السيكولوجي ايضا بعلم النفس العلاجي الجماعي . ويبدا التمثيل السيكولوجي بمحادثة بين المريض وعالم النفس المعالج . ويصف المريض ، على سبيل المثال ، بعض الصعوبات التي يعانيها ازاء الغير (أبيه ، أمه ، رئيسه ، الخ) . وفي هذه اللحظة ، « يصعد الى المسرح » . وعمله يصبح عندئذ عملا حرا على نحو كامل . فهو يستطيع تمثيل دوره الخاص في وضع معيّن . ويمثّل اعضاء الجماعة الآخرون وسطه : فنجد فيه الاب ، والام ، والزوج ، والصديق ، والعدو ، الخ . ونرى بصورة مباشرة ان ضروب الكفّ و «التوقف» والتصريف والعدوانية الخ ، يمكن أن تبدو بسرعة (وهذا ، بالتأكيد ، وضع يثير الحصر على الغالب ، ولكن عقباه مفيدة) . وما أن ينتهي التمثيل السيكولوجي حتى تتوقف « اللعبة » بالمعنى الصحيح للكلمة . فيجد المريض نفسه مجددا في مواجهة الاخرين ، ولكن في اتصال مباشر . ويمكن على هذا النحو لكل من المشاركين أن يقابل انطباعاته بانطباعات الآخرين . ويمكن لكل من المشاركين أن يكون صادقا ، وأن يغش ، وأن يتخذ قناعا مرة اخرى ، وان يشعر بأنه متحرر او مكفوف ، وان يعتقد بنفسه انه موضع حكم أو انتقاد أو اعجاب ، الخ . وتلك اذن هي الخطوة الاولى نحو احتياز الشعور بما « يتصف بأنه على غير ما يرام » . وغني عن البيان أن التأثيرات المتبادلة بين أعضاء الجماعة يمكن أن تكون كبيرة العدد . وتتسم الجماعة في بعض الاحيان بأنها في حالة من الهيجان . وثمة عدوانية حادة تتوجّه نحو عالم النفس المعالج الذي ينبغي له أن يبقى حياديا ولا شخصيا .

ولا يتيح علم النفس العلاجي الجماعي بلوغ اللاشعور العميق ، كما يفعل التحليل النفسي الفردي . ولكنه يتيح للفرد أن يحتاز الشعور ، في حدود على جانب من الاتساع ، بمشكلاته ازاء الآخرين ، وأن يرى نفسه كما هي ، وأن يقوم ببعض التصحيحات المهمة .

٢ ــ سيكولوجيا الأعماق

ليس المصطلح بحاجة الى التحديد مطلقا . فعالم سيكولوجيا الاعماق ينذر نفسه للموجود الانساني بكل ما يتصف به من الاتساع والعمق . انه ذو نزعة انسانية ، وهو « مكتشف للاغوار » وجرّاح النفس الانسانية في الوقت ذاته .

ويمكن لعالم سيكولوجيا الاعماق ان يكون نظريا (دراسة الاديان والاساطير والرموز والسير وآليات اللاشعور ، الخ) ، أو ممارسا (وفي هذه الحالة ، نحن أمام المحلل) .

آ ــ علم النفس العلاجي الرمزي

المقصود طريقة قوية على الغالب ، يمكن ان تتدخل اما خلال التحليل، واما وحدها . ويستند عالم النفس الى خيال المريض . فيقترح رموزا للكشف عن ضروب الكبت ، وعن العقد والذكريات المطمورة في اللاشعور بصورة عميقة ، الخ . وتستخدم هذه الطريقة الرمزية كذلك لبناء الشخصية في نهاية التحليل بناء جديدا . وسأتكلم على ذلك مفصلا ، من جهة اخرى ، في مجرى هذا الكتاب .

ب ــ التحليل

تحت هذه التسمية ، سأجمع التحليل النفسي (مدرسة فرويد) وعلم النفس التحليلي (مدرسة يونغ) ، وعلم نفس تقويم السلوك (مدرسة بودوان) .

ويمارس **المحلل** أعلى درجات التخصص في علم النفس : شفاء الموجود الانساني شفاء في **الاعماق** .

وثمة سؤال يطرحه عامة الناس على انفسهم : هل **للمدارس** الكثيرة وجهات نظر متعارضة ؟ نعم ، ان لهذه المدارس تصورات مختلفة فيما

يخص مقاربة اللاشعور الانساني . يضاف الى هذا أن أي شخص لا يشبه شخصاً آخر . وليس المريض هو الذي ينبغي له أن يتلاءم بالقسر مع طريقة من الطرائق ، بل ان الطريقة ينبغي لها أن تتلاءم مع المريض . وعلى المحلل اذن أن يكون حائزا على ما يكفي من الشمول والخبرة ليتحقق من ذلك. ومدارس فرويد ويونغ وبودوان ، من جهة اخرى ، تتكامل وتغني كل منها الاخرى بالتبادل ، لانها تقوم على منظورات شتى . ولنقل تماما ان التراث العلاجي الذي تركته لنا هذه المدارس ذو اتساع وتلاحم غريبين . فماذا يفعل المحلل « العظيم » اذن ؟ وما هي تقنيته ؟ ومعارفه ؟ انها بالتأكيد أمور **لا غنى عنها** . ومع ذلك ، تنجم قدرة المحلل ، في نهاية المطاف ، من قدرته الداخلية . ذلك أن أي شخص لا يمكن له أن يقود شخصا آخر الى مدى أبعد اذا لم يكن قد وصل اليه هو ذاته .

ج ـ التحليل الدقيق

التحليل الدقيق هو التحليل الكلاسيكي . انه التحليل الاعمق والاروع والاصعب . والمريض ، على وجه العموم ، يتمدّد على ديوان (وليس ثمة ما يتصف في ذلك بالسر الغامض : فعلى الديوان ، يسترخي المرء على نحو افضل بكثير) . ويقف المحلل **خلف المريض** . فهو اذن يظلّ غير مرئي ، ولكنه « حاضر » بصورة قصوى . وليس بوسع المريض اذن ان يرى أيا من ردود فعل المحلل (وبوسعه ، بالتالي ، أن يتخيلها جميعها) . وذلك أمر ذو أهمية كبرى ، ويثير انعكاسات عديدة خلال العلاج التحليلي، كما سنرى من خلال هذا المؤلف . يضاف الى هذا أن مداخلات المحلل ، في **التحليل الدقيق** ، تتصف بأنها **معدومة عمليا** في اثناء زمن طويل الى حد كبير من العلاج . ويدعى المريض الى أن يقول كل ما يخطر بباله وما يجول في خاطره تبعا للآونة . ولا يتدخّل المحلل الا بعد مضي زمن معين لكي يستخلص من « المواد » التي يعطيها المريض تفسيرات تقود الى ضرب من **احتياز الشعور** . ويبقى المريض ، في تحليل دقيق ، وحيدا مع ذاته . وكلام المحلل كلام سريري ، وغير شخصي على الاطلاق . ويمكن للتحليل الدقيق أن يجري دون ديوان . فالمريض ، على سبيل المثال ، يمكن ان يكون جالسا في مقعد ، والمحلل في مقعد آخر ، الى الوراء بعض الشيء ،

والمهم ، في تحليل دقيق على وجه الخصوص ، هو موقف المحلل ، كما سأبين ذلك . انه صورة التحليل الاكثر صعوبة على المريض ان يتحملها ، ولكنه الاكثر اتصافا بانه « ذو مردود » في العمق .

وماذا لدينا بالاضافة الى التحليل الدقيق ؟

د ـ علم النفس ذو الاساس التحليلي

المقصود بعلم النفس ذي الاساس التحليلي علاج تنطبّق فيه جميع معطيات سيكولوجيا الاعماق . ومع ذلك ، فان التقنية أكثر مرونة وفاعلية . وبدلا من أن يبقى المريض وحيدا مع ذاته ، يجلس في مواجهة المحلل . فالمحلل أكثر فاعلية . انه يتكلم مع مريضه ، ويقوده نحو احتياز الشعور باضطراباته الداخلية . ولكنه لا يوجه مريضه **ابدا** ، ولا يعطيه نصائح **ابدا** .

ويقود المحلل مريضه نحو النضج العام ، ويترك له دائما عبء اختيار مسؤولياته الخاصة بحسب درجة نضجه الداخلي .

فمتى نستخدم هذا النوع من العلاج ؟ والجواب ان كل شخص يختلف عن الآخر ، وعلى المحلل ان يكون قادرا على جعل اسلوبه في العمل متلائما مع كل فردية . ولا يمكن لتحليل دقيق ، في بعض الاحيان كذلك ، أن يكون موضع نظر ، اما لان المريض بلغ من الكبر عتيا ، واما لانه عاجز عن تحمل طريقة التحليل الدقيق القاسية . وبوسع المرء مع ذلك ، في نهاية زمن معيّن من « التدريب » ، أن يتجه نحو التحليل الدقيق .

ثمة نقطة مهمة جدا : كل تحليل ، مهما كانت الطريقة المستخدمة ، **يتم دائما بصفة فردية على نحو دقيق** . فليس بوسع المحلل اذن (باستثناء حالات خاصة كل الخصوصية) أن يعالج شخصين قريبين ، ولا أن يعطي **ابدا** أدنى معلومات خاصة بمريضه الى أي شخص كان .

هـ ـ وما شان اللغة الاصطلاحية ؟

والسؤال التالي يطرح نفسه : هل لغة الاختصاصي الاصطلاحية ضرورية ؟ فالمسنّن ، في الميكانيك ، لا يسمى دولابا صغيرا ذا اسنان . والمبضع ، في الجراحة ، ليس سكينا . وقس على ذلك في علم النفس . ويبدو أن التحليل النفسي ،على سبيل المثال،مرهق بالكلمات الحوشية(*)، مثل : **الانا العليا** ، **والهو** ، **والعلاقات الاوديبية** ، **والمرحلة الشرجية المصعّدة** ، **والتوحد بعضو الذكر** ، **وحَصَر الخصاء** ، **ورحم الام**،**والانماط الاولية** ... ومصطلحات كثيرة أخرى . فهل هي ضرورية ؟ نعم . وهل يمكن للموارية(**) أن تحلّ محلها ؟ لا . والسبب في ذلك أن كل مصطلح منها يؤلف ، بدقة ، حالات انسانية ، مترامية الاطراف في بعض الاحيان ، وتشمل حيوات برمتها ، ويمكن أن تنطوي على عدد لامحدود من المظاهر .

فاللغة الاصطلاحية اذن أمر لا غنى عنه أحيانا . ولكن يجب كذلك أن لا تشير الى عجز أو الى « سر غريب » يتخندق وراءه الاختصاصي .

ولنضرب بعض الامثلة البسيطة . **لنفرض** احدى الدعاوى في محكمة الاستئناف . **ولنفرض** أن احد المشاهدين يلاحظ أن العقوبة التي حكمت بها المحكمة تتجاوز العقوبة التي يستحقها المتهم تجاوزا كبيرا . فماذا يمكن أن يكون قد حدث ؟ يمكن أن يكون قد حدث ما يلي : أن يكون القاضي قد **اسقط ظله** على المتهم . هل هما مصطلحان من اللغة الاصطلاحية ؟ كلا . ان القاضي **أسقط** ، واعني بذلك انه راى المتهم من خلال عواطفه اللاشعورية الخاصة وضروب كبته وعقده . ومن الممكن أن يكون سلوك المتهم مناظرا لانفعالات مؤلمة ومكبوتة بعمق خاصة بالقاضي ، او أن هذا القاضي « كره » المتهم ، لانه كان يكره ظله الخاص ، أي الجزء السلبي اللاشعوري من شخصيته ، الخ . وحالة من هذا النوع (في عداد الملايين من الحالات) كانت تبدو في فيلم **عشرون رجلا في حالة الغضب** ، فيلم

(*) الحوشي من الكلام : الوحشي الغريب « م » .

(**) الموارية : الدوران في التعبير بالفاظ كثيرة عن فكرة من الافكار « م » .

سأتكلم اليكم عليه فيما بعد . والقاضي ، في المثال الذي نحن بصدده ، يعتقد اذن أنه يدين المتهم ... **في حين انه يدين نفسه من خلال المتهم ، ودون أن يعرف** . فليس المتهم اذن هو الذي يكرهه القاضي : انه انما يكره نفسه . فها نحن اذن بعيدون عن الموضوعية ...

و ــ معنى اللغة الاصطلاحية

تبيّن اللغة الاصطلاحية كيف يمكن لمصطلح من المصطلحات أن يجمع بالتأليف حالات في منتهى الاتساع . ولنفرض أننا نقول :

ــ تتسلط العودة الى رحم الام على هذا الرجل الذي بلغ من العمر خمسين عاما ... فهل ذلك يعني انه يرغب في العودة الى رحم أمه ؟ انه لكذلك ، اذا شئتم . ولكن ماذا يعني « رحم الام » ؟ انني سأتكلم على هذا المصطلح مطوّلاً ، بالنظر الى أنه « يوقف » على الغالب ضروبا برمتها من الوجود . ولكن لنقل ، بصورة عامة ، انه يمثل **اللاوعي السعيد الذي يسبق الولادة** . انه يمثل « عودة الى الوراء » ، مرغوبة على الغالب أكثر من السير الشاق نحو الامام . اليس من الايسر على المرء أن يلجأ الى حضن أمه ، مع كل ما يرافق ذلك من الاوضاع الرمزية التي يفترضها ؟ وما رحم الام ؟ انه المرحلة التي كان يسود فيها اللاوعي ، والتي كان فيها الانسان ينعم بالدفء دون قسوة ولا مشكلة . ولهذا السبب ، يمثل النوم (أو الانتحار !) ، على هذا النحو ، عودة الى رحم الام ، بالنسبة الى الملايين من الناس : فهو اذن يمثل عودة الى اللاوعي ، الى نسيان الصعوبات والصراعات ، الخ . ونحن اذن ازاء رمز قوي وازاء **حنين عميق** يسم لاشعور كل موجود انساني ، ويتعرّض كل فرد الى خطر أن يستسلم له عندما « يكون كل شيء على أسوأ حال » .

كذلك يمكن **لاحد المشافي** ان يمثل هذا الرحم ذاته ، رحم الام ، لان الانسان يشعر فيه أنه محضون ومحميّ وفي ملجأ ، وتحت حراسة «**الاب** » (الاطباء) و« **الام** » (المرضات) ، وان بوسعه أن يعيش فيه وكأنه طفل . فالمريض اذن يمكنه ، في نطاق كبير جدا بعض الاحيان ، أن

يرغب لاشعوريا في البقاء أطول فترة ممكنة في المشفى ... وبالتالي يمكنه أن يتعهد بالرعاية مرضه بالاسلوب الذي يتصف بانه الاكمل ، ذلك أن الخروج من « رحم الام » هذا قد يعني العودة الى صعوبات الرشد . وهكذا دواليك : فثمة أمثلة عديدة ممكنة (١) .

ز ـ كيف يصبح المرء محللا ؟

ربما كنا بصدد درب من أكثر الدروب مشقة .

وتلك هي الآونة للاستشهاد بكلام شهير على وجه الدقة ، كلام **نخت** : « المهم قبل كل شيء ، لا ما يقوله المحلل ، بل ما **يتصف به** المحلل » .

يلج المرء قليلا في الدراسات الخاصة بتكوين المحلل كما يدخل في حلقة دراسية ... فلا يتجسد الايمان بالتحليل (وبالانسان) أو يزول الا في أثناء الدرب . والدراسات الخاصة بتكوين المحلل هي ضرب من المخاطرة بكل شيء . واليكم السبب .

لكي يصبح المرء محللا ، لا بد له من أن يصبح قبل كل شيء عالم نفس، ثم عالما في سيكولوجيا الاعماق . فماذا يعني ذلك ؟ ويكفي ، لكي يصبح المرء عالم نفس ، أن يحصل على دبلوم في علم النفس . ويكفي أن يدرس دراسة رصينة ، وأن يتقدم الى الامتحانات وينجح . فنحن بصدد مرحلة أولى يتعلم المرء في أثنائها أن يحتوي الانسان ، احتواء جافا ، في صيغ وروائز وقياسات ، الخ . فهو اذن حائز على دبلوم في علم النفس ، ولكنه بعيد عن أن يكون عالم نفس بالمعنى الاسمى للمصطلح . وكل شيء منوط اذن بما يرغب فيه . ومن المؤكد أن عليه ، اذا رغب في أن يمضي نحو العلاج النفسي ، أن يتطهّر قبل أن يطهر الاخرين . ومن المفيد أن يكون الممارس قد خضع لتحليل نفسي ولو أن الامر يقتصر ، بالنسبة اليه ، على علم النفس الذي يقدم النصيحة .

---

(١) انظر فقرة « صوب الجنين » ، في الفصل الثاني عشر من هذا الكتب .

ولكن كل شيء يتعقد عندما تكون سيكولوجيا الاعماق هي **المقصودة** . **فكيف يصبح المرء محللا ؟**

لا بد له ، **قبل اي شيء** ، من أن يقبله معلم الفن (**المحلل المكوّن**) « **مرشحا** » ، **ذلك المعلم الذي يأخذه على عاتقه ، ويكون معتمدا لتكوين** محلل بقرار من المؤسسة التي يتبعها . وعلى **المرشح أن** « **يمثل** » **أمام** لجنة المحللين المكلفة بفحص ترشيحه . واللجنة تنتقد الترشيح تبعا للسن ، والدواعي التي تدعو المرشح الى الرغبة في أن يصبح محللا ، وثقافة المرشح ، وتكوينه العلمي ، وقيمته الاخلاقية والانسانية ، الخ . ومن الواضح أن معايير الاختيار **ينبغي أن تكون** ، في البدء ، بمنتهى القسوة. وعلى المرشح أن تكون لديه معارف سيكولوجية ، وانسانية ، وذكاء ، وقدرة ، أعلى من الوسط بكثير . فترشيحه سيفحص اذن ، ويناقش ، ويغربل ، ويقبل أو يرفض او يؤجّل . ويفهم المرء على نحو جيد جدا أن الحد الاقصى من الضمانات ينبغي أن يكون مطلوبا في البدء قبل النظر في اي شيء .

وماذا بعد ؟ ان المحلل « جرّاح النفس » . ولعل مهنة التحليل النفسي هي المهنة الوحيدة التي ينبغي أن يقوم من يختارها باجراء « العملية » على نفسه قبل أن يجري العملية على الآخرين . فالمرشح اذن ، شأنه شأن أي مريض ، ينبغي له أن يباشر تحليلا فرديا هدفه « ازالة القشرة » عن لاشعوره . وعلى المرشح أن يفهم سير لاشعوره ... وسيكون الى الابد ، لولا ذلك ، عاجزا عن فهم لاشعور الآخرين . فهو ينطلق اذن في مغامرة التحليل الفردي ، **بصفته مريضا** ، مغامرة تدوم زمنا طويلا . ثم يبدأ ، بعد أن يكون التحليل الفردي قد قطع شوطا كافيا ، تحليلا«تعليميا» يتعلم المرشح مهنته في أثنائه ،بصفة علمية وانسانية . وهنا اذن ، ثمة دراسات مكثفة في التحليل النفسي .

هل المرشح على يقين من نجاحه ؟ اطلاقا . فقد يبدو عاجزا عن النجاح بعمق في تحليله الفردي ، كما قد يبدو عاجزا عن أن يصبح محللا على الرغم من نجاحه في تحليله الفردي . وذلك يفترض عدة سنين من الدراسة ،

ومئات من ساعات التحليل بمعدل جلستين في الاسبوع على الاقل . وبالتالي ، يخضع المرشح ، خلال ما يقارب مئتي ساعة او ثلاث مئة ، الى تحليل دقيق . فيجد نفسه (وحيدا مع ذاته) متمددا على ديوان ، ووراءه المحلل المعلم صامتا ، ولن يعرف ابدا ان كان « مصيره » يتوطّد أو ينهار . انه اذن عمل من الجلد والشجاعة وتوطيد الذات . ويفهم المرء أيضا ان معلم فن التحليل لا يقدر على التساهل في ضعف المستوى لدى تلميذه ، لا من الناحية العلمية ولا من الناحية الانسانية . ويتبين لنا أيضا ان الفهم الذي قد يتكوّن لدى الاستاذ عن صعوبات تلميذه لا يمكن **أبدا** أن تكون لها الصدارة على المعايير القيمية المطلوبة من محلل المستقبل .

وماذا بعد ؟ ان على المرشح ، بعد هذا العمل الواسع ، أن يباشر هو ذاته تحليل شخص آخر ، ولكن تحت رقابة محلل خبير يسمى لهذا الامر ، محلل غير المحلل الذي أشرف على تكوينه غالبا . واذا كان المرشح قد اصبح قادرا على معالجة عدة حالات معا ، فان من الممكن أن يشرف عليه عدة محللين . وعليه ، قبل أن يعمل وحيدا ، أن يلجأ ، خلال عدة سنين ، الى المحللين الذين اشرفوا عليه . وذلك امر يمكن فهمه . اذن ، فالمرشح الذي نجح في تحليله الفردي ، وتحليله التعليمي ، ودروسه النظرية ، وسنواته في التحليل تحت الاشراف ، يصل الى أبواب المؤسسة التي يتبع لها .

هذا ، اذن ، في خطوطه الكبرى ، هو الدرب الذي يقود الى دور المحلل . ويدرك المرء أن هذه الدراسات مرتفعة الكلفة الى الحد الاقصى، مالا وزمنا . والحل الافضل ، من ناحية الزمن ، أن يبدأ المرء تحليله الفردي في الوقت الذي يبدأ دراساته لنيل دبلوم في الطب أو علم النفس أو الفلسفة او علم التربية ، او اي فرع آخر ذي صلة بعلم النفس .

ومن المؤكد ايضا أن عددا ما من الشباب يشعرون ، أو يعتقدون في أنفسهم ، بأنهم مؤهلون لان يصبحوا محللين . وهم يستشعرون ، غالبية الوقت ، هذه الدعوة الى ان يصبحوا محللين لانهم يعانون ، هم ذاتهم ، بعض المشكلات . وهذا أمر سوي جدا مع ذلك ، وليس على الاطلاق معيارا

للرفض **في البدء** . ولكن من الواضح ان هذه المشكلات ينبغي التخلص منها بواسطة التحليل الفردي . ولا بد من التفكير تماما بأن ثمة ، في هذا الدرب، قليلا من المقبولين وأقل من الذين يتم اختيارهم . وينبغي أن يكون الاصطفاء ، بالفعل ، عديم الرحمة . ومن الواضح أن معايير التكوين والقبول هي عشرة اضعاف بالقياس الى الاحتياطات المتخذة في أي نوع من انواع الدراسة . ولم اكن أمزح قط عندما تكلمت على « حلقة دراسة » . فهل يكون المرء ابدا محللا دون ضرب من الجاهزية ازاء كل انسان ، ولو انه مزوّد بتقنية بارعة ؟

ثالثا ــ لماذا الشروع في تحليل نفسي ؟

أمن الضروري أن يشرع الشخص في تحليل نفسي اذا لم يكن يعاني عصابه معاناة قاسية ؟ ولنفرض شخصا من الاشخاص متخما بـ « ضروب التعويض » التي تتيح له أن يعيش دون كثير من التمزق . ولنفكر بشخص عدواني جدا ، على سبيل المثال . **انه عدواني حتى لا يتملكه الخوف** . فلديه الانطباع اذن بانه يعيش بصورة سوية على وجه التقريب ... ومع ذلك ، فان عليه أن يتمسّك بعدوانيته . فاذا فاتته هذه العدوانية ، وقع في الخوف مجددا . اذن ، يتألم هذا الشخص ، ولو بصورة لاشعورية . **ان عليه ان يمثل دورا مستمرا حتى يفلت من الخوف** . يضاف الى هذا ان الحواجز التي يقيمها ضد الخوف ، ويتعهدها بالرعاية ، تستهلك كمية كبيرة من طاقته .

ومن جهة اخرى ، اذا أفلح شخص مصاب بالعصاب في أن يعيش ، فمن المؤكد أن شخصيته المزيفة تنعكس على محيطه . وفي هذا المجال انما يتصف التحليل ، وهو علاج **فردي** ، بانه وقاية **اجتماعية** أيضا . وحسب المرء أن يفكر بالعلاقات بين الآباء والاولاد .

١ ــ ستكون في الطليعة !

بعض الاشخاص ، الذين يعلنون لمن يحيط بهم انهم سيباشرون تحليلا

نفسيا ، يسمعون يقال : « ستكون في الطليعة عندما تعرف ما يحدث في لاشعورك ! »

أوليس ثمة فائدة كبيرة في أن المرء « يحتاز الشعور » بضروب كبته وعقده ، وغالبية آلياته اللاشعورية ، التي تجعل الشخصية منحرفة أو تعذبها ؟ ولكن الناس ينسون أن العقد شخصيات منفصلة ، مختبئة في اللاشعور بصورة عميقة . وبما أنها بالتأكيد غير مرئية ، **فانها تعمل لمصلحتها الخاصة** ، **وليس لارادة الفرد أي سلطة عليها** . يضاف الى هذا أن الناس ينسون أن كل عقدة وكل كبت (وسأشرح لكم ذلك شرحا مفصلا في هذا المؤلف) تجمّد كمية كبيرة من الطاقة التي تبقى على هذا النحو غير جاهزة ، بدلا من أن تستخدمها **الانا** الارادية .

والحال أن « احتياز الشعور » رئيس في التحليل(١) . وأذكر أيضا بأن **كل** عقدة **وكل** كبت هما لاشعوريان . وبناء عليه ، فان ذلك كما لو أننا نقول : « ستكون في وضع ملائم جدا عندما يكون عدوك أمامك بدلا من أن يكون وراءك . ستكون في وضع ملائم جدا عندما تمتلك أسلحة أقوى بما لا يقاس من هذا العدو الذي يبدو في وضح النهار أخيرا ... » هذه الملاحظات تتصف اذن بأنه عبث .

يضاف الى هذا أن بعضا من « احتياز الشعور » يجعل في بعض الاحيان جانبا كاملا من جوانب العصاب ينهار في ثانية .

والحقيقة أن ذلك ، خلاصة للقول ، يعني ما يلي : « ستكون في وضع ملائم جدا اذا طرحت بعيدا ضمادتك القديمة لكي تكتشف تحتها دمّلاً ، بالمعنى الصحيح للكلمة ، كان لديه متسع من الوقت لكي يقرض عظامك .. » ولا سيما أن الدمل يمكن معالجته ، ولو أنه دمل نفسي . فماذا عليك اذن أن تفعل ؟

---

(١) انظر فصل « احياز الشعور » ، الفصل التاسع .

٢ ـ الى من يتوجه علم النفس ؟

أعتقد اعتقادا عميقا بأن علم النفس ينبغي أن « ينزل » الى الشارع. ولكن **سيكولوجية الاعماق** ، من جهة اخرى ، **لا تحتمل أي مستوى دون المتوسط** . وأصحاب المستويات دون المتوسطة غير معنيين بها .

ففي كل موجود انساني ضرب من الكمون في الطاقة والوضوح ، غير مستثمر على الغالب لانه غير مكتشف . وذلك كما لو أن كل فرد يملك تحت حديقته اليومية الصغيرة طبقة من النفط لا تنتظر غير المسبر لكي تنبجس . وستلاحظون ذلك ، من جهة اخرى ، عندما سأتكلم على « الانماط الاولية » ، هذه الكوكبات القوية ، كوكبات اللاشعور الجمعي.

يضاف الى هذا أن علم النفس ليس علما يتصف بأنه فردي فقط . فهو أيضا ، وعلى وجه الخصوص ، اجتماعي . ولا يعرف مع ذلك ما هو تقليدي من الاحزاب والاديان والاخلاق . والحكم « الاخلاقي » ، أيا كان هذا الحكم ، بعيد عن علم النفس بعد القطب الجنوبي عن القطب الشمالي . فعالم النفس لا يصدر حكما على الاطلاق ،ولا يستولي عليه الاعجاب ابدا . ذلك أن عليه عندئذ أن يكون بوسعه الاحتقار . وكيف تريدون أن يكون ذلك ممكنا منذ أن تعرف الدافعيات العميقة ؟

لا أعتقد اني أكون من أصحاب النزعة المثالية اذا قلت ان تجديد مجتمع من المجتمعات منوط بتجديد الناس الذين يؤلفونه تجديدا داخليا. يضاف الى هذا أن علينا أن لا ننسى ابدا أن انسان نيندرتال لا يزال خلف الباب ، وأن اعماق اللاشعور لم يطرأ عليها أي تغيير منذ بداية الازمنة . فعلم النفس فردي واجتماعي . وكل موجود انساني ، منذ ولادته ، شبيه بقذيفة في مستنقع ،مع كل مايفترضه ذلك من الموجات والتداخلات والانعكاسات . والانسان بين الناس الآخرين « تبادل » لا يتوقف ، صاخب أو صامت ، وشعوري أو لاشعوري . وهكذا يبدأ منذ أن يكون الانسان مجرد جنين .

وعلم النفس اذن وسيلة من وسائل **الاستقصاء** قبل كل شيء . فثمة الملايين من الناس الذين يمشون على جانب دربهم الحقيقي دون علم منهم . ويبررون معظم اعمالهم بدافعيات مزيفة . ولكنهم ، في أثناء ذلك، غارقون في ضروب الحصر والاثم والعدوانية . فهم ملزمون اذن بأن يجدوا شروحا عقلانية لغالبية أعمالهم . والمؤكد أنهم يجدون . والناس يجدون شروحا ، سواء كانت صحيحة أم خاطئة .

ولكن الدوافع اللاشعورية تتصف غالبا بأنها على نقيض الدوافع التي يعلنونها .

واذا علم الناس بأن اي عصاب « قطيعة » بينهم وبين انفسهم ،ادركوا أهمية علم النفس ان كان قادرا على اعادة « الاتصال » ... ذلك هو علم النفس . انه آلة **دينية**(*) .

ثم ان العالم عانى مع ذلك آلاما كثيرة مصدرها أولئك الذين يتصفون بأنهم ، وهم لا يعرفون الجزء القاتم ، الطفالي والسلبي ، من شخصيتهم، « يسقطون » هذا الجزء على الآخرين ويجرّون في أعقابهم ملايين من الناس الطفاليين مثلهم(١) .

وسيعرض هذا الكتاب مستخلصات من الجلسات ، وحالات ، وضروبا من حوار المرضى الذاتي ومن الحوار بين المحلل والمريض . ومن المؤكد أن ذلك كله يرتكز على احترام الفردية الانسانية احتراما مطلقا . وهذا الاحترام الذي يكنّه علم النفس لكل شخصية (سليمة أو مريضة)، يشاطره فيه كل منكم عندما يلاحظ أن التحليل يمثّل حالة « وحيدة » في حياة فرد من الافراد .

والتحليل شيء رائع وعسير وقاس . فهو يقتضي من الفرد أن يدخل

---

(١) انظر فقرة « الاسقاط » في فصل « ذكريات الطفولة » .

(*) الدين ، بحسب الاشتقاق في اللغة الفرنسية ، يعني الصلة ، وسيتضح لنا ذلك في مجرى الكتاب « م » .

« في صدام » مع ذاته ، وأن يضع الاجزاء الاكثر « **ظلاما** » من شخصيته تحت الضوء ، كيما يخرج من ذلك موحّدا . ولكنه ضرب من البعث الحقيقي « أن يجد الانسان مجددا » . ذلك هو التحليل : ولادة جديدة ، وكشف الذات للذات ، وصعود هذه العاطفة « الدينية » التي كنت قد تكلمت اليكم عليها . ولكن التحليل يتصف أيضا بأنه تحرير لـ **طاقة** هائلة في بعض الاحيان . وهذا أمر منطقي اذا تخيّلنا الكمية الكبيرة من الطاقة التي « توقفها » العقد وضروب الكبت والحصر !

ويلاحظ المرء مذهولا انه عاش على أسس مزيفة ، وعلى وجهات نظر منحرفة . ويلاحظ أنه استند الى **انا مشوّهة ،** ومتصدعة ، ومصابة بالضعف ، نظرا الى انها تنقاد بـ « العقد » التي كان يجهل وجودها ، ولكنها كانت تولّد ، في السطح ، اعراضا مؤلمة تمزق الانسان على وجه التقريب .

٣ ـ العرض والجذر

ها هو ذا موظف مصاب بـ « الاكتئاب العصبي » . انه يقول : « السبب في ذلك أنني اعمل فوق طاقتي » . والحال أن الاكتئاب العصبي ضرب من السلة التي يندّس فيها كل ما لا يمكن تحديده ، وذلك من خلال كتلة هائلة من الاعراض الممكنة . وبالاختصار ، يُعزى الاكتئاب العصبي هنا الى « الارهاق » . ثم نلاحظ أن هذا الموظف يعمل في الحقيقة كثيرا . بل انه يعمل **عملا يتجاوز طاقته بكثير ، ولكن ليس للاسباب التي يعلنها.** ونلاحظ كذلك انه يعاني حصرا دائما أمام رؤسائه ، وأمام الغير بصورة عامة . ويخاف دائما من أن يكون « مخطئا » ، حتى في الاعمال الاكثر ابتذالا . فالارهاق يغيّر وجهه ، ويصبح **ارهاقا انفعاليا ،** الامر الذي يختلف كل الاختلاف . ثم نلاحظ أن هذا الموظف يعمل دون توقف **كما لو** ان ثمة « شيئا ما » « كان يلاحقه » . فنقتنع بالتأكيد على عواطف لاشعورية من الاثمية والدونية والحصر والعدوانية المكبوتة ، الخ . ان هذا الرجل ، على أي حال ، **ينبغي ان يحتمي دون توقف** من حصره . ينبغي له اذن أن

يبدي للغير « واجهة » عليه أن يتعهّد رعايتها بتكاليف باهظة ... واعني بذلك أن يصرف كثيرا من الطاقة . فليس « الارهاق » اذن موضع الاتهام على الاطلاق ، وانما الخوف والحصر .

ها هي ذي فتاة صبية تعاني عصاب الاخفاق . فكل شيء يحدث **كما لو** أنها كانت تبحث عن الاخفاق . وتبدو وقد زالت عنها الكربة عندما « تفشل » في شيء من الاشياء . **ولكن ذلك كله يظل لاشعوريا .** وهي لا تعلم أن الاخفاق النهائي قد يمثل ضربا من « السلام في الفراغ » ، ولكنه يمثل في الوقت ذاته « عقوبة » مطلوبة بصورة لاشعورية . فنحن اذن لا نزال في مشاعر الدونية . ولكن ماذا تقول هذه الصبية ؟ انها تحاول « تبرير » كونها لا تحضر أي اجتماع ، وليس لها أي صديق : « أكره المجتمع الذي يتصف بالمراءاة » . وها هو ذا سبب في عداد أسباب اخرى، لا ينطبق قطعا على الواقع العميق . وتلك هي الوحدة ، في أثناء ذلك ، وربما الرغبة في الانتحار ، وآلام أخرى . **وليست جميعها سوى اعراض .**

ويمكن على هذا النحو أن نكثر من الامثلة : ولكن هذه الامثلة ستكون منتشرة في هذا الكتاب . اذن ، الا تعتقدون أن ثمة كثيرا من الناس يقودهم ، رغم أنفهم ، لاشعور مزدحم ومضطرب ، وأن ثمة كثيرا من الناس الذين تسبح « الانا » لديهم في مستنقع من الدموع ، وضروب الحصر ، والاثم ، وأن ثمة كثيرا من الحيوات المتحجرة ؟

٤ ـ هل يتوجّه التحليل النفسي الى المرضى على سبيل الحصر ؟

لقد تجاوز التحليل النفسي هذا التساؤل ! فالتحليل النفسي مذهب انساني وأداة قوية للاستقصاء ، قبل كل شيء . انه وسيلة للربط مجددا . وهو مبضع كذلك . والرأي القائل ان كل شخص يباشر تحليلا نفسيا يتصف بأنه مريض أو مصاب بعصاب رأي خاطىء . والاشخاص الذين يقع على عاتقهم أمر العناية بالآخرين يقبلون بصورة متزايدة على

سيكولوجية الاعماق : أساتذة وقسيسون ومديرون وعلماء نفس شباب وطلاب طب ، الخ . ويقبل عليها كذلك اطباء يرغبون في تحقيق افضل مقاربة ممكنة من مرضاهم ، وآباء يدركون وجود مشكلات كبيرة عميقة ويرغبون في أن يحققوا في أنفسهم توازنا وصحوا يمكن لهم نقلها الى أطفالهم ، الخ .

والتحليل ، وأكرر ذلك ، مخصص لتنمية الشخصية ولمعرفة الدافعيات العميقة التي تتصف على الغالب بأنها على نقيض الدافعيات الظاهرة . وسيكولوجية الاعماق مادية وروحية معا . فهي مادية لانها اداة انسانية دقيقة تتوجه الى الآلام النفسية ، الشديدة في بعض الاحيان، بقدر ما تتوجه الى الصحة . وهي روحية كذلك ، لانها تتيح لبعض الناس أن يكتشفوا ينابيعهم العميقة ، الغائرة في الغالب . وتتيح سيكولوجية الاعماق أن يفيد المرء من كل ما يبقى مخبأ في ذاته تحت راقات من الحمم التي راكمتها ظروف الحياة . وعلم النفس الحديث اكتشف الكواليس التي تقود الى اللاشعور ، ثم فجّر حدود الفردي لكي يندفع نحوالاجتماعي والثقافي ، وبالتالي نحو جميع الناس . وعلى هذا النحو ، نصل الى اكتشاف النفس العميقة التي تبقى امكاناتها على الغالب مخبأة كالينابيع.

ذلك أننا نعلم في أيامنا هذه أنه اذا كان فقدان الشعور والعقل يعني الاغتراب ، فان من المعلوم أيضا أن لاشعوراً انسانيا يظلّ بلا عناية يعني فقرا وخمولا انسانين . فأي انسان لا يعيش **الا** على لاشعوره ، انسان مصاب بالاغتراب . ولكن أي انسان لا يعيش **الا** على العقل ، ليس الا نصف انسان .

يقال غالبا ان التحليل النفسي لا يتوجه الا الى النخبة . وهذاصحيح: ولكن لا بالمعنى « الاجتماعي » للكلمة على الاطلاق. فكل شخص يفكر تفكيرا ضيقا وخسيسا ، ويتصف بأنه متخثر ، ويحتاج الى أن يسود أو أن يكون مسودا ، شخص مريض . **ومريض كل شخص يظل وكأنه فقاعة على سطح ذاته .**

وعلى هذا النحو انما يتصف أحيانا بعض الاشخاص ، الذين يقال عنهم « أسوياء » ، بأنهم أشد مرضا من بعض المصابين بالعصاب ، اذا كانوا يعيشون حياة متحجّرة ، ومتخثّرة من الناحية الداخلية . وهكذا يتخذ السؤال : « مصاب بالعصاب أم لا ؟ » كل معناه في اعتقادي .

٥ ـ هل التحليل النفسي ضرب من الترياق ؟

لا شيء يتصف بانه ترياق . ولكن لا بد من الاعتراف بأن للتحليل على الغالب أهمية واسعة ، ويكون أفضل علاج معروف حتى يومنا هذا للعصاب الذي يمكن للتحليل أن يشفي منه ، أو أن يصلح جميع صوره . ولا بد من معرفة أن التحليل شيء مهم ، طويل المدة وباهظ التكاليف . والنتائج عميقة على الغالب : فالمريض « يجد نفسه مجددا » ، ويكتسب أخلاقا جديدة ، لا أخلاقا اتفاقية أو عصابية ، ووعيا تاما بمسؤولياته الحقيقية ، في حين ان هذه المسؤوليات كانت من قبل منوطة على الغالب **بالانا العليا** . انه يجد آليات جديدة تتيح له أن ينمّي فاعلياته ويمدّها .

وهل ثمة مضادات للاستطباب في التحليل النفسي ؟ نعم . فالمريض لا يمكن أن يتورط في وضع اجتماعي معقد ، ذلك ان التحليل « يضع كل شيء موضع التساؤل » . وعليه أن يتمتع بذكاء داخلي يتيح له أن يعرف ماذا يفعل ولماذا . يضاف الى هذا ان **التحليل ليس علاجا مستعجلا على الاطلاق** . وعلى هذا النحو انما يمكن للمرء ، في بعض الحالات ، أن يوفّق بين التحليل والصدمة الكهربائية ، بين التحليل والعلاج النفسي الجماعي ، بين التحليل والعلاج السريري ، الخ .

والتحليل عمل في منتهى الدقة ، ما دام مخصصا لاستئصال البنى المزيّفة ، بنى الشخصية (ونحن نجهل ان كان ثمة امكان لوجود بنى مزيفة فيها !) . والتحليل الناجح تمام النجاح ولادة حقيقية جديدة . وغني عن البيان أن التحليل لا يمكن أن يقوم به الا عالم نفس محلل خبير ، اذ انه يرمي الى تعديل علاقات الفرد بذاته وبالمجتمع ، اما بنزع طابعها العصابي ، واما بجعلها تمتدّ وتتعمّق . وعلى أي حال ، يخرج المرء من التحليل متبدّلاً و « بوجهة نظر » جديدة كل الجدة .

٦ ـ ماذا يحدث في أسرة من الأسر ؟

ماذا يحدث اذا شرع احد الزوجين في تحليل سيغيّره تغييرا كبيرا ؟ فمعظم الزيجات تحقق ضربا من « التوازن » بين شخصيتين : ولنضرب مثلا مبتذلا جدا : ان الرجل « القوي » ذو نزعة الى أن يتزوج امرأة « ضعيفة » ، والمرأة العدوانية تتزوج رجلا مخنثا ، والرجل المستبد يتزوج امرأة مازوخية(١) . فكثير من الزيجات تكوّن اذن ضربا من توازن التسوية ، ذي قاعدة عصابية على الاغلب . ونحن اذن نواجه الحكاية الخرافية ، اذا صح القول ، حكاية الاعمى والمقعد ... فماذا يحدث اذا استعاد الاعمى بصره ، أو اذا شرع المقعد في المشي ..؟

ولنفرض رجلا مستبدا يتغير تغيرا كبيرا عقب التحليل . فهو اذن يكفّ عن أن يكون مستبدا وعدوانيا ... لانه بكل بساطة تخلص من عصابه . وفي هذه الآونة اياها ، ينهار التوازن المزيف الذي كان يمثله زواجه . فهذا الرجل الذي كان ، من قبل ، **بحاجة** الى خضوع زوجته، لم يعد بحاجة اليه . ويمكن القول ، على وجه التقريب ، ان زوجته اصبحت غير مفيدة له من الناحية النفسية . انه لم يعد بحاجة الى « فريسته » . والخصائص التي كانت « متكاملة » لم تعد كذلك . فالزوج لم يعد مصابا بالعصاب ولم يعد يتألم ، وهذا أمر مفهوم . ولكن زواجه لم يعد له معنى ، أو ، على الاقل ، لم يعد له المعنى « العصابي » الذي كان له من قبل ! فما الحل ؟ قد يحدث غالبا ان تشرع زوجة ذكية ،هي أيضا ،في تحليل نفسي . **وعند ئذ نرى ازواجا ، تورطوا في زواج «عصابي»، ينفلتون ، بعد تحليل نفسي ، الى صورة اخرى من صور الزواج ، صورة متفتحة ومتوازنة ، مختلفة كل الاختلاف عن الصورة الاولى** . وكل زوج من الزوجين يصبح « كاملا » بذاته . ويصبح القرين اضافة مجيدة على على وجه التقريب ، بدلا من أن يكون مكمّلاً لعصاب الآخر ... فهل هذا أمر نادر ؟ انه أقل ندرة مما يمكن اعتقاده بكثير .

---

(١) تعني المازوخية هنا خضوعا مرضيا .

٧ ـ هل يمكن لمحلل نفسي أن يعالج زوجين في الوقت نفسه ؟

لا يمكن لمحلل نفسي أن يعالج زوجين في وقت واحد ، باستثناء حالات خاصة جدا كما قلت . واذا رغب احد الزوجين في الشروع بتحليل نفسي في الوقت الذي يشرع الآخر به ، فان المحلل يرسله دائما الى زميل من زملائه ، هذا اذا لم ينصحه بالتريث الى أن يكون تحليل الاول قد أشرف على نهايته . وذلك أمر يمكن فهمه جيدا . ولن يعطي محلل نفسي أبدا أتفه معلومات الى أي شخص كان . **ولن يستقبل اذن أبدا اي شخص قريب لمريضه** . فالسر ، في التحليل النفسي ، مطلق بالمعنى الذي يتصف بأنه أكثر تقديسا للكلمة . يضاف الى هذا أن المرء يدرك ادراكا جيدا أنه اذا كان على المحلل أن يستقبل (ولو لمرة واحدة) شخصا قريبا للمريض ، فان ثمة تداخلات تنشأ مباشرة ، تداخلات تحكم على العلاج بالاخفاق . وذلك صحيح حتى ولو كان على المريض أن يسجّل موافقته (موافقة سيرفضها المحلل مع ذلك) . وينبغي أن لا نأخذ الامر على اطلاقه مع ذلك . فكل شيء منوط بفهم الزوجين وذكائهما . ومن المرغوب فيه أحيانا تقديم بعض النصائح الى الزوج الذي لم يشرع في تحليل نفسي ، بهدف مساعدته على تبني موقف مقبول ازاء الآخر .

٨ ـ وما شأن الدين في التحليل النفسي ؟

هل يمكن لاختصاصي في التحليل النفسي أن يحلّل شخصا ينتسب الى دين أو مذهب غير دينه أو مذهبه ؟ انني أعتقد شخصيا بالايجاب . فالمحلل النفسي ينبغي أن يكون « خارج اطار » اي أخلاق تقليدية وأي دين . ومن المؤكد أن بوسعه الانتماء الى جماعة دينية . ولكن عليه أن يكون قادرا على أن « يفصل قاطعة » شخصيته الخاصة عندما يعمل . وعليه أن يتخلص الى الحد الاقصى من الآراء المسبقة الطبيعية . وبمناسبة الراي المسبق الطبيعي ، أرغب في أن أتكلم على الافكار التي يكتسبها المرء بالتربية في بلد معيّن ، وفي ثقافة معينة ، وفي مناخ ديني معين . فالمحلل

ينبغي أن يكون « خارج هذه الاطر » ، وأن يحس باحترام مطلق ازاء كل شخصية ، مريضة أم سليمة ، ملحدة أم مؤمنة ، طفالية أم غير طفالية .

٩ ـ وما شأن الايمان في التحليل النفسي ؟

يسمع المرء غالبا يقال : « هل صحيح أن التحليل النفسي يفقد المحلّل ايمانه ؟ » .

ليس لهذا السؤال معنى أكثر من السؤال السابق .

فالتحليل مرصود لاستئصال العصاب ومنح شخصية أصيلة منحا جديدا . والتحليل يدفع بالموجود الانساني نحو كليته ، ونحو تلاؤم مرن مع الواقع . ولكن ، لنفرض أن شخصا **يعتقد** بأن لديه الايمان ، في حين أن هذا « الايمان » عرض عصابي ، وليكن ، على سبيل المثال ، اعتقادا باطلا ، أو إثمية مبالغا فيها ، أو ضروبا من الرهاب ، أو وساوس مرضية ، أو طفالة ، الخ . ومن المؤكد عندئذ أن هذا **الايمان المزيف** ، ايمان هذا الشخص ، يتلاشى في أثناء الطريق . **فكل شيء منوط اذن بأصالة الايمان وعمقه** . وثمة كثير من القسيسين الذين يباشرون تحليلا نفسيا . فلماذا ؟ انهم يباشرون ذلك بهدف معرفة أنفسهم معرفة أفضل ، أولا ، وبهدف أن يخرجوا « خارج أنفسهم » ، وبهدف اقصاء عصاب ، اذا كان لديهم عصاب ، وبهدف أن يصبحوا « مرتبطين بالآخرين » . وعلى أي حال ، ينبغي للكاهن أن يخرج من تحليل نفسي وقد أصبح كاهنا أصيلا ، وكاهنا واسع الافق . ومن الممكن ، مع ذلك ، أن يبين لهذا الكاهن ، في أثناء الطريق ، أنه انضوى الى الكهنوت بسبب عصاب (وذلك بأفضل ما في العالم من اخلاص) . انه انضوى ، **على سبيل المثال** ، لان عصابه وحصره كانا يدفعانه الى الهروب من الواقع والمسؤوليات ، والى أن يتخندق في شرنقة ، والى أن يعود الى « رحم الام » (دير ، على سبيل المثال) ، الخ . **فالايمان المزيف** اذن ، ايمان هذا الكاهن ، يزول . ولكن من الممكن أن يكتشف في أعماق ذاته راقا دينيا قويا ، جديدا ، أروع الف مرة من الراق القديم .

ويرى المرء اناسا كاثوليكيين يخرجون من تحليل نفسي خير الكاثوليكيين ... أو يخرجون ملحدين . ولكنه يرى أيضا ملحدين يخرجون من تحليل نفسي مزودين بايمان راسخ مشع . فمن المتعذر اذن ، في البدء ، أن نحدّد الهدف الذي يبلغه احد الكاثوليكيين ، أو أي شخص ينتمي الى جماعة دينية معينة . ان التحليل النفسي ، كما سأقول لكم على الغالب ، مغامرة كبيرة . فهو « تقشف » صائر الى اقصاء الطفالات ، واعادة الاصالة وحالة الرشد لشخصية من الشخصيات . انه رأس الرجاء الصالح في الحقيقة .

١٠ ـ هل التحليل يدمّر ؟

يسمع المرء على الغالب يقال : من المحتمل أن يكون التحليل(١) شديد الخطر . ويسمع عندئذ حديثا عن تحليل فاشل ، وعن مرضى ينتحرون ، الخ . فما الممكن في كل ذلك ؟

من المؤكد ان التحليل النفسي يرمي الى « الهدم » لكي يبني . ولكن ، اي شيء يهدم لكي يبني اي شيء مجددا ؟ ومن المؤكد كذلك ان ملايين الناس يبلغون سن الرشد دون أن يعرفوا أبدا شخصيتهم الحقيقية ، وبالتالي دون أن يستخدموها أبدا . والحياة راكمت حثالات ، وضروبا من الكبت والكفّ والحصر ، الخ . ومن جميع هذه العوامل السلبية ، احتمى الشخص بمجموعة من البنى الفوقية التي « فرضت » في نهاية الامر شخصيته الحقيقية . فالتحليل يرمي اذن ، لا الى أن يرفع شيئا ما ، وانما الى أن يبعث ما يوجد مطمورا . والموجودات الانسانية متخمة بامكانيات تجهلها جهلا الى الابد . والسبب أن هذه الموجودات اهتمت ، يوما بعد يوم ، بأن تحتمي من ضروب من الحصر العميق ، وبأن

(١) اذكّر باني استخدم مصطلح « تحليل » سواء كان التحليل النفسي « فرويد » هو المقصود أم علم النفس التحليلي (يونغ) .
ويقتضي الاسلوب ، في اللغة العربية احيانا ، ان نضيف الصفة « نفسي » الى هذا المصطلح « م » .

تمثل ادوارا عليها أن تتعهدها بالرعاية حتى لا تغرق في الحصر ، الخ . ويبيّن لكم هذا الكتاب ، في الحقيقة ، كيف أن الخوف ، الشعوري أو اللاشعوري ، يقرض الغالبية العظمى من الموجودات الانسانية . فليس هدف التحليل اذن ، بالتأكيد ، أن يدمر الشخصية الحقيقية ، وانما أن يحطم العصاب الذي يقوّض « الأنا » الحقيقية . . . **عصابا نحسبه الخلق الواقعي على الغالب** . ومن المؤكد كذلك أن هذا العمل الداخلي كله لا يتم دون اضطرابات عميقة . وسأبين لكم كيف أن تحليلا نفسيا ينتهي الى أن يربط ربطا متناغما بين أجزاء شخصية كانت من قبل مشتّتة ومقسومة الى قطع متناقضة على الغالب .

١١ ـ تحليل المراهقين

يمكن تماما لمراهق من المراهقين أن يباشر تحليلا نفسيا كالراشد سواء بسواء . ومع ذلك ، ثمة صعوبة قصوى في انجاز هذا التحليل . فما السبب ؟ السبب أن المراهق يبقى ، بالنظر الى أنه قاصر ، تحت رقابة ابويه . والمحلل ، بالتالي ، ملزم بـ « اطلاع » الابوين على العمل الذي يتم . وبناء عليه **يتعذر احترام المبدأ المقدس للسرية المهنية والعلاج الفردي** . فينشأ اذن ، على نحو سريع ، تداخلات بين الابوين والمحلل ، وبين الابوين والمراهق ، تداخلات تجعل من التحليل النفسي أمرا متعذرا من الناحية النفسية ، بالمعنى العميق للمصطلح .

رابعا ـ بعض المسائل الأولى

١ ـ هل ينبغي أن يعتقد المرء بالتحليل لكي يباشره؟

لا بد على وجه الخصوص من أن يعرف المرء ما هو التحليل ، ولماذا يباشر تحليلا . فالتحليل عمل من اعمال التعاون الكثيف بين الاختصاصي ومريضه . انه مهمة لا ترتضي أي سطحية من جانب المحلل ، ولا من جانب المريض . والتحليل ، قبل كل شيء ، بحث عميق يبغي ضربا من بناء الشخصية أو اعادة بنائها .

٢ ـ هل ينبغي أن يختار المرء محلّله ؟

نعم . واكرر أن التحليل النفسي تعاون دائم وصادق بصورة مطلقة . وهو يمثّل حالة وحيدة في حياة . انه عمل تتسم الحرية في اثنائه بأنها كلية . فمن الواضح اذن أن على المريض أن يثق ، منذ البدء ، ثقة قصوى بمحلله . كذلك على المحلل أن يثق بامكانات مريضه . وليس للتحليل اذن صلة بالذكاء والثقافة والمستوى الاجتماعي ، الخ* وانما تقتصر صلته على الذكاء **الداخلي** للمريض . والتحليل مدرسة تواضع قبل كل شيء .

٣ ـ هل العلاج السيكولوجي علاج طويل ؟

كل شيء منوط بالطريقة المستخدمة . فاذا كنا نتعامل مع طريقة سطحية يقدّم فيها الاختصاصي نصائح وتوجيهات ، كان العلاج قصيرا الى حد . بيد أن من المؤكد أن هذا العلاج لا يهاجم غير الاعراض . وعصاب المريض يبقى في الاعماق بكرا من الناحية العملية ، ويحتمل أن يولد أعراضا أخرى ، ولو أن المريض يتلاءم مع الحياة تلاؤما حسنا .

ويدوم العمل في الاعماق زمنا طويلا . ومن اليسير فهم ذلك . فاذا انحنت شجرة خلال سنين لتنجو من ريح عاتية ، كان من المؤكد أن ليس بالامكان تقويم هذه الشجرة دفعة واحدة ، تحت طائلة تحطيمها على الفور (والريح هي التي ينبغي ازالتها مع ذلك !) . يضاف الى هذا أن **العصاب مرض** . والعصاب ، شأنه شأن أي مرض ، محاولة تبذلها العضوية لاعادة التوازن . فالعصاب حلّ من حلول التسوية . انه محاولة للتلاؤم الفاشل . والشخص ، طيلة سنين ، تعلق بضروب من الامن الداخلي المزيف . ولقد تعلق بكلاب مفروز في حائط حتى لا يقع في الهاوية التي كان يعتقد أنها موجودة تحته . وعندما يباشر أحد الاشخاص تحليلا ، كما سأقول لكم أيضا ، فانه يباشره بهدف استئصال **أعراض مؤلمة** في تسعين بالمئة من الحالات . والحال أن هذه الاعراض تتصف بأنها ، في الغالب ، على نقيض العصاب ذاته ، الموجود في الاعماق . ويتبيّن اذن أن **العضوية ترفض** اذا

أردنا أن نستبعد عصابا على وجه السرعة الكبيرة ، والنتيجة الوحيدة لعمل يتوخى أن يكون **شديد** السرعة هي أن يغوص المريض في ضروب من الحصر غير المحتمل ، تجعله يتعلق ، على نحو أشد أيضا ، بصنوف من الامن المزيف . ولنفرض أن سارقا مسلحا **(ضروب الحصر اللاشعوري)** موجودا خلف الباب المقفل **(ضروب الامن ضد الحصر)** ، وأن جارك **(المحلل)** يريد أن يفتح هذا الباب بعنف ، دون أن يكون لديك السلاح الضروري ، فماذا تفعل ؟ انك قد تضيف بسرعة قفلين أو ثلاثة ، وانت على صواب (١) . فعلى المحلل اذن أن « يحدّد جرعة » عمله ، بغية تقدم متناغم للعلاج .

لا بد اذن من المضي في التحليل بهدوء . هذا هو السبب في أن تحليلا نفسيا **كلاسيكيا** يدوم أبدا من سنة الى سنتين على الاقل ، بمعدل مرة واحدة في الاسبوع على الاقل . وذلك يرعب كثيرا من الاشخاص . وهم على خطأ . فلنتخيل كسرا بسيطا : يعدّ كل فرد أمرا طبيعيا أن من الضروري وضع العضو المكسور في الجبس لشهر او اكثر ، وأن ساعات عديدة من التدريب لا بد منها ! وهذا الوضع ، وضع العضو المكسور في الجبس ، يعطي ، بمعدل اربع وعشرين ساعة في اليوم ، ما يقارب ثماني مئة ساعة . . . ولكننا اذا فكرنا بأن عصابا يكوّن « كسرا » في الشخصية كلها ، كسرا يدوم على الغالب منذ عدد كبير من السنين ، فانني لا أرى ما يوجب أن نندهش من أن تحليلا نفسيا عميقا يستلزم من خمسين الى مئتي ساعة . والحقيقة أن هذه الجلسات موزّعة زمنيا : الامر الذي يعطي هذا الانطباع بطول المدة . وهذا هو السبب ، من جهة اخرى ، في أن تحليلا نفسيا لا يتصف بأنه علاج مستعجل على الاطلاق .

واذا لم يكن ثمة عصاب ، فهناك ، على الرغم من كل شيء ، ضرب من التصلّب في السلوكات ، وفي أساليب الادراك والتفكير والعمل ، تصلب كان الآخرون ، من مربين وتربية بالمعنى الواسع ، قد أوجدوه ، وكان قد

---

(١) انظر « المريض يقاوم » ، في فصل « صوب منبع النهر » .

وجد بوصفه رد فعل ضد هؤلاء الآخرين . ومن الناحية العملية ، لا وجود لشخص بوسعه أن يدّعي أنه سلك دربه **الخاص به** ، ما دام قد وقع منذ ولادته ، في النسيج العنكبوتي الضخم ، نسيج المجتمع ...

فلنكرّر اذن أن التحليل النفسي يتطلّب ، بصورة نسبية ، زمنا زهيدا ، اذا ما قورن بتجبير كسر مبتذل . ومن المؤكد أيضا ، بالاضافة الى ذلك ، أن الحصول على نتائج التحليل الرائعة لا تقتضي الانتظار من عام الى عامين . فهذه النتائج تتجلى منذ أن تتحرر بعض الطاقات التي جمّدها العصاب ، وتصبح جاهزة ، وتعزّز الشخصية. ومن جهة أخرى، عندما يقضي المرء « في السجن » سنين عديدة ، وقد يبقى طيلة حياته ، الا يستأهل أن يقضي سنتين في صنع حريته ، لكي يتمتع بشخصية مستردّة ؟

٤ ـ هل ثمة اتخاذ لقرارات بالغة الاهمية في أثناء التحليل ؟

الجواب مبدئيا بالنفي . ها هي ذي ، على سبيل المثال ، صبية تشرع في تحليل نفسي لانها تعاني ، وقد تمت خطوبتها للمرة الثانية ، حصرا مرعبا في كل مرة أمام الزواج الذي يقترب ، فترجىء عندئذ زواجها الى أجل غير مسمى ، ثم تلغيه . ومن الواضح اذن أن « ثمة شيئا ليس على ما يرام » . فماذا عليها أن تفعل ؟ وليس بوسع المحلل أن يقدم اليها نصيحة تتصف بانها شخصية . ان على الصبية أن تتخذ القرار . ومن المؤكد ، والحال هذه ، أن هذه الصبية ستتغير : انها ستستاصل كتلة من الاعراض العصابية . فما سيصبح عليه عندئذ زواج تقرّره بصورة مفاجئة كيما « تتجاوز » حصرها ؟ هذا الزواج سيكون فاشلا . فليس اذن الا بعد مرور بعض الزمن انما يمكن اتخاذ قرار جدير بهذا الاسم .

وينبغي ، من حيث المبدأ اذن ، أن لا تتخذ قرارات بالغة الاهمية في أثناء تحليل نفسي ، وانما ينبغي الانتظار الى أن تنطلق الشخصية الحرة .

وفي هذه الفترة ، يتخذ الشخص قرارا وهو يعرف جميع الوقائع . واناه الشعورية ، والارادية ، والعقلانية ، هي التي تقرر ، بدلا من أن توجّهها ، كما كان الامر عليه من قبل ، دافعيات مزيفة .

٥ ـ وما شان الوسط ؟

ماذا يحدث في وسط شخص يباشر تحليلا نفسيا ؟ من المؤكد أن التحليل النفسي لا يسلك دائما منحنى منسجما . فالشخص ، خلال تحليل نفسي ، يرى نفسه « كما هو عليه » . وثمة ضروب من الحصر تصعد الى السطح ، ظلت حتى هذه اللحظة لاشعورية . والشخص يحتاز الشعور تدريجيا بعصابه ، ويدرك أن ما هو عليه لا ينطبق مع ما كان يعتقد انه عليه . ويتصور المرء اذن ، بصورة مباشرة ، أن ثمة اضطرابات تنشأ ، وان المريض يمكن أن يكون ، لبعض الوقت ، عدوانيا ، ومصابا بالحصر ، وذا مزاج سيء ، الخ . ومن الواضح أن ذلك كله ينعكس على وسطه الذي يتصف فهمه بانه ذو اهمية اولية . وقد قلت ، والحال هذه ، ان كل تحليل كان دائما تحليلا فرديا ، وليس مطروحا على بساط البحث مطلقا أن تمطى الى شخص من الوسط اتفه المعلومات . ويدرك المرء اذن ان على الوسط ان يتصف بفهم واسع جدا . انني ، من جهة اخرى ، استأنف المثال الذي ضربته فيما سبق . فاذا تزوجت امراة شديدة الخضوع رجلا مستبدا ، كنا نواجه زواجا عصابيا . واذا كفّت هذه المراة عن أن تكون خاضعة ، فان الزوج المستبد لا يكون راضيا ، بما أن « فريسته » أفلتت منه . ولكن هذا الزوج سيدرك أن استبداده عصاب ، اذا كان ذكيا ، وليس ثمة ما يخشى في هذه الحالة .

ومن جهة أخرى ، ها هي ذي بعض الاسئلة ، التي تسمع على الغالب ، ذات العلاقة بمشكلة الوسط .

ـ بالنظر الى انني وديعة بصورة مزيّفة ولطيفة بصورة مزيّفة (لانني خائفة) ، ماذا ساكون بعد التحليل ؟ أولم اكبت عدوانيتي خلال سنين عديدة ؟ وهل أبقى مقبولة المعشر

بالنسبة الى أهلي خلال الزمن الذي تنطلق فيه هذه العدوانية المكبوتة ؟ وكيف ساكون إزاءهم بحسب احتياز الشعور بذاتي ؟

ولكن، أليس من الاجدر أن أبقى كما انا، حتى ولو اني أتالم، من أجل طمانينة زوجي، ما دام قد تزوجني بحسب مظاهري ؟

ولكن ثمة اعتبارات أخرى توطّد التوازن :

ـ اذا نجحت في تحليلي ، سأصبح صادقا . ومن المحتمل عندئذ أن يتوافر الصدق العميق في صلاتي بأهلي .

ـ حسبي ، في اعتقادي ، أن أتغير ، أنا ، لكي يتغير كل شيء حولي . ومن الطبيعي أن يشع التوازن كذلك اذا كان الحصر يتنقل واذا كان العصاب ينعكس على تربية الاطفال .

وعلى أي حال ، ليس بوسعنا سوى أن ننصح وسط شخص يباشر تحليلا نفسيا ، سواء كان مصابا بالعصاب أم لا ، بأن يتركه هادئا وان لا يطرح عليه أي سؤال . فان تكلم الشخص على التحليل بصورة تلقائية ، فبه ونعم . وان لم يتكلم ، ذروه « يجد نفسه » على راحته ، وقولوا ان التحليل ، وان كان مغامرة رائعة ، خال من كل ما هو ممتع ما دام مستمرا ، نظرا الى أنه « تنظيف » نفسي ... فنحن اذن بعيدون عن علم النفس القليل الخبرة .

٦ ــ هل يتغيّر المرء عقب تحليل نفسي ؟

هل يتغير المرء عقب عمل سيكولوجي عميق ؟ نعم ، لانه يخرج منه مختلفا عما كان عليه . ومع ذلك ، فانه لا « يتغير » ، بل **يجد نفسه** كما كان **ينبغي** أن تكون . وهدف سيكولوجية الاعماق أن تنبش ما كان قد بقي مخبأ في قعر الشخصية ، ما كان مطمورا ، وغير مستخدم ، ومقنعا ، وموضوعا في حالة الانتظار . ذلك أن الواقع هو أن المرء يضيع في أثناء الطريق ، طريق الحياة . ويحاول كثير من الناس أن يتكيّفوا معها تكيفا سيئا على وجه التقريب ، بأن يحتموا وفق استطاعتهم (بواسطة العصاب غالبا ، كما سنرى) .

ويصبح المحلل ومريضه ، بصورة سريعة من جهة اخرى ، « اتحادا » من أروع الاتحادات : **رفيقي طريق** .

والمحلل يعرف الرحلة والمكائد والعواصف ، لانه واجهها . وسيكون على رفيقه ، بدوره ، أن يسلك الطريق التي يعرف المحلل أنها ستنتهي بكاتدرائية .

ولكن الآخر لا يزال يجهل الدرب الحقيقي ، **دربه** ، لانه تاه ، خلال سنين ، في دروب غير معروفة ، حيث كان كل شيء ضبابا ، ومكائد ، وخوفا ، واوهاما ، وتشوهات ، وحصرا ، مارا باستمرار الى جانب ذاته ، وواجدا أغلاله الطبيعية .

فهل هما ، اذن ، رفيقا طريق وحرية ؟...

٧ ـ هل بوسع المرء أن يكون جرّاح نفسه ؟

أقصد : هل بوسع المرء أن يحلل ذاته تحليلا نفسيا، وان يباشر وحده تحليلا نفسيا ؟ ان المسألة ، اولا ، مسألة معرفة بالتأكيد . ولا يخطر ببال أي شخص أن يجري على نفسه عملية بتر عضو ... مع التسليم بأنه يعرف أين يوجد العضو . ثانيا ، أن يحلل المرء نفسه يعني أن« يرى نفسه » . والحال أن المرء قد يرى نفسه من خلال موشورات داخلية ، وسيميل سريعا الى أن يغمض عينيه . ولنتذكر أن الشخصية (ولنفرض شخصا مصابا بالعصاب) مسلّحة بدفاعات لاشعورية. وقديتعثرالشخص، على نحو سريع،بمجموعة من « السدود » التي تكوّن ضروب أمنه المزيف ، وبمجموعة من الارتاجات الداخلية . وقد يتجلى كل ذلك أنه غير ممكن التجاوز دون « ارشاد » خارجي .

يضاف الى هذا أن الناس لا يميّزون العرض من العصاب ذاته غالبا. وليس بوسع المرء وحده أن يدرك ضروب الكبت والعقد التي تتصف بأنها لاشعورية . فالشخص الذي يباشر « تحليله النفسي الذاتي » ينتهي اذن،

بصورة سريعة ، الى أن « يتخلص بمهارة » ، والى أن يبرّر نفسه في عينيه الخاصتين ، الامر الذي سيكون مفهوما جيدا ما دام ذلك يتيح له أن يفلت من حصره ، وأن يطلق حكما على نفسه . يضاف الى هذا أنه يتعرض الى خطر الوقوع في اعجاب مستهام بذاته (أمام مثل هذا « الكشف » الذي يعتقده مثيرا) ، أو في احتقار لذاته أو كره لها(١) ...

ان تحليلا نفسيا ذاتيا يفضي سريعا ، باختصار ، الى دروب مزيفة **شديدة الخطر** ، والى ضروب من الاستبطان اليرقية ، والى الوان كثيرة من الاجترار ، والى ضروب من فقدان الطاقة ، والى صنوف من الحصر الدائم ؛ الامر الذي يتصف بأنه على نقيض التحليل النفسي الحقيقي .

وهنا ، من جهة اخرى ، انما يجب أن نكرّر التحذيرات من تجار الاوهام ، ومن الوعود الاخرى ذات « النجوع في ثمانية أيام » . والوسائل الصغيرة من هذا النوع لا تتصف بأنها تفيد في شيء فحسب ، بل انها **ضارة**. يضاف الى هذا أنها ضرب من رد الموجود الانساني الى ما لا يتصف به : الى محيط دون دائرة ولا مركز . وهي أيضا احتقار للحياة النفسية الانسانية انطلاقا من وجهات نظر ضيقة على نحو مرعب . وبوسع الاستغلال التجاري ، على هذا النحو ، أن يستند بسهولة الى أساليب قديمة تتصف بأنها من العصور الوسطى وحية دائما . **انها صرّارات(*) علم النفس .**

٨ ـ ولكن ما العمل ؟

ها هو ذا ، على سبيل المثال ، شخص يقول :

---

(١) الامر الذي يعني أن التحويل لن يكون موجها نحو المحلل، وانما نحو ذاته(انظر التحويل الفصل الثامن) ، محدثا ضربا من الوضع الذي يتعذر فهمه .

(*) صرارات : مفردها « صرار » ، حشرة من فصيلة الجدجديات ، تصر في الليل «م» .

ـ ذلك مستمر منذ بضع سنين . هاكم ما يحدث لي : اخرج من منزلي ، وابتعد حوالي خمسين مترا . ثم اتساءل ما اذا تركت شيئا من الاشياء يسقط مني على عتبة الباب ، في حين انني اعلم **انه لا يوجد أي شيء . ولكن** « ذلك أقوى مني » : **فاعود على قدميّ ، واتحقق . واستانف ذهابي . ثم اعود وانا استشيط غيظا لحماقتي . واتحقق . واستانف ذهابي . وأعود أيضا مستخدما الف حيلة حتى لا يلاحظ المارة شيئا ... واتحقق مجددا . فكل شيء على التمام (لقد فعلت ذلك من قبل !) اذا لم اضع شيئا ما على عتبة الباب حتى يكون بوسعي أن اقول لنفسي :** « هو ذاك . كان ثمة شيء من الاشياء . فالتقطه . وبهذا الاسلوب ، اتأكد انه لم يعد هناك شيء » . **ويستهلك كل تحقق جديد زمنا اكبر من التحقق السابق بقليل . وادخل اصبعي بعض الاحيان ، في زوايا الحجر ، في حين انني اعلم أن ليس ثمة شيء يمكن ان اكون قد فقدت فيها ، مع ذلك ! انه لامر بشع ! انني اضرب رأسي بالحيطان ، ولكن ليس ثمة حيلة . فانا مدفوع الى ان افعل ذلك ، حتى الانهاك الكامل ...**

تلك حالة من حالات « هوس التحقق » . انه يلحق بضروب من « الهوس » الاخرى المنتشرة انتشارا كبيرا ، والخاصة بالتحقق من اغلاق الغاز والماء والكهرباء والابواب ، الخ .

وسيقول هذ الشخص : « **ولكن ماذا بوسعي ان افعل ضد هذا الهوس** ؟ » والحال أن هذا الهوس ليس الا عرضا في عداد اعراض اخرى . انه عرض يتصف ، بالنسبة الى الشخص ، بأنه مذهل ومنهك ... ولكنه عرض مع ذلك . ويجد المرء بالتأكيد مئات من السلوكات الاخرى ، اقل وضوحا ، ولكنها تعبّر كلها عن اضطراب عميق في الشخصية **كلها** . وثمة احتمال كبير في أن هذا الشخص يعاني اثمية معممة (ولاشعورية) ، وله « **أنا عليا** » مسمومة (١) ، ويحس احساسا دائما بأنه « **مخطىء** » . وسنرى ذلك غالبا .

فما العمل اذن ؟ هل نشرح له الامر شرحا **عقلانيا** ؟ هل نقول له ان العرض غير السبب العميق نهائيا ؟ كيف تريدون أن يفهم المريض **الآن**

---

(١) انظر فصل « عندما الشيطان يقود الرقص » .

ذلك ما دام لا يعاني **الا** عرضه ؟ كيف تريدون أن يحتاز الشعور **مباشرة** بما هو مطمور في لاشعوره منذ سنين عديدة ؟ واذا قيل له انه **بحاجة** الى عرضه ، لان هوسه يتيح له أن يقول لنفسه : « فعلت ما يجب علي ، فلست اذن مخطئا ، بل انني حسب الاصول ، ولم يعد يجازف أي شخص بالحقد علي ، انني اذن لست مذنبا » ، ويستهزىء بالاختصاصي . . . وهو على صواب ، **مؤقتا على الاقل** .

ماذا ينبغي أن نفعل اذن ؟ لا بد من أن نقوده الى أن يحتاز الشعور بما يحدث في أعماق شخصيته . فكيف ؟ هل نقول له ونكرر القول ان ذلك عبث ؟

سيكون هذا القول ، ببساطة ، قولا احمق ، للسبب المقبول المتمثل في أنه يعلم ذلك مثلما تعلمون ، وليس طلبا للذة انما ينهك نفسه بهذا الهوس . أنستخدم الايحاء ؟ سيكون ذلك أمرا مضحكا : فالايحاء يظل سطحيا ، في حين أن السبب في الاعماق . **وسيكون ذلك شبيها بما لو مشطنا الحديقة بصورة لطيفة من أجل استئصال كتلة من الحجارةمطمورة على مئة متر عمقا .**

أنستخدم المحاكمة العقلية ؟ ولكن الا ينهك هذا الشخص نفسه وهو « يحاكم محاكمة عقلية » ؟ ومع ذلك ، يحتفظ الهوس بمركز الصدارة . ووسط المريض ، من جهة أخرى ، لا يحرم نفسه من الادلاء برأيه . فهو يصفه « بالمريض العصبي الفاقد الارادة » ، وبسخافات أخرى من هذا النوع . ولكن هل تعتقدون بأن هذا الشخص لا يستخدم ، لكي يصارع ، مقدارا من الارادة يعجز عنه الآخرون؟ وفضلا عن ذلك،ما موضوع المحاكمة العقلية ؟ هل هو العرض السطحي ؟ ولكن ، ولنكرر ذلك مرة أخرى أيضا ، كل شيء يحدث في الاعماق . وسيكون لهذا الانسان حق في ان يقول : « انني أعلم كل ذلك مثلما تعلمون ، ولم انتظر مواعظكم حتى أحاول التخلص منه ! » .

كل ذلك يعني اذن أن من الضروري أن نبحث في المغاور اللاشعورية ، وأن المشاط الصغير لا يفيد في شيء على الاطلاق .

وهذا هو السبب في أن من الضروري أن يطلع الناس على سيكولوجية الاعماق .

الفصل الثاني

الاتصالات الأولى بالمحلل النفسي

انني ، في كل جلسة من الجلسات ، على موعد مع نفسي .

(احد المرضى)

أمر بسيط جدا : يحدث الاتصال الاول على الغالب بالهاتف . وعالم النفس ، بعد ذلك ، يستقبل الشخص ليقوم بضرب « من الايضاح » . والمقصود أن يرى من هو هذا الشخص ، وعمّا يبحث ، وفي اي شيء يرغب . وعندئذ يتكلم المريض على أعراضه التي يعانيها ، أو ــ اذا لم يكن يعاني شيئا ــ على الدواعي التي تدعوه الى الرغبة في مباشرة عمل سيكولوجي او تحليل نفسي .

والمجال الذي ينفتح منذ الاتصالات الاولى واسع اذن . انه يمتدّ من علم النفس النصيحة الى التحليل النفسي العميق ، مرورا بالعلاج النفسي السطحي والنصائح العملية التي تقدم الى الزيجات السائرة الى الاخفاق ، الخ .

والدواعي التي تدعو كل شخص الى مباشرة عمل سيكولوجي ، او تحليل نفسي ، مختلفة بالتأكيد . واكرر : ذلك يمكن أن يمتد من مجرد طلب النصيحة الى سرد الاوضاع المأساوية او القديمة . هذا اذا لم يطلب الشخص مباشرة ، من علم النفس ، دون مواربات ، أعلى درجات مردوده :

ـ أود أن ابدأ تحليلا نفسيا لاصبح افضل كاهن (او افضل اب ، او افضل طبيب ، او افضل انسان ...) .

فليس ثمة اي اتصال لا يتصف بأنه بليغ الاثر . والواقع أنها الفترة التي يمكن فيها لشخص ان يقول لنفسه ، للمرة الاولى في حياته على الغالب :

ـ ساحاول ان اظهر نفسي كما انا ، وساحاول ان اتخلى عن قناعي اذا كانت لدي القوة على ذلك . فاذا لم استطع، فان محدثي سيفهم قصدي، ما وراء كلماتي وموقفي . وساكون، اخيرا ، على يقين بانني لن أكون موضع حكم ، ولا لوم ، ولا نقد ، ولا عقوبة . ولن أتعرض، للمرة الاولى ، الى اي خطر ، وبوسعي أن لا امثّل . وساحاول ان القي عن كاهلي هذه الشخصية المزيفة التي التصقت بي سنين طويلة. فهذا الاتصال الاول سيكون اتصال اللاخوف.

والاتصال الاول اتصال شخصي دائما ، حتى ولو ان المرء يباشر فيما بعد تحليلا دقيقا يصبح فيه المحلل « حياديا » . ولكن ، اذا كان عالم النفس يلاحظ الشخص الذي يستشيره ، فعليه أن لاينسى ابدا ان هذا الشخص يلاحظه كذلك ، وكل هوائياته موجّهة . وعلى عالم النفس اذن ان يكون جاهزا الى الحد الاقصى ، ويعلم ان كل « دور » يمثّله سيكتشفه طالب النصيحة بصورة لاشعورية ولكن بلا رحمة . وذلك حسن جدا على هذا النحو .

انهم اذن اناس يحاولون تحديد موقعهم في حياتهم . ثمة مسؤولون يقولون :

ـ لو ان « الناس » يعرفون الى اي حد لست غير شخص مسكين ، وكم انا خائف ..

انه مدير كهل يقول :

ـ عمري ، يا سيدي ، اربعة وستون عاما . انني اشعر منذ اربعين عاما انني مذنب ومصاب بالحصر بمجرد أن اتوقف عن العمل كما يعمل المحكوم بالاشغال الشاقة . ان هذا لضرب من الحمق ، ولكنني أنتظر احالتي على المعاش حتى احقق حلما قديما : ان أتعلم

العزف على الناي ... وسيكون ذلك ان اتعلم الحرية لاول مرة في حياتي . ولكن هل أجرؤ ان اكون حرا ؟

انه رجل يقول :

ـ انني امشي ، من الناحية النفسية ، على عكازين . ولا يعلم احد عن ذلك شيئا ، لان عكازيّ مذهبتان ، ولانني « نجحت » . اما انا ، فانني اعلم انهما عكازان ، واريد ان ارى نفسي كما انا ، وانت ترى انني اخاف دائما ان افقد عكازيّ ، وانني دائما ، على هذا النحو، مصاب بالحصر . يضاف الى هذا انني مللت من ذر الرماد في العيون ، في عينيّ وعيون الآخرين ، ومن الخوف ، متظاهرا على الدوام انني دائما دون اي خوف . واتمنى عندئذ ان أستعرض نفسي وارى نفسي في قيمتها الحقيقية ...

انهم شباب وشابات يقولون :

ـ كان لي ابوان هما من الإصابة بالعصاب ، وتلقيت تربية هي من الكآبة ، بحيث انني اتمنى ، قبل كل شيء ، ان استرد شخصيتي الحقيقية ...

انهم أزواج وزوجات يريدون أن يجدوا أنفسهم مجددا ، أو يجدوا انفسهم للمرة الاولى . وانهم كذلك الاشخاص الذين نصنّفهم تحت « السمات » التالية : المصابون بالوهن العصبي ، والمصابون بالوهن النفسي ، والموسوسون ...

من هم هؤلاء : هذا الرجل ، وهذه المرأة ، وهذه الصبية ؟ انهم كبار ، وصغار ، ومتوترون ، وعصبيون ، وقلقون ، ووقحون ، وساخرون ، وخاضعون ، ومحفوفون بضروب الدفاع . ويجرّون وراءهم طفولة ، ومراهقة ، وكيسا مترعا بحكاياتهم . انهم متخمون بالافعال المنعكسة الدفاعية ، والعادات ، وانماط الحياة ، وضروب الحصر . وكل منهم مترامي الاطراف ووحيد . ولا يشبه أي منهم الآخر . وكثير منهم يجانبون طريقهم التي يتمنون أن يجدوها على وجه السرعة .

هل يعرفون ما هي سيكولوجية الاعماق ؟ بعضهم يعرف ، وآخرون لا يعرفون . وكثير منهم يعلمون أن الشخصية كلها ينبغي أن تتبدل .

وآخرون يأتون لرؤية محلل لانه قيل لهم « أن التحليل نافع » . وبعضهم يطلب نصيحة من النصائح عابرا ... ومن جهة اخرى ، ثمـة بعض الاشخاص الذين يعتقدون بصورة ساذجة ، حتى وهم يلتزمون بتحليل نفسي عميق ، أن المحلل « سيكتشف طبعهم » قائلا لهم : « انكم تتصفون بهذا العيب وهذه المزية » ، وهم يعتقدون بأن المحلل سيعيّن لهم بطاقات ، لا تصلح لان تقول شيئا ، من النوع التالي : أنت مغرور : عصبي ، او طيب ، أو خبيث ، أو مزهو ، أو جريء ، أو قوي ، أو ضعيف ، أو طماع ، الخ ، الخ . وذلك أمر مضحك بالتأكيد ، وسيدرك الشخص بسرعة أن هذا ضرب من عدم التمييز بين الزبد والبحر .

١ ـ حالة مومو(*)

ثمة اتصالات أولى مأساوية ترتدي مظاهر من التهريج الانساني . سأروي لكم واحدة منهـا . وستسوّل لكم أنفسكم أن تضحكوا ، فـلا تضحكوا . ذلك أنها وان كانت ضربا من الكاريكاتور المأساوي ، قولوا ان ثمة نسخا ، تتصف قليلا أو كثيرا بأنها طبق الاصل ، منتشرة انتشارا واسعا . ان ضربا كاملا من الوقاية هو الموضوع موضع التساؤل : وقاية الآباء المصابين بالعصاب ، المستبدين ، والحاضنين ، والمشوّهي الرجولة، ووقاية الابناء أو البنات الذين ترتب عليهم ان يخفوا شخصياتهم بسبب الخوف الذي كان يلاحقهم .

الشخصيات بحسب ترتيب دخولهم الى عيادتي : المظلة ، ذات الراس المدبب وكأنه رمح قضيبي ، فالام ، فالابن (أو ما بقي منه على الاقل . .)، ثم الاب (الذي أصبح شبحا) . الام في حوالي الخمسين ، والابن في الخامسة والعشرين على وجه التقريب ، أما الاب ، فلا عمر له .

بدت عيادتي وكأنها تعاني ضربا من نقل أثاثها . فثمة بحث عن مقاعد .

(*) مومو : تصغير موريس « م » .

ومن عادتي أن أستقبل شخصا وحدا لا أسطولا . وغاصت الام في مقعد . والآخران ، حسن ، ليتدبّر الآخران أمريهما .

وساد الهدوء . ثم قالت الام لابنها بلهجة ملكية :

ـ اجلس هناك ، « يا كبيري » ! امام « السيد عالم النفس » ، ليراك .

ثم توجهت بحديثها اليّ قائلة :

ـ يا سيدي ، اعتقدت من المفيد ان اضع جدولا بما جعلني ابني اعانيه منذ سنين . لقد فعلت كل شيء من أجله . فماذا كانت مكافاتي ؟ كانت طبعه القذر . واتمنى ان يتزوج . وثمة صبية في « نيتي » . ولكنني عندما اتكلم عليها ، يحطم كل شيء !

وتوجهت بحديثها الى ابنها :

ـ خذ الاوراق ، يا مومو ، واقراها على « السيد عالم النفس » (كذا) .

وانتظرت . ثم اضافت الام :

ـ انني افضل ان يقراها بنفسه . هل تفهم ؟ وعلى هذا النحو ، ربما سيدرك ...

وقال الابن ، وهو مسحوق من الخجل ، ومخصيّ الى الحد الاقصى، وعاجز عن رد الفعل :

ـ ولكن يا أمي ، انني ...

قالت الام :

ـ اقرا يا مومو .

وشرع « مومو » ، ابن الخامسة والعشرين ، يقرأ كومة من الملاحظات. « **منذ سن السادسة عشرة من عمره ، ابني ...** » .

وقالت الام ، مقاطعة وكأنها المقصلة :

ـ هذا صحيح ، يا سيدي . انه لم يعد يفعل شيئا في المدرسة منذ السادسة عشرة . انني افترض ان ثمة أسبابا . أليس كذلك ؟ انني ...

انني أتعرّض للخطر بين خصمين ، وقلت :

ـ ولكن ابنك ، يا سيدتي ، هو وحده الجدير بان يقول ما يحس به .

وبدا للابن شعاع من أمل . أما الام فقالت :

ـ اتنحاز اليه ؟ ولكني ...

ولم اعد أصغي . ولاحظت مومو : لقد كان يسحقه كره مكبوت وحصر ، وكان مريضا بالعقد . ولمحني بنظرات قصيرة ، متواطئة ومذعورة ، منتظرا كل شيء ، باستثناء اتصال دمّرته أم حاضنة ، محبة ومستبدة ، ولم تفهم بالتأكيد اي شيء أبدا ، ويرافق ذلك على وجه الاحتمال ، أطيب ما في العالم من نوايا ...

وقالت لي الام :

ـ هل تستطيع ، يا سيدي ، « ان تمنحه » طبعا افضل ؟ وهل استطيع ، « بما اننا معا دائما » ، ان احضر الجلسات ؟

ـ هل تمزحين ، ياسيدتي ؟

ـ كيف ؟ آه ، حسن ! فليكن ، ساتصل بك هاتفيا بعد كل جلسة .

ـ متاسف ، ياسيدتي . ان ابنك راشد . فالسر الفردي اذن مطلق ، دون اي نقض ، ومن اي نوع كان . ومن غير المجدي اذن ان تتصلي هاتفيا بي . هل انا متاكد انك فهمت ؟

واجابت الام :

ـ اذا كان الامر على هذا النحو ... ولكني اخال ان ليس بوسع اي ابن ان يكون له اسرار بالنسبة الى امه . ساذهب لرؤية من « يهزه » . انني نصيرة الحلول الحاسمة .

ويقول المرء لنفسه : « انها ، بالفعل ، نصيرة الحلول الحاسمة حتى الخصاء الكامل ، وربما النهائي ... »

ونهضوا . ونظر الي الابن ، وكشف عن قصده سريعا : « **ساتصل بك هاتفيا** » .

وخرجوا ، بالترتيب : المظلة ، فالام المفترسة ، فالابن المفترس ، ثم الاب الذي يظهر بمظهر من فقد تجسّده المادي .

والمظلة وحدها هي التي احتفظت بشخصيتها من بينهم جميعا .

ولم يتصل مومو بالهاتف أبدا .

فهل أمكن له ان يصبح موريس منذ بعض السنين ؟

٢ ـ ماذا يعرف المريض ؟

انه ، على وجه العموم ، يعرف من علم النفس ما قراه أو تعلمه . فكل شيء اذن منوط بمصادر معلوماته (كتب ومجلات جيدة أو رديئة ، الخ). وكل شيء منوط بما **يتصف به** الشخص ، وعمّا **يبحث** . لقد انتشر مصطلح العلاج النفسي انتشارا كافيا . ولكن ، ما المقصود بالنسبة الى كثير من الناس ؟ المقصود به ، بالنسبة الى بعضهم ، تشجيع من نوع : « لا تزعج نفسك ، ابذل جهدا ، وكل شيء سيتحسن » ، الامر الذي يتصف بأنه عبث ويطابق ما يستخدمه من « علم النفس مركز رعاية الجانحين » . ويعرف آخرون ان المقصود هو البحث عن أسباب الالم ، ولكنهم يجهلون كيف يتم هذا البحث . او ان بعضهم يعتقد أن قوام علم النفس « تحليل الطبع » ، ولكنهم لا يدركون أن علم النفس السريري غير ذي صلة بالروائز .

ولكن الامور تسير على أسوأ حال عندما التحليل النفسي يكون موضوع الحديث . فالمصطلح انتشر انتشار نثار من البارود ، ولكن قراءة بعض المجلات ذات الانتشار الواسع تكفي حتى يصاب المرء بالذهول . انه يقرأ فيها امورا من نوع : « في عرين المحلل النفسي » . . . أو ان بعض المجلات تتكلم على « سفرة مثيرة نحو اللاشعور في ظلام عيادة المحلل النفسي » (!!)، او « عند اطباء النفس ذوي الاسرار العجيبة » (اي نعم . . .) . وعندئذ يقرأ المرء خليطا هائلا لا يعلم ما إذا كان تدبيج صحفي ثمل ، او مشتغل بالامور الغيبية اعماه السكر . بل لا يتساءلون ما إذا كان هذا « الظلام » ليس ضوءا خافتا . . . هدفه بكل بساطة أن لا يصاب المريض بتورم في عينيه ، وذلك شبيه على وجه الدقة بما يحدث في البيت عندما ينال الانسان قسطا من الراحة . وبالاختصار ، ثمة الكثير من الحماقات .

ومع ذلك ، فان هؤلاء الاشخاص ، الذين يتصفون بأن اطلاعهم أسوأ ما يمكن ، ينجحون على الغالب في تحليلهم النفسي نجاحا باهراً ، الامر الذي يعني أن « المناخ » يفهمه على نحو سريع من يغوص فيه .

أو اننا نسمع يقال : « ينقضي الزمن ، في التحليل النفسي ،بالبحث عما جرى في سن الثالثة » . وذلك أمر يتصف أيضا بأنه مضحك . وسنرى السبب فيما بعد . ولكن ينبغي التفكير ، مع ذلك ، بأن أي عصاب ينجم عن حياة تمتد على مدى سنين ، وبأن الطفولة ، وان كانت ذات أهمية ، لا تفوق باقي الحياة أهمية . فليس العصاب « بقية » الطفولة ، وانما هو مرض تعهده الفرد بالرعاية على نحو لاشعوري (انظر فصل : الانسان المصاب بالعصاب) .

ويتصف بعض المرضى ، على العكس ، بأنهم على اطلاع واسع ، اما لانهم معنيّون على نحو عميق بعلم النفس ، واما لانهم درسوه بمعناه « الاكاديمي » (كالاطباء ، والمجازين بعلم النفس أو بعلم التوبية ، الخ) . بل ان بعضهم يعرف المؤلفات الاساسية الكبرى عن ظهر قلب على وجه التقريب . ومع ذلك ، يتعذر أن يعرف المرءما يتصف به عمل سيكولوجي عميق دون أن يكون قد « أمضى زمنا في المختبر » ، للسبب البسيط المتمثّل فيأن العمل السيكولوجي العميقتجربة وحيدةغير ممكنة الوصف، وأن الجهود الكبيرة ــ وحتى تلك التي أبذلها في هذه الفترة ــ لا تفلح أبدا في شرح « المناخ » العميق ، الشاق والبناء بناء جديدا ، مناخ التحليل النفسي .

٣ ــ لنعد الى الاتصالات الاولى

العمل في الاعماق عمل انقلابي على الغالب . . . بمعنى أنه يقلب البنى المزيفة ، بنى الشخصية ، لكي يستخلص الموجود الاصيل . انه سيبحث ، تحت القشرة السطحية ، عن الجذور الفاسدة ، والحصى غير المفيدة ، والحمم المكدّسة ، كيما يبلغ الينابيع المسدودة التي كنت قد تحدثت اليكم عنها .

ثمة أشخاص يتساءلون بحق :

– اذا تغيرت ، واذا استعدت شخصيتي الحقيقية ، كيف استطيع ان اتلاءم ايضا مع كل ما احببته زمنا طويلا ؟

– انني مصاب بالعصاب ، ولكن هذا العصاب الزمني بان اعيش واختار واتزوج او اعمل بهذا الاسلوب أو ذاك . الن يبقى لي ، بعد تحليلي النفسي ، غير الرماد ؟

– بلغت الاربعين من عمري ، ولكنني بقيت بنتا صغيرة مترعة بالخوف . واعتقد ان ذلك يروق لزوجي ... ماذا سيصبح عليه زواجي اذا استعدت شخصيتي الحقيقية ؟

يمكن بالتأكيد أن نذكر من الامثلة ما لا يحصى . ولكن هذه المسائل تدل على خوف معين يعانيه بعض الاشخاص ، خوف من أن يستعيدوا شخصيتهم الحقيقية ، الامر الذي يبيّن جيدا كيف أمكن لرؤية حياتهم وبنائها أن يكونا مزيفين ، ومنحرفين ، وناقصين ، طيلة سنين عديدة .

وعلى الرغم من كل شيء ، فان هذه المسائل وثيقة الصلة بالموضوع جدا . وها هو ذا مثال يجعل ذلك مفهوما على نحو افضل .

حالة جان

قال جان :

– يرغب طبيبي ان اباشر تحليلا نفسيا . وانا ايضا اتمنى ذلك كثيرا . انني مصاب بالوهن العصبي ، وفاقد الارادة ، ولا اميل الى شيء . وانا عاجز من الناحية الجنسية . وليس لي من الوجود غير الرسم ، **فالرسم ، بالنسبة لي ، هو الداعي الوحيد للحياة ، أريد أن أشفى ، واستعيد شخصيتي الحقيقية ، وان لا اكون مصابا بالحصر بعد . ولكن هل آمل أن لا «تزول» قدرتي على الرسم ؟ انني بفضلها انما استطعت ان استمر في الحياة .**

فماذا يحدث؟أولا ،ينظر جان الى **المستقبل** بحسب ما هو عليه **حاليا**. فهذا ليس له اذن أي معنى ، مثلما أن أعمى بالولادة لا يمكن له أن يتنبأ

قبل العملية كيف يرى الالوان بعد شهر منها . كذلك لن يكون جان في المستقبل ما هو عليه حاليا . انه سيرى الاشياء والناس من وجهة نظر مختلفة .

فهو « يتعلق » حاليا بقدرته على الرسم وكأنه يتعلق بعوامة انقاذ . ولكن ماذا يحدث يوم لم يعد **بحاجة** الى عوامة انقاذ ؟ ومن الواضح انه سيكفّ عن الرسم عندما يزول العصاب ان كان تعلقه بالرسم ناشئاً ، على سبيل الحصر ، من كونه مصابا بالعصاب (والحالة ليست متوافرة في هذا المثال) .

ولكن لنر العاقبة . وصل جان الى عيادة المحلل بعد انقضاء فترة من الزمن وقال :

ـ انني مصاب بالجنون ... فانا لم اعد ارسم منذ شهر ... والاكثر اثارة للرعب اني لا ارغب في الرسم ... ثمة لامبالاة كاملة ... وليس انقطاعي عن الرسم هو الذي يجعلني يائسا ، وانما كون ذلك يدعني لامباليا الى هذا الحد ...

فماذا يحدث ؟ كان الرسم يمثّل ، بالنسبة الى هذا الرجل ، ضربا من الهروب والملاذ . فكان اذن « باعثه على الحياة » ، ولكنه باعث منظور اليه نظرة خاطئة . وكان الرسم يحول بينه وبين أن يغرق في اليأس . وكان قد شرع في تحليل نفسي لكي يستأصل اعراضا مؤلمة . **والحال** ، كما سأبيّن على الغالب ، أن التحليل **يوجه الشخصية بصورة كلية توجيها جديدا** . وتزول الاعراض بالتأكيد في الوقت ذاته .

وكان الرسم ضربا من العرض العصابي ،وضربا من التعويض والتعلق، في حالة هذا الرسام . فلماذا انقطع عن الرسم ؟ لقد انقطع عن الرسم لانه لم يعد ، اذا تكلمنا من الناحية العصابية ، **بحاجة** الى أن يرسم . فلماذا ؟ لان اناه تتعزّز ، ولانه يشرع في التلاؤم مع الواقع ، ولم يعد بحاجة الى أن « يلجأ » الى الرسم . ولماذا كان مذعورا من لامبالاته ازاء ما كان « باعثه على الحياة » ؟ لانه شبيه بمشلول يلقي ، وهو يبدأ فجاة في السير منتصبا ، نظرة قلقة على عكازين سنداه خلال سنين عديدة .

وبعبارة اخرى : **كان جان يتعلق بوسائل امن ... بدا قادرا على الاستغناء عنها .**

وهل استأنف الرسم جان ؟ نعم ، لانه رسام **حقا** . ولكنه فعل ذلك بأسلوب مختلف كل الاختلاف ، اسلوب كان يعبّر عن شخصيته الجديدة (والحقيقية !) . لقد حدث له اذن ضرب من التوقف المؤقت ، ضرب من « فقدان الارتكاز » ، الذي كان جان خلاله « بين كرسيين » : شخصيته القديمة (المصابة بالعصاب) وشخصيته الجديدة (الراشدة والاصيلة) .

وما حدث لجان يحدث للجميع . فقد يفقد رجل ايمانه ... اذا كان المقصود به « هربا » عصابيا ، بيد أن بوسعه تنميته بصورة كبيرة اذا كان هذا الايمان أصيلا ، الخ . ويمكن لاسرة أن تعاني صعوبات ضخمة، وبخاصة اذا كان **الزوجان** مصابين بعصاب . ولنضرب مثلا سبق أن ضربناه : حالة رجل عدواني (مصاب بعصاب اذن) يتزوج امرأة مغالية في الخضوع (مصابة بعصاب اذن) . فاذا شرع الرجل في تحليل نفسي ، تزول عدوانيته (اذ انه يكف عن أن يكون مصابا بعصاب) . ولكن « مازوخية » الزوجة عندئذ لم تعد تجد تغذية ، ما دامت لم تعد مسحوقة بفعل الزوج ! وما الحل ؟ الحل أن يشرع **الزوجان** في تحليل نفسي . وعندئذ تستأنف الاسرة حياتها على قواعد جديدة وعلى حب صادق ، بدلا من أن تخب ، كيفما اتفق ، على عصابين يكمل أحدهما الاخر .

ولكن ماذا يبقى للمرء اذا فقد « باعثا على الحياة » عصابيا ؟ ان المسألة ليس لها معنى ، ما دام هذا الباعث على الحياة كان مزيفا ، وان الشخص ، من جانب آخر ، يصبح من القوة مرة ثانية بحيث يستطيع الاستغناء عن ضروب تعلقه وطفالاته وعكازيه .

ويدرك المرء عدد الاضطرابات المؤقتة ــ والمؤلمة على الغالب ــ التي قد يسببها تحليل نفسي . ولكي نعود الى جان نقول :

ــ **قبل** التحليل ، **كان يلتجيء الى** الرسم ، بوصفه معذبا .

ـ **بعد** التحليل ، **عبّر عن نفسه بواسطة** الرسم ، بوصفه سعيدا .

الأمر الذي يختلف ، كما ترون ، اختلافا عظيما .

٤ ـ ولكن ماذا سيبقى لي ؟

هذا السؤال هو العاقبة المنطقية لما سبق . ويمكن اذن لمن يباشر عملا سيكولوجيا أن يطرح على نفسه ما يلي :

ـ تساعدني ضروب تعويضي على ان اعيش . فماذا يبقى لي اذا زالت هذه الضروب من التعويض ؟

ومن المؤكد ان هذا السؤال وثيق الصلة بالموضوع . فالموجود الانساني يبلغ في بعض الاحيان عمرا لا يَطرح فيه على بساط البحث أن تنزع منه ضروب تعويض ذات أهمية ، وانما أن تجعل متوزانة بالحري .

ومع ذلك ، لنر الحالات الاكثر غلبة . فكثير من الاشخاص يشرعون في تحليل نفسي لاستئصال عصاب . ومن يقول عصاب ، يقول بصورة آلية ان ثمة ضروبا من **التعويض** . انني اضرب كذلك مثلا هو المثل نفسه دائما ، ذلك انه يجعل المرء أفضل فهما . ولا بد من التفكير بأن الامر لا يتصف **أبداً** بأنه على هذه الدرجة من البساطة في الواقع .

لنفرض اذن شخصا **عدوانيا** . هذه العدوانية تمثّل **تعويضا** عن الخوف . والعدواني عوّض عن ضعفه بقوة مزيّفة ، وعوّض عن حصره بظاهر من الاطمئنان الكبير . فالعدوانية اذن ضرب من **الحاجة** ، وضرب من **الامن** . ولكن ماذا يحدث اذا رفع التحليل النفسي عدوانيته ؟

هنا انما يتصف السؤال بأنه لم يعد له معنى . **ذلك ان العدوانية ليست هي التي تم رفعها ، بل الحاجة الى العدوانية** . وليست العدوانية هي التي يقتلعها التحليل النفسي ، **بل الخوف** . ويتبين اذن أن العدوانية تزول من ذاتها اذا تم اقصاء الخوف . . . **اذ ان الشخص لن يكون بحاجة**

اليها . ويمكن القول ان الحصن الذي تحفّ به **المدافع لم يعد له أي مبرر** للوجود عندما لم يعد الخطر موجودا ، وقس على **ذلك جميع الآليات** العصابية . (انظر من جهة اخرى ، مثلا اكثر تعقيدا في فصل « نحو منبع النهر » : مثل رجل عاجز من الناحية الجنسية لانه **يحتاج** الى أن يكون كذلك) .

ثمة **موازنة** أسوقها غالبا : ليس الصديد هو الذي يجب نزعه ، بل الشوكة التي أثارت تعبئة الصديد . فاذا رفعت الشوكة ، لم يعد للصديد مبرر للوجود . وسنرى أن ذلك أمر رئيس في فهم العصاب **الذي يتصف بأنه مرض كأي مرض آخر ويخضع للقوانين ذاتها**(١) .

٥ ــ تشخيص المريض

قد يحدث غالبا أن يطرح أشخاص قرؤوا كتيبا في التحليل النفسي تشخيصا « دقيقا » ، فيقولون :

ــ أريد أن اباشر تحليلا . انني أعاني ... (عقدة أوديب على سبيل المثال) .

ويقف المحلل موقف الحذر ، وهو على صواب . أولا ، لان من المتعذر « جمع » تشخيص انساني على عجل . ثانيا ، قد يحدث في أغلب الاحيان أن يأمل شخص من الاشخاص في امكان « الافلات » من نزول أكثر عمقا في ذاته عندما يطرح المشكلة طرحا واضحا . انه يرغب تماما في الشفاء من بعض الامور ... شريطة أن لا يكون ملزما بأن يضع ذاته **كليا** موضع التساؤل . ان هذا بالتأكيد يتصف بأنه انساني ، منذ أن يتقدم التحليل ، ويستقرّ ضرب من الثقة بين رفيقي « المغامرة الكبرى » .

---

(١) انظر فصل « الانسان المصاب بالعصاب » .

الفصل الثالث

البدايات الأولى في تحليل نفسي

لدى المريض ، في البدء وخلال زمن طويل في بعض الاحيان ، انطباع بأن المحلل « ساحر » عليه أن يفعل كل شيء « بمفرده » . ولا يدرك بعدُ الى اي مدى ينبغي لمشاركته ان تكون **فاعلة** . انه ميال الى أن ينظر الى المحلل على انه كلي القدرة والقوة ، شأنه في ذلك شأن الطفل الذي ينظر الى الاب على أنه اله لا يتعذر عليه شيء .

وينتظر أشخاص آخرون ، كما سبق القول ، أن « يكشف » لهم المحلل : « انك تتصف بهذا الطبع ، بذاك المزاج ، بهذه الصفات أو العيوب ، الخ » . أو انهم يرغبون في أن يشجّع المحلل ، ويهنّىء ، ويقدم توجيهات ونصائح . والحال أن التشجيع قد يكون ايحاء سطحيا لا قيمة له . يضاف الى ذلك أن هذا الايحاء لا يحترم شخصية المريض ، وقد ينفخ فيه شيئا لا يوجد لديه أيضا .

فعلى المريض اذن ان يدرك أن النجاح منوط بتعاون في العمق . ذلك أن قعر البئر هو المهم ، وليس ماء السطح .

ولنتخيل ، من جهة أخرى ، حوارا بين صديقين لم يمض على بدء أحدهما تحليلا دقيقا سوى وقت قصير ، دون أن يفهم معناه بعد .

ــ هل تعلم ؟ لقد بدأت أمس تحليلا !

ـ آه ؟ وماذا يقول المحلل ؟

ـ لا شيء .

ـ ولا كلمة ؟ الم يقل لك ان ذلك سيسير على ما يرام ؟ الم يقل لك ما كنت عليه ؟ الم يكشف لك عن طبعك ؟

ـ لم يقل كلمة واحـدة .

ـ وانت ؟

ـ وأنا ؟ كان عليّ أن أقول كل ما كان يخطر في ذهني .

ـ أي شيء ؟ وكيفما اتفق ؟

ـ نعم ، بصورة حرة .

ـ وما جدوى ذلك ؟

ـ لم أر جدوى من ذلك بعد . انني أفترض أن المحلل « رازني » ، وكوّن تشخيصه ...

ـ وعندما خرجت من العيادة ؟

ـ قال لي « الى اللقاء » ، دون أن يضيف شيئا .

ماذا سيحدث بسرعة ؟ ان الشخص الذي « يبدأ » تحليلا سيطرح أسئلة من نوع : **ماذا كان راي المحلل بي ؟ ... لقد غششت وشوّهت الحقيقة ، فهل كان نافذ البصر ؟ ... كيف ينظر الي ؟ هل كنت موضع اعجابه ؟ ايحتقرني ؟ هل قمت جيدا بما كان يريده مني ؟ كان مظهره جافا عندما ذهبت** (أو ، كان مظهره وديا ، لطيفا ، خبيثا ، لامباليا ، غافلا،الخ)

ويتبيّن اذن أن المريض **يسقط** بعض العواطف على المحلل منذ البداية، فيعزو اليه سلوكات لا وجود لها لديه ، كالجفاف ، والمزاج الكدِر ، والاعجاب ، والاحتقار ، الخ . ولنفرض مريضا يخاف من الغير ، وبالتالي مريضا خجولا ، يعاني مشاعر الدونية أو العدوانية ، الخ . ومن المؤكـد أن هذا المريض « سيركز » عواطفه على المحلل . وسيكون لديـه ، على سبيل المثال ، انطباع بأن المحلل « يترصّده » ، ويحكم عليـه بقسوة ،

و « يثقبه الى اعماق نفسه » ، الخ . فأمام **صمت** المحلل ، ليس لدى المريض أي صوة من الصوى ، ولا شيء يعطيه « حرارة » الجلسة . انه وحيد مع ذاته . وسنعرض من جهة اخرى بعض الامثلة والمستخلصات من الجلسات فيما بعد .

وستظهر على نحو سريع بعض ضروب الحصر . وهي ضروب ترتكز على أسئلة يطرحها المريض على نفسه بصورة لاشعورية : « أوليس المحلل غاضبا ؟ ألم أكن غير مهذب عندما غادرت ؟ ألم يزعجه الكلام الذي قلته ؟ الم أكشف عن نفسي وفقا لوجهة نظر غير ملائمة ؟

ثمة شعور بالاثم يبدو على هذا النحو . وعندئذ قد يحدث غالبا أن يهتف مريض الى المحلل بحجة من الحجج ، كالتحقق من موعد مثلا . فهل ذلك هو الباعث **الحقيقي ؟** من النادر أن يكون الامر كذلك . والمريض، عندما يتصل هاتفيا ، يبحث بصورة لاشعورية عن التحقق من أن المحلل غير « غاضب » ، ولا « يحقد » عليه ، الخ . فواقعة كون المريض يعتقد في نفسه أن المحلل يلومه تجعله يغوص في الحصر . والاتصال الهاتفي يزيل الحصر ، اذ أن المحلل يجيبه « بلطف » ... فنحن اذن ازاء فعل يعانيه المريض مئات المرات يوميا ، ودون أن يدرك ذلك على الغالب .

ـ وماذا بعد ؟

على المريض ، في الجلسة التالية ، أن يتكلم على عواطفه التي شعر بها بعد الجلسة السابقة . وثمة هنا آلاف من التشعبات التي تتصف الان بأنها ممكنة . فهل يقول على هذا النحو ، بسرعة كبيرة ، انه كان مصابا بالحصر لانه ارتكب « حماقة » ؟ وانه كان « سيء المزاج » دون أن يعرف السبب ؟ وانه تصرف « كما يتصرف طفل » ... الامر الذي يتيح الان اكتشاف بعض الآليات اللاشعورية ؟ ولنضع انفسنا مكان أحد المرضى .

انه يفكر :

ـعليّ أن أقول **اني كنت ، آخر مرة ، مصابا بالحصر ومرتبكا لحماقة**

ارتكبتها ... لانني لم اكن موقنا باني كنت مهذبا بما فيه الكفاية ... هذه الفكرة لاحقتني خلال ساعات ... وعلي أن أقول **اني كنت خائفا من** فقدان الاعتبار خوفا فظيعا ... وخائفا من أن أبدو كما أنا ... علي أن **أخلع اقنعتي ... الخ .**

انه **يفكر** بذلك ، ولكنه لا **يقوله** . ثم انه على الغالب يتكلم على كل شيء لكي يتجنب ، مرة أخرى ، أن « يبدو على نحو غير ملائم » . وتستمر اللعبة ... وتتم بالتدريج ضروب النزول الاولى نحو كهوف اللاشعور .

وها هو ذا ، على سبيل المثال ، ما كان يقوله أحد المرضى في الجلسة الثالثة من التحليل :

ـ هل تعلم ؟ انها حماقة ، **أليس كذلك ؟ ولكن ثمة رد فعل** صغير **شعرت به بعد الجلسة الاولى ! انه مع ذلك لامر** مضحك **أن يكون بوسع اللاشعور على هذا النحو أن يحتال علينا** نحن .

وهنا يبدأ المريض بالحديث عن ردود فعله (انظر فيما سبق) ، ولكن لنلاحظ ما يقوله :

ـ **هل تعلم ؟** انه يستجوب المحلل ويستشهد به ... الامر الذي يجنبه الانطباع المؤلم بأنه شبيه بطفل « مذنب » يتهم نفسه . وهو يأمل على هذا النحو برضى المحلل ، الامر الذي يطمئنه (رضى لا يتحقق) .

ـ **انها حماقة ؟** يكفّ المريض عن أن يكون متضامنا مع لاشعوره . انه يحاول الاحتفاظ بـ « تفوقه » . وهذا شبيه بما لو كان يقول : « جميع هذه التصرفات الصبيانية التي تحدث فيّ ليست **انا .**

ـ **صغير** . يحاول المريض أن يحتفظ بتفوقه ... وبالتالي أن يتجنب الحصر .

ـ **مضحك** . الشيء نفسه . فالمريض يريد أن يشعرنا بأنه يحتقر لاشعوره . وما يضمره هو : « ثمة مع ذلك اجتياز لمرحلة التصرفات الصبيانية » ! بحث عن التفوق مرة أخرى .

ـ **نحن** . المريض يستخدم المحلل . وما يضمره هو : « **يحتال عليك لاشعورك ايضا ... نحن جميعا متشابهون ...** » ويبحث المريض مجددا عن استحسان المحلل حتى يكون مطمئنا ويفلت من الحصر .

يمكن للمرء الآن أن يدرك أن بوسع الفكر ، منذ البداية ، أن «ينطلق» في آلاف من الاتجاهات ، ويمكن للمثال المضروب أعلاه أن يجعلنا نعتقد أن المحلل « يترصّد » ويقضي وقته في تحليل أدنى كلمة . وليست هذه هي الحال . **ولكن المحلل يظل حاضرا في كل ثانية من كل جلسة ، بكل فهمه ، وبحثه وجاهزيته ، وراسماله الانساني** .

انت **حر** اذن اذا باشرت تحليلا نفسيا . حر في أن تتكلم أو تصمت ، وفي أن تكون ساخرا أو عدوانيا ، وفي أن تذكر اعراضك أو ذكريات الطفولة . وانت حر في أن تبقى صامتا خلال نصف ساعة ، وأن تفكر بعدوانية انك تضيع وقتك ، أو ان تعتقد بحصر انك تضيع وقت المحلل . وسنرى امثلة على ذلك فيما بعد .

كل فرد يبدأ وفق ما هو عليه ، اذ أن بوسعك أن تقول كل ما يخطر ببالك ، وثمة عدة « حواجز » تتدخل بسرعة : **الاخلاق** (اذا ظننت أن شيئاً ما يتصف بأنه « بشع » لا تجرؤ على قوله ، في حين أن ليس ثمة شيء بشع أو جميل في علم النفس) ، **والعقل** (اذا اعتقدت أنها «سخافات» على سبيل المثال ، في حين أن للسخافات في التحليل ، على الغالب ، من القيمة أكثر مما لأروع المحاكمات العقلية في العالم) ، **والذكريات المؤلمة** التي يفضّل المرء أن يحتفظ بها لنفسه ، الخ .

والمريض « يتوقف » ، على الغالب ، عند حصر أو عند كبت(١) . فأفكاره تغيّر دربها ، وتعود ، وتذهب ثانية ، وتتوقف ، وترتبط بتداعيات ،وتمسك بذكرى،وتتلمّس . ويبدو الانفعال والعدوانيةوالحصر سريعا . اليس ذلك امرا طبيعيا ؟ ان **كل شيء** ينبغي أن يقال ، **كل مايخطر**

---

(١) انظر الكبت في الفصل الثالث عشر .

بالبال ، **وكل** ما يجول في الراس . وهدف المريض من كونه يخضع للتحليل أن يتغير ، وأن يستعيد ذاته . فعليه أن يتخلى عن كثير من اساليب الادراك والتفكير وعن كثير من الأوهام حول ذاته ، بوصفها أثوابا قديمة . وعليه أن يهجر طفالاته لكي يبلغ سن الرشد .

هل هو أمر صعب ؟ نعم ، انه شاق . ف « ترك النفس على عفويتها» يخلق آليا ، لدى جميع الناس ، ضروبا من الكف" وبعض المقاومات ، ما دام المريض لا يدرك أن التحليل النفسي « حالة وحيدة » في الحياة : الحالة التي تتسم فيها الاقنعة بأنها غير مجدية ، والحكم الاخلاقي بأنه غير ذي معنى .

بيد أن اي شخص لا يقبل بسهولة ، مع ذلك ، أن يرفع أقنعته الشعورية أو اللاشعورية . ثم ان لدى كل فرد ، بصورة شعورية أو لاشعورية ، انطباع (خاطىء) بأن من المحتمل ان يواجه المحلل ذلك بالنبذ.

وها هي ذي ، مع ذلك ، بعض الامثلة من جلسات البداية . والمقصود جلسات اشخاص أنهوا تحليلهم ، وانطلقوا الآن في حياة متجد"دة . ومن المؤكد ان هذه الامثلة نقدمها في اطار الاحترام المطلق للمريض . وسنرى فيها كم يعبر الادمغة التي تتصف بأنها اكثر عقلانية مشاكيل* من الافكار. وسنرى فيها أن بعض العواطف والعقد ، التي سأتكلم عليها في هذاالكتاب، تبدو بدرجات محسوسة . وسنرى فيها أيضا كم يبحث كل فرد عن نفسه بعد أن فقدها ، وكم يتطلع كل فرد الى الكلية والروحانية والمضي نحو الاخرين ، وكم يتطلع على وجه الخصوص الى أن يكون غير خائف ... انني افكر كذلك بامرأة صبية كانت قد قالت لي في المقابلة الاولى : **« انني شبيهة بعقرب يعض ذنبه ، انني منطوية على ذاتي لانني امرأة ارتدي رداء الخوف ... »**

(*) مفردها مشكال : Kaléidoscope : جهاز يتكو"ن من انبوب كثيف يحتوي على عدة مرايا موضوعة على نحو تولد الاشياء الصغيرة الملو"نة، الموضوعة في الانبوب ، رسوما مختلفة « م » .

ولن أقدّم أي تعليق عقب هذه الامثلة التي أضربها كيما أبيّن كم يصعب على المرء (وكم يتصف بالشجاعة ...) أن يترك نفسه على عفويتها ، وذلك شرط أساسي لكي يدرك ذاته ويتغيّر .

اولا ــ بعض البدايات في التحليل

١ ــ الجلسة الثانية لامرأة صبية

تقدم هذه المرأة الصبية الى الكثيرين ، من خلال عفويتها ، مثــالا حيا . لقد توجّهت صوب الاخرين ، بصورة رائعة ، بعد أن انهت تحليلها .

ــ احساس باليأس ... عميق جدا ... وبالفرح في الوقت ذاته . انني أمضي نحو باب سينفتح . سيكون أمرا صعبا أن أستعيد ذاتي أخيرا . انني أقول لك ما يخطر في ذهني ، أليس كذلك ؟... هذا الباب الذي سينفتح ... التحليل ، انه ، واقسم ، شبيه بالدخول في الدين ... ولكن المرء لا يضع حجابا ، بل يرفعه ! انني أقل توترا منذ اسبوع . واشعر أن ثمة أشياء تتحرك في داخلي ، أشياء احتفظت بي سجينة دون أن ادرك ، اشياء كانت تحول بيني وبين الحياة ، والمضيّ نحو الآخرين ، وحب الآخرين ... ومنذ اسبوع ، بدات مجددا قادرة على أن أستريح ، الامر الذي لم أفعله قط منذ سنين ... فقد كنت دائمـا متوترة ، ومترصدة ، ومذعورة ، وعدوانية ... ودائما في خوف من أن أموت وأنا في حالة الخطيئة ولست كاثوليكية ! فأين الخير وأين الشر ؟ حلمت بأبي هذا الليل . لقد ترك لي حلمي انطباعا مؤلما . فهل يمثّل أبي مشكلة بالنسبة الي ؟ اذا طلبت مني ذكريات البنت الصغيرة ... ناي ... فلن أجد منها شيئا ... مثل ذلك على الاقل ... ليس لدي ذكريات، هكذا . أو الانني لا ارغب في أن يكون لي شيء منها ؟ انه لمخيف أن يموت المرء على سريره ، انها فكرة تخطر في بالي غالبا . الا ترى ؟ ليس ثمة شيء محسوس ، أليس كذلك ؟، انطلق للكشف عنه ! أود لو استطيع ايجاد أشياء ذات أهمية وأقولها لك . ولكن ليس ثمة شيء . هناك ثقب مظلم ، وثمة الانطباع بأن أعيش يوما ًفيوما ، مع ستار ينسحب على كل امس . لقد درست في كتبك آليات الدفاع الداخلية . ولا بد من أن أكون ، أنا ، متخمة بضروب الدفاع ! ولكن أيها ؟ ولئن كنت ادافع عن نفسي ــ واحس تماما انني أفعل ذلك ــ فانني انما ادافع ضد شيء ما . ولكن ضد ماذا ؟ كان أبي يتذمر دائما من الآخرين . وكان يطلب

اليّ دائما ان انتبه الى الجيران وحارسه البناية ، الى الجميع ... وان اكون مهذبة جدا ولطيفة جدا . وكان ينفق من الخوف والدي . انني اريد أن يكون كل شيء واضحا عندما اموت ، وأن يكون كل شيء جليا بالنسبة لي . واريد ايضا ان يكون كل شيء جليا بالنسبة الى أولئك الذين يتعقبوني . لا اريد ان اذهب ، ثم ينظّف الاخرون أوساخهم خلفي - ارجو المعذرة ، فتلك هي العبارة التي خطرت لي . والانسان لا يفعل ما يرغب ، وانا اعلم ذلك ، ولكن ... انني أفكر بهذا التحليل الذي بداته ... ثمة امكان لان اعرف ذاتي ، لان اعرف ذاتي مجددا ، ولان أولد للمرة الاولى ... وهذا صحيح ايضا ! اشعر وكأني طفلة صغيرة بجانب أبيها . أنت تصبح أبي . أتقبل ان تكون أبي ؟ ولادة الانسان في سن الثلاثين ! والامر على هذا النحو بالنسبة الى الملايين من الناس الذين يجهلون انهم ميتون ، والذين تم اشراطهم على أن لا يحتفظوا بشخصياتهم ابدا . ولكنني أنا أريد أن احتفظ بشخصيتي . وارغب حاليا في أن اقول ... أقول طز لكل الناس ، وأن أستعيد ذاتي . ثم انني أعلم أنني سأمضي نحو الآخرين . ويعتقد الناس عموما انهم يمضون نحو الآخرين ، ولكن ذلك انما بسبب كونهم ينفقون من الخوف ...

٢ ـ رجل في الاربعين من عمره ، مدير

ها هوذا الم تقليدي أمام عدم الفهم الذي يتصف بانه تقليدي أيضا .

ـ أن اترك نفسي على عفويتها ؟ هذا أمر صعب ... انني ما فتئت أصارع واتشنج ... ما استطعت ان اصارع في حياتي ! أعاني ضروبا من الهوس الوسواسي ، فأتحقق من كل شيء عشر مرات وانا اصارع ضد نفسي حنقا ... ولكن لا جدوى ، فهذه الضروب من الهوس أقوى من ارادتي . واقول ان وسطي ينصحني ان أبذل جهدا ، عندما يراني أتحقق حتى الانهاك الكامل من الابواب والغاز وحساباتي والباقي ! انه نصح ترافقه الابتسامة ! انني سأقتلهم . ولكن الا يفهمون شيئا اذن ؟ لا شيء ؟لقد انقضت عشرة اعوام وأنا أصارع نفسي، وابدي ارادة اتمناها لكل فرد . ومع ذلك ، يأتي بعضهم فيهمس في اذني قائلا : ان عليّ أن أبذل مجهودا وأن تكون لديّ الارادة ! ولكن هذا هو ... هو ، ماذا أقول ؟ انه لامر خارج عن ارادتي ... انه مجال آخر عميق ليس بوسعي أن أبلغه وحدي ... ويقول لي بعضهم عندئذ : « ولكنك مع ذلك ذو مظهر جيد ، فكيف لا تفلح في اقصاء هذه الحماقات ؟ » ... لو كنت تعلم ...

اي نعم . يعرف عالم النفس ذلك ويسمعه على الغالب ــ مع الاسف ــ اكثر مما يعتقد بعضهم . ولكن ما ينسون ، كما ترون ، هو **أن العصاب ليس مرضا من امراض « الفكر » . انه مرض كاي مرض آخر ، يخضع للقوانين التي يخضع لها كل مرض** . وينسون كذلك أن للعصاب جذورا مغروسة في **اللاشعور** ، وأن الانسان لا يرى منها غير **الاعراض الشعورية**. فكيف يكون اذن للعقل الواعي سيطرة على الاضطرابات اللاشعورية ما دامت هذه الاضطرابات لا « تصعد مجددا » الى السطح ؟

٣ ــ جلسة ثانية لرجل يبلغ الثلاثين من العمر

نرى الآن ، في هذه الجلسة من البدايات الاولى ، تبرز مشاعر الاثمية ، و « المازوخية »(١) كذلك .

ــ اقل شيء يقال لي ، فاكون كقطار يخرج عن سكته . واقل شيء هو : اذا قيل لي شيء ما بصورة غير مهذبة ، واذا وُجه لي نقد ، واذا ... ولست مع ذلك مركز العالم ! انتبهوا كنت منذ قليل ارى رئيسي لعمل من الاعمال . لقد وجه لي انتقادات عادية جدا . انه في هذا المركز من اجل ذلك . والحال انني كنت على صواب . فمشروعي كان من الدرجة الاولى . حسن ، لم اعترض على قوله . وقلت دائما : « نعم ، موافق ، حسن يا سيدي ، نعم يا سيدي » . ان عملي ، الذي كنت قد قضيت ستة اشهر في اعداده ، ضاع ادراج الرياح دون أن اتفوه بكلمة . وهذا امر معقول لو لم اكن شكرت رئيسي الذي كان مستعدا للمناقشة. فالمشروع مصنوع للمناقشة ! ستة أشهر من العمل دون جدوى ، وهذه نتيجتها. أحس كما لو ... هكذا ... كيف اعبّر ؟ احس كما لو انني كنت شغوفا لرؤيته معنيا بعملي! انني امشي على جثتي ابي وامي من اجل كلمة اطراء من رئيسي، ومن اجل تهنئة او شكر... والحال انني أسخر من رئيسي . ولكنني لا أجرؤ ابدا ان اقول لا ، ولا ان اقوم بهجوم معاكس . وماذا بعد ؟ ...

(١) ينبغي ان تفهم المازوخية بمعنى الخضوع المغالي الذي يتيح الافلات من الحصر ، اذ يعطي الانطباع بان المرء يقبله الغير .

٤ ـ جلسة البداية لشاب نشيط

ـ اذن ، اطلق لافكاري عنانها ؟ نجم ، انني سيء الطالع . فيلم رأيته أمس عن اليونان. عضو الذكر ، لانني أحلم بالاعمدة . ان رعبي من الموت هو من القوة بحيث يجب عليّ أن استيقظ ليلا . اسقف ... ولكن ماذا اتى يصنع هنا ؟ دين ، إله ، واي مزعج سيء هذا الذي لا نعلم ما اذا كان موجودا أم غير موجود . عيوبي وحماستي ازاء التحليل ... شريطة أن ينجح ، وأن أكون قادرا عليه ، وأن لا تخطر ذكرى أمي فتطرح كل شيء أرضا ، والسبب، لو كنت تعلم مدى ما أمكنها ان تقطع جميع الوسائل عني ! واخيرا ، لنتجاوز ذلك ، فسأعود اليه . ينبغي أن يكون المرء متواضعا وصادقا ، وهذا صعب . اهانات ، السخرية من الاهانات ، انني دائما اختنق من الحصر . خطيبتي ، هل احبها ؟ انها تخيفني بقدر ما تخيفني أمي . فهي ذات بصيرة وتعرفني ... وعندما كنت في السادسة عشرة ، كانت أمي لا تزال ترغب في أن تغسلني ، ولم أكن أجرؤ على الرفض بوصفي صبيا صغيرا ... وكنت أخفي أعضائي الجنسية وأنا أقرّب فخذيّ الواحد من الآخر ! غشيان المحارم ، تعلّق بوالدتي ، ذلك ما يجعلني حنقا كقملة . كان والدي رجلا ضعيفا ... كل هذا ، انني أنا الذي تحملته . انها عقدة أوديب الفريدة على وجه الاحتمال(١) . ما رأيك في ذلك ؟

انتصب الشاب فجأة ونظر . وبقيت صامتا (صمت المحلل) . فعاد الى مكانه واستمر في حديثه :

ـ احس بصمتك وكأنه صمت مستهجن ، ومع ذلك أعلم أنك تحبني وتفعل كل شيء لكي أخرج مما أنا فيه . واحس من جهة أخرى بأن الناس جميعهم عدائيون . انني أقلّد « الصبي الصغير » ليكون الناس متسامحين معي ... عقد ... انني أعود الى التفكير دائما بأنني كنت عاريا في الحمّام ، وبانني (تتشنج قبضته) ، يا للصاعقة ! كنت مع ذلك قادرا على أن استحمّ وحدي ، يا إلهي ! وكان الوضع دائما يتكرر . ولم أكن استطيع أن افعل شيئا بدونها ، ودون أن تكون حاضرة ! ومهما يكن من أمر ، فأنا عاجز جنسيا وأنا في الثلاثين ، وخطيبتي تعلم ذلك . انني متأكد أن هذا العجز انما سببه كل ذلك ... والزواج ... اذا تزوجت !

---

(١) انظر « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث »

ونهض قائلا :

– هل كان يجب عليّ أن أجد تسوية مع الحياة ؟

وبقيت صامتا (صمت المحلل)

– اصغ اليّ ... آمل أن لا أصدمك ، وأن لا تسيء الظن بكل ما أقوله . فما أنا في عينيك ؟ رجل مسكين ؟ انني رجل مسكين . وجميع الناس مساكين . وحظي انني وجدتك ، لانني أريد أن أصبح رجلا . ذهني يتوقف ... أفكر بخطيئتي ... عضو الذكر ، سيكون ذلك شيئا رائعا ... أخشى أن أسبب لك الملل ، كما لو أنك ستطردني ... اعتراف : ذلك مااستطعت،الاعتراف به،مع مايرافقه من ضروب حصر النهار والليل!ثم الرغبة في شتم المعرّف ، ثم كنت قد قمت بنزهة مع انطباع بانتهاك الحرمات ... عملي اليومي ادارة مئة عامل وبعض المستخدمين ... انني رب عمل طيّب ، ربما لانني أتألم ، أليس كذلك ؟ اعتراف ... عندما كنت أعترف ، كانت تخطر ببالي ، في الوقت ذاته ، كلمات تنتهك الحرمات . مسبات . وكلما كنت أرغب في اقصائها ، كانت تخطر ... وفي بعض الاحيان أيضا ، كانت موجهة الى ماما . انها مع ذلك ماما ، أليس كذلك ؟ ولو أنها تعلقت بي ؟ والناس يسخرون مني عندما أقول « ماما » ، ولكنني لم أستطع أن أتوصل الى القول «أمي» ... أزمة وساوس . رأيت حلما هذا الليل ، ولكنني لم أعد أتذكره . انني افكر بطفولتي، طز ! أظن أنك غاضب مني ، وأعلم أن الامر حماقة .

ونهض قائلا :

– هل ينبغي أن تسمع أمورا من هذا النوع ، حكايات ؟

واستأنف :

– لقد فهمت . عليّ أن أبقى وحيدا مع ذاتي في البداية أمامك . انه،من جهة اخرى ، لامر جيد هكذا . أفكر بالماء : البول ، والانبعاث ، والاخصاب ، والحقل ، وحقلي الخاص بي محروث بطريقة مضحكة ، وأتمنى أن أحقق ما بسببه خُلقت ، وأن يهديني الله الى الطريق ، ولكنه هداني ، بما انه قادني اليك ، الى التحليل ...

ونهض قائلا :

– لم يعد بوسعي الاستمرار ... انني ، في الوقت نفسه ، مصاب بالحصر واشعر بالراحة . ولم يسبق لي الاعتقاد أن بمقدوري ترك نفسي على عفويتها هكذا ...

٥ ـ الجلسة الثالثة لفتاة صبية

انني تارة اقضي وقتي في أن اكون أسوأ من صبي ، وطورا مستسلمة أو سلبية . وفي فترات اخرى ، اقضي وقتي في هدم كل شيء ، بما فيه ذاتي . الهدم ... كبيت نقوضه لان آخرين بنوه بناء سيئا ... بيتي الداخلي ، والداي‌هما اللذان شيداه ، ثم اسنداه لي ... عندما افكر بوالديّ ، افكر بوالدتي . فوالدي كان كأنه غير موجود ... امي ، اشبهها جسديا ومعنويا ، واعتقد انني قد اقتل من يقول لي ذلك . فانا اعبد امي وابغضها . انها فعلت كل شيء من اجل ... اعلم ما اتمنى قوله ، ولكن ذلك لا يمرّ ... ذلك يسبب لي الحصر . هل بوسعي أن ادخن ؟

اشعلت لفافة تبغ وسحبت بعض الانفاس .

ـ اوف ! هذا افضل . انه لغريب أن يكون على المرء التحدث على هذا النحو في الفراغ دون أن تنطق بكلمة واحدة ... هل الامر سيكون دائما على هذا النحو ؟

صمت .

ـ ماذا سيكون رأيك بي ؟ انه السؤال الذي يتسلط عليّ ، واقسم لك أن قول ذلك غير سهل ... الموت ، الخوف من الموت ... ولكني ، في الوقت نفسه ، أرغب فيه بعمق ... انني دائما اخشى مواجهة شيء ما ، لان امي كانت قد ربتني بصفتي معبودتها ، كما لو انني كنت إلهة . عمري خمسة وعشرون عاما ، وقد بدأت فقط ادرك أن ثمة أمورا بوسعي أن افعلها شخصيا دون عون من أي شخص ... ولكني عندما افعلها ، ارغب في أن استأذن احدا ... كما لو انني كنت مخطئة ...

٦ ـ جلسة لرجل بلغ الخامسة والعشرين

ـ قرأت في بعض الكتب ما هو التحليل النفسي . وكنت قد شرحت لي قليلا عنه ، وكنت أعلم انه يتعذر عليك ان تقول أكثر في البداية . والآن بدأت أفهم . انه لامر صعب ، فعلى الانسان أن يكون متواضعا ، وأن لا يخشى ذاته ، ولا لاشعوره ، ولا افكاره الخفية ، وثمة ما يخطر منها خلال نهار ! انني الآن ادرك التوقعات التي تغلّفني ، والتمثيليات التي أمثلها

دون أن يكون بوسعي تحديدها ، والمخاوف التي كبتّها دون أن أستطيع تحديدها أيضا ، وضروب هروبي ... فكلها تختلط ... أحس للمرة الاولى أنني أكره طفولتي ومراهقتي . اكرهها . لهذا السبب اذن كان عليّ أن أكون تعيسا دون أن أعلم ذلك . تعيسا جدا . أم ثمة شيء آخر ؟ انني أرى أبي مجددا ... انه مستبد ، ضرب من نابليون الذي لم يكن يقبل شيئا يأتي من غيره ... وكانت والدتي دائما متأوهة ومذعورة ... اما انا ، هناك في الداخل ، فكنت أكره البيت ، ولكني أعود اليه عند أدنى خطر ... وذلك ما لا أزال أسلكه الآن ، على الرغم من مظاهري ... يا إلهي الطيب ، لو كانوا يعلمون ... ويقولون لنا اننا أحرار ...

٧ ـ جلسة بول الاولى ، مساعدة ماهرة في مختبر

ـ أشعر وكأني ثمرة فاسدة . اتيت أسألك العون ، لانني أحس باستحالة الخروج وحدي مما أنا فيه ، وباستحالة أن أرى ذاتي رؤية واضحة . وعندما يحاول المرء ، يجد دائما وسيلة للتملص بمهارة ، أليس ذلك لانه يرفض أن يرى ؟ اذن ، أنا لا أريد ابدا ان أفلت ولا أهرب . أريد أن أكون ما أنا . وأريد أن تقسرني على النزول في ذاتي . أريد ان أصبح ما أنا . أريد أن أكون في سلام على الاقل . ومن الاجدر أن يكون الانسان قاطع طرق في سلام من أن يكون قديسا معذبا . وأخيرا ... لا أعرف شيئا . وأي رجل في سلام لا يمكن أبدا أن يكون قاطع طرق . ولكنني أريد أن أخرج مما أنا فيه . عمري خمسة وعشرون عاما، وأناضل منذ عشرة أعوام ، فحسبي . وذلك بسبب امي . هذا الامر ، انني واثقة منه . وسأشرح لك ذلك طولا وعرضا اذا قبلت .

ـ أقبل بالتأكيد .

ـ أشكرك . هل ينبغي أن ترى ذلك من كل الالوان ؟ ألست متقززا من الانسانية ؟

ـ كلا بالتأكيد ...

ـعندما تذهب في اجازة ، الا تحلل الناس الذين تلاقيهم ؟ أليس من المفترض ابدا ان لا تجد بينهم غير أصحاب الوجوه البشمة ؟

ـ ... ابتسامة

ـ أنا ، ليس بوسعي ان أكون محللا نفسيا . سأفقد الايمان بكل شيء . فليس ثمة غير ضروب العصاب والحصر دائما ... وماذا ينبغي تفريغه من شحنة عليك !

ـ انك لست محللا مع ذلك .

ـ اوه ، هذا صحيح ! انني لست محللا ، ومع ذلك فقدت الايمان بكل شيء . أمن المحتمل ان يكون السبب في عدم فهمي شيئا انني لست محللا نفسيا ؟

ـ ابتسامة . ربما .

ـ أوه ، هذا صحيح . انني أثرثر كمقعق . ومن جهة اخرى ، لم تكن أمي تفتأ تردد انني كنت اكثر غباء من شحرور . واعلم أن هذا خطأ ، ولكن ...

ـ امــك ؟

ـ عندما افكر فيها ، ارى ضربا من الثقب الاسود يمتصني ، وياكلني ، ويحطمني ، ويمتص طاقتي ، ويتركني كخرقة ... (بول تنتحب فجاة) . وحاولت ، على الرغم منها ، أن أبني نفسي لبنة لبنة ، محاولة أن أروّض ضروب تمردي ، وان أبرهن لنفسي على أنني كنت أساوي شيئا ما ...

ـ وابــوك ؟

ـ كان يرغب في ابن . وكنت بالنسبة اليه « مصادفة تعيسة » ، ولا شيء اكثر . الأمر الذي جعلني استطيع العمل لكي أفلت من كل ذلك ! وكنت أبدو البنت « التي يسوقها في العمل سوط » ، عندما كنت في المدرسة . والواقع اني كنت أنفق من الخوف في قرارة ذاتي. كنت أنفق من الخوف ، وتلك كانت هي الحال . وكانوا يكرهونني . ولكن كان علي ، مع ذلك ، أن احاول أن اكون شيئا آخر مختلفا عن النعوت التي كانوا ، في البيت ، يقذفونها في وجهي . فكل ما فعلته كان تعويضا ، كل شيء ! وعزلتي ! والله ، الذي يبدو لي أبعد من كل شيء ...ارهقت نفسي في بذل جهود فوق انسانية لكي أفلت من ذاتي ، ومن أمي ، ومن الشك في الله ، وفي الآخرين ... وكم تمنيت أن يكون بمقدوري المضي نحو الآخرين...!

ـ ما عمر والدتك ؟

ـ لا عمر لها بالنسبة الي . انها ضرب ... ضرب من الرمز ، رمز التهديم . ومشكلتي

هي مشكلة الحب ، والله ، ومعنى الحياة ، ومعنى حياتي . ولكن لدي الآن يقين واحد : كل ذلك قادني صوب التحليل النفسي ، وأعتقد اني ، في يوم من الايام ، سأرى أن ماضيّ غير ضائع بالدرجة التي اعتقد .

٨ ـ ايزابيل،فتاة صبية ذات سبعة وعشرين عاما

ـ لديك منظر جميل من هنا ؟

ـ بالتأكيد ...

ـ لا بد من أن تغمر اشعة الشمس عيادتك في الصباح ، مع كثير من النور .

ـ نعـم ...

ـ اذن ، أعلي أن أقول لك كل شيء ؟

ـ لكي يكون العمل على مايرام ...

ـ أهو الاعتراف دون قيد ؟

ـ نعم .

ـ يا للشيطان ، انه لامر صعب !

ـ الى حد ما ، في الواقع ...

ـ والناس الذين هم على هذه الشاكلة ، أيقولون ما يفكرون به ؟

ـ ليس دائما على الفور .

ـ هذا ما يطمئنني ، ذلك هو الامر . انني بحاجة اليك لان اي شيء ليس على ما يرام ، الا ترى ؟

ـ ...

ـ ليس أي شيء على ما يرام . وفكرة القيام بفعل هي الآن امر يفوق طاقتي . وانا اكره نفسي لذلك . الا تحتقرني انت ؟

ـ ولمـاذا ؟

ـ ولكن لانني جبانة ! انني جبانة وعدوانية ازاء جميع الناس . وارغب كل يوم في أن أموت أو أشرب حتى الثمل . واقول كان لدي كثير من الطاقة ! وقبول الم جسمي ، كم هـو يسير بالقياس الى قبول ما انا عليه وما استشعره ! هـل اقدر أن اترك نفسي على عفويتها ؟ أليس من المفيد أن نبدأ فورا ؟

ان بول شابة ، شاحبة . ثمــة أسرار محزنة على فمهــا . وتغلق عينيهــا . ويبقى المحلل صامتا .

ـ ينبغي أن اتخلص منه ... انه فظيع ، العصاب ... انه فظيع ، هذا التعب ، وهذا النقص في الفعل الارادي ، وهذه اللامبالاة بكل شيء ... انه لامر غير منطقي جدا ... وغير انساني جدا ... مرهقة ... ضيقة الانفاس ... خائفة من الآخرين ومن نفسي ... انني شبيهة بشيء نباتي أو معدني ... ثمة تمثيل لدور من الادوار ، دون علم بذلك ، لانقاذ الكرامة ، وهذا أمر فظيع عندما يدرك المرء ذلك ... ثمة خوف من الأصدقاء والاعداء على السواء ... واذا كان علي أن ابذل مجهودا في اتجاه أو في آخر ، فذلك مستحيل...عندئذ ، أصارع صراع الغريق ... وهناك الآخرون الذين يلاحظونك ويحكمون عليك ... انني دائما في خوف ... والناس لا يحسنون فهم العصاب ، في حين أن كثيرا منهم يعانونه !... ثمــة كثير من التناقضات في نفسي ... وثمة من يهرب من تناقضاته في عمل عنيف ... أنا لم أعد أستطيع ، ولكنني قمت به خلال سنين دون أن أعلم ذلك ... احتفظ بالصمت ! ان هذا لأمر رائع وفظيع معا . انه شبيه بصمت ثقيل وعذب . انك لا تقول شيئا ، ولكنني أعلم أنك تصغي ... وانك لا تصدر حكما علي ... وأنك ... وربما هي المرة الاولى في حياتي أترك نفسي على عفويتها ... ليس ثمة قناع ، ايزابيل ، يا عجوزتي ، وانت ستتخلصين على هذا النحو مما أنت فيه ! لو أن جميع الناس كانوا محللين نفسيين ، لكانت الحياة رائعة ! يمكن للمرء أن يكون ما هو ، هكذا ، دون حكم ، ولا خوف ، ولا حصر ... وسيكون ذلك فهم الحياة وقبولها كما هي ... انك تحتفظ بصمتك ، واخشى أن لا تطرح سؤالا ...

ـ ...

ـ انك لن تطرح سؤالا ، اذن سأستمر ، وهذا حسن . أي سعادة لو انني كنت استطيع على هذا النحو أن أترك نفسي على عفويتها مع امي ! ... ولكن ذلك لم يحدث أبدا ... لي والدان ، ولكنني أبقى وحيدة ... على المرء أن يكون بقرب والديه كما يكون بقرب

الرب ... ولكن المفروض شيء والواقع شيء آخر . أمن المحتمل أن يحدث ذلك عندما أتخلص من خوفي من الآخرين ، وعندما أسترجع طاقتي ، وعندما أعرف نفسي ، وعندما لم يعد مفروضا علي أن أتعامل مع شخصية ليست شخصيتي ؟ أرغب في أن أصبح ما أنا . ولكنني (ايزابيل تبكي) ضعيفة جدا ! واتظاهر بأنني قوية ، وعدوانية ، وتعرف ما تريد ! وعلي أن أتمسك بهذا الدور لكي احتفظ بوضعي ، وهذا أمر مرعب ! فأي عزلة ! ...

وانتصبت فجأة .

ـ أريد أن أعيش ، هل تفهم يا سيدي ؟

ـ نعـم .

ـ أريد أن أحيا كما أنا وبوصفي أنـا ، ولا شيء آخر . أن أكون حرة مـن الناحية الداخلية ، هذا هو ما أريد ... ولست بشخصيتي الحقيقية منذ زمن بعيد ... هل تفهم؟

ـ نعـم .

ـ ذلك ما ينبغي أن يتغير . هل سيكون أمرا صعبا ؟

ـ ربما ...

ـ سيان عندي . فاذا كنت أكثر بشاعة في الداخل مما أعتقد ، فلا حيلة لي ازاء ذلك. واذا كنت اكثر جمالا ، فنعما حدث . أليس كذلك ؟

٩ ـ رجل في الاربعين من عمره

ـ لن أتوصل أبدا الى أن أترك نفسي على عفويتها ، ولكنك لست غريبا ... انـك صديق ... لم يكن لي أبدا اصدقاء ... لم يكن لي أبدا صديق واحد يساعدني على أن أعيش ... الانتحار ، ما هو الانتحار ؟ من أباحه ؟ ولماذا هو غير مباح ؟ وما هو الصحيح ، وما هو الخطأ ؟ والعدل والظلم ؟ لماذا اعيش ؟ ولماذا يموت الانسان ؟ وما جدوى كل هذا ؟ انها المرة الاولىالتي اكون فيها صادقا مع نفسي ... انني لا شيء ، ولا أساوي شيئا ... أتمنى أن أصلح الامور ... انني صندوق قمامة ... ويقال انني رئيس مشروع ... يخشاني الذين يعملون تحت رئاستي ، وأهرّ طيلة النهار ... انني شخص مسكين ... شخص مسكين ... لو كان الاخرون يعلمون ! ... أغوص في العمل كالقاعد على نار لافلت من ذاتي،

ومن زوجتي ، ومن اصدقائي ... هل لي اصدقاء ؟ هل أقدر على أن أحب في قرارة نفسي؟ هل يستطيع الآخرون ان يحبونني ؟ انني فاقد الثقة بنفسي ... عندئذ أصبح . انهم يخشونني ، ولكنهم لا يحبونني . أتمنى لو يحبونني ... حلمت الليل الماضي بقصر ، وكانوا قد طردوني منه ... عندما أرى امرأة عدوانية ، أختفي تحت الارض ... سكرتيرتي جَمَل، اذن أجبر نفسي على كرهها حتى أكون أكثر عدوانية منها واذلها ... ذلك هم الناس ... الخوف ... يصبح المرء فينحني جميع الناس ... وهذا امر يسبب لي التقزز . الناس بحاجة الى هراوة ، والا مشوا فوقك . انني أفكر بسان ايكوبيري ... أريد ، انا أيضا ، أن أصبح بستانيا ... أن أكون في سلام ... فليتركني الناس في سلام ... فليترك الناس في سلام هذا المغفّل الذي هو أنا ... ولا يرى أحد أنني مغفل ، حتى ولا انا ... ولم أقل ذلك لاحد ، حتى ولا لنفسي ... ولكنني أريد التخلص من هذا ، وأريد أن لا يسبب لي التقزز ابدا ، وأن أقود دون خوف ودون أن أكون ملزما بالصراخ حتى أفرض الطاعة ... ائمة ، مع ذلك ، أناس يطاعون لانهم محبوبون ومحترمون ، ولانهم أقوياء من الناحية الداخلية ؟ أريد أن أكون من هؤلاء . اريد أن أطهر نفسي كليا . انك ستقدم لي يد العون ، أعلم ذلك ... لابد من أن يرى المرء بوضوح ... ضوء ... مصباح جيب ... انني حاليا في الظلام ... سلّم ينزل نحو كهف مظلم ... والداي ... لا بد من أن يكون كل ذلك قد وقع في أثناء مراهقتي على غير علم مني ، وما كنت أشعر به من الهلع أمام والدي ... وأمام أمي بالتالي ، بهالتها ، هالة الشهيد ؟ فمن يستطيع أن يحبني ويفهمني ... يسخر الناس مني ... لست رجلا ، هذا هو ما أنا . لم اتجاوز بعد مرحلة المراهقة ، وعلي أن أقود ثلاث مئة شخص يخافون مثلما أخاف ...

أنتم ترون اذن،منذ البداية ،أن التحليل النفسي مدرسة الشخصية. يضاف الى هذا أن المريض يحاول أن « يقدر » محلله . فيطرح على نفسه اسئلة ، ويحاول أن يعرف ما يتصف به ومن هو . اذن ، سأحاول أن أجيب عن هذه الاسئلة .

ثانيا ــ من هو المحلل النفسي ؟

المحلل اذن ، في البداية ، « جرّاح النفس » . انه ، كل يوم ، يلاحظ الآليات العميقة التي تحكم الموجود الانساني . ويعيش ، اذا جاز لي القول،

في اتصال دائم على وجه التقريب مع لاشعور الآخرين ... ومع لاشعوره. والتحليل النفسي ، كما قلت سابقا ، عمل من التعاون اللازب بين المحلل والمحلل . فلا يستطيع المحلل اذن **شيئا** دون مريضه، كما لا يستطيع المريض شيئا دون محلله . والتحليل عمل مشترك نحو أفضل نجاح ممكن . انه عمل « ثنائي » ترتبط في أثنائه شخصيتان ارتباطا كليا .

واذا تساوى محللان نفسيان في « التقنية التي يستخدمانها » ، كان من يتصف بالقدر الاكبر من الفهم الانساني ، والاشعاع ، والمحبة ، والحيوية ونسيان الذات ، والقوة الداخلية ، هو الذي يحقق العمل الافضل .

وينبغي مع ذلك عدم الاعتقاد بان المريض ساذج لا يدرك شيئا ، وانه فاقد كل حدس ... بل على العكس ! ذلك أن الألم ، وان كان صعب الاحتمال ، يشحذ الحدس ، الذي قلما يخدع ، وينميه ، حدس كون الانسان محبوبا **بصورة واقعية** ، ومقبولا ، وليس موضع حكم . فثمة ضرب من « التخاطر » يتدخل في بعض الاحيان ، فيجعل المريض « يحس » بنفس المحلل العميقة احساسا صحيحا جدا .

ومن المفيد ، على وجه الاحتمال ، ان نشير الى ما يمثّله المحلل تدريجيا بالنسبة الى مريضه .

ينجز المريض ، على وجه العموم ، أربع مراحل :

أ ــ ينظر الى المحلل على أنه « **ساحر** » كلي القوة ، اله أو شيطان، قادر على كل المعجزات .

ب ــ ينظر المحلل على أنه اختصاصي « يفسر » و « يكره »على العمل.

(*) التخاطر (La télépathie) : تواصل مباشر بين فكرين يحول بينهما البعد عن استخدام الوسائل الحسية في التواصل . واحساس المريض بالمحلل ضرب من التخاطر « م » .

والمريض ، على المحلل ، يسقط الاب الذي يجرّد الابن من رجولته أو الاب العطوف ، والام المحبة أو الملتهمة ، ومـن يـدين ويكافئ ويبدي الاعجاب ويعاقب ، الخ . ويشكّل المحلل جزءا من **الانا العليا** للمريض .

حـ ــ والمحلل يصبح **الانا النجدة** للمريض ، التي يمكن الاستناد اليها دون خوف . انه يصبح ضربا من المحرّك المساعد ، اذا صح القول ، الذي يعوّض في حال العجز .

د ــ تنفصل **انا** المريض عن **أنا** المحلل ، وتفوز بحريتها واستقلالها .

١ ــ بأي حق ؟

ثمة سؤال يطرحه بعض الاشخاص : « ولكن بأي حق يدّعي عالم نفس حق تحليل الآخرين نفسيا ؟ انه اختصاصي ، هذا مفهوم ، ولكن أي حق له في التنقيب في أعماق نفسك ؟ » وبما أنني سمعت هذا السؤال في غالب الاحيان ، أجيب عنه . . . انه ليس له أي معنى . فهذا الحق منحه للاختصاصي الشخص الذي يأتي لاستشارته ، وبالتالي الشخص الـذي يثق به . وهذا الحق ممنوح للاختصاصي لان الشخص يعلم لماذا يخضع نفسه للتحليل (سواء متوازنا أم لا) ، ولان تحليلا في الاعماق أمر مـن أكثر الامور التي ينجزها الانسان في حياته أهمية .

وكل تحليل نفسي يجمع بين **العلـم والحب** . يضاف الى هـذا ان من يقول « تحليل » يقول « أمل » . انه رأس الرجاء الصالح ، بأمواجه الصاخبة الاولية وهدوئه النهائي . فليس التحليل عودة الى الوراء ، كما يقول بعضهم (لان المرء ، في التحليل ، يعود الى الماضي ليكتشف بعض الاسباب) ، وانما هو ضرب من « استعادة » الشخصية ، ومن « النضج» . وهذا طبيعي ، اذ أن التحليل **يضع** البواعث التي يضفيها المرء على أعماله **موضع التساؤل** .

٢ ـ المحلّل « حيادي »

يقال غالبا ان الجاهل بأصول فن التحليل ، الذي يشهد بعض جلسات التحليل ، قد يهرب مذعورا أمام بعض عدوانيات المرضى . وهذا صحيح الى حد ما . فعودوا الى **التحويل** في الفصل الثامن . وعلى المحلل ، مهما يكن من أمر ، أن يكون قادرا على أن يتمالك نفسه **دون جهد** . وعليه أن يعلم ، وتجربته تساعده ، **متى** يسعه أن يقول هذا الكلام ، وأن يقوم بتلك الحركة ، أو أن يبتسم ابتسامة معينة ، الخ (وذلك دون أن « يمثّل دورا من الادوار » أبدا) . فعلى المحلل اذن أن يستخدم كل شيء ليفوز بضرب من « العبقرية الانسانية » . . . وأن يكون قد عمل على ذاته خلال سنين طويلة .

فثمة قاعدة اذن : ينبغي على المحلل ان يكون « حياديا » أمام ردود فعل مريضه ، سواء كانت هذه المظاهر عدائية أم مغالية في المودة . ويعلم كل محلل أن **شخصه** ليس موضع اتهام ، في الغالبية العظمى من الحالات على الاقل ، بل ان هذه المظاهر هي « اسقاطات » تتوجه صوبه . فثمة مريض يقول للمحلل على سبيل المثال : **« انني اكرهك ، واتمنى ان تصاب بالدمار وأن تتسربل بالعار ، الخ »** . فليس الى المحلل انما يتوجه ، بل **الى ما يمثل المحلل بالنسبة اليه في هذا الآن** . والمريض الذي يحلل يستجيب ، على الغالب ، تبعا لضروب تثبيته على حالات ماضية . **انه « يركز » على المحلل حزمة وجدانيته** . ويتصرف ازاء المحلل كما يتصرف في حياته اليومية ، ولكن بقوة اكبر . . . واقنعة اقل .

والمحلل الذي يفقد أعصابه سيكون اذن بئس المحلل . ومن الواضح ان أي محلل لا يقبل التصريح بالحب ، الذي يصرح له المريض به ، على أنه « أمر صحيح مؤكد » ، ولا ضروب التفريغ العدواني الذي يوجهه اليه . وهو يعلم أن الشخص لن يحتفظ ازاءه الا بعواطف سوية من الارتباط ، عندما يتخلص من عقده . هذا اذا لم ينسه نسيانا كليا ، كما يحدث ذلك في أغلب الاحيان . **انه ،من جهة اخرى ، مشكل ينبغي للمحلل ان يتجاوزه،** بالنظر لما بذله من طاقة وزمن وحب في سبيل شفاء مريضه . . .

ها هو ذا مثل من الامثلة . بعد صمت مطلق ساد لـدى المحلـل والمريض ، أخذت المريضة (شخص ذكي ومتوازن جدا) تبكي وتقول :

ـ ان تركت نفسي على عفويتها ، ارتميت بين أحضانك .

ثم قالت أيضا بعد صمت طويل بعض الشيء :

ـ ما كان لي أب أبدا ، أنا ...

وساد صمت جديد امتدّ طويلا ، ثم بدا طور من العدوانية :

ـ انك هنا ، مع ذلك ، لكي لا تقول شيئا ولترصّدني !

وساد صمت آخر . ثم قالت :

ـ انني كما كنت دائما . فما أكفّ عن الشعور بأن الناس لا يحملوني على محمل الجد ، وأنهم يحقدون علي . تماما كوالدي ...

كل هذا شائع في التحليل . وغني عن البيان أن هذه المريضة تتصرف **حاليا أمام محللها** كما كانت تتصرف أمام والدها ، وأن المحلل يمثل الأب (الذي نسبت الكمال اليه) . ومع ذلك ، فلا بد الآن من أن نلاحظ أنها **تتصرف على هذا المنوال في كلية حياتها ، امام رؤسائها وزوجها وبوّاب بنايتها ، الخ ، ولكنها « تركز » على المحلل كلية ردود فعلها .**

٣ ـ موضوعية المحلل

المحلل اذن **موضوعي** قبل كل شيء . ان عليه أن يكون قادرا على أن يحس ، في كل جزء من الثانية ، بكل رد فعل صادر منه لا يتصف بأنه موضوعي . فالتعاطف والنفور لا يمكن أن يتدخلا لدى المحلل . هل يعني القول انه دائما ذو حيادية **مطلقة** ؟ انه قول عبث ... اذ أنه موجود انساني بعواطفه وانفعالاته ، الخ .

ومع ذلك ، لا بد من أن نتفاهم حول كلمة « حياد » .

فطريقة التحليل النفسي تفرض على الممارس « **حيادا عطوفا** » . ولكن

العطف يلغي الحياد مسبقا ! ويقال ايضا ان على المحلل ان يكون « **شاشة بيضاء** » يسقط المريض نفسه عليها . والحال أن من المتعذر الغاء العلاقة، المتصفة بأنها انفعالية بعمق ، التي تربط دائما بين موجودين انسانيين .

ولندفع « الحياد » من جهة اخرى ، الى حد العبث ، ولنتخيل المحلل في عام ٣٠٠٠ يجري تحليله أمام ... مذياع أو مسجل للصوت وأمام دماغ الكتروني يعطي التفسيرات في الوقت المطلوب ...

أن يتقيد المحلل بالقواعد التقنية ، هـذا أمر مؤكد . أن يتصف بالقسوة ، ابدا . ان **فرويد** ذاته كان قد كتب يقول : « كنت احسب ان الامر الاكثر اهمية بأنه ينبغي أن يقال هو **الامر الذي ينبغي ان لا نفعله** ، كيما نتجنب ما يمكن أن يبعدنا عن « روح » التحليل النفسي . والنتيجة هي أن المحللين لم يفهموا مرونة القواعد التي ارسيتها ، وانهم جعلوا منها مقدسات » .

واذا كان لابد لمحلل نفسي من ان يتصف بقسوة تقنية كلية ، فلا بد له بالضرورة ان « يبالغ » لكي يخنق انسانيته لمصلحة قاعدة مقدسة . فلماذا يفعل ذلك ؟ انشك في كفايته العلاجية الخاصة ؟ الحاجة الى أن يلتجىء خلف **الاب** ؟ الخوف لاشعوري من خصاء يأتي من ظل الرائد العبقري ؟

ويبرز كل هذا ، مرة اخرى ، ان على المحلل أن تكون لديه ، بالاضافة الى تقنيته ، قدرة على التكيف وجاهزية كليتان ازاء كل مريض .

ولنعد مع ذلك الى حياد المحلل ، ولنتخيل محللا لم « يتخلص » من عدوانيته ، ف « يسقطها » على مريضه مناقشا ومهاجما هجوما معاكسا ، الخ . ان المرء يدرك الارتباك هنا .

فعلى المحلل اذن أن يحاول ، كل يوم ، بلوغ مثال فوق انساني على وجه التقريب . **عليه ان يكون قادرا على السيطرة على نفسه بطريقة**

كاملة ، مهما قيل له ، وأن يكون جاهزا ، وأن يكون قادرا على الامتناع ابدا عن اطلاق الاحكام ، أيا كانت الفكرة أو العمل الذي يصفه مريضه .

ثمة **سؤال** يطرحه المرء على نفسه غالبا : هل المحلل **يلزم نفسه** بعدم اطلاق الاحكام ؟ وهل هذا قاعدة بالنسبة اليه ؟

والجواب : لا . فليس ذلك الزام يفرضه على نفسه . **بل ينبغي أن يكون ضربا من التلقائية** . انه يعلم أن الصحة والمرض امران معزوّان الى الظروف ، وأن كل شخص « يجمع » من الظروف (الملائمة أو غير الملائمة) بحسب ما هو عليه . والعصاب مرض كأي مرض . واذا لم يكن أي شخص « مسؤولا » عن اصابته بالسل ، فلماذا يكون مسؤولا عن اصابته بعصاب ؟ وذلك كمن يقول ان كل فرد « يصنع » دماغه ،وجملته العصبية، ووالديه ، وطفولته ، وتربيته ، ومراهقته ، وصحته ، ومرضه .

٤ ـ شجاعة المحلّل

لئن كانت « الشجاعة » غير ضرورية لكي يبدأ المرء تحليلا نفسيا ، فلا بد منها للاستمرار في التحليل ! وينهي المرء على وجه العموم تحليلا وهو يجد نفسه مختلفا كل الاختلاف عما كان عليه . فلماذا ؟ السبب ، أولا ، أن العصاب تم استئصاله ، وثانيا ، أن الشخصية العميقة تبرز ، في حين انها كانت قد بقيت محجوبة خلال عدد كبير من السنين .

وثمة دافعيات ، كانت تبدو شديدة المتانة ، تتهاوى في التحليل النفسي . ويرى المرء نفسه أكثر « جمالا » أو أكثر « قبحا » مما كان يعتقد . انه يتعرّى . وتصعد نحو السطح ضروب الكبت والعقد التي كانت تجوس في اللاشعور زمنا طويلا . وتظهر « مسوخ » لاشعورية . ويدرك المرء اذن أن من غير المستحب أن يعيش مجددا انفعالات مؤلمة كان قد طمرها بعناية خلال سنين . وفي هذه الفترة ، انما يترك بعض الاشخاص تحليلهم (وهذا نادر) .

وها هو ذا ، على سبيل المثال ، **حلم كلاسيكي** رآه في منامه رجل ببدايــة التحليل النفسي .

ـ حلمت أن لصا شديد الخطر دخل بيتي . وكان يريد ان يسرق جميع ما لدي من حليّ كانت مخبأة في خزانتي .

يدرك المرء بصورة مباشرة أن « اللص » هو المحلل الذي يريد أن « يسرق الحلي المخبــأة » ، أي أنه يريد ان يبعــد » واجهة « مريضه ليساعده على أن يستعيد شخصيته الحقيقية . ويمكن لهذا الحلم أن يكون له كذلك دلالة جنسية أو عدوانية لن أتكلم عليها هنا .

ولا بد من فهم ما يلي : في التحليل ، يريد الشخص ، **بصورة شعورية**، أن يستأصل الاعراض التي جعلته يتألم . ان ارادته وامله متجهان نحــو هذا الهدف : أن يتم له الشفاء . ولكن ، مع ذلك ، قد يحدث على الغالب أن الشخص يقول « لا » بصورة لاشعورية ، وان قال » نعم « بصورة شعورية . فلماذا ؟ هل السبب أنه يرفض أن يرى ذاتــه كما هي ؟ نعم . ولكنه يرفض كذلك لان عصابه ضرب من الحماية ، ضرب من العكاز الذي يستند اليه . فلنعلم الان ما يلي : عاش الشخص ، طيلة سنين ، علــى **الدفاعات وعلى ضروب من الامن اللا شعوري المزيف** . لقد تعلق بمسمار مغروز في حائط ، مع انطباع مفاده أن هذا المسمار هو انقاذه الوحيد ...

فليس من المستحب بالتأكيد أن يرى المرء يتهاوى عالم الاوهام الذي كان لديه حول ذاته وحول الحياة ، ولا أن يرى أفكاره العبثية تتوارى . ولكنه لا يعلم بعد ، في هذه الفترة اياها ، أن « الرجل الجديد » سيخرج من الرماد ... ولكن أليس عملا رائعا هذه المهمة الشاقة ، مهمة المريض ، الملحومة على مسؤولية المحلل الجسيمة ؟

الفصل الرابع

صوت منبع النهر

آه ! قال الرجل ، عليك أن لا تندهش . فالجذور ، انها شيء ابدي .

(جان جينو)

ها نحن قد وصلنا الى نقطة الانطلاق الحقيقية للعمل في الاعماق . فالاتصال الاول تم . وثمة ضرب من الايضاح حدث . وقام المحلل والمريض باستعراض الاعراض (الشعورية) والآلام (الشعورية) . وبوسع الاختصاصي الآن أن يطلق حكما على مشاركة المريض الممكنة .

وعلى المحلل ان يقرّر ، في هذه الفترة ، اسلوب عمله . واذن : من هو الشخص ؟ ماذا يريد ؟ ما ذكاؤه **الداخلي** ؟ ما مستواه العقلي ؟ ما هي « الاقنعة » المرئية بالعين المجردة ؟ ما هي طاقته **الحقيقية** ، أيا كانت الاعراض ؟ كيف سيكون رد فعل المريض عندما يدرك أن نمطا كاملا من الحياة ينبغي أن يوضع موضع التساؤل ، وأن من المحتمل أن يكون عليه أن يضرب صفحا عن ما تصوره ؟ كيف سيكون رد فعل هذا الفنان المصاب بالعصاب (على سبيل المثال) عندما يعلم أن فنه ضرب من الهرب ويمثل ضربا من التعويض ؟ أو هذا المدير المهتاج عندما يرى أن وظائفه تكوّن عصابه ، وتتعهد بالرعاية هذا العصاب الذي يسبب له ، من جهة أخرى ، آلاما كثيرة ؟ كيف سيكون رد فعلهما ؟ ماذا سيصبح نمط حياتهما الحالي ؟ كيف سيبنيان مرة ثانية وجودهما الجديد ؟

ثمة معايير أخرى تظهر كذلك . ماذا يريد الشخص ؟ هل يرغب حصرا في أن تزول أعراضه ، أم أنــه يريد أن يمضي الى أعماق شخصيته ، اذ يخصص الزمن الضروري لهذا العمل ؟

وكما قلت لكم فيما سبق ، يذهب الناس على وجه العموم لاستشارة عالم نفس بهدف اقصاء عرض من الاعراض . ويعتقدون في بعض الاحيان أن لمسة خاتم سحري تكفي . وهذا أمر خاطىء بالتأكيد . ان **عرضا من الاعراض يشكل جزءا من سلسلة** ، طويلة جدا على الغالب ، ولكن بعض حلقاتها أكثر اثارة للانتباه من الاخرى . وها هي ذي ، من جهة أخرى ، حالة تجعل ذلك مفهوما بصورة تامة .

١ ـ حالة السيد س

السيد س رئيس مشروع . قال في الجلسة الاولى :

ـ انه لامر مضحك ! كان لي صديقة ، وكنت ذا جنسية سوية ، وها هو ذا كل شيء قد انتهى في وقت قصير . فأصبحت عاجزا . هل آمل أن يكون بوسعك تسوية ذلك بسرعة ؟

فنحن نرى الآن اذن تلك المسألة النموذج : السيد س يهتم اهتماما قويا بعَرَض يثير الانتباه (عجزه الجنسي) ، ولكنه لا يتساءل مطلقا ما اذا كان هذا العرض ناجما عن اضطرابات في الشخصية ، عميقة جدا .

وأعتقد أن من الافضل أن نعرض هذه الحالة عرضا مبسطا .

أب السيد س وأمه كانا طاغيين ، ومسيطرين ، وخصاءين(١) . ونفذ السيد س الى حياة الرشد مترعا بمشاعر الدونية ، مرتابا بنفسه ،

(١) انظر عقدة الخصاء في « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » .

محشيًا بمشاعر الاثمية ، الخ . ومن المؤكد أنه مملوء بالحصر . **ولكن ذلك كله كان لاشعوريا .**

ويستمر السيد س في حديثه :

– انني ، أخيرا ، ادير مشروعا ، وأنا ذكي ومثقف ثقافة واسعة الارجاء . وانا راض عن نفسي . وكل ما يمكنني قوله هو أني مذعور قليلا أمام النساء ، وبخاصة امام النساء الذكيات والانيقات .

– ألم يكن لك أبدا علاقات جنسية قبل سن التاسعة والعشرين ؟

– كلا ، بالتأكيد كلا . كنت اكثر احتراما للنساء الشريفات من أن يكون لي معهن أوهى علاقة جنسية .

والواقع أن السيد س مصاب بخوف من الزواج يتصف بالحصر ، زواج يجعله يواجه الجنسية . وسنرى بأي أسلوب .

وفي يوم من الايام ، يصادف السيد س امرأة :

– انها رائعة وجميلة جدا ، **ولكنها غير ذكية وعامية بعض الشيء** . ولا اعتقد اني أحبها بعمق . ومع ذلك ، اشعر على نحو غريب اني معها على ما يرام ...

– هل تعلم ما هو عملك وهل تعرف ثقافتك ؟

– كلا ، لم أقل لها شيئا من كل ذلك .

– لماذا ؟

– لا أعلم ... قلت لها اني كنت صحفيا او شيئا يشبه ذلك ...

ان السيد س لم يقل الحقيقة لعشيقته ، وذلك لاسباب واضحة جدا (ولكنها لاشعورية على وجه الخصوص) ، كما سنرى .

والخص الحالة :

لا يشعر السيد س انه على ما يرام ، في الحياة ، **الا اذا نال اعجاب الناس** . الانه مزهو بنفسه ؟ على الاطلاق . ولكنه ، بوصفه موضع اعجاب ، يفلت من مشاعر الدونية والاثم . وتتم « المحاكمة التالية » في لاشعوره :

« اذا نلت اعجاب الناس ، فانهم لا يحتقروني . اذن ، لا ينبذونني . وبالتالي يحبونني ... » .

فالسيد س اذن بحاجة الى أن يكون موضع اعجاب ، لان الاعجاب يتيح له أن يفلت من حصره . **وما دام بحاجة الى أن يكون موضع الاعجاب، فمن المؤكد أنه سيفعل كل شيء من أجل أن يكون كذلك !**

فكون السيد س موضع الاعجاب يمثّل بالنسبة اليه اذن ضربا من **الامن** . ان عليه اذن أن يستمر في أن يكون موضع الاعجاب بأي ثمن ! فهو اذن لا يقدر ابدا على « أن يترك نفسه على عفويتها » ، وبخاصة فيما يتعلق بغرائزه الجنسية التي تعني ، لاشعوريا بالنسبة اليه ، شيئا ما خسيسا ومحتقرا .

ويقول لنفسه بصورة لاشعورية :

ـ نقيصة أن « يترك الانسان نفسه على عفويتها » . انني افقد السيادة على ذاتي . فاذا لم أكن سيد نفسي ، توقفت عن ان اكون موضع الاعجاب ، وبالتالي اصبح مصابا بالحصر .

لماذا كذب ، من ناحية المهنة ، على عشيقته ؟ كذب عليها لان مهنة « الصحفي » كانت تتيح له أن « يمثل دور البوهيمي » ... وبالتالي كانت تتيح له أن يترك نفسه على عفويتها ... واذن أن لا يكون ملزما بتمثيل دور من الادوار .

ومن الناحية الجنسية ، كان كل شيء على ما يرام في ظل هذا الشرط .

وها هي ذي عشيقته ، في يوم من الايام ، **بدات تعجب به اعجابا بولع** ، وذلك في أعقاب حديث طويل معها ، حديث كانت قد برزت من خلاله ثقافته وذكاؤه الكبير . **وفجأة** ، ذلك هو العجز الجنسي الكلي .

فلماذا ؟ ان هذا العجز ليس الا عرضا من الاعراض بالتأكيد . ولكن لماذا برز هذا العجز **حين بدات هذه المراة تعجب بعشيقها ؟**

ويقول السيد س عندئذ في نفسه ، بصورة لاشعورية دائما :

ـ انها معجبة بي . فاذا تركت نفسي على عفويتها الآن ، كفّت عن الاعجاب بي ، وبالتالي ستنبذني . فعلي اذن أن أستعيد دوري . علي أن أصبح الشخصية صاحبة السيادة على ذاتها مجددا ، دون عاطفة ، ولا استسلام لغرائزها ، أي الشخصية الكاملة . وعلي اذن أن أستعيد الدور الذي كنت أمثله من قبل .

فمن المنطقي اذن ، في هذه اللحظة اياها ، أن يظهر العجز الجنسي ، اذ أن السيد س يكبت غرائزه .

ولنتذكر أن السيد س كان قد طلب الى المحلل ، في البدء ، ما اذا كان بمقدوره ترتيب هذا الامر على نحو سريع . والحال أن هـذا العجـز الجنسي ، واكرر ذلك ، ليس الا عرضا صغيرا في عداد أعراض أخرى . ولكن هذا العرض شعوري ، في حين أن مئات من الاعراض الاخرى تتصف بأنها لاشعورية . **ومتى** يزول هذا العجز اذن ؟ اعندما لم يعد السيد س بحاجة الى أن يمثل دورا من الادوار ؟ **واي دور** ؟ عندما لم يعد السيد س بحاجة الى أن يبدو كاملا في جميع المجالات : مثقفا بصورة كاملـة ، ومهذبا بصورة كاملة ، وسيد نفسه بصورة كاملة ، وجديرا بصورة كاملة ، الخ . وسيزول هذا العجز الجنسي عندما يقبل السيد س أن يكون غير كامل . فالعجز الجنسي اذن يختفي عندما يصبح السيد س مرة ثانية قادرا على أن يترك نفسه على عفويتها .

يتبيّن اذن هنا أن **الشخصية اللاشعورية برمتها** ، شخصية السيد س ، هي التي ينبغي أن تصعد الى السطح .

فهل احتفظ السيد س بخصائصه بعد التحليل ؟ نعم بالتأكيد ! ولكن هذه الخصائص أصبحت مجددا خصائص أصلية . ولم تعد تقوم ، بالنسبة اليه ، مقام الدفاع . واستطاع اذن يترك نفسه على عفويتها ، وعادت مجددا جنسية سوية .

ونرى كذلك أن السيد س **كان بحاجة الى عجزه الجنسي لان هذا العجز كان يحميه من الحصر** . ولكن ذلك حكاية أخرى سأتكلم اليكم عليها فيما بعد .

٢ ـ أإخفاق أم نجاح ؟

اننا على خط الانطلاق في هذه المرحلة . فثمة ضرب من ارادة التعاون قامت بين موجودين انسانيين : المحلل ومريضه .

ومع ذلك ، من المتعذر على الاخصائي أن يحيط ، بنظرة سريعة ، بشخصية المريض كلها في تعقيدها وعمقها . واضرب مثلا في عداد مئة مثال : **لنفرض ان طالب الاستشارة « مازوخي »** . انه يبدو اذن وكأنه رجل مسحوق ، يبحث عن الاخفاق بصورة لاشعورية ، وعن اللذة من خلال الالم ، وعن العقاب ، الخ . ويمكن الاعتقاد اذن بأنه فاقد « قوامه » . ويطرح السؤال التالي نفسه : ألن تستمر هذه الحاجة الى الاخفاق في أثناء العمل السيكولوجي كله ؟ أوليس التحليل النفسي اذن محكوم عليه بالاخفاق ؟ يضاف الى هذا أن المازوخي موجود يملك في قرارة نفسه على الغالب « عزما باردا » (١) . ويقال غالبا انه ينتظر « فرصته » . وعلى هذا النحو ، يتصف المازوخي بجرعة كبيرة من « السادية » . ولكن هذه السادية ، ألن تتوجه ضد المحلل ، من نوع : « بوسعك دائما أن تحاول اخراجي مما أنا فيه ؛ وانا لا أريد ؛ فأن أراك تفشل أمر يسعدني ، ويسعدني أن يخفق كل شيء ، وأجرك في سقوطي ... » ؟

---

(١) انظر « العصاب » في الفصل الرابع عشر .

فليس من اليسير اذن أن يتصور المحلل منذ البدء أي درب سيسلكه التحليل النفسي .

والمرء نزّاع الى الاعتقاد بأن شخصا « مصابا بالعصاب » يمتلك طاقة قاصرة . وليس ذلك صحيحا الا ظاهريا . فمن المؤكد أنه يصرف **طاقة** كبيرة **ليرعى** عصابه . ولكن علينا أن لا ننسى ـ وسأبين ذلك ـ أن العصاب **وسيلة حماية** قبل كل شيء ، شأنه شأن الصديد الذي يتصف بأنه حماية تمنحها العضوية لتبعد الانتان .

٣ ـ هل النتيجة تكافيء الجهود المبذولة ؟

اليكم ما كان يقوله أحد الاشخاص بعد ثلاثة أشهر من التحليل :

ـ الآن وقد بدأت أرى بوضوح ، أتساءل كيف استطعت أن أعيش خلال هذا العدد من السنين جاهلا كل شيء عن ذاتي... خائفا دون أن أعلم... وكيف استطعت أن أكون عاجزا، الى هذه الدرجة ، عن الحب والعطاء والتلقي ... وكيف استطعت على هذا النحو ان أعدّ سلوكي سلوكا صحيحا ؟ في حين انه لم يكن غير سلوك عصابي ، وأن شخصيتي الحقيقية كانت في الجانب الآخر ... كنت قد بنيت بناية على الرمال المتحركة.وكنت مصابا بالحصر، وأتعثّر بعصابي وضروب كفّي باستمرار . وكنت دون انقطاع مشغولا بالدفاع عن نفسي ضد كل شيء وضد لا شيء . وكان الناس أعداء بالنسبة لي ، ولكنني لم أكن أدرك ذلك ... على أنني ، مع ذلك ، كنت أتصرف بالتالي ، وكنت اجعل الناس جميعا تعساء حولي . وأنا أعلم أن ثمة أمورا كثيرة لا تزال بحاجة الى التنظيف ، ولكنني آمل بعد كل ذلك أن أحصل على نتيجة ممتازة !

وحصل هذا الشخص ، بالفعل ، على نتيجة ممتازة ...

واليكم ما كان يقوله مريض آخر :

ـ لنشر الى أن بعض الناس يجعلون من زكام ، يلزم الانسان أن يبقى في سريره ثمانية أيام ، حكاية من الحكايات ! ولكن لنشر أيضا الى أن ثمة لجماهير من الاشخاص شخصية مصابة بالزكام كلها دون أن يعلموا ذلك ، وأنني كنت من هؤلاء ، دون أن أدرك ، متشنجا حول ذاتي ... خائفا ... انه لامر خارق أن يحس المرء بالخوف يزول ...

فالصعوبة تبين الآن اذن . ولا بد للشخص من أن « يتخلى » تدريجيا. ولا بد من أن يترك « وسائل دفاعه » العصابية . ولا بد اذن ، في هذه الفترة ، من أن تكون **أناه قد** استعادت من قوتها ما يكفي لمواجهة ما كان يسبب له الخوف في الماضي . فالتحليل اذن درب رائع ، ولكنه درب عسير . . . وسنبحث الآن في مرحلته التالية .

أولا ــ القصة المرضية

مرحلة القصة المرضية بداية عمل سيكولوجي . انها الخطوات الاولى التي نخطوها في النزول الى اعماق اللاشعور . والشخصية الانسانية ، كما قلت لكم ، ذات تعقيد واسع الارجاء . فمن المؤكد اذن أن الانطلاق لا يتم فجأة ! ومن الضروري ، باديء ذي بدء ، أن ننشيء « تاريخ » المريض . والمريض هو الذي سيقصّ هذا « التاريخ » على المحلل . والاختصاصي ، بحسب الطريقة المستخدمة ، سيطرح أسئلة عديدة . . . أو انه سيصمت ، تاركا مريضه يواجه ذاته .

فمرحلة القصة المرضية هي اذن فحص المحتويات **الشعورية** . انها بداية الرحلة العظيمة .

وقد يحدث في الغالب أن تبتعد الاعراض بسرعة كبيرة . . . لكي تخلي مكانها لمشكلات أخرى . ويمكن أن يقول أحد الاشخاص على سبيل المثال : **« انني خجول بصورة مرعبة »** (وهذا ليس سوى عَرَض) ، ثم يجد نفسه ، على وجه السرعة ، يواجه مشكلات لم تكن تخطر له على بال أبدا . وأضرب على ذلك مثالا لا يستعيد بالتأكيد غير جزء صغير جدا من الحوار ، لا في الجانب العميق منه مع ذلك .

حالة صبية ذات خمسة وعشرين ربيعا :

ــ انني خجولة جدا . والحال ان مهنتي تتطلب الثقة بالنفس ، اذ انني مكلفة بالعلاقات العامة . ففي كل مرة ينبغي لي أن أتكلم ، أصاب بشلل حقيقي . انني أفكر بهذا الأمر قبل

أسابيع تفكيرا يرافقه حصر ليس بوسع أحد أن يكوّن فكرة عنه ، سوى الخجولين وحدهم . انني غارقة في ضرب من الذعر الدائم الى حد اتساءل عما اذا كنت أستطيع الاستمرار في مهنتي . وأنا مصابة بالجنون بسبب ذلك . لقد عملت كحيوان لكي أصل الى وضعي الحالي . والآن أنا ...

ـ هل كنت تتكلمين على الذعر ؟ وماذا أيضا ؟

ـ حسن ... ثمة ضروب من التوقف . آه ! لو أن الآخرين لم يكونوا ينظرون الي ! ولو أن الآخرين لم يكونوا يطلقون أحكامهم علي ! انني اشعر باستمرار انني موضع احكامهم، وأخشى زلة قدم .

ـ ما السبب في ذلك ؟

ـ ولكنني لا أعلم !

ـ كيف كان والداك ؟

ـ كنت البكر . لقد اظهر أبي ، منذ نعومة أظفاري ، اعجابا شديدا بي !

ـ واستمر يفعل ذلك ؟

ـ هذا نعم . لو كنت تعلم كم أثار تمردي أن أرى الاسرة كلها تبالغ في اطرائي !

ـ ولكن هل كان ذلك يلائمك تماما في البدء ؟

ـ (ضحك) نعم ! أنت تعتقد ! ثم انني مللت سريعا من ضرورة أن أكون دائما كحيوان نادر ! واذا لم أكن الاولى في صفي ، خلال مراهقتي ، كنت أحس ... آه ...كيف أعبّر...

ـ بأنك مذنبة ؟

ـ نعم . هو ذاك ! مذنبة ! انني ، الآن ايضا ، أتصرف دائما وكأنني كنت مذنبة . ولكن اي ذنب اقترفت ؟

ـ ...

ـ ثمة شيء كان يحول بيني وبين ان اسقط في نظر أبي . أن أكون الثانية في صفي ؟ ذلك أمر غير مطروح ، فتلك كانت الكارثة . انه كان يحرد خلال شهر لان ثمة من كان قد تفوّق عليّ !

ويستمر الحوار . ومع ذلك ، ها نحن الآن بعيدون عن « الخجل » . فلم تكن هذه الصبية، في الواقع، اكثر خجلا من **قوس النصر** (وذلك ما يظهر في الاغلب ، اذ أن الخجل ليس سوى عرض من الاعراض) . لقد كانت المسألة ، بالفعل ، مسألة ضرب من « الاستكمالية »(١) التي فرضت عليها ، ثم فرضتها على نفسها . وكان عليها أن تحتفظ في كل يوم ، وفي كل ثانية ، **بظاهر خارجي** من الكمال . واذا كان الامر على غير هذا النحو ، فتلك هي الخطيئة ، والحصر ، والاثم ...

فما الذي كان يتصف بأنه شعوري في البداية ؟ لا شيء ، اللهم الا الخجل والتهيّب والذعر وشلل الوسائل . ولكن هذه الصبية لم تكن تتخيل مطلقا أن في الاساس كان ثمة ضروب من الحصر القوي ، وأنها كانت قد أثارت ، ضد هذه الضروب من الحصر ، وسائل من الحماية .

وحصيلة ذلك كانت ما يلي :

فاذا بدت معصومة على جميع المستويات ، ولم ترتكب خطأ على الاطلاق ، ولم تغلب ، واذا بدت سيدة نفسها ، **فلا وجود للحصر** .

واذا بدت غير كاملة ، وغير أهل ، ومترددة ، وموضع نقد ، ومغلوبة ، **ظهر الحصر والاثمية والذعر ، الخ** .

حالة اخرى :

ها هو أيضا مثال يبدو فيه العرض بعيدا عن الواقع . والمقصود بهذا المثال امرأة شابة ، جميلة جدا ومتزوجة . انها ترغب في «مجرد نصيحة». وسنرى ما نتج عن ذلك ...

ـ ثمة ضروب كثيرة من الخصام بيني وبين زوجي. انه يريد اطفالا. وندخل في مناقشات عديدة ، وأنا أخشى أن يسير منزل الزوجية نحو الانهيار .

---

(١) **انظر ما ياتي فيما بعد ، وانظر : الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث .**

ـ ألا ترغبين في الاطفال ؟

ـ كلا . انني لا أحب الاطفال . واصطنع أي شيء ، ولكنه أمر اقوى مني .

ـ ماذا تأخذين على الاطفال ؟

ـ أنا ؟ أوه ... لا شيء.انه لامر غريزي ... فهم ... فهم يزعجونني (صمت طويل). ثم ، أنت ترى ... أكره أن أكون حبلى .

ـ لمـاذا ؟

ـ حقا ، لا اعلم ...

تلك هي « الدواعي » في البداية . والعرض ؟ مجرد خصام مع زوج، ويبدو أمرا عاديا . ولكن كيف يبدو في الوهلة الثانية ؟

ـ حقا ، لقد فكرت . وتكلمت على ذلك مع زوجي ... اظن أن ثمة شيئا آخر غير ما قلته ... هل تتفضل بمساعدتي ؟

ـ بالتأكيد ، كيف هي حال حياتك الزوجية ؟

ـ حسن ، لا أعلم اين انا منها ... فزوجي يجد أن بواعثي ليست ذات قيمة و ... وأنا متفقة معه . اذن ؟

ـ هل أنت مرتاحة في الحياة ، أقصد من الناحية المعنوية ؟

ـ أبدو على مايرام ، أليس كذلك ؟ ألست متميزة ؟ ألست فتية ؟

ـ (ابتسامة) .

ـ حسن ، لا زلت بنتا صغيرة تخاف .

ـ وكيف يكون رد فعلك أمام الاطفال الاكبر عمرا ؟

ـ رد فعلي ممتاز . انني اقبل ان يكون لي طفل ... « جاهز » ، عمره ست سنوات أو سبع ...

ألكيلا تضطرين الى الحمل ؟

ـ نعم . عندما أرى امرأة حبلى في الشارع ، أجتازه الى الطرف الآخر . انه لامر اقوى مني . ثمة ضرب من التقزز ... وكلمة « الحمل » تثير لدي التقيؤ .

وكل شيء يتحوّل الآن . فقد قرّرت هذه المرأة ، بوصفها تحس أن ثمة صراعا عميقا يعذبها ، أن تشرع في تحليل نفسي . وسأقدم لهذا التحليل تخطيطية ، وسأعود الى ماضي هذه المريضة . وسنرى تدخل **أم** هذه المرأة الفتية . وسنرى كذلك مناخا حياتيا **أصبح رمزيا** ، وأدى الى الوضع الراهن .

لقد بدأ اذن تحليل نفسي . وكل شيء يجري بصورة عادية في البداية (كان المقصود علاجا ذا قاعدة تحليلية) . وكانت الذكريات تخطر افواجا ... وكانت السيدة ع لا تتكلم على امها ، أبدا على وجه التقريب ، الا لتقول عنها : « **أمي ؟ امرأة سلطوية !** » . ثم انطلقت المكبوتات ، يرافقها الغيظ والنحيب ، بعد بعض « التوجيهات » التي قام بها المحلل :

ـ كانت أمي استبدادية حتى طرف أظافرها ، ولم تتركني قط انجز عملا شخصيا ، وكانت تراقب أدنى أفعالي وحركاتي ، كما لو أنني كنت عاجزة وغبية . وكانت أمي تحرد خلال خمسة عشر يوما ان تجرأت ان أذهب الى السينما بدونها (وكان عمري عشرين عاما !) ، غير مدّخرة أي ملاحظة حول ما كانت قد فعلت من اجلي ، وحول حياتها التي نذرتها لي ، وتلزمني (تحت طائلة الحرد دائما) أن أمثل دور الصغيرة العاقلة جدا ، وتفعل كل شيء لكي أظل متعلقة بثوبها كما تتعلق به شوكة ...

ـ وكان ذلك يجري يوما بعد يوم ؟

ـ أوه نعم ، يا سيدي ! كنت اجترّ في الليل ما كنت سأقول لها بغضب ، لأنها لم تكن تدرك شيئا ... ثم إنني كنت أصمت ... لو كنت تعلم ما استطعت أن أوجه اليها من لوم امام مرآتي !

واستمر العمل . ويرى المرء يرتسم بالتأكيد **كره** المرأة الفتية **المكبوت** لأمها . وفي يوم من الايام ، وصلت السيدة ع الى عيادة المحلل شاحبة ومصابة بالحصر .

ـ هل تعلم ياسيدي ؟ لقد راقبت نفسي منذ يومين ، ولاحظت حركاتي وأسلوبي في السير والمناقشة والشكوى . انني كأمي ! إنني ... انني شبيهة بأمي . انني مثل أمي ! (**المرأة الفتية تنتحب**) ، ولهذا ، فأنا أكره نفسي .

ثم انفجرت قائلة :

ـ ولكني أرفض أن أكون شبيهة بأمي ! أكره أمي التي سحقتني دائما وحالت بيني وبين أن أحتفظ بشخصيتي ! إنها صبّت دائما حصرها الخاص عليّ . انها هي التي كان ينبغي أن تكون موضع العلاج ! عندما ...

وساد صمت طويل . وبكت المرأة الشابة . وترددت طويلا :

ـ عندما ... عندما كنت ألاحظ الـ ... ألاحظ صدر أمي ... فقد كان الامر وكأنه ضرب من الرعب وأنا أقول لنفسي ان ... ان هذا الصدر كان قد ...

ـ وساد الصمت . فكلمة « أرضعني » لا تخرج من حلقها .

انني أتوقف هنا . فذلك يقودنا الى ما سيأتي فيما بعد (انظر النمط الاولي للأم ، فصل « جواز سفر الى اللانهاية ») .

وفي يوم آخر ، أرتني السيدة ع رسما رسمته وهي في الثامنة عشرة . وها هو الرسم :

شكل رقم (١)

الرسم سلسلة من الوديان الصغيرة ، المستديرة تماما ، والمشطوبة بغيظ.

وتشرح لي السيدة ع :

ـ هذه الجبال ، انها كانت حلمنا (*) . فالكلمة كانت تثير تقززي . لقد رسمت ، ثم شطبت بغضب . لم اكن أريد حلما ... أفهم الآن انها صورة مستديرة شطبتها ، مستديرة كبطن أمي . **انني أرفض أن أكون خارجة من أمي** ... وهي ، من جهة اخرى ، عندما كانت تقترب مني ، كنت أصاب برعشة من التراجع ...

ولنشر هنا الى أن الفتاة الشابة ، في سن الثامنة عشرة من عمرها ، كانت تكره كل ما كان يذكّرها ، بصورة لاشعورية تماما مع ذلك ، **بالعذوبة والاستدارة** الأموميتين. فهي ، على سبيل المثال ، كانت تحب **قمم** الجبال (رموز القضيب « المنتصب ») ، ولكنها كانت تكره المستنقعات والماء بصورة عامة (رمز **الأم والمرأة**) . ولم تأكل على الاطلاق بيضة ولا سمكة تحتوي على البيض . وكانت ترفض السكر (حلاوة تمثل العودة الى **الأم**)، ولكنها كانت « تهرع » الى البسكويت المالح ، الخ . يضاف الى هذا أنها كانت ترفض الخروج في الضباب والمطر (رمز **حضن الأم** التي يختبىء فيها المرء ، ورمز مؤنث) ، الخ .

وترى اذن الى اي حد خلّى « عرض » البدء مكانه لوضع مختلف كل الاختلاف . ومن المؤكد أن ذلك يبدو بسيطا بما فيه الكفاية لدى قراءة هذا القليل من السطور . ولكن بأي ضروب الحصر والاجترار لم تمر السيدة ع قبل أن تحتاز الشعور بما كان يدبّر في لاشعورها **وفي لاشعور أمها** (وهذا ليس سوى جزء صغير جدا ...) ؟

وقالت السيدة ع في أحد الايام :

ـ ليست أمي هي التي أكره ... بل ما تمثّله بالنسبة لي . انني مثلها . ولا بد لي من

(*) حَلَم ، مفردها حَلَمة ، وهي مكان مص الحليب من الثدي « م » .

قبولها لكي أتغير . والحال أني رفضتها دائما بغضب . ومجرد كوني أشبهها جسديا كان يضعني في ضروب من الغيظ المجنون . وكنت أتبهرج بصورة حتى تختفي ، تحت الحمرة ، هذه الغضون التي تحيط بالفم (الا ترى ؟) ، لان أمي كانت لها هذه الغضون أيضا . وكانت تغضب عندما كنت أتبهرج . وكلما كان غضبها يزداد ، كنت أتبهرج اكثر ...

ويتبيّن اذن أن المراة الفتية كانت قد توحّدت (بصورة لاشعورية) بأمها ، **وهي ترفض ، مع ذلك ، أن تكون « شبيهة بأمها »** . **وكانت ترفض دورها الأنثوي** في الوقت نفسه . فكان الامر ضربا من الصراع بين الحب والكره ، مع الحصر الذي كان ينجم عنه ...

وكانت السيدة ع اذن ترفض الحمل . وقد أفضى الامر بها الى أن تكره « الأم » (بصورة عامة) ، وأن لا تحتمل **مبدأ الأم** (كانت تعبر الشارع الى الجانب الآخر عندما كانت تتجه صوبها امراة حامل) . **« فأن تكون المراة أما »** أصبح بالنسبة اليها رمزا كان مقيتا (مثل أمها) .

وماذا حدث فيما بعد ؟ ما أن تمت بعض الضروب من احتياز الشعور حتى تحررت السيدة ع من التواءاتها الداخلية . وما الوضع بالنسبة اليها حاليا ؟ للسيدة ع طفلان ، وهي أم رائعة .

١ ــ هل القصة المرضية واحدة بالنسبة للجميع ؟

كلا بالتأكيد . فذلك يعني ان نقول ان ألف شخص مختلفين يبدؤون تحليلا نفسيا في الاعماق على النحو نفسه . والف شخص يعني الف حياة مختلفة والفين من الآباء المختلفين ... حين لا يبحر في طفولة المريض اخوة وأخوات ! فكل شخص يمثّل بالنسبة الى عالم النفس مشكلا **لم يسبق له أن رآه** . وظروف هذا الشخص **لم يسبق له ان سمع بها** . وذلك يتيح للمحلل أن يكون ، في كل يوم ، اكثر تواضعا بعض الشيء وحذرا أمام الحالات التي تعرض له . ويرى المرء اذن ــ واكرر ذلك ــ أن على المحلل أن يتصف بضرب من الجاهزية لدى كل اختبار ، وان كل موجود انساني

محصلة الظروف الشخصية ، والوراثية ، والتربوية ، والاجتماعية ، والثقافية ، وانه يتصف بتاريخية لا تشبه أي تاريخية أخرى ولو أن الاعماق الانسانية الكبرى تتشابه كما يتشابه الأخوان التوأمان . وسأتكلم اليكم على ذلك فيما بعد . وعلى اي الاحوال ، ثمة **الأنا** الخاصة بكل شخص ، ووالدا كل شخص ، ولاشعور كل شخص ، وعصاب كل شخص ، والاسلوب الذي يستجيب به كل شخص للظروف ، الخ . وذلك يبدو ، في البدء ، بمثابة اشارة استفهام كبيرة .

ان اي عالم يتخثّر في **ضرب** من الطريقة ، يحبس نفسه في شَرَك . وستكون أورثوذكسيته الثابتة بويب ينغلق على عمله . وذلك يعادل تجميد مريضه في اطار من الافكار المتصورة على نحو مسبق . فعصاب أحد المرضى ليس عصاب المريض الآخر . ومع ذلك ، فان كل عصاب صائر الى حماية السيد فلان ، أو السيدة فلانة ، من شيء من الاشياء . ولكن من اي شيء ؟ وما هو هذا العصاب ؟ وهل يطابق الاعراض التي يصفها الشخص المعالج ؟ ولاي شيء تم استخدامه في الماضي ؟ وما السبب في اثارته ؟ ولماذا استمر ؟ ولماذا لا يزال موجودا في الوقت الراهن ، فيما أن الظروف التي اثارته ربما زالت ؟ فكل شخص يتصف ، في أعماقه ، بأنه غابة من اشارات الاستفهام . وذلك قائم سواء كان هذا الشخص مصابا بالعصاب أم غير مصاب . وكل فرد يبدي أعماقا نفسية لا تخضع للقياس . وعلى العكس ، يبدي بعض الاشخاص ، في السطح ، أعراضا تظهر متعددة ، في حين أن جذر العصاب غير متعدد على الاطلاق .

والمحلَّل والمحلِّل ، في بداية عمل سيكولوجي عميق،هما اذن شبيهان بقاصرين جزيئين . والبئر الذي ينبغي النزول فيه ضيق ومظلم . ومع ذلك ، ينطلق المرء بأسرع ما يمكن . ففي متاهة تبدو ، للوهلة الاولى ، أنها معقدة بصورة مخيفة ، لا بد من النزول درجة درجة ، بحثا عن الموضوعات الكبرى ، موضوعات حياة .

٢ ـ ردود فعل المحلّل

يبدو المحلل ، من الناحية الخارجية ، **سلبيا** . فهو لا يتكلم ، أو لا يتكلم الا قليلا جدا . انه يطرح بعض الاسئلة الذكية لـ « يسد » بعض الثقوب فيما يقوله المحلل ، ويطلق بعض ضربات المسبر ، ويحاول تحقيق ضرب من الاستمرار فيما يقوله مريضه . وعلى أي حال ، يبقى المحلل **حياديا** ، ولا أقول : لامباليا . والمحلل يبقى دائما ، من الناحية الداخلية ، **فاعلا بصورة قوية** . فلا شيء يمكن أن يفلت منـــه : لا تعبيرا في صوت المريض ، ولا صمتا ، ولا زلة لسان ، ولا ترددا ، ولا حصرا . واذا كان ملزما بأن يظل منتبها ، فان شخصيته وآراءه لا يمكن ، على نحو من الانحاء ، أن تتدخــل . وليس بوسعه ، في أي حــال ، أن يشعر بأنه « متأثر » براي يقدمه مريضه . ومن الواضح أن المحلل لا يمكنه ، اذا كان يتعامل مع مريض كاثوليكي وهو غير كاثوليكي ، أن يستجيب بريبية أو بتهكم الى ما يقوله مريضه ، **ولو بصورة لاشعورية** . وذلك من نافلة القول ، ولكنه شرط رئيس ، ولا يمكنه أن يستجيب وفق آرائه ، ولا أن يضع شخصيته الخاصة في الميزان .

وردود فعل المحلل تتغيّر تبعا للطريقة التي يختارها . **فهو** يجيب عن بعض الأسئلة ، ولكنه يحتفظ بالصمت أمام بعض **الأسئلة الأخرى** ، ويبتسم أو لا يبتسم ، ويشير بحركة من الحركات أو لا يشير . ويختلف كل ذلك بحسب المحلل ، والطريقة المختارة ، والظرف الراهن . وعلى أي الاحوال ،كما سترون فيما بعد ،لن يكون ثمة أبدا شروح عميقة في البداية، لهذا السبب البسيط المتمثل في أن الجزء الأكبر لا يزال لاشعوريا ، وأن الشخص غير مهيأ ، على الاطلاق ، لفهم هذه الشروح ولا لقبولها وهضمها.

ثانيا ــ غبطة البدء

بدايات عمل سيكولوجي في الأعماق يولّد ، على الغالب ، ضربا من الغبطة من نموذج خاص تماما . وهذا أمر طبيعي كما سنرى فيما بعد .

وقد يحدث من جهة أخرى أن بعض الجلسات تكفي ، في حالة العصاب الحديث العهد ، لازالة الاضطرابات . وهو أمر يمكن فهمه : فلم يتهيأ الزمن للعصاب لكي ينمو ، ولا لضروب الكبت أن تغوص . ان كل شيء منوط اذن بالدروع المتتالية التي يلبسها الشخص ، **والتي تجعل شخصيته الظاهرة محسوبة على انها شخصيته الحقيقية .**

وعلى أي حال ، ستظهر ، في البداية ، عناصر ثلاثة ، موجودة في كل عصاب أيا كان : **الاثمية والحصر والعدوانية** . وسنرى عدة حالات .

ومن المؤكد أن ضروب « احتياز الشعور » لاتزال بعيدة[1] . هذه الضروب من احتياز الشعور التي ستتيح ، في نهاية المطاف ، أن تتحرّر الشخصية الحقيقية ، الاصيلة ، المخبأة في الاعماق . ويعيش الشخص حاليا **وفق شخصية ليست شخصيته على الاطلاق** . لقد تكوّنت هذه الشخصية بفعل مجموعة من الدفاعات والاقنعة التي حمته من الخوف والحصر والشعور بالدونية ، الخ . **ويبدأ الشخص اذن تحليلا نفسيا ، ترافقه دروعه ودفاعاته** . فما الباب الأول الذي ينفتح ؟ انه بكل بساطة باب **بعض الأسرار الشعورية** ، ولكنها أسرار تخنق المريض تماما : أسرار احتفظ بها لنفسه ، ولم يجرؤ على الاعتراف أمام الغير (أعني المحلل) ، وأمام **ذاته** ، بالنحو الذي يرى ذاته به . **وليس ملزما بأن يمثل دورا** . . . للمرة الاولى في حياته على وجه الاحتمال .

لنعد الى الشخصية « المزيفة » . انها شخصية « ظاهرة » تحمي من الخوف . فاذا احتمى شخص من الاشخاص ، فذلك يعني انه يشعر بالتهديد . والحال أنه ليس ثمة أي داع ليكفّ التهديد . . . اذ أن الشخص يعيش كل يوم بين الآخرين . فلا بد اذن لآليات الحماية من أن تتعزّز كل يوم وترعى وتتجدد . وفي كل يوم تنضاف الى الدرع صفيحة ، والى الحصن حجر . واذ يفعل هؤلاء الاشخاص ذلك ، فانهم يحاولون ازالة

---

(1) انظر الفصل التاسع : « احتياز الشعور » .

الصديد (النفسي) ... دون أن يعلموا ان ثمة شوكة قوية تبقى مغروسة في قعر لاشعورهم ...

١ ـ للمرة الاولى ...

كان حديثنا اذن عن الغبطة في بدايات التحليل . وها هو ، على سبيل المثال ، ما يقوله أحد المرضى :

ـ انها المرة الاولى التي أجرؤ فيها على أن أبوح باضطراباتي ، لانني أعلم أن كل شيء يفهمه الذين يعملون في علم النفس ، وأنهم لا يطلقون أحكاما على أي شيء . انني أشعر ان عيادتك جزيرة لا يمكن لاي شيء أن يبلغني فيها ...

أيقال انه طفل يبحث عن السلام والامن ؟ والواقع اننا ازاء رجل يمتلك طاقة هائلة وذكاء نادرا ، وقد أتى يبحث عن المحلل من أجل بعض الانحرافات الجنسية . ولكن لدى هذا الرجل ، بوصفه مصابا بعصاب، جزءا من الشخصية بقي طفاليا ، وبالتالي متوقفا : وهذا الجزء الطفالي **سيثبت** على المحلل الذي سيصبح **« أبا »** ه التحليلي ، بكل الرمز العميق الذي يرتبط به . وعبارته « **عيادتك جزيرة اشعر بالراحة فيها ، ولا يمكن لأي شيء أن يبلغني فيها** ... » تذكر بحرارة **حضن الأم** . ولكن ذلك حكاية أخرى سأتكلم عليها فيما بعد .

ويبدأ اذن هذا الرجل ، الذي عاش متشنجا خلال سنين ، يسبح في الغبطة . فلماذا ؟ انه ، باديء ذي بدء ، **يعلم ويحس** بأن المحلل يقبله ويحبه **كما هو ودون ظل من حكم اخلاقي .**

ويقول هذا الرجل ايضا :

ـ أحس للمرة الاولى أنني لست مسخا من الانحراف ، ولكنني انحرفت عن طريقي عقب ظروف لم أدركها . فبوسعي اذن أن أقول لك دون خجل كل ما أحس به . انه لامر رائع هذا !

وثمة عندئذ محاكمة تستقر بهدوء لدى الشخص : « يقبلني المحلل ويحبني . اذن ، ربما بوسعي ، في الحقيقة ، أن اقبل نفسي ، أنا أيضا ؛ وأن أحب نفسي كما أنا حاليا ، بانتظار أن أستعيد شخصيتي الحقيقية. فاذا كان المحلل يقبلني ويحترمني ، فذلك لانني لست مسؤولا عما أتصف به . و « عيبي » الوحيد أن لي لاشعورا ... ولكن هل أنا حقا ما أعتقد أنني متصف به ؟ وعلى أي الأحوال ، عليّ أن أحاول الرؤية بوضوح وأن أزيل ما يوقف حريتي الداخلية ... »

وهذا الرجل مصيب في محاكمته . واذا كان يخضع نفسه للتحليل ، فليس ذلك لكي يهدم شخصيته ، وانما لكي يدمّر الدروع الطفالية التي تحجب **أناه** الحقيقية ، ولو أن لهذه الدروع الطفالية ، على الغالب ، **مظاهر** القوة ! وهي دروع يحسبها الناس على الغالب أنها الشخصية الحقيقية . والحال أن الرجل المصاب بالعصاب ملزم ، على الغالب ، بأن يبدو في الحياة الجارية كما يريد الآخرون أن يكون . وها هو المثال على ذلـك :

ـ عشرون عاما انقضت وأنا أمثل دورا واحمل قناعا . وكنت مرغما على ذلك ، والا رآني الآخرون كما أنا عليه . وعندئذ سيحتقرونني . انني رجل ضعيف . ولكنني لا استطيع أن أبدو للآخرين أنني رجل ضعيف . وعلي اذن أن أظهر قويا . فلو عرف الآخرون ما أتصف به واقعيا لاحتقروني ولاهملوني . انه لامر منهك أن يمثل الانسان هذا الدور في كل لحظة . واليوم الوحيد الذي أستطيع فيه أن أكون ما أنا ، بعض الشيء ، هو يوم الاحد ، عندما أستريح في الريف . وانه لامر يثير الحصر، في هذه الفترة اياها أيضا، ان يقول المرء لنفسه: « انني رجل ضعيف ، ولكن علي غدا أن أستأنف استعادة دوري وقناعي ... » .

٢ ـ هل تستمر الغبطة ؟

كلا بالتأكيد. فبداية التحليل(١) يقوم على استعراض «المادة الشعورية»: الاعراض والطفولة والمراهقة والوالدين ، الخ . فالمريض يرتاد السطح ، ولكنه لا يمس لا شعوره بعد . والتأثيرات المتبادلة بين الشعور واللاشعور كثيرة ، ولكن المريض لا يحس بها . ولا يمكن أبدا ، من جهة أخرى ، فصل الشعور عن اللاشعور ، فالاول يسبح في الثاني **باستمرار** ، كما تسبح الاسفنجة في الماء .

ولكن المادة الشعورية تنفد تدريجيا . انها اللحظة التي يصرّح فيها المحلل : « **لم يعد لدي شيء أقوله** » أو يصرح : « **لم أعد أتذكر شيئا** » . وهي اللحظة التي نبدأ فيها النزول في بئر اللاشعور ، بئر يتصف بأنه ضيق ومسدود ، في البداية ، ثم يأخذ في الاتساع . وهنا اذن انما تبدأ الصعوبات ، والمقاومات ، وضروب التوقف ، والتحويل . وهو أمر يمكن فهمه مع ذلك . ولنعد الى الحالة التي مر ذكرها . **فلدى السيد س** مجموعة من أصناف الحصر اللاشعورية ، العميقة **أكثر فأكثر . وثمة** ، من بينها ، حصر كونه معروفا بأنه ضعيف . **فقد بذل اذن كل مجهود** ، خلال سنين طويلة ، لكي **يبدو** قويا ، في نظره الخاص وفي نظر الآخرين . ويمكن أن يبدو رجلا « قويا » في الخارج ، ولكنه يمثّل أمام زوجته دور

---

(١) هل يمكن ان نقارن بين بدايات التحليل والاعتراف الكاثوليكي ؟ ثمة ضرب من التحرر ، في الجهتين ، بسببه الاعتراف بالاسرار الخانقة (ينطوي الاعتراف الديني على مظهر انساني يتصف بأنه لايمكن اهماله) . وثمة ، من جهة اخرى ، ضرب من التعارض الظاهر : ان الاعتراف الديني يولد الصفح عن الخطيئات ، في حين ان **التحليل ينزع الى** الغاء مشاعر الاثم . ولكن من الضروري ان يدرك المرء تماما اختلاف المعنى لكلمتي « خطيئة » و « اثم » على المستويين السيكولوجي والديني (انظر المقدمة) .

وليس في علم النفس اخلاق بالمعنى الذي يفهمه الناس بصورة عامة . **فالاخلاق في علم** النفس هي **الانا العليا** . ولا **تظهر اخلاق فردية حقيقية** على المستوى السيكولوجي الا بعد **تحليل نفسي كامل . انها اخلاق طبيعية لا تبنى على ممنوعات ، وانما تبنى على قواعد** حياتية يختارها المرء وهو يعرف الوقائع ويختارها بكل حرية داخلية .

« الصبي الصغير الحنون » على سبيل المثال . ومن الواضح أن مجرد ادراكه ذلك ، اذا كان لاشعوريا ، يثير لديه انفعالا شديد الازعاج وحصرا جديدا . فهو اذن **يبذل اقصى جهده ليتجنبه** ... ولكيلا يدركه . **وكل فرد ، من جهة أخرى ، يفعل الشيء نفسه** . ولكن ذلك لا يمنع هذا الحصر من أن يوقف الطاقة التي تتحرر بمجرد أن السيد س « **يحتاز الشعور** » بما يحدث .

ثالثا ــ مقاومة المريض

أمام من يقاوم المريض ؟ انه يقاوم نفسه . وها هو جزء من جلسة المريض الذي كان موضوع بحثنا في الفقرة السابقة :

ــ باسم الكلب ، اضطراباتي ، هذا حسن جدا ، ولكن ماذا بعد ... ؟ قلت لي ان التحليل النفسي قاس . ولقد بدأت أدرك ذلك . ان **الانا** كلها موضوعة موضع التساؤل ، أو بالحري **أناواتي** المزيفة ! فثمة كومات من الأشياء تصعد ... وكنت اعتقدها مصنفة في قعر درج قديم ... من الانسب أن يحاول المرء نسيانها ... وأن يحاول نسيان نفسه ... وأن لا يرى ما هو عليه واقعيا ... نعم ... ان ذلك لافضل ... الامر يبدو كما لو أن كل شيء كان قد بدأ يتحرك في الداخل ... جلبة حقيقية ... ولو أرخيت كلاّبا واحدا ، لاحسست أن جميع الكلاّبات الاخرى سترتخي وتتهاوى عقب ذلك ... فهل أنا ما أنا عليه ؟ ... ألن يذهب هذا التحليل أدراج الرياح ؟ ولكنني أتألم ، أنا ، وأريد التخلص من هذا الالم ! ويبدو لي أنني اذا توصلت الى أن أدرك بوضوح كل هذه الاشياء التي استشعرها بصورة مبهمة ، فذلك أمر مسلم به . ولكن ، يا إلهي ، كم هو صعب أن يمضي المرء نحو حقيقة نفسه ! فكلما انفتح باب سجني ، تمسكت بالقضبان ...**هل هذا خوف من الحياة ؟ هل هو خوف من أن أكون راشدا ومسؤولا ؟ ...**

فالمريض يقاوم اذن . ولكن من هو الذي يقاوم أولا ؟ وما هي المقاومة؟ **المقاومة** هي ضرب من الكبت . **ان ما يقاوم على وجه الخصوص هو الاجزاء العصابية من الشخصية** . وما ينبغي له أن « يخرج » ويصبح شعوريا مكبوت في اللاشعور ... **ما دام المريض لم يصبح من القوة بحيث يتحمل بعض « ضروب البوح » حول ذاته** . فما السبب ؟

لقد انحبس احد الناس ، خلال سنين ، في حصن ، ووجّه مدافعه نحو السهل الذي كان الأعداء ينتشرون فيه . ولكن ها هو المحلل يقترب قاصدا تهديم الحصن الذي اصبح غير ذي جدوى ... لانه لم يعد ثمة وجود للاعداء الا في ذهن المريض . فماذا تفعلون لو كنتم مكان المريض سوى البحث عن تدعيم الآجرة التي يريد المحلل أن يرفعها ، وارتاج الباب الذي يريد فتحه ؟ وفي هذه الحال ، تبدو **العدوانية والحصر** بصورة دائمة على وجه التقريب ، الامر الذي يتصف بأنه منطقي تماما . فتذكروا ما كان يقوله المريض الذي مر ذكره آنفا : « كلما انفتح باب سجني تمسكت بالقضبان » .

وكان مريض آخر يقول :

ـ ذلك امر يسير على نحو افضل بكثير . ولكن المضحك ان اشعر في بعض الاحيان بأنني ابرز في الوجود واتجاوز بابا كبيرا...ثم أشعر بالانطلاق بأقصى سرعتي نحو الخلف والانطواء على ذاتي في ضروب هروبي ، وفي عملي العنيف ، الذي يقوم مقام الملجأ بالنسبة لي ، وفي اقنعتي ...

١ ـ صنفان من المقاومة

ثمة المقاومات التي تنشأ من الشخصية الحقيقية والاصيلة . **وهي ليست في هذه الحال مقاومات حقيقية** ، ومن المؤكد أن المحلل لا يمسها ابدا . **ومثال ذلك** : من الواضح أن التأسلية(*) البوذية لشخص بوذي ، يحلله نفسيا محلل كاثوليكي ، تقاوم كل « تعد » كاثوليكي يحاوله محلل نفسي رديء . وهذا البوذي مصيب في موقفه ... باستثناء ما اذا كان دينه عرض عصابي في عداد الاعراض الاخرى .

(*) التاسلية : مصطلح في علوم الحياة يعني عودة بعض الخصائص المتحدرة من الأجداد القدماء الى الظهور مرة ثانية ، مع أنها لم تظهر في الاجيال الوسطى . ولكن المصطلح ماخوذ بمعنى « وراثة الافكار والتصرفات المتحدرة من الاجيال الماضية » « م » .

وافضل معيار هو المعيار التالي : اذا كنا ازاء عرض عصابي ، فنحن ازاء أمن مزيف . اذن ، **فالحصر والعدوانية يبدوان اذا مسسناه** . ولكن الامر مختلف اذا كنا ازاء نمط أصيل من أنماط الحياة ، الا اذا كان هذا « النمط الحياتي » من التخثر والتصلب بحيث يقاوم القنابل الاكثر قوة. **فنحن نقع اذن في السؤال التالي ذي الصعوبة الكبيرة : هل هذا العمل يشكل جزءا من عصاب أم لا ؟**

كنت قد قلت لكم ان « المقاومة » تعني « الكبت » ، ومنع اللاشعور من أن يظهر على السطح تجنبا للالم ، اذ أن الكبت مرتبط بانفعالات مؤلمة . ولنفرض الآن (وسأتكلم اليكم على ذلك فيما بعد) أن المحلل يغالي في سرعة بيان ما هو مرضي في لاشعور مريضه . فمن المؤكد أن رد فعل المريض سيكون **المقاومة** . وهو أمر سوي ، **ما دام المحلل يهاجم أمنا يتصف بأنه كان أساسيا بالنسبة اليه ولا يزال كذلك حتى الوقت الحالي ، على الرغم من أنه مزيف ، ولا يزال بحاجة اليه لكي يحمي نفسه .**

وبناء عليه ، فان أفضل وسيلة لاظهار الحصر والمقاومة اللذين يوقفان كل علاج هي أن يمضي المحلل في تحليله بسرعة كبيرة ، وان يرغب في افهام مريضه على وجه السرعة مايحدث ، ولو ان كل شيء واضح بالنسبة له.

اليكم ما كان يقوله لي أحد الرجال بعدوانية هائلة :

ـ انه لسهل دورك ! انك لا تقول شيئا ، وأنت تصغي . فهل يمكن اذن لاي كان أن يكون محللا نفسيا ؟

بيد أنه قال بعد شهرين :

ـ أدرك للمرة الاولى كم كان صمتك يسبب الاحباط لي . وكنت اقول لنفسي دون أن أجرؤ على الاعتراف لك : « من يحسب نفسه ؟ » وافهم أيضا أن المحلل لا يمكنه في البداية أن يقول شيئا ، وعليه أن يكون منتبها أقصى ما يكون الانتباه . وأدرك كم كان لصمتك وكلامك وحركاتك وقبضة يدك تأثير عليّ . فقد كنت أجترّها خلال أيام بصورة مبهمة . وكنت أقول لنفسي : « ماذا يظن بي ؟ هل أحسنت جوابا ؟ » .

وأشير هنا الى أن هذا الرجل ما كان عليه أن « يجيب » ، بما أن

اي سؤال لم يكن قد طرح عليه . ولكن هذا الانطباع بـ « الامتحان » شائع في بداية التحليل .

واستمر الرجل في حديثه يقول :

ـ لو كنت قد قلت لي في البداية ما جعلتني اكتشفه الآن بلمسات صغيرة جدا لنفقت من الضحك ، أو لفعلت ما لا يعلمه الا الله ...

رابعا ـ بعض أمثلة المقاومة

١ ـ مريض مهذب بإفراط

تظهر هذه الحالة غالبا في بداية التحليل . فيبدو المريض متصفا بتهذيب « لا مطعن فيه » ، وبكياسة لا يتخللها أدنى عيب ، ويمضي الى حد الخضوع الكلي .

يقال شعبيا : « **اكثر تهذيبا من ان يكون شريفا** » . ويمكن القول في التحليل النفسي : « **يخفي هذا التهذيب المغالي عدوانية كبيرة وحصرا قويا** » . ويجعل المريض من نفسه اذن ، بهذا التهذيب ، غير ذي مطعن . والحال أنه يباشر تحليلا نفسيا لكي يكون موضع هجوم ، أعني لكي يزيل شخصيته المزيفة . ومن المؤكد أن التهذيب الكبير « ينظر اليه الناس نظرة اعتبار » في الحياة العامة . ويتصرف المريض تصرفا مماثلا في التحليل النفسي : فهو يختبىء وراء التهذيب حتى ينظر اليه المحلل « نظرة اعتبار » (أي حتى لا يكون موضع انتقاد ويكون محبوبا) ، وحتى لا يمكّن من نفسه .

فالتهذيب في هذه الحال دفاع اذن . والمريض يكبت العدوانية في كل مرة تنزع الى الظهور ، ويعزّز تهذيبه . اننا اذن أمام سلوك يحتمل ان يصبح حلقة مفرغة اذا لم تتحطم بسرعة .

ها هو مستخلص من جلسة يبيّن ان شابا « يختبىء » في ظل كياسته ، كما يختبىء آخرون في ظل المرح والمزاح ، الخ .

ـ مساء الخير يا سيدي . كيف حالك ؟ (ويشد على اليد مسلّما بكثير جدا من الود ، ويغالي في الالحاح والابتسام ، ويتصف بانه لطيف بافراط) . (انه يتقدم ثلاث خطوات الى الامام ثم يقفل راجعا) . هل أمضيت نهارا طيبا ؟ هل أنت على ما يرام ؟

ـ نعم ، أشكرك .

ـ آسف حقا على ان تستقبلني في وقت متاخر الى هـذا الحد ، ولكني (سيل مـن التفسيرات أو « التبريرات » بالحري) . وآمل أن لا أتعبك كثيرا .

ـ ابتسامة وهزة رأس بالنفي .

ـ (مغالاة كبيرة في الود كما لو انه قد كان قد ارتاح راحة «لا حد لها») : آه ، نعما حدث لانني ، وأنت ترى ، أستفظع أن أسبب أدنى انزعاج للناس (يبتسم) ... وبخاصة لك !

ماذا نرى هنا ؟ هذا الرجل ، أولا ، **يشعر بالاثم** . انه يعاني الحاجة الى **تبرير** حضوره ، وتبرير « النعمة التي حظي بها باستقباله في وقت متأخر الى هذا الحد . فماذا حدث في أثناء جلساته ؟ انه لا يجرؤ على معارضة المحلل ابدا . ولا يبدي رأيا شخصيا على الاطلاق . **ويهرب في التهذيب والخضوع** . فثمة هنا اذن مقاومة ذات أهمية ، اذ أنه يعارض دائما بالواجهة التالية : قبول ما يقول المحلل بصورة مباشرة ، والموافقة على كل شيء ...

انه يقول : « أستفظع أن أزعج الناس » .

وهو ، بصورة لاشعورية ، يفكر على النحو التالي :

ـ اخشى ان اشعر بأنني أسبب الازعاج للآخرين . وأنا موقن مع ذلك دائما أنني أسبب الازعاج ، وأن « وجودي غير مناسب » ، وأنني لست في مكاني . وآمل ، وأنا أقول « انني أستفظع أن أزعج الاخرين » ، أن ينظر الناس الي ، بسبب كياستي ، على أنني شخص « ممتاز » . ان ذلك لهو ، من جهة أخرى ، امني الرئيس . وعلي أن أفعل كل شيء لاحتفظ

به . فعلي اذن أن أعزز تهذيبي باستمرار . ومن « المحتمل » أن يكرهني الناس وينظرون اليّ نظرة سوء اذا كنت عدوانيا أو عفويا ، **الأمر الذي** يجلب لي الحصر . والحال أنني ارغب في تجنّب الحصر : عليّ **اذن أن أبقى** مهذبا وغير عدواني ...

يضاف الى هذا ان المريض يسجل ملاحظات عديدة باهتمام يتصف كثيرا **بالمغالاة** .

يقــول :

ــ انظر . لقد سجلت أمس كثيرا من الملاحظات من اجل جلسة اليوم . فهل آمل ، بهذا النحو ، أن أوفر عليك بعض الزمن ؟

انه يفكر بصورة لاشعورية على النحو التالي :

ــ اذا ظهرت أنني أعمل جيدا ، أملت في أن يحبني المحلل ويعجب بي . فأشعر على هذا النحو بأنني أقل اثما . يضاف الى هذا أن هذه الملاحظات تتيح لي أن أبدو مرموقا وأن تجعلني موضع « اعجاب » محللي ، ولاسيما ان الصمت يثير حصري بشدة في أثناء الجلسة . وهذه الملاحظات تتيح لي ان اتخلص منه .

وهنا سأل المحلل مع ذلك :

ــ لماذا تسجل ملاحظات قبل الجلسة ؟

ــ آه ... ولكن كما تريد يا سيدي ! كنت اظن انني اساعدك . ولكن اذا كنت ترغب في أن لا اسجل ملاحظات ، اكفّ عن ذلك !

انها اللعبة ذاتها أيضا . يضاف الى ذلك أن المريض يشعر أن المحلل « يكشف القناع » عن الدفاع اذ يطرح السؤال . **فعلى الرجل الشاب اذن أن يبدو عدوانيا . والحال أنه يعزز تهذيبه وخضوعه** . ونقع مرة ثانية اذن فيما كنا قد قلناه آنفا .

وكان موضوع حديثنا شابا رباه والدان سلطويان أجبراه على اخفاء شخصيته تحت واجهة من الطاعة .

٢ ـ من زلة اللسان الى الفعل الخائب

ويفهم المرء فهما جيدا جدا أن بوسع مريض من المرضى أن يقاوم بأساليب مختلفة جدا . وتحدث المقاومات غالبا عندما نقترب من مشكل أساسي يضع جزءا كبيرا من الشخصية موضع التساؤل ، أو عندما المريض يعاني الاحساس بأن محلله سيرفع القناع عنه . وعندئذ انما تتجلى مجموعة كاملة من الاعمال تدل دلالة تامة على مقاومة الشخص اللاشعورية .

وتشكّل زلات اللسان أو الافعال الخائبة جزءا من **الحياة اليومية** ومن **علاج التحليل النفسي** كذلك . وقد اكتسب فرويد ، من جهة أخرى ، جزءا كبيرا من شهرته الشعبية ببيانه ان ثمة جسورا بين الحياة النفسية السوية والمرضية . وبيّن أن كثيرا من السلوكات المرضية ليست سوى المبالغة في السلوكات السوية .

وبين عامة الناس ، ينصبّ الكلام كثيرا على **الافعال الخائبة** وعلى زلات اللسان . وهو أمر صحيح كل الصحة اذا كان كثير من الاشخاص يعتقدون بأن التحليل النفسي كله لا يتلخص بذلك . وعلى أي حال بيّن **فرويد** في كتابه ، **علم الامراض النفسي للحياة اليومية** ، الى أي حد يمكن أن يكون نسيان موعد أو اسم أو مشروع ، وكذلك فقدان بعض الاشياء أو اتلافها ، نتاج سيرورات لاشعورية ليس لدى الفرد عنها أي فكرة ، باستثناء ما اذا صحح مباشرة ما قاله أو فعله . ولكن التصحيح لا يمنع أن يكون « ذلك » قد قيل أو تم فعله .

وغير مجد ، في اعتقادي ، أن نتوسع هنا حول هذه المشكلة ، واعتقد ان بعض الامثلة تجعل ذلك مفهوما على نحو جيد .

فقد يحدث على الاغلب ، عندما تتجلى بعض المقاومات خلال التحليل النفسي :

– ان يصل المريض متاخرا الى موقف سيارة النقل العام ، أن يتجاوز الموقف ، ان يخطىء في زر الجرس ، أن يرتكب خطأ في الموعد ، خطأ في الساعة او اليوم ، ان يشعر بأنه « ليس على مايرام » في اللحظة الاخيرة ، ان ينسى تنظيم مواعيد الدفع بفعل عدوانيته ضد المحلل : ومضمون ذلك : « لا أريد أن أدفع » ، الخ .

وكل ذلك ، من جهة اخرى ، شائع جدا في أثناء التحليل .

ولنضرب مثالا آخر : مثال مراهق يراقبه باستمرار ويضايقه والد مدقق او والدة ، ويفلت منه فيقع على الارض شيء ثمين خاص بهذا الوالد أو الوالدة . فقد يبدو ، للوهلة الاولى ، أن المراهق يفلت منه الشيء فيقع بفعل السهو او الشرود . ولكن هذا الحطام ، حطام الشيء ، يعبّر ، للوهلة الثانية ، عن عداوة لاشعورية عنيفة ضد الوالد أو الوالدة . هذا اذا لم نكن ازاء ضرب من جريمة قتل أحد الابوين ، وهي جريمة رمزية . وستجدون حالات من هذا النوع فيما بعد . والشيء ، هنا ، يرمز الى ذلك الوالد الذي يتمنى المراهق أن يقتله تمنيا لاشعوريا . فثمة اذن آلية من **الابدال** . وهناك آليات ابدال أخرى شائعة جدا : شخص غاضب يضرب الطاولة بقبضته ، في حين انه يرغب بصورة لاشعورية أن يضرب خصمه . ويقبّل الرسالة احد العاشقين لان فم خطيبته بعيد المنال عليه . ويمكن للمرء أن يجد امثلة لا تحصى في الحياة اليومية .

فزلة اللسان والفعل الخائب يعبّران اذن عن حالات لاشعورية . ويمكن لهما ، في بعض الحالات ، أن يقدّما اشارات ثمينة للمحلل ، وبالتالي لمريضه . وها هي الان بعض الامثلة :

يقول للمحلل رجل مخنث الى حد كبير جدا ، لواطيّ بالكمون :

– هل ترغب في ان ارسل اليك **عاداتي الشهرية** ؟ (بدلا من **احلامي**) .
يقول مريض آخر متعلق بأمه تعلقا كبيرا :

ـ هذا اليوم اياه ، كنت حزينا . وقد رغبت في ان اعود في امي (بدلا من : **الى** امي) .

وقال رجل آخر مخنث جدا كذلك :

ـ انني **صالون صغير*** الى حد ما . . . (بدلا من : **حَرِد**) .

وقال احد الرجال :

ـ اخاف دائما من ان **ابدو جنسيا** (بدلا من : **امارس الفعل الجنسي**) .
وذلك كان يدل دلالة تامة على الحالة اللاشعورية ، لان هذا الرجل كان مصابا بالاستكمالية ، وكان عاجزا عن ان يترك العنان لغرائزه العميقة ، وخائفا على الدوام من ان « يفقد ماء الوجه » . فكانت عبارته (ابدو جنسيا) تعني اذن بالنسبة اليه : فقدان ماء الوجه وفقدان سيادة مزيفة على الذات ، واطلاق شريكته حكما عليه بأنه « غير كامل » .

وقال مريض آخر :

ـ سبب تبكيت ضميري ، وانا الان اكسب المال ، انني لم **احب** امي . ومع ذلك ، كنت اعبدها . . . (**احب** بدلا من **اساعد**) .

مثال آخر :

ـ ما هي مهنتك ؟ سال المحلل رجلا مخنثا جدا .

ـ عاملة تزيين . . . آه . . . عامل تزيين .

ولنضرب مثالا آخر لننهي حديثنا عن هذا الموضوع ، والمثال عن امرأة رفضت بصورة عامة وضعها النسوي . وقد كتبت الى المحلل :

ـ الرجال ، **اكرههم** جميعا موضوعين في كيس واحد . . . (بدلا من : **وضعتهم جميعا** في كيس واحد) .

(*) Boudoir : صالون صغير مزين باناقة كانت تستقبل فيه سيدة البيت اصدقاءها وصديقاتها . Boudeur : حرد « م » .

واعتقد أن هذه الامثلة التي ضربتها تبين جيدا سمه « خديعة الذات» اللاارادية التي تتصف بها زلة اللسان أو الفعل الخائب .

وهذه الخديعة ناجمة بالتأكيد عن نزعة داخلية وعن رغبة لاشعورية . فالمقصود اذن فعل يفلت من رقابة الفرد .

وقبل أن نكمل سيرنا ، أقترح الان أن نفحص العدوانية السوية وغير السوية . فهي حاضرة دائما في العصاب ، كما قلت ، ويمكن لها أن تكون مرئية أو مكبوتة ، وسنرى ذلك .

وسأبدأ اذن بالمشكل العام ، تليه بعض الحالات التي سنكتشف أن لها خيطا هاديا واحدا .

الفصل الخامس

أنا موجود ، إذن أنا عدواني

العدوانية المرضية عنصر من عناصر **كل** عصاب . ويمكن لهذه العدوانية أن تكون « مرئية » وصريحة . ولكنها يمكن أن تكون « كامنة » ولامرئية ، ومغطاة بمجموعة من التمويهات .

وما شأن العدوانية في **الحياة اليومية** ؟ ومتى تكون سوية ؟ ومتى تكون غير سوية ؟ وما يمكن أن تكون مفعولاتها ؟

يستلزم وجود المرء أن يؤكد ذاته . **والعدوانية سوية بهذا المعنى** . وهذه العدوانية ، اياها ، لا تهاجم كيفما اتفق ، ولا تبصق النار : **انها التعبير عن نزعات فاعلة لدى الموجود الانساني** .

فهل أنت عدواني ؟ انك عدواني لمجرد أنك تفتح الباب ، ما دام عليك أن تفرض قرارك على شيء جامد . ولكن العدوانية تصبح مرضية اذا قذفت الباب ، حين يصرّ أو يقاوم ، بركلة من قدمك وانت تصفه ب «الباب القذر » .

وهذا هو مايفعله الملايين من الراشدين في المباريات من الاعمال اليومية . **والعدوانية السوية** هي التعبير عن كل نزعة فاعلة ، متجهة نحو الخارج .

والعدوانية غير السوية تتصف بضرب من خاصة هدّامة عدائية . وهي ، بصورة عملية ، تركز دائما على الخوف ، شانها شأن عدوانية الحيوان الذي ضاق عليه الخناق .

ولكن ما اكثر التركيبات الممكنة التي تظهر بها العدوانية ! يمكن ، على سبيل المثال ، أن يخاف المرء و « يغالي » لكي يفرض نفسه . وهو ، اذ يفعل ذلك ، يفلت من الخوف . انها اذن عدوانية غير سوية . ولكن بوسع المرء ان **يبدو** غير عدواني **ابدا** . وبوسعه أن يبدو كيّساً الى الحد الاقصى ، ومحترما للآخرين ... ويخفي جيبا واسعا من العدوانية اللاشعورية : **والحالة النموذج** هي حالة مراهق يلجمه أحد الوالدين الذي يتصف بأنه مستبد ، ولا يجرؤ على التمرد ، « ويكبت » عدوانيته ، ويصبح « عاقلا جدا » و « خاضعا جدا » .

واجد لزاما علي أن أستعرض العدوانيات **المرضية** التي نصادفها في العيادة : عدوانية المضطهدين والشبقين والكحوليين والمصابين بالصراع ، الخ . وعلي أن أتكلم كذلك على العدوانيات **التكوينية** (السوية اذن !) : عدوانية الأمزجة العنيفة والاندفاعية ، الخاصة ببعض العروق ، الخ . ولكن التصرف الأكثر حكمة أن نبقى في اطارنا كيما لا نشوّش دروبا تتصف الآن بأنها عديدة الى حد ما .

فاذا احسّت بقرة بذبابة تدغدغ ظهرها ، ماذا تفعل ؟ انها تطلق ضربة عدوانية من ذنبها . ولماذا ؟ لكي تبعد الذبابة . هل ستقتل الذبابة أم لا ؟ الامر لا يعنيها كثيرا : انها ترغب في مجرد **ابعاد** الذبابة . وحركتها **غريزية**: انه دفاع بكل بساطة . ولكن لماذ ترغب في ابعاد الذبابة؟لان هذه الذبابة تزعجها ، و « **تخلّ بتوازن** » راحتها ، **وتفسد الوظيفة البيولوجية التي تتصف بانها مبدا لذتها ذاته** : أن ترعى وتستريح وتنام . فلا ذبابة : ذلك هو السلام والراحة . أهناك ذبابة ؟ ان اللذة ترحل . **اذن** ، **تبعد وجود الذبابة** .

١ ـ الجرثوم ، الانسان والمرض

ماذا يحدث اذا أفسد جرثوم من الجراثيم عضوية انسانية ؟ يحدث ما حدث للبقرة . **فالعضوية المنزعجة والفاقدة التوازن تقوم برد فعل دون أن تضيع ثانية واحدة** . انها تحدث رد فعل دفاعي : العدوانية ، والهروب ، والمرض ، الخ . ذلك أن الجرثوم ليس هو الذي يسبب المرض ، بل ان المرض رد فعل العضوية ضد الجرثوم . فاذا انغرزت شوكة في اصبعك وأفسدت هذه الشوكة عمل عضويتك المتناغم ، دخلت الجملة العصبية في حالة الطوارىء وحشدت جيش الكريات البيضاء . وينطلق الصديد في الهجوم . فليست الشوكة هي المرض اذن ، وانما المرض هو الصديد الذي يتصف بأنه جدير بابعاد الجراثيم المسببة للامراض التي تحدثها هذه الشوكة . ونحن اذن ، هنا ، في غمرة التصور الحديث للطب(١) . **وهذا أمر رئيس لفهم العصاب .**

ثمة اذن قانون ذو أهمية : تبحث كل عضوية حية ، قبل أي شيء ، عن توازنها و « لذتها » وراحتها . فهل عضويتك بحاجة الى الحرارة ؟ انك تبحث بصورة غريزية عن الحرارة وتحاول **اقصاء** البرد . وهل عضويتك تحب البرد ؟ انك تحاول اقصاء الحرارة . وهكذا دواليك .

٢ ـ « الجراثيم النفسية » واللاشعور الانساني

لنستمر ، ولكن ولنكف عن الدعابة . فنحن ندخل في مجال عميق ومؤلم ، مجال يحدث ردود فعل عصابية مسلسلة تحف بها مواكبها من ضروب الحصر والدونية والخجل والاثمية والوسواس . الخ .

ولو كان بامكان اللاشعور الانساني أن يتكلم لقال : « مهمتي أن أصون توازن البناء النفسي وراحته ، وأتصرف ، بناء عليه ، اذ أثير المرض اذا لزم الامر » . وبصورة عامة نقول : اذا لسع الحياة النفسية « جرثوم »

---

(١) انظر « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » .

من الجراثيم ، قام اللاشعور الانساني برد فعل ، وبذل **كل جهد** لاقصاء مسبب الاضطراب . وتلك هي آلية **الكبت** اللاشعورية **والعصاب** . ومن الجراثيم النفسية ، ثمـة الكثير بقدر ما تشاؤون ، بدءا مـن مرحلة الطفولـة ....

أولا ـ الطفل والعدوانية

الطفل « لاشعور حي » . انه يبحث عن أن يفرض حياته . وهـو ، لكي يفعل ذلك ، « يطلق العنان » لغرائزه . **ويبحث عن تأمين حياته ، بأكبر قدر من الراحة الممكنة والامن الممكن واللذة الممكنة** . فـاذا تجلت غريزة من الغرائز ، طلب الطفل أن تتحقق هذه الغريزة **مباشرة** دون أن يحسب حسابا للاخلاق أو التهذيب اللذين لا يعرفهما (بعد) . وتنتقل عضوية الطفل الى التحقيق **المباشر** اذن اذا كانت راحته منوطة بفعل مص الابهم ، أو اللعب ببرازه ، أو تحطيم شيء ، أو أي شيء تشاؤون . ذلـك هو **مبدأ اللـذة** .

ولكن ! الاتصالات بين الأبوين والطفل أساسية بالتأكيد . وتتعثر **العدوانية السوية** للطفل (الذي يبحث عن هنائـه وتحقيق حاجاتـه) بالراشدين . وقد « قنّى » هؤلاء الراشدون عدوانيتهـم ومدنوها ، وجعلوها متلائمة (بين بين) مع المبادىء الثقافية والاجتماعية . وعلى أي حال ، ثمة صدمة بـين :

العدوانية **الغريزية** للطفـل	و	العدوانية **المتمدينة** للابويـن

والحال اننا نعيش في مجتمع معين . ويريد الابـوان اذن « قولبة » الطفل بحسب هذا المعيار أو ذاك . ويثير الطفل على الغالب ضربا مـن **رد الفعل المعارض** . وكل هذا معروف جيدا ، ولكن تكراره ليس عديـم الجدوى في اعتقادي . فماذا يحدث اذا اصطدمت هذه المعارضة بأبويـن يحطمانها جهارا لانهما مغاليان في التشدد أو مستبدان ، أو لان الحب

ينقصهما ؟ **يبحث الطفل عن الاحتفاظ بهنائه** ، بحثا على نحو لاشعوريا . وبما أن الطفل يصطدم بحائط ، فاننا نقع في ضروب الكره المرئي والهروب والابتزاز والخضوع المزيف ، التي تخفي أصنافا باردة من العزم على الانتقام ، الخ . ولكننا نجد **الكبت** على وجه الخصوص . والى هنا بصورة خاصة انما كنت أرغب في الوصول ، ذلك أن هذا الامر ذو أهمية كبرى ، من الطفولة حتى الشيخوخة !

ولنتخيل ...

لنفرض حالات شائعة ، ولكن لنمض بها الى حد **الكاريكاتور** .

ولنتخيل طفلا يرى نفسه ، بعد عدة سنين من الحياة السعيدة ، وقد صار له اخ صغير . ولنتخيل ، في هذه البرهة ، أن الابوين **ينبذان البكر بصورة كلية** : فلم يعد الابوان يعنيان به ، ولا يقدمان اليه الطعام ، ولا يهتمان به على الاطلاق ، الخ . وكل ذلك لمصلحة الاخ الصغير على سبيل الحصر .

ماذا سيحدث لدى البكر بصورة شعورية أو لاشعورية ؟ من المؤكد انه يعاني الموت ألف مرة . وسيصيبه الاحباط بصورة كلية بسبب فقدان الحب ، والهناء الهادىء المرتبط به . فسيكره أخاه اذن ، الامر الذي يتصف بأنه طبيعي هنا . وسيقول لنفسه : « **لو لم يكن اخي هنا** ، لكنت لا أزال أنعم بحب والدي واحتفظ بهنائي وأمني » . ولنتذكر ضربة الذنب التي توجهها البقرة من أجل ابعاد الذبابة . فلنعد الى البكر .

يتصف هذا الطفل بانه « غير متوازن » ، اذ انه مضطرب بعمق . **ويبحث لاشعوره اذن عن اعادة التوازن** . ولكن اللاشعور لايمضي في بحثه أبدا يفتش عن الحلول في جميع الاتجاهات ، بل يمسك بالحل الاول القادم . **لا بد من ابعاد** الفاعل الذي سبب فقدان التوازن في هذا المجال : الاخ الصغير . فتبدو لدى البكر **رغبة لاشعورية في موت** أخيه . انها العدوانية « في حالتها النقية » . **بيد أن** هذه الرغبة ، العدوانية

واللاشعورية ، تصطدم بأخلاق الصبي الشعورية . فثمة **اذن** تصادم بين الشعور واللاشعور . وثمة ، **بالتالي** ، تناقض قوي . فماذا ينتج عن ذلك ؟ ينتج عن ذلك :

أولا ــ **الحصر** الناجم عن هذه التناقض وعن الاندفاعات اللاشعورية التي تحاول أن تشقّ دربا الى الشعور ؛

ثانيا ــ **الكبت** : فالاندفاعات اللاشعورية (الرغبة في موت أخيه) ستصطدم بالاخلاق ، وستكبت بقسوة نحو المكان الذي صدرت عنه : نحو اللاشعور .

ماذا سيفعل الصبي ؟

ثمة عدة امكانات تبدو دائما ، مع ذلك ، في حالات العدوانية :

آ ــ أن يبدو **عدوانيا بصورة صريحة** ويكره أخاه جهارا ؛

ب ــ أن **يكبت** عدوانيته دون أن يعلم ، والكبت لاشعوري دائما كما سنرى ؛

ج ــ أن **يتستّر** . بما أن عدوانيته تثير كثيرا من الاثم . فيصبح الصبي عندئذ ذا لطف فائق الحد ازاء أخيه . والسبب في ذلك أنه ، **اذ يشعر بالاثم** لرغبته في موت أخيه ، **يبحث عن الغفران** . ويتم كل ذلك بصورة لاشعورية .

د ــ أن **تكون رعايته لاخيه رعاية مغالية** . ويبحث عن أن يجنبه أوهى ألم خفيف وأدنى حادث . وليس هذا التصرف ضربا من المراءاة على الاطلاق . وهو يفعل ذلك لانه ، بصورة لاشعورية ، **يحكم على نفسه بأنه آثم في كل ما يمكن أن يحدث لاخيه** ، اذ أنه ، بصورة لاشعورية ، يتمنى له الاسوء : الموت . فهو يتصرف اذن كما لو كان أفضل أخ في العالم ، وبأفضل ما في العالم من نية حسنة ، واجدا بعض التبريرات : « ينبغي للمرء أن يسامح ، وأخي ليس له يد في ذلك ، ووالداي لا يعرفان ما يسببان لي من ألم ، وأنا أغفر لهما ، الخ » . وغني عن البيان أن هذه التبريرات لا تطابق الواقع اطلاقا ، وأن ردود الفعل هذه يمكن أن تختلط !

نحن نرى اللاشعور يتبع قانونه في كل ذلك : **اعادة التوازن باقصاء الظروف المزعجة ، ودون اهتمام بأخلاق يجهلها** . شأنه على وجه الدقة ، وأكرر ذلك ، شأن الصديد الذي يحاول اقصاء الجرثوم . ولكن الصبي ، هنا ، يشعر بأنه آثم لوجود الصديد لديه ... صديد يجهل وجوده .

١ ـ « تمني الموت » في الحياة الجارية

هل تمنيات الموت اللاشعورية شائعة ؟ وهل « يقتل » كل فرد بصورة لاشعورية كثيرا من الناس ؟

اليكم ما يقوله بعض الاشخاص :

أ ـ عندما كان والدي يضرب أختي ، كنت مبتهجا لان أختي كانت تسحقني دائما باحتقارها .

ب ـ كسرت في يوم من الايام ساق والدي ، وكرهت نفسي لان ذلك سرّني . ولكنه كان يذلني كثيرا !

جـ ـ كانت أمي من عدم الفهم والعند بحيث أنني اخفيت جميع مجوهراتها في يوم من الايام . لقد سرقت وحطمت الحلية التي كانت أثيرة لديها ...

د ـ عندما أشتري أحمر الشفاه ، ثمة شيء يدفعني الى أن أختار ما يتصف بأكبر عدوانية ممكنة . انني افكر بأمي التي كانت تحيلني الى العدم في ظل ارادتها ، وتلومني بعنف في جميع محاولاتي أن أكون جميلة . وبلغت من العمر أربعين عاما ، ولكنني أقول لنفسي دائما عندما أشتري أحمر الشفاه : « ذاك يعاقبها ، وذاك يغيظها . انها لن تجرؤ على قول شيء لي ، ولتذهب الى الشيطان دون رجعة ... » .

ويمكن للمرء أن يستمر على هذا النحو زمنا طويلا .

فما يعني هذا الكلام ؟ انه يقرقر « بتمنيات الموت » اللاشعورية . ويبحث عمل الشخص عن إقصاء ما يسبب الاضطراب . **ولكن « تمني الموت » (الغريزي) تموّهه الاخلاق ، ويحلّ محله عمل أكثر رأفة .**

ولنترجم :

(رقم آ) ـ « يبتهج » الاخ بصورة شعورية ، ولكنه يقول لنفسه بصورة لاشعورية : « **لو كان بامكانه ان يقتلها نهائيا !** » .

(رقم ج) ـ « يقتل » هذا الشخص أمه بصورة رمزية عندما يحطّم مجوهراتها .

وهكذا دواليك . ولكنني أكرر أن « تمني الموت » لاشعوري في معظم الحالات . فهو اذن **خارج الاخلاق** . انه رد فعل **غريزي** تقوم به العضوية المضطربة . ومع ذلك ، فان « تمني الموت » يثير الاثم بصورة آلية ، اذ أن ثمة دائما صراعا بين اللاشعور والاخلاق . واذ يتجدّد تمني الموت بصورة لاشعورية سنين طويلة ، فانه يؤدي غالبا الى ضروب عميقة من العصاب : وتلك قد تكون حال راشد كان قد رباه والد مستبد ، على سبيل المثال .

ولو كان بامكاننا ، يلاحظ المرء اذن ، أن ننضّد « تمنيات الموت » التي يصدرها اللاشعور الانساني يوميا ، لبنى ذلك هرما يصل الى القمر . ومن هم « ضحايا » اللاشعور الغاضب ؟ ولكنهم ... جميع أولئك الذين يسحقون ، ويستبدون ، ويذلون ، ويشعرون بالدونية ، ويجرّدون من الشخصية . واذا لم نفكر الا ببعض المربين ، فان ذلك يكون سلفا كمية كبيرة .

فأن يكون المرء عدوانيا يعني اذن : ان يبعد ما يزعج (أو ما يخيف ، والامران سيان) .

وقد يكون مبتذلا أن يصرخ الانسان ليكون على حق والآخر على باطل ؛ وأن يصرع شخصا حتى يطلب الصفح ؛ وأن يصرع شخصا لكي يعاقبه ؛ أو أن يصعق شخصا بنظراته ، الخ . **وقد يكون اكثر تعقيدا** أن يكون مهذبا ولطيفا على نحو تام ، في حين أن « كنه » الشخصية مترع بالعدوانية ، أو أن يكون عرضة لوساوس ازاء شخص قريب لانه يتمنى موته بصورة لاشعورية ، ويشعر بأنه آثم لذلك ، الخ .

ثانيا ــ اوجه العدوانية

للعدوانية ، على هذا النحو ، وجوه مكشوفة ووجوه مقنعة (على وجه الخصوص !) . فلننظر اذن في الحالات الاكثر شيوعا .

١ ــ معيار للعدوانية

يقال ان العدوانية **مرضية** ، بصورة مؤقتة أو دائمة ، عندما :

آ ــ تمثل ملجأ ضد صورة من صور الخوف ؛

ب ــ تسبب الحصر ، لان المرء يشعر بالاثم لانه كان « خبيثا » ؛

ج ــ **انهـا اتجاه دائم** على وجـه التقريب : فالشخص عدواني **دائما على وجه التقريب** ، ذو سلوك لا يتغير في موقفه الهجومي ، ولا يفلح في الاستغناء عن العدوانية .

وليست هذه غير معايير عامة يمكن أن تدور حولها مئات من الصور التي تتصف بأنها أكثر دقة . ولكن هذا القليل من النقاط يجعلنا سلفا نلمح الجمهور الواسع من الناس العدوانيين (المرئيين أو غير المرئيين) ، المدفوعين الى العدوانية بفعل الخوف (الشعوري أو اللاشعوري) .

وفيما بعد ، سنرى المشكل ذا **الاهمية الكبرى** ، مشكل العدوانية التي يكبتها الطفل عقب مئات من ضروب التربية ، والتي تقود بلا رحمة الى مشاعر الاثمية العميقة ، والى الحصر وشلل العفويـة ، والى العصاب بالتأكيـد .

٢ ــ العدوانية المرئية

انها العدوانية التي يلاحظها الناس بالطبع . فالشخص قابل للتهيج ، ويغتاظ دون داع ، ونَزِق ، ويرد بخشونة ولو كان الغير كيّسا ، ويريد أن يكون دائما على حق ، ويتصف بطبع عنيد (يسمى على هذا النحو !)

ويسحق الآخرين (وبخاصة مرؤوسيه) تحت ضروب لومه أو صياحه ، الخ .

وهذه العدوانية **ترتكز دائما على الخوف** ، الا اذا كانت ناجمة عن مرض من الامراض الجسمية . وللعدوانية « المرئية » صورة مبتذلة وشائعة . ويمكن لها أن تفتك فتكا ذريعا (**الوالدان ازاء الطفل**) . وهي تنجم عن فقدان الثقة بالذات ، وعن مشاعر الدونية أو الاثم ، وعن ضروب الحصر اللاشعورية ، الخ .

٣ ـ العدوانية المموّهة

انها تلك العدوانية التي لا يلاحظها المرء بالعين المجردة . ويمكن له أن يلاحظ تصلب المواقف ، والانفعالية ، والعصبية . . . أو يلاحظ هدوءا كبيرا **الى حد المغالاة** ، الخ . ويلاحظ على الغالب كذلك تهذيبا **مغاليا** وخضوعا **مغاليا** للسلطة ، لسلطة رئيس أو لاحد الوالدين على سبيل المثال . فأين اختفت العدوانية في كل هذا ؟ الامر بسيط جدا : لقد تكوّمت في الكهوف اللاشعورية للشخصية ، كالديناميت تحت حديقة مزهرة . وتوجد دائما هذه الصورة من العدوانية المخبأة في أثناء تحليل نفسي .

وتتصف هذه العدوانية بأنها **لاشعورية** في تسع حالات من عشر ، وبأنها منقوعة بـ **الحصر** . وليس السبب في كون الشخص غير عدواني أنه **لا يجرؤ** على أن يكون . فان لم يجرؤ على أن يكون عدوانيا ، **فذلك** لان عدوانيته **تمثل خطرا** . أي خطر تمثله عدوانيته ؟

اعتقد أن من الافضل أن نذكر مثالا .

٤ ـ الجنسية والعدوانية ، لفافة التبغ وقلم الرصاص (حالة السيد ص)

اليكم مثالا يبيّن كيف أن عدوانية **عادية** تم كبتها نتيجة التربية . وكان ممكنا لهذه الضروب من الكبت أن تؤدي الى اخفاق حياة .

يقول السيد ص ذو الثلا ثين عاما :

ـ انني عاجز من الناحية الجنسية . ولم أعرف النساء أبدا . انني استسلم دائما ، ولكن والدي علّماني ذلك جيدا ، هذا نعم !

ـ علماك أن تستسلم ؟

ـ علماني على عدم الجرأة . ففي كل مرة كنت أجرؤ ... كنت ... لا أفلح في أن اشرح ذلك ... وكان الامر مثلما هو حاليا : فاذا تجرأت ، مثلا ، على أن أفرض رأيي ، أجترّ زمنا طويلا . ان رأي الآخرين ، مع ذلك ، آمر بالنسبة لي . فلم يسبق لي أن عشت بدلالة ذاتي ، بل تبعا لرأي الغير دائما ...

سالخص سريعا حالة السيد ص . انه ذو اتجاه متواضع ، ومهذب الى اقصى حد ، وطيّع ، وكل ذلك موضوع على قاعدة من العدوانية الخفية . وهو يمسك بلفافة التبغ **داخل راحة كفه** ، ويسجل ملاحظات ، ويمسك بقلمه بالاسلوب نفسه في زمن الراحة : رأسه **داخل راحة كفه** . وما صفات والديه ؟ والدان مسيطران ، الاب كالام ، خصاءان ، وكانا يكرهان الولد الصغير ص على ان يشعر بانه مسحوق .

والحال أن أم السيد ص ، بفعل اتجاه دائم يطول شرح تفصيلاته كثيرا ، كانت تبذل كل جهد حتى يشعر الطفل ص بأنه « آثم بصورة شنيعة » عندما كانت تظهر عدوانيته (وهذا ذو أهمية كبيرة : انظر بسط الموضوع في فقرة « العدوانية والحصر » ، الفصل الاخير) .

فهل كانت عدوانية هذا الطفل عدوانية سوية ؟ نعم ، بالتأكيد . فالعدوانية تتيح له أن يفرض حياته ويصونها ، شريطة أن يبقى في الحدود السوية . ولكن عدوانية **غير سوية** لدى الطفل ص كانت قد انضافت الى العدوانية الاولى . وكانت هذه العدوانية قد نشأت من الشعور بالاحباط والتجرد من الشخصية اللذين سببهما والدان مصابان بالعصاب ، يهتمان بأدق التفصيلات ، ويرددان باستمرار « لن تكون مفيدا في شيء » و « لن تعرف أبدا ما فعلنا من أجلك ، وتلك هي الكيفية التي تكافئنا بها » . . وأمورا أخرى من النوع نفسه ، أمورا شائعة ـ للاسف ! ـ كالمطر .

لماذا اصبح السيد ص عاجزا من الناحية الجنسية ؟

لانه لم يميّز الجنسية من العدوانية . ولكن هل كان على حق في أن لا يميز أحدهما من الآخر ؟ نعم : فالجنسية المذكرة قاعدتها العدوانية . **ورجولة الذكر « فاعلـة » و « نافـذة » . ان عليها أن تفرض ذاتها و « تثقب »** (**بالمعنى الجنسي وبالمعنى الاجتماعي على حد سواء**) .

ولكن ماذا حدث في لاشعور السيد ص ؟

في أثناء طفولته ومراهقته ، **كبت السيد ص عدوانيته ازاء والديـه ثم ازاء المجتمع** . وبدلا من أن يكون شخصيا **وفاعلا** ، أصبح **منفعلا** . لقد أصبح **مؤنثا** . ولكي يفلت من لوم والديه الدائم ، أصبح (في الظاهر) « صبيا صغيرا لطيفا لا يؤذي ذبابة » . ولا سيما أنه كان يشعر بالاثم في كل مرة كان يجرؤ على أن يكون عدوانيا .

واصبحت العدوانية ممنوعة بالنسبة اليه تدريجيا ... ما دام التعبير عن شخصيته كان ممنوعا عليه ! وكبت كل نزعة عدوانية ازاء والديـه واصدقائه وأساتذته ورؤسائه وأعدائه . وظهر (بالتأكيد) الخوف المرضي من المنافسة . وكبت على هذا النحو غرائزه الجنسية ما دامت مرتكزة على العدوانيـة .

ويمكن تلخيص الاوضاع على هذا النحو :

الوضـع السـوي

رجـولـة ← عدوانيـة ← نفـاذ ←
فرض الذات ← الفاعليـة ← يثقـب ←
جنسيـة سـويـة

وضـع السيد ص

عدوانية مكبوتة ← رجولة مكبوتة ← **« استسلام للنفـاذ »** (استسلام ، خضوع ، الخ) ← لم يقاوم فـرض الآخـرين ذاتهـم عليـه ← **« استسلـم للانثقـاب »** (لـم يقـم بـرد فعـل علـى عدوانيـة الاخـريـن ، وعلـى شخصيتهم ، الـخ) ← **لواطيـة كامنـة** .

تحدثت اليكم ، في البداية ، عن الطريقة التي كان يمسك بها لفافة التبغ والقلم . وهذان الشيئان كانا ، بصورة لاشعورية ، **رمزي القضيب** (منتصبين ، عدوانيين ، « محدبين » نحو الغير ، مهددين ، نافذين ، ثاقبين) . فهما اذن رمزا العدوانية **المكبوته** نحو الداخل (داخل راحة الكف) .

وخرجت عدوانية السيد ص تبعا لعمله التحليلي ، ثم استقرت بوضعها السوي في شخصيته . وفي هذه الفترة ، أمسك السيد ص بلفافة التبغ والقلم المحدبين **نحو الخارج** ، دون أن يدرك ذلك وفي اثناء استعادته جنسيته السوية .

كان السيد ص قد انتقل اذن من **جنسية متجهة نحو الداخل (كامرأة) الى جنسية متجهة نحو الخارج** (**كرجل**) . وفي الوقت الذي كان قد أصبح مجددا قادرا على « **الايلاج** » جنسيا ، كان بامكانه أن « ينفذ » (**رمزيا**) **الى الغير** بتقديم النصح وفرض رأيه بطريقة فاعلة ، الخ .

وقد يحدث ، في بعض الاحيان مع ذلك ، أن يصبح بعض الرجال ، الذين كبتوا شخصيتهم والعدوانية السوية المرتبطة بها ، عاجزين من الناحية الجنسية . انها الحالة ذاتها اذن . ولكن هل **هم** عاجزون من الناحية الجنسية ؟ كلا ، على الاطلاق . ولكنهم أصبحوا عاجزين عن فرض ذاتهم ، وعن « النفاذ » من الناحية الجنسية وفي الحياة الجارية على حد سواء . انهم يصبحون عاجزين في جميع المجالات ، وليس المجال الجنسي غير مجال في عداد مجالات أخرى (١) .

٥ ــ حالة إيفان

يعرف المريض أعراضه أفضل من اي شخص آخر ، بما انه يعانيها

(١) يمكن للمرء كذلك أن يكون فحلا من الناحية الجنسية ، في حين انه ضعيف من الناحية الاجتماعية .

يوميا ، ويصفها بدقة . وكل ذلك اذن يكوّن المادة **الشعورية والمؤلمة** . والمريض يعلم انه يتألم ، ولكنه يجهل ما يحدث في الاعماق . انه يصارع ضد أشباح ، ويناضل ضد عدو غير مرئي ، متلبد في كهف مظلم : لاشعوره .

قال السيد ايفان في الجلسة الاولى :

ــ انني متشنج دائما . أتألم باستمرار من معدتي . أصاب بالغثيان ، وليس بوسعي أن أنظف أسناني دون أن أتقيأ . وما أن يبدو زميل من زملائي في المكتب حتى أتوتر كقوس. انني عدواني وظالم .

تلك هي بعض الاعراض الاولية .

وقال السيد ايفان فيما بعد (وأسجل بعض نقاط الصوى) :

ــ عليّ مع ذلك أن « اعترف » لك بشيء : لا افلح في أن أتفاهم مع الآخرين . فانا أؤثر العزلة . ولكنني أجد ان كثيرا من الناس اغبياء ، ويتكلمون كيفما اتفق على أشياء يجهلون الكلمة الاولى منها . ان المجتمع يسبب لي الملل، ولكن «علي أن اعترف» أيضا بأنه يخيفني.

لماذا على السيد ايفان أن « يعترف » ؟ ألا يمثّل ، بالنسبة له ، كونه غير قادر على التفاهم مع الآخرين شيئا يعرّضه الى أن يرى الامور رؤية مشوّهة ؟ وهو « يعترف » أيضا بأنه خائف . فهل أمر « يخالف » الاخلاق اذن ، بالنسبة اليه ، كونه خائفا ؟

ثم قال السيد ايفان فيما بعد :

ــ ليس لي أصدقاء . « أعترف » بأنهم في بعض الاحيان هم الذين تركوني لانني ، على ما يبدو ، أتصف بروح التناقض . ولست مع ذلك غاضبا . انني ، كما قلت لك ، « أفضل العزلة » .

ثمة مجددا ضرب من « الاعتراف » للسبب ذاته . فهو يقول انه يتصف بروح التناقض (وذلك يخفي دائما شيئا ما) . **ويسوّغ** سلوكه مجددا ، ويطمئن نفسه : « . . . أفضّل العزلة » .

ويقول السيد إيفان فيما بعد :

ـ لقد أدركت شيئا : « أريد دائما ان أكون على صواب » . وادراكي ذلك سبّب لي صدمة ! لقد انخفض اعتباري . أليس من المحتمل ان اصدقائي تخلّوا عني بسبب ذلك ! نعم ... هذا صحيح ... واستحوذ علي هوس أن أكون على صواب ... ولكن لماذا !

ثم قال :

ـ أريد أن أكون على صواب ، حتى ولو كان ما أقوله عكس ما أفكر فيه . **فاذا** « وبخني » احد ، قتلته في مخيلتي ، **او** رغبت في أن أنتحر ! **ولكن لماذا ، ياالهي ، لماذا ؟**

فالسيد ايفان اذن يدرك شيئا : انه يريد أن يكون على صواب في كل شيء وبالرغم من كل شيء . ولكنه يجهل **السبب** .

آ ــ يريد السيد ايفان أن يكون على صواب . ويفقد صوابه إن « فاته » ذلك .

ب ــ أن يكون على صواب أمر ذو أهمية كبيرة بالنسبة اليه . فأن يكون على صواب أمر **يحميه** من شيء ما . من أي شيء يحميه ؟ انه يحميه من ضرب من الخوف . فأي خوف ؟

حـ ــ عندما يكون السيد ايفان مخطئا ، فان « واجهته » تنهار . **وتبدو عدوانيــة هائلة** ويأس : « انني أقتلــه في مخيلتي ، أو مستعد للانتحار ... » .

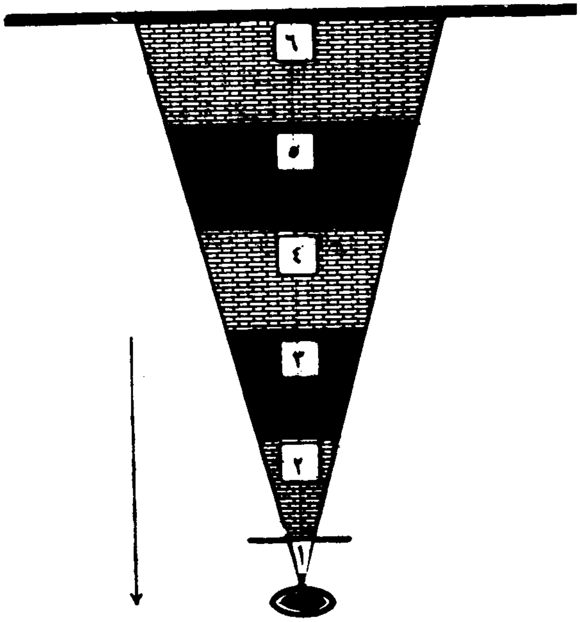

شكل رقم (٢)

لنلاحظ التخطيطية السابقة من الاعلى الى الاسفل :

يمثل الرقم ٦ نمط الحياة الحالي للسيد ايفان الذي يتألف من : آ ــ الانفعالية ، والارهاق الانفعالي ، والتعب ، وآلام المعدة ، والتصلب ، والعزلة ، والعدوانية ، الخ ؛ ب ــ الحَصَر : أن « ينكشف عنه القناع » ، وان ينضبط مخطئا ، وخوف مستمر من راي الآخرين ؛ حـ ــ الامن : انني على صواب ، ودوري هو الدور الرائع ، واحب الوحدة .

ويمثل الرقم ٥ حصرا وأمنا :

فالحصر : أصدقاؤه يهجرونه ؛

والامن : أن يكون منيعا وعلى صواب بأي ثمن .

ويمثل كل من الارقام الاخرى : ٤ ، ٣ ، ٢ حصرا وأمنا .

الرقم ٤ : الحصر : خطر دائم من أن يكون مخطئا ، وخطر المنافسة ؛ الامن : الظهور بمظهر العصمة من الخطأ ، أن لا يكون مخطئا على الاطلاق .

الرقم ٣ ــ الحصر : صراع بين ما يعتقد أنه يتصف به (الضعف) وبين ما يرغب في أن يظهر به (القوة) ، وتهديد دائم . الامن : بذل كل مجهود لكي يبدو قويا .

الرقم ٢ ــ الحصر : خوف من الظهور ضعيفا ؛ والامن الاساسي : ضروب من الكبت .

امــا الرقم ١ ، فانه يمثل الاسبا باللاشعورية : ضــروب الحصر الاساسية ، والتربية ، الخ .

فنمط الحياة الذي يمثله الرقم ٦ يتصف بأنه **شعوري** . وما يحدث من الرقم ٥ حتى الرقم ١ يتصف بأنــه **لاشعوري** اكثر فأكثر . وهــذا اللاشعور يتألف من **دفاعات ذاتية** . والطبع شبيه بضرب من الدرع المكوّن من « صفائح » الامن : كل أمن منها يحمي من الخوف . ولكن السيد

أيفان غير قادر على الاعتراف بأنه خائف ، بما أن ذلك سيكون الاعتراف بضعفه ، والوقوع في الحصر مجددا .

وبناء **عليه** :

آ ـ كل أمن عصابي مهدد دائما . . . بالتعريف ؛

ب ـ ما أن يتصف الامن بأنه مهدد ، حتى يبدو العصاب آليا ، **وذلك** شبيه ، على وجه الدقة ، بسارق مسلح يطلق النار على رتاج الامن الخاص بالباب الذي يختبىء خلفه المرء . وهذا **لا** يصح الا في العصاب ؛

حـ ـ ويتبين ، بحسب التخطيطية ، أن السيد ايفان « سندويش » حقيقي من ضروب الامن اللاشعورية . وكل ضرب منها ، بوصفه **مهددا** باستمرار ، يسبب الحصر . وكل حصر منها يثير بدوره آلية جديدة من الامن .

فماذا سيحدث ؟ يجهل السيد ايفان الى أي حد تتصف **الواجهة** التي يبديها للغير بأنها مختلفة عما **هو عليه** واقعيا . فهو يمثل دورا باستمرار دون أن يعلم . ولكن هذا الدور يحميه من الحصر .

ومن المؤكد أن المحلل « سيحفر » . انه سيصبح شبيها بالسارق الذي تحدثت اليكم عنه . وسينفذ الى الحصن المدرع الذي شيّده السيد ايفان بصورة لاشعورية خلال سنين . ويزعم السيد ايفان أن ضيقه ناجم عن حياته المضطربة ، ولكنه يجهل أن الاسباب مختلفة كليا ، وأن سعادته مرهونة بتجديد **شخصيته كلها** .

ومتى تظهر العدوانية ؟

تظهر العدوانية خلال التحليل كلما مسّ العلاج « رتاج أمن » ، وكلما بدا أن المحلل يضع موضع الشك هذا المظهر او ذاك من مظاهر سلوك المريض ، الذي يشعر عندئذ بأن « القناع يرفع عنه » . وهـذا يعني

بالنسبة اليه انه « موضع حكم غير ملائم » . فعلى المريض أن يصل الى النظر الى نفسه كما هو ، في حين انه بذل كل مجهود من أجل أن يخفي نفسه عن عينيه الخاصتين به . والعدوانية رد فعل دفاعي أمام الحصر ، يبرز كلما اتصفت « واجهة » من الواجهات بأنها مهددة . وأنا لا أنظر الى المشكل هنا غير نظرة تبسيطية .

هل العدوانيات عديدة لدى السيد ايفان ؟ نعم ، بالتأكيد ، ذلك أنه لن يصبح شاعرا بالنقاط من ٥ الى ١ على نحو سريع جدا ... ما دامت حياته كلها مرتكزة على هذه الضروب من الامن والحصر ! **وهو لن يدرك ان شخصيته برمتها مصابة بالزكام ، الا تدريجيا** . والى أن يتحقق ذلك ، فانه سيقاوم ، وسيصارع ضد ذاته حتى يبدأ الاسلوب التحليلي بالمعنى الدقيق للكلمة (مقاومة ، تحويل ، الخ) . وعندئذ ، ثمة طاقات متوقفة تتحرر لتساعد السيد ايفان في مهمته ، مهمة بناء نفسه بناء جديدا .

وبالاختصار :

يبدو **الحصر والعداوة** دائما منذ بداية العلاج العميق . ويمكن لهما ان يكونا شعوريين أو لاشعوريين . ويمكن لهما أن « ينصبا » على المحلل ، أو « يغش » المريض لكي يفلت منهما الا اذا موّههما بعناية ، ودون أن يعلم .

فالمريض على سبيل المثال :

آ ـ **يهتف** للمحلل بأن لديه مانعا (مختلقا) لكي يلغي الجلسة ؛

ب ـ **يناقش** ويعقلن ويماحك ، ويبذل كل مجهود لـ « يبرر » سلوكه ... في حين انه أتى يبحث عن المحلل ليغيّر هذا السلوك ذاته ؛

جـ ـ **يخفي** عدوانيته في ظل تهذيب مغال ؛

د ـ **يتعلق بشرح** ، أو يثيره ، حتى لا يكون عليه أن « يحفر » بعمق أكثر . ويفلت على هذا النحو من الحصر قائلا لنفسه ؛ بعد كل شيء ، « انه ما أساء تدبير أمره كما يمكن لبعضهم أن يعتقد » .

ومن الواضح أن هذه المراحل مؤلمة جدا بالنسبة الى المريض . وهنا انما يجد التعاون الانساني أهميته وروعته ، بما أن المقصود أن نولد انسانا جديدا ، أصالته وعظمته مطمورتان تحت نفايات كانت الحياة قد راكمتها بالتدريج .

ولكن ثمة فترة (مؤقتة) تحلّ دائما ، فترة يرفض فيها المريض أن يتعاون (بصورة لاشعورية مع ذلك) . وتلك هي « **المقاومة** » التي تحدثت اليكم عنها من قبل ، في الفصل الرابع .

٦ ـ حالة بولس

أربعون عاما عمر بولس . رجل ذكي جدا ، وله طفلان . يقول بولس :

ـ انني متزوج منذ خمسة عشر عاما . وقد تركت لزوجتي ادارة البيت منذ البداية ، بما أنها امرأة ديناميكية . وذلك ما كان يلائمني تماما . فعندي عمل كثير . والحال أن طفليّ يكبران الآن . ويحتاج الصبيان الى أن امسك بدفة القيادة . وأدركت بذهول انني لم أكن أستطيع ذلك ! وأشعر أن امرأتي تخيفني . انها عدوانية ، ولكنها طيبة . ونحن متفاهمان جدا . فلا عداوة من جانبي أبدا أبدا . وعلي اذن أن أصبح رئيس الاسرة ... وأنا عاجز عن ذلك . فهل هي العادة المكتسبة ؟ بيد أن التهيب يبدو كلما كنت ملزما بأن أباشر مناقشة . واذا غضبت زوجتي ، اتراجع ...

تلك هي « الاعراض » اذن . وسيطرح المحلل الآن على نفسه بعض الاسئلة .

ـ « **ذلك ما كان يلائمني تماما** » . هل هذه الحجة حقيقية ؟ أو هل كان يفضل أن لا يتدخل في شيء حتى يفلت من مسؤولياته ؟

ـ « **نحن متفاهمان جدا** » . ولكن في ظل أي شرط ؟ وهل يتفاهمان أيضا لو استعاد هذا الرجل ادارة الاسرة ؟

ـ « **هل هي العادة المكتسبة ؟** » . يبحث بولس عن حجة : وهذا منطقي . ولكن هل هذه الحجة حقيقية ؟ وسنرى أن الجواب بالنفي .

ـ « **اذا غضبت زوجتي ، اتراجع »** . لماذا ؟ ماذا يعاني بولس عندما تغضب زوجته ؟

ها هو مستخلص آخر من جلسة من الجلسات (والتحليل النفسي المستخدم مع بولس ليس التحليل الدقيق) . م = مريض ، مح = محلل .

م ــ وجهت لي زوجتي أمس ملاحظة جافة ، وكان من المحتمل أن أمسك بتلابيبها ، ولكنها لم تر شيئا . لقد كنت لطيفا جدا ، وعاد النظام الى نصابه .

مح ــ لماذا كنت لطيفا جدا ؟

م ــ ولكنني كنت أشعر بالخجل كثيرا من عدوانيتي ازاءها !

مح ــ كيف يكون رد فعلك عندما تحرد امرأتك ؟

م ــ أنا ... أكون على غير ما يرام . ارغب في الهروب ... انني كالمطروح ارضا ... منزعج ... وعندئذ ، أشتري لها بعض الازهار عندما أعود مساء .

مح ــ وعندئذ ، ألم تعد غاضبة ؟

م ــ كلا .

مح ــ وهل تشعر بالراحة ؟

م ــ سيادة التفاهم أمر يتصف دائما بأنه أكثر امتاعا !

مح ــ ولكنك تشعر بالعزاء من أي شيء ؟

م ــ لا أعلم ... مرتاح من عبء . لديّ رغبة في القول : « اوف ، كل شيء تم تدبيره ، ولم يعد ثمة مشكلات » .

مح ــ مشكلة اجتررتها طوال النهار ؟

م ــ علينا أن لا نبالغ ، مع ذلك ، كلا . انني مرتاح لاننا ببساطة تفاهمنا مجددا ، ذلكم هو كل شيء !

والجواب الاخير كان عدوانيا جدا . فهل ثمة مس لأمر حساس ؟ يضاف الى هذا أن بولس يشعر بالراحة . والانسان يرتاح دائما من شيء من الاشياء . من أي شيء ؟ هل هو مرتاح لكونه لم يعد على خلاف مع زوجته ؟ ولكن ماذا يمثّل بالنسبة الى بولس كونه على خلاف مع زوجته؟

اليكم ما قاله فيما بعد :

م ـ انني مسرور من رؤيتك لأوضّح بعض الامور . والحقيقة انني أشعر وكانني صبي صغير أمام زوجتي . هذا هو الوضع . وكنت أحس به ، ولكنني لم أكن أريد ان افهمه . فقد سبب الحصر لي خلال ثمانية أيام . انه لامر يصعب قوله حتى امامك . وامام والدتي أيضا ، كنت صبيا صغيرا عاقلا جدا ، لكي أتجنب المتاعب ... وعندما كانت تحرد ، كنت أستشيط غيظا ، ثم كنت الاطفها . وكنت أعتقد دائما بانني مخطىء .

مح ـ هل كنت تشعر بالراحة عندما كان يحدث لديك الانطباع بأنها تصفح عنك ؟

م ـ بالضبط ! كان لدي انطباع بأن الناس كانوا يحبونني مجددا (صمت طويل) ، شبيه بانطباعي عندما أقدم أزهارا لزوجتي ... (لهجته تحتدّ) . اذن ، أنا خائف . وخفت دائما دون أن اعلم . انا خائف . وزوجتي عدوانية : هل هي خائفة ايضا ؟ رئيسي في المكتب ، الذي يصيح دائما ، يخاف المدير . ومديري يخاف سكرتيرته . والسكرتيرة تخاف كثيرا من امكان أن تصبح حارسة معسكر اعتقال . فهل الناس جميعهم اذن يخافون ؟

وساد صمت طويل . ثم قال ببرود وبلهجة جافة :

م ـ من تحسب نفسك حتى تضيّق الخناق على الناس هكذا في معاقلهم ؟

مح ـ ...

م ـ (صمت) . أعتذر . انني غاضب من نفسي . هكذا يعيش الانسان ... ثم يدرك أن المشكل في جهة أخرى ... ويعيش في وهم ضرب من الامن والحرية ، ثم يدرك انه انخدع ... ولسنا الا في البداية .

مح ـ محتمل ...

م ـ هذا يرجى منه خير كثير . ولكنني، أؤثر هذا اذا اجريت جميع الحسابات. أفضل أن أكون ما أنا وان لا أعود الى الخوف . كل هذا ربما كان خطأ والدتي . فعندما كنت طفلا ...

وهنا يبدأ فصل جديد من قصة بولس .

اليكم « تخطيطية » سلوك بولس :

آ ـ أم مستبدة ، حَرِدة جدا ، تمنح الطفل احساسا بأنه «مهمل» ، ومخطىء ، ووحيد في العالم . من هنا منشأ الحصر ومشاعر الاثمية (انظر هذا الموضوع في فصل « الانسان الآثم والانسان المصاب بالحصر ») ؛

ب ـ ولكي يفلت الطفل من هذا الحصر ، كان « يلاطف » أمه . وكان يتيح له ذلك أن ينال الصفح ، في حين أنه لم يرتكب اي خطأ ، وأن يكون محبوبا مجددا ؛

حـ ـ وبما أنه فاقد رجولته من الناحية المعنوية (لانه كان عليه أن يتجنّب معارضة أمه) ، فقد تزوج امراة عدوانية . وكان قد ترك لها قيادة المركب « حتى يتجنب المتاعب » ، وبالتالي ليفلت من كل منافسة مع زوجته .

هذه التخطيطية مختصرة . وقد يكون طويلا جدا أن نمضي بها الى تفصيلات عميقة . ولكن ، يكفي الآن من أجل أن نفهم أن « واجهة » بولس تُشعره بـ « الصفح » طيلة النهار . ونحن نقع على الاثمية ، عرض من الاعراض الكثيرة الوقوع جدا ، الذي سنقدم أمثلة عديدة عنه . وهنا كذلك ، تبدو العدوانية (خلال التحليل) كلما وضعت أصالة السلوك لدى بولس موضع الشك . يضاف الى هذا أن بولس سيعاني ، وهو يعيش طفولته مجددا ، أزمات حادة من العدوانية ، موجهة ضد أمه ... وضد المحلـل .

٧ ـ حصر جان وعدوانيتها

موضوع حديثنا حالة كثيرة الوقوع مع الاسف . جان بلغت الاربعين من عمرها . وهي عزباء ، تعيش مع والدها الأرمل منذ زمن طويل (انظر كذلك الأنا العليا في فصل « عندما الشيطان يقود الرقص » ، مع مثال يبدو للوهلة الاولى مشابها جدا) .

قالت جان :

ـ اعيش مع والدي الارمل . وما اردت أن أتخلّى عنه مطلقا . ولم يكن لي حق في أن اتخلى عنه . أليس كذلك ؟ وتخليت عندئذ عن الحياة ، بصورة ارادية ، حتى أمنح السرور لوالدي الشيخ الى أن يأتي أجله . ولكنني ، فيما بعد ، سأكون وحيدة دون شخص يتخذني رفيقة . وهذا امر يسبب لي الحصر بصورة كبيرة جدا . ليت أبي كان قد أجبرني، على الاقل ، على أن أتعلم مهنة ! ولكن لا . انه يردد على مسامعي باستمرار : « لنبق ، نحن الاثنين ، كل منا للآخر ! ... » ومع ذلك ، من المحتمل أنني قمت بواجبي . ولا اريد ان أطلق حكما على أي شخص ، ولكن هل لمثالي في أن احمي والدي قيمته مع ذلك ؟

والحقيقة أن الواقع مختلف كل الاختلاف . فوالد جان ، باديء ذي بدء ، لا يحتاج الى شيء ، ولديه المال ، ويتمتع بصحة متينة . فماذا يحدث اذن ، دون أن ندخل في التفصيلات ؟ ان شذوذ هذا الوضع أوضح من النهار . وجان تحس به أيضا ، ولكنها « تبرر مسلكها » قائلة :

ـ قال لي كثير من الناس ان حياتي كانت شاذة . فلا اخرج الا مع ابي . ولم يسبق لي أن عرفت رجلا آخر . ان الواجبات الاخلاقية والتضحية بالذات كانتا دائما ، بالنسبة لي ، أوامر ...

والحال ان لاشعور جان لا يعتقد بكلمة واحدة مما قالت ، اذا أمكن أن أقول ذلك . فماذا يحدث اذن ؟

ما تعتقد جان	ما يحدث
ما أردت مطلقا أن تتخلى عن والدها .	لم تستطع أبداً أن تهجر حرارة المنزل التي تجلب الاطمئنان . وذلك ما أتاح لها أن تتخلص من مسؤوليات الحياة .
إنها تعتقد أنها تحمي والدها .	إنها تحمي نفسها . وبقيت (إذا تجرأت على القول) متعلقة بوالدها .
تخلت عن الحياة بصورة إرادية .	إننا إزاء طفالة مستمرة . وآثرت البقاء طفلة متعلقة بأبيها على أن تنطلق في الحياة (انظر أيضا عقدة أوديب(١)) .
ليت والدي كان قد أجبرني على تعلم مهنة !	يكشف الأب ، هو أيضا ، عن انانية
« لنبق إذن ، نحن الاثنين ، كل منا للآخر ! » .	وعن تعلق جنسي لاشعوريين (ولن أتكلم عليهما هنا) .

---

(١) انظر « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » .

ذلك هو الوضع بصورة مجملة . ولكن الأمر لم ينته . فأنتم مؤمنون بأن جان تحسّ إحساساً مبهما بهذه التبعية الطفالية العاشقة إزاء أبيها ! وهي ، عندئذ ، تدفع « بحجج نبيلة » (مثال ، واجب أخلاقي ، الخ) . وتستخدم هذه « الحجج النبيلة » لتجسيد العدوانية ، المتراكمة بصورة عميقة ، التي تستشعرها إزاء أبيها . ومع ذلك ، **صرخت** فيما بعد :

ـ انما بسببه ضيّعت حياتي ، بسبب أنانيته ، واستبداده ، والوجبات الصغيرة الشهية التي كان يرغب فيها ، وبسبب تصرفاته لكي أبقى بقربه . فلم يكن يريد ان أتركه : كان يرغب في أن اكون زوجته وابنته وامه ، كل ذلك في وقت واحد !...

يضاف الى هذا أن ثمة مشاعر هائلة من الإثمية ، لأن جان تعاني عداوة عميقة لـ « هذا الرجل الذي بذل كل مجهود حتى لا أصبح امـرأة » . ولكن ثمة أيضا :

ـ انه لامر مضحك جدا ... (قالت فيما بعد بقليل) ... عندما كنت في الخامسة من عمري ، أو حتى في العشرين ... كنت أشعر بالاثم كلما فكرت بشاب من الشباب ... وكنت أرغب في أن ألقي بنفسي في أحضان والدي ، وان أطلب منه الصفح لانني وهبت قلبي لآخر سواه ... وأدرك أيضا أنني ما تجرأت قط على أن أطلق حكما على أبي ... الذي كان يتصف ، بالنسبة لي ، بجميع المزايا ... كبطل أو اله ...

وبدا الحصر وضرب من الراحة ، في وقت واحد ، عندما قالت جان :

ـ حسن ، مثالي وواجبي الاخلاقي انما كانا الانانية والهلع الشديد ! ابي مصاب بالحصر ، وقد منحني حصر الحياة . فكل ما قلته لم يكن سوى واجهة مذهبة لاخفي خوفي ، ولالزم نفسي بالبقاء في البيت حيث لا يقتضي القيام بأي جهد ... وعليّ الآن أن ابدا بان أحب بصورة حقيقية ...

ومن المؤكد أن وجود المحلل ومعارفه وإنسانيته ، في حالة من هـذا النوع حيث يتصف أسلوب رؤية الأمور بأنه « ينقلب » بالتدريج ، تؤدي دوراً رئيسا في المساعدة على تجاوز ضروب الحصر والشكوك التي تظهر خلال الطريق (وهذه الحالة هي ، بالتأكيد ، مختصرة جداً) .

ثالثا ـ ماذا تبيّن هذه الأمثلة

كل شخص من هؤلاء الأشخاص فريسة صراع لاشعوري ، صراع بين الحب والكره ، بين ضرب من الطفالة السهلة وبين الحياة الراشدة القاسية ، بين الخضوع والتمرد ، الخ .

ويظهر الحصر والعدوانية في الوقت الذي يظهر فيه الصراع . وكلما اقترب التحليل من الصراع ، برز الحصر . فعلى المحلّل إذن أن يتدخّل في فترة معيّنة . وتحلّ دائماً آونة تتفجّر فيها أزمة العدوانية ، وذلك كلما ضاق عليه الخناق أمام حقيقة أخفاها عن نفسه .

فلنأخذ مجدّداً حالة جان .

إليكم . ما قالته فيما بعد :

م ـ هل تذكر غضبي عليك عندما وجهتني صوب التيارات المتناقضة التي كانت موجودة في نفسي ؟

مح ـ نعم ، نعم ...

م ـ لقد دام غضبي نصف ساعة .

مح ـ (ابتسامة) دام ساعة .

م ـ حسن ... انك اكتشفت ما كنت اريد اخفاءه بالضبط ! ولكن حصري كان يصعد منذ أسبوعين كالفيضان . وكنت أشعر بأن كل حياتي كانت مزيفة ، وان كل شيء كان من الجص . وكل شيء كان كذلك ! كنت أعتقد أنني ابنة مخلصة ومدهشة ، ولم أكن سوى ابنة صغيرة متعلقة بأبيها ، الذي بذل مجهود ، دون أن يعلم ، حتى أبقى مرتبطة به ... آه ، هذا جميل !

مح ـ لنقل إنه أمر منطقي .

م ـ عندما كنت وحيدة في المسرح ، كان عمري خمسة وثلاثين عاما ! كم من الحصر والتحرر عانيت معا ! انني سأتذكر ذلك دائما .وأبي الذي كان يبدو انه يقول : « هذا مفهوم ... هذه المرة ، انه لامر قبيح ، وستهجرني ... » . لم أكن أعرف قط ما اذا

كان علي أن اضحك او ابكي ، وما اذا كنت امرأة أو ما اذا كنت قد اصبحت مسخا يهمل أباه ...

والإثمية والعدوانية والحصر ، كما قلت لكم ، تظهر دائماً في اثناء علاج سيكولوجي عميق . يضاف الى هذا أن هذه الضروب الثلاثة من المشاعر تشكّل جزءاً من **كل** عصاب ... ومن معظم الحيوات الانسانية .

١ ـ الاثمية والعدوانية والحصر

ستكون الإثمية والحصر موضوع فصل خاص . ولكن ، لننظر إليهما الآن من خلال بعض الأمثلة التي تبدو في أثناء تحليل نفسي .

هل يمكن الفصل بين مشاعر الإثمية والعدوانيـة والحصر ؟ أمن الممكن أن نقول : ها هو مثال صرف من الإثمية ومثال صرف من العدوانية ، الخ ؟ هذا أمر متعذر . وهذه الضروب الثلاثة من المشاعر العميقة تكوّن كلاً . فتارة يظهر أحدها ، وطوراً يظهر الآخر . وفي هذا اليوم ، تنبعث عدوأة شرسة (ولكنها مكبوتة) ضد المحلّل ؛ وغداً ، تنبعث عداوة معلنة ، أو تلقائية ساذجة تتبعها مقاومة ، الخ .

ثمة مثـال (هاتفي) :

ـ آلو ، السيد ... ؟ (المحلل)

ـ هو ذاتـه .

ـ أوه ... صباح الخير يا سيدي ... هنا جان ... الا ازعجك ؟

ـ مطلقا يا سيدتي .

ـ حقا ؟ ألست مشغولا ؟

ـ حقـا .

ـ آه ؟ هذا مدهش ... لان أخيرا ... بالاختصار ... ها هو ... لا أستطيع المجيء غدا ، لان ... أخيرا ، علي ان أذهب مضطرة في رحلة .

ـ حسن ، انؤجل إذن موعدك إلى ... ؟

ـ انني متأسفة جدا ، ولكن هذه السفرة ضرورية على وجه الاطلاق . انك تفهم ، انني (فتعطي هنا سيلا من الشروح الخاصة بأن هذه السفرة كانت غير متوقعة على الاطلاق ، ثم): بذلت كل مجهود لارجئها ، لان التقيد بالموعد امر ضروري ، اليس كذلك؟، واكره أن اتمسك بالتزاماتي . وليس ذلك غلطتي ، انت تعلم .

ـ ولكن هذا مؤكد يا سيدتي .

ـ انني حريصة على أن اقول لك انني متاسفة . اضطراري الى أن ألغي ، على هذا النحو ، التزاما معك ، يسبب لي مرضا .

ـ ذلك ما يحدث لجميع الناس ، أليس كذلك ؟

ـ بالتاكيد ، نعم ، ولكن أخيرا ... انني حريصة على أن تعلم ان هذا مستقل عن ارادتي ... وأبذل اخلاصا كاملا تجاه التزاماتي ، ثم ان ما قيل قد قيل ، اليس كذلك ؟ اخيرا ، حسن ... اني ... هل آمل أن لا تحقد علي ؟

ـ أأرجىء إذن موعدك إلى ... ؟

ـ شكرا . والان اذا رغبت حتما في أن آتي ، فلا يزال بوسعي ان أؤجل سفري ،ولكن سبق لي أن قمت بعشرة اتصالات هاتفية لكي أتوصل الى ذلك ، والامر يبدو متعذرا عـ لـي ، اـطـلاـقا .

ماذا نرى ؟ ان جـان هـذه تشعر بأنها « مخطئة » بطريقة مبالغ فيهـا . لقد قالت جان فيما بعد بقليل :

ـ هل تعلم ؟ ... لم يكن الامر غير مجرد موعد ، لا سفر . ولكني كنت أشعر بالاثم شعورا حادا ، وكان لدي انطباع شديد بأنني لن أروق لك ، وأن بامكانك أن تحقد علي ، وأنني ضخمت كل شيء ليكون لدي كثير من الحجج المقبولة بحيث يتعذر عليك أن تتشدد علي ...

نحن الآن في مجال مشاعر الإثمية (وفي مجال مشاعر الحصر المرتبطة بها دائماً) . وهذا الاتصال الهاتفي ليس سوى فعل في عداد آلاف الأفعال الأخرى بالتأكيد . ولكن جميع أفعال جان يبللها الإحساس بأنها مخطئة ، وبأن الناس يتسامحون معها ، وبأنها لا تكاد تكون مقبولة ، وبأن عليها أن

تبرّر جميع اعمالها ، الخ . (مشاعر الإثمية تتصف بأنها لاشعورية على الغالب) .

وماذا نرى أيضا ؟ تلحّ جان **بمغالاة** على تبريرات يمكن ترجمتها بما يلي : « **بذلت حقا كل مجهود حتى لا يفوتني موعدي ، ولكني فريسة الظروف ... لاحظ الى أي حد أنا مخلصة ... الخ** » . فهل هذا كان شعوريا في هذه الفترة ؟ كلا . ذلك أن جان كانت تقول فيما بعد :

ـ كنت مصابة بالهلع الشديد ، وكنت مصابة بالحصر الى حد كنت أختلق أي شيء وكنت أعتقد ما كنت أقوله ! وكنت أشعر بأنني مجرمة عليها أن تتصرف لتنال الصفح !...

وذلك هي عاطفة الاثمية تماما : الشعور بالخطأ دائما ... ومحاولة التصرف لنيل الغفران . وثمة الآلاف والآلاف من الأشخاص الذين يتصرفون بالأسلوب نفسه على وجه التقريب . وذلك بدءاً ، على الغالب ، من تربية غير محكمة ، ومن آباء مصابين بالعصاب ، يوزّعون الاحساس بالإثم لأتفه عمل يقوم به الطفل والمراهق .

وكل ما كانت تقوله جان يمكن تلخيصه بما يلي : « انظر كم أنا بنت صغيرة عاقلة جدا وخاضعة لسلطانك . وبالمقابل ، لا تنبذني ، ولا تحقد عليّ ، واصفح عني ، ذلك أني بحاجة كبيرة الى أن أكون محبوبة ... » .

٢ ـ حالة السيد ع .

لم يكن السيد ع يقرع الجرس ابداً في مدخل البناية عندما كان يأتي الى عيادتي . بل كان يفضّل أن يصل قبل نصف ساعة من موعده ويدخل البناية بمناسبة دخول احد المستأجرين . ثم يقرع مباشرة ، في الموعد المحدّد « بالضبط » ، جرس الباب الخاص .

وكان السيد ع يقول في **كل مرة** :

ـ انه حظ ، فقد استطعت الدخول لان احد الاشخاص كانت لديه المفاتيح . وما كان علي ، بهذه الطريقة ، ان أزعجكم مرتين ...

والواقع أن السيد ع كان **يخاف** أن يزعج مرتين (مرة ، على هاتف البناية ، واخرى على الباب الخاص) . فما السبب ؟ السبب أن السيد ع كان يحاول أن يجعل من نفسه أصغر ما يمكن ، وأن يبيّن كم كان حريصاً على تجنّب كل إزعاج . لماذا ؟ لكي يبيّن كم كان « لطيفاً » ، وبالتالي لكي « يقبله » المحلّل . والواقع أن مشاعر الإثمية ، المشاعر الحادة لديه ، كانت قد جعلت السيد ع يعتقد بأنه « موضع تسامح » في كل مكان يحلّ فيه (كما هو الشأن بالنسبة الى جميع حالات الاثمية ، وأكرّر ذلك) .

ها هو مستخلص من جلسة من الجلسات .

م ـ وجدت شيئا ذا أهمية !

مح ـ . . .

م ـ نعم . لدي مشاعر من الدونية والاثمية . ولكن ذلك أمر طبيعي ، لقد كرهت أمي دائما . فمن المنطقي اذن أن أشعر بالاثم. وبما أنني أشعر بالاثم ، علي أن أحاول قصاص نفسي ! ومن جهة أخرى ، قرأت ذلك في كتب التحليل النفسي . فاذا كان علي اذن بصورة لاشعورية ، أن أعاقب نفسي ، فان بحثي عن الاخفاق منطقي .

وينظر الى المحلّل نظرة الظافر ثم يضيف :

م ـ أعتقد أنني تقدمت خطوة كبيرة ، أليس كذلك ؟

مح ـ ربما . . .

م ـ كيف ربما ؟ ولكن ذلك واضح كالماء !

ويصبح عدوانيا ، ويستمر في حديثه :

م ـ انني منزعج من الناحية اللاشعورية ، لان من المحظور على المرء أخلاقيا ان يكره أمه ! وأنت تعلم أن أي شيء لا أهمية له ، بالنسبة لي ، خارج نبل العواطف !

فماذا حدث ؟

آ ـ « يبسط » المريض « اكتشافه » ليحوز على إعجاب المحلّل ،

وبالتالي ليشعر انه على قدم المساواة معه بدلا من أن يغوص في مشاعر الدونية ، شأنه ، على وجه الدقة ، شأن طفل يحاول أن يجذب الانتباه العطوف لوالده .

ب ـ يمثل المريض دوراً . إنه يظهر عواطف نبيلة وسامية (... « **لا اهمية لشيء خارج نبل العواطف ...** ») . وحتى لو ان هذه العواطف حقيقية **في الاصل ، فانها غير صحيحة هنا** . ذلك ان المريض يرغب في أن **يبدو كاملاً** ، الأمر الذي يتيح له أن يفلت من النقد .

هـل **يمكن للمحلل أن يصوّب** ما يقولـه المريض في هـذه الحالـة الواضحة ؟ **كلا ، على الاطلاق** . فاذا فعل ذلك ، « جمّد » مريضه ، الذي يعتقد عندئذ أنه على صواب ، وأن نبل عواطفه صحيح . ويتعرّض المريض إلى خطر أن يتمتّع بالراحة بعد نجاح مسعاه ... الأمر الذي يتيح له أن لا ينزل الى أعماق نفسه أكثر مما نزل .

الفصل السادس

ملاك صامت

ينبغي للمرء أن يكون على الدوام ظنيناً
في نظره الخاص .

(مريض)

إننا ندخل هنا في مجال من التحليل النفسي لا يمكن وصفه على وجه التقريب . إنها ، في الواقع ، آلاف من الخيوط الدقيقة ، وردود الفعل الممكنة ، والإحساسات . فلا يمكن القيام بأي عمل في الأعماق ، كما قلت ، دون تعاون كثيف بين عالم النفس ومريضه . وذلك غنيّ عن البيان . وبالكلام تنعقد هذه العلاقة بالتأكيد . فالمريض ، **وهو يتكلم** ، يعرّف نفسه للمحلل . والمحلل ، **وهو يتكلم** ، يضع مريضه على الدرب ، ويقوده صوب احتياز الشعور ، احتياز لولاه لما كان ممكناً أي شفاء ، ولا أي اتساع في الشخصية .

ومع ذلك ، فان **الصمت** يشكل ، هو ايضا ، جزءاً من التحليل النفسي ، الى حد بعيد جدا في غالب الأحيان . ومن المؤكد ان العمل السكيولوجي **يربط** بين المحلل ومريضه ربطاً قويا . وينبغي لهذا الاتحاد أن يتأسس في سبيل هدف مشترك : شفاء شخص من الأشخاص ، واكتشاف شخصية محجوبة ، وبعث إمكانات مطمورة .

١ ـ صمت المحلل

يعني **التحليل النفسي الدقيق** أن المريض يمكن ان يذكر كل ما يخطر في ذهنه ، بأي كيفية كانت ، وخاص بأي شيء كان ، ودون أن يأخذ بالحسبان أي شيء ، لا الأخلاق ، ولا الرأي الممكن للمحلل ، ولا ما هو « خير » وما هو « شر » .

والمحلل « يختفي » في أثناء التحليل النفسي الدقيق . ويظل حياديا وصامتا بصورة نسبية .

ولا بد أولاً من فهم أمر من الأمور . ولا يمكن للمحلل ، في أي حال وبأي أسلوب ، أن يؤثر على مريضه بأفكار أو بآراء شخصية . فلا يصوب المحلل شيئا ، ولا ينتقد شيئاً ، ولا يحكم على شيء ، ولا يعجب بشيء ، ولا يذم شيئاً . إنه خارج دائرة الأخلاق ودائرة الآراء . وقد قلت ذلك من قبل . والحال أن المريض **يحس** بكل موقف **عميق** يقفه المحلل . ولنفرض أننا بصدد محلل كاثوليكي وأن المريض ملحد . ولنفرض أيضاً أن المريض يهاجم الكاثوليكية بعنف ، وأن المحلل يقوم برد فعل داخلي ضد هذه الهجمات ، حتى ولو لم ترتعش أي عضلة من عضلات وجهه . فالعلاج يفسد . **إن المحلل يحس باستهجان المحلل إحساساً عميقاً** . ويفهم المرء إذن أن على المحلل أن يكون قادراً على أن يحول قاطمة آرائه . وذلك يشكل جزءاً لا يتجزأ من مهنته .

إذن ، **فعلى المحلل أن « يختفي »** . **وعليه أن يبقى حاضراً** ، من جهة أخرى ، بكل صفاته الانسانية وتقنياته . إنه يظل حاضراً كل ثانية بقلبه وفكره . ويصبح أخرس ، ويصبح صامتا . ويسكت . إنه يصغي . وتلك هي الفترة التي تتصف ، بالنسبة إليه ، وبخاصة إذا كان التحويل عنيفاً ، بأنها الأكثر صعوبة والأكثر تعبا . **فاذا ما رآه المرء ، ظنه سلبيا** ، إذ أنه لا يتكلم ولا يقوم برد فعل . **وهو حيادي أيضا ما أمكن أن يكون** . ويصغي الى الآراء الأكثر تبايناً ، والهجمات الأكثر فظاظة ، بالانسانية العميقة نفسها . وثمة آلاف من ضروب الكبت والعقد والحصر تنتصب أمامه .

ففي هذه « الفترة السلبية » إنما يتصف المحلل ، على وجه الدقة ، بأنه أكثر فاعلية . إنه يفصل شخصيته وآراءه الفلسفية في أعمق أعماق ذاته . ويصبح إنساناً لا آراء له . **فليس له الحق في ان يكون له آراء في أثناء جلسة من جلسات التحليل** . ويصبح إنسانا دون أفكار . **وعليه بصورة خاصة** ــ وهذا هو المثالي ــ **أن يكون قادراً على أن يكون لديه شيء يقتضيه السيطرة عليه داخليا** . إن المحلّل يصمت ، ويتهيأ للعمل بعمق ، ويستخدم لمصلحة مريضه جميع مصادر شعوره ولاشعوره . ويدع نفسه تنزلق وتسيل في لاشعور مريضه . فليس صمت المحلّل إذن « تقنية » اعتباطية ، بل هو وسيلة إنسانية بصورة عميقة ، تتيح للمريض أن يبقى وحيداً مع ذاته ، وبجانب « شاهد » من الضروري إقامة اتحاد عميق معه خلال عدة شهور .

وما تقدم يتصف بأنه عام ، ولكنه يتغيّر بحسب كل حالة ، وكل جلسة ، وكل آونة ، وقد أمكن رؤية ذلك من خلال الأمثلة المضروبة . وبوسع المحلّل أن يتدخّل . ومع ذلك فهو يمارسه دائماً على نحو **حيادي** . إنه لا ينصح أبداً ولا ينتقد أبداً ، ولو في أعمق أعماق ذاته . يضاف الى هذا أن الصمت لا يمكن ممارسته دائماً في أي فترة ، ومع أي كان . ولا يمكن للصمت أن يشكّل جزءاً من تقنية صلبة . فأين نمضي إذا انحبس علم النفس في تقنية متخثّرة بصورة نهائية ؟

والمهم مع ذلك ، وعلى وجه الخصوص ، ليس صمت المحلّل ، وإنما **موقفه الداخلي العميق** . ونقع هنا مجدّدا على ما قلته من قبل : التحليل شيء من الأشياء ، ولكن المحلّل هو المهم قبل كل شيء ، شريطة ، بالتأكيد ، أن يكون حائزا بصورة تامة على تقنية التحليل النفسي !

٢ ــ صمت المريض

لنضع أنفسنا مكان المريض . إنه وحيد مع ذاته ، والمحلّل صامت . فثمة أذن غير متحيّزة ، حيادية وإنسانية ، تصغي . ولا بد للاشعور من ان يصعد مع ممنوعاته ، ومحرماته ، وعقده ، وضروب كفه وحصره ،

وأمنه المزيّف . ومن الضروري أن تنبعث أصناف الكبت . وعلى المريض أن يصل الى التحلي بالصدق المطلق ، كيما يقوم التعاون بعمق . وسيصمت المريض ، بصورة إرادية أم لا ، في فترة معيّنة . وستخيّم ضروب من الصمت تختلف في طولها . ويمكن لهذه الضروب في بعض الأحيان أن تدوم خلال جلسة كاملة .

أولا ـ لماذا هذه الاصناف من الصمت

ثمة بالتأكيد بواعث عديدة ممكنة . والباعث الأول الذي يخطر على البال أن المريض يصمت بسبب خوفه (أو خجله) من أن يقول أشياء معيّنة . إنه يخاف أن يقول أشياء **يعتقد** انها لا يمكن الاعتراف بها . فلننظر إذن في شتى صور الصمت التي تتجلى في التحليل النفسي .

١ ـ الصمت الارادي

والمقصود ذكريات ووقائع وعواطف يرغب المريض في أن يضرب صفحاً عنها . وهذا أمر منطقي تماماً . فالمريض يفكر ببعض الأمور ، ولكنه يسكت عنها ، لا لأنه يخشى أن يعترف بها (إذا كان يعرفها) وإنما يرتاع من أن يطلق عليه المحلل حكماً غير مؤات . وهذا عبث بالتأكيد ، ولكن ذلك لا يحول دون أن يحس به المريض . إنه إذن يضرب صفحاً عن بعض الأمور . فيتلمّس ، ويوارب ، ويمزح ، ويتورّط في استطرادات ليست ذات صلة بالمشكل الرئيس . إنه يهرب . والحال انه يعلم **بصورة عقلانية** أن المحلل لا يطلق أحكاماً أخلاقية على ما يقول . ولكن ذلك ، مهما يكن من أمر ، « أقوى منه » . فقد الف المريض أن الآخرين يطلقون أحكاماً ، ويعبّرون بما يلي : « هذا خير وذاك شر » ، ويسخرون ، وينتقدون ، ويؤنّبون ، ويتعجبون ، الخ . ومن المؤكد إذن أن المريض لن يتخلّص من قلقه العميق أمام « الحكم » ببعض الجلسات . ويصرّح بعضهم مع ذلك :

ـ ثمة كتل من الامور الخاصة بطفولتي ومراهقتي أفكر فيها ، ولكنني في الحقيقة

لا أجرؤ على قولها . فهل بوسعي ، ربما ، ان افعل ذلك المرة القادمة ؟ لا أعلم ... ولكنني عاجز عن أن أقولها الآن .

كيف يكون رد فعل المحلّل ؟ إنه يصمت ، بصورة عامة . ولا يطرح أي سؤال . ولا يدفع المحلّل الى أن يتكلم ، للسبب المهم هوأنذلك قديكون سابقا لأوانه . فولادة اللاشعور ينبغي أن تتم دون جهد . ذلك أن « قسر » المريض يفضي الى ضروب من التوقّف .

ويقول بعضهم أيضاً :

ـ اذا كان علي أن أقول لك ما يخطر في ذهني الآن ، فلا أعلم ما ستظن بي ...

ـ أحس بأن ثمة حكايات تصعد ، وأنني حجبتها عن نفسي خلال سنين . ولا ازال غير قادر على أن أدركها على نحو جيد جدا ، ولكنني ان اطلقت لافكاري العنان ، فانها قد تعود بصورة سهلة الى حد ما . بيد أنني أشعر بأني لا أريدها أن تعود ... فلماذا ؟ ليس ذلك لانك هنا ، اذ انني أثق بك ثقة مطلقة ، وان السر المهني مطلق في التحليل النفسي . وأعلم أيضا أنك لا تطلق أحكاما ، وانك تصغي الي بمحبة عميقة ورغبة مخلصة جدا في مدّ يد العون لي ... ولكنني لا أستطيع .

وبناءً عليه ، فان المريض يغيّر دربه ويتّخذ اتجاهاً آخر . وهو ، من جهة أخرى ، يفعل ذلك دون أن يعلم . ولا بد ، مع ذلك ، من أن نفهم جيداً أن المريض احتجب عن نفسه وعن الآخرين زمناً طويلاً ، وعرض واجهة ، ومثّل تمثيلية ، ووضع قناعاً . وها هو مضطر الى أن يتعرى بسرعة . ويفهم المرء أن ذلك يتطلّب نضجاً تدريجيا . وينبغي الوصول الى أن ينطلق لاشعوره دون أن يظهر كثير من الحصر . ذلك ان الحصر إذا استحوذ على إنسان ، بذل هذا الانسان بالتأكيد كل مجهود لكي يتخلص منه . وهذا له تأثير في التحليل أيضاً ، بصورة شعورية أو لاشعورية .

والاسلوب الوحيد للتخلص من الحصر ، في الحالة التي نحن بصددها، أن يتكلم المريض على أمر آخر . **والمريض ، من الناحية الموضوعية آمن ،**

وربما كان يتمتع بأعظم امن في حياته : عيادة المحلّل . ولكنه لا **يشعر** بالأمن . وسيكو رد فعله إذن تابع لهذا اللاأمن .

ثمة مرضى يقولون :

ـ انك هنا لكي تصغي الي دون ان تقول شيئا . انه لامر سهل . ففي هذه الشروط ، مهنتك اتمنى أن امارسها ايضا ! انك ترصدني ، أليس كذلك ؟ حسن ، انه لامر سهل جدا في هذه الشروط : لن اقول لك شيئا على الاطلاق .

هذه الملاحظات ملاحظات طَفالية ، بمعنى أنها تعبّر عما يلي : « **انت** « **تريد** » **ان اتكلم ؟ حسن ، لن اقول شيئاً** » . يضاف الى هذا أن الحاجة إلى أن يظهر المرء مزاياه حاجة ملحة على الغالب . فثمة صمت « يعدّ » المريض في اثنائه ما سيقول إعداداً بطيئاً ، كيما يبدو بالمظهر الأكثر ملاءمة .

ـ بدأ الدهان أول امس يدهن مجددا شقتي السكنية ...

قال احد الأشخاص في يوم من الأيام خلال مرحلة القصة المرضية :

والحال أن ذلك كذب . فالدهّان لم يدهن مجدّدا شقته السكنية للسبب الأساسي انه كان قد فعل ذلك بنفسه . وقوله « شقتي السكنية » كان مبالغة ، إذ انه كان يملك ، كغيره من الناس ، شقة سكنية واحدة .

إن هذا مثال أولي . ولكنه يبيّن ان الرغبة في أن يرفع المرء شأنه يمكن أن تكون في بعض الأحيان قوية جدا . ويتعرّض المريض ، من جهة اخرى ، الى خطر التـعلق بشباكها لبعض الوقت . ويترتّب على ذلك أن المريض « يبالغ في التدقيق » بالحقيقة مضيفا إليها هذه أو تلك من الصفات التي تعزّز ما يقول ، ومدخلاً بعض الخصائص التي يحوز عليها أو لا يحوز ، ولكنها تبرز شانه . فالمريض يتصف عندئذ بأنه شبيه برسّام يضع لمسات صغيرة على لوحة تفوز باعجاب المشاهد .. وموقف المحلّل لا يتغيّر : إنه يظلّ حياديا ، ويسجّل ما يحدث في لاشعور المريض . وليس له سوى هدف واحد : الوصول الى أن يُخرج المريض من الركود .

٢ ــ معنى الصمت

يتم الاتصال الانساني بالكلام ، ولكنه يتم أيضا بما وراء الكلام . وبعض ضروب الصمت مثقلات بالمعنى ، سواء كانت مشحونة بالعدوانية والخوف والحصر أم بالمحبة والصحو . **فكل صمت يعني شيئاً من الأشياء.**

إليكم حالة رجل ذكي ، يشغل منصبا مهما . فبعد أن نثر بعض الذكريات ، في حين كان المحلل قد ظل صامتا ، قال :

ــ أتساءل عما تكتب ، مثل هذا ، دون انقطاع . الن تقول لي أن ما أقصّه عليك يتصف بالاهمية ؟ اللهم الا اذا كان من اجل ان تتكلم عليه مع محللين آخرين ؟ عليك تماما ان تمزح معي ! من السهل جدا ان لا اجيب ، اليس كذلك ؟

واستمر صمت المحلّل . ثم ظهرت مشاعر الإثمية .

ــ سأكون صادقا . لدي انطباع بأن لا اقول لك شيئا مما تنتظر مني ، وبأن اخدعك ، وبأن اضيع وقتك . لديك بالتأكيد مرضى أكثر اهمية مني !

واستمر صمت المحلّل . ثم تابع المريض :

ــ عجبا ! اتساءل ، عرضا ، عما تظن بي وبطبعي ! وينبغي بصراحة أن اعرف ذلك ، اذا لم تكن، على الاقل، باقيا غير قابل للاختراق كالحائط. عجبا ! انك تذكّرني بوالدي!..

ثمة هنا أمران : إنه مصاب بالحصر إزاء « رايي » فيه ، رأيي الذي لا يعرفه . فهو يعتقد أني أطلق عليه حكماً ، وانني أتسلى ب « اختبار » « طبعه » . إنه يقول : « **عجباً ! عرَضاً** . . . » ، الأمر الذي يبدو وقحاً . . ولكنه يتيح له أن يتخلّص من الحصر . يضاف الى هذا أن ذلك يعني : «**هيّا** » ؟ **بوسعنا ان نتحدث حديث رجل الى رجل ، مع ذلك** ! ، الأمر الذي يتيح له أن يناقش ويسوّغ ويبرهن انه مصيب : **وبالتالي ، يفلت من الريبة والحصر** .

وتابع يقول ، بعد أن ضرب أصابعه بعنف الواحدة بالأخرى خلال بضع دقائق :

ـ حتما ، انك تبقى هادىء الاعصاب . فانت قوي جدا ! بالنسبة لامي ، كان المرء يعرف على الاقل عندما كانت غاضبة . اما أنت ، فلا يرى المرء شيئًا !

ثم يحدث تغيّر مفاجىء ، وينقلب من عدواني الى طيّع :

ـ بالخيبة الامل . انني انا الغبي ... فانت تعمل لخيري حتى اصبح رجلا حقيقيا . ولا بد لذلك من ان يسبب لك تعبا مرهقا ... انا اهاجمك ، وانت لا تجيب .

وساد الصمت . ثم بدت لدى المريض محاولة للاتصال اتصالاً « شخصيا » بالمحلّل حتى يحصل على الصفح ، لكونه كان خبيثاً :

ـ هل انت من انصار اللاعنف ؟ آه ، لا تجيبني ، انني افهم ذلك جيدا جدا . ولكن لا بد للمرء من أن يكون قويا جدا حتى يكون غير عنيف .

واستمر المحلّل في صمته . ثم بدت لدى المريض نزوة ليصلح الوضع (وبالتالي ، **لكي يتخلص من الحصر مرة اخرى كذلك**) :

ـ هذا أقوى من الكاثوليك الذين يتشاجرون ، أليس كذلك ؟

ويطمح مريض يحلّل نفسيا الى أن يكون مفهوماً (والى التفاهم) حتى أوهى الياف شخصيته . **ويطمح الى الاتحاد وجدانيا بالمحلّل من اجل العمل المشترك** . ولكن لا بد أيضا ، لكي يتحقق هذا الاتحاد ، من أن يكفّ المريض عن أن يكون خائفاً . والحال اننا ندرك أن الخوف الذي جاس خلال سنين إنما لا يرفع الراية البيضاء في غضون ساعة من الزمن .

ويتبيّن ، مرة اخرى أيضا ، إلى أي حد ينبغي للمحلّل ، في بعض فترات من عمله السيكولوجي ، أن يكون حذراً وأن « يحسب » أوهى تدخّل من تدخلاته ، دون أن يكفّ عن الاستمرار في اتخاذ موقف داخلي أخوي .

ويتصف صمت المريض بأنه هروب على الأغلب . بيد أن ثمة كذلك ضروبا من الصمت الكتيم ، والمثير للحصر ، الذي يغوص فيه المريض بمقدار ما لا يلاقي أي صدى من جانب المحلّل . ويحدث عندئذ ، في الغالب ، أن تتجلّى صنوف من التفريغ المفاجىء للعدوانية والعداوة

والغضب . ويتغيّر عندئذ موقف المحلّل تبعا للحات والآونة . ويتعذّر أن نرسم قاعدة عامة . ويتدخّل المحلّل غالباً **لتحليل الحصر** الذي حلّ ، وتحليل رد الفعل العدواني أيضا .

ثانيا ـ بعض أصناف الصمت المبارك

يمكن للمرء أن يكون صامتاً لأنه سعيد . فليس ثمة من حاجة أبداً إلى الكلام ليظهر فرحه وسلامه وأمنه . وقد يبدو الصحو الداخلي بكل اتساعه إذا كان المريض في سلام . وهكذا ، فثمة جلسات كاملة على وجه التقريب يعيشها المريض على هذا النحو في جو يسوده الصمت . وليس المريض متشنّجاً ، ولا مصاباً بالحصر . ويمكن القول إنه « ينساب » في الصمت .

وينبغي للوضع مع ذلك أن لا يطول أمده . والسبب أن ثمة هدوءاً يسيطر على المريض . ولكنه يجب أن لا يستمر في الإحساس بأن عيادة المحلّل شبيهة بـ « مرفأ السلام » . ومن المحتمل أن يستقرّ في هذا الوضع ولم يعد يخرج منه . وأعني أن المريض لن يكون لديه باعث الى الخروج منه وقد شعر بأنه على ما يرام ، وشعر بأنه أصبح مجدّداً « وكأنه طفل في حضن أمه » .

ها هما أيضا مستخلصان من بعض الجلسات . يمكن لكل شخص أن يجد نفسه فيهما ، لأن كل فرد يتعلق بأصناف من الأمن خلال الحياة . ولكن العصاب مركب من ضروب الأمن المزيّف (انظر فصل « الانسان المصاب بالعصاب ») وعندئذ يرتضي الانسان لنفسه عكازين ، ويسير سيراً مقبولاً . ثم ها هو ضرب من التحرر الداخلي يشرع في الحدوث . ويبدأ المريض مجدّداً في السير . ولكنه يتبيّن أنه يتقدم دون هذين العكازين اللذين استخدمهما فترة طويلة من الزمن . فيلقي نظرة الى الوراء . ويرى عكازيه يبتعدان . وتتصف عندئذ غواية استرجاعهما بأنها قوية . فلديه نزعة إلى استعادة ضروب أمنه القديمة . إنه يخرج من السجن ولكنه يرغب

في ان يتمسك بقضبانه ، كما كان يقول احد المرضى فيما سبق ، أو أنه **يخشى ان يتخلص من الخوف** ، كما تقول ماري في المثل التالي :

تقول ماري ...

ـ انني منذ اسبوع في حالة من ... الفرح ، والحزن ، والفرح ، والخوف ، وعدم الخوف ، والحصر ، والغبطة ، والقوى المفاجئة ، وضروب الضعف التي تعود ... اي خليط ! رغبت بالأمس في ان اترك التحليل ، في حين انني احسن حالا بكثير ! فلماذا ؟ « ان حقيقتي ترعبني ... فهي اروع من قبل بالف مرة ، ولكن ، ماذا علي أن اهمل من الاوهام حول ذاتي ! ... » انني لا امضي صوب ضرب من التغير ، بل صوب « تحول فجائي ! » وهذا ما يتصف بانه عجيب : « فكلما بدا الوضوح ، رغبتُ في العودة الى كهفي واخفاء عينيّ ! » وذلك شبيه بولادة جديدة ، كما لو اني ما عشت أبدا ... زمن طويل مبدد ، ضائع ، ميت ... وذلك ما يثير حصري ،لانني ادرك انني ما عشت ابدا ... لقد انقضت سنوات وانا خائفة .. وها انا لست خائفة ابدا ! انه لامر سخيف ... « ولكن ذلك يرعبني لانني لم اعد خائفة ... » ويرعبني لانني اصبح راشدة ! فانا كسجين ينطلق في الشارع فجاة ، راد الضحى وبين الناس ... او كمتسول يقدم اليه مئات الملايين التي ينبغي عليه ان يديرها وهو مسؤول عنها ... فهل الامر في التحليل على هذا النحو دائما ؟

ـ غالباً ...

ـ حسن ! ثمة سجناء من الناس على سطح الارض !

وهكذا فان التحليل يسحب المزلاج . فالمعتقل يحتاز الشعور بسجنه . والتحليل يهدّم الجدران . ولا بد من التخلي عن هذا الوهم ، وهم الاعتقاد بأن الانسان حر ، في حين أنه كان سجين عقده وضروب حصره وآلياته الأمنية ...

ويقول جان بول ...

ـ أمر طريف ... كل شيء يتهاوى ببطء ، مثل هذا ... حالي جيدة ، واشعر انني على ما يرام ، وانني ازداد قوة ... واقول انني كنت مشتتا جدا ! ... فانا شبيه بموقع محصّن تلقّى القنابل . ولم اكن اعلم في البداية الى اي جزء منه التجيء . وكنت احس بأن حصني الصغير ينهار ، وقد احتجبت دائما في هذا الحصين ! « وكنت ارغب في

أن أعيد بناءه بكل سرعة لاحتجب به ، وفي أن اضاعف سماكة الجدران ، وفي أن أمنعك من دخوله » ... وكنت أقول لنفسي : « ماذا سأصبح اذا زال حصني الصغير ؟ » . ومع ذلك ، تزوجت خلال شهر ، ووجدت وضعا مستقرا ، وأنا مفعم بالطاقة . ومتى أدرك من أين أتيت ، من أي أوهام حول ذاتي وحول الآخرين ، من أي المخاوف ... ! كنت أتعامل مع جنود من الرصاص ، وكنت اضخّمهم جاعلا منهم مسوخا مرعبين ... انه لامر غريب مع ذلك أن يكون بامكان الانسان أن يطمر رأسه في الرمال حتى يفلت من ذاته ...

ثالثا : تدخلات المحلل

متى يباشر المحلّل في « التفسير » ، أي في شرح ما يحدث في أعماق شخصية المريض ؟ ومتى يبدأ في شرح خفايا العصاب والأسباب العميقة لهذا العصاب ؟

فلنتذكّر أمرين أساسيين . أولاً ، إن أي شخص يباشر تحليلا نفسيا يرغب ، من الناحية الشعورية ، في الشفاء ، وهذا أمر غنيّ عن البيان ، ما دام يتألم . ولكنه على الغالب ، ثانيا ، **يرفض بصور لاشعورية** هذا الشفاء . **ويقاوم** أمام هذا الشفاء . فثمة ضروب من « التوقّف » عندما تصعد بعض المواد المهمة من اللاشعور .

وبناءً عليه ، ثمة ، من جهة ، رغبة شعورية في الشفاء ، ورفض لاشعوري للشفاء من جهة أخرى .

وهذا أمر يسهل فهمه ، ما دام الشخص ، كما قيل فيما سبق ، يرغب في أن يستأصل الأعراض التي تؤلمه (فكرة ثابتة ، خجلاً ، رهابا ، الخ) . ولكن ذلك لا يعني أنه يرغب ، لبعض الوقت ، في أن يتخلّى عن البنيات المميّزة للطبع التي استخدمها وسائل **دفاع** خلال سنين عديدة . فشخصيته المزيّفة قامت مقام المظلة بالنسبة إليه . وهذه المظلة تربكه . فهو يحملها في أي مكان . إنه يأخذها حتى ولو أن الجو رائع ، لأن السماء يمكن أن تمطر في رأيه . وهو يحملها في الشارع والصالونات والمكاتب . ويحس بأن مظلته لا تتلاءم مع الواقع العميق . ومع ذلك يتمسك بها .

ولنعد إذن الى السؤال : **متى يبدأ المحلّل في التفسير** والشرح ، تفسيراً وشرحاً في الأعماق ؟ **متى يبدأ المحلّل في دفع مريضه نحو** ضروب من« احتياز الشعور » ذات اهمية ؟ (انظر فصل احتياز الشعور) .

إنكم ترون أن المحلّل يفعل ذلك منذ البداية لو كان بامكانه . وعندئذ، يدوم العلاج التحليلي أسبوعين أو ثلاثة ، وسيكون كل عصاب مستأصلاً. ولكن الأمر على خلاف ذلك من الناحية العملية . والسبب في ذلك ، أولاً ، أن المحلّل عاجز عن معرفة الأعماق القصوى لمريضه في غضون أسبوعين أو ثلاثة . والسبب ، ثانياً ، أن التشخيص العميق لن يفهمه المريض ، ولن يحتمله بصورة شعورية .

هاكم ما كان يقوله احد المرضى :

ـ أدرك الآن للمرة الاولى على سبيل الحصر أن قول كلمة ، بالنسبة لك أيها المحلل ، ينبغي أن يكون مرعبا . فلو انك أعطيتني ، قبل بعض الزمن ، هذا أو ذاك من الشروح التي أفهمها الآن ، لامسكت بها ومضغتها وهضمتها هضما سيئا ، ولفهمتها فهما خاطئا ، ولكنت ارتصد ، ولكنت أكثر مرضا مما كنت عليه من قبل بألف مرة . واذا كان قول كلمة واحدة ينبغي ، بالنسبة اليك ، أن يكون مرعبا ، فقول جملة ينبغي أن يكون كذلك أكثر رعبا . ولا بد لك من أن تقدر الجرعة ، ولا بد لك من أن تسير سيرا هادئا . واني لاتساءل عن النتائج التي يمكن ان تحصل لو ان « مبضعك » انزلق ، ولو انك ارتكبت اقل خطأ ؛ اذن لامكنك أن تمس شيئا يقاوم،ويتوقف أكثر أيضا،لانه يقاوم. ولا بد من أن يكون قول كلمة واحدة، بالنسبة اليك ، كعود ثقاب يضع النار في بناء برمته . ولكنني مع ذلك ، كم أصابني من الغيظ ، وكم حقدت عليك ! وكنت أشعر انك كنت تظل في صمت جليل ، في حين انك كنت تمارس مهنتك ببساطة وعلى افضل ما يمكن . « انني ادرك الآن أن قطاف التفاح لا يتم في فصل الشتاء » .

ويقول مريض آخر :

ـ لو أنك قلت لي في بداية تحليلي : « قصّ عليّ احلامك » لوقعت مريضا حسبما أعتقد ؛ ولاصبت بالجنون ، ولشعرت بالاثم لانني لم أكن أحلم ، أو كان لديّ انطباع بأنني

لا أرى أحلاما ؛ ولشعرت بأنني غير سوي لانني لا أحلم ؛ ولشعرت وكأنني متهم أمامك كلما اتيت الى جلسة دون أن آتيك بحلم . بل اعتقد بأنني كنت ساختلق حلما حتى لا اخيب املك ، في حين أن كل شيء يخطر الآن دون اكراه ...

وأظن أننا ينبغي أن نشير في هذين التأملين الى جملة رئيسة : **لا يقطف التفاح في الشتاء** . فقطافه يتم عندما يكون ناضجاً . وعلى هذا النحو ، لا نتلف التفاح ولا الشجرة . ويلجأ الشخص الى التحليل ليفحص حياته العميقة ويبحث فيها ويصحّحها . فالتحليل « يبلور » الحياة اليومية . وقطاف التفاح لا يتم في فصل الشتاء . وهذا يعني أن المحلّل **لا يمكنه ان يقول اي شيء ، ولاي شخص ، وفي اي زمن** . وبعبارة أخرى ، لا يمكنه أن يقدّم تفسيراً بمنتهى السرعة ، ولا أن يدفع التحليل دفعاً بمنتهى العجلة . فالانسان يتكلم مع الآخر باللغة التي يفهمها هذا الآخر . والمحلّل يسبق مريضه الى المتاهة . فعلى المحلّل أن يتأكد من أن المريض يملك الحبل والسلّم اللذين يتيحان له أن يعبر الهوة إذا انفتحت ، بدلاً من أن يظلّ على حافتها متخثّراً بفعل الحصر ، أو أن يهرب بكل سرعته صوب الملاجىء القديمة .

إن ضرباً من « احتياز الشعور » ينبغي أن يكون مآلاً لنضج الشخصية نضجاً بطيئاً . ولنفرض أن محلّلاً يعطي قبل الأوان شرحاً في العمق . ولنفرض أن « رفيقه في الطريق » يفهمه فهماً **عقلانيا** . فما فائدة ذلك ؟ لا شيء . فلاينبغي لـ « احتياز الشعور » أن يتم التقاطه عقلانيا ، بل **وجدانيا** . ولا بد من أن **يعيشه** المريض **ويحسّ** به في حياته اليومية . ولنفرض أن المحلّل تصرّف قبل الأوان . فاذا مسّ كبتاً ذا اهمية ، فلن يستطيع الشخص بالتأكيد أن يحتمل هذا التفسير دون أن يصاب بحصر كبير . وسيولّد هذا الحصر مقاومة . وهذه المقاومة ستعزّز الكبت .

والخلاصة :

– سيمسّ الشرح الذي يعطى قبل الأوان ضروباً من الكبت المؤلم جدا . وسيولّد هذا التفسير إذن حصراً يصعب احتماله .

– وسيظهر هذا الحصر بدوره مقاومة وتوقفاً .

– فلا يمكن إذن تفسير شيء تفسيراً في العمق قبل أن تسقط بعض المقاومات ذات الأهمية (انظر فصل « صوب منبع النهر ») .

ويحدث غالباً أن يقول المرضى :

– أتساءل متى ستقول لي شيئا ، وما « ستكشف » لي ؟ يمكنك أن تباشر ذلك ، انت تعلم ! انني على استعداد لتقبل كل شيء يصدر عنك ، ما دمت هنا !

هل هذا صحيح ؟ هل هو خطأ ؟ المريض يقول الحقيقة ، من الناحية الشعورية ومن الناحية العقلانية . **ولكن لاشعوره يحكم بالعكس** . فالشخص المصاب بالعصاب شبيه ، كما قلت ، بشخص فوق الهوة متعلق بكلاّب . إنك تتصور إذن ، على نحو تام ، أن المريض ، **لو شاء المحلل أن يرفع الكلاّب دون أن « يضمنه »** ، سيتمسك مباشرة بكلاّب آخر أو يغرز الكلاب الأول أكثر . وهذا أمر واضح .

– لو قلت لي ، قبل ثلاثة أشهر ، ان الحياة مع والدي هي التي سلبتني رجولتي ، لقبلت ذلك فيما اعتقد . « وسبب قبولي ان ذلك كان يضع مسؤولية كل شيء على والدي ، ولا يضع مسؤولية اي شيء علي » . ولو قلت لي (الامر الذي أفهمه الآن) ان جميع صلاتي مع الغير كانت مرتكزة على الخوف ، لقبلته أيضا فيما أعتقد . ولكنك لو قلت لي اني لم اكن أطلب من النساء غير شيء واحد ، هو حجرهن وحمايتهن ، وان كل دماثتي كان يمنعها خوف شديد ، لقفزت على وجهك « لان ذلك كان سيضع سلوكي برمته موضع الاتهام » . وهو أمر صحيح مع ذلك . ولكنني الآن أكثر قوة بكثير . فانا لا أقبل ذلك فحسب ، ولكني أضطلع بهذا الاحتياز ، احتياز الشعور ، الذي منحني كسبا جديدا هائلا من الطاقة .

هذا المريض على صواب . إن « أناه » لم تكن مسلّحة بصورة كافية قبل ثلاثة أشهر . فالطاقات المتوقفة في اللاشعور تحرّرت خلال التحليل، بفعل استئصال المقاومات وضروب الكبت استئصالاً تدريجيا ، وعزّزت « أناه » . وترتب على ذلك أن هذه « الأنا » الصغيرة التي كانت له في البدء ، هذه الأنا المصابة بالضعف ، أصبحت راشدة بالتدريج وقادرة على أن تدرك الطفالات وتقبلها وتصحّحها .

ولنفرض ايضا ان احد المحللين قال قبل الأوان ولو ما يلي على سبيل الحصر (ويعلم الله إن كان هذا لا يتصف بشدة الخطر !) :

ـ كياستك الكبيرة مزيفة . إنها كياسة طفل خائف . فأنت تبالغ في الكياسة لأنك تخاف الدخول في منافسة مع أحد الناس . إنك لا تحتمل المنافسة ، وتخاف ان تغلب ، وتخاف أن تنبذ ، وتشعر أنك ضعيف ومذعور كطفل . وكياستك مزيفة . وهي تخفي ، في الواقع ، عدوانية هائلة . ولكنك تخاف ان تكون عدوانياً لأنك تخشى الخصاء. إنك مازوخي.

إن شرحا من هذا النوع يعطى قبل الأوان سيكون شديد الخطر الى الحد الأقصى . وإذا فرضنا أن المحلل لا يعطي غير الجزء الأول من الشرح السابق ، فان المريض سيقفز على كلمة « عدوانية » . . . **وسيكون راضيا من ذلك .**

فما السبب ؟ إنه يشعر في اعماق ذاته بأنه **ضعيف** . وبناء عليه ، فأن **يكون عدوانيا يعني ، بالنسبة إليه ، ان يكون قويا** . والواقع انه سيعتقد في نفسه انه موضع تهنئة . وسيقول فينفسه : « **نعما حدث ! إنني عدواني، في حين انني كنت اعتقد بوجود الضعف في نفسي** » . وعندئذ ، سيمثل المريض دور العدواني ويعتقد بأنه آمن . . . وسيطرأ على العلاج زمن من التوقف .

ولو أن تفسيراً اكثر عمقا كان قد أعطي بصورة سريعة جدا ، لدخل المريض في فترة من الحصر . فتأملوا ! لقد عاش طوال سنين بصورة **مغالية** في الكياسة ، **مغالية** في اللطف ، **مغالية** في التهذيب . واشتهر في كل مكان بأنه رجل كيس الى الحد الأقصى . ومعظم نجاحاته مرتكزة على الكياسة . والحال أن هذه الكياسة مزيفة . إنها كياسة طفل يقول : « نعم بابا ، حسن يا بابا ، نعم ماما ، حسن يا ماما » . وذلك ليجعل من نفسه مقبولا ومحبوباً ، ولكي يتجنب الاحساس بأنه « منبوذ » . **إن بنية طبعه العميق ذاتها هي الموضوعة إذن موضع التساؤل** . والحال أن المريض يتألم ، وكياسته تحميه . ومع ذلك ، إنه باستمرار يعيش في ظل

التوتر ، ويشعر بأنه مهدّد ، وهو خائف ومصاب بالحصر . **ولكنه اتى يبحث عن المحلل من اجل اعراض ليست ذات صلة بهذه الكياسة المزيّفة !** و« أناه » لا زالت اضعف من ان **تضطلع** بضرب ذي اهمية من احتياز الشعور .

ونرى كذلك إذن أن جميع تدخّلات المحلّل ينبغي أن تتم تبعا لتطور مريضه العميق . فلنكرّر القول إذن إننا لا نقطف التفاح في الشتاء ، سواء في علم النفس أم في الحياة الجارية . وذلك من جهة أخرى غير ذي صلة بذكاء المريض . وهو منوط ، ببساطة ، بالنضج التدريجي للدمامل اللاشعورية . ومن الواضح أن على المرء ، إذا تألم من داحس ، أن يجعله ينضج ، لا أن يضرب فوقه . وكما يقول ناخت : **« يحتمل أن لا يصل المرء ابداً ، إذا اراد ان يصل بسرعة فائقة »** .

فيما يلي **مثال لجزء من تحليل احد الاشخاص**

ها هو الآن « تقرير » كتبه آنئذ شخص يتم تحليله نفسيا (وهو كاهن ذكي ونشيط ، كانت له شخصية قوية ولكنها مكبوتة) ، تقرير يبيّن ، بصورة تامة وعلى نحو إنساني بعمق ، سير جزء من التحليل النفسي .

ـ كنت في بحث عن ذاتي لانني كنت اتألم . فالصعوبة الكبرى تكمن ، بداية التحليل ، في تثبيت الافكار . انها تظهر ، وتخطر وتزول . ويصعب جدا ، في بعض الاحيان ، ان يلتقطها الانسان . فهي لزجة كالانقليس(*) . وتفلت منا ، وينقطع الخيط . ولا بد من الانتظار . وعندئذ تبدو في بعض الاحيان بعد زمن ، بعد زمن طويل . ولكنها تُصاب بالتحول ، لان شيئا ما تقصّف في المقاومة الداخلية . واعتقدت خلال زمن طويل أن الذكاء والعقل هما السيدان ، وأن العقل هو الذي يحكم سلوكاتنا وأعمالنا . ولكنني افهم الآن ان الامر على خلاف ذلك . لقد سبق للقديس بولس انه كان يقول : « الخير الذي كنت اريد أن أفعل ، لا أفعله ، والشر الذي كنت اريد أن اتجنّب ، أفعله » . كل ذلك سقته حتى أصل الى نتيجة أساسية مفادها أن من الضروري ، لكي يصنع الانسان ملاحظة صحيحة حول سلوكاتنا ،

(*) نوع من السمك الطويل الذي يعيش في مجاري المياه « م » .

أن يعرف الاداة التي تُستخدم ، معرفة جيدة . فأنا أفهم ذلك الآن فقط . فلا بد اذن من أن نتعلم كيف نحن مصنوعون « من الداخل » ، وأن نتحقق باستمرار من أن أنانا سليمة وتطابق شخصيتنا الواقعية ، ومن أنها ليست محض اختلاق لتحمينا من المخاوف وضروب الحصر الداخلية . وتلك كانت حالي وحال ملايين الاشخاص . انني عشت زمنا طويلا في الظلام ، والآن بدات أرى بوضوح . وكنت أحس ، قبل أن أقرر مباشرة التحليل ، بأن أي شيء لم يكن على ما يرام ، وأن أسلوبي في التخلص من مأزق كان في الحقيقة هربا بمهارة ، ولكنني كنت أريد أن أخفي ذلك عن نفسي . وكنت دائما أعاني التهيّب والحصر ومشاعر الدونية والخوف . وكنت أعتقد أنني خجول ، وذلك كان ذا أهمية كبرى . وكنت أخجل من ذاتي ، ولا أنتظر شيئا من الحياة أبدا . وكنت أشعر أحيانا ببعض حركات التمرد ، وبعض حركات الكره لذاتي ، ولكنني كنت أشعر بأنني هرم جدا في حين أنني لم أكن قد بلغت من العمر غير الخامسة والثلاثين ! وما فتئت عصبيتي تزداد ، وانفعاليتي كانت كبيرة. وكانت تبكيني أوهى موسيقى تتصف بقليل من الرومانسية . وبما أنني لم أعد أدرك بصورة واقعية ما كنت عليه ولا من كنت ، وبما أنني كنت في خوف دائم ، واصطدم دائما بعقبات لم أكن أراها لانها كانت في داخلي ، فقد قررت أن أباشر تحليلا نفسيا . وبعد قليل من الزمن ، ادركت الى أي حد يمكن تمثيل الحياة النفسية بهرم شرفته العليا صغيرة جدا وتمثّل الشعور ، وجميع ما يبقى ، حتى القاعدة ، هو اللاشعور . وكان ولا بد من النزول في هذا اللاشعور ، وكنت خائفا . ولا بد من حفر هذا اللاشعور لابلغ نموي المنسجم ، ولاجد شخصيتي الحقيقية . وكان الامر ، في البداية عسيرا جدا . ذلك أن ما بدا لي هو أن ليس ثمة منفذ اليه . فكان ولا بد ، باديء ذي بدء ، من ايجاد باب ، ولكن هذا الباب كان مطيّنا وجيد التمويه ، وأدرك الآن انني موّهته بالرغم مني . وما أن تمت هذه الكشوف حتى بدات السيرورة . وتم النزول بعض الدرجات وبلوغ رواقات ومتاهات لا يحصى عددها ، وأماكن ليس لها مخرج ، وزنزانات أيضا . وكان لا بد من التقدم بحذر ومن عدم الانخداع. ووجدت نفسي أخيرا في صالة كبيرة تحت أرضية كانت ضربا من مدفن في قبو كنيسة ، ضربا من القبو الصغير . ووجدت فيها تصورات عتيقة وأفكارا يعود تاريخها الى عهد فتوتي ، وذكريات منسية ومكبوتة منذ زمن طويل . وكل ذلك كان يصعد ببطء شديد الى سطح الشعور . وصادفت مفاجآت سارة وغير سارة ، وسلكت دهليزا بعد دهليز تحت قيادة المحلل . وتعرفت ، بعد زمن معين ، على أماكن كنت قد مررت فيها من قبل ، وعلى ضروب من التشابه مع أمور كنت أتذكرها بصورة غامضة . وتكوّن في ذهني ، شيئا فشيئا ، مخطط

امين على وجه التقريب ، مخطط كان قد اصبح أمينا بمقدار ما كنت أعمل عليه زمنا طويلا . واعلم قبل التحليل ان احدا لو تكلم الي على هذا الهرم لقلت : « ولكنني أعرفه جيدا هذا الهرم ، لقد زرته كله ، انني أعرفه أنا ! » والحال أن ما كنت أجهله وجود باب مطيّن ولم يكن لدي أي فكرة عن الموجود تحته . والمذهل أن يرى المرء أن الذين لا يعرفون شيئا هم الذين يصيحون بصورة أقوى أنهم يعرفون كل شيء ، في حين أن الذين تتصف معرفتهم بأنها واسعة جدا هم أكثر تواضعا بكثير ، وأكثر تحفظا في احكامهم . فالعالم يعبّر عن نفسه تعبيراً متحفظا ، والنبرة الغالية للصبي الذي يخرج من المدرسة . وقد كنت صبيا . وكان علي اذن ان انزل في دهليزي الضيق ، ولكنني ادركت انه كان متعذرا علي أن أفعل أنا وحدي ، وكان لا بد من عونومن دليل ، عون من أحد ألف هذا النوع من الجولة تحت الارضية . وعلى هذا النحو ، قمت بزيارتي الاولى الى المحلل لابدأ تحليلا في الاعماق . وفكرة الدليل الذي يقودني في كهوف حصن قديم (حصني) كانت بصورة طبيعية جذابة جدا ، ولكنها غير صحيحة . والحال أن دليل قصر من القصور يعرف مجاله عن ظهر قلب، فقد سلكه كثيرا ! والامر هنا مختلف كل الاختلاف. فالمحللهو مكتشف السراديب الـذي يتصف بالمهارة والمعارف المطلوبة ليحاول هذه المغامرة الكبيرة ، ولكنه لا يمكن له أن يجازف، لان حياة زبونه بين يديه . فلا بد له اذن من ان يباشر الاتصال معه اول الامر ، أي أن يرى مع اي نوع من الناس تكون صلته ، الخ . ورويت أول الامر قصة حياتي في خطوطها العامة، والذكريات المتصلة بكل حقبة منها ، الذكريات الشعورية ، والبواعث التي كانت تبدو آئنذ ، دوافع أعمالي ، والتي تغيرت تغيرا كبيرا منذ ذلك الزمن . وجعلني الدليل أنزل في كل وجدانيتي اللاشعورية التي تخيلتها على صورة هرم من الاهرام . وذلك كان لا بد مـن تحريكه ونبشه ، بدءا من القمة ، بهدف بلوغ الكتلة والجذور العميقة أخيرا . وكانـت الصعوبة تكمن في أن اترك نفسي على عفويتها . ولكنني ادركت أن ذلك لم يكن غير مرحلة بدئية . وكنت ، في البدء ، ميالا على الدوام الى المحاكمة ، وتركيز انتباهي وذكائي على نقطة ثابتة ، وعلى نقطة محددة ، وعلى محاكمة ومناقشة . وذلك على وجه الضبط ما كان ينبغي أن لا أفعله . والحقيقة انه كان علي أن اترك نفسي تسيل في الماء . وكانت كل الرقابات التي ولّدتها تربيتي وآرائي السابقة تحاول أن تمنع تجلي هذا النزول . فكان لا بد اذن مـن أن أحاول منع هذه الرقابات من أن تتدخل . وقول ذلك أسرع من فعله . فما تحت الشعور ينبغي أن يمر بالجمارك .وهذا صعب على الغالب (انظر فصل « عندما الشيطان يقـود الرقص ») انه شبيه بضيق يحس به المرء وهو ينظر الى نفسه في المرآة . فيرى صـورة

مشوّهة . والمرء يرغب دائما في ان يظهر مزاياه ، اليس هذا صحيحا ؟ وهذا ما كنت أريد ان افعله ، بالرغم مني ، امام المحلل . ومع ذلك كنت اعلم بصورة عقلانية ان المحلل كان يحبني ويقدرني بعمق وعلى نحو انساني ، ويبذل كل مجهود ليساعدني دون ان يتدخل ابدا اي حكم حول اي شيء كان . وكنت اظن ، كما قلت ، أن الذكاء يسود جميع الملكات الاخرى . وادرك الآن أن الفكر والافكار تتبع العواطف وتتلاءم معها ، وتتبع الانفعالات العميقة التي تتصف في بعض الاحيان بأنها اندفاعات تصعد من اللاشعور على اثـر سبب خارجي . وكان تحليلي يستمر . ورايت في يوم من الايام حلما عنيفا بعض العنف حملته الى المحلل ، وقال لي ان الشخصيات المختلفة ، التي كانت تتحرك في حلمي ، تمثّل عـدة مظاهر لشخصيتي . واستمر عملي في الاعماق ، ولم يكن ذلك يسيرا . وحدثت لدي تقلصات وضروب من التمرد والغضب ، لم تهدأ ايضا حتى ولادة ذاتي . ويبدو كل هذا مضلّلا الى حد كبير ، وفي بداية التحليل على وجه الخصوص ، لان ثمة افتراءات يبدو فيها المشغل مقفرا . ولدى المرء انطباع بأنه صياد على سطح بحيرة ينتظر سمكة ضخمة ، وتثور اعصابه، ويفقد صبره وشجاعته ... الى أن تحين البرهة التي يدرك فيها أن السمكة تصعد الى السطح ، خلال الآونة التي يتوقّع فيها الاقل . ووقع عليّ التشخيص الاول الذي كوّنه المحلل ــ وادرك الآن انه كان هينا ــ وكأنه حمام بارد . فقد قال لي بهدوء ان خجلي لم يكن غير عرض من الاعراض . وكنت اشعر بأنني لا أريد أن أستسلم . وقال المحلل أيضا ان ثمة، في الاساس ، حصرا ساد تطورك برمته ، وأثار ضروبا من سلوك الامن . وما هضمت الصدمة الاولى . وكان لا بد من أن تنصرم عدة أيام حتى ينساب بهدوء ما قاله في نفسي . ومع ذلك ، كنت اشعر دائما انني جبان في الحياة . فيقول لي المحلل : « ليس هذا بفعل الجبن أو فقدان الشجاعة ، فالشجاعة صفة من صفات الحصر في الغالب » . وليفهم من يستطيع! كل ذلك شوّشني . فهل كان المحلل يقول هذا ليهدّئ من روعي وليشجعني ؟ لا ، ادركت ذلك فيما بعد ، وكل الامور أصبحت جلية جدا مع الزمن . وكنت اتمسك ، مع ذلك ، بخجلي ، واستمر في التمسك به . والسبب أنني وجدت هذا الوضع يلائمني أكثر من الحصر . وبمقدار ما كنت اتقدم في التحليل ، كان ثمة صورة تفرض نفسها علي : صورة سد مائي كان لا بد من تصديعه وتفجيره تدريجيا لكي ينتشر الماء المضغوط وراءه في السهل. كم الدليل ضروري ! وسيكون طويلا جدا ومملا أن اتوسع طولا وعرضا في كل جلسة من جلسات التحليل . وكنت اقول لنفسي على الغالب : حسبي . الم تحن الساعة بعد ؟ وكنت اتعلق بآلياتي ، آليات الامن . وكنت اعلم انني بحاجة اليها . ومع ذلك ، يعلم

الله كم تألمت بسببها ! ولما لم أعد استطيع شيئا في النهاية ، قلت للمحلل عنها . فقد كنت أدرك أن علي شفاء تشوهاتي وبلوغ شخصيتي الحقيقية التي كنت أحس بها تتبجس ، والتي كنت أرفضها في أعماق ذاتي . كان لا بد لي من أصبح مستقلا ، وكنت أرفض أن أكون مستقلا . وكنت متعلقا على نحو لاشعوري بطفولتي ،ووالدتي ،وحاجاتي للحماية ، وحاجاتي للخضوع . وكنت أحس بضروب من التوقف ، وكنت احس بأنني اريد أن أزيلها . وكان حصري يصعد ، وعلي أنأولد مجددا ،وأن أصبح راشدا مجددا ، وكنت أحس بحصر الطفل الصغير أمام الحياة . ولم يكن يُقدَّم أي عون خارجي لي ، سوى هذا العون الذي أركّزه على المحلل الذي أصبح بالنسبة لي ساحرا ، وملجأي الوحيد للتخلص من الالم . وكنت أحس اكثر فأكثر (وحتى ذلك الحين ، عرفته نظريا) بأن المحلل لم يكن له دور القاضي، وبأن المسألة بالنسبة اليه ليست مسألة أن يقول « هذا حسن » أو « هذا سيء » . فهدفه علاجي على نحو صرف ومحض انساني . ان عليه أن يقوّم الانحرافات النفسية ، وأن يعيد توازن الشخصية . وسرطان الرئة الذي يصيب الكاثوليكي يشبه ، على كل حال ، سرطان الرئة الذي يصيب الشيوعي شبها غريبا ! ومع ذلك ، فان الطاقة كانت تزداد لديّ تدريجيا كلما ارتفع الحصار عن بعض الامور . وكنت استشعر في نفسي حاجة الى الفاعلية التي اختفت منذ زمن طويل . وكنت قد اكتشفت لذة كبيرة في أن أبذل نشاطا مع علمي بأن ثمة شرطا : أن يزول ، أول الامر ، هذا الحصر وهذه المشاعر ، مشاعر الاثمية . وافضيت في يوم من الايام بحصري الى المحلل الذي أجابني بصورة هادئة جدا،ولكن على نحو صريح كل الصراحة: « اذا عملنا في القبو ، فلا بد من أن تتوقع الاحساس باهتزازات في الطابق الاول » . كان ذلك واضحا،ودقيقا،ولم يكن ثمة حاجة الى شروح لا طائل فيها.وقد أنار ذلك الوضع كله.

ثم دخلت في الطور الذي يتصف بأنه اكثر أطوار علاج التحليل النفسي ألما . انه شيء لا يسع المرء أن يتخيله ، ولا أن يرويه الا بصعوبة : فهو لا يمكن التعبير عنه . وكنت حقا في وضع كلب بافلوف ، ممزقا بين نزعات متناقضة . والحاجة الى المحبة ، واليقين انني غير محبوب في الوقت نفسه ، كانا احدى خصائص حالتي . فقد كانت تستحوذ عليّ رغبة شديدة في أن يقبلني الآخرون . ولو أن المحلل رفع الحجاب عن نفسي لنفسي بصورة فجّة في بداية التحليل ، لكان من المحتمل أن أكتم أنفاسه.ووجدت نفسي في هذه المرحلة من التحليل ممزقا اذن بين حاجتين متناقضتين : الحاجة الى أن يقبلني الآخرون ، من جهة ، والحاجة الى استقلال مطلق وصلف ، من جهة أخرى . فالذل والصلف والدونية والفوقية كانت تختلط في ذاتي . وكانت بي حاجة الى أن أكون كاملا ، فاستحق اعتبار الآخرين ، الذي

كنت بحاجة اليه قبل كل شيء . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، كانت بي حاجة أيضا الى النقص ، لكي اوحي بالشفقة واحول دون أن ينبذني الآخرون ويحقدوا علي . ودفعني المحلل صوب كل ذلك بلمسات صغيرة ، دون أن يتفوه ، على الاطلاق ، بكلمة واضحة جدا تسبب لي الالم . فمن ناحية ، كنت مذعورا من أن أكون ضعيفا ، ومذعورا من أن أكون قويا ، من ناحية ثانية ، لانه كان لا بد لي من أن أصارع . وكنت مذعورا من أن أكون ضعيفا امام الصعوبة ، ولكنني كنت أرغب في أن أكون قويا في الوقت ذاته . وعصف كل ذلك في نفسي ليل نهار ، خلال مرحلة كاملة من مراحل التحليل . وكنت اشعر انني موجود فوق هاوية . ولكن ما يتصف بأنه الاقوى هو الحاجة الى الاستقلال المطلق الذي كان يستوطن في نفسي ، كما كانت تستوطن في الوقت ذاته حاجة الى التبعية التي تجنبني أن اتولى مسؤولياتي ، مسؤوليات الراشد . وأدركت في الوقت ذاته شيئا آخر : أن ديري كان يمثّل بالنسبة لي « أمنا الكنيسة المقدسة » ، اي انه يمثل ، حاصل الكلام ، حضن أمي . فقد كنت فيها على ما يرام ، وفي دفء ، وكان سكني مؤمنا فيها . وكان ذلك فشلي . ومن جهة اخرى ، كنت بحاجة الى أن أخرج منها ، وأن أبقى كاهنا ، على أن أعظ ، أو أن أدير مؤسسة دينية ، أو أن أدير معهدا تعليميا . فكنت أرغب ، من ناحية ، أن أظل في حضن « أمنا الكنيسة المقدسة » لكي أكون محميّا ؛ وكانت بي حاجة الى أن أكون حرا من جهة اخرى ...

رابعا ـ المفارقة النهائية

يفهم المرء إذن أن الشفاء يمثّل « خطراً » . ولنعقد ضرباً من الموازنة. عندما يولد الطفل ، يكون رد فعله الأول صرخة قوية ، صرخة حصر (انظر **حصر الولادة** في الفصل الثاني عشر) . ذلك أن الطفل ينزع نزعاً مفاجئاً من العذوبة اللاشعورية في بطن أمه ، ليلقى في عالم ينذر بالخطر . وتلك إذن صدمة بالنسبة الى حياته النفسية اللاشعورية . ويمكن القول إن الطفل ، بصورة لاشعورية دائماً ، لايرغب إلاّ في شيء واحد : أن يعود مباشرة الى هذا الرحم ، رحم الأم الذي أتى منه ، وأن يجد فيه الهدوء مجدّدا ، والسلام والأمن . وثمة كثير من الراشدين الذين يتصفون ، مع ذلك ، باتجاه مماثل يتجلى بآلاف من الصور الممكنة ، كما سيأتي توضيحه . ويمكن القول على وجه التقريب إن الطفل ، عندما يولد ، يأسف بصورة لاشعورية على ولادته .

ولننتقل الى الراشد الذي يباشر تحليلاً نفسياً . فاذا كان الراشد شخصاً مصاباً بالعصاب ، فان التحليل يعني أن عليه الانتقال من عالـم طفالي الى عالم الراشدين .

فالتحليل ولادة جديدة . فمن المنطقي إذن أن يكون رد فعل المريض حصراً مؤقتاً ، إذ أن عليه أن يهجر عكازيه ، أي ضروب أمنه المزيف ، ليمشي وحيدا ، أي ليصبح راشداً بعد إصلاح شخصيته إصلاحاً عميقاً.

ويمكن ، في الحد الاقصى ، أن نذكر عبارة **ماريز شوازي** : « اغفـر للمحلل كونه سبب لك هذا الألم : كونه شفاك ! » .

الفصل السابع

ذكريات الطفولة

ثمة سؤال يطرحه المرء على نفسه في الغالب : هل يبحث المحلل في أثناء التحليل بحثاً منهجياً عن أبسط ذكريات الطفولة ؟

كل منا ، في كل ثانية من حياته ، محصّلة ما كان منذ ولادته . وكل لحظة نعيشها تصبح نقطة انطلاق الملايين من اللحظات الآخرى من حياتنا وحياة أولئك الذين نعيش معهم جنباً الى جنب .

وفي كل آن ، نستمر في انطلاقتنا . ونكابد في كل آن ما فعلناه من قبل .

وكل فعل من افعالنا ينسج ، منذ ولادتنا ، نسيجاً هائلاً . يضاف الى هذا أننا ملتزمون بأفعال أبوينا (أفعال تستمر حية في **أنانا**) وبأفعال أجدادنا ، الخ . وتلك سلسلة عجيبة كما ترون !

وإذا نسينا ما كنا ، وما فعلنا وقلنا في الخامسة من عمرنا ، وما فعل وقال آباؤنا ، فان ذلك لا يمنع أن تكون النتيجة محفورة في خلايانا العصبية ، لخيرنا أو لضررنا .

وقس على ذلك بالنسبة الى كل ثانية من وجودنا . واترك لكم ان تحسبوا عدد الثواني التي تحتوي عليها حياة من خمسين عاماً .

ولنأخذ حالة عصاب . هذا المرض لا يتطوّر بعنف . إن له بداية ، وينتشر انتشاراً بطيئاً في أعماق الشخصية . ولكن من المؤكد أن العصاب يبدأ في لحظة معينة : في الثالثة ، في الرابعة ، في العاشرة ، لا فرق . وكل شخص يختلف بحسب الظروف التي تحيط به ، وبحسب أسلوب رد فعله على هذه الظروف ، الخ .

ويعتقد عدد من الأشخاص أن ثمة ، في التحليل النفسي ، تنقيباً **منهجياً** عن أصغر خبايا الطفولة ، كما يبحث المرء عن شعرة في حقل على وجه الدقة .

قال شخص كان قد فهم فهماً خاطئاً بعض الكتب في التحليل النفسي:

ـ اخاف الكلاب خوفا عنيفا . هذا يعني (اذن) ان ثمة كلبا لا بد من أن يكون قد عضّني في طفولتي . ولا بد من انني كبتّ هذا الخوف اياه . فهل تعتقد ان بالامكان اكتشافه؟

ـ قطعت بصورة عنيفة كل صلة بماضيّ ...

إن هذا لسخف . وقد يقع ذلك ، ولكنه نادر جدا . والخوف الذي يعانيه هذا الشخص لا صلة له (في ذاته) بالكلاب ، على وجه الاحتمال ، وليست خشيته سوى عرض في عداد اعراض اخرى . وعلى أي حال ، إن ما يعتقده هذا الشخص لا يطابق **قطعاً** واقع العلاج السيكولوجي .

اولا ـ الماضي الابدي

ليس بوسع أي شخص أن ينفصل عن ماضيه . فهذا الماضي يشكل جزءاً منه تماماً كما أن أي شخص لا يسعه القول إن دمه دم جديد كل يوم .

ومع ذلك يقول بعض الأشخاص :

ـ أريد أن أنسى ماضيّ ، وافلحت في ذلك ...

ـ طفولتي جعلتني أتألم ، ولكن فلتذهب الى الشيطان طفولتي ولنفكر بشيء آخر ...

ـ عندما تزوجت ، عددت نفسي راشدا « بصورة آلية » . وقطعت كل صلة لي بماضيّ .

فلم يبد لي ذكريات ، ولا اسف ، وحلّت آمال اخرى محل آمالي ، واغلقت جميع الادراج لكي انطلق من الصفر ، الخ .

هؤلاء الأشخاص بذلوا إذن جهوداً لكي « ينسوا ماضيهم » . **ولكن ذلك لا يعني أن ماضيهم اصبح نسيا منسيا « في انفسهم »** . إنه حاضر دائماً ، هذا الماضي ، بظروفه ، وآماله ، ويأسه ، وسعادته ، وشقائه ، وجراحه . فثمة جزء من الماضي يظل حيويا ، وجزء يخيّل إلينا انه « منسي » ، وجزء ثالث مكبوت بعمق ، الخ (انظر **الكبت** ، فصل « جواز سفر الى اللانهاية ») .

أما وقد قلنا قولنا هذا ، فان بعض الأشخاص يهضمون ماضيهم قليلا او كثيراً . وبعضهم الآخر يتقيّاه . وثمة آخرون كان لهم ماض نمّى شخصيتهم بصورة تامة ، الأمر الذي يتصف بأنه نادر إن لم يكن غير موجود . وبعض الأشخاص يظلّون متعلقين بماضيهم ، ويبقون طفاليين. وبعضهم الآخر ، لا . وثمة بعض الأشخاص الذين يجمعون مزقاً من ماضيهم في كيس قديم مطمور في اللاشعور .

واخيرا ، ليس ثمة في ماضي أي إنسان مجموعة من الذكريات ، بل كتلة هائلة من الأوضاع ، اوضاع اسرية واجتماعية وثقافية ، الخ . فهذا الرجل ، أو تلك المرأة ، لا يجد أي ذكرى من ذكريات الطفولة . ومع ذلك ، فان « مناخ » هذه الطفولة سائد لدينا !

وكل شخص « ينطلق » ، في بداية التحليل ، على نحو مختلف . فيكتشف بعض المرضى كتلة من الذكريات ، ويتكلمون على آبائهم وعلى جراح الطفولة لديهم ، الخ . وبعضهم يقول ، على العكس : « ليس لديّ أي ذكرى . . . لا اتذكر شيئاً . . . ليس لديّ شيء أقوله . . . إنه ثقب أسود . . . كومات من الأمور تلامس السطح ، ولكنها لا تطفو ، الخ » .

وعلى أي حال ، كل شخص يبلغ سن الرشد يبتلى ، كما قلت لكم سابقاً ، بشخصية طفالية كبيرة بصورة نسبية ، وبـ « أنا » قوية نسبيا (**الأنا** ، فصل « الحرية والاغلال ») . ودور علم النفس إذن أن يستأصل الطفالات ويعزّز « الأنا » وبالتالي يعزز الشخصية الراشدة .

١ ـ نقطة الانطلاق

كل شخص في التحليل النفسي حر في أن يقول كل ما يخطر في ذهنه حرية مطلقة . وبناءً عليه ، يبدأ شخص معيّن بجميع ذكريات الطفولة **الشعورية** التي تخطر له . وذلك لعدة دواع : إما لأن هذه الذكريات تخطر في ذهنه ، وإما لأنه يبحث قبل كل شيء عن « كبش فداء » بوسعه أن يحمّله جميع آلامه . ويحسب أن وضعه الماضي هو **وحده** الذي أوصله الى حالته الراهنة . ولكنه لا يتساءل أيضا **لماذا** استمر يتألم من عصابه **في سن الرشد** . . . فيما أن الأسباب الأولى قد زالت (وتلك نقطة مهمة سأعود إليها فيما بعد) .

ومهما يكن من امر ، يتصف « كشط » الذكريات القديمة ، ذكريات الطفولة ، بأنه أمر لا غنى عنه في بعض الأحيان . ولكن ما المهم عند شخص مصاب بالعصاب ؟ إنه بالتأكيد ألمه **الحالي** ، وأعراضه **الحالية** ، والأسلوب الذي يستجيب به **حاليا** في الحياة ، وعدم تلاؤمه الاجتماعي **الحالي** ، الخ . ولكن **ما هو عليه حاليا** ، من ناحية اخرى ، **منوط بما كان عليه في أثناء طفولته ومراهقته** الى حد بعيد . وعندئذ ، كيف نتصرف دون وجوب البحث عن كلية الذكريات ؟

ثمة ، في الحقيقة ، إمكانيتان . إما ان ننطلق من الطفولة والمراهقة لكي نصل الى الوضع الحالي للمريض ، الذي يتصف بأنه امتداد الأوضاع السابقة . وإما أن ننطلق من الوضع الحالي للمريض ، **ونصعد** بالتدريج صوب الطفولة . وهذا هو ما يحدث بصورة عامة . ومن المؤكد أن الشخص يتذمّر قبل كل شيء من آلامه **الراهنة** .

ومن الضروري ، في بداية التحليل ، إجراء تأليف لما يتصف بهالشخص من الناحية النفسية . فما هي قوة « الأنا » ؟ وما هي دفاعاتها المميّزة ؟ وما هدف هذا الشخص في الحياة ؟ وما هي حاجاته ومطالبه ، وتفاهمه أو عدم تفاهمه مع الآخرين ؟ وما درجة حصره ؟ ولماذا كان لديه هذا الحصر ؟

وكيف يحتمي من هذا الحصر ؟ الخ . ومن المؤكد ان جميع هذه الاسئلة جوهريـة .

وانطلاقا من وضعه الحالي ، يقيم المريض « اتصالات » مع ماضيه بالتدريـج .

ولنضرب مثالا قليل التقعيد جدا . يقول أحد المرضى :

ـ أتصرف أمام رئيسي في المكتب كما كنت أتصرف أمام والدي .

وهذا أمر مبتذل . ولكن الشخص سيبدأ « السلسلة » انطلاقاً من ذلك . وسيتكلم على أبيه ، وتجاربه مع ابيه ، وطبع ابيه ، والأسلوب الذي كان يتصرف به أمام هذا الأب ، ثم أمام أساتذته والسلطة والنساء، الخ . فالمريض إذن يصعد ، انطلاقا من وضع راهن (**رئيس المكتب**) ، صوب ماضيه (**أبيه**) . إن صعود الدرب صوب الماضي ، انطلاقاً من وضع راهن ، أكثر جدوى من سلوكه بعكس ذلك . وفي هذه المرحلة إذن ،تتيح أحداث الطفولة وظروفها فهم الوضع الراهن وتحليله .

٢ ــ عم ينبغي أن نبحث ؟

ليس ثمة شيء منظم في اول الامر . ولا بد من « ترك الأمور تجري دون تدخل » . والمريض ، مع ذلك ، يتكفل ذاته بهذا الوضع ، إذ انه يتـرك « افكاره تتجه » كما تخطر له . وانطلاقاً من هذا التلاحق ، تلاحق الافكار والارتباطات والذكريات والملاحظات والاحساسات ، يمكن الآن للمحلّـل أن يكوّن فكرة عن مريضه واضحة بعض الوضوح . ومن المؤكد أن المحلّل يسبق ، في تسع حالات من عشر ، مريضه بكثير ، لكي يتنبأ بالوضـع من وجهة نظر التشخيص ، والإنـذار المرضي ، والعلاج النفسي ، على حد سواء . وترتسم بالتدريج « خطوط قوى » . ويتم البدء بالكشف عن الوان الحصر الأولى ، حصر الطفولة والمراهقة . ونجد الحمايـات اللاشعورية الأولى من هذه الضروب من الحصر التي تتصف غالباً بأنهـا الآن سلوكات عصابية . وفي هذه الفترة إياها ، نقف على الأثر الـذي

يتركه العدو : العصاب . وبوسعنا ، في الحقيقة ، موازنة ذلك بالتخطيطية التاليـــة :

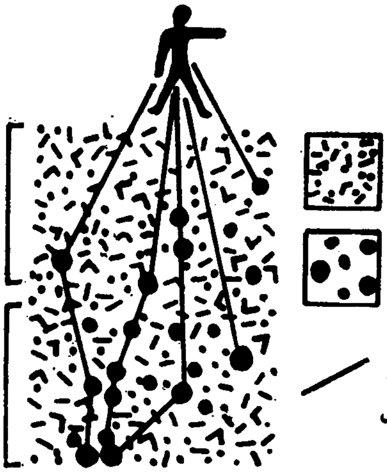

شكل رقم (٣)

مثـــال

أضرب هذا المثال على الغالب ، ولكنني اعتقد انه خصيب على نحـــو فريد في امتداداته الممكنة .

سوزان امرأة صبيّة ، عدوانية الى حد المغالاة . وتبدو باستمرار انها في حالة من العداوة إزاء جميع الناس . والأمر الأول الـــذي يخطر في الذهن انها عدوانيـــة لأنها خائفة . وهي تعضّ ، خوفاً من أن تكـــون المعضوضه . **فلعدوانيتها إذن هـــدف : أن تحمي سوزان مـــن الخوف والحصر** . ومن المؤكد أن هذه النظرة الى الأمور نظرة سطحية جدا . ذلك أن بالامكان التساؤل : ما هذا الخوف ؟ وما هذا الحصر ؟ ولماذا يوجد هذا الحصر ؟ ومتى بدأ كل ذلك ؟ ولماذا يستمر كل ذلك في الزمن الراهن ؟

وليس الهدف من ضرب هذا المثال إلاّ أن أبيّن لكم أن العَرَض « عدوانية كبيرة » ، ليس سوى حماية من شيء ما يؤلم سوزان (**الخوف**). فثمة إذن **علة لوجود** العدوانية لديها ، عدوانية ليست سوى عرض من الأعراض . وتتيح هذه العدوانية إذن لسوزان أن تعيش على « حل من حلول التسوية » ، ولكنها تتيح لها أن تعيش مع ذلك ... ولنقل تتيح لها أن تستمر حية على نحو ليس بالجيد ولا بالسيء ، بل أكثر سوءاً مما هو جيد .

ماذا ينبغي لنا أن نفعل ؟ لا بد من البحث عما هو مخبأ تحت العدوانية. ومتى تزول العدوانية ؟ عندما لم يعد ثمة داع لوجودها ، **عندما لم تعد سوزان بحاجة إليها** . وبناء عليه ، **فان العدوانية تزول آليا منذ أن يزول الحصر والخوف** . وهكذا شأن كل عصاب مهما يكن تعقيده .

٣ ــ ذكريات الطفولة لا تشرح كل شيء !

لنعد الى الحالة المذكورة في الفصل الرابع ، حالة السيدة س ، الواردة في امثلة « القصة المرضية » . وبما أن هذه السيدة لا ترغب في الأطفال ، فقد ذهبت تستشير أحد علماء النفس .كانت بواعثها صحيحة في اعتقادها، ولكن الأسباب العميقة كانت على عكس ذلك ، وكانت تقرض شخصية السيدة برمتها . فهل كانت ذكريات الطفولة هنا ذات اهمية كبيرة ؟ نعم كانت ، ولا لم تكن . ثمة ملايين من الذكريات ذات العلاقة بأمها كان ممكناً أن تصعد الى السطح . والحال أن السيدة س لم تتجه صوب أمها بالمعنى **الصحيح للكلمة ، بل صوب ردود فعلها إزاء أمها** . وفي ضوء بعض الذكريات ، أدركت السيد س كم كانت خاضعة لأمها ، ومذعورة أمامها، ومتعلقة بها . واكتشفت كم كان حبها لأمها حباً مزيّفاً كان يخفي كرهاً (لاشعوريا) عنيفاً .

والسيدة س « احتازت الشعور » ، بمساعدة المحلّل (ومن خلال اي صعوبات وأي آلام داخلية !) ، بأن أمها كانت عنصراً أوليا ، طبعت طفولتها ومراهقتها بطابعها . ولكن الامر المهم كان « خطوط القوى » النامية

إزاء الأم (انظر المثال) . وتوصّلت السيدة س ، انطلاقاً من كرهها لأمها ، الى كره **الأم** (بصورة عامة) ، والى كره **مبدأ الأم** ...

ويتبيّن إذن أن ذكريات الطفولة ، بما هي **كذلك** ، لا تتصف بأهمية رئيسة . وما يدخل في الحسبان هو المناخ الذي ترعرع فيه الموجود الانساني وتكوّن ،وأوقف فيه نموه وصدّع شخصيته ، كل ذلك دون أن يدرك . وعندئذ ، نحن إزاء شخص يعيش وفق التخطيطية التالية :

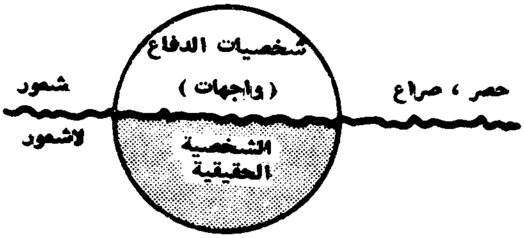

شكل رقم (٤)

وملخص القول إذن : لا بد من ان نفحص ، قبل كل شيء ، كل الوضع وآلام الشخص **الراهنة ، بدلالة** الطفولة والمراهقة . وعلينا أن لا ننسى أبداً أن أي حياة إنسانية تكوّن كلية ، وأن **كل** ما يجري في حياتنا ينطبع فينـا الى الأبـد .

ولكي أبيّن لكم ، على نحو افضل ، سعة هذا الشكل ، اضرب لكم مثالاً آخر يظل في إطار هذا المشكل ذاته ، مشكل ذكريات الطفولة ، تجاه الحياة اليومية . وهذه الحالة تشبه الحالات الأخرى المذكورة ، أو التي لا بد من ذكرها ، شبها كبيراً .

ثانيا ـ ((كلية)) الحياة

١ ـ ماضي السيد س

أصف ماضي السيد س في خطوطه العامة ، ناظراً على وجه الحصر الى « المناخ » الذي عاش فيه . إليكم ما يقوله :

ـ ماتت أمي عندما كنت في العاشرة . ورباني أبي . انه رجل ذو ذكاء خارق ، مفعم بالمواهب . جميل وقوي من الناحية الجسمية . وبذل أبي كل جهد من أجلي . وأصبح بسرعة بطلا والها . وكنت نحيلا بما فيه الكفاية ، هل تعلم ؟ ولم أكن أفعل شيئا قط دون أن أتساءل كيف يفعل أبي . وعندما كان يقول لي : « هذا حسن ، انني مسرور منك » ، لعلني كنت قادرا على أن أدكّ الجبال . وكنت أرغب في أن أشدّ نفسي اليه ، ولكنني ما كنت أجرؤ . وكان كل الابطال في السينما ، يشبهون أبي ... وكنت نحيلا كما قلت لك . وعندما كان بعض رفاقي في الصف يدفعونني بقوة ، كنت أفكر : « لو كان أبي هنا ، ماذا يفعل ؟ » ولكنني ، أنا ، لم أكن أتحرك ، وأستسلم .

ـ هل كنت تبلّغ أباك هذه الضروب من الإذلال ؟

ـ كلا ، أبدا ! ولكنني كنت اترك بعض المحاضرات لاتابع دروسا في الجيدو والقتال .

ـ لمـاذا ؟

ـ ولكن ... من أجل ان اقدر على الدفاع عن نفسي ! وهوجمت في يوم من الايام ، فألقيت رفيقي أرضا على بعد ثلاثة أمتار . واعتقد أن ذلك كان أجمل دقيقة في حياتي ...

ـ وهل قلت ذلك لأبيك ؟

ـ نعم ، قلته .

هل قلته ، وأنت تبلّغه انك تابعت دروساً في الجيدو ؟

ـ لا . ولا أعلم لماذا سكت عن ذلك . فهل كنت اريد دون شك أن يعتقد أنني قوي بصورة طبيعية ؟

ـ وكيف كان رد فعله ؟

ـ بضرب من التهكم المترفع . قال لي . « لو حدث ذلك مرة ثانية ، فانك تتعرض مع ذلك الى التأنيب. لو كنت تأخذ دروسا في الملاكمة ؟ » ثم أضاف : لقتلته : « أو في الجيدو، فذلك يناسبك على نحو أفضل !» .

ـ ثم مــاذا ؟

ـ أتذكر انني رغبت ، خلال سنين ، في ان اطلب اليه أن يعلمني المصارعة . وكنت مولعا بأن أتصارع مع أبي ، كما اتصارع مع بطل ... ولكنني ما جرؤت قط . وفي كل مرة كنت أرى قوته الجسدية وأناقته ، وكنت احكم على نفسي بأنني من البؤس بحيث أن كل شيء يرتدّ الى حلقــي ...

ـ ثم مــاذا ؟

ـ وانفجرت عندما كلمني على الجيدو . ولاول مرة في حياتي ، ما ضبطت نفسي . وكنت أنظر الى عضلاته وابتسامته وسترته الرائعة التفصيل ... وما عدت أعلم ما قلت له بصوت عال ... وانه كان أحسن صنعا لو تزوج مرة ثانية ، وانه كان أكثر انشغالا بانتصاراته من اهتمامه بي ، وانني كنت بائسا صغيرا متروكا في الظل ... واخيرا ، انفجر غضبي ، غضب مرعب ... ولم يقل شيئا ، ولكنه بدا بائسا ... وذلك ما كان قد جلب لي احدى هــذه اللذائذ ، كما لو انني سحقته ...

٢ ـ الخطوات الاولى

لنتوقف هنــا ، أولاً ، فلدينا ، خــلال طفولة السيد س كلهــا : ذل « مكتوم » ـ اعجاب ضعيف ، معنوي وجسدي ، بوالده ـ عداوة مكبوتة ـ نزعة لأن يعدّ أباه مثل « إله » ـ نزعة الى أن يكون ابنــا « كاملاً » لكيلا يغضب « الهه الأب » ـ رغبات « مكتومة » في مصارعة أبيه ، وفي أن يغلبه ، وفي أن يكون ندأ له ، وفي أن يتجاوزه (مع تعذر بلوغ ذلك) ـ اجترارات ذهنية مشحونة بالعداوة ـ حصر الخصاء .

ولنعرض ذلك بصورة أكثر تبسيطاً :

ـ مازوخية (أي امحاء كلي ، وخضوع) ؛

ـ لواطية كامنة (رغبة في « الانصهار » الوجداني والجسدي بأبيه) ؛

ـ التجرد من الرجولة (أمام أب قوي كثيراً ويتمتع بانتصارات لدى النساء) .

ـ تخنّث (استحالة أن يصبح رجلاً بمساواة أبيه) ، الخ .

وذلك ، كما ترون ، يصنع الآن خليطاً رائعاً اذا نقلناه الى حياة الرشد لدى السيد س .

٣ ـ السيد س في حياته الراهنة

السيد س موظف في إدارة من الادارات ، ويشغل وظيفة ثانوية . بقي السيد س عازباً . وهو يعاني (دون أن يدرك) خوفاً مرعباً من رؤسائه . ويعبّر عن هذا الخوف قائلاً : « إنهم رؤسائي ، وعليّ أن أحترمهم » . أو يقول : « إنهم يدفعون لي أجراً لكي أقوم بعملي حرفياً ... » . أو يقول : « ليس بوسعي أن أعارض رأيهم ، إذ أنهم السادة ... » ، الخ .

ويتصف السيد س بعدوانية لا تُحتمل تجاه أنداده . واذا ما نظر اليه المرء من الخارج ، قال عنه إنه خجول ، ومسحوق ، ومفرط في المجاملة ، ومصاب بالحصر ، ومتصلّب ، وحذر من كل شيء ومن الناس جميعهم ، وينتقل فجأة من **العدوانية المفترسة** الى **الرغبة الجامحة في تقديم الخدمة** بأي ثمن ، ويعجز عن أن يحب أو أن يكون محبوباً .

بدا السيد س ، في بداية تحليله ، انه ذو صراحة نموذجية (**جداً**) . وقد يقول المرء إنه يبسط تعاساته بصورة مختلفة . **إنه لا يعارض ابدا** أي كلام يقوله المحلّل ، **ولا يعترض ابدا** ، وهو يبدي بعض الملاحظات التي تدلّ على **عداوة كبيرة** ، الخ .

ويصاب بالحصر على الغالب عندما يعتقد أن المحلّل « يقطب حاجبيه » أو يقف « موقفا بارداً » . ويتصف هذا الحصر بأنه مرئي بالعين المجردة . فما السبب ؟

٤ ـ ماذا يحدث ؟

للوهلة الاولى ، **يمكن الاعتقاد بأن** السيد س ، بكل بساطة ، يكرّر في الوقت الراهن ذلك السلوك الذي كان يسلكه أمام أبيه . **ويمكن الاعتقاد** بانه ينقل ردود فعله الماضية الى الزمن الراهن . وبعبارة أخرى ، يقال انه يحتفظ بردود فعل **طفولته** ، بالرغم من عمره **الزمني** . ويمكن الاعتقاد بأنه « يسقط » أباه على محيطه (على رؤسائه مثلاً) .

والحال أن الواقع أكثر اتساعاً مع ذلك ! فلماذا يتصف السيد س بأنه مصاب بالحصر ؟ ألأنه يخاف رؤساءه ؟ ولكن رؤساءه ليسوا « أباه » . فما الأمر ؟ لماذا يحذر جميع الناس كثيراً ؟ ولماذا يعجز عن أن يحب وأن يكون محبوبا ؟ ولماذا هذا الحصر الكبير أزاء مواقف المحلّل « الباردة » ؟

وفي الجلسة الخامسة من جلسات التحليل ، يجلس السيد س بمرح **كبير** وابتسامة متشنجة . ثم يستقر **ويتثاءب تثاؤبا قويا وعلنيا** (إن هذا ضرب من العدوانية إزاء المحلّل ، مضمونه : « **حسن ، هذا كل ما ينبغي فعله ... وأخيراً ، ذلك حسن لأن من الضروري أن أكون عندك ... وإذا اعتقدت أني متوتر واني خائف ، فانظر كم انا مرتاح ...** ») . ثم قال بمظهر المشجّع و « المترفع » ، وهو يتثاءب دائما :

ـ ماذا « ستفعل لي » هذا اليوم والحال هذه ؟

هذا الموقف موقف مزيّف بالتأكيد . وسيتساءل المحلّل ، وهو يحتفظ في ذهنه بطفولة السيد س : « لماذا هذا المظهر ، مظهر التشجيع ؟ ولماذا هذا المرح المزيّف ؟ ولماذا هذه الجملة ؟ » .

وسيلاحظ المحلّل :

ـ **موقف التشجيع** : والمقصود عدوانية مموّهة (وهي تستر ما يلي : (لست ابن الأمس ، هل تعلم ؟) . أو إن هذا الموقف يهدف الى أن المحلّل يقبل السيد س (« إنني كما لو كنت في منزلي ، نحن رفيقان ما دمنا نعمل معاً ») .

- **المرح** : **إنه** دفاع ضد الخوف من أن ينزع المحلل عنه القناع .

- **ماذا ستفعل لي** ؟ : **هذه الجملة تلتقي بالتشجيع والمرح . ولكن** ثمة ما هو أكثر . فهل هناك لا مبالاة مزيّفة ؟ **خضوع لاشعوري** ؟ **جنسية** مثلية كامنة ؟ رفض لاشعوري للتماون ؟ عدوانية مازوخية (**تقديرها** : استمر دائماً ، **إنك تضيع وقتك**) ؟

ويستمر السيد س مع ذلك ، حاليا ، في الكلام على تعاساته **الماضية** فقط . انه لايتكلم على الحاضر **لأنه يرفض** بصورة لاشعوريـة **أن** يرى شخصيته العميقة (وهذا أمر منطقي مع ذلك) . ويرفض بصورة لاشعورية أن يترك قناعه يسقط . يضاف الى هذا أنه يتعلق ببعض الأعراض التي تحميه من الحصر : فخضوعه ، على سبيل المثال ، يحميه من حصر كونه موضع تأنيب المحلل ، أي « السلطة » ، وانتقاده .

وإذا كان المريض لا يتكلم **إلاّ** على تعاساته الماضية ، فمن الممكن الاعتقاد بأنه يقدّم مادة ثمينة ... **إذ أنـه ينظر على سبيل الحصر الى ذكريات الطفولة** . والحال أن ليس ثمة شيء من هذا . فما السبب ؟

٥ ـ ما الاشياء التي يتصف السيد س انـه على وعي بها ؟

- يعي السيد س قليلاً مـن الأمور **الخاصـة بسلوكه** . وهـذا أمر منطقي مع ذلك . إنه يعيش على شخصية مزيّفة توجّه غالبية أعماله وأفكاره . وأصاب التقلّص « أناه » بصورة كبيرة . وتسمّرت حماياته الداخليـة وتصلّبت .

ويعي السيد س أن لديه مشاعر الدونية « بفعل والده » ، وأنـه يعاني الحصر . وهذا هو كل شيء . ولكنه **لا يشعر كليـا** بعجزه عن أن يحب ، وعجزه عن أن يكون محبوبا ، وبطفالاته وخضوعه المازوخي إزاء رؤسائه ، وبجنسيته المثلية الكامنة ، ونزعاته الى الامّحاء الكلي ، وخوفه من المسؤوليات ، وحاجته العميقة الى الإخفاق ، الخ .

٦ ـ ماذا سيحدث لدى السيد س ؟

من المتعذر بالتأكيد إعطاء تفصيلات التحليل النفسي الخاص بالسيد س ، ولا بد من مؤلف برمته لذلك . ولكن الأمر الأول الذي حدث كان

تراجع إسقاطاته (انظر ما سيأتي في هذا الفصل ، تحت عنوان «الاسقاطات الكبرى ») . إنه حادث يتصف بالأهمية الكبرى ، حادث ظهر منذ أن أصبح السيد س يشعر أن رؤساءه كانوا يمثّلون **الأب** ، أي **السلطان** المطلق الذي يتمتع بجميع السلطات ، ويستطيع أن يقبل أو ينبذ ، يؤنب أو يصفح ، يهنىء أو يشتم ... والسيد س **ينكر العالم من أجل كلمة** طيبة من رؤسائه (انظر الحالة ذاتها فيما سيأتي) . كان ثمة إذن ، هنا ، ضرب من المازوخية العميقة ، ومن الخضوع الكامل ، ومن المجاملة المفرطة التي تزدوج بسادية تتجلّى بضرب من القسوة التي تتصف بالاحتقار إزاء مرؤوسيه .

ولكن لننظر الى تخطيطية سلوك س الراهن ، ولنوازنه بماضيه ...

السيد س أمام ابيه	**السيد س امام رؤسائه وامام الحياة**
إعجاب وخضوع أمام أب رُفع الى منزلة الاله .	ان يكون مستخدماً فائق الكمال ؛ بذل كل مجهود لتجنّب التأنيب .
التجرد من الرجولة بسبب موقف الأب .	خضوع كلي ومجاملة مغالية ؛ كونه كصبي صغير عاقل جدا يبدي إعجابه **تجاه رؤساء (في حضورهم على** الأقل !) .
بغض لأبيه (بغض مكبوت) .	بغض مكبوت لرؤسائه ولكل سلطة . نقد حقود لرؤسائه (في غيابهم) .
خوف من أبيه . رغبة في أن يكون فحلاً وجميلاً كأبيه ؛ وأن تكون له انتصارات ابيه ؛ رغبة في أن يكون له عضو جنسي (رغبة لاشعورية) فحل وكبير وقوي مثل عضو ابيه (شأنه في ذلك شأن مراهق ، أبوه محب للمبارزة ، يتمنى أن يحوز على سيف كبير مثل سيف أبيه كيما يكون ندا لأبيه في المعركة ثم يتجاوزه) . تعذّر أن يكون رجلاً . انوثه .	خوف من كل شيء ، من جميع الرجال والنساء ... شعور عميق بالإخفاق. حاجة لاشعورية الى الاخفاق والى الانتحار . جنسية مثلية كامنة. ضروب من الغزل مع جميع النساء ، وساوس و انحرافات جنسية ، رغبة في أن يكون دون جواناً ينتقل من امراة الى أخرى ...

ونرى إذن أنه كان لا بد للسيد س ، انطلاقاً من ذكريات الطفولة ، ان يحتاز الشعور بحالته الداخلية **الراهنة** . الأمر الذي تم بالتدريج ــ ولنكرر مرة أخرى ــ من خلال الصعوبات التي يمكن للمرء أن يخمّنها . .

ثالثا ــ الارباح في الطاقة

وقبل أن نستمر في فحص ذكريات الطفولة ، لنر ما يبدو بسرعة من خلال التحليل : « **تراجع الاسقاطات** » . فلا بد إذن من تحديد المقصود بـ **الإسقاط** . ثم نرى لماذا يحرّر غالباً هذا التراجع ، « تراجع الإسقاطات » ، طاقة كبيرة .

١ ــ الاسقاط

الاسقاط إحدى الآليات الأكثر أولية لدى الموجود الانساني . يضاف الى هذا أن « روائز الاسقاط » معروفة . فنقدّم الى طفل (أو الى مراهق) رسوماً عليه أن ينجزها ، وأشياء عليه أن يضعها بحسب إلهامه ومخيلته ، وجملاً عليه أن يكملها ، الخ . ونطلب إليه أن يفسّر رسوماً تمثل أوضاعاً إنسانية يمكن التعبير عنها بأساليب متعددة ، الخ . فكل شخص يتصرف إذن على طريقته **ويسقط** عواطفه ، وانفعالاته ، وضروب أسفه ومشكلاته ، وأفراحه ، في الانجاز المطلوب . والعمل الفني ، من جهة أخرى ، « إسقاط » روح الفنان العميقة ، في تسع حالات من عشر . ولكن الاسقاط يتحقّق أيضا على نحو مختلف : فهذا شخص عدواني بعمق ينسب **الى الآخرين جميعهم** عواطفه الخاصة . فهو يعتقد عندئذ أن « الآخرين » عدوانيون . كذلك فان شخصاً طيباً في حقيقته لا يمكن أن يتصوّر الغير عدوانياً أو نمّاماً ، الخ . أو إن رجلاً يكره أمه ، بصورة لاشعورية ، قد يكره جميع النساء اللواتي يسقط عليهن أمه ، الخ .

والانسان في الاسقاط شبيه بمن ينير الخارج بمنارة أشعتها عواطفه الخاصة .

ونحن نعلم الى أي حد يتصف البحث عن الدافعيات العميقة لأفعالنا ومقاصدنا بأنه ذو أهمية . وكل دافعياتنا صحيحة أو مزيّفة . ولكن علينا أن لا ننسى أن المرض السيكولوجي يستند الى **دافعيات مزيّفة** ، ما دامت البواعث التي يتخذها لنفسه لا تطابق على الاطلاق ما يحدث في الأعماق .

وعندما نحاول أن نشرح افعال الغير ومقاصده من خلال دافعياتنا الخاصة ، فليس ثمة شيء يتصف بأنه صحيح في حال وجود دافعيات مزيّفة . وعندئذ نلاحظ الغير من خلال ذاتنا ، ولكن من خلال ذات مشوّهة أو مريضة . وهكذا ، فاننا ، على الغير ، « نسقط » التفسير الذي نعطيه لأعمالنا الخاصة ... ونفسّر ، بالفعل ذاته ، أعمال الآخرين ومقاصدهم تفسيراً خاطئاً . ويرى المرء الى أين يمكن أن يقود ذلك : وحسبه أن ينظر حوله الى جميع أمثلة التعاطف والنفور والمودة والكره ، الخ ... ليدرك أن هذه الأمثلة ، في تسع حالات من عشر ، ليست غير مجموعة من الإسقاطات لكل شخص من الأشخاص المعنيين . وهي إسقاطات تتصف بأنها اشد خطراً بمقدار ما هي لاشعورية .

آ ـ إسقاط شائع

الكره هو الحالة الأكثر تكراراً في الحياة اليومية . فاما أن شخصا يعاني كرهاً ، يمكن له أن يسوّغه قليلاً أو كثيراً ، لشخص آخر . والحال أنه لا يفعل على الغالب سوى أنه **يسقط ظله** ، أي يعتقد انه يكتشف في الآخر جزءاً من ذاته ، مكبوتاً ومكروهاً على الغالب . فهو إذن إنما يكره ذاته ، ولكن من خلال الآخر الذي يتحمل النتائج بالتأكيد .

وإما أن شخصاً حقوداً يسقط كرهه على الآخرين الذين ينسب اليهم العواطف ذاتها . وذلك يتيح له ، أول الأمر ، أن يعتقد نفسه أنه طاهر الذيل . ولكنه يتيح له أن يدافع عن نفسه ضد كره الآخرين المزعوم . وعندئذ إنما تولد الرسائل المغفلة والمقاصد المبطنة والافتراءات ، الخ .

ب ـ إسقاط العصاب

واذا مضينا الى ما هو أبعد ، فان شخصاً مصاباً بالعصاب « يسقط» على الآخرين مظاهر عصابه . **وسيعزو الى هذا الشخص، اوذاك ، صفات أو عيوباً لا وجود لها .**

إن شخصاً ، على سبيل المثال ، مصابا بالخوف ويشعر دائماً بأنه مخطىء ، يعتقد أن العالم بأسره معاد له ، وأن كل فرد يخاصمه ، ولو أن الآخرين حياديين أو تافهين أو حمقى . وعندئذ يبحث ، بكل الوسائل ، عن أن يكون موضع الصفح والقبول والحب ، سواء صدر ذلك عن الله أم عن صاحب البقالة الذي يتعامل معه .

ويفضي الإسقاط ، في مجال **الطب النفسي،** الى بعض **الهلوسات** : إن شخصاً يعاني من هذيان الاضطهاد ، يسمع أصواتاً تهدّده ، ويؤكد أن ثمة أدوات تنصّت مخبأة عنده ، وأن ثمة من يلتقط أفكاره ؛ الخ . أو إن بعض النساء ، غير المرتويات جنسيا ، يتحرّرن من وضع لا يُحتمل ؛ وذلك باسقاطه على الغير : وعندئذ يختلقن ضروباً من الاضطهاد الغرامي هنّ موضوعه ، ويعتقدن به .

اليكم أمثلة اخرى من الاسقاط :

ـ **ها هو سائق سيارة** . إنه يوم الأحد . فالرجل يلمّع سيارته ويزيّنها (أو راكب دراجة نارية يلمّع دراجته ويزينها) . ويحسّ المرء أنه لا يترك ، بأي ثمن ، لأي شخص كان امر أن ينظّف بالخرقة ، « عشقاً » ، هكيل سيارة أصبح ناعما نعومة جلد امرأة .

ماذا يحدث في الغالب ؟ إنه « يسقط » نفسه على سيارته . يداعب الصفائح الحديدية المصقولة . وهذه هي النرجسية . بل : إنها الشبقية الذاتية ، وبديل العادة السرية .

ـ **سائق السيارة الذي تجاوزه سائق آخر** ـ كثير من السائقين يحبون أنفسهم إذن حين يحبون سياراتهم بطريقة قوية من الناحية الطفالية . ولكن سيارة الواحد منهم تصبح ، في هذه الشروط ، « **سلاحا** » **يجعل جسمه يمتدّ** (كخنجر او سيف أو عضو ذكر عدواني) .

إليكم ملاحظة سائق سيارة :

ـ كانت امرأة صبية قد تجاوزتني بسيارتها . وأصابتني هبّة من الغضب . واستولت عليّ رغبة حانقة في أن « أدخل فيها » ...

فلنفحص ذلك :

آ ـ يوحّد سائق السيارة بين المرأة الصبية وبين السيارة التي تقودها .

ب ـ هذا السائق يسقط ، هنا أيضا ، جسمه على سيارته . إنه إذن « هو » الذي تمّ تجاوزه وليست « سيارته » .

ج ـ الذكر المهان يعاني العدوانية .

د ـ يرغب في أن « يدخل فيها » : وترجمة ذلك : أن يغتصب المرأة . فما السبب ؟

هـ ـ السيارة شيء « يثقب » الهواء وينفذ اليه . إنها ترمز هنا الى **العضو الجنسي المذكر** .

و ـ إنه يعاني الرغبة الحانقة في أن « يُدخل » سيارته (اي : جسمه ، عضوه المذكر) بسيارة المرأة الصبية (التي ترمز الى جسم هذه المرأة) .

يقول احد الرجال ...

ـ وقفت بسيارتي عند ممر للمشاة . وأخذ سائق السيارة الذي كان خلفي يستعمل زمور السيارة حنقا . واستمر توقفي لأترك المشاة يمرون ، والتفتّ خلفي، فرأيت « الآخر » هائجا كشيطان وراء زجاجه (ولم يكن منظرا تلذ للمرء رؤيته) . واستأنفت سيري . وانطلق

الآخر مسرعا كأنه مجنون ، ومسّ سيارتي مسا خفيفا ، وتجاوزني بسرعة قصوى في الشارع الضيّق ، معرّضا نفسه الى ثلاثة حوادث ...

ونجد الإسقاطات نفسها ؛ هنا مجدّدا . فثمة سائق السيارة الحانق أي **جسمه الخاص المسلح** بكل قوة السيارة . وهو يتمنى لاشعوريا ان « يخترق » (بسيارته المحدّبة) جسم خصمه (أي السيارة) . ولكن الأخلاق (والشرطي على وجه الخصوص) يعارضان ذلك . إنه إذن « سيقتله » رمزيا : وبدلاً من أن « يخترقه » من جانب الى آخر ، فانه « يتجاوزه » بأقصى سرعة . و « يخترقه » جانبيا ، ولكن أقرب ما يمكن (أي يمسه) .

ولنقل إن هذا السائق الحانق ارتكب ، من الناحية اللاشعورية والرمزية ، جريمة قتل .

ج ـ المسدسات

ها هو مثال آخر شائع جدا : ثمة عدد من المراهقين (والراشدين) ، الذين ظلّوا طفاليين ، لا يشعرون بالقوة والرجولة والاستطاعة إلا إذا كان في جيب الواحد منهم مسدس من المسدسات .

فما السبب ؟ المسدس في الجيب **يرمز الى العضو الجنسي المذكر** في هذا المجال أيضا . والمسدس يتصف بأنه « نافذ » و « ثاقب » ، أو على الأقل ؛ الرصاصة التي يقذفها . وهو ؛ فضلا عن ذلك ، رمز عدوانية مرضية بالتأكيد .

وعلى هذا النحو ، يشعر كثير من المراهقين ، والمسدس في الجيب ، بالفحولة : فالمسدس يصبح « إسقاط » العضو الجنسي المذكر القوي الذي يتمنون حيازته ، والذي يرمز ، بدوره ، الى الفحولة المذكورة والعدوانية بالتأكيد .

د ـ عمل طيب مزيف

قد يعتقد المرء،، للوهلة الأولى ،أنه إزاء عمل تم إنجازه لبواعث غيرية، في حين أن ...

السيد س محلف في محكمة الاستئناف . إنه ، في اثناء المذاكرة ، يستعمل جميع الوسائل لينقذ القاتل . فهو يرافع ، ويبسط البواعث ، ويظهر طاقة و « طيبــة » تبدوان فوق كل مديح . ويربح السيد س ، بقناعته وبلاغته ، جزءاً كبيراً من المناقشات .

والحال أن السيد س يتصف ، في قرارة ذاته ، بأنه متمرد **قبليـا** ضد كل صورة من صور السلطان . فهو متمرد ضد أبيه ، وضد كل ما يذكره **بالأب** ، وإذن ضد هيئة القضاء والقوانين والمدوّنات ورجال الشرطة ... والمجتمع بصورة عامة . ولا يرضى إلاّ عندما يستطيع أن يضحك هازئا من كل ما « يعيق الحرية » (الأمر الذي ليس إذن سوى ضرب من إسقاط عواطفه إزاء أبيـــه) .

وهذا هو ما فعــل . إنه لم يرافع **لمصلحة المتهــم** ، بل حــاول ان **يثأر من المجتمع من خلال المتهم** . وتحرير هذا المتهم كان يمثّل بالنسبة إليه إذن ثأراً شخصيا عميقاً . وها هو ، مرة أخرى أيضاً ، إســقاط يقودنا بعيداً عن الموضوعية ، ولو أن البواعث تبدو من الدرجة الأولى في القيمة ، والنتائج رائعــة .

وهكــذا دواليك ...

ويمكن للمرء ، كما رأينا ، أن يكون **مع** الصيّاد الذي يخالف اللوائح **ضد** رجل الشرطة ، لأنه يسقط على الصياد ضربا من العداوة للسلطان . ويمكن له أن يكون **مع** رجل الشرطة **ضد** الصياد الذي يخالف اللوائح ، لأنه يسقط ضربا من الخوف من الحرية ، او لأنه يسقط ضربا من التصلب الداخلي الناجم عن الأنا العليا . ويمكن ، بالتأكيد ، أن نذكر عددا لا يحصى من الحالات . تقودنا جميعها صوب السؤال نفسه : « ما الذي يتصف بأنه موضوعي ؟ وما الذي يتصف بأنه أصيل ؟ »

وهدف العمل لمحلل في الأعماق هو ، على وجه الضبط ، تجديد الموضوعية والأصالة . وسنرى من جهة أخرى كم تتصف المرحلة ، التي

فيها **يكفّ المريض عن إسقاط** عواطفه الداخليــة الخاصة ، بأنها ذات أهمية ، أي « **تراجع الإسقاطات** » التي سنبحثها تحت عنوان « رابعا ــ الطاقة المستردّة » .

وهكذا يقضي عدد لا يحصى من الناس حياتهم مسقطين عواطفهم الخاصة على أصدقائهم ، وأعدائهم ، ورؤسائهم ، وزوجاتهم ، واطفالهم ، الخ . وهذا يعني أنهم قلما يرونهم كما هم ، ويعني أيضا أنهم يعبرون الحياة في حلم عبثي .

هـ ــ الإسقاطات الكبرى

قد يسقط المرء في المطلق فكرة **الأب او الرئيس** ، ويعتقد بوجود إله ناقم ، معاقب ، غضوب ، طيب ، غفور ، الخ . ويعزو اليه ، بالاختصار ، مزايا وعيوبا ليست سوى إسقاط العواطف الانسانية . ومن المحتمل لو أن سمكة حاولت أن تتصور إلها ــ سمكة ، لرأته على صورة سمكة هائلة (إسقاط صورتها في عظمة المطلق) مزوّدة بأجنحة تتيــح لهــا أن تطير « في السماء » (بوصف السماء ترمز الى « الصعود » ، والارتقاء ، وتغيير المستوى ، واللانهاية ، والأبدية ، الخ) . انظر فصــل « جواز سفر الى اللانهاية » .

كذلك فان بعض الأنماط الأوليــة (انظر فصل « جــواز سفر الى اللانهاية ») المنثورة في لاشعور جميع الناس ، من كل عرق وحضارة ، يمكن إسقاطها بصور رمزية متعددة : فالنمط الأولي لـ **المنقذ** ، على سبيل المثال ، يمكن إسقاطه على السيد المسيح[1] ، وملاّحي الصحون الطائرة ، وهتلر ، الخ ، أي على أشخاص ، رآهم هذا الفرد أو ذاك ، مهمتهم اقتلاع الناس من شقائهم ، وقيادتهم بصورة مستقيمة نحو جنات لا مشكلات فيها : وسأتكلم على ذلك فيما بعد

---

(١) انظر المقدمة .

واعتقد ان ما قدمناه من امثلة ، في عداد أمثلة كثيرة ممكنة ، يتصف بالوضوح .

رابعا ــ الطاقة المستردّة

أسوق اليكم كيف يفضي توقف بعض الإسقاطات (أي تراجع الاسقاطات) الى **تحرير الطاقة** ، وبالتالي الى تعزيز الشخصية ، والى استئصال جزء من الخوف . الأمر الذي يعني إذن أن بعض الإسقاطات « تجمّد » بعض الطاقة وتضعف الشخصية .

ولنتناول بالدراسة حالة سبق لنا أن رأيناها ...

حطمت رجولة السيد س وشخصيته طفولةٌ سادتها سيطرة أب مستبد . إنه شخص مخنث ، فاقد الرجولة ، مصاب بالحصر ، خاضع لكل سلطان ، خضوعا يتصف بالحصر . فهو « مخصيّ » من الناحية النفسية(١) .

يعاني السيد س إذن مشاعر الدونية والإثمية ، مشاعر يسقطها على كل سلطان ، أيا كان هذا السلطان . فيصبح ، بالنسبة للسيد س ، أبا شديد الخطر ، خصاء ، مهدّدا ، يملك حقَّ الحياة أو الموت .

فلنر السيد س إزاء رئيسه في المكتب ــ من المؤكد ان السيد س سيرى هذا الرئيس ، وبخاصة إذا كان سلطويا أو يتظاهر باللطف بصورة شديدة الخطر ، من خلال خوفه العميق . وبالتالي ، يصبح الرئيس ، هو أيضا ، **أبا** له كل السلطات على طفل أعزل مذعور .

وبما أن السيد س خائف ، فانه يرى رئيسه في المكتب بمظهره **الوحيد** ، مظهر **الخطر** . إنه يراه إذن بمظهر **سلبي** . يضاف الى هذا أن السيد س إنما يصلي ، عندما يصلي **لله** ، طلبا للغفران **على وجه**

---

(١) انظر « عقدة الخصاء » ذات الاهمية الكبرى في « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » .

الخصوص ، لأنه يعاني مشاعر الإثمية ، وكذلك لـ « يتكفّل به » ، شأنه في ذلك دائما شأن صبي صغير امام **ابيه** ، اب تم إسقاطه في المطلق . ومن المؤكد أن السيد س لا يثق بالله ، ولا بالناس ، على حد سواء . . .

لماذا يجمّد الإسقاط على الرئيس بعضا من الطاقة ؟ لعدة أسباب واضحة جدا . فالسيد س ، قبل كل شيء ، مصاب بالحصر دائما . **إنه** يخاف من رأي رئيسه ، ويخشى أدنى نقد ، وأوهى تقطيب في الجبين ، ويجترّ ، خلال ساعات ، لوما يوجّهه رئيسه له .

وما دام السيد س يخاف ، فان عليه أن يحتمي من خوفه . **فهو** يحاول أن ينال إعجاب رئيسه ، ويبيّن له كم يعمل جيدا ، وانه لا يسأم أبدا ، ويوافق على كل شيء (ولو أنه يغتاظ داخليا) ، الخ . إن السيد س يحاول إذن أن لا يكون أبدا موضع لوم يوجّهه رئيسه ، بما أن لهذا اللوم انعكاسات مغالية تسبّب الحصر ، والأرق ، والاجترار النفسي ، والغضب « المكظوم » ، واللاأمن ، والخوف المبالغ فيه من فقدان مركزه (ولو انه ليس ثمة اي خطر) ، الخ .

يضاف الى هذا أن السيد س يتجنب بأي ثمن أن يكون عدوانيا ، ما دام لا يجرؤ أبدا على المعارضة . فاذا ظهرت عدوانيته ، بصورة شعورية أو لاشعورية ، احسّ بالذنب . ومن يقول : إثمية ، يقول : حاجة الى القصاص . والحال ان القصاص لا يأتي أبدا من رئيسه الذي يحب الناس الذين يؤكدون ذاتهم . **فعلى السيد س إذن ان يجد قصاصه الخاص :** وتلك هي ، عندئذ ، ضروب التعب المفاجئة ، والصداع ، وآلام المعدة . . .

وثمة ، في جميع هذه الآليات ، **مقدار كبير من الطاقة مجمّد .** والواقع أن على السيد س أن يصون واجهته أمام رئيسه ، وعليه أن يكظم كل شيء ، وان يبدو خلاف ما هو عليه . واكرّر ان جميع هذه الإسقاطات **باهظة الثمن** (بالطاقة) . فماذا حدث عندما السيد س احتاز الشعور بما كان يجري في لاشعوره ؟ لقد ادرك السيد س أنه كان يعزو بصورة لاشعورية ، الى رئيسه ، دورا مبالغا فيه ، بكل الخوف والمواقف الخاطئة التي كانت تنجم عنه . وأدرك أن رئيسه في المكتب كان رجلا كغيره من الرجال الآخرين ، وليس غير . والسيد س ، في هذه الفترة ، **لم يكن قط بحاجة الى أن يحتمي عصابيا** . وبدلا من أن يكون كصبي صغير أمام أبيه ، أصبح ثانية موظفا راشدا أمام راشد آخر .

وفي هذه الفترة ، تحوّل الوضع المتمثّل في « **طفل امام ابيه** » الى الوضع المتمثّل في « **راشد امام راشد** » . وزال توتر الشخصية كلها . وتحرّر جزء من الطاقة فعزّز شخصية السيد س ... الذي يجرؤ على معارضة رئيسه **معارضة طبيعية** . وحدث تحرر جديد للطاقة ، وتعزيز جديد للشخصية . وكانت الطاقة قد بدأت تنبعث من أعماق اللاشعور لتروي حياة السيد س اليومية ، شأنها شأن نبع متجمّع تحت سطح الأرض يشقّ فجأة سطح حقل لا يزال حتى ذلك الحين جافا ، متشققا ، ضامرا . وعندئذ ينمو القمح .

في اثناء الإسقاط	**بعد الإسقاط**
كان رئيس المكتب يمثّل السلطان المطلق ، والأب الذي يخصي ويجرّد من الرجولة ، الأب الذي كان عليه ان يخضع له خضوعاً كلياً .	أصبح رئيس المكتب مجدّداً مجرد إنسان فانٍ كغيره من الناس .
كان الرئيس مزوّداً بسلطة فائقة الحد . وكان السيد س يعدّه عدائياً وشديد الخطر . فالاتصالات مع الرئيس إذن كانت تسبّب الحصر .	أصبح الغير ثانية ما هو عليه : شيئاً ما يتصف بالحياد ، ولا يمكن الحكم ، حكماً مسبقاً ، على عواطفه . والغير ينظر إليه بصورة موضوعية ، لا من خلال الخوف الداخلي .
كان الناس تجمعاً من الأفراد المعادين الذين لا بد من الاحتماء منهم ، والذين كان السيد س يشعر بينهم أنه معزول ، ومهدّد ، وعدواني، ومذعور، ومنبوذ، الخ . كان السيد عاجزاً ، من جراء خوفه المعمم وعصابه ، عن أن يميّز بين أصدقائه وأعدائه . وكان كل شخص ، بالنسبة إليه ، خطراً وعدواً بالقوة كان عليه أن يحتمي منه .	أصبح الناس ثانية ما هم عليه : مزيجاً معقداً من الأفراد الذين تتصف أعمارهم العقلية بأنها مختلفة اختلافاً كبيراً . ويبدأ السيد س أيضاً بأن يدرك كم يسقط كل منهم عواطفه على الآخرين . ويبدأ السيد س بالتمييز تمييزاً واعياً بين أصدقائه وأعدائه .
كان السيد س يدور حول نفسه وكأنه خذروف ، وكان عاجزاً عن أن يحب وأن يكون محبوباً .	يبدأ السيد س بامتلاك القدرة على أن يحب وأن يكون محبوباً ، بسبب استئصال الخوف وازدياد الطاقة .

١ ـ الفانوس الصغير أصبح ثانية قنديلاً

يحسّ شخص مصاب بالعصاب أنه يعيش معزولا ومستضعفا في عالم مليء بالعمالقة . ويتصف هذا الشخص بأنه خاضع للخوف والدونية والإثمية . ويحس شخص مصاب بالعصاب أنه عاجز ، إن لم يكن يحس بقوة فائقة ليست غير تعويض عن العجز ، والأمران سيان . وقد بيّنت كيف أن الآخرين يبدون عندئذ معادين **بصورة آلية** . فالخوف يمكن إذن أن يتجلى بالجبن ، والعدوانية ، والكسل ، وإحساس بالإخفاق ، وبعمل عنيف من أجل الإفلات من الحصر ، الخ .

وعندما يتوقّف « الإسقاط » ، يصبح العمالقة ، الذين كانوا يسكنون العالم ، ما هم عليه مجدّداً : أناساً كغيرهم ، بمشكلاتهم الضيقة أو الواسعة ، وبمخاوفهم الصغيرة أو الكبيرة . وعندما تتوقّف الإسقاطات ، ثمة هدوء وثقة تظهران بصورة آلية . وتبدأ وجهة النظر الداخلية في التبدل ، وبالتالي أسلوب النظر الى الخارج .

ولنعد الآن الى البحث عن الذكريات في اثناء التحليل .

خامسا ـ هل ثمة انتزاع لبعض الذكريات من اللاشعور ؟

هل هناك وسيلة لمساعدة المريض على تذكر بعض الذكريات ذات الأهمية ، المطمورة في اللاشعور ؟ وهل يمكن مساعدته على الغوص في ضروب كبته أو في انطباعات منسيّة ؟

ولنتذكر أن بعض الوقائع تتصف بأنها **منسية جدا** لأنها كانت مشحونة بالانفعالات الى درجة لا يمكن احتمالها بصورة شعورية . ويفهم المرء إذن أن من الصعوبة بمكان فتح الدرج النفسي الذي توجد فيه تحت صف ثلاثي من الأقفال .

فالمريض الذي كبت كرهاً لأحد ابويه ، على سبيل المثال ، يجد كثيراً من الصعوبة في « إخراج » هذه العاطفة . ولنأخذ حالة امرأة أخفت ، طيلة ايام طفولتها **كلها** ومراهقتها ، عدوانية إزاء أمها ، باظهار حب مبالغ فيه . وما كان ممكنا ان تظهر عدوانيتها ، ما دامت أمها كانت تمثل ضرباً من المقدس . والحال أن الحب الذي كانت تكابده تجاه أمها كان حباً مزيفاً . ومن المؤكد أن الحالة نفسها تظهر في اثناء التحليل . ويستطيع الشخص أن يذكر بعض المطاعن ضد امه ، ولكنه سيكون صعباً عليه جداً أن يفتح باب « الخروج » لما كان مكبوتاً طيلة سنين عديدة . فهل ثمة إمكان لجعله يفعل ذلك دون التعرّض الى اضرار قد تفسد التحليل ذاته ؟ نعم ، بالتأكيد .

١ ــ هل يمكن « التعجيل » في العلاج ؟

لا يمكن ان نقسر شيئاً في التحليل . إنه قانون مطلق . وقد قلت آنفاً إن « كسر الاقفال » يظهر مقاومات توقف المعالجة . وأمام تدخّل سريع جداً ، فان المريض يغلق الباب : وهذا أمر مسلّم به . واذا التوت شجرة ، خلال جزء من حياتها ، لتحتمي من الريح ، فمن المؤكد أن المرء لا يمكنه تقويمها بضربة واحدة ، تحت طائلة تحطيمها على الفور . ولا يمكن، بصورة مفاجئة ، إعطاء ثروة لإنسان إذا قضى أربعين سنة من حياته كان فيها فقيراً جداً . فهو لن يعرف ماذا يفعل بها ، ويدخل في حالة من الذعر . وإذا وضعت في وضح النهار إنسانا عاش حياته في قعر مغارة ، كان همه الاول أن يحجب عينيه . . . أو ان يدخل المغارة مجدّداً . كل هذه الأمثلة ليست سوى أمثلة نتمثلها بالصورة ، ولكنها تبيّن على وجه الضبط ما قد يحدث لو أن محلّلاً عجّل في العلاج . وقد سبق لي أن بيّنت ذلك في الفصل السابق . **فكل بناء جديد للشخصية ينبغي أن يتم بالنضج ، وكل شيء ينبغي ان ياتي في اوانه .**

وإذا كان المحلّل يسبق مريضه بعدة أشهر ، فانه لا يستطيع أن يقول شيئاً عنه . لا لأن ذلك ممنوع عليه ، بل لأنه لا يجدي نفعاً . حتى

إذا كان بإمكان المريض أن يفهم **بعقله وذكائه** ، فان ذلك لا يعني أنه يفهم بـ « احشائه » (اي وجدانياً) . **إن فهم اي شيء في التحليل النفسي يعني « احتياز الشعور » بهذا الشيء .**

٢ ـ كيف المساعدة على أن تصعد بعض الذكريات؟

ليس المقصود أن يصطاد المرء ، من هنا وهناك ، بعض الذكريات المشتتة أو المتموضعة ، مع أن بعض هذه الذكريات يمكن أن يتصف بالأهمية الكبرى . ولكن المقصود أن نستخلص الطبع العميق للمريض ونبحث عن المغاليق اللاشعورية . وينبغي أن نكشف عن مناخ الحياة المزيّفة الذي تكوّن خلال الطفولة والمراهقة ، مناخ يستمر المريض في العيش بحسبه دون علم منه .

الصعوبات الشائعة

قد يحدث في أغلب الأحيان أن يقول المريض :

ـ لم يعد لديّ شيء يقال . انه ثقب أسود ...

ـ قلت لك كل شيء ، وقدّمت لك جميع ذكرياتي ، ولم أعد أعلم حقا ما أجد ولا ما أبحث عنه ...

ولكن قد يحدث أيضاً ، على الغالب ، أن يتوقف المريض بصورة لاشعورية ، لأنه يجد نفسه أمام باب لا بد من أن ينفتح على ضروب من الكبت المؤلم . ومن المحتمل إذن أن ينفتح هذا الباب ... على نفسه ، وأن يضعه وجهاً لوجه أمام ذاته . ولكن ، إذا عاش المريض في حصن ، مدججاً بالسلاح ، فانه يصعب عليه بالتأكيد أن يخرج عارياً كل العري ، أعزل ، الى سهل يعتقد أنه يزدحم بالأعداء . **فان يرى الانسان نفسه كما هو ، امر يتطلب طاقة كبيرة** . من هنا منشأ التوقف ، والمقاومة ، والتشنج ، ورفض التعاون مع المحلل رفضاً **لاشعوريا** . كل ذلك امر معروف جيدا ومفهوم جيدا .

ثمة موقف يتكرّر أيضاً ، وقد سبق لي أن تكلمت عليه . فالعديد من الأشخاص متعلقون حقاً بعقل المحاكمات . وهذا ضرب من آلية الحماية بالتأكيد . فهم يناقشون ويماحكون ويعقلنون ويحاكمون ، ويريدون أن يبرهنوا على أن لهم الحق في أن يعيشوا كما يفعلون .

فثمة إذن مفارقة عميقة : يعاني المريض ، من جهة ، بعض الأعراض التي **من أجلها أتى يبحث عن المحلل** . ولكنه ، من جهة أخرى ، وبعد عدد معيّن من الجلسات ، **لم يوافق بعدُ على أن يبدأ التحليل** . وهؤلاء الأشخاص يتكلمون على صعوباتهم الشعورية ، وصعوباتهم الحياتية ، ويعترفون بأخطائهم . **ولكن ذلك كله يظل من مجال العقلاني ، ولا يتجاوز الباب الذي يقود الى اللاشعور** .

وثمة حالة أخرى تبرز كذلك . فالمريض مصاب بالتهيّب الى حد يظل متوقفاً . وهو مصاب بالتهيّب لأنه يحتفظ باحساسه انه يجتازامتحانا أو مجموعة من الروائز . إنه يعلم **من الناحية العقلانية أن هذا خطأ . ولكن** الانطباع ، **من الناحية الوجدانية** ، يبقى . فلو أن المحلل استخدم الطريقة الدقيقة ، لتعرّض الى رؤية المريض يتأبّد في صمته الخاص ، بكل ما يفترض ذلك من ضروب الحصر .

وعندئذ ماذا ينبغي أن نفعل ؟ وماذا يمكن أن نفعل ؟ وهل ثمة وسيله لوضع المريض على الدرب ؟ ولنكرّر أن من غير الممكن إطلاقاً تفسير بعض المعطيات الشعورية تفسيراً قبل الأوان بكثير . فالمريض لا يمكنه أن يتحمّل هذه « التجليات » ... **أو قد يتعلق بهذه التفسيرات لكي يمنع نفسه من النزول في ذاته بصورة أكثر عمقاً** . وذلك على وجه الضبط كما لو أنه كان يقول : **« أوف ! هل هذا كل ما عندي ؟ لست إذن أسوأ من ذلك ، ولن أمضي أبعد »** .

سادسا ـ اللجوء الى الخيال

من المتعذر أن نصف هذه الطريقة بالتفصيل . إنها تتطلب تحديداً للجرعة بمنتهى الفطنة ، وسنين عديدة من الخبرة . وليس بامكاني إذن سوى ان اضرب مثالاً ... قيمته قيمة الأمثلة المتصفة بأنهـا تظلّ متموضعة ، ومستخلصة من السياق ، ولا تنطبق إلاّ على حالة خاصة معيّنة ، وبحسب الظروف الحالية ، وبحسب درجة خيال المريض ، ووفقاً لأسلوب تقدّمه من قبلُ في التحليل ، الخ . فكل شخص يختلف عن غيره ... وكل جلسة تختلف عن الجلسة التي سبقتها .

١ ـ ما هو الخيال ؟

الخيال ينطور من السوي الى المرضي ، شأنه في ذلك شأن كل حالة إنسانية . ويُعدّ في عداد الخيال : احلام اليقظة عندما ينعزل المرء ، واحلام اليقظة المرضية ، وبعض الحالات الشبيهة بالأحلام (إن الشخص « يطعّم » الواقع بـ « خيالات » تبعث على الاضطراب في سلوكه ووجدانيته . ويقضي هؤلاء الأشخاص ساعات يحلمون بأنهم شخصيات عظيمة ، ورجال شرطة مشهورون ، وبأنهم ينقذون أناسا في خطر ، الخ) . ولا بد من التفكير بالدور الذي يؤديه الخيال في **الحصر** (انظر فصل « الانسان المذنب والانسان المصاب بالحصر ») . فالشخص يضيف الى الواقع روايات حقيقية ، ويتخيل ما « وقع » وما يمكن أن يقع ، بقوة في التفصيلات التي تسحره أو تجعله يتألم ، الخ .

ولنفكر ايضا بخيال **المصابين بهوس الكذب** : فالفرد يشوّه الحقيقة ، ويكذب دون أن يعلم ، ويتصنّع الأمراض . وذلك يتم في بعض الأحيان بصورة واسعة على نحو غريب .

ويمكن بالتأكيد أن يكون للخيال المرضي انعكاسات اجتماعية خطيرة جدا : رسائل مغفلة ، وفريات ، وقصد مبطن ، واغتياب ، واعتداءات

مزعومة (انتهاك حرمات ، اغتصاب) ، يصفها بقوة في التفصيلات بعض المراهقين ، وهي قريبة من الهستيريا[1] . ولنفكر أيضا بجميع ضروب الكذب التي يوحيها الكره والغيرة والتي تتصف دائما بأنها صورة من صور **التخلف العقلي** . والخيال مصدر لبعض ضروب الهروب ، وهذيان الاضطهاد، وهذيان العظمة ، الخ .

فالخيال إذن سد كبير يتصف بأنه قوي دائماً ، اكان ملوّثاً أم غير ملوث . ولن أهتم هنا **إلاّ** بصور الخيال **الايجابية ،** والممكنة التطبيق في العلاج . وسأتكلم عليها أيضا في فصل « جواز سفر الى اللانهاية » : **العلاج النفسي الرمزي** .

٢ ـ كيف ننهج ؟

يوحي عالم النفس بصور وحالات واقعية أو رمزية ، تساعد المريض على أن ينزل في لاشعوره . وبعبارة اخرى ، يطلب المحلل الى المريض أن يحلم وهو في تمام يقظته ، ولكنه **يقوده** . ومع ذلك ، فان عالم النفس ، وهو يتدخل ، يظلّ « حياديا » بصورة مطلقة . وإليكم من جهة أخرى ما يقوله المرضى :

ـ عندما أقوم بهذا العمل ، أشعر أن صوتك يأتيني من بعيد جدا . وذلك كما لو أن مكبر صوت صغير كان موجوداً في أذني . إنني لا أفكر أبدا بوجودك الشخصي .

إنه إذن ، بالاضافة الى ذلك ، مسالة صوت ونغمية بالنسبة الى عالم النفس . وليس لذلك بالتأكيد **اي صلة** بالايحاءات التي ترتكز على التنويم المغناطيسي قليلاً أو كثيراً : فالمريض يظلّ واعيا بصورة مطلقة .

---

(1) انظر « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » .

٣ ـ حالة ماري

أصيبت ماري بعد شهرين من التحليل النفسي بحالة من « التوقف». لقد تناولت مشكلات طفولتها وتركت بعض الذكريات اللاشعورية تصعد. وكان ذلك ، في الحقيقة ، شيئاً زهيداً من نوع :

ـ ربما كانت أمي تريد أن أكون شبيهة بها . وأشعر بأنها كانت تريد ان تحتفظ بي بنتاً صغيرة ...

إنها ، بالاختصار ، ذكريات تتصف ، مع الأسف ، بأنها ذكريات كثير من الأشخاص .

لماذا « توقفت » ماري ؟ هل السبب أن ثمة مشكلاً من مشكلات الأم ؟ نعم . كانت تتكلم على أمها ، على استبداد أمها ، على طبع أمها،الخ. ولكنها لم تكن تتكلم قط على **ردود فعلها الخاصة بها** ، إلا لتقول :

ـ أحب أمي ، ولا أعلم ما أفعل بدونها ... لقد انقضى ثلاثون عاما ونحن نعيش معا ، هل تتصور !

والحال أن **ماري لم تكن قد ولدت من الناحية السيكولوجية** . وبالرغم من بلوغها الخامسة والثلاثين ، ظلت متعلقة بأمها كما يتعلق رضيع بقارورة الرضاع ، بكل الكره الذي يفترضه ذلك . وكانت تتكلم على الزواج قائلة :

ـ عندما أرى الناس التعساء في حياتهم الزوجية ، افضل البقاء عزباء .

قالت ذلك ، في حين كان عليها أن تقول :

« بدلاً من أن انطلق في حياة الرشد ، افضل البقاء متعلقة بأم أعتقد انني احبها ، بأم سبّبت عشرتها لي عواطف عنيفة من الاثمية ... »

ولكنها كانت تجهل ذلك أيضا ، ولم تكن تعلم ان **شخصيتها كلها** كان ينبغي أن تبلغ النضج (وكانت قد اتت من اجل مشكلات من الحصر والوساوس وهوس التحقق ، الخ) . وكانت تختفي ، في ظل ذلك كله ، **إثمية** حادة . ولكن ماري **كانت تجهل** أنها ، في كل الظروف ، تتصرف **وكأنها كانت آثمة** . ولكنها **اي ذنب ارتكبت حتى تكون آثمة ؟ ولماذا ؟**

وعلى أي حال ، كانت هذه المرأة الصبية متوقفة . وساعدتها هنا طريقة الخيال مساعدة كبيرة .

آ ـ جلسة من جلسات ماري

لن أتوقف هنا عند « التدريب التدريجي » تحت إشراف المحلّل ، ولن أقدّم غير جزء من الجلسة .

طلبت الى ماري ، في يوم من الأيام أن تتخيل وضعاً من أوضاعها اليومية ، كما لو أنها كانت تشهده بصفتها مشاهدة ، وكما لو أنها كانت تنظر الى حياة شخصية كانت هي هذه الشخصية .

وتغلق ماري عينيها ، وتترك لنفسها العنان في أحلام اليقظة .

ـ أرى نفسي جيدا جدا . أحسّ بأنني أمام باب مفتوح ، وبأنني أغوص بنظري في الغرفة التي أعيش فيها ، مساء ، مع أمي ... انني على وشك أن أبدأ أشغال الابرة . وأشعر أنني أقترب من الشخص الذي هو أنا ، وأنظر اليه بقرف ... أحيك الصوف الغليظ من أجل الفقراء ... وأمي تحيك أيضا ... وثمة نار قوية من الحطب في المدفأة... وأحمل شالاً كبيرا على كتفي ... انني (تردّد قوي) ... أشعر بأنني ... بأنني طاعنة في السن ... انني (تردّد جديد ، وبداية نحيب) ... انني أرى هذه ... هذه البنت التي هي أنا . وترفع البنت رأسها ... وتنظر اليّ ... وتقول لي (الصوت يتهدّج) : « ماذا فعلت بشبابك ؟ ... » ثم تنحني البنت الصبيّة الطاعنة في السن على حياكتها ... وانطفأت النار في المدفأة ... واختفت الأم ... ثمة هر هرم ، منتوف الشعر تماماً ، يرقد ... الجو بارد في الخارج ... والثلج يتساقط ... وبي رغبة عنيفة في أن أضمّ البنت الصبية الطاعنة في السن ، وأن أواسيها ، وأن أقول لها إن ...

وهنا ، فتحت ماري عينيها وأخذت تنتحب . ثم صرخت فجأة :

ـ هاكم ما أنا عليه ، بنت طاعنة في السن ، مخفقة ، غير أهل لشيء ، خلفة(*) ... أنا خائفة ، خائفة !

(*) خلفة : سلعة في المستودع لم تبع « م » .

ثم أردفت قائلة :

- لو أن بامكاني أن أقول « لها » كم أرغب في أن أرحل وأعيش ... **اعيش !**

وما سبق لماري ، حتى الوقت الحالي ، أن تناولت المشكل من هذه الزاوية . ويظهر مشكل « البنت الطاعنة في السن » والاستسلام ، **خوفاً من أن تواجه أمها :** إنها تحيك من أجل الفقراء (مع انها لا تحيك أبداً) . وثمة نار قوية من الحطب في المدفأة (أمن مزيّف لا يمكن اقتلاعه) ، وهي تحمل شالاً كبيراً (بنت طاعنة في السن ، حياة فاشلة ، حساسيةللبرودة النفسية) . و « البنت الطاعنة في السن » تنظر الى « البنت الصبية » وتحذّرها ، وتقول لها : اهربي من هذا المخنق . إنها تدلّ على المستقبل: أم خائبة ، وعزلة مثلجة ، وعالم عدائي ولا مبال (هر منتوف الشعر ، ثلج يسقط ، نار منطفئة) .

ثم يبدو الانفجار النهائي : « كم أرغب في أن أعيش » ! ويثير هذا الانفجار مشكل العداوة كله ازاء أمها ، وجميع المطاعن المتراكمة والمكبوتة، وكل العواطف العميقة ، عواطف الإثمية الناشئة بسبب كرهها اللاشعوري لأمها : « إنني خائفة ، **خائفة !** » .

ب - ماري في الجلسات التالية

كان سلوك ماري في الجلسات التالية قد تغيّر . فما السبب ؟ السبب أن ثمة مشكلاً كان قد « انفكّ » عن اللاشعور . فهل فهمت ماري صراعها العميق ؟ كلا ، بالتأكيد . ولكن تجربة **إيجابية** حدثت لديها . وثمة **تمرد** ظهر للمرة الاولى : وكانت ماري **تعيش** هذا التمرد بصورة عميقة . فالصور التي كانت تستشعرها ولّدت ، بطريقةالارتكاس، ضرباً من تحرر في الطاقة ، وتعزّزت شخصية ماري ... وهي على استعداد لمواجهة مشكلات جديدة .

جـ ــ جلسة اخرى لماري

طلبت الى ماري أن تتخيّل انها موجودة في مصر أمام أبي الهــول . فلماذا أبو الهول ؟

لأن ابا الهول ، **في الحالة الراهنة لماري** ، يرمز الى الحيوان العجيب والمهدّد ، الجذّاب والمخيف معاً ، اللغز والشديد الخطر ، المنصــوب في صحراء منعزلة ، وتحته متاهة واسعة من الممرات (ممرات اللاشعور) .

وكان لا بد لأبي الهول ، بالنسبة الى ماري ، من أن يمثّل امهــا ، الأم المحبوبة والمكروهة معاً ، والطيّبة والمخيفة في وقت واحد ، والأم التي تهب الحياة ، ولكنها تستردها بفعل أنانيتها واستبدادها ، مثيرة على هذا النحو عواطف متناقضة بصورة عميقة .

تقول ماري (ولنلاحظ هنا أن ماري **لا ترى** نفسها أبداً ، بل **تشعر** بأنها تتصرف) :

ــ انه لقذارة ، هذا السفنكس (أبو الهول) ... أراه جيدا جدا ، كما لو كنت هناك. وأشعر بأنني في « ليل لزج » ... ثمة قمر باهت ... وأفق أحمر ... وارى أبا الهول الكبير « جامدا » . ولكنه ليس من الحجر : انه حي . وأفكر بكل ما يوجد في بطنه . واقصد ما يوجد في متاهات **الموت** ، تحت أبي الهول . انني لا أجرؤ على المغامرة فيها . وأتقدم خطوة الى الامام ، ثم أبقى جامدة في مكاني ... ثمة افاع في المتاهات . وانظر الى ابي الهول ، وأبو الهول يلاحظني . انه لا يفهم . وهو قادر على أن يحيلني الى العدم بضربة من قدمه . **وهذا ما سيفعله اذا لم اتحرك** . وبوسعه أن **يجذبني ويقتلني ويبتلعني** ، وان ينفخني لو كان يريد ، واذا لم **اتصرف** . ولكنني اريد أن **اعيش وان اتخلص من هــذا السفنكس** (ابي الهول) ... انني بدون حركة في الليل ، ولكنني اقل خوفا . فلماذا أحس بأنني أمامه لكي أكون موضع حكمه ؟ **انني لم افعل له شيئا !** ولكن المخيف انني **اجهل نواياه** ... ولكنني انا ، **هل يسعني ان أقول له نواياي ؟** ذلك كما لو انني كنت اريد أن أفتنه ، وأن **احظى بعطفه** ... ولكنه لا يفتأ ينعم بضرب من الاسطورة .

آه ! اجد نفسي فجأة في الدهاليز . **أكسر قفلا** بضربات قدّوم ، وادخل في غرفة . ثمة خزنة . ونزعت القفل بغيظ ، بوساطة خنجر . وانكشف الغطاء . **ثمة حليّ قديمة** ، مــن

الذهب ، وانتزعتها جميعا واتلفتها ، اتلفت الحلي ... ولم يبق منها غير الغبار ... غبار ... توقفوا !

وتفتح ماري عينيها ، وترتعش (هل من الغضب ؟) ، وتشعل لفافة من التبغ بعصبية وتقول :

ـ تمّ ذلك على ما يرام . اشكرك . وارى ما عليّ ان افعل . عليّ ان انزل في ذاتي واحطّم الخزنات ، وأن لا اخاف من السفنكس ابدا . وشعرت كما لو انني اتخلص من هوّة ... وما كنت أعتقد قط أنني أستطيع أن احلم على هذا النحو ، واظلّ صاحية في الوقت نفسه ...

ولنر ذلك .

يمكن الآن ان نطلب الى ماري ، انطلاقا من أحلام اليقظة هذه ، أن تجري بعض « الارتباطات بين الافكار » . ولكن ذلك عديم الجدوى على وجه التقريب في هذه الحالة . وهذا واضح بالنسبة الى المحلّل ، ولكنه واضح أيضا بالنسبة الى لاشعور ماري . ومن المؤكد أن ماري « سترى بوضوح » على نحو لاشعوري ، ولو اننا لا نتكلم ابداً على أحلام اليقظة هذه ، وأن المحلّل سينطلق مجددا على دروب أزيلت عنها الحواجز .

ومع ذلك ، طلبت الى ماري أن تجري بعض الارتباطات بين الأفكار . وطلبت اليها أن « تقول كل ما يخطر لها » انطلاقاً من الكلمة المعطاة ، كلمة مأخوذة بالتأكيد من احلام اليقظة ، احلامها .

وها هي بعض الارتباطات بين الأفكار ، أجرتها ماري بسرعة تتحدى ، على وجه التقريب ، سرعة تسجيل الملاحظات .

ـ متاهــة :

ـ يختنق . موت . لا مخرج . شعور بالغربة ... كنت على وشك ان افسد حياتي بهدوء ، دون ان ادرك ذلك ... هل ... هل بسبب ماما ؟ ... هذا يمتصني نحو الاسفل

... اختنق ... تيه ... إيكار(*) ... ان اكون مثل إيكار ... انني اخاف دائما أن أحرق جناحيّ ... ولكن أمي مصابة بالحصر الشديد ... مسكينة ماما ... كنت أعتقد انني على ما يرام بقربها ، ولكنني أختنق بقربها ... مثلما كنت في هذا الليل اللزج ... نعم (**سكوت**) ، أخاف أمي ... كما اخاف أبا الهول ... نعم ... نعم ... انني ما استطعت قط أن أفعل شيئا بصورة عفوية ... متاهة ... هذا أيضا كل ما هو موجود في قعر ذاتي ، كل تيهي اللاشعوري الذي يخيفني ...

ـ لم افعل له شيئاً :

ـ أخاف جميع الناس . سائق احدى السيارات اشار لي بأن أمر اشارة لطيفة ، في يوم من الايام ... وبكيت لان احد الناس كان قد اهتم بي ... ولست مع ذلك خبيثة ... ربما ليس كثيرا ... لا أجرؤ ... هذا فظيع ، الخوف ...

ـ قفــل :

ـ يكسر ، يحطم . غضب . كسرت الخزنة ... حياتي مقفلة بالمفتاح الى حد لم يكن بوسعي قط ان اتخيله ، ولكنني احس بذلك الآن بصورة مرعبة ... لا بد من أن يتغيّر ذلك ... ينبغي أن لا يكسر المرء قفلاً ، وانما ينبغي أن يجد المفتاح الجيد ... أعلم أنني على الدرب ، ولكن ذلك قاس ... فثمة كثير من التناقضات ... هل ثمة كثير من الغضب في ذاتي ؟ وفي يوم من الايام ، عندما كنت في العشرين من عمري وكنت أرى صديقاتي يتزوجن ، **حطمت مرآة خاصة بماما** ... انني ... (**نحيب**) ... كانت أمي تبعد جميع الشباب ، وتريني الحب وكأنه قذارة ...

فلنعد الى **القفل والحلي والمرآة المحطمة** .

حطمت ماري القفل والحلي « في الخيال » . أما المرآة ، فقد تكسّرت فعلاً عندما كانت في العشرين من عمرها .

ماذا يمثل ذلك ؟ والى ماذا يرمز القفل والخزنة والحليّ ؟

المرآة محطمة أولاً بصورة فعلية . فلماذا هذا اليأس ؟ لأنها كانت

(*) إيكار : ابن ديدال الذي هرب معه من متاهة كريت بوساطة أجنحة تم تعليقها بالشمع. ولكن إيكار اقترب كثيرا من الشمس ، فذاب الشمع ، وسقط في البحر « م » .

قد جعلت امها مسؤولة عن « خنقها » ، في حين انها كانت ترى صديقاتها يتزوجن . وكانت ماري قد حطمت **شيئاً خاصاً بامها** ، وكانت ، بالاضافة الى ذلك ، « تحتفظ بصورة » أمها . الأمر الذي يتصف ببساطة انه « طقسي » قتل الام . فهي **تقتل بصورة رمزية أمها** ، شأنها في ذلك ، على وجه الدقة ، شأن بعض الثوريين الذين **يقتلون جهاراً** ما يمثل دكتاتورا ، من صورة أو نحوها ، علامة كرههم له .

والأمر على المنوال ذاته بالنسبة الى القفل والخزنة التي تحتوي على الحلي هنا أيضاً . ولن نتوقف عند الرمزية الجنسية للحلي والقفل والخزنة ، التي تقودنا الى بعيد جدا ، مع أنها **رئيسة هنا** .

ولنشر الى أن ماري لا تقتل أمها ، بل **الإحساس بأمها** ، **الذي** تحمله في أعماق ذاتها .

واذا كان قتل الام قائماً ، فالكره موجود . ولكن المؤكد ان ماري لا تستطيع ، أو لا تستطيع **بعد** على الأقل ، أن تحتمل بصورة شعورية أن جزءاً من شخصيتها « يقتل » أمها . وهذا ، من جهة أخرى ، هو السبب في أنها ما كفت عن كبت هذه الفكرة . ولهذا السبب أيضاً ، كان قد تم اختيار **رمز**(1) **حوّل** قوة وجدانية غير محتملة إلى **طقسي تحتمله أخلاقها وشعورها** . وعلى أي حال ، بدأت ماري باحتياز الشعور بهذا الكره المكبوت . إنها تصرح : « **توقفوا** » . وفكرة الكره بدأت تشق دربها ، ومن الضروري أن نفحص الحالة (الإفلاح في إيجاد **المفتاح المناسب**) فحصاً بوضوح . ألا تقول إنها **تريد أن تعيش** ، وهذا يعني إذن أنها تشعر بأنها مخنوقة ؟ وهي ترى ، على هذا النحو ، أن توجيهاً جديدا لحياتها أمر لا غنى عنه . . .

وتلا هذه الجلسة حصر شديد جدا ، حصر تبعه على وجه السرعة إحساس بالتحرّر القوي . فثمة ضروب كثيرة من الكبت كانت قد انطلقت ،

---

(1) الرمز محوّل للطاقة (النفسية) ، شانه شأن محوّل كهربائي على وجه الدقة .

بكل الطاقة المستردّة التي يفترضها ذلك . ولكنها أيضاً ، كانت قد **تجرأت** ، للمرة الأولى ، أن تواجه مشكل الكره الذي تحرّمه الأخلاق والمحظورات عندما يتعلق الأمر بالأم .

وها هو أيضا ارتباط آخر بين الافكار .

ـ افـاع :

ـ لا أعلم ... في حديقة الحيوانات ، انظر اليها طويلا . انها تستهويني وتنفّرني ، وتجعلني افكر ... لا ... لا أجرؤ أبدا أن أقول ذلك ... ولكنك هل ستفهم ؟ ...

الأفعى رمز القضيب هنا . قالت ماري فيما بعد :

ـ « هل تتذكر الافعى ؟ حسن ، كنت احس احساسا ماديا بأنها كانت تنفذ الي وكأنها عضو جنسي لرجل ... ولكن ذلك كان بالنسبة لي ضربا من العار . فأمي كانت تقول لي دائما ان الجنسية قذارة . وكيف كان بوسعي أن أصدقها ؟ ... » .

وتزوجت ماري بعد عام ونصف من نهاية التحليل الكامل . وهي الآن موجودة في جهة ما من امريكا . وكل ثلاثة اشهر ، ترسل برقيتها : « كل شيء على ما يرام في السفينة .. » .

سابعا ـ مزايا طريقة الخيال

لابد للمرء ، هنا ايضاً ، من ان يحتفظ في ذهنه بفكرة مفادها أن كل شخص يختلف عن الآخر ، وان يعرف كذلك أن اي جلسة لا تشبه الأخرى . فاذا طبقنا التحليل النفسي الدقيق ، كان من المحتمل ان نرى المريض ، **في بعض الحالات** ، يستمر فترة طويلة في الصمت أو في التوقّف . وهذا يحدث على الغالب عندما لا تتوافر الطاقة النفسية الضرورية لدى المريض بعدُ لـ **تحمّل** بعض المشكلات المكبوتة بعمق . وعند ئذ ، يجانبها المريض ، ويغيّر الاتجاه ، وينحرف عنها، الخ. فنحن عند ئذ امام **مقاومات** يمكن أن تدوم زمناً طويلاً على وجه التقريب .

والطريقة المرتكزة على الخيال تتيح ، في هذه الحالات ، توفير الزمن. ومن الواضح أنها ينبغي أن تكون **موافقة** لوضع كل مريض . وعلى المحلّل

ان يضبط « سير الأحداث » مرتكزاً على إمكانات الفرد الداخلية وعلى الطاقة المتوافرة لديه ، متجنباً ضروب الحصر الشديد ، الخ . فمن الضروري إذن أن لا نتصدى الى اي مشكل من المشكلات صراحة ، وانما بسلوك الدرب الرمزي .

١ ـ هل المريض مشاهد ام ممثّل ؟

كثير من المرضى صرحوا بعد بعض الجلسات :

ـ أشعر شعورا قويا بأنني **أنظر الى نفسي تتصرف** . إنني شبيه بآلة التصوير السينمائية التي تصورني . وارى نفسي في اوضاع شتى : اصغر سنا ، واكبر سنا ، وارى نفسي في بعض حالات طفولتي ومراهقتي ، وفي حالات خيالية على نحو صرف ، الخ .

والفرد ، في هذه الحالات ، يصبح « مشاهداً » . إنه ينظر الى نفسه ويصبح مراقب نفسه الخاص وكأنه منفصل عن ذاته .

٢ ـ الوضع في حالة ماري

عندما اقترح عالم النفس **أبا الهول** ، فانه كان قد فعل ذلك بالتأكيد لهدف واضح : ان يرمز الى **ام** ماري ، ام تتصف معاً بأنها محبة وشديدة الخطر ، تجذب وتنبذ ، أم تخنق و « تقتل » الشخصية ، أم عجيبة ، الخ . ولكن عالم النفس كان يبحث على وجه الخصوص عن إثارة ردود فعل ماري إزاء امها .

وصورة ابي الهول **عزلت** ، إذا صح القول ، ام ماري ، كما لو انها كانت قد وضعت تحت المجهر . يضاف الى هذا انه كان لدى ماري «عقدة» إزاء امها :اي ان مشكل امها كان موجوداً لديها **معزولاً ،ومشحوناً بطاقة انفعالية هائلة** على وجه الخصوص . **ولكن هذه الطاقة كانت مجمّدة** . وبفضل هذه الجلسة ، ثمة ردود فعل لاشعورية شقّت دربها نحو الشعور ، محرّرة تلك الطاقة غير المستخدمة .

٣ ـ ارتفاع التوتر النفسي مؤقتا

تتيح هذه الطريقة للشخص أن يقيم اتصالاً بلاشعوره ، وأن يعزل العقدة . وتحدث ضروب من « انطلاق المكبوتات » . فكل انطلاق للمكبوت يحرّر الطاقة التي جمّدها الكبت . ومعلوم ، والحال هذه ، أن الهدف النهائي لعلاج سيكولوجي هو تعزيز طاقة « الأنا » . فكلما أصبحت الشخصية قوية ، كانت قادرة على رؤية ما يحدث بوضوح ، وقادرة على النضال ضد التوترات اللاشعورية .

٤ ـ معالجة المشكل بالتسلل اليه

تتيح هذه الطريقة تجنّب « الهجوم مواجهة » . وسيكون هذا الهجوم ، من جهة أخرى ، هجوماً شديد الخطر وغير مجد على وجه الدقة في معظم الحالات . فما السبب ؟ السبب بكل بساطة أنك تدفع الشخص الى خنادقه وتجمّده زمنا طويلا . وهو ، بصورة لاشعورية ، يسرع في إحكام المغاليق التي يحاول المحلّل سحبها بعنف . والحال أن الشخص، في هذه الطريقة ، **سلبي** . إنه **يشهد** شيئاً ما . يضاف الى هذا أنه يعمل **بصورة رمزية** . فيدرك مشكله إذن بـ « التسلّل » اليه ، إذا جاز لي أن اقول ذلك .

٥ ـ هل تخفق هذه الطريقة في بعض الاحيان ؟

نعم ، بالتأكيد . فهذه الطريقة تلجأ الى الخيال والإحساس . والشخص الذي لا يعيش **إلاّ** بعقله ، والذي خنق وجدانيته ، وحدسه ، وإحساساته ، وخياله ، يعاني صعوبات كبيرة في « أن يشارك في اللعبة ». فعقله سيتدخل باستمرار ليهمس في أذنه أن مثل هذه الحالة عبث بوصفها غير موجودة في الواقع . واذا أثار خياله صورة ، سدّ العقل طريقها . ولنفرض أن الشخص يقول :

ـ أرى نفسي في حديقة . وتبدو في هذه الحديقة افعى من الذهب . .

من الذهب غير موجودة » . ثمة إذن صراع بين العقل والوجدانية . وهنا إنما يتدخّل التدريب الذي ينبغي أن يعلّم « ترك العنان » للخيال والنظر اليه على أنه واقعي كما يحدث في أثناء الحلم الليلي سواء بسواء .

٦ ــ ثمة خطر في هذه الطريقة

« يسير » بعض الأشخاص سيراً سريعا في هذه الطريقة . وذلك يعني في بعض الأحيان ... انهم يرضون باستخدامها عن طيب خاطر . وهذا أمر مشكوك فيه . فما السبب ؟ السبب أن هذه الطريقة تتيح لهم أن « يحلموا » ... **وأن لا يتناولوا المشكلات الواقعية أبداً** . فيستقرون في أحلام اليقظة كما يستقرون في ضرب من الهروب .

ويشعر أشخاص آخرون أنهم « يجتازون اختباراً » ، الأمر الذي يجمّدهم . ويحس آخرون أنهم « وقعوا في الفخ » لأنهم يريدون أن يعرفوا الى أين يمضون « ولماذا يجعلهم المحلّل يفعلون ذلك » .

ومن المتعذر أن ادخل في تفصيلات لا يُحصى عددها . فكل شيء ، وأكرر مرة أخرى ، منوط بكل شخص ، وبكل حالة ، وبكل جلسة . وأحيلكم الى الفصل الثالث عشر « جواز سفر الى اللانهاية » ، في الفقرة الخاصة بعنوان « العلاج النفسي الرمزي » .

الفصل الثامن

«محبوب» بقدر ما هو «مكروه»

منذ ان ينصبّ الحديث على التحليل النفسي ، يتكلم الناس على **التحويل** بالسهولة التي يتكلمون بها على « عقدة » الدونية . ويقال عادة، على سبيل المثال ، إن « النساء يصبحن عاشقات لمحللهن » ، الأمر الذي يعني ان رجلاً يعمل مع محلل ذكر يفلت من التحويل ، وهو أمر خاطىء ، فالمشكل يتصف بأنه اكثر اتساعاً بصورة غير محدودة .

ويقال ايضاً إن « المريض يصبح تابعاً للمحلل بصورة كلية » . ويزعمون بأنه خاضع لـ « إرادة » المحلل . والحال أن ذلك باطل كما قلت آنفاً . فعالم النفس الذي يباشر علاجاً تحليليا لا يوجّه ، ولا يأمر ، ولا ينصح بشيء . إنه يظلّ حياديا . وهو ـ ولا يمكننا أن نردّد ذلك كثيراً ـ خارج كل أخلاق وكل دين . وعلى المحلل ، وإن كان له أخلاق ودين شخصيان ، أن يكون قادراً على أن « يعزل أفكاره » وأن يحلل ، بالمقدار نفسه من الموضوعية الداخلية والخارجية ، إنسانا من قبائل البابو ، وفرنسيا ، وكاثوليكيا ، ومسلما ، وطاويا(*)

(*) الطاوية : الديانة الشعبية في الصين ، وهي مزيج من عبادة الارواح والطبيعة والاجداد، ومن عقائد لاوتسي ومعتقدات شتى « م » .

١ ـ العلاقة الانسانية

معظم العلاقات الانسانية قائم على الخوف ، وبالتالي ، على عاملين أساسيين : **الهروب الى الأمام** (عدوانية) أو **الهروب الى الوراء** (خضوع ولامبالاة تتصف ببرودة المشاعر). وملايين من الموجودات الانسانية يخافون ملايين أخرى من الموجودات الانسانية دونما داع موضوعي : والسبب بكل بساطة أن الخوف أو الحصر موجودان لديهم . ويعتقد كثير من الناس أنهم ينجزون أفعالاً حرة ، في حين أن **الظل** المهدّد لآبائهم ولأمهاتهم (من بين ظلال أخرى !) لا يزال يوجّه أعمالهم (انظر فقرة « الأنا العليا » في في فصل « عندما الشيطان يقود الرقص ») . إنهم يحملون في ذواتهم رواسب ضرب طويل من **تقطير** الخوف يُسمى التربية (تربية فاشلة بالتأكيد) . **وهؤلاء الناس ليسوا إذن مستقلين** . فهم انصاف أطفال وأنصاف راشدين . **وينفذ إلهم باستمرار** آلاف من ضروب التحويل كما ينفذ الماء في الأرض ...

ولكن كل خوف يجد صداه في العلاقات الرائجة . فالناس يستجيبون للعدوانية بالعداونية أو بالخضوع ؛ **وللخضوع** ، بسادية يرقية أو بالعدوانية أو الاحتقار ؛ وللعنف ، **بالعنف أو اللامبالاة المزيّفة** أو الهروب. وللامبالاة ، بخوف جديد : « جاري لم يوجّه إليّ تحيته هذا اليوم . فما باله ؟ » ومضمون هذا القول : « هل يحقد عليّ ؟ إذا كان يحقد علي ، فانني أخاف ، لأن ذلك يعيد الى ساحة **الشعور** ، من أعماق شخصيتي ، حصر كوني وحيداً ، ومهملاً ، وملوماً ، وموضع نقد ، وغير محبوب ، ومنبوذ ، الخ » .

ويمكن الإكثار من ضرب الامثلة ، وحسب المرء أن ينظر الى من يحيطون به .

٢ ـ التحليل النفسي علاقة انسانية

كل عمل سيكولوجي ، سطحياً كان أم في الأعماق ، علاقة إنسانية

بين عالم النفس ومريضه . إنه ــ وهو أمر معلوم ــ عمل تعاوني كثيف ، فلا يسع عالم النفس أن يفعل شيئاً دون مريضه . . . والعكس صحيح . قلت ــ وآمل **أن أكون قد بيّنت ذلك ــ إن المحلّل** ومريضه « رفيقا طريق » .

العمل السيكولوجي يمثّل إذن علاقة إنسانية . **فاي نوع من العلاقة؟** إنها ــ **وقد قلت ذلك** فيما سبق ــ علاقة **فردية على وجه الدقة** لا يمكن لأي شخص آخر ــ **اي شخص على الاطلاق** ــ أن ينفذ إليها .

ولكن **ثمة ماهو أكثر . إن العمل السيكولوجي يمثّل « علاقة إنسانية»** لا يمكن **مقارنتها باي علاقة أخرى . فما السبب ؟**

يصل المريض بصورة مباشرة من عالم مدجّج بالسلاح ، من عالم يقرضه الخوف ، ويجلس أمام شخص أعزل . إنه يصل من عالم تسود فيه حماية الذات حماية مستمرة . وعليه أن يتعلم « العفوية » . . . وبالتالي أن لا يخاف أبداً ، لا من نفسه ولا من الآخر (عالم النفس) . فهل هذا أمر يسير ؟ لا ، بالتأكيد . والمرء لا يتخلّى بسهولة عن قشوره القديمة ، ولا عن أثوابه العتيقة ذات الطراز البالي ، ولا عن عاداتهالقديمة في الدفاع . ولكن ذلك حكاية أخرى سأتكلم إليكم عليها فيما بعد .

ومن جهة اخرى ، قد يحدث على الغالب أن يتوقع « العقوبة » لاشعوريا مريض كان عدوانيا إزاء المحلّل ، مثله على وجه الدقة مثل طفل خبيث يخشى عقوبة أبيه و « تأديبه » . . . أو مثل كثير من الراشدين الذين يخشون أن « تصعقهم » الصاعقة ، علامة غضب الرب « الأب » .

والحال . . . أن العقوبة لا تقع . فالمحلّل يظلّ عطوفاً ، وإنسانياً ، ومحباً ، وحيادياً . وفي هذه الحال ، نرى المريض على الغالب **يعاقب نفسه** : بصداع حاد يظهر فجأة ، أو بتعب مباغت ، أو بتأنيب أليم يوجّهه لنفسه ، الخ .

فالتحليل النفسي ، إذن علاقات إنسانية ، وعلاقات إنسانية خاصة، وعالم نفس حيادي ، وعلم يخرج على المعايير الشائعة .

ومع ذلك ، تزدحم الآراء المسبقة في ذهن المريض ، اي اساليب في الحكم تتصف بأنها على النقيض مـن التصورات السيكولوجية . فهـذا « خسيس » ، وذاك « متعجرف » ، أو « شجاع » أو « جبان » ، أو « مزهوّ » ... إلى غير ذلك . والحال أن هذا كله لصيقات لا معنى لها في علم النفس .

وسيعزو المرضى الى عالم النفس إذن **مقاصـد** . فـأي المقاصـد سيعزونها إليه ؟

والمريض ، كما قلت ، يعرف ضربين شائعين من ردود الفعل : الهروب الى الأمام أو الهروب الى الوراء ، وذلك انطلاقاً من الخوف . فمن المنطقي إذن ان يعزو المريض الى عالم النفس ضربي ردود الفعل نفسيهما : المحبة أو العدوانية ، **ولو أنه يعلم** ، **من الناحية العقلانية** ، **ان هذا خطأ** . ويبدو عالم النفس تارة ، بحسب الاتجاه الداخلي للمريض ، ودوداً ولطيفـاً وبشوشاً ، الخ ، وطوراً يبدو عدائياً وقاسياً ومستاءً وذا مزاج سيء ، الخ . ويشعر المريض تارة أنه « نزل أهلاً » ، وطوراً « أسيىء استقباله».

والحال بصورة عامة أن :

ـ **كونه** « **موضع حفاوة** » يعني ، بالنسبة إليه ، **انه مقبول ومحبوب**؛

ـ **كونه** « **أسيىء استقباله** » يعني ، بالنسبة إليـه ، أنه **منبـوذ وغير محبوب** .

ونقع هنا على قطبين رئيسين من ردود الفعل العصابية . فكل شخص يعاني عصاباً ، يعاني « خوفاً عميقاً » (حصراً) . ويكابد الاحساس الأليم بأنه وحيد في العالم ، وحيد في حالته ، منعزل عن العالـم « السوي » ، وبأن الله تخلّى عنه والناس . **ويعتقد ان العالم الخارجي يعاديه . ويحس إحساساً الى درجة المبالغة بالحاجة الى ان يكون محبوبا . وهو بالتالي يخشى بصورة مغالية ان يكون منبوذاً .**

ويتبيّن الآن كم يمكن لموقف عالم النفس ، الموقف الذي يترجمـه المريض على الغالب ترجمة سيئة ، أن تكون له انعكاسات مباشرة وعميقة .

٣ ــ المريض التائه

المريض « تائه » إذن ، وأعني بذلك أنه ملقى خارج طريقه المألوف . فاقرؤوا الجدول التالي :

بعض ردود فعل المريض	رد الفعل الدائم لعالم النفس
حاجة الى الإعجاب ــ حاجة الى أن يكون محبوباً ــ محبة ــ عداوة ــ كلام عدواني ــ حاجات الى إظهار مزاياه ــ تهيّب ــ خضوع ــ خجل من بعض الاعترافات ــ الخ .	حيادي ــ ودود ــ عطوف ــ لا ردود فعل مرئية ــ لا يصدر حكماً أخلاقيا .

ولكن لنر على وجه الدقة ما هو التحويل .

اولا ــ ما هو التحويل ؟

التحويل مصدر للفعل « حوّل » . فالمرء يحوّل **شيئاً من الأشياء الى شخص من الأشخاص** ، سواء كان ذلك في التحليل النفسي أم في الحياة اليومية . **ماذا نحوّل** إذن **والى مـن ؟**

١ ــ التحويل ضرب من الاسقاط

تكلمت طويلاً على الاسقاط في الفصل السابق . واذكر بأن المقصود سيرورة نفسية قوامها أن يعزو المرء الى آخرين عواطف كامنة في ذاته .

ويتصف الاسقاط بأنه اقوى بمقدار ما تكون الآليات اللاشعورية قوية أو بمقدار ما يكون العمر العقلي منخفضاً .

والشخص الذي يسقط عواطفه شبيه **إذن** بسراج يرسل ضوءه على شخص ... ولكنه يعتقد أن « الآخر » يصدر أشعته الضوئية ، في حين أنه يقتصر على أنه يعكسها . وسنرى الى أي حد يتصف هذا المبدأ بانه

ذو اهمية في علم النفس السريري . والتحويل ضرب من الاسقاط ، ولكنه اكثر اتساعاً بكثير . وهو يظهر **دائماً** في اثناء التحليل النفسي على صورة او على اخرى ، ويبيّن الى اي حد يحتاج كل إنسان الى المطلق ...

يقول مريضـــان :

الأول : حلمت انني كنت اشاطرك حياتك ، وارتب كتبك ، وأعمل معك ، وانك كنت واثقاً بي ثقة مطلقة ...

الثاني : حلمت الليل الماضي أن زوجتك كانت تفتح الباب لي . وكان وجهها مخيفاً ، كما لو انها احتست الخمر . وكانت طاعنـــة في الســـن وقبيحـــة ...

والمريض الأول رجل يعاني العواطف القوية المؤلمة ، عواطف الدونية . ويكابد الإحساس دونما انقطاع بأنه غير محبوب ، وبأن الآخرين ينبذونه ، وبأن لا حق له في الوجود كالآخرين سواء بسواء .

وهو في حلمه يشاطر المحلّل حياته ، المحلل الذي يمنحه ثقتـــه . فأيها « التحويل » ؟ المحلّل يمثّل **الأب** (بصورة عامة) : ذلك الذي **يعفـــو** عفواً مطلقاً عن طفل لا يفلح في ان يكون مستقلاً ، و **يكفله** بصورة مطلقة . وهنا لا يحوّل المريض **اباه** الى المحلّل ، وإنما يحوّل **الأب** بالمعنى الواسع للكلمة ، اي **السلطة والقدرة والاله ...**

والمريض الثاني امراة صبيّة تحوّل عقدة أوديب (١) . ويمثّل المحلّل اباها ، الذي ترغب في ان يكون لها وحدها . وزوجة المحلّل هي أمها ، فهي إذن حاجز . والحاجز في الحلم تمّ « استبعاده » : فالزوجة قبيحة وطاعنة في السن . ومضمون ذلك **ان الأب لا يمكـــن ان يحبها في هـــذه الشروط ، وسيكون أبي لي وحدي ...**

---

(١) انظر هذه العقدة ذات الاهمية الكبرى في « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » ص ٢٨٦ ـ ٣١٠ في الترجمة العربية .

وكما أن بامكان المرء أن « يسقط » العواطف ، كذلك بامكانه أن يحوّل الى الغير تشكيلة كاملة ممكنة منها . ويمكن أيضاً تحويل الرموز ، الخ .

● ها هو رجل يحوّل الاب الى المحلل :

– عمري ثلاثة وأربعون عاما . وبالرغم من ذلك ، أشعر انني صبي صغير طيّع إزاءك . وأروع ما في الامر أنني لا اعاني أي خجل في قول ذلك . واذا كنت هنا ، فلكي أضرب صفحا عن كل ما مضى ، وأن أجد شخصيتي وحياتي الخاصة مجدّدا . واعلم أن عليّ أن اعيش نفسيا تجارب شاقة . انني كالرضيع ، وستكون انت كالاب . وليس ما أقوله امرا مصطنعا: انني أحسه وأكرر أنني لا أعاني أي خجل من الاحساس به .

● **ثمة** ، **في الحالة التالية** ، **تحويل للأم** : فعيادة المحلل تصبح « مسقط الرأس » ، و « حجر الأم » ، وحرارة بيت الأسرة ، و « رحم الأم » .

– الجو بارد عندك ! ينبغي أن يكون دائماً دافئا كما يكون في بيت يشعر فيه المرء بالراحة .

● – **المريض التالي يحوّل** « **الأسرة** » : إنه يشعر بالإحباط لكونه ليس الموضوع **الوحيد** لاهتمام والديه (**المحوّلين الى المحلل**) . وهو غيور من « الأطفال » الآخرين (**المرضى الآخرين**) .

– انني أضرب راسي بالحائط لكوني غبيا الى هذا الحد ، ولكنني غيور من مرضاك الآخرين . فهم يسرقون مني شيئا ما ، يسرقون مني جزءا من صداقتك ...

● **ها هي الحالة ذاتها ، ولكن الإحباط يتلوّن بالعدوانية** (مع التناقضات التي يفترضها ذلك) .

– اذا كان بمقدورك أن تنتقل من مريضة الى أخرى وتهتم بالجميع ، فذلك يعني انك تسخر منهم . ومن المتعذر عليك أن تحب جميع مرضاك . ولكنني ، على كل حال ، لا أعبأ . ومن جهة أخرى ، أشعر ، عندما أنتهي من جلستي ، أنك مللتني وانك تلقي بي على الباب بتأفف . وعندئذ تكون المرأة الصغيرة الطيبة ، التي هي أنا ، منسيّة تماما ! ثم تهتم برقم

آخر ، ولم يفطن للأمر احد على وجه التقريب ! ولكنني أكرر لك أن ذلك لا يهمني ما دمت تعرف عملك . فما ارغب فيه هو أن اكون محبوبة ، وهذا كل ما في الامر .

حالة اخـرى :

يمكن للمرء ان يحوّل أي عاطفة الى اي شخص أو اي شيء . وهـا هو مثـال آخـر .

ما كان السيد م يرى هراً طويل الوبـر ، يسترخي في ترف يعدّه « غريبا » على هر ، حتى يوجّه اليه ركلة في غفلة من أصحابه ، أصدقاء السيد م .

وكان السيد م يعتقد أن هذه الركلة العدائية ناشئة من الحجة التالية :

ـ لا احتمل أن ارى هرا يسترخي ويأكل معجنات فاخرة عندما يكون الملايين من الموجودات الانسانية جائعين .

والسيد م مصيب الى حد بعيد لو أن باعثه الى ذلـك كان صحيحاً . ولكنه لم يكن صحيحاً .

ـ الامر الاول الذي ادهشني (**قال السيد م فيما بعد**) أن فيظي لم يكن موجّها سوى للهررة « غير العادية » ... في حين انني كنت لا ابالي ان ارى هرا عاديا يدلّله أصحابه . لا ... كنت أشعر ببعض من العداوة ، لانني لا أحب الهررة .

الهررة كالنساء ... يخرجن مخالبهن لاتفه سبب ، ذوات نزوات ... يهدلن كالحمام ... ثم يتغيّرن تغيرا مفاجئا ...

الأمر الأول مبتذل إذن : فالسيد م يسقط عداوته للنساء على الهررة. ولكن لماذا يسقطها على الهررة « غير العادية » بصورة أخص ؟

كان السيد م مصاباً بعواطف الإثمية والدونية . وكان الهر ذو الوبر الطويل يمثّل بالنسبة اليه « أرستوقراطية » كانت تشعره بالمهانة ، على الرغم من أنها أرستوقراطية حيوانية . ولكن السيد م كان يمثّل دوراً أمام ارستوقراطي بشري : دور كمال اللياقات والأدب ... وكان يكبح عواطف العداوة . ولكن لا أمام الهر ! فالسيد م إذن **كان يمنح الهر ، بصـورة**

لاشعورية ، عواطف « الفوقية » و « الاحتقار » ، ويحوّل الى الحيوان عداوته العميقة لكل ما كان يشعره بالمهانة . إننا إذن بعيدون عن الباعث الذي كان يقدّمه لنفسه .

٢ ــ العرض الملخص الاساسي للتحويل

يمكن تحويل عواطف الصداقة والحب والحماسة والثقة . وهذا هو **التحويل الايجابي** . وعلى هذا النحو فإن المرء يجد العالم برمته رائعاً عندما يكون سعيدا .

ويمكن تحويل عواطف العداوة والعدوانية والحقد والحذر . وهذا هو **التحويل السلبي** . وعلى هذا النحو إنما ينحرف العالم الى السواد والعداوة عندما يكون المرء تعيساً .

ويؤدي التحويل غالباً ، **في التحليل النفسي وفي الحياة** ، دوراً رئيساً ، وله آلاف الأوجه ، ويتطوّر من مناخ كامن ، إيجابي أو سلبي ، الى الحب او العداوة الصريحين . يضاف الى هذا ان التحويل يصبح ، بعض الأحيان ، صورة من صور العصاب . وعندئذ يعزو الشخص الى شخص آخر عواطف قوية من الحب أو الكره ... **لا وجود لها في الواقع على الاطلاق** ، ولكنها ليست سوى تحويل عواطفه الخاصة .

ويرى المرء إذن أن الاسقاط والتحويل متماثلان . ولكننا على وجه العموم نسمي ما يسقطه المريض على محلّله **تحويلاً** .

٣ ــ الذكاء والتحويل

هل للذكاء صلة من الصلات بالتحويل ؟ لا ، **ما بقي التحويل لاشعوريا** . فثمة أناس ، أذكياء جدا ، يتصرفون تصرفاً باعثه الخوف (عواطف الدونية ، والخضوع ، والعدوانية ، والخجل ، الخ) أمام أناس آخرين ، سواء كان هؤلاء الآخرون أذكياء أو كان عمرهم العقلي

ثماني سنوات (انظر مرة ثانية ، مع ذلك ، حالة السيد م الذي يشعره بالمهانة هر) . ولنفكّر بالحالات البسيطة جدا والشائعة ، حالات أشخاص يحوّلون **الأب** الى كل سلطان ، سواء كان حقيقيا او مزيفاً : شرطي ، جابي الضرائب ، موظف رسمي ، بوّاب البناية ، ناطور ، رؤساء ، الخ . وتلك إذن هي الحالة الكلاسيكية ، حالة سائق السيارة ، المصاب بالحصر ، الذي يتصرف « تصرفا لطيفاً جداً » أمام الشرطي ، لا خوفاً من المخالفة ، بل لأن الشرطي يرمز الى **الأب** الكليّ القدرة ، الذي يمكنه أن يعذّب أو يعفو . وهذا يعني ، بالنسبة الى لاشعور سائق السيارة ، انه **الأب** الذي يمكنه أن ينبذ ، أن يخصي أو يحب . فسائق السيارة يحوّل إذن عواطف عميقة الى الشرطي : أباه الخاص ، **والأب** بصورة عامة ، بل والاله الذي يمسك بكل القدرات . وليست هذه العواطف ذات صلة بالذكاء إطلاقاً ، لا بذكاء هذا ، ولا بذكاء ذاك .

ثانيا ـ امثلة على التحويل

بيّنت بما فيه الكفاية كيف « ينقل » احد الأشخاص ، بالإسقاط والتحويل ، حالته النفسية الى شخص آخر (أو الى المجتمع كله !) ، ناسباً اليه على هذا النحو عواطف لا وجود لها . ولكننا ينبغي أن لا ننسى أن التحليل « تركيز » حقيقي للعواطف ، الأمر الذي يشرح **العنف** في بعض ضروب التحويل ، كالعدوانية القصوى والشغف ، الخ ، وهو عنف مؤقت بالتأكيد ونادر بصورة نسبية .

ويحتلّ المحلّل ، في أثناء التحليل ، مكاناً كبيراً في حياة المريض . وذلك أمر طبيعي ، إذ أن ثمة موجودين بشريين يعملان معاً ، وأن التحليل علاقة وحيدة .

وقد يحدث غالباً ، مع ذلك ، أن المريض **يركز كل انتباهه على المحلل لا على التحليل** . وهو أمر منطقي ، مرة أخرى أيضاً . فالمريض يتصرف في أثناء التحليل مثلما يتصرف في حياته اليومية ، مع هذا الفرق الكبير

المتمثل في أن جميع ردود فعله مشحوذة ومجتمعة في حزمة واحدة ... بمقدار ما يمكنه ان « ينطلق في عفويته » ليحتفظ بشخصيته وذلك أمر ممنوع عليه في حياته الجارية !

١ ــ هل ثمة علاقة واحدة دون تحويل ؟

لا . **فلا وجود لأي علاقة إنسانية ، وحتى في الحياة الجارية ، لا « يحوّل » فيها المرء الى الغير عاطفة من العواطف** ، ولو لم تكن هذه العاطفة غير التعاطف أو التنافر ، غير الحنان أو المقت ، الخ . وحسبك أن تفكر بما يرمز اليه بعض الشخصيات لكي تستشعر التحويل **في الحياة اليومية** على نحو أفضل . واليكم ، على سبيل المثال ، أحد رؤساء الدول : إنه شاب ، جميل ، نشيط ، اب أسرة ، لا رسميات ولا عجرفة . والناس يحبونه حتى العبادة . فهل السيد س هو الذي يحبون ، أم أنهم يحبون ما **يمثله** السيد س ؟ إنهم يحبون ما يمثله ، اي ما يرمز اليه . ويمكن لرئيس الدولة هذا ، على سبيل المثال ، أن يمثل **الأب** (**الأب** المثالي ، والقوي ، والشاب ، والجميل ، الذي كانوا يريدون أن يكون أباهم) ، **والأخ البكر** ، **والدليل ، والمنقذ ، والبطل المعصوم** ، الخ . ونحن هنا في مجال اللاشعور **الجمعي** (انظر ذلك في فصل « جواز سفر الى اللانهاية ») .

كذلك يمكن للممرضة ، بالنسبة لمرضاها ، أن تمثل **الأخت الكبرى** ، **والأم المعبودة والطيّبة** ، **والأم المرعبة** ، الخ . وحسبك ان تتذكر ممثلي الشرطة . إنهم يمثلون **القانون** بالتأكيد ، ولكنهم يمثلون **القصاص** على وجه الخصوص ، وذلك ذو أهمية بالنسبة الى جميع الذين يعانون عواطف الإثمية ، أو يمثلون **الأب** الذي ينبغي تأمين عطفه .

ولنتذكر فيلم « **اثنا عشر رجل في حالة من الغضب** » . فالمحلف، الأكثر استبسالاً لشنق الفتى المدان ، كان رجلاً يبسط الحجج المناسبة للقيام بذلك (حماية المجتمع وجميع هؤلاء الناس) . ولم يكن هذا هو الأمر على الاطلاق ، مع الأسف . لقد كان هذا المحلف **يحوّل الى المتهم**

ابنه الخاص ، العاقّ والمتمرد . فلم يكن **المتهــم** إذن هو الذي كان يريد الحلف إرساله الى المشنقة ، بل **ابنه** الذي يرمز اليه المتهم . وكان يأس الأب وغضبه قد تحوّلا منذ الآن الى المتهم . وكان حكم هذا الحلف بعيداً عن الموضوعية . وكان **يعتقد على هذا النحو أنه يحكم « حكما نزيها » ...** ولكنه كان يرتكب خطأ قضائيا ، بما ان **ابنه هو الذي كان المعنيّ بالنسبة له ، وليس المتهم !**

وهكذا دواليك على توالي الأيام والأنفس البشرية !

يبدو التحويل إذن في الأعمال اليومية . ومن المؤكد أن **الأب** و **الأم** هما قطبا الجـذب في بدايات الحيـاة . وهما اللذان يهبـان الأمن أو اللاامن ، والحب وفقدان الحب ، والتكوين او التشوّه ، والسـلام او الحصر ، واحترام الذات أو استصغارها .

وفضلاً عن ذلـك ، يمثل **الأب و الأم** « نمطين أوليين » ، **ذواتـي استطاعة نادرة** ، يشكلان جزءاً من اللاشعور الجمعي . ولهذا السبب ، يتحوّل وجها **الأب** و **الأم** ، بصورة لاشعورية ، في حالات عديدة .

مثــال :

يقــول السيد ل ، ضابط في الجيش :

ـ أمر غريب ... انني وراء مقود سيارتي أسير على الطريق . أرى رجال شرطة في الافق يفتشون السيارات . فكل شيء على ما يرام اذا كنت في لباسي العسكري . واذا كنت في لباس مدني ، بدات ارتجف ، وأخاف ، ويصيبني الذعر . والحال انني نظامي ، ولاسباب واضحة لا أرغب في البوح بها ! وحسبي أن أبرز أوراقي العسكرية !

ومن الواضح أن ذلك ليس سوى عرض في عداد أعراض أخرى . فالسيد ل يعاني من عواطف الإثمية ، عواطف لاشعورية تتجلّى ، في **جميع** حالات حياته اليومية ، بالاحساس بأنه مذنب . فماذا يمثّل إذن رجـال الشرطة هؤلاء عندما يكون في لباس مدني ، لا تحت « حماية » اللباس العسكري ؟ إنهم ، في هذه الحالة الواضحة على الأقل ، يمثّلون **الأب** ،

والسلطان ، والقصاص ، والخصاء (١) ، والموت .

٢ ـ سؤال يطرحه المرء على نفسه

أعتقد ، أمام مدى التحويل ، أن السؤال الذي يطرحه المرء على نفسه غالباً إزاء هذه العاطفة أو تلك ، السلبية أو الايجابية ، هو : « **ماذا يمثل هذا الشخص بالنسبة لي ؟**» ، أو : «**ماذا يمثل هذا الظرف بالنسبة لي؟**» .

وهل يجد الجواب بسهولة ؟ لا ! بل من المتعذر عليه وحده ، **في** بعض الأحيان ، أن يجده **الا بالنزول** التدريجي في أعماق الشخصية . ويرى المرء أيضا (تذكروا فيلم « **اثنا عشر رجلا في حالة من الغضب** ») كم يتصف بالأهمية أن يكون الرجال الذين تقع على عاتقهم المسؤوليات ، كالأساتذة والمربين والكهنة والمديرين والقضاة ورجال الدولة . . . ؛ **واعين** لضروب التحويل الى الغير التي يقومون بها ، وأن يتحرّروا الى الحد الأقصى من ذاتيتهم .

٣ ـ التحويل لدى السيد ص

كان السيد ص قد نمّى تجاه المحلّل **تحويلا ايجابيا** (خضوعا اقصى ، اظهار مشاعر المحبة والاحترام اظهارا مغاليا) . **وكان كل ذلك يموّه عداوة عنيفة لاشعورية** . واشير اشارة عابرة الى أن السيد ص كان يحوّل **أباه** المستبد الذي كان عليه أمامه أن يخضع ، خلال سنين عديدة ، حتى لا يتلقى الصفع أو الذل أو القصاص . وتلك حالة كلاسيكية مع الأسف ، تبدو مرة أخرى ، أي حصر الخصاء والمازوخية .

وكان يبدو ، والحال هذه ، أن السيد ص « يغوص » في التحويل . فما كان يجرؤ أبدا على أن يعارض رأي المحلّل ، ولا أن يناقش ، ولا أن

---

(١) انظر عقدة الخصاء في « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » .

يعطي رايا شخصيا ، ولا أن يهاجم التحليل النفسي ، وذلك هجوم كان يرغب فيه رغبة قوية ، ولا أن يهاجم المحلل ، وذلك هجوم ربما كان يثأر به من خضوعه لأبيه . والواقع أن المحلل كان قد أصبح ، بالنسبة الى السيد ص ، « إلهاً » معصوما ، « منقذاً » ، ساحرا يسحب الخيوط ، الخ . وذلك كله لاشعوري بالطبع .

وكان لا بد إذن للسيد ص من أن يحتاز الشعور ، وعلى وجه السرعة الكبرى ، **بتحويله وعداوته الخفية على السواء . وكان لا بد من أن يتوقف الخضوع وأن تظهر العدوانية .**

وبرزت الحالة من تلقاء ذاتها .

كان عليّ أن أضع بيانو في مكتبي بصورة مؤقتة . وبقي هذا البيانو مغلقا على وجه الاطلاق حتى اتفادى ملاحظة شخصية جدا . **وفتحت البيانو** من اجل الجلسة القادمة للسيد ص . ولم يكن ، حتى تلك اللحظة ، قد تكلم ابدا على البيانو ، ولم يعبّر عن اي اندهاش من أن يراه في الغرفة ، بل لم يبد عليه انه لاحظ وجوده . فما السبب ؟ السبب أن ذلك كان سيثير محادثة « شخصية » ... محادثة الند للند ، محادثة لم يكن السيد ص قادرا عليها أمام أبيه الذي تمّ تحويله الى المحلل . فهل كان ثمة بيانو ؟ حسن . ذلك أمر لا يعنيه . وكان اكثر تهذيبا (اي اكثر خضوعا) من أن يتكلم عليه دون أن يُدعى الى ذلك .

وفتح البيانو إذن . ومنذ بداية الجلسة ، اتّجه نظر السيد ص نحو الآلة التي كانت تبدي نواجذها البيضاء ، وحبالها المترامية الأطراف . وقال **بمبالغة** في التهذيب :

ـ ما كنت اشك أنك تعزف على البيانو ... والحق انني أود لو اسمعك . **لا بد انك لا تعزف الاّ لباخ ، انني واثق .**

فلنترجم : باخ ←←← كمال موسيقي ←←← بيان للمحلل أنه يعدّه

كاملا ←——— تملّق المحلّل ←——— أن يكون محبوباً ←——— أن لا يكون منبوذاً ومعاقباً .

ولكن كل شيء تبدّل في الجلسة التالية . وقد شرح السيد ص ذلك فيما بعـد :

ـ هل تتذكر البيانو المفتوح ؟ قلت لك ، وبأي صعوبة ، انك لا تقدر أن تعزف الآن لباخ. ولكنني في الحقيقة **كنت أتمنى ان تجيبني : « ابدا ... انني اطرق على البيانو ... »** ، بيد انك لم تقل شيئا . وذلك ما أثارني لانني كنت أشعر وكأنني صبي صغير لا حول له ولا طول أمام هذا البيانو ذي الذنب . وكنت اتخيلك وانت تصدر في سكون الليل سيولا من الانغام بسهولة تدل على قدرة فائقة . ونمت في الليل نوما مضطربا . انك لم تجب عـن سؤالي ، وكنت أشعر بالاحباط . وكان عالمك الموسيقي ينبذني مثلما كان أبي ينبذني دائما من عالمه الراشـد . ثم اخذت أفكر ، وعانيت احساسا غريبا . وكما لو أن رداء كان ينفتح ... قلت لنفسي انك ربما كنت تعزف موسيقى شوبان وليست وبتهوفن . وهذا يعني ، في هذه الحالة اذن ، أنك كنت تنفعل ، بما انك كنت قادرا على تفسيرها . وأحسست تجاهك بمحبة واسعة ، مثلما حدث لي يوم رأيت أبي يبكي ... (**ولنلاحظ هنا ان السيد ص لم يقل لنفسه ان المحلل لم يكن له اي صلة مع البيانو)** . ثم غزتني عاطفة اخرى : انك كنت تعزف على البيانو ، اذن كنت تنفعل ، **اذن كنت انسانا !** لم تك الها ، ولا اسطورة يتعذر فهمها ، وكان لك طفولة ومراهقة ، مثلي ومثل جميع الناس ، وكنت تنفعل ! انك لم تك إلها لا ينفعل ، يجذب الخيوط بالرغم من ارادتي ... كنت انسانا مثلي ، وكان تحليلي يتم **بالتعاون !** وهذه الكلمة ، كلمة « التعاون » ، أصابتني كالرصاصة ! وأعتقد أنني ربحت عدة سنين خلال دقيقتين أو ثلاث .

٤ ـ ماذا يجري هنا ؟

والحقيقة أن محاكمة السيد ص كانت على الوجه التالي : « محلّلي ينفعل . إنه إذن ليس إلهاً ولا شيطاناً ، وليس مطلقاً ! وما دام ليس إلهاً ، فلست طفلا صغيراً لا حول له ولا طول ويخشى الصواعق السماوية. إنني إذن أخاف إنساناً مثلي . فلماذا ؟ »

في الجلسة التالية ، **ظهرت العدوانية** . فما السبب ؟ السبب أن السيد ص تجرّأ على المعارضة ، وتجرّأ على نقد كلمات المحلّل الذي كان حتى الآن « مقدساً » . ولكن السيد ص يتصرف **بعدوانية** ، بما أن الخوف كان موجودا على الدوام . **انه لم يعارض ، بل هاجم هجوما معاكسا** ، لأنه كان يعتقد أن المحلّل يهاجمه . ثم تناقص الخوف تدريجيا حين احتاز الشعور ببعض ردود فعله . وكفّ عن النظر الى المحلّل على انه «مقدس»، وأجرى ضروبا من « التراجع في الإسقاط » ، واسترجع شيئا من الطاقة . وكفّ السيد ص إذن بالتدريج عن ان يكون طفلا أمام إله محلّل ، لكي يفلح في أن يكون راشدا أمام راشد آخر . واحتاز الشعور شيئا فشيئا بأن المحلّل لم يكن جوبيتر شديد العقاب ، بل انسانا لم يكن يصدر حكما ، وكان يتعاون معه . فأمكن تحليل تحويل أبيه ، مع كسب جديد للطاقة .

ثالثا ــ الانسان باحث عن المطلق

سنرى فيما بعد أن ثمة راقاً دينياً في قعر اللاشعور الانساني . « الانسان حيوان ديني » . وهنا ، ندخل في بعض مناقشات الاشتقاق اللغوي التي أرغب في تجنّبها . ولن أتكلم في هذا المجال على « عواطف دينية » إلاّ تبعاً للتحويل .

إنني إذن أتناول الاشتقاق اللغوي التالي . في كلمة « دين »(*) ، ثمة فكرة « **صلة** » : صلة تربط الانسان بذاته ، والانسان بالناس الآخرين ، والانسان بالإله .

وماذا يفعل ذلك في التحويل ؟ أريد ، قبل كل شيء ، أن أقول ما يلي : **كل عصاب قطيعة دينية** بالمعنى الاشتقاقي الذي أعطيته(١) . انها قطيعة « دينية » ، ذلك أن العصاب يعزل الفرد عن ذاته وعن العالم الخارجي .

(*) الكلام على الاشتقاق اللغوي لكلمة « دين » بالفرنسية « religion » لا لكلمة « دين » بالعربية « م » .

(١) انظر « العصاب » في فصل « الانسان المصاب بالعصاب » .

والعصاب يحطّم « صلات » ، والمصاب بالعصاب يدخل في عزلة عن ذاته وعن الآخرين . ويتم ذلك بالرغم من بحثه العنيف عن الصلات الانسانية ، دون أن يشعر في بعض الأحيان .

١ ـ المحلّل المعبود

كل موجود انساني يتصف بانه في بحث عن المطلق ، شاء أم أبى . فأين يجده ؟ انه موجود في الاله بالنسبة الى الذين يعتقدون به . أما الآخرون ، فانهم يتدبّرون أمرهم كما يستطيعون ، ليرضوا سعار المطلق لديهم . فهم إذن «يرفعون الى المطلق» عملهم ، ووطنهم ، وايديولوجيتهم ، ورئيس دولة ، وامورا اخرى مما لا اعلم . وهذا يتيح للانسان أن يشعر بأنه « مرتبط » بالناس الآخرين . . . وبالتالي أن يفلت من الحصر . وذلك يتيح للانسان ان يعتقد بأن « الصلة » لم تنقطع . **إنه لبحث في الخارج عن صلة ليست موجودة في الذات .**

والحال أن ثمة **مطلقا جاهزا يظهر** بالنسبة الى مريض يباشر تحليلا نفسيا . فما السبب ؟ السبب أن المحلّل يمثّل العالم كما يتمنى المريض أن يكون . والسبب أن المحلّل لا « يطلق أحكاما » أبدا ، ويقيم بالتالي « صلة » بين المريض و « الآخرين » الذين يمثّلهم المحلّل .

و « يرتبط » المريض على الغالب بـ « الأب المحلّل » . ويسمع المحلّل غالبا :

- مكتبك مرفأ السلام الوحيد لدي . . .
- لا أعيش الا بدلالة جلستي ، جلسة التحليل . . .
- هذا المكتب هو أمني الوحيد . . .
- ليس لي سواك في العالم . . .
- اضيع الى الابد لو اهملتني . . .
- انني هنا كما لو انني في كنيسة ، لانك تحبني وتقبلني ، ولانك الوحيد الذي لا يكرهني . . .
- امامك وحدك لا أشعر بالذنب . . .

فثمة إذن **تثبيت مؤقت** ، تثبيت المريض على المحلّل . والحال ان التقدم يقتضي أن يتوقف هذه التثبيت بصورة تتناغم مع تعزيز شخصية المريض الراشدة .

ولكن المؤكد أن المحلّل ، وإن كان يرمز غالبا الى اب « صالح » ، قد يصبح ايضا ، في ثانية بعض الأحيان ، شيطانا او أبا « خبيثاً » . ونحن نقع هنا مجدّداً في **التحويل السلبي** المفعم بالعدوانية والعداوة . وبعض المرضى عندئذ ينشرون الأمور الاكثر وهمية واسوأ الفريات ، الخ .

وها هو بعض كلام المحللين الذي يبيّن أن المريض يحوّل « الأب » الى المحلل تحويلا ترافقه الحاجة الى الامتلاك المطلق .

– أمقت هدوءك ، وحياتك الخاصة ، وزوجتك ، لانني أحبك بحنان ، ولا استطيع أن أشاركك حياتك ...

– اترصّد أوهى ضعف من جانبك ، وادنى ثورة اعصاب ... اتمنى أن تكون غير كامل، وأن تغضب ، وأن لا تكون كاله بالنسبة لي ... انه لشيء أقوى مني ، ولا حيلة لي فيه ...

– أسمع دائما قرع الجرس على بابك ، واخشى دائما ان يزعجنا احد ...

– انه لامر مضحك : فانا عقلاني ، اختصاصي بالرياضيات ، مدرس ... ومع ذلك ، أنت بالنسبة لي الآن ، بالرغم من أنني أقاوم ، كالقديس اوغسطين ، ثم كالشيطان غدا ...

كل ذلك اذن مبالغ فيه ومؤقت بالتأكيد ، ولكنه يُبرز هذه الحاجة « الدينية »(*) التي يتصف إرواؤها بأنه ذو أهمية كبيرة للموجود البشري . وذلك هو الشفاء السيكولوجي : تجديد **الصلات** المنسجمة داخل الشخصية ، ثم بين هذه الشخصية والعالم . وعندئذ يزول الخوف .

ويفهم المرء إذن أن **التحويل ليس لعباً** . إنه ، قبل كل شيء ، « اداة » عمل ، مؤلمة للمريض في بعض الأحيان . وقد تكلمت عليه مطوّلا ، لان

(*) بالمعنى الاشتقاقي الذي أشرنا اليه « م » .

التحويل لا ينفصل عن كل تحليل ، كما لا ينفصل عن كل علاقة بشرية . والحقيقة ان ثمة ضروبا من التحويل بقدر ما يوجد من الأفراد ، وكل تحويل يبدي أوجهاً شتى بحسب الجلسة .

ويمكن ، بفضل التحويل ، أن نحلّل **انماط الحياة العميقة** الخاصة بالمريض . ونحلل أيضا بنياته العصابية . فنرى فيها وسائل الدفاع ضد الخوف ، أو ضد الحياة ذاتها : وسبب ذلك على وجه الحصر أن العلاج التحليلي يمثل **تبلور** أسلوب كامل في الحياة . ولكن لا بد من ان يفكر الانسان بأن من يغوص في غمرات العصاب يحتاج الى **الإظهار المغالي** للمحبة . وبما أن عالم النفس لا يمكنه ، في أثناء تحليل دقيق على الأقل ، أن يظهر للمريض « حبه » ، وهو حب انساني ، فاننا ندرك ، والحال هذه ، أنه ينصاب بالحيرة و « الإحباط » . ذلك أن الشخص المصاب بالعصاب يحتاج الى ان **يرى** الناس يعجبون به ، وان **يرى** أنهم يقبلونه ، وان **يرى** أنهم لا يحتقرونه ، الخ .

ومع ذلك ، فاذا دخل المحلّل هذه « اللعبة » ، فتلك أفضل وسيلة لإفشال التحليل ، ويتأخر شفاء المريض تأخرا كبيرا .

ولكن الأمر يبلغ ، بالتأكيد ، أعلى درجات البشاعة عندما يقبل المحلّل أن يكون ضربا من « المطلق » ، وأن يجعله الحب الذي يوجّهه اليه المرضى شاعرا بالحظوة ... حب يمكن أن يتحوّل الى عداوة في الغد .

ويعلم المحلّل بالتأكيد ، في أثناء التحويل ، أن جميع عواطف التحويل لا تتوجّه اليه ، بل الى من يمثّل بالنسبة الى المريض : الأب ، الأم ، الشيطان ، الاله ، الخ . فليس المحلّل **هو** من يحب المرضى ، وانما من **يسقطونه** عليه .

هذا مع الاشارة الى ان من الممكن ، مع ذلك ، وجود عواطف صادقة من المحبة ، تولد بمقدار ما يستعيد المريض نفسه ويستعيد حياة الرشد .

ويمكن اذن أن نكرّر ، دونما ملل ، أن موقف المحلّل ينبغي أن يكون ، قبل كل شيء ، أسلوبا في الحياة ، مفعما بالجاهزية والعطف . وقد تبدو عبثا ردود الفعل الخاصة بشخص غارق في التحويل ... **لمن لم يعان التحليل** . ومع ذلك ، فان من يباشر تحليلا يحس ، منذ الجلسات الاولى ، بمناخ خاص يستحوذ عليه .

ويستند التحويل ، سواء كان في الحياة اليومية أو في التحليل النفسي ، الى قوانين بسيطة جدا :

ــ يبحث كل موجود انساني ، شاء أم أبى ، عن الأمن والسلام والتوازن والرفاه ؛

ــ كل عاطفة من اللاأمن تولد إحساساً بالعزلة والخوف والحصر ؛

ــ كل حَصَر ، أيا كان ، يثير ضربا من الحماية . والهروب والعدوانية هما الضربان الأوليان من ضروب الحماية ؛

ــ كل موجود انساني يتصف بأنه في بحث عن المطلق ؛

ــ بمجرد أن يحس موجود انساني بأن حبه مرفوض ، فانه يدخل في حالة من الإحباط ، ويدخل أيضا في حالة من العدوانية أو الكره .

لنعد اذن الى المناخ في علاج سيكولوجي . فالشخص يعلم (أو يحس) انه مقبول ومحبوب كما هو . إنها إذن حالة وحيدة كما قلت ذلك مئة مرة من قبل . ويدرك الشخص ، حتى ولو كان خائفا ، أنه في مناخ من الثقة المطلقة . وقلت أيضا إن العصاب مرض « ديني » لأنه يقطع « الصلة » التي تربط الشخص بالآخرين . وتتجدّد هذه الصلة بين المريض والمحلّل. وتتصف هذه الصلة بأنها الأقوى بمقدار ما هي الوحيدة التي يمكن ان يتعلق بها المريض أيضا . والحال أن **المحلل يظل حياديا : فهو يحب مريضه ولكنه لا يتصرف أبدا تصرفا شخصيا** . ولا يستجيب أبدا ، والكلام من الناحية العاطفية ، لمحبة مريضه أو لعداوته .

لقد امكننا ان نرى الى أي حد تتصف إثارات المريض ومناوشاته وعدوانياته بأنها كثيرة .

ومن يقول ، مع ذلك ، **عدوانية** يقول **تهديم** . فماذا يحدث في هذه الحالة ؟ إن المريض ضحية بالتأكيد . إنه ضحية الحياة ، وضحية الظروف ، وضحية القدر والمرض ... ولكنه ، على وجه الخصوص ، ضحية الشياطين الداخلية التي تسكنه . وهو ، في اغلب الأحيان ، جلاد نفسه الخاص دون ان يعلم . فماذا يجري في التحليل ؟ إن المريض يسقط نفسه على المحلّل ... الذي يصبح الجلاّد .

واذكر ايضا بأن الشخص المصاب بالعصاب يرغب في أن يتلقى كل شيء ، لأنه عاجز عن العطاء . والحال انه **يحس بانه لا يتلقى شيئا** امام موقف المحلّل ، موقفه **الحيادي** . ومن المؤكد انه عاجز عن أن يدرك ، من خلال عصابه ، موقف محلله ، ذلك الموقف الجاهز والانساني . فهو بحاجة الى **إظهار** مشاعر المحبة له ، وهو بحاجة الى **إظهار** المشاعر العاطفية له . وهو يرغب في أن نمدّد ، **له وحده** ، ساعات الجلسات ، ويرغب في علاج مجاني . **وتبرهن له هذه « المنح » « صراحة » على أن المحلل يحبه .** والحال أن أي شيء من هذا لا يحدث . فيشعر الشخص انه يصطدم بحائط هو حياد المحلّل . ويبدو الإحباط ، والعدوانية بالتالي .

ولكن ثمة امرا كبير الاهمية يحدث عندئذ . إن العدوانية ، في الحياة الجارية ، تصطدم على الغالب بعدوانية اخرى تتصف بأنها الاستجابة للأولى . والحال ان عدوانية المريض لا تلقى ، في علم النفس ، أي صدى . **وبناء عليه ، يمكن للمريض ، على الغالب ، ان يطلق العنان لعدوانيته دون ان يشعر بالإثم** ، ولو لم يكن ذلك إلا عندما يقول لنفسه : « **بوسعي السماح لنفسي بان اكون عدوانيا ، إذ انني ادفع اجور جلستي !** »

إليكم ما كان يقوله احد الاشخاص :

— بمجرد ان اصل الى مكتبك ، اشعر انك تسخر بعنف مما اقوله لك ، ومما انا عليه ،

ومن مراعاتي وهمومي ومللي . وأشعر أنني أضيع وقتي ومالي (**والحال أن تحليل هذا الشخص كان مجانيا**) . وليس بوسعي أن أحتمل فكرة أن تعتني بأشخاص آخرين غيري . وأرغب في أن تفكر غالبا بجلستي القادمة ، وأن تطلع على ملاحظاتي بانتباه ، وأن تدرسها . ثم انني كلما حاولت أن أفعل ما بامكاني ، اصطدمت بحائط من عدم التأثر . فأحس بأنك تحقد علي . والحقيقة أنك تكرهني ...

قد يقال حقا إن هذا الشخص يبحث عن الإحباط . والواقع أنه لكذلك . فما السبب ؟ **السبب أن هذا الاحباط يتيح له أن يكون عدوانيا ، وأن بوسعه أن يكون عدوانيا دون أن يشعر بالإثم** . والدخول هنا في الحلقة المفرغة ، التي ينبغي على المحلّل أن يكسرها ، أمر محتمل .

ويحدث أيضا أن يثأر بعض الأشخاص من خلال علاجهم . وهم ، بصورة لاشعورية ، يرفضون الشفاء ، لأن في إخفاقهم إخفاق المحلّل . ويستقرون عندئذ في وضع الضحية . وذلك يتيح لهم ، أول الأمر ، أن يحتفظوا بالمحلّل لأنفسهم وحدهم ، ويتيح لهم أيضا « معاقبة » المحلّل ، إذ « يبرهنون » له على أنه « عاجز » .

تكلمت إليكم على تدخّلات المحلّل في الفصل السادس . وهذه التدخلات ذات أهمية كبيرة أيضا في أثناء التحويل . وبيّنت الى أي حد ينبغي أن تكون هذه التدخلات « معيّرة » تبعا لتقدم العمل في الأعماق . فالشخص الذي ينطلق في مغامرة التحليل النفسي يرغب في استئصال آلام عصابية . فعليه ، من أجل ذلك ، أن ينزل خطوة خطوة صوب أعماق شخصيته . وهو بالتدريج يتعرّى من « ثياب » ليست ثيابه ، ثياب تحصره دونما شفقة . وثمة أبواب داخلية تنفتح واحدا بعد الآخر . وتنكسر مغاليق الأمن « المزيّف » . ويستمر بعض من الطاقة في التحرر لصالح الأنا . وتتمّ ضروب متتالية من « احتياز الشعور » ، تابعة ، في الجزء الأكبر منها ، لتدخلات المحلّل التي تحدث في الزمن المقصود وتبعا لتطور مريضه .

وكلما كان احتياز الشعور ذا أهمية ، كان على الأنا أن تكون قوية لتضطلع بمسؤولياتها الجديدة . **مثلها على وجه الدقة مثل سجين ، خارج من السجن ، ينبغي أن يكون لديه بعض المال !**

وهنا إنما يتصف دور المحلّل ، في أثناء التحويل ، أنه دور حسّاس الى أقصى الحدود . فالمحلّل الذي يجازف باعطاء تفسيرات **سابقة لأوانها** قد يعرّض مريضه الى خطر الغوص في ضروب من الحصر لا تُطاق ... وبالتالي أن يولّد لديه آليات دفاع جديدة . ولا بد للشخصية من أن يطرأ عليها نضج بطيء في أعقاب نزول تدريجي في الأعماق .

فعلى المحلّل إذن أن يساعد مريضه في احتياز الشعور بتحويله . وهكذا ينفصل المريض عن التحويل ، ويصبح راشدا ومستقلا . ويدرك عندئذ أن لا وجود ، في كوكبنا ، للأدنى والأعلى ، بل ثمة أناس لكل منهم دوره . ويدرك أن لكل فرد إمكاناته وما يتعذر عليه ، وأبعاده وحدوده ، وقواه وضروب ضعفه . أما المريض ، الذي كان يشعر بفعل عصابه أنه قزم في عالم يسكنه العمالقة ، فانه يرجع الأمور الى قيمتها الصحيحة بمقدار ما يستعيد شخصيته الحقيقية . ويرى ، أخيرا ، أن العالم خال من العمالقة .

ويستعيد المحلّل عندئذ دوره الفعلي . إنه يصبح مجدّدا « مرشد السفينة » الذي يساعد على عبور محيط العصاب نحو الهدف النهائي : الفوز بـ « أنا » قوية ومستقلة .

والمحلّل أداة : لا أكثر ولا أقل(١) .

---

(١) أنصح كثيرا بقراءة الكتاب الرائع للمحلل النفسي شارل بودوان ، مؤسس المعهد الدولي في جنيف : « كريستوف ، مرشد السفن » ، دار نشر لاكولومب ، باريس .

الفصل التاسع

اجتياز الشعور

عندما يرى الانسان ، لم يعد يتخيل ابدا .

(جان جيونو)

السؤال الاول الذي يطرحه على نفسه شخص ينجز ، **بالرغم منه** ، بعض الأعمال هو التالي : « **لماذا ؟** » . والشخص الذي يتألم من عصاب لا يكفّ عن التساؤل بحَصر او غضب : « ولكن **لماذا** أفعل هذا او ذاك ؟ **ما الذي يدفعني** للقيام بهذا العمل أو ذاك ، عمل اراه عبثاً أو يستوجب اللوم ؟ **لماذا** توجد لدي هذه الفكرة الثابتة ، هذا الرهاب ، هذا التهيّب ، هذا التعب، هذا الحصر، هذا الخجل،على الرغم من جميع الجهود الارادية والشعورية التي ابذلها لأتخلص منها ؟ ولماذا انا دائماً على وشك أن امثّل ، أمام « **الآخرين** » ، دوراً ينهكني ، ولكنني اقف عاجزاً تجاهه ؟ ولماذا اخفق في خطوباتي المتتالية ؟ ولماذا اكون منحرفا من الناحية الجنسية او عاجزاً ؟ ولماذا لا استطيع أن انفصل عن والدتي ، في حين انني لم اتصل بها قط اي اتصال عميق ؟ ولماذا اكون خجولاً الى هذا الحد ، في حين انني نجحت وأن الجميع يحبونني ؟ ولماذا اكون متوتراً باستمرار وفي حالة استنفار ؟ ولماذا سيطر هذا الوسواس على أعمالي وافكاري ؟ ، الخ » .

كل ذلك يعني ان « لديّ آلية خفية اتمنى إخراجها ، وأن في نفسي عدواً مبهماً يجبرني على ان اكون غير حر . واتمنى ان يبرز هذا العدو في وضح النهار كيما أراه وأصارعه » .

والجواب على هذه **التساؤلات** هو احتياز الشعور .

والشفاء السيكولوجي منوط باحتياز للشعور يزداد عمقاً . ولكي يفهم المرء جيدا هذا الاحتياز ، احتياز الشعور ، **لا بد من أن نحدّد تحديداً سريعاً ماهية « الصحة » النفسية** . فقوامها قابلية دائمة للتكيّف مع شتى ظروف الحياة . وتتطلب الصحة النفسية **انا** مرنة تتصف بأنها على النقيض من **الأنا العليا** الصلبة (١) ، **انا** دون آراء مسبقة ولا كفّ . **والصحة يبلغها الانسان عندما يمكنه أن يعمل ويحب دون خوف ودون أي من آليات الحماية ضد الخوف** . فالفرد يبلغها عندما يمكنه استعمال مصادره ، بدلاً من تجميدها أو تشتيتها في جميع الاتجاهات . ويفهم المرء أن الصحة النفسية متعذرة إذا كانت الشخصية مشطورة الى أجزاء يتصف التفاهم بينها بأنه عابر أو مفقود : وتلك هي الحالة ، الى حد بعيد ، عندما تتكوّن الشخصية اللاشعورية (وعدو الأنا) من « عقد » تتغذّى من الطاقة التي ينبغي أن تكون تحت تصرف الأنا .

ونقول بصورة عامة إن ما هو لاشعوري ينبغي أن يصير شعوريا . وبعبارة اخرى ، ينبغي للقوى الفريزية أن تصعد الى الشعور وتغذّيه وتغنيه كما يفعل نسغ الشجرة الصاعد من الجذور صوب الجذع والأوراق. ويحصل احتياز الشعور عندما « تتكفّل » الأنا بظاهرة لاشعورية أصبحت شعورية وتدمجها . والتغيّرات المباشرة في الشخصية يتصورها المرء مباشرة : فيطرأ على الفرد ضرباً من « لفحة من نور » ، ويدرك **السبب الحقيقي** لهذه الاضطرابات بوضوح ، **ويرى** نزاعاته الداخلية بدلاً من إنكارها وكبتها . . . أو تكرارها بصورة غير متناهية دون أن يعلم . وتتوقّف الإسقاطات . وتُستعاد أجزاء مهمة من الشخصية . وهكذا ، فان كل

---

(١) نتذكر في هذا المجال أن ضروب احتياز الشعور المتتابعة تحدث عقب تفسيرات يعطيها المحلّل في الوقت المراد ، وتبعا للاستطاعة التدريجية التي تكتسبها أنا المريض . هل يتعرّض أحد المحللين النفسيين الى خطر اعطاء تفسيرات مغلوطة ؟ ان الخطأ صفة انسانية . ولكننا نرى على وجه الخصوص الى اي حد ينبغي على المحلّل ان يكون قد « صفّى » مشكلاته حتى يكفّ عن اسقاطها على مريضه .

احتياز مهم للشعور (ونحن نجهل إن كان بعضها قنابل حقيقية !) يعزّز الأنا كثيراً ويحدّد بنيات جديدة . يضاف الى هذا أن أي احتياز ناجح للشعور يقود الفرد ،بصورة آلية،صوب أعمال جديدة وديناميات واسعة.

ويمكن للمرء أن يحتاز الشعور بأي شيء : باسم صديق تنحّى في زاوية مظلمة من زوايا الذاكرة ، وبسهو كان يقع فيه ، وبعادات أصبحت لاشعورية،وبعرّات ، الخ . ولكن موقع ذلك كله في السطح . ويمكن أن يحتاز الشعور بأنه على وشك أن يمثّل دور شخصية ليست شخصيته . ويمكنه أن يحتاز الشعور بأنه يغالي في اللطف ، في حين انه يرغب في أن يكون عدوانيا ، وبأنه يعتقد في نفسه انه « طيب » في حين انه يحتقر الانسانية ، وبأنه يرغب لاشعوريا في الإخفاق ، في حين أنه حائز على كل شيء ليكون سعيداً ، الخ . فثمة آلاف من الضروب الممكنة لـ « احتياز الشعور » .

ويمكن أن يتمّ احتياز الشعور على مستويات مختلفة العمق . ذلك ان بوسع المرء أن يحتاز الشعور أيضاً بضروب من الكبت في منتهى العمق ، محفوظة في اللاشعور منذ الطفولة ، منتفخة بالطاقة المجمّدة ، مولدة عقداً قوية ساهمت كثيرا في أن تكون الشخصية ، في نهاية المطاف ، على بعد ألف كيلو متر من طريقها الحقيقي . فاحتياز الشعور هو فتح بويبات اللاشعور ، واكتشاف الطفالات ، والحريات المجمّدة، والوساوس الخفية، والعصاب العميق . إنه النفوذ الى عالم مجهول ، مَرَضيّ أول الأمر ، ثم مضيء ، ذلك أن بالامكان احتياز الشعور ايضاً بـ **الأنماط الأولى** الكبرى التي تزخرف **اللاشعور الجمعي** (انظر اللاشعور الجمعي والأنماط الاولى في فصل « جواز سفر الى اللانهاية ») ، والتي يترتب عليها انقلاب كلي في أسلوب النظر الى الناس والأشياء . . . ويرى المرء بصورة مباشرة إذن أن بعضاً من ضروب احتياز الشعور **ولادات نفسية** حقيقية . وهي ولادات يندر ، مع الأسف ، أن تتم دون ألم . . .

١ ـ السد يتصدّع

كل احتياز مهم للشعور شبيه بصدع يحدث في السد ، أي العصاب الذي يقابل سيلان المياه ، أي الحياة الفاعلة والاستقلال الذاتي والعيش دون خوف .

ومن المؤكد أن بعض ضروب احتياز الشعور تولد الحصر . فالشخص يبدأ تحليلا نفسيا يرافقه « درعه المميّز لطبعه » وتحميه واجهات يُظهرها عادة للآخرين ولنفسه . ويبدأ عمله السيكولوجي يرافقه حصره وطفالته وتعويضه وكفه ، الخ . ولكنه يبدأ على وجه الخصوص ترافقه آليات الدفاع ، الرهيبة في بعض الأحيان ، التي بناها بصورة لاشعورية كيما يستطيع أن يعيش عيشا مقبولاً .

إنه يبدأ تحليلاً نفسيا بوجه ليس وجهه . وهو يعلم ذلك على نحو مبهم **ولكنه يجهل وجهه الحقيقي** . وهو يعلم ايضاً انه يتصرف على هذا النحو أو ذاك ، ولكنه يجهل السبب . ويحس ، على وجه التقريب ، بأنه يختبىء في حصن ، وبأن صيانة هذا الحصن تكلّفه كثيراًمن المال،أي كثيراً من الطاقة والتعب والإنهاك ، دون أن نحسب حساباً لكونه ملزماً بأن يضيف كل يوم حجراً الى حصنه المهدّد باستمرار .

فالمريض إذن ، من جهة ، ملّ نفسه ، ولكنه من جهة اخرى يتمسك بحصنه وآلياته .

يضاف الى هذا ان المريض سيواجه مشكلات ماضية ، « منسيّة » أو « مكبوتة » . وثمة ضغائن قديمة واسرار مؤلمة مدفونة في الذاكرة بعمق ، ذات علاقة بأشخاص اقربـــاء ، أب ، أم ، أخ ، أخت . . . ، سيحسّ بها تصعد . وسيحس المريض بعواطف مقموعة خلال سنين تصعد .

وفجأة ، ينبعث من خلال التردّد والهروب والتلمّس ضرب من احتياز الشعور ، وكأنه شعاع من مصباح . فترتفع الأقنعة ، وتتحرّر

اسرار لاشعورية ، وتصعد بعض الطاقة . وتظهر المخاوف اللاشعورية بوجوهها العفنة . وتكفي في بعض الأحيان هذه اللفحة من النور حتى تختفي بعض الأشباح ، وتتحطم الأبواب المدرّعة ، ويتقصّف عالم كامل ، عالم مزيّف ، طَفالي ، مقفول بالخوف ، كما تتقصف لوحة خشبية نخرها السوس .

وتبدو ببطء حرية داخلية . ويرى المريض أن كل ذلك ليس **هو** ، بل « شيء ما » **كانت الظروف قد وضعته في نفسه** ، واثر فيه كلياً (انظر الأنا العليا ، على سبيل المثال ، في فصل « عندما الشيطان يقود الرقص ») . وعلى هذا النحو إذن ، **يرى المريض الى اي حد كان يعدّ المظاهر شخصيته الفعلية .**

إنها ، في بعض الأحيان ، لامعقولية هائلة تقفز الى وجهه ، بعد أن دامت سنين طويلة ، وتجعله يقول : « ولكن كيف أمكنني أن أعيش وأفكر على هذا النحو معتقداً بهذه الشخصية التي لم تكن شخصيتي الحقيقية . . »

وهو ، في هذه المرحلة ، انما **يقول** : « هذا أضعف من أناي الجديدة »، **بدلاً من الاستمرار في القول** : « هذا أقوى مني . . . » .

أولا ــ ممر صعب

من المعلوم ان المريض يستشير على الغالب عالماً من علماء النفس لاستئصال **الاضطراب** الذي يؤلمه . ولكن من المعلوم كذلك أن هذا الاضطراب ليس سوى عرض من الأعراض ، وأن التحليل النفسي العميق **يضع الشخصية كلها موضع التساؤل** الى أن تبدو « الولادة الجديدة » النهائية .

فلننظر الى التخطيطية التالية :

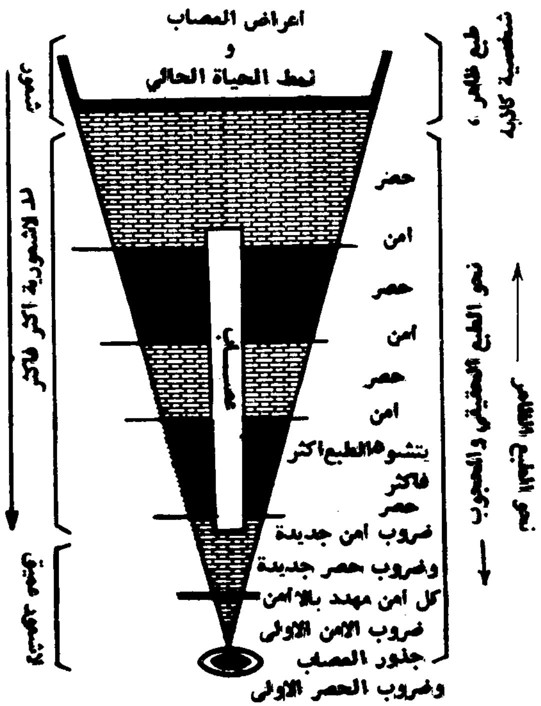

شكل رقم (٥)

ثم لنتخيل ان المريض يجتاز الشعور ، **دفعة واحدة ودونما تهيئة** ، بالنواة الكبيرة **المكبوتة** في أعماق شخصيته .

ولنلاحظ كذلك ما هو **شعوري** وما هو **لاشعوري** . ونحن نرى أن الشعور يكوّن صفيحة سطحية هي حياة المريض الراهنة .

١ ـ ما هو لاشعوري

لنبدأ بالقعر ، أسفل التخطيطية . نجد فيها « نواة » تتكوّن من ضروب الكبت والحصر ، الناشئة خلال الطفولة على وجه الاحتمال . ولكن لنعلم الآن ما يلي : ١) أن الكبت لاشعوري **دائما** ، ٢) أن الكبت يتم لأن دافعاً صاعداً من اللاشعور يعرّض الشخصية الى خطر أن تفقد توازنها ، ٣) أن الكبت يتم لأن ثمة خطراً ، ٤) أن الكبت **وسيلة من وسائل الدفاع في الفترة التي يحدث فيها** .

يتيح الكبت إذن ان يفلت الفرد من الحصر . ولكن لنفرض انه يُتاح للكبت ، في الغد ، أن يصعد نحو الشعور . ويبدو التهديد بالاضطراب مجدّداً . وبناء عليه ، فان المرء يثبّت الكبت في الأعماق . ولنفرض أيضاً أن المرء « يكبت » بدءاً من حالة تدوم منذ عدة سنين . فنرى بصورة مباشرة : ١) أن الكبت مصون باستمرار ، ٢) أن الكبت الدائم يستهلك الطاقة ، ٣) يصبح الشخص مكفوفاً بفعل نقص الطاقة النفسية ،ويتناقص تلاؤمه مع الحياة اليومية ومع الغير .

والكبت آلية أمن . ومن المؤكد أن كل أمن ، والحال هذه ، مهدّد باستمرار كما قلت سابقا . فثمة إذن فقدان ممكن للأمن . . . يولد حصراً جديدا . . . يضع عليه المرء صفيحة جديدة من الأمن . وهكذا دواليك حتى الصفيحة النهائية في السطح .

ولكن علينا أن لا ننسى أن **ذلك كله يظل لاشعوريا . والحال أن ذلك ينبغي أن يصبح شعوريا** ! فلنتخيل أن بوسع المريض أن يحتاز الشعور ، دفعة واحدة ، بالنواة الأولية المكبوتة . إنه ينفجر بكل بساطة . . . وأعني أنه لن يتحمل ذلك . . . بما أنه قضى حياته برمتها يحتمي منه . وسيكون ضرباً من الانفجار « **النووي** » الذي يمسّ « نواة » العصاب ذاتها ، عصاب لا يمكن بلوغه إلا بعد نضج وتعزيز للأنا .

ويمكن مقارنة احتياز الشعور بسيارة تسقط في نهر عميق . فاذا كان السائق يجهل السباحة ، ثبّت قدميه على باب السيارة منذ بداية النزول نحو الأعماق . ومن الطبيعي أن الباب لا ينفتح بوصفه محصوراً بضغط الماء . واذا كان السائق يحسن السباحة ، أنزل زجاج النافذة ، وترك نفسه يهبط بهدوء ، وانتظر الى أن تمتلىء السيارة بالماء . وعندما يتوازن الضغطان الداخلي والخارجي ، فان دفعة بسيطة تكفي لفتح الباب .

ذلك هو الشأن عندما يرغب شخص في احتياز الشعور بأعماقه . فعليه أول الأمر أن يتعلم « السُباحة » ، **واقصد** أن الضروب الأولى

لاحتياز الشعور تتم سطحيا . إنها تمس ظاهرات قليلة العمق ، وتحرّر بعضاً من الطاقة ، وتعزّز الشخصية التي تصبح بالتدريج أهلاً للنزول بصورة تزداد عمقا . فاذا أردنا النزول بسرعة كبيرة ، وقد بيّنت ذلك ، ينسدّ الباب تحت ضغط المياه . **واقصد** ان الآليات الداخلية للحماية تزداد انغلاقا تحت ضغط الحصر .

وكما قلت لكم سابقا ، **إن كبتا واحداً او عقدة واحدة تحدثان تكاثراً في الأعراض** . وبعض هذه الأعراض يمكن أن يكون مثيراً للاهتمام : مثال ذلك ، وسواس ، وعجز جنسي ، ومخاوف مرضية ، وتهيّب يسبّب العجز ، الخ . ويمكن لبعضها الآخر أن يكون ببساطة غير مرئي ، لأنه يشكّل جزءاً من السلوك اليومي . وعندئذ تختلط بالحياة المهنية والعائلية والدينية ، الخ . وبعض هذه الأعراض يمكن أن يبدو « جميلاً » وإيجابياً ، وبعضها الآخر « قبيحاً » أو سلبياً . ومثال ذلك ان **سمفونية بتهوفن التاسعة** عمل « إيجابي » تمّ إنجازه تحت ضغط عصاب . **وضرب من اللطف المغالي** قد يبدو عرضاً إيجابيا ، في حين أنه يحجب عدوانية عنيفة ولكنها مكبوتة . **وضرب من العصاب القلبي** يمكن أن يكون العرض السلبي لنزاعات تسود في قلب الشخصية . ويبدو **الصداع** « سلبياً » ، في حين أنه في بعض الأحيان قصاص ذاتي (مازوخية) يوقعه بنفسه فرد عدواني ، ولكنه لا يجرؤ أن يبدو كذلك جهاراً . وهو يعاقب نفسه على « خبثه » بصداعه . ولكن ذلك لا يمنع عدوانيته من أن تكون موجودة ... وأنها ظاهرة يمكنها ان تصبح إيجابية ، شريطة أن تكفّ عن أن تكون حماية ضد الخوف ، وشريطة كذلك أن تكون مندمجة .

واحتياز الشعور يعني الانتقال من إناء الى آخر . فالمرء يمر من خزّان اللاشعور الى خزّان الشعور . ولناخذ ، على سبيل المثال ، كبتاً (لاشعورياً) يصل الى الشعور . إنه يكفّ عن أن يكون كبتاً لأنه يكفّ عن ان يكون لاشعورياً ، مع ما يفترضه ذلك من نتائج يتصف الحصر المؤقت وزوال بعض الاعراض وتعزيز الشخصية بأنها أكثرها رواجاً .

٢ ـ كيف يتم احتياز الشعور ؟

يتعذّر علينا أن نصيغ قوانين . فاحتياز الشعور ذو ضروب لا يحصى عددها تبعا للأفراد ، ودرجة تطورهم وذكائهم ، الداخلي والخارجي ، والمرحلة التي بلغوها في التحليل ، وقوة احتياز الشعور ، وعمق الكبت أو العقدة اللذين يمسّهما ، وتبلور العصاب ، الخ .

يتضاف الى هذا أن ثمة العديد من الاحتياز السوي للشعور ! فيمكن للمرء أن يحتاز الشعور ، كما قلت ، بنمط أولي ورمز ، وبسلوك عصابي على حد سواء .

اضف الى ذلك أن **احتياز الشعور قد « يشعّ » صوب ضروب اخرى من احتياز الشعور** . وهو أمر يمكن فهمه إذا فكرنا بهذا التكاثر في الأعراض التي كنت قد تكلمت اليكم عليها . ويمكن إذن لمريض أن يدرك أن عددا كبيراً من ردود الفعل التي تبدو متباينة ناجمة عن مصدر واحد .

وعلى سبيل المثال ، يمكن لمريض أن يحتاز الشعور على نحو عنيف بأن وساوسه ، وخجله ، ودقته المغالية ، واستقامته وخوفه من النساء ، وطيبته المفرطة ، الخ ، **وثيقة الصلة بعضها ببعض** ، وتتّجه صوب نواة مكبوتة في اللاشعور . فكثير من الشجيرات تنقطع على هذا النحو بضربة واحدة تحت فأس احتياز الشعور .

ولنضرب مثالاً آخر رأينا حالة منه : شخص مصاب بـ « هوس التحقّق » يحتاز الشعور بأنه يفعل ذلك لأنه يشعر دائماً بأنه موضع مطاردة ومراقبة ، وأنه يطيع في الواقع أناه العليا التي تسبّب له عواطف الإثمية والحصر . فليس الهوس إذن غير عرض مشهدي في عداد اعراض أخرى لم يلاحظها ، ناشئة من نواة لاشعورية واحدة .

---

(١) انظر « الانماط الاولية » في الفصل الثالث عشر .

ثانيا ــ ردود فعل المريض

ليس احتياز الشعور دائماً ، على عكس ما يعتقد بعضهم ، هو الأكثر ألماً . فالأكثر « إثارة للنفور » موجود في الحياة اليومية وفي السلوك إزاء الغير . وذلك امر مفهوم ، إذ أن كل عصاب يثير ، بالدرجة الأولى ، صعوبات في العلاقات مع الغير .

ولنضرب مثالاً : شخص « يمثّل دوراً » منذ سنين عديدة . ولنفرض أنه « استكمالي » (١) ، أي أنه يظهر للآخرين بمظهر « الكامل » ، بمظهر من لا مأخذ عليه . فهو إذن محصور بالدور الذي يمثّله ، **وعليه أن يستمر** في تمثيله كل لحظة . إنه سيحتاز الشعور بهذه الواجهة ، بهذا الطلاء من الحماية . والحال ١) : انه عوّد الآخرين على أن يروه بهذا المظهر من الكمال ، ٢) انه لا بد سيدرك أنه ليس كما كان يعتقد ، وأنه يتصف كغيره من الناس بنقائص كبيرة ، ٣) وأنه لا بد سيبدو غير كامل ، وسيتحمل الحصر المؤقت الذي يفترضه ذلك ، لأنه سيحتفظ ، خلال زمن معين ، بشعور مضمونه أنه موضع « حكم » .

وبناء عليه ، فان الدور الذي كان يمثّله المريض سيبدو بصورة متزايدة في الوضوح . ولكن هذا **الدور كان لاشعورياً** . وكل ما كان المريض يحس به كان على سبيل المثال : الانهاك في المجتمع والتشنّج والتهيّب والحصر ، الخ . والحال أن سلوكه (المزيّف) لم يكن يجتاح حياته اليومية فحسب ، بل أفكاره أيضاً ، وأعماله ، واختيار أصدقائه وعلاقاته ، وأسلوبه في النظر الى الأشياء ، وتربيته التي يمنحها لأطفاله ، الخ . إنه إذن عالم بأسره يترجّح . ويرى المرء بالتدريج تبدو الأخلاق المزيّفة التي كان قد نمّاها في نفسه ، ووساوسه المزيفة وكتلة من الأحكام المسبقة . وسيرى كذلك ترتسم بصورة ضبابية ، ثم أكثر وضوحاً ، ثم أكثر اتساعا ، حدود أناه العليا . وسيلاحظ عندئذ كم كان ذلك يبعده عن ذاته ، وكم كان يعدّ الأحمر أخضر ، والعكس بالعكس . إنه ، هنا أيضاً ، مصباح ينقل نوره .

---

(١) انظر الاستكمالية في فصل « الانسان الآثم والانسان المصاب بالحصر » .

وعندئذ يلاحظ المرء بذهول انه لم يكن قط يعيش إلا على الظاهر من ذاتــه . . .

ولابد من ان نشير ، من جهة اخرى، الى ان احتيازاً « فكريا » للشعور غير ذي جدوى . **فكل احتياز للشعور ينبغي أن يكون ظاهرة معاشة ، محسوساً بها** . وينبغي احتياز الشعور احتيازاً « عميقا » . ولا بـد للمرء من أن « يعيش » احتياز الشعور . وهذا هو الشرط الأساسي لكي يولّد مفعولاتــه .

وتولّد بعض ضروب احتيــاز الشعور العميــق تحرراً مباشــراً ، و « تطلق » طاقة كبيرة .

وبعضها الآخر مؤلمة جدا ، لأنها تعرّي شخصية مزيّفة كان المـرء متعلقا بها . ولكن من يقول « شخصية مزيفة » يقول « أسلوب مزيّف » في إدراك الأشياء ، وحياة منحرفة ، واختيار لاإرادي لظروف الحياة ، الخ . فثمة إذن كثير من الأمور توضع موضع التساؤل . **ذلك أن مـن المؤكد أن على المرء أن يعيش في الهواء الطلق على صــورة تختلف عـن العيش في السجن .**

و « يتقهقر » المريض كذلك أمام بعض ضروب احتياز الشعور التــي تبرز . إنه يخشى أن يتغيّر . وهو من التعلق بـ « رجليه الصناعيتين » بحيث لا يتوصل الى استخدام رجليه الحقيقيتين .

وعندئذ ، يقترب من احتياز الشعور ، ثم يبتعد ، ويدور ، وينطلق مجدّدا ، ويحتك به ، ويمسه باصبعه ، ويستعيد آلياته الأمنية . . . إنه إذن شبيه بطائرة مطاردة تحوّم حول هدف لا يزال ضبابيا ، دون أن تجرؤ على الإطلاق عليه .

ويبلغ بعض المرضى درجة من الدرجات عقب احتياز مهم للشعور . . . ويستقرون فيها . فهم يتوقفون للاستراحة قليلاً . وهذا أمر طبيعي .

فلنفرض أن شخصاً يعاني المخاوف المرضية والوساوس . وها هي أعراضه تختفي ، وهي أعراض عذبته خلال سنين . فمن المفهوم إذن أن يحطّ رحاله قليلاً ما دام اختفاء العرض الكبير منحه الآن سعادة كان يراها منيعة عليه ! ومع ذلك ، فان العصاب لا يزال يدور في الشخصية ، ولا بد من الاستمرار في المضي الى الأمام .

وثمة بعض الأعراض التي تختفي فجأة عقب احتياز مهم للشعور . ولكن بعض الأعراض الأخرى تقتضي أن يبدأ ضرب من النضال . وتلك عندئذ معركة بين الشخصية المزيّفة وبين الشخصية الحقيقية التي تبرز الى النور وتؤكد حقها في الوجود .

١ ـ ذلك يغيّر كل شيء !

وعلى أي حال ، يحرّر احتياز الشعور شيئاً من الطاقة ، وبالتالي بعض الفاعلية . ومن هنا منشأ التغيّر في الحياة . **ولنضرب مثالاً على ذلك** : ها هو شخص يعاني الكبت العميق الذي ترافقه عواطف الدونية والإثمية . ومن المؤكد أن جزءاً من شخصيته يتصف بأنه مكفوف . ثم تحدث ضروب من احتياز الشعور ذات علاقة بالأبوين على سبيل المثال . وتتسع الشخصية وتصبح مجدّدا بالتدريج شخصية مستقلة بعد أن كانت متقلّصة وذابلة ومذعورة .

وماذا سيحدث في الحياة العادية ؟ تتعزّز الانا من جهة ، ومن جهة ثانية ، تختفي ضروب من الكبت وهي تجرّ معها في سقوطها ضروب من الكفّ والمخاوف ، الخ . ولنفرض (وهذا أمر مبتذل وشائع) أن الشخص « كان يكظم » كل شيء . ولم يكن يجرؤ على أن يفرض نفسه ، ولا على إبداء رأي ، ولا على أن يظهر عفويا . وكان يفعل كل شيء حتى يحس بانه محبوب . وكان أوهى نقد وادنى لوم يسبّبان له الحصر ، الخ . ثم إن هذا الشخص يجرؤ ، في أعقاب احتياز الشعور ، على أن يفعل ما يرغب في أن يفعل ، ولو لم يكن إلاّ أن يطرد أحداً يريد به الشر . ويكفّ عن أن يكون مصاباً بالحصر إذا « حقد عليه » شخص ما أو انتقده أو لامه . إنه لا يبالي بواقع كونه محبوباً أم غير محبوب ، الخ .

ونرى إذن أن ذلك بداية **حياة جديدة كل الجدة** ، حياة حرة لم يسبق له أن عرفها ، حياة مع كل الطاقة والاستقلال اللذين يرتبطان بها .

٢ ـ عندما تمضي الدمية ...

سيرى المريض إذن ينبعث كل ما هو غيره ، بفعل ضروب متتالية من احتياز الشعور . وتصبح الخيوط التي تحرّك الدمية مرئية . ويرى المريض تدريجيا ما كان يسحب الخيوط . ويلاحظ ما كان يوقعه في الشرك خلال سنين طويلة ، دون أن يخطر حضوره في باله . ويرى ترتسم ، على نحو يزداد وضوحاً ، شبكة ضروب الحصر اللاشعوري والواجبات والممنوعات التي كانت مفروضة عليه ، والتي كان يعتقد أنه اختارها بصورة إرادية . ويعود صوب طفولته وأبويه وتجاربه الأولى وصنوف كبته الأولى .

قال أحد المرضى :

ـ إن ذلك لشبيه بسهل كان يشعّ فيه الضوء ، وكما لو اني كنت ارى نسيج وجودي ... وأرى الدرب الصغير الآن ، دربا ضيقا شاخصاته أوتاد تعرّض للخطر ، وعليها كنت أمضي . ولكن ، في أي لامعقولية كنت دون ان اشعر ... ؟

والأمر على هذا النحو في الحقيقة . فقد يحدث على الغالب أن تظهر حماقة كبيرة بعد ضروب من احتياز الشعور العميق : حماقة الحياة الماضية . ويكتشف المريض في الوقت نفسه مجالات ـ لديه ! ـ لم يكن يلمحها قط . ويتصل مع الخارج بوساطة عواطف وإحساسات لم يسبق له أن عرفها . وتنضم جوانب كاملة من الشخصية وتتوافق . وتختفي الدمية ويبرز الانسان مجدّداً .

ولا بد من أن يدرك المرء ـ مرة أخرى أيضاً ـ أن الانسان غير متحقق ما دامت كلية وجوده غير « ملتحمة » . وهو غير متحقق ما دام جزء منه مفصولاً عنه : وحسبنا أن نفكر بعقدة كبيرة تسكن في اللاشعور . فكيف يمكن لانسان ان يحتفظ بشخصيته إذا كبت جانبا كاملاً من هذه الشخصية ؟

وعلى هذا النحو **إذن** ، من احتياز للشعور الى احتياز للشعور ، ينتقل الانسان من العصاب الى الصحة . **ولكن هذا ليس كل شيء . ذلك** أن الموجود الانساني هو من الاتساع بحيث أن منطقة أخرى تنفتح له **عندما ينتهي التحليل النفسي للشفاء** . وأريد أن أتكلم على اللاشعور الجمعي . فليس من الضروري مطلقاً أن نرتاده ، فيما يختص بالشفاء السيكولوجي على الأقل . **ولا يتصف اللاشعور الجمعي أبداً بأنه مريض** . ومع أنه واسع سعة غير محدودة ومشحون بالطاقة والروعة ، فهو لا ينفتح إلاّ عندما يتم « تنظيف » اللاشعور الشخصي وتختفي ضروب الكبت والعقد المرضية .

ويتبيّن إذن أن بإمكان ضروب احتياز الشعور ، **إذا** كانت تتيح الشفاء السيكولوجي ، أن تمتدّ تماما الى ماوراء الشفاء. وعندئذ تتجاوز الفرد ، وترتاد عالماً تزيّنه كوكبات من الرموز التي تصنع هذه الرابطة « الدينية » التي تحدثت إليكم عنها كثيراً ، ولكنها أيضاً تبيّن الوجه الحقيقي لملايين الأعمال الفردية والاجتماعية والدينية والتاريخية ، التي كان الانسان يعتقد بأنها تحدث بصورة حرة ، في حين أنها كانت «إسقاط» رموز موجودة لديه ...

ولنضرب مثالاً على ذلك ...

إنني أستنبط المثال ، من أوله الى آخره ، مستنداً بالنص الى بعض الأمثلة التي ضربناها أو التي سنضربها ، الأمر الذي يجعل المرء أفضل فهماً له . وضروب احتياز الشعور تبيّن أول الأمر تقدماً ، ولكنها تبيّن كذلك تفتحاً من الخاص الى العام .

ومن المؤكد أن سير هذه الأصناف من احتياز الشعور **طوباوي** ، نظراً الى : ١) أنها لا تحدث في الواقع بترتيب منطقي ؛ ٢) أن كثيراً منها لا يحدث إلاّ بعد العديد من التلمسات والمقاومات وصنوف الحصر ، الخ . ولكن كل احتياز للشعور يمنح الشخصية ، **إذ** يحرّر بعضاً من الطاقة المجمدة كما قلت فيما سبق ، قوة أكبر لكي تتابع طريقها .

ولنفرض إذن أحد الناس . ففي العمود الموجود الى اليمين ، سأجمع السلوكات **التي تبدو سوية** ، والسلوكات **غير السوية** في العمود الموجود الى اليسار . وسنرى الى أي حد تتصف جميعها ، على السواء ، بأنها كانت موضع اشتباه . . .

سلوك يبدو سويا وإيجابيا	**سلوك غير سوي وسلبي**
مساعد ممتاز لمديره . عنصر ماهر ، وموضع تقدير كبير لارتباطه بعمله واخلاصه الكبير ، ورزانته الممتازة ، ودقته المتناهية . ويتصف بالكثير من السحر . وهو ناجح لدى النساء ، ومتسامح جدا إزاء راي الآخرين ويحترمه كثيراً . يحب النساء المنفتحات .	متعب بصورة مستمرة . ولا يترك عملاً إلاّ بعد أن يتحقق منه مئة مرة . لديه نزعات الى الاجترار النفسي والى الوسواس . توعكات قلبية قوية ، وانزعاجات مزمنة في الجهاز المعدي . وثمة أزمات غضب نادرة ومفاجئة ، وتشنج دائم .

والآن ، لنتصور المريض في متاهاته الداخلية . وأكرّر أنني كم أعرض عرضاً مبسطا ! وأنكم ستجدون في هذا العرض ، نقطة فنقطة ، عناصر مأخوذة من بعض الحالات التي ذكرتها .

١) الغرابة في الامر أن يكون تعبي دائما ، في حين أن جميع الفحوص الطبية سلبية . فقلبي ومعدتي سليمان على ما يبدو . هل الداخل هو منشأ ذلك مثلما انه منشأ اجتراراتي ؟

٢) أبدو هادئا . ولكنني انفعالي وأكظم كل شيء . ولست عفويا بما فيه الكفاية . انني اتردّد كثيرا قبل أن أطلق مزاحا .

٣) من النادر أن أغضب . ومع ذلك يجرحني أتفه الامور . واعتقد انني نزّاع الى الاستسلام . والحقيقة انني أخاف .

٤) أشغل منصبا عاليا . وأعتقد أنني موضع احترام . وذلك لا يمنع من أن اترصّد ما يُقال عني . ولا بدّ لي من أن أبذل مجهودا حتى لا أستعلم راي مرؤوسيّ .

٥) أستشعر النقد وكأنه جرح عميق . وبعض الانتقادات تدمّرني . وأتظاهر باللامبالاة ازاء رأي الآخرين . ولكن هذا ضرب من القناع . فاللامبالاة هذه تحميني من الحصر الذي ينشأ من معرفتي رأيهم بي .

٦) أدرك أنني أعيش بحسب رأي الآخرين ووفق ما ينتظرونه مني . فاذا أحبوني ، سار كل شيء على ما يرام . واذا اعتقدت أنهم يحقدون عليّ ، أجترّ ، ولا أنام .

٧) بي حاجة الى أن أكون مصيبا . فاذا كنت مخطئا ، شعرت أن الناس ينظرون اليّ باحتقار .

٨) أصاب بالحصر اذا تضمّن عملي ثغرة واحدة . وأصاب بالحصر ان لم يكن عملي كاملا . انني أقتصر على تمثيل دور .

٩) بي حاجة الى أن أكون كاملا في جميع المجالات . وموّهت خوفي اذ أصبحت دون مطمن في جميع المجالات .

١٠) لست قادرا على الادارة . فمديري هو أبي . واشعر بالامن ما دمت موضع تقديره واعجابه . والحقيقة أنني طيّع .

١١) لست مخلصا . وأنا مخلص شريطة أن يعرف الناس ذلك . وهكذا يقدّرونني ، الامر الذي يطمئنني . انني أهتم بمفعول ما أصنع على الآخرين . فاذا قدّروني ، شعرت بأنني محبوب ومقبول ، والاّ شعرت بأنني منبوذ .

١٢) لست مخلصا ، ذلك أنني نزّاع الى ان لا اناوىء احدا ، والى ان انحاز الى معسكر الاقوى .

١٣) اتظاهر أنني متسامح . والواقع أني اخاف عدوانية الآخرين . وعندئذ ، أفعل كل شيء لأكون على وفاق معهم .

١٤) الحقيقة أني لا أحب الآخرين . وأنا عدواني بعمق . فهل أنا لا أحب غير نفسي ؟

١٥) لا أحب غير ذاتي . فأنا كنرجس ، وشبقيّ ذاتي ، وبقيت متعلقا بوالديّ .

١٦) انني دائم التوتر امام الآخرين . ولا اكفّ عن تمثيل دور من الادوار . وأشعر دائما بأن عليّ أن أقدّم مبرّرات . وعندما أتحقّق مئة مرة من عمل من الاعمال ، فذلك كما لو أن ثمة شخصا كان بجانبي . من هو ؟ لست أعلم : ظلّ ، تهديد بالعذاب . ولكنني أشعر وكأن الناس جميعهم يراقبونني ويطاردونني (انظر هنا الأنا العليا ، في بداية الفصل التالي).

١٧) اخاف أن يراني الناس على حقيقتي . فاذا راوني ، نبذوني . انني صبي صغير يحاول أن يكون رأي أبيه وأمه والناس جميعهم فيه رأيا حسنا . وأشعر انني صغير جدا في عالم من العمالقة .

١٨) لست في حالة من البطء على الاطلاق ، لانني اشعر بالمطاردة ، ومن اجل ان تكون استقامتي موضع الاعجاب . واشعر عندئذ أنني لست مخطئا وأنني موضع الصفح .

١٩) اشعر أنني آثم على الدوام . وأخاف أن أكون عدوانيا على نحو سوي .

٢٠) لست لطيفا ، ولكنني جذّاب . فانا جذّاب لأستميل تعاطف الناس ، وليحبني الناس ، ولكيلا ينبذوني . وآسر الناس كطفل يحاول أن يأسر أباه . واضع نفسي دائما في منزلة أدنى من منزلة الآخرين . فلست أتصف بالرجولة . وقد خنّثت نفسي حتى لا أكون ملزما بالصراع ، صراع الرجال . ولا « أعدّ » نفسي ذكرا . فانا أفتن كما تفتن امرأة .

٢١) لست رجلا . انني شبيه بامرأة . فقد كبتّ شخصيتي ورجولتي وعفويتي وعدوانيتي . وأبذل كل مجهود حتى لا يكون ثمة شيء يلومني الناس عليه . فاذا لامني احد، لا أجد ما أجيب به . بل ، على العكس ، أخضع دائما .

٢٢) وبدلا من أن انفذ الى المجتمع بوصفي رجلا ، أستسلم للنفوذ كما تفعل احدى النساء . وأستسلم كذلك من الناحية الجنسية : فأنا أفضّل النساء المسترجلات اللواتي أشعر بقربهن وكأنني صبي صغير بقرب أمه ...

٢٣) انني مازوخي تحت قشرة من المظاهر البرّاقة ...

وماذا بعـد ؟

يمكن أن نستمر هنا في ذكر مجموعة كبيرة من هذه الأصناف من احتياز الشعور (جنسية ، تعلّق بالأم ، جنسية مثلية كامنة ، حصر الخصاء ، الخ) . بيد أننا نرى الآن ما يلي : ليس هذا الرجل هو الشخصية التي تبدو . فثمة سؤال يطرح نفسه : إذا أقام حياته كلها على سلوكات إيجابية (السلوكات الموجودة في العمود الأيمن) ، **فهل ستنهار هذه الحياة ؟** كلا بالتأكيد ، بل على العكس . ذلك أن هذا الرجل يتصف **واقعيا** بعدة صفات : الاخلاص والذكاء والدقة ، الخ . **ولكنه كان قد استخدم هذه الصفات ليحمي نفسه** . من هنا منشأ التوتر الدائم ، والحصر المبهم ، والتشنجات ، والمخاوف ، والأصداء الجسمية في القلب والمعدة ، الخ . إنه كان يكبت جزءاً كبيراً من شخصيته ، شخصية الرجل ، دائماً حتى يحمي نفسه بالبعد عن الصراع . وكان

قد اصبح **شبيها** بامراة . ويقوم عمله الداخلي كله على أن يستعيد ما كان يكبته : رجولته ، وجنسيته المذكرة ، وعدوانيته السوية ، وثقته بذاته .

يضاف الى هذا ...

اننا نلاحظ ، في هذه الضروب من احتياز الشعور ، اننا ننطلق تدريجيا من بعض الأعراض لنبلغ وضع الشخصية كلها موضع التساؤل . والمريض يحتاز الشعور بأن **جوانب كاملة من شخصيته** في حالة الانتظار في جهة من الجهات : وهي تتصف بالتالي بأنها غير منتجة . **وانطلاقاً من كتلة من** الأعراض ، ينزل المريض نحو النوى الأساسية . **وسيرى أن كثيراً من هذه** السلوكات « الايجابية » ليست سوى اعراض من عصاب : **مبالغة في** الاخلاص ، ودبلوماسية إزاء الآخرين خوفاً من فرض شخصيته ، وكمال في العمل خوفاً من أن يكون بمقدور احد أن يوجّه اليه لوماً ، أيا كان هذا اللوم ، الخ . **ولكنه سيرى كذلك أن بعض الأعراض « السلبية » هي في الواقع تعبير عن شخصيته ، شخصية الرجل** التي كان قد كبتها تحت ضغط الخوف ، كالعدوانية على سبيل المثال .

وتنبجس أناه الواقعية في نهاية التحليل ، انا كان قد اوقعها في الشرك ، أنا احتفظت سليمة بخصائص مكبوتة خلال سنين ...

الفصل العاشر

الحرية والأغلال

نمتنع عن إخفاء الصعوبة : فنحن ندخل في مجال اللامتناهي . وسنرى الانسان ، بدءاً من عقله اليومي الى غرائزه العميقة ، ومن فاعلياته العادية الى الكوكبات القوية التي تشع في اللاشعور الجمعي . وهذه المناطق الانسانية هي المناطق التي يرتادها التحليل النفسي . وكل مريض يعبرها ، أو يعبر الجزء الأكبر منها على الأقل ، خلال عمله السيكولوجي . فهو ينطلق من أعراضه الشعورية ، ومن أعماله اليومية ، ثم يبدأفي نزول السلم ،سلم الأعماق ،ليكتشف بالتدريج عالماً لم يكن لديهأي فكرة عنه . ولكن كيف « نصنّف بالتسلسل » هذا العالم ؟ وكيف نجمع الموجود الانساني كله ، بامكاناته وما يتعذر عليه ، وبآفاقه وحدوده ، في بضع عشرات من الصفحات ؟ وكيف ننتقل من الشعور الى الراقات العجيبة من اللاشعور ، بضروب عصابه ، وكذلك بالاتساع المذهل للاشعور العميق ؟

١ ـ من الشعور الى اللاشعور

سأحاول ان أضع تخطيطية عامة أولى كما يتم اكتشافها في اثناء التحليل ، مهما كانت هذه التخطيطية غير تامة .

وعندما يلاحظ المرء هذه التخطيطية في بساطتها الكاملة ، يقول في نفسه إن الموجود الانساني يمكن أن يكون « ذلك » بالقوة (*) . ولكن كم حاجزاً نصادفه في الطريق !

(*) بالقوة يقابلها بالفعل « م » .

في القمة ، تتربع **الأنا الشعورية** ، الصاحية ، صاحبة المحاكمة ، الشخصية والارادية . إنها مغمورة في جزء منها بـ **اللاشعور الشخصي** الذي يحتوي على جميع التجارب التي **عاشها الفرد** ، والذي يتصل بدوره بـ **اللاشعور الجمعي** . والبناء برمته يرتكز أخيراً على **الغرائز العميقة** . وسندرس **الأنا العليا** أيضا ، التي تتصف بأنها جيب مسموم يسكن اللاشعور .

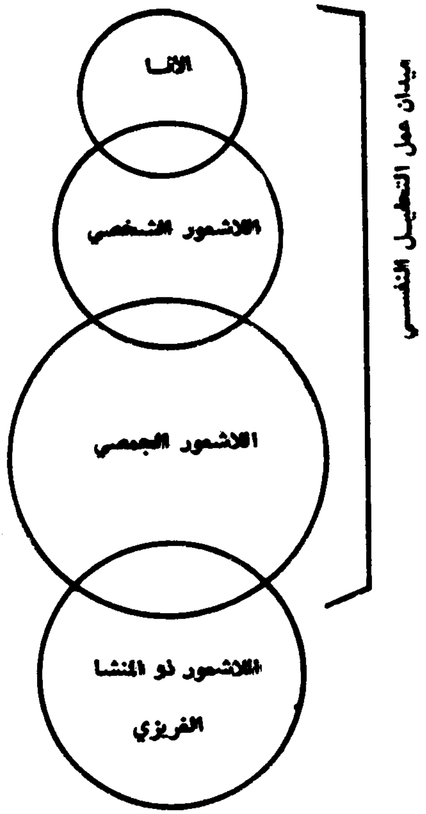

شكل رقم (٦)

الهرم كله يتصل بعضه ببعض على نحو دائم ، ويطلق رسائل بالطريق العصبي ، ويصدر أوامر وأوامر مضادة . وثمة طاقات تصعد من اللاشعور العميق لمصلحة الأنا الشعورية ، هذا إذا لم تتوقف أو تنحرف في أثناء الطريق . انهـا شـبكة هائلـة كما ترون ! وطيلة النهار والليل والحيـاة الانسانية ...

ولكن كم يوجد في هذا البناء من تعقيدات ،وانحرافات ، ومتاهات ، وضعف في النور ، وأبواب مقفلة ، ومخاوف ، وضروب من الحصر ! وكم يوجد من العقد ، وصنوف الكف والكبت ، والتحديدات ، والطفالات ، والوان التوقف !

احاول حاليا أن اعتمد هذه التخطيطية . فلنصبح إذن كشافي تعقيد من أوسع التعقيدات على سطح كوكبنا : تعقيد ساكنيه .

أولا ــ « الأنا » ، ملكة دولة صغيرة

اقرؤوا الحالة الواردة في فقرة« الأنا العليا السوية » ، الفصل العاشر، **قبل كل شيء** . ها هو رجل يتبع « طريق الواجب » . ويتصف هـذا الواجب ، بالنسبة إليه ، بانه آمر مطلق . ويبدو الرجل قويا ، واثقـاً من ذاته ، ويظهر أن عليه أن لا ينحرف ابدا عن سيرة رسمها لنفسـه « بصورة نهائية » .

ويمكن الاعتقاد إذن ، للوهلة الاولى ، بأن هذا الرجل حائز على « أنا » قوية ، ذات إرادة ، تعلم اين تمضي . والحال أن الحقيقة تبرز مباشرة : فليس لهذا الرجل « أنا » شعورية وذات إرادة مـا دامت هذه الأنـا « ملحقة » بامبراطورية اللاشعور .

فالثياب ، على هذا النحو ، لا تصنع القديس مطلقا .

وليس من الضروري أن يكون المرء محللاً نفسيا حتى يتبيّن له أن هذا الرجل **تقوده** ، بأسلوب **قاس** ، قوى غامضة **لا يشعر بها** ، ولكنه **يبرّرها**

بطريقة **تبدو** عقلانية جدا ! والمصيبة ، مصيبته ، انه يعدّ ذلك كله أنه الواقع الشعوري .

فما نصيب « الأنا » في كل ذلك إذن ؟ إن هذه الأنا ، أنا الانسان ،مصابة بالضعف على نحو مخيف : **إن أناه العليا** متورّمة . وقد احتلت هذه الأنا العليا ، دونما انزعاج ، مكان الأنا الشعورية . ومع هذا ، يجهل هذا الرجل ذلك جهلاً تاما .

١ ـ ما هي الأنا ؟

أتمنى أن أتكلم على الأنا بوضوح . ذلك أن الأنا ، التي تتصف استطاعتها في بعض الأحيان انها شحيحة او مصابة بنقص في النشاط ، **عامل أساسي في الشفاء خلال عمل سيكولوجي** . فلا بد إذن من ملاحظة ما تصبح عليه الأنا وهي تشق طريقها بين ظروف الحياة ، وكيف تتشوّه او تختفي ، وكيف تنبعث مجدّدا خلال التحليل النفسي .

هذه جملة يمكن أن تلخص كثيراً من الحالات الانسانية :

ـ **أنا أريد** هذا ، ولكن ثمة شيئاً **في ذاتي يدفعني الى** . . .

ويتبيّن إذن أن ثمة صراعاً بين قوتين : الأنا واللاشعور . وهناك « إرادتان » تعملان ، إرادتان تتصفان أحيانا بأنهما متعارضتان كليا .

إن الأنا هي شخصيتنا الخاصة . وهي التي تتيح لنا العفوية **الأصيلة** ، ومن المعلوم كم يصعب على المرء أن يحدّد ما اذا كان عمل من الأعمال أصيلاً أم لا . . . فأنانا ليست أنا جيراننا . والأنا هي ما يتيح للمرء أن يحتاز الشعور بذاته وبالعالم الخارجي . ولن يكون الانسان دون الأنا غير آلة رائعة ، ولكنها لاشعورية .

٢ ـ من أين تنشا الأنا ؟

الطفل ، في البداية ، لاشعور حي . وهو ، عند ولادته ، يكون قد تلقّى مسبقا حصراً كبيراً يسمه الى الأبد ، حصراً سأتكلم عليه فيما بعد .

ومع ذلك ، تنبعث اناه ببطء من اللاشعور تدريجيا ، كما تبرز من المحيط جزيرة من الجزر . ثم ماذا يحدث ؟ تتكوّن انا الطفل ، متوهجة توهّج الجديد . وهذا أمر له عمر الورود . ذلك أنها ما أن تبدو حتى ينصب عليها الهجوم من جميع الجوانب . ويبدأ « صوغ » هذه الأنا تبعاً للمعايير الاجتماعية والثقافية والدينية والجغرافية والسياسية ... التي يعيش فيها الطفل ... أو بالحري والدا الطفل . يضاف الى هذا أن المربين سيسحقون أنا الطفل تبعا لما هم عليه : متوازنين أم مصابين بالعصاب ، هادئين أم مصابين بالحصر .

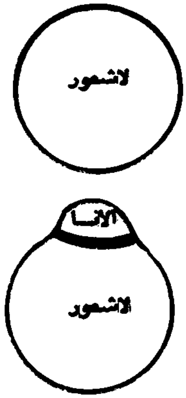

شكل رقم (٧)

ويتبيّن المرء إذن ان هذه الأنا التي تلمع بكل نيرانها تتلقى ، منذ البداية ، راقات متينة من الدهان تزيّفها ، ويطرأ عليها تسويات عديدة تنقشها ، على وجه التقريب ، نقشاً بارزاً .

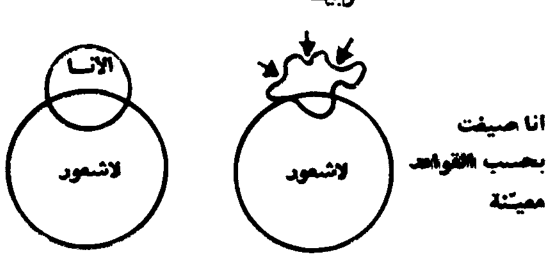

شكل رقـم (٨)

ومن المؤكد ان كل **تكوين** لأنا الطفل ، مهما كان هذا التكوين سوياً ، يتصف دائماً بأنه ضرب من **التشويه** ، لأن هذا التكوين : ١) يتم **دون أن** تؤخذ بالحسبان شخصية الطفل التي لا تزال غير معروفة ؛ ٢) يضيّق إمكانات الدماغ حين يفرض قوانين دقيقة ، مثله في ذلك على وجه الدقة مثل من يحدّد بصورة مسبقة دارات الكترونية .

ولكن ذلك كله أمر سوي ولا غنى عنه إذا فرضنا أن المربين متوازنون واذكيـــاء .

٣ ـ مبدآن إنسانيان كبيران

١) **مبدأ اللذة** محرّك الطفل . وكلمة « اللذة » ينبغي اخذها هنا بالمعنى الواسع : معنى الأمن ، والتوازن ، والرفاهية ، والحرارة الماديـــة والنفسـية ، والمأمن المادي والنفسي ، الخ . وسنرى ، من جهة أخرى ، أن الراشد خاضع لهذا المبدأ ذاته ، مبدأ يحاول أن يصونه بأي وسيلة : فبامكانه أن يجد أمنه وتوازنه بالصحة كما يجدهما بالمرض . والواقع أن **العضوية** هي التي تبحث عن هذه اللذة وهذه الرفاهية ، شأنها في ذلك على وجه الدقة شأن أي فرد يفضل الدفء على الارتعاش من البرد في الثلج . فالطفل يبحث إذن عن الإشباع **المباشر** لغرائزه وحاجاته العميقة . وذلك يتم دون أن يرتبك بـ « أخلاق » أو بـ « تهذيب » لا يعرف عنهما بعدُ شـيئاً .

٢) ويظهر **الخوف** ، من جهـة اخرى ، بصورة سريعة . فحصر الأطفال العميق معروف جيداً . يضاف الى هذا ان الطفل يمكن ببساطة ان يستولي عليه الخوف في اعقاب ضرب من الحرمان من اللذة ، ما دام الحرمان من اللذة هو فقدان الامن ، بالنسبة اليه على الأقل . والحـال أن ثمة قوى تصعد من لاشعور الطفل . إنها القوى « الاندفاعية » التـي تصدرها الغرائز . ولكن تحقيق هذه القوى ، أي استخدام شيء مـن الأشياء ، والذهاب حيث يبدو له مفيداً ، والضرب واللعب ببرازه ، الخ ، يصطدم بممنوعات أو بالإذن .

٤ ـ العدوانيات الأولى

يتبيّن المرء إذن أن أنا الطفل ينبغي أن تتلاءم سريعا مع **هذه الأذون** او هذه الممنوعات التي تأتي من **الخارج** . **فهل** « يستسلم » الطفل **؟ إنه** لا يستسلم على الاطلاق ، وهو يريد لذته بالرغم من الجميع .

وتبدو **العدوانية** إذن . ويحس الطفل بالاحباط وعدم التوازن . وما أن يرغب في تحقيق دافع غريزي تحقيقاً مباشراً ، حتى ترتفع سبّابة متوعّدة ، في شرحها تكمن صنوف القصاص . ويفشل الطفل امام المنع . فعدوانيته إذن عدوانية **سوية** ، وهي تظهر من جهة أخرى في الوقت الذي تظهر فيه الأسنان والفاعلية العضلية والارادية .

ولكن لا بد من أن نعرف **ضد من** تحدث العدوانية . **فهي** إنما تحدث على وجه العموم ضد أحد الوالدين الذي يحرّم هذه اللذة الغريزية أو تلك . ويتبيّن المرء سلفاً أن ثمة ألف وسيلة ، بالنسبة الى الطفل ، للقيام برد فعل تجاه عدوانيته الخاصة .

فلنفرض أن عدوانية الطفل تتّجه ضد أمه . فمن هي هذه الأم ؟ إنها هي التي **تمنح** الأمن والحب والدفء والغذاء ... ولكنها هي التي يمكنها ، في كل لحظة ، أن **تسحب** هذا الأمن وهذا الحب ، ولو لم يكن إلا بالحرد أو الظهور غاضبة ، إذ تغمر الطفل عندئذ باحساس من الإهمال ، إحساس يتصف في بعض الأحيان بانه مرعب .

وعلينا أن لا ننسى أن الطفل الصغير مرتبط بأمه ارتباطاً وثيقاً . **بل : إنه** أمه . ويترتب على ذلك أن توجيه العدوانية ضد الأم يمثل ، بالنسبة الى انا الطفل ، خطراً تبيّن لكم التخطيطية التالية أهميته .

طفــل	ام
ـ رفاهية ، أمن ، لذة ، توازن إحباط ـ عدوانية آلية .	حب
ـ إحساس بالاهمال . حصر . إثميــة (إنني معــاقب لأننــي « هاجمت » أمي . فهي لم تعــد تحبني وتهملني) .	ـ ممنوعات يرافقها التهديد بالعذاب ـ تراجع عن الحب ، كأن تحرد الأم على سبيل المثال .

ماذا يرى المرء الآن لدى هذا الطفل الصغير الذي ما كادت أناه تتكوّن ؟ **إنه يرى ظهور الأعلام الثلاثة التي ترفرف فــوق جميع ألوان عصــاب الراشدين : الحصر والعدوانية والاثمية** . وذلك أمر يدعو الى التأمل ، الا تجدونه على هذا النحو ؟ ونحن ، من جهة أخرى ، سنعود اليه .

ويرغب الطفل ، ولو لم يخضع خضوعاً كاملاً ، في ان يتجنّب خطــر « الاهمــــال » . **ولا بد له إذن من أن يحوّل عدوانيته** ، أي ، على سبيل المثال ، ان يفعل كل شيء لينال الصفــح (الأمر الــذي يلحق بالخضوع) :أن يكون لطيفا **بصورة كاملة** ، وأن يكون مطيعاً **جدا** ، الخ .

إنه عندئذ لضرب من « المازوخية الصغيرة » الذي يبدأ . وأنا الطفل هي التي تتحمّل العواقب . ذلك أن تصرف الطفل على هذا النحو ، يتم على حساب شخصيته ، بما أن عليه أن يمنع **شخصيته** من أن تعبّر عن ذاتها تعبيراً عفويــا .

وإذ يخضع الطفل ، فانه **يحمي نفسه** من خطر أن يفقد حب أمه . **فهو يكسب رفاهيته** ، وبالتالي لذته ، **بفضل خضوعه** : إذن ، بفضــل التجرّد من شخصيته وخنق أناه . فكم من الراشدين يتصفون ، والحال هذه ، بأنهم « مازخيون » ، أي خاضعون خضوعاً كليا ، لأنهم يخافون الدخول في منافسة مع الغير ؟

ويتبيّن المرء إذن صعوبة تحديد **الأنا** ! والواقع أن **الأنا تنبعث مــن**

اللاشعور ، ولكنها تستمر في أن تسبح في اللاشعور الذي تتبادل معه رسائل (عصبية) دائمة .

والحال أن اللاشعور يدفع الفرد الى البحث عن سروره ورفاهيته ، بحث يتم بوسائل تبدو على الغالب متناقضة .

فلدى الطفل إذن :

- بحث مباشر عن اللذة من جهة ؛
- واصطدام مع واقع الراشدين من جهة أخرى .

وسيكون على أنا الطفل إذن أن تخاتل وتتلاءم وتتروّض . وعليها أن توازن بين دوافعها الغريزية وبين متطلبات الواقع ! وتتعقد الأمور أيضاً ، لأن **الأنا العليا** تتكوّن (انظر « الأنا العليا » في الفصل القادم) .

٥ ـ الأنا في الحياة اليومية

يميّز الناس على الغالب بين **الأنا القوية والأنا الضعيفة** .

إن **الأنا القوية** تنظر الى الدوافع الصادرة من اللاشعور نظرة صاحية إذا جاز القول . فهي تقبلها أو تنبذها بصورة إرادية . إنها أنا « حازمة ». إنها **قادرة على تأجيل إشباع حاجاتها** .

أما **الأنا الضعيفة** ، فانها تظلّ خائفة أمام الدوافع اللاشعورية ، ولا تكفّ عن حماية نفسها منها ، وذلك بأن **تكبتها** .

٦ ـ الأنا المهدّدة

ثمة خطران شديدان يهدّدان الأنا .

ففي أعقاب التربية ، يمكن أن يضع الطفل ، أو المراهق ، أناه « جانباً » . . . ليحصل على السلام ، وليكون في حال من الأمن ، ولكي يتحنّب أن يكون عدوانيا من الصباح الى المساء ، الخ . إنه **الخضوع**

المزيف عندئذ ، بكل العدوانية اللاشعورية التي يفترضها ذلك . إنه الآن ضرب من **العصاب** الذي تختفي الشخصية المستقلة فيه .

والأنا ، من جهة أخرى ، يمكن أن « تقرضها » العدوانية . وتلك هي نقطة انطلاق كثير من ردود الفعل المعادية للمجتمع ، والعديد من ضروب عدم التلاؤم ، ونقطة انطلاق الانحرافات والسادية ، الخ .

ولا بد من أن يبقى في ذهن المرء ما يلي : **تنبعث الأنا من اللاشعور** ، ولكنها تظل على اتصال بهذا الشعور . وليست الأنا سوى **جزيرة** . وتحت هذه الجزيرة ، توجد منطقة لاشعورية ذات أعماق لا يمكن سبرها .

ويتبيّن المرء إذن أن كل شيء منوط بـ « التفاهم الودي » بين الأنا واللاشعور .

٧ ـ الأنا في أثناء التحليل النفسي

تتلاءم **الأنا القوية** مع شتى ظروف الحياة بسهولة ، وتحوز على إمكانات كثيرة ، وهي ليست متخثرة ، ولا نمطية السلوك ، ولا « يقرضها» الكبت والعقد والكف والحصر .

وهذا هو السبب الذي من أجله ينبغي أن نستخدم ، في التحليل النفسي ، وسائل غير مباشرة مع اللاشعور استخداماً واسعاً .

ذلك أن ثمة **استحالة** لفصل الشعور ، وبالتالي الأنا ، عن اللاشعور الذي خرجت منه والذي تستمر في أن تطفو عليه (انظر التخطيطية الموجودة في أول الفصل ثانية) . وبما أن اللاشعور يغذّي الأنا باستمرار ، فاننا نفهم إذن أن هذه التغذية يمكن أن تكون في بعض الأحيان مسمومة .

والشعور عاجز دون اللاشعور ، ما دامت الأنا ليست سوى « حدبة » حدبة نبيلة إذا شئتم ، ولكنها حدبة مع ذلك . فماذا اذن ؟

ثمة قاعدة ذات اهمية : كل طاقة مجمّدة في اللاشعور ليست أبـداً تحت تصرف الأنا . فهل هذه هي الحال غالباً ؟ نعم ، هذه هي الحال بمجرد وجود العصاب ، والعقدة ، والحصر ، والكف ، والكبت ، الخ . وفي هذه الحالات ، لا تؤدي الأنا ، المصابة بالضعف ، وظيفتها . واذا فكرنا بالانعكاسات التي يحدثها مجرد « انفعال قوي » في الأنا ، ماذا نقول بعصاب يدوم خلال سنين . . . أو يدوم حياة برمتها ؟

ويترتب على ذلك أن العلاقة بين الأنا واللاشعور ، إما أن تكون علاقة الحرب وإما التفاهم ، ولا وسط بين الحالتين . فلنفكر فقط بالحالة الكثيرة الشيوع ، حالة أحد العدوانيين . فهو عدواني لأنه خائف . والحال أن هذا العدواني يتخيل نفسه « قويا » . **ويعتقد** أن له أنا قوية ، وأنـه غير خائف ولا يتراجع أمام شيء ، ويتلاءم مع كل شيء ، الخ . والحال أن **لاشعور** العدواني مترع بالخوف . فأناه ، في الواقع ، **ضعيفة جـدا** . وبلاحظ المرء من جهة أخرى ، ما يلي : إنه يستجيب **دائماً** على نحو واحد **لجميع** الظروف ، بالعدوانية . إنه اذن ذو نمط واحد في سلوكه . . . في حين أن دور الأنا أن تتغير بمرونة وفق هذا الظرف أو ذاك .

٨ ــ الأنا في حياة الراشد

الأنا التي تتصف أنها في حالة جيدة تعني : مرونة ، وقابلية قصوى للتلاؤم ، وعفوية **دون خوف** ، ولكنها عفوية شعورية . وهذه الأنـا لا تعني الاندفاعية اللاشعورية التي تتلاءم تلاؤما سيئاً مع الظروف .

والأنا ، بصورة عامة ، مرتكزة على توازن التسوية . فكل فرد يحاول أن يتلاءم مع واقع الحياة أفضل تلاؤم ممكن .

ويمكن للمرء أن يتلاءم باحكام ، دون خوف ودون عداوة ، وذلـك بأن يكون له مدى واسع من ردود الفعل تحت تصرفه . . . الأمر الذي يُعـدّ نادراً .

ولكن **بامكان المرء أن يحاول التلاؤم** بوساطة عصاب . فثمة ملايين من الناس يتلاءمون ، قليلاً أو كثيراً ، بمساعدة الكبت ، وآخرون ببناء سدود ضد الحصر .

وفي هذه الحالات الشائعة جدا ، تختفي الأنا تحت راقات من الرماد. ولكن الأنكى أن نعدّ المظهر واقعاً . من هنا منشأ طاقة وإمكانات مبدّدة .

ومهمة التحليل النفسي أن تبرز الشخصية **الحقيقية** . فليس المقصود إذن على وجه الحصر أن **ينزع** التحليل النفسي شيئاً من الأشياء ، بل أن ينظف القبو لإخراج ما كان مخبأ فيه . فالانتقال من أنا مصابة بالضعف او صلبة الى أنا **قوية ومرنة** يعني الانتقال من مرحلة الطفالة الى مرحلة الرشد .

والآن ، لنهجر هذه الجزيرة التي يندر أن تكون سعيدة وحرة ، وهي ممزقة على الغالب ، ولا يمكن معرفتها في بعض الأحيان . ولنترك الأنا الارادية والواعية ، الأنا التي تفكر وتحكم وتقرّر ، ولكنها الأنا التي يغمرها بسرعة ما يصدر عن اللاشعور ، سواء كان عصاباً أم عادات أو آراء مسبقة .

ولننزل في اللاشعور راقاً راقاً ، وذلك ارتياد يقوم به كل مريض . وسنرى أن اللاشعور يتطهّر و « يفقد سمومه » تبعاً لهذا النزول .

ولنكتشف الراق الأول ، **الراق الذي يتسم بانه من القرب من الأنا الشعورية بحيث لا يتميّز معها على الغالب : اي الأنا العليا .**

الفصل الحادي عشر

عندما الشيطان يقود الرقص

لنتصور ثمرة يغلفها غشاء رقيق من البلاستيك ملتصق بها ، **غير مرئي** . يمنعها من التنفس ، ويجعلها تتجعد من الداخل ببطء . ولنتصور كذلك أن الثمرة تعتقد **أنها** هي هذا الغشاء البلاسيتكي ، بالنظر الى أنها لا تشعر على الاطلاق بجفافها .

ولننقل هذا الى الواقع الانساني : فالثمرة هي الأنا ، والغشاء الخانق هو **الأنا العليا المرضية** .

تكلمت ، في مؤلفي الأول (١) ، على الأنا العليا . وعرضتها على أنها راسب التربية وقد أصبح **لاشعوريا** . فالأنا العليا هي إذن « مصفاة » حقيقية ، مسدودة على وجه التقريب ، تجمّد القوى الغريزية الصادرة عن اللاشعور ، وبخاصة الدوافع الجنسية ، أو تكبتها ، أو تقنّيها أو تحوّلها . والأنا العليا ، إذا نظرنا اليها من هذه الزاوية ، هي مشكل خطير الى درجة محسوسة ما دام الكبت يقود الى العقد ، والعقد الى العصاب . إن الأنا العليا هي الخط المستقيم نحو المرض على الغالب ، أو ، ببساطة ، هي الجفاف الداخلي .

---

(١) انظر « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » .

أولا ـ الأنا العليا السوية

لكل موجود إنساني **انا عليا سوية** . إنها الأنا التي تتكوّن بفعل التربية، بالمعنى الواسع للكلمة ، والمناخ الاجتماعي والديني والثقافي ، الخ ، الذي ترعرع الفرد فيه . والأنا العليا السوية ، على أي حال ، تولّد « آراء مسبقة » لاشعورية ؛ إذن تولّد **أحكاماً مسبقة** . ومن المؤكد أن فرنسيا ترعرع في جو مسيحي ، ولو أنه ملحد ، لن يكون لديه **الأحكام المسبقة** اللاشعورية الموجودة لدى أحد أفراد قبائل البابو ، أو لدى صيني ، إزاء الدين ، والأخلاق ، والزواج ، والعمل ، والوطن ، والخير والشر ، الخ .

والأنا العليا السوية كقانون السير الذي يحترمه الناس آليا . إنها قانون اجتماعي للسير الانساني إذا صح القول . ومع ذلك ، **فكلما كانت اكثر اتصافا بأنها لاشعورية ، ازداد احتمال أن تصبح مرضية** بتبلوراتها وصنوف ضيقها . وعندئذ تتسم الاحكام المسبقة بأنها قاسية ومتصلّبة ، تضيّق الذكاء والوضوح .

١ ـ الأنا العليا في الحياة اليومية

أريد أن أصف الأنا العليا كما يجدها كل مريض في أثناء التحليل النفسي . والمشكل واسع من ناحية المرض بالتأكيد ، ولكنه واسع أيضا من ناحية **الحرية الداخلية والأخلاق الفردية** . والأنا العليا تجعل المرء يخطىء خطأ كبيراً . فهي شبيهة بكماشة (لا مرئية !) ، شديدة الخطر ، تمسك شيئاً (الأنا) بقوة ، ويعدّها الناس هذا الشيء ذاته .

وملخص القول إن **ملايين من الموجودات الانسانية يعيشون على أناهم العليا** (اللاشعورية) ، **بدلاً من ان يعيشوا على أناهم** (الشعورية) ، **ولكنهم يجهلون ذلك** . هذه الأنا العليا توجّه أعمالهم : سواء كان العمل شراء ربطة عنق أم كان زواجهم واختيار شريكتهم ، ومهنتهم ، ومبادئهم ، والتربية التي يمنحون ، وأسلوبهم في ممارسة دينهم ومهنتهم ، واخلاقهم ، الخ .

ولكن الأنا العليا تسبّب كذلك توترا ، وإثمية ، وحصراً وصلابة ، جميعها تتصف بأنها داخلية وتؤدي غالبا الى العصاب الذي يمكن لأعراضه أن تكون جسمية ونفسية على حد سواء .

فلماذا ؟

أين تولد هذه الكتل من عواطف الإثمية ،عواطف شعورية أو لاشعورية، التي تسبّب كثيراً من الأضرار ؟ ولماذا هذه الكثرة من صنوف الحصر بصور شتى ؟ ولماذا جميع هؤلاء الناس الذين يبدو عليهم (أو يشعرون) ان ثمة « شيئاً » من الأشياء « يلاحقهم » وليس بوسعهم تحديده ،والذين يشعرون بأنهم مكرهون على أن يتصرفوا تصرفا **مغالياً** في الجودة ، ولو أن لا شيء **مرئياً** يجبرهم على ذلك ؟ ما مصدر أن يتحقّق سائق السيارة هذا من إغلاق أبواب سيارته ثلاث مرات ، في حين أن مرة واحدة تكفي ؟ ولماذا كان هناك بعض الوساوس ، وبعض الأفكار الثابتة ، وبعض ضروب الهوس ؟ ولماذا هؤلاء الناس المتصلبون أولو السلوك النمطي ؟ ولماذا هؤلاء الناس الذين تقودهم « مبادىء » هي من التصلب بحيث تبدو انها لم تتطور قط منذ العصر البرونزي ؟ ولماذا هؤلاء الأشخاص الذين يتصرفون كما لو انه كان عليهم **دائما** أن يسوّغوا تصرفهم الى اصدقائهم واعدائهم ، والى رؤسائهم ومرؤوسيهم ، والى لحّامهم وبوّاب بيوتهم ؟

٢ ـ حالة أنا عليا تصنع رجلاً

المشكل واسع إذن . وقبل أن اتكلم عليه واضرب امثلة ، ستكون فاتحة هذه الفقرة حواراً مستخلصاً من أول اتصال مع مريض من المرضى. وهذا الحوار هو النموذج الأصلي لضروب أخرى من السلوك .

ـ عمري خمسون عاما .

ـ منذ متى أنت متزوج ..؟

ـ لست متزوجا . وأعيش مع والدتي ، ارملة .

ـ ...

ـ انك تفهم . امي بحاجة اليّ .

ـ هل هي مريضة ؟ معوزة ؟

ـ على الاطلاق . أقصد : انها بحاجة الي معنويا .

ـ ألم تعقد خطوبتك على إحدى الفتيات أبداً ؟

ـ قدّرت دائما أن من **واجبي** الاحتفاظ برفقة أمي الى النهاية .

ـ ولكنك تقول إنها في صحة جيدة ؟

ـ نعم . ولكنه **واجب** الابن . وقد قرّرت ذلك وطبّقته **دون أن انقضه أبدا** .

ـ هل تعمل ؟

ـ نعم ، في مكتب من المكاتب . أنهض من فراشي في السادسة صباحا ، فاشعل النار لكي أوفّر على أمي القيام بأي عمل . وأهيء طعام الغداء وأغسل الصحون ...

ـ اتقوم بجميع **أعمال البيت** إذن ؟

ـ نعم ، انني قوي ، **وواجبي** أن أعفي أمي من أي شاغل أو تعب ... ثم أذهب الى المكتب . وفي المساء ، أشتري الحاجيات ، ولا أخرج من البيت أبدا .

ـ أبسبب ضيق الوقت لا تخرج من البيت ؟

ـ كلا ، بل انني أكره ضروب اللهو التي لا فائدة منها . وهذا **مبدأ** . انني ادرس واقرا. ثم انني **لا أستطيع** أن أترك أمي وحيدة ...

هل يعتقد هذا الخمسيني بما يقول ؟ نعم .

هل يعتقد بصحة « مبادئه » ؟ نعم .

الا يرى الأمور بوضوح حقا؟ لا .

والحال أن كل فرد يحس مباشرة أن ثمة « شيئا يسير سيراً غير سوي » ، وأن « الواجب » لدى هذا الرجل أصرم من أن يكون صحيحاً . ويحس المرء أن لديه شبكة من الالتزامات هي من التصلّب بحيث **تجمّد** فكره وسلوكه .

ولكننا ـ وهذا هو ما يشغلنا هنا ـ في غمرة مشكل الانا العليا . إنها

ستحدّد نفسها بنفسها من خلال هذا الرجل(١) .

فماذا نلاحظ ؟ نلاحظ اهتماماً مغاليا بأمه ، وتضحية **مغالية** تمضي إلى حد إفناء الذات . إن هذا الرجل **يحرّم** على نفسه كل عمل ولذة **شخصيين** . **ويبرّر** كل شيء بوساطة **مبادىء نمطية** . ويسمي ذلك : **الواجب** .

فماذا يحدث ؟ الحب البنوي لدى هذا الرجل حب مزيّف أولاً . ولو تعمقنا في ذاته لوجدنا طبقات سميكة من الكره لأمه ، وللنساء بصورة عامة ، مع كل ما يفترضه ذلك من الوان الكبت . ومن المؤكد أن هذا الرجل يكبت كرهه لأمه ، كرهاً يظلّ يجهله . ويعزّز الى الحد الأقصى عواطف الحب (المزيّف) والواجب (المزيّف) لكي يتبجنّب ان تصبح العداوة شعورية .

وأكرر أن هذا الرجل صارم . فليس بوسعه ان **يخالف** الواجب الذي الذي تم تثبيته لاشعوريا بصورة نهائية . وماذا يحدث لو انه تملّص من هذه « الالتزامات » القهرية واللاشعورية ؟ **إنه سيشعر بالإثم شعوراً فظيعاً** . وسيشعر كذلك بأنه آثم لو أصبح شاعراً بالكره الكامن لديه . ولكي يتجنب ذلك كله ، يتخذ الموقف المعاكس ، بصورة لاشعورية ، ويصبح حصناً صغيراً من الفضيلة (المزيّفة) ، والطيبة (المزيّفة) ، والغيرية (المزيّفة) . فليس هذا الرجل حراً ، **ولا يجرؤ ان يكون حرا ، لأن ذلك يعني ، بالنسبة إليه ، أن يتملّص من أوامر الأنا العليا ويغرق في الإثمية ، وربما في الوسواس . لقد كبت احقاده وتمرداته ورغباته ،واخفى الكل تحت مظهر « الابن الكامل » ، مظهر يعتقد به** . وغنيّ عن البيان أن هذا السلوك المتصلّب مستمر في حياته العادية إزاء رؤسائه وزملائه ومبادئه ، ومستمر في أسلوب ادراك الأمور جميعها ...

---

(١) لن أتكلم هنا على جميع العقد وضروب الحصر والكره والإثمية ، التي تكمن لدى هذا الرجل ، ولا على غرامه اللاشعوري والمحرّم بامه .

ثانيا ـ عندما يحتجب الشيطان

لا بد لنا من تحديد الأنا العليا المرضية ومن محاولة القبض على هذا الذي يفتك فتكاً ذريعاً بالأنفس .

فالأنا العليا تعني ، من الناحية « التقنية » ، شيء مضاف الى الأنا وموضوع فوق الأنا الخام .

فهل يعني إذن كما لو أن احداً زَرَق ، منذ الولادة ، سائلاً غريباً في جهازنا النفسي ؟ بالضبط ، وهذا ما سنراه .

رأينا ،عندما درسنا الأنا ، كم كان كل شيء منظّماً في الحياة الانسانية: طريقة مسك الشوكة ، والاحترام الواجب للأهل ، وتفوّق الذكر ،والسير في الطرق (... رجال الشرطة هؤلاء ، الذين يتصفون أنهم ، بالنسبة الى الكثيرين ، اناوات عليا حية !) ، والمحرّمات ، والأعراف والعادات ، الخ. ولنبحث قليلاً نكتشف مباشرة شبكة هائلة من الممنوعات والمسموحات ، ومن الأوامر « افعل هذا اولا تفعله » ، ومن الآراء المسبقة ... وذلك يزدحم لكثرته كالنمل . والأمر المثالي أن تصبح شاعراً بـه لكي تنبذ القشور الميتة .

ويبدأ كل شيء بالتأكيد منذ أن تبدأ التجليات الغريزية الأولى للطفل: الأمر الذي يتصف بأنه سوي كما قلت . ومن السوي وجوب اصطدام المرء منذ الطفولة ، بكثير من الأسلاك الشائكة : فالحياة الاجتماعية تقتضيها ، ولا أحد يستطيع حيالها شيئاً .

فلا بد إذن من صياغة أنا الطفل كيما يتلاءم مع المجتمع ، ومع احترام ذاته والآخرين . وكل شيء منوط ـ بالتاكيد ـ بالطريقة التي يتم بها ذلك . فتكوين انا الطفل أمر حسن . ولكن الناس ، في تسع حالات من عشر ، يورّمون ، ويضيّقون ، وينقلون الخوف والحصر وخشية الحكم الاخلاقي ومشاعر الإثمية ، تلك المشاعر الخطيرة .

وخلاصة القول : إن الناس يتسرّعون غالباً في خلق أنا عليا مرضية منوطة : ١) بمواقف المربين ، ٢) برد فعل الطفل تجاه التربية المتلقاة .

ولنستأنف النظر في مثال الرجل الخمسيني ،الذي ضربناه فيما سبق . متى وُلدت أناه العليا المرضية ؟ ربما ولدت مبكرة جدا . فالأم كانت ، على وجه العموم ، تجرّده من الرجولة ، وكانت ملتهمة ومصابة بالحصر ، وتتصف بنزعة الملكية . وما كان بإمكان شخصية هذا الرجل أن تتفتح بصورة حرة : فكانت لا تكفّ عن الاصطدام بطبع الأم الهدّام. من هنا منشأ الضغينة إزاء الأم . والأم شيء مقدّس والحال هذه . فالضغينة محرّمة إذن . ولكن الضغينة موجودة مع ذلك . بيد أنها في كل مرة كانت تصعد ، منطلقة من اللاشعور نحو الشعور ، كانت تكبت . فمتى ولدت إذن هذه الأنا العليا ؟ لقد ولدت بلمسات صغيرة كلما كانت شخصية الطفل تصطدم بشخصية الأم ، وكان رد فعل الأم أن تشعر الطفل بالإثم(١) .

فالأنا العليا الأولى كانت الأم . ثم أصبحت صورة هذه الأم ، الشديدة الخطر والتي تضفي الإثمية ، هي الأنا العليا اللاشعورية للابن.

١ ــ كيف تتكوّن الأنا العليا المرضية ؟

لا تتكون الأنا العليا المرضية في يوم واحد . بل تحتاج الى زمن . فكل موجود إنساني يحاول ، منذ الطفولة ، أن يتفتح وينمّي **شخصيته المستقلة** . ولكن التربية تصبح ، على الغالب ، **كمية كبيرة من الممنوعات تحت طائلة العقوبات** . وكثير من صنوف التربية يمكن تلخيصها على النحو التالي : « **حذار أن تفعل ذلك !** » (إذا تكلمنا من الناحية الاخلاقية) .

---

(١) انظر فقرة (عندما يكون النزل مغلقا) ، في الفصل الاخير من هذا الكتاب .

ولنتصور ولداً مستبداً : فالتربية التي يقدمها تدور حول مايلي :

- حذار أن تتجرأ على أن تكون حرا ، وعفويا ، ومستقلا !
- حذار إن لم تطع طاعة عمياء ودون مناقشة !
- حذار أن تجرؤ على التصرف بحسب شخصيتك الخاصة !
- حذار إن لم تحترم قوانيني !
- حذار أن تجرؤ على التمرد ضدي !
- حذار **إن لم تتصرف بحسب الدور الذي أتطلبه منك !**

إنني أكدت على الجملة الأخيرة لأنها تلخص كثيراً من الأمور .

والواقع أن جيب الأنا العليا المسموم يتكوّن تدريجيا . فالشكوك والوساوس والتردّدات تبدو . وتولد الإثمية والحصر ،وتكبت الضغينة. فالطفل مكفوف ، وشخصيته المستقلة تتصدّع . **وتحتلّ الأنا العليا المرضية مكان الأنا** . وتتشوّه الأنا الشخصية كعجينة الخبز . وتمرّ الدوافع الآتية من اللاشعور ، بالمصفاة الملوّثة ، مصفاة الأنا العليا ، قبل أن تصل الى الأنا . وهي تبلغها مسمومة بالتأكيد .

وتبدأ الأنا إذن بطاعة أوامر الأنا العليا (اللاشعورية) . ويكفّ الطفل (أو المراهق) عن الاحتفاظ بشخصيته ، ويتزايد تمثيله دوراً من الأدوار . فأي دور يمثله ؟ إنه الدور الذي يقتضي الآخرون أن يمثّله . ولماذا ؟ لأنه يشعر بالإثم إن لم يفعل ذلك . إنه بدأ في أن يسلك سلوكاً **غير أصيل** كيما لا يشعر بالذنب إزاء أبيه أو أمه .

فالطفل إذن مثل الدور الذي اقتضاه المربي . وهو الآن يمثل الدور الذي تفرضه الأنا العليا التي أصبحت مستودع الممنوعات اللاشعوري ، تلك الممنوعات المتصفة بأنها إنتاج التربية .

وتختفي الشخصية المستقلة التي ابتلعتها الأنا العليا . وتظهر

شخصية مزيّفة ، منتفخة بالوساوس وضروب الحصر والمخاوف . ويتجرّد الانسان من شخصيته ، ويتصلّب ، ويخضع الى رجال الأمن الداخليين الذين لا يكفون عن إطلاق الأحكام عليه ، ويملّون سلوكه ..

وبصورة لاشعورية ، يقاد الانسان رغم أنفه ، كماهي الحال بالنسبة للرجل الخمسيني الذي ذكرناه فيما سبق . فلم يعد الانسان يوجّه سلوكه ، **بل يظلّ في موقف الاستعداد أمام انا عليا لاشعورية .**

ثالثا ـ بعض الأمثلة اليومية

اخترت هذه الأمثلة لأنها تبيّن طابع الالزام ، تحت طائلة العذاب ، الصادر عن الأنا العليا اللاشعورية ذات العلاقة بمشاعر الإثمية .

١) أشعر انني مصاب بالحصر اذا لم أبذل مجهودات كبرى في العمل . ولدي انطباع بأنني لم أفعل ما يكفي من أجل الآخرين . وأشعر بالذنب اذا نلت قسطا من الراحة .

٢) اذا لم أقم بأعمالي المنزلية من الصباح الى المساء ، أشعر أني مذنبة ازاء زوجي . ومع ذلك ، فهو افضل الرجال . ويحدث الامر كما لو أنني كنت ملزمة بأن لا اتوقّف أبدا .

٣) اذا لم أفلح في العمل الذي يطلبون منذ اللحظة الاولى ، أشعر بأني مصاب بالحصر ، وعديم الجدوى ، وغبي . واشعر عندئذ أنهم سينبذونني خارجا دون أي محاكمة .

٤) أستعمل السيارة في تنقلاتي . فلدي الامكانات لذلك . ولكنني عندما ارى المشاة ، أشعر بالذنب لانني في سيارة . وذلك كما لو أنه لم يكن لي الحق في هذا .

٥) لا اجرؤ أبدا على أن أقول لا . واذا فعلت ، فبكثير من المواربات . وذلك كما لو انني كنت اخشى ان أظهر قراراتي .

٦) يتم الامر دائما كما لو أن الناس يراقبونني ، أو كما لو أن شيئا في ذاتي يراقب افعالي ... والحال أنني حر وعازب وغنيّ ، وهذا الاحساس بأن شيئا يلاحقني يسمّم حياتي ...

في هذا الكلام ، تبدو الأنا العليا في غمرة عملها . ونلاحظ أن الشخص، في كل حالة ، يشعر بأنه **ملزم** بشيء ما : ملزم بأن يشعر بالإثم ، ملزم

بالنجاح ، ملزم بالإخفاق ، ملزم بأن يكون غيريا وشريفاً ، الخ . هـذا الطابع من الالزام المغالي يصدر عن الأنا العليا . واعتقد أن هذا واضح بما فيه الكفاية الآن .

فلنتناول هذه الأمثلة مرة ثانية ونحن نترجمها ، دون أن ننسى أن الأنا العليا لاشعورية :

١ ــ اشعر بأني ملزم بمساعدة الآخرين الى الحد الأقصى ، وإلاّ شعرت بالإثم . ولكي اتجنب هذا الشعور بالإثم الذي يسبّب الحصر ، اساعد فوق امكاناتي . وإذا لم أضحّ بنفسي حتى آخر قطرة من دمي ،اشعر بالذنب وبأنني غير جدير بالحياة . وافعل كل شيء من أجل الآخرين ، لأنه غير مسموح لي (الأنا العليا لا تسمح) أن افعـل شيئاً من اجـل نفسي . ولا أستطيع أن انال قسطاً من الراحة ، وإلاّ فان « الناس » (اناي العليا) يمكن أن يوجّهوا إليّ اللوم . واعمل كما لو انه كان عليّ أن أقدّم بيانات لكل الناس . وفي كل مرة اشعر بأنني عدواني ، اتعرض الى خطر الشعور بالذنب . فأخفي إذن هذه العداوة تحت حب للآخرين، حب مغال ومزيّف .

٢ ــ محرّم عليّ أن أكون حراً وعفوياً ،وأن تكون القيادة لشخصيتي الخاصة . ومحرّم علي أن انال قسطاً من الراحة ، لأن اناي العليا تقول لي إن ذلك لخطيئة ، وإن للخطيئة قصاصها دائماً . . .

٣ ــ إذا لم اظهر نفسي « معصوماً » ، فان الآخرين ، الذين اعتقد انهم اكثر قدرة مني بكثير ، سيحتقرونني وسينبذونني . ولكي أفلت من هذا الحصر ، عليّأن اظهر نفسي أكثر قدرة من الجميع . وذلك الزام داخلي . إنه لأمر أقوى من « اناي » الارادية .

٤ ــ يتم الأمر كما لو أن « الناس » كان بامكانهم أن يلوموني علـى إمكاناتي . إنني أحس بأن لا حق لي في أن أكون في عداد الآخرين ، ولا حق لي في النجاح . فذلك كما لو أن تهديداً كان يحـوم حولي باستمرار . وأشعر انني ملزم بأن أكون آثماً ولطيفاً الى اقصى حد لكي يغفر الناس لي يسري المالي . . .

٥ ـ لو قلت « لا » دخلت في تنافس مع من يقول « نعم » . والحال أن التنافس يسبّب الحصر ، لأنني أبداً مهزوماً . فذلك كما لو أنه لم يكن لي الحق بأن تكون لي شخصيتي الخاصة .

٦ ـ (ولا حاجة للشرح : فالأنا العليا ، هنا ، تبرز في كل كلمة) .

بين اللاشعور والأنا الشعورية ، تنبسط إذن جيب مسمومة تصفّي وتكبت ، وتتألف من ممنوعات وإلزامات تحت طائلة التهديد بالعذاب . وكل ذلك تفرضه التربية السيئة الصنع والسيئة الهضم . وتتشوّه كل رغبة عفوية ، أو تفسد ، وهي تجتاز الأنا العليا . فمن المؤكد إذن أن الشخص لا يتصرف تصرفاً عفوياً ولا حراً . وتلك عندئذ ضروب الكبت ، والعصاب ، والصراع بين الأنا الارادية والأنا العليا اللاشعورية ، والحصر ، والإثمية الشعورية واللاشعورية ، وبعض المخاوف المرضية أو الوساوس ، الخ .

والأنا العليا تمزّق الشخصية ، وتقوّض الاستقلال والعفوية ، وتولّد سلوكاً صارماً ، وموقفاً من الخضوع أو من التحدي الدائم . **والأنا العليا أشد خطراً بمقدار ما تتصف بأنها لاشعورية ، وبمقدار ما لا يميزها المرء من الشخصية الواقعية (الأنا) . وعلى هذا النحو، يتعدّ الشبح واقعاً ...**

١ ـ ظل الأب والأم

من المسؤول ؟ لا أحد . فالمربون هم ما صنعت منهم الظروف . وهم أيضا لهم أناهم العليا وضروب عصابهم . فماذا تريد عندئذ أن ينقلوا غير الحصر والخوف وفقدان الحب ، أو غير حب مزيف ؟ ... والمرء ، **إذن،** يتبيّن الأهمية الواسعة للوقاية .

ولدى كثير من الراشدين أناوات عليا مغالية . وفي المنشأ ، نجد بصورة عملية دائماً ظلّ والد ، من الوالدين ، مصاب بالعصاب . والأنا العليا المرضية منوطة بـ « المناخ » الذي يسبح فيه الطفل أو المراهق .

والحياة النفسية الانسانية شبيهة باسفنجة تتشرّب الماء النقي والملوث على حد ســواء .

وينبغي أن لا ننسى أن الطفل ضرب من « الطفيلي » . فهو يعيش على حساب امه لكي يبدأ . هل نعتقد ان حبل السرة ينقطع منذ الولادة ؟ نعم من الناحية الجسمية . أما من الناحية النفسية ، فالأمر على خلاف ذلك !

وليس ثمة شيء اكثر **خطراً** ، بالنسبة الى طفل أو مراهق ، على سبيل المثال ، من أن يكون له أم مصابة بالحصر أو صارمة ، ليس بوسعها إذن أن تنقل سوى حصرها ومخاوفها ومبادئها المتحجّرة (انظر « الحصر » في فصل « الانسان الآثم والانسان المصاب بالحصر ») . وما تنقله غير مرئي على الغالب ، ويظهر في نزعة التدقيق ، والوصايا الباطلة والدائمة ، وضروب إضفاء الإثمية ، والرقابات الثابتة ، الخ . وهذا الحصر موصوف تماماً من أجل تكوين أنا عليا ضارة .

٢ ـ حالة السيد م

لا يرى هذا الرجل دينه إلا من خلال الأخطار التي يمثلها (جهنم موجودة في كل منعطف) . **فهو يرى الاله من خلال أناه العليا** . والاله ، بالنسبة اليه ، ليس **سوى** موجود شديد العقاب ، غضوب دون سبب ، يضفي الإثمية ، الخ . وليس الاله ، بالنسبة اليه ، غير **إسقاط** ابيه الذي منحه تربية مدمّرة .

ولكنه **يجهل** كل ذلك . فجميعه مكبوت .

وبما أنه متخم بمشاعر الاثمية ، فانه يحتاج ، بصورة دائمة ، الى الغفران . والاله موجود إذن ليمنح الغفران ... شريطة أن لا يكفّ عن اتهام نفسه ! فهو إذن في كرسي الاعتراف ثلاث مرات أسبوعيا ، وكل يوم يتناول القربان المقدس ، ويشترك في القداس كذلك يومياً .

وليس هذا إذن إيماناً ولا ثقة ، بل هو الخوف والطفالة .

والأنا العليا لهذا الرجل تشوّه كل شيء إذن بما في ذلك الاله . وهو يسوّغ سلوكه قائلاً : « **لن يفوتني الاعتراف والقداس اليومي مقابل كل ذهب العالم ؛ إنه واجب مقدس بالنسبة لي** » . وثمة كهنة يقولون له كم تتصف وساوسه بأنها مغالية . فالأنا العليا هي الأقوى . وهو ، على العكس ، يرفض أن يرى مرة ثانية كاهنا حاول أن يواجهه بالواقع . والسبب في ذلك أن استشفاف هذا الواقع يعني محاولة أن يكون حراً . والحال أنه عاجز عن أن يكون حرا ما دامت أناه العليا تمنعه من ذلك ، تحت طائلة الخطيئة والوسواس والإثمية ، الخ . والحقيقة أن هذه الحالة حالة « هوس » .

٣ ـ من الأخلاق المزيّفة الى الارادة المزيّفة

تولّد الأنا العليا اخلاقاً مزيّفة وصارمة ، متورّمة وموسوسة بمغالاة، وتولّد ضرباً من الأخلاقية الدائمة التي لا صلة لها باخلاق فردية وإرادية . إنها إذن أخلاق مبنيّة على مساعدة الممنوعات القطعية ، وعلى الإثمية العميقة ، والحصر ، والفضيلة المزيّفة ، والكمال المزيّف . وتزول العفوية . وثمة حالة من الاستعداد الدائم ، الخفيّ والغامض على الغالب ، تولد . فالفرد الانساني عندئذ فريسة الانضباط المزيّف ، والارادة المزيّفة التي تتصف على الغالب بالنزعة الارادية والتشنّج ، وفريسة السيادة المزيّفة والمتصلبة على الذات ، التي ترافقها حالة دائمة ، ولاشعورية على الغالب ، من الانزعاج والقلق والإحساس الغامض بالخطيئة .

وكما رأينا في فقرة « بعض الأمثلة اليومية » ، ثمة **تبريرات** تعطى عندئذ : ويتكلم الفرد الذي تفرضه أناه العليا على هواجس عليا ، وعلى **واجب** حب الناس جميعا ، حب لا يتصف مطلقاً بأنه عفوي ، وعلى

واجب أن يكون المرء شريفاً بصورة كاملة ، طيّباً ومخلصاً (ولا نزال كذلك بعيدين عن العفوية) ، وعلى الاحترام المطلق للمبادىء ، الخ .

فليس إذن من السهل مطلقاً أن يحسب المرء حساب الأمور ، وأن يعرف دافعية معينة ان كانت أصيلة أم غير أصيلة .

وخلاصـــة القـــول :

إن الأنا العليا المسمومة تنمو على الدوام منطلقة من الخوف . فهي إذن منوطة بالمربين وبخوفهم الخاص .

وفي هذه الحال ، أين الحدود ؟ أين الأنا ؟ وأين الأنا العليا ؟ من الصعب جدا فصل الواحدة عن الأخرى . ومن جهة أخرى، انظر مرة ثانية الى التخطيطية الموجودة في بداية الفصل . فالشخص يعتقد انه يوجّه نفسه بفضل أناه الشعورية ... في حين انه يطيع أناه العليا اللاشعورية . إنه شبيه بمستمع وصل كل أذن من أذنيه بجهازي إرسال معاديين .

فلا بد إذن من أن يطرح الانسان على نفسه هذه الاسئلة :

من نقل الخوف والحصر ؟ وكيف ؟

من أثار الخوف بموقفه إزاء الحياة ؟ وكيف ؟

من منع الشخصية من أن تنمو بحرية ؟ وكيف ؟

من صنع خوف الطفل من أن يكون مهملاً ؟ وكيف ؟

هاكم تخطيطية في عداد مئة تخطيطية أخرى ممكنة :

الطفولة والمراهقة	سن الرشد
– خوف من الأم .	– خوف (أو كره) من النساء ، ومن الحياة والموت ، ومن اللاشعور ، ومن كل ما هو سلبي (كالماء على سبيل المثال) . كره جامح للواطيين (بفعل « إسقاط » أنوثة الفرد اللاشعورية التي يكرهها) . خوف من السلطة بصورة عامة .
– خوف من قصاص الأم ، قصاص يمضي من مجرد الحرد الذي يُشعر الطفل او المراهق بأنه مهمل ، الى الضربات ، والوان الإذلال ، والخصاء النفسي ، الخ .	– هواجس ، وإثمية ، وخوف من الغير ، ووساوس ، وضروب الهوس ، وإحساس بأن ثمة تبريرات ينبغي تقديمها ، وتسويغ أتفه الأعمال ، الخ .
– حاجة الى غفران الأم حتى يحس بأنه لم يعد مهملاً . وعدوانية .	– خضوع ، وعدوانية ، وفقدان الشخصية ، ومازوخية ، وسادية .
– خوف دائم من الاهمال .	– خوف من النبذ ، وخوف من عدم الإرضاء ، وخوف من الانتقاد ، الخ.
– أن يبدو طفلاً طيباً جداً (وبالتالي كبت كل عدوانية) ، خوف من أن يشعر بالذنب .	– أن يكون لطيفاً جدا ، وانيساً جدا ، لا يعاكس ابداً ، ولا يتصف بالعدوانية مطلقاً . خوف من المنافسة ، الخ .
– خوف من أن يكون « شخصياً » .	– خوف من أن يكون حرا .

٤ – علينا أن نتذكّر دائما

متى ، بصورة عامة ، **ينمو العصاب** ؟ إنه ينمو بمجرد أن يكون الفرد معاقاً في سيره نحو الحرية الداخلية ، ونحو الاستقلال ، ونحو تحقيق الذات وتنمية شخصيته الخاصة تنمية منسجمة .

وينمو العصاب بمجرد وجـود **صـراع لاشعوري ومؤلم** بين الأنا الشخصية وبين الأوامر المفروضة من الخارج . ويفعل الفرد عندئذ أي شيء ليجد شخصيته وتوازنه مجدّدا . وذلك أمر طبيعي . ويتبيّن المرء إذن الى اي حد يمكن أن تكون الأنا العليا نقطة انطلاق مثالية .

رابعا ــ من الأخلاق المغلقة الى الأخلاق المفتوحة

من المؤكد أن ثمة فرقاً كبيراً بين الأخلاق **اللاشعورية** للأنا العليا ، التي يفرضها « الآخرون » مـن آباء ومجتمع وثقافة ووضـع جغرافي واجتماعي ، الخ ، وبين أخلاق **فردية** يرضاها ويتبناها فرد حقّق كماله واستعاد حريته الداخلية . ويرى المريض سريعاً ، في أثنـاء التحليل ، ترتسم حدود اناه العليا . ويشهد انفتاح متاهات يسود فيها الخـوف من العذاب ، والواجبات المرضية ، وضروب التألق المزيّف ، والفضائـل المزيّفة . ويصعد ظل الآباء المهدّد الى النور ويختفي . ويحس المريض تدريجيا بانبعاث أناه الواقعية متخلّصة من مجسّات الأنا العليا . وينقلب، في الوقت ذاته ، أسلوبه في النظر الى الأخلاق .

الأنا العليا هي الأخلاق المغلقة ، والصارمة ، والمنطوية على ذاتها ، والمتوقعة بفعل الإثمية والخوف .

وإذ تتحرر الأخلاق من الأنا العليا ، تصبح أخلاقاً « مفتوحة » . فهي تشعّ نحو احترام **اصيل** للذات وللآخرين .

واخلاق الأنا العليا هي الأخلاق ــ السجن . إنها الشخصية المسجونة في الجبس . إنها الأخلاق **المهجورة** ، راسب مخاوف الطفولة . وعندئذ يصبح الانسان شبيها بمواطن (الأنا) يطيع قوانين يعود تاريخها الى أيام القيصر (الأنا العليـا) .

وليست الأخلاق الفردية (والأصلية) بحاجة الى رجال الأمن حتـى تكون محترمة . إنها أخـلاق الفضيلة . ويصبح الفرد فاضلاً بفعـل

الاستحالة في أن يكون غير فاضل ، أي أن يسبّب الضرر لنفسه أو للآخرين ، لا بفعل المجهود أو الصرامة الداخلية .

وثمة كذلك فرق كبير بين دين يرتكز على الأنا العليا التي فهمت فهماً سيئاً وظلت طفالية ، ومستندة الى الخوف والحذر والإثمية المرضية والهواجس الطفالية ، والى « إسقاط » اب مرعب ، وبين رؤية لدين « منفتح » ، مرتكز على ثقة راشد أقام « صلات » أصيلة بذاته وبالغير وبالمطلق .

الفصل الثاني عشر

مستودع الغرائز

لنلاحظ التخطيطة التالية :

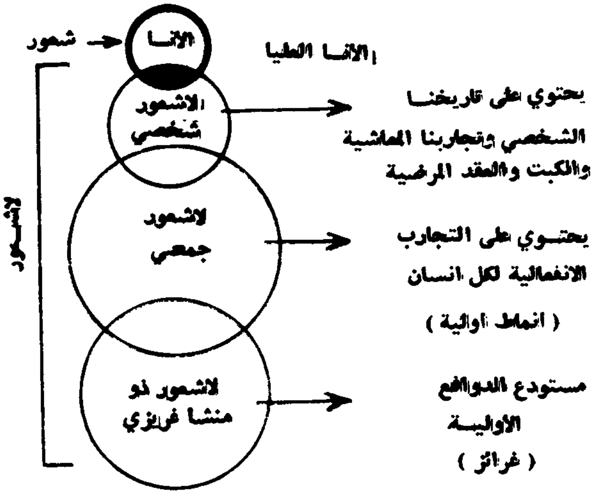

شكل رقم (٩)

بعد أن فحصنا **الأنا والأنا العليا** ، من المنطقي أن ندلف في **اللاشعور** الشخصي ، وأن نستمر على هذا النحو في النزول نحو الأعماق . ومـع ذلك ، « لنقلب » المنطق ، ولننظر الى أسفل التخطيطية : **الى اللاشعور ذي المنشـأ الغريزي** .

وإليكم السبب : مـن الأفضل ان نبدأ بأسس الموجـود الانساني الأصلية ، ثم نصعد نحو السطح . يضاف الى هذا أن اللاشعور ذا المنشأ الغريزي واللاشعور الجمعي لا يتصفان على الاطلاق بانهما مريضان . فليس ثمة عصاب ولا عقد مرضية في هاتين المنطقتين اللاشعوريتين . وذلك يتيح إذن ، على ما أعتقد ، فهماً أفضل للعصاب ، ونحن نتناول اللاشعور الشخصي في نهاية سفرنا .

ولكن ، قبل ذلك ، لنر أيضاً بعض العموميات ذات الأهمية .

ماذا يحتوي لاشعورنا ؟ إن تاريخنا **الشخصي** كله منقوش فيه . وثمة راقات اخرى ينفذ اليها تاريخ **الانسانية برمتها** . وهو يحتوي أيضا على غرائزنا ، ووراثتنا الشخصية ، ووراثتنا من الأسلاف ، الخ . ونجـد فيه دوافع غريزية وحيوانية ، كما نجد انماطاً أولية عظيمة (انظر ذلك في الفصل القادم) . وراقات اللاشعور واسعة : بعضها يسير البلوغ، وبعضها الآخر لا يمكن ارتيادها . وبعضها لا يمكن بلوغها إلاّ عندما يتم استئصال المشكلات العصابية .

١ ــ انسان آلي يحافظ على التوازن

لاشعورنا يُعنى بقانون وحيد : **المحافظة على توازن العضوية ، او إعادة هذا التوازن عند الضرورة** ، وبأي وسيلة من الوسائل .

السهر على لذتنا هو قانون اللاشعور . ولكن علينا أن نفهم جيدا هذا المصطلح : فاللاشعور يبحث عن إقصاء كل كدر ، وكل فقدان للأمن ، وكل فقدان للتوازن .

ويستخدم اللاشعور ، واكرر ذلك ، كل الوسائل الممكنة للمحافظة على هذا التوازن وعلى هذه الراحة . وذلك يمضي من الفعل المنعكس الأولي ، كسحب اليد من مدفأة مشتعلة على سبيل المثال ، الى العصاب ، مرض يتصف بأنه ، كغيره من الأمراض الأخرى ، رد فعل دفاعي تقوم به العضوية

المهدّدة . وتتكفّل **الأنا العليا** ، هي أيضاً ، بالسهر على توازننا ما دامت **تكبت الدوافع الغريزية التي تسبّب اضطرابنا إذا بلغت ساحة الشعور** . **فاللاشعور إذن شبكة من الحماية والدفاع في حالةاستنفار دائم** . وإذا كان **بامكانه أن يسبّب حمّى (رد فعل دفاعيا)** ، **فبامكانه أن يسبّب** عصاباً **(رد فعل دفاعيا كذلك)** .

وعندما يسبّب اللاشعور مرضاً ، فانه يبحث إذن عن تحقيق ضرب من « **توازن التسوية** » . **ولكن المرء يفهم جيدا أن اللاشعور ، إذ يحاول** إعادة **التوازن ، لا يهتم بالأنا الشعورية إطلاقاً ، ولا بأخلاقها ، ولا بعلا**قاتها **العائلية والانسانية ، الخ . ويتبيّن إذن بصورة مباشرة الى أي كوارث** يمكن أن يفضي **ذلك** .

كل ذلك إذن **ذو أهمية كبيرة** ، كما سنلاحظ في أثناء الطريق .

وعلينا أن لا ننسى أبداً ، ونحن نلاحظ التخطيطية المرسومة على الصفحة الأولى من هـذا الفصل ، ما يلي : تتصل أنانا **اتصالاً مستمراً بجميـع** راقـات اللاشعور ، ويطرأ عليهـا **جميـع** التغيّرات ، **وكـل الاضطرابات** ، **وسائر** التوقفات ، **التي تحدث في راقات اللاشعور** .

اولا ــ اللاشعور ذو المنشأ الغريزي

اللاشعور ذو المنشأ الغريزي هو هذا الجزء من اللاشعور الذي يبعث الغرائز كما الراديوم يشعّ الألكترونات . ويتم ذلك ، في الحالين ، بصورة **طبيعية ودونما مراعاة لأي شيء** .

إنه الآلية اللاشعورية من الموجود الانساني ، التي تتصف بأنها الأكثر **عمقاً واولية** **ودينامية** . **وهو مستودع الغرائز « العمياء »** ، الغرائز التي « **لا إيمان لها ولا قانون** » . **إنه أعمق الأعماق في الحالة الخام** . ومن هنا تنبعث الدوافع الطبيعية التي توجّه السلوك .

وهذا اللاشعور ، **لدى الحيوانات** ، قوة ذات غائية بيولوجية ، آلية ،

على وجه التقريب ، بفاعلياتها في البحث عن **اللذة والدفاع** ، الخ ، كما هو الأمر لدى الرضيع . وتنضوي جميع هذه الغرائز ، غرائز الحيوانات ، تحت لواء قانون مترامي الأطراف هو : قانون النوع .

وما شأن هذا اللاشعور **لدى الانسان** ؟ عندما نقول : « الانسان مستسلم لغرائزه » ، نتخيّل مسخاً مخيفاً لا يأخذ بالحسبان قانوناً ، ولا أخلاقاً ، ولا ديناً ، ولا ثقافة ، ولا شيء على الاطلاق . ويبحث هذا المسخ عن لذته وهنائه ومسرّاته المباشرة ... فهو إذن يبحث عن إقصاء كل كدر . ويفهم المرء ــ وهذا أمر منطقي ــ أن من الضروري تنظيم الغرائز . ولكن بعضهم ، وهو يفعل ذلك ، ينظر إليها على أنها « حثالة » مكانها سلة القمامة ؛ وغالبية التربيات القائمة على الحصر والكبت مرتكزة على ذلك .

ولا يزال تصنيف الغرائز متعذرا . ويذكر بعضهم غريزة **التناسل** ، وغريزة **اللعب** ، والغريزة **الأخلاقية** ، والغريزة **الجنسية** ، الخ .

وعلى أي الأحوال ، فان الغرائز هي من الاتصاف بأنها موضع المهانة وسوء المعاملة والجهل بحيث أن لها ، مع ذلك ، بعض الحق في أن يُعاد اعتبارها .

١ ــ التأثير على الغرائز

قمع الغريزة عمل **إرادي** . ومثال ذلك أن شابا يعاني دوافع جنسية إزاء أخته يمكنه قمع هذه الدوافع الجنسية بوضوح قائلاً في نفسه إن تحقيق هذه الدوافع ، في مجتمع له قوانينه الخاصة ، غير وارد .

ويمكن كبت بعض الدوافع . والكبت آلية لاشعورية على نحو صرف تقود الى العقدة سريعاً جدا . فمن الناحية الشعورية إذن ، **يجهل** المرء عندما يحدث ضرب من الكبت .

ويمكن تصعيد غريزة من الغرائز . وتلك هي حال امراة صبية تنذر

نفسها ، وقد حرمت من الأطفال ، لأطفال الآخرين ، فتصبح مساعدة اجتماعية ، أو ممرضة ، أو زائرة صحية ، أو مربية أطفال ، الخ . أو حال عدواني يصبح جراحاً ماهراً نتيجة تربية ممتازة ، أو حال إنسان ذي نزعات نرجسية واستعرائية يصبح ممثلاً أو راقصاً ، الخ . وتجدر الإشارة الى أن الأمثلة التي ضربناها ينبغي عدم تعميمها .

ويمكن « تصفية » غريزة من الغرائز . فاذا استسلم رجل الى غرائزه الأولية ، اغتصب النساء اللواتي يعجبنه ، دون اي شعور بالإثم . وذلك فعل طبيعي كالأكل والشرب على حد سواء . واذا تمت تصفية هذه الغريزة الجنسية ، فانها يمكن أن تتحوّل الى مزاح ، أو غزل ، أو صفرة إعجاب، أو الى حب افلاطوني ، الخ .

وتوجيه الغرائز توجيها متناغماً منوط ، على نحو مؤكد ، بتربية متقنة تفضي الى انسجام الراقات العليا للشخصية . فعلى هذا النحو إنما تنمو **الأنا** التي تقمع بعض الدوافع غير المقبولة . ومع ذلك ، فقد يحدث على الغالب أن التربية توجّه الغرائز توجيها سيئاً . ويفضي الأمر عندئذ الى شخصية مشوّهة وصارمة تنظر الى كل غريزة على انها « سيئة » ، وأنها جزء من مستودع هائل للأقذار . ونحن عندئذ أمام **الأنا العليا** .

ومع أن من المحتمل أن يكون عدد الغرائز كبيراً جدا ، فالمرء يفكر مباشرة بالغريزة الجنسية . ومن المؤكد أن الغريزة الجنسية هي اكثر الغرائز اتصافاً بأنها **مكبوتة** . والجنسية منشأ عدد كبير من ضروب العصاب . وهذه الضروب من العصاب تنعكس على الحياة الجنسية وعلى

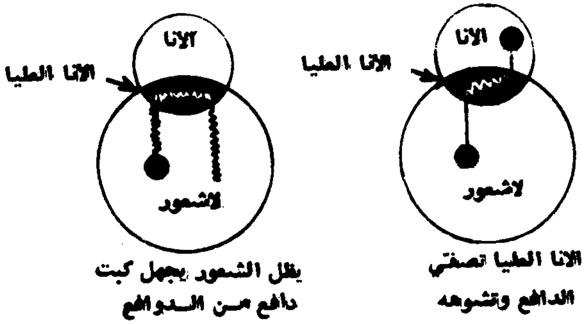

شكل رقم (١٠)

الحياة الاجتماعية ما دامت **العلاقـة الجنسية علاقـة اجتماعية** . وأي اضطراب جنسي يحدد، مع ذلك دائماً ، اضطراباً في الشخصية برمتها ، يتصف بأنه عرض من اعراضها الأخرى .

والتصعيد هو ايضا آلية نفسية غالبة . فقوامه ان يقود الطاقة الخام الى مستوى اجتماعي أكثر سمواً .

ولنفرض رجلاً ظلّ جزء من شخصيته متوقفاً في **المرحلة الشرجية**. والمرحلة الشرجية هي الفترة التي يكابد في أثنائها الطفل الصغير لـذة الاحتفاظ ببرازه . وتلك هي حال كثير من الراشدين مع ذلك . وتتصف هذه اللذة ، لدى الطفل ، بأنها ملوّنة بـ **الجنسية والعدوانية** تلويناً قويا. ذلك ان علينا ان نتذكر كون الشرج منطقة مهمة مـن المناطق الشبقية المنشأ . وهذا الرجل « سيحتفظ » ، في حياة الرشد ، ببعض الأشياء . فيمكنه ، على سبيل المثال ، ان يحتفظ بالمال ، بالكنوز ... وأن يصبح رجل مال ممتاز . ويمكن ان يصبح بخيلاً من الدرجة الأولى : فهو عند ئذ « متعلقاً بالمال » كما كان « متعلقاً ببرازه » . إنه ، من الناحية الجسمية، مصاب بالإمساك على وجه العموم .

اضف الى ذلك اننا نرى على الغالب ، **في اثناء العلاج التحليلي** ، مرضى متوقفين في المرحلة الشرجية ، **يحفظون** كلمات المحلّل ... لا بغية فهمها، بل من اجل **نبذها** ، بعد ثمانية أيام ، تفريغات عدوانية ضد هذا المحلّل ذاتـه .

والبراز والذهب ، فضلاً عن ذلك ، مرتبطان من الناحية الرمزية . وعلينا ان نتذكر ان الطفل الصغير يمنح لبرازه إجلالاً كبيراً جداً . وهو، إذ يتغوّط ، **يخلق وينتج** شيئاً من الأشياء . وثمة من جهة أخرى عدد مـن الراشدين الذين يتصفون بأنهـم فخورون لكونهـم « يتغوّطون » (يصنعون) برازاً « لا بد من أن يزن تماماً أكثر من كيلو » ، ويتباهون بذلك بين أصدقائهم .

والبراز ، **وانا استشهد بيونغ** ، ينظر إليه المزاح الشعبي على انه « اثر تذكاري » ، « ذكرى » يتركها المرء وراءه . ويذكر **يونغ كذلك** ب «هذا الرجل الذي يقوده شبح نحو كنز مخبأ ، والذي يضع برازاً ليعلّم آخر مرة دربه . وكان لمثل هذه العلامة ، في العصور الغابرة ، أهمية تساوي أهمية براز الحيوانات بوصفه إشارة الى وجودها أو الى الجهة التي اتجه اليها القطيع . وقد حلت لدى الناس ، فيما بعد ، أكوام من الحجارة محل هذه العلامات الخاصة »(١) .

٢ ـ غريزة اللذة

يبحث الانسان قبل كل شيء ، مثله مثل الحيوان ، عن لذته وهنائه وامنه . ولا يطلب غير ان يبعد الألم . وهذا هو المحرك رقم واحد لكل عضوية حية . ولكن تعقد الأمور إنما يكون عندما يبحث الموجود الانساني عن لذته وامنه بفضل الألم . وقد ضربت ، وسأضرب أيضاً ، أمثلة على ذلك خلال هذا الكتاب . ويستسلم كثير من الناس ، واليدان والرجلان في وثاق ، ليتجنبوا خطراً هو الحصر الناشىء من لوم ممكن ، أو نقد الآخرين ، أو من حكمهم ، الخ . فالشخص إذن يبحث عن لذته ، أي أمنه الداخلي ، بوساطة الألم ، أي بوساطة الخضوع والذل : وتلك آلية من آليات المازوخية .

ولنضرب مثالاً آخر ، ولنفكر بعصاب . والعصاب بحث لاشعوري عن اللذة ، أي عن الأمن . وسأتكلم على ذلك طويلاً ، ولكن ها هو مثال مبتذل : مثال طفل ينطوي على ذاته لكي يفلت من اللاأمن الناشىء لديه من الشجار بين أبويه . وهذا الانطواء عصاب مصغّر . ولكنه يبحث عن امنه ، أي عن لذته ، بهذا العصاب ، بهذا الانطواء على ذاته .

وخلاصة القول ، يمكن أن يتحرك دافع غريزي نحو الاشباع . ولكنه يمكن أيضاً أن يكون غير مشبع ، وأن يتحوّل الى استياء والى انزعاج

---

(١) انظر مؤلف يونغ « استحالات النفس ورموزها » ، ترجمة إيف لو لي ، جنيف ، مكتبة الجامعة .

سيكولوجي أو جسدي . وعلى أي الأحوال ، لا بد لنا من أن نعرف أن الاشباع واللذة اهمية كبيرة جدا بالنسبة الى الموجود الانساني . ولا بد كذلك من الرجوع الى الرضع خلال السنة الأولى من حياتهم ، وملاحظة ان الطفل غير قادر ، إلاّ بالتدريج ، على أن يتحمل أن تكون حاجته الى اللذة غير مشبعة بصورة مباشرة .

٣ ـ هل ثمة غريزة للموت ؟

إحدى جرآت فرويد كانت استنتاجه وجود **غريزة للموت** . فـاذا نظرنا الى حياة الناس خلال الأزمنة ، يصيبنا الذهول من نزعة التدمير لديهم . وهذه النزعة يمكن أن تتجلى إزاء الآخرين بالحروب والساديـة والعدوانية ، الخ ، أو إزاء أنفسهم بالدمار الذاتي والمازوخية والإذلال الذاتي وحطّ الانسان من شأن نفسه ، الخ . ولكي نفهم فرويد ، لا بد من ان نتذكر **النزعة الى التكرار** . إنهـا نزعـة يعاني الموجود الانساني بوساطتها حاجة الى تكرار التجارب السابقة ، أو الى العودة الى المراحل السابقة من نموه . وفي هذا المجال ، يغوص فرويد في الجراة . فهو يزعم أن هذه النزعة ملازمة للحياة العضوية .

فلتناول فكرة فرويد مرة ثانية : كل انسان كان غير حي قبل أن يكون حيا . واذا كانت النزعة الى العودة نحو المراحل السابقة موجودة ، فلا بد لكل إنسان من ان يكون لديه دافع غريزي يقوده نحو الموت . هل هـذا صحيح ؟ هل هو خطأ ؟ إن المسألة تظلّ مفتوحة .

وماذا يحدث في التحليل النفسي ؟ نلاحظ ان كل شخص يتم تحليله يعاني حاجات الى التدمير ضعيفة جدا . ولكن بالامكان الرد بما يلي : إن الشخص كان خاضعاً ، عند بدء تحليله ، الى دوافع أولية للتدمير ، كالسادية والمازوخية ومشاعر الدونية والحاجات الـى الإذلال ، الخ . ويصبح ، عندما ينهي تحليله ، **عدوانيا بصورة سوية** ، ويمكن أن يوطّد شخصيته بصورة سوية . والحال أن توطيد الذات ودعم الحقوق إنمـا ينبغي أن يحدثا على حساب الآخرين ! ونقع بالتالي مرة ثانية أيضاً في غريزة للهدم اكثر تمدنا ، ولكنها في الحقيقة تظلّ هي ذاتها ...

فهل ثمة إذن غريزة للموت أو لا وجود لغريزة الموت؟ إن السر مستمر. وتواتر الميل الى التدمير، من جهة اخرى، لا يبرهن على انه غريزة. فالمهم قبل كل شيء أن الموجود الانساني يكتسب أخلاقاً **شخصية** سامية هي احترام الذات والآخرين، معتمداً على شخصية منسجمة وموحّدة.

٤ ـ صوب الجنين

لا شيء يدل على أن المقصود غريزة. وعلى أي حال، إنها حاجة عميقة، دائمة ولاشعورية، تكمن في كل موجود إنساني.

ويمكن تسمية ذلك بـ « **الحاجة الى العودة الى رحم الأم** ».

ثمة كثير من الأنفس مشبعة بهذه الحاجة، وهي تغزو كثيراً من الأعمال، وتمنع كثيراً من الرجال والنساء من أن يصبحوا راشدين، وذلك أمر ينبغي التبصّر به.

ـ انه لأمر غريب، تقول السيدة س ذات الاربعين عاما، أن تزول كآبتي سريعا عندما أندسّ في فراشي مع إناء من الماء الحار جدا. وتبلغ غبطتي ذروتها عندما يكون المطر منهمرا في الخارج والرعد يقصف.

أ ـ الخروج الاول الى العالم

كان فرويد قد تكلم سابقاً على **حصر الولادة**. ومع ذلك، منح أوتو إنك حصر المولود الجديد أبعاداً واسعة ومسوّغة.

فما المقصود؟ لنتصور **طفلاً جنيناً**. إن له جملة عصبية، وحياته النفسية اللاشعورية تتكوّن ببطء. وهو يسبح مغتبطاً في **ماء الأمومة**. والجنين سعيد بصورة لاشعورية. فعضويته في سلام. إنه لاشعوري، مغتبط، طاعم، ساكن، إذا صح القول.

ثم تأتي الولادة التي تتصف بأنها ضرب من « الاقتلاع ». فالطفل ـ وحياته النفسية ـ ينطردان طرداً عنيفا من « رحم الأم »، ومن اللاوعي السعيد الذي كانا يسبحان فيه. وذلك « قذف بالمنجنيق »، قذف

بعنف ، نحو عالم مترامي الأطراف ، شديد الخطر ، صاخب ، مبهر ، بعد الراحة في اللاوعي . فينتهي سلام اللاوعي .

والحال أن حياة المولود الجديد النفسية اللاشعورية تسيطر عليها غريزة اللذة . فمن المنطقي إذن أن لا يطلب بصورة لاشعورية غير شيء واحد : **العودة من حيث أتى .**

ولكننا إذا وجدنا ذلك منطقياً ونحن نفكّر بالوليد ، فاننا نفكر بذلك على نحو أقل بكثير عندما يكون الراشدون هم الذين نقصدهم . ومع ذلك ، فالحالة قائمة . ولنتصور هذه الحياة الراشدة،المحفوفة بالمنافسات والأخطار والمتاعب والصعوبات . فمن الطبيعي تماماً أن يبحث الراشد بحثاً عميقاً عن السلام الخارجي والداخلي . **إنه ليس هو الذي يطلب السلام ، بل هي عضويته .**

وذلك يعني أن جميع الراشدين يمتلكون ، في أعماقهم ، **رغبة حنينية في العودة الى رحم الأم .**

ها هي بعض الأمثلة المأخوذة مصادفة :

ـ أحب النساء اللواتي أستطيع معهن أن « أترك نفسي على عفويتها » . وبوسعي عندئذ أن أضع رأسي في حضنهن ، وأن لا أفكر بشيء بعد .

ـ يتسلطّ عليّ الحنين الى الطفولة . ومع ذلك لم تكن طفولتي سعيدة قط .

ـ أشعر أنني أذوب عندما اسبح في مياه فاترة . وذلك كما لو أنه لم يكن لي شخصية قط ، وكما لو أنني كنت أدخل في أبدية ... (فلنتذكر « مياه الأمومة » التي يسبح فيها الجنين.والمريض يتكلم هنا على « المياه الفاترة ».ولنعلم أيضا أن الماء رمز المرأة واللاشعور. ويقول المريض : « وذلك كما لو أنني كنت أدخل في أبدية » ، أي في حالة لاشعورية ، سعيدة وأبدية ، حالة ما قبل الولادة) .

ـ اشعر أنني مغتبط عندما اسير في عربتي وهي في أقصى تدفئتها خلال طقس الشتاء البارد . وأحس أن لا شيء بوسعه أن يبلغني ... (والعربة ترمز هنا الى العالم المسوّر والمغلق على ذاته الذي يحس فيه المرء بأنه على ما يرام،وأنه في مأمن من الاخطار الخارجية).

يقول ملاّح طائرة :

ـ لا أشعر بهذه الدرجة الكبرى من السعادة الا ّ عندما أدلف في الآفاق الكبرى الحمراء عند الفجر .

فهذا الرجل يدلف في فتحة مضيئة ترمز الـى الأبدية واللاشعور و « ورحم الأم » حيث يتمنى أن « يذوب » . إن طائرته محـرك **يغوص ، وينفذ ويثقب**الآفاق . وهي رمز **عضو الذكر الذي** «يثقب »الآفاق . والآفاق فتحة « حمراء ! » واسعة ، أي المراة ، والأم ، واللاشعور ، التي فيهـا يختفي ، أي يتجرّد من شخصيته ويعود الى رحم الأم ، الـى نيرفانـا اللاشعور . ويرتبط بذلك أيضا بعض صور **اكتشاف الأغوار** (اكتشـاف « أحشاء » الأرض ـ الأم) أو بعض صور **الغوص تحت ماء البحر** .

ولكن ثمة صور أخرى أكثر اتساعاً : الموت العذب على سبيل المثال . ويمكن للمرء أن يكون لديه حنين إليه ، أو يبحث عنه ، بصورة إرادية ، بالغاز والكحول والمهدّئات وبعض صور الغرق . وهذا الموت العذب ، إذا ما نظر إليه من هذه الزاوية ، عودة رمزية الى « بطن الأم » . وتتـم العودة بعذوبة الى اللاشعور ، إذ يفلت المرء على هذا النحو من كل صراع خاص بالراشد . أضف الى هذا أن الموت عودة الى الأرض التي تتصف بأنها رمز قوي ـ منتشر انتشـاراً كلياً ـ للمراة والأم(١) .

ويمكن أن تتم كذلك عودة الى « رحم الأم » بأن تضع نفسك في حمى « حضن » **زمرة** ، حيث « يحيط » بك جميع أعضائها ، أو بأن تنتمي الى «**أمنا الكنيسة** » ، أو بأن تنجز مع الجماعة بعض **الطقوس** ، الخ .

وها هو مثال في أثناء التحليل . والمقصود رجل قال بعد صمت طويل جـدا :

ـ للمرة الاولى ، تجاوزت هذا الصمت دون حصر ولا خوف ، وبهدوء كبير جدا . كنت أحس احساسا عميقا ـ وهو أمر يصعب جدا وصفه ـ أنني ما كنت أتعرّض الى أي خطر . وكنت أشعر أنني أنزل في شيء يتصف باللامبالاة والاتساع بحيث تتلاشى كل صعوبة ويصبح كل شيء بسيطا ، وبحيث لم يعد للمرء وجود ولم يعد عليه أن يفكر . . .

---

(١) انظر فصل « جواز سفر الى اللانهاية » فقرة بعنوان « الام ، رحم كبير » .

فالحاجة الى العودة الى « رحم الأم » ليست إذن رؤية يصفها الفكر. والراشدون الذين يحتفظون بالحنين الى هذه « الجنة المفقودة » في أعمق أعماق لاشعورهم ، عديدون ... وتلك حاجة إنسانية بعمق ، وحنينية ، ومؤلمة ، ومتصفة في بعض الأحيان بالمرارة .

واذا نقلنا ذلك الى الحياة اليومية ، لاحظنا أن الراشدين يواجهون اختياراً في كل ثانية من حياتهم : الاختيار بين السهولة والصعوبة . **فالصعوبة** تعني أن يقوم الانسان بدوره دور الراشد،ويمضي الى الأمام ، ويهجر رحم الأم . **والسهولة** تعني العودة الى الوراء ،والبحث عن الحماية، والعودة في نهاية المطاف الى رحم الأم .

ب ـ الصدمــة

الولادة « اقتلاع » .إنها تثير صدمة عنيفة لعضوية الوليد التي تتصف بأنها محرومة من الدفاع . فثمة :

- انفصال عن الأم ، أي عن الغبطة اللاشعورية .
- تغيّر جذري في الحالة الفيزيولوجية .

إنها تجربة مؤلمة وشاقة . **والموجود الانساني إنما يعرف حصره الأول العميق في لحظة هذا الاقتلاع** . وذلك ما يسميه رانك **الحصر الطفالي** . ويمكن بالتأكيد أن نمضي بعيداً جدا ، **منطلقين** من فكرة رانك . ومع ذلك ، فالطفولة ، بالنسبة الى رانك ، ضرورية لتجاوز هذه الصدمة ، صدمة الولادة . والعصابيون هم أولئك الذين لم ينجزوا هذه المهمة بنجاح . ومن المعلوم ، بالاضافة الى ذلك ، أن لجميع الأطفال استعداداً للحصر . ومصدر هذا الحصر ، بالنسبة الى رانك ، صدمة الولادة .

كنت قد قلت لكم إن بإمكاننا المضي بعيداً جداً في هذا المجال . ولم يحرم رانك نفسه من ذلك مصيباً . فما شأن بعض الأفعال الجنسيةعندئذ؟ إنها في رأي رانك ، **الاستعاضة** الأقوى للاتحاد بالأم ، فالحاجة للعودة

الى رحم الأم تعني هنا الحاجة للعودة الى الاتحاد بالأم .والرجل العصابي، في هذه الحالة ، **يتوحّد** بعضوه المذكر . ويقول رانك : « إن الإيلاج في الفتحة المهبلية للمرأة تعني ، بالنسبة الى الرجل ، عودة جزئية الى رحم الأم ، عودة لا تصبح كاملة بفضل توحّد الجزء بالكل فحسب ، توحّد الرجل بعضوه المذكر ، بل تصبح طفالية على نحو كامل أيضاً » .

انظر مرة ثانية في حالة **الطيار** التي ذكرناها قبل قليل : إنه يتوحّد بعضوه المذكر (الطائرة) ، الذي يلج بفضله كلياً في رحم الأم (الآفاق الواسعة) .

وانظر كذلك فقرتي « من جاك بقار البطون الى شعراء الملحمة » و « الأم » في الفصل التالي : جواز سفر الى اللانهاية .

الفصل الثالث عشر

جواز سفر إلى اللانهاية

ها هي منطقة رائعة : **اللاشعور الجمعي** . **إنه** بسيط بساطة **الجميل** ، ولكنه يصعب جداً تحديده بصورة عقلانية ... ذلك انه لاعقلاني . والمقصود ، على أي حال ، جزء من اللاشعور يتصف بأنه غير مريض أبداً ، وبأنه مشحون بكمون طاقيّ يحرّره **اللاشعور الجمعي في نهاية التحليل النفسي** .

١ ـ حالة نوضّحها بالمثال

أبسط الأمور ، في اعتقادي ، أن نبدأ بمثال .

ـ كنت أعبد أبي ، يقول السيد س الذي بلغ الثلاثين من عمره ، لأنه كان الذي لا يُقهر بالنسبة لي . وعندما بلغت الثالثة عشرة ، شرع أبي يتناول الكحول لينسى أو لينسى نفسه ، لا أعلم . وبدأت منذ هذه اللحظة أحتقره ، بل أكرهه على وجه الخصوص . ومع ذلك ، كنت أرثي له وأحبه . واستسلم أبي للكآبة ، ولم يكن يحلق ذقنه ، ولا يغتسل الا قليلا . وفي هذه الفترة ، بحثت عن الهرب من البيت . ووجدت أصدقاء ، ودخلت في زمرة. وكان مثالنا أن يصارح بعضنا بعضا ، وأن لا يخفي أحدنا عن الآخرين شيئا . وكنا نريد أن نطارد المراءاة لدينا ولدى الآخرين . وكنا أنقياء ، طاهري الذيل . وكان لنا شعار . والفكرة أتت مني ، وقد استلمت بالاضافة الى ذلك زعامة الزمرة سريعا .

ـ كيف كان هذا الشعار ؟

ـ كان **مثلث الشكل** ، مع مدية كانت ترمز الى موت جميع أصناف المراءاة . فهل يمكن أن يكون الانسان غبيا ؟

ـ ما كان لون الشعار ؟

ـ أصفر فاقعا . هل هذا أمر مهم ؟

ـ ربمـا ...

ـ لم أدر ما حدث . انني ، أنا الذي كنت طيبا ، أصبحت حقودا ازاء جميع أولئك الذين كانوا يذكّرونني بأبي : المتسكعين والسكارى والمتسولين والقذرين واليهود ...

ـ ؟ ...

ـ نعم ، لانهم كانوا جميعا ، بالنسبة لي ، قذرين . وكان ذلك حمقا . وكنا نريد أن نستأصل كل ذلك باسم مثالنا ، وأن نصلح جميع هؤلاء الناس بالمحاضرات والمقالات وامور أخرى .

فماذا نلاحظ ؟

إن والد السيد س إلها « لا يقهر » ، ورمزاً للإشعاع والقوة والرجولة . كان الأب ـ الشمس . ثم **ينحط** هذا الأب : إنه لم يعد يطابق رمز الأب البطولي .

ويكف الأب ، في ذهن الابن ، عن أن يكون رائعاً وقويا وذا رجولة . فيفقد اذن رمز هذه الرجولة : قضيبه . **ويصبح الأب باهتاً ، ومخصيا ،** وفاقد الرجولة ، ووحيداً ، ومهملاً . ويبدو صراع وحصر لدى الابن ، ويتحوّل الحب المحطم الى كره ، أو بالحري الى يأس .

إلهه كان قد مات ، ولا بد له إذن من أن يجد إلهاً آخر .

كان لا بد إذن من : ١) أن يجد الابن مجدداً أباً رائعاً ؛ ٢) أن يستأصل جميع الآباء « القذرين » و « المخصيّين » كأبيه ، مع احتمال إصلاح حالهم فيما بعد .

ويبحث الصبي بحثاً لاشعوريا عن اب آخر . **فهو يدخل إذن في زمرة** مثالية جميع أعضائها « متوحدون بوصفهم واحداً » ، وهدفها يبدو لهم رائعاً كأب مثالي ، كبطل . وماذا تمثل هذه الزمرة ؟ **إنها ترمز الى** الأب : الأب القوي ، والنزيه ، والنقي ، والرائع .

فثمة إله جديد (الزمرة) حلّ محل الاله القديم (الأب المخصيّ والمستضعف) . إن الشعار يتضمّن مدية ترمز الى القضيب والرجولة والقوة النافذة . فهذه المدية لاتمثل إذن « موت جميع الوان المراءاة » كما كان يعتقد الطفل . إن اللون أصفر ، لون **الشمس** ، **هو الأب المجيد** .

وينبذ الطفل عندئذ جميع أولئك الذين يرمزون ، بالنسبة له ، الى الأب المخصيّ والمستضعف : المتسكعين واليهود ، الخ . ولكنه ، لكي يفعل ذلك ، يستند الى أب آخر : الزمرة « النقية » و « النزيهة » ، وهو يريد أيضا **إصلاح** الناس الذين ينبذهم ، أي يريد أن **يصنع منهم آباء رائعين ...**

فما الذي كان شعورياً في كل ذلك ؟ **لا شيء** . لا لأن السيد س كان صغيرا جدا فحسب ، وإنما أيضاً لأن غالبية دافعياته كان مصدرها اللاشعور الجمعي الذي يتصف بأنه منيع على شعوره .

وعلى هذا النحو كذلك إنما يبحث العديد من الزمر **المعادية لليهود ،** على سبيل المثال ، بحثاً لاشعوريا ، عن استئصال « الآباء » الذين فقدوا رجولتهم ، والمنعزلين و « القذرين » والمهملين . والسبب في ذلك أن الانسان لا يحتمل ، بصورة لاشعورية ، أن يكون **الأب** غير مطابق للفكرة التي يصنعها لنفسه عنه . وتتكوّن هذه الزمر باسم الدولة ، أو باسم دين ، أو مثال ، أو عرق ، الخ ، **وترمز هذه الزمر الى الأب المجيد** والمنتقم ، كزمرة الطفل .

وهكذا تمضي الأعمال الانسانية التي يعتقد الناس انها مدروسة وحرة ، ولكنها توحي بها أجهزة قوية ، لامرئية ، تحدّد كل شيء من الألف الى الياء .

أولا ــ ما هو اللاشعور الجمعي ؟

إنني أعتمد اعتماداً كلياً على أعمال يونغ الذي وضع على التحليل النفسي ، في أعقاب باحثين آخرين ، تاجاً متلألئاً (شمسياً !) بدراساته حول اللاشعور الجمعي والأنماط الأولية والرموز .

وأيسر الأمور أن نستعيد كتابات يونغ وافكاره كما هي . وسيكون هذا الأمر في الوقت نفسه تحية له . والحال أنني أود أن اعرض فكرة يونغ بصورة واضحة وضوح البدهية ، ما دام ذلك موجوداً ويتأكد كل يوم في التحليل النفسي وفي الحياة اليومية على حد سواء .

ولا بد ، بادىء ذي بدء ، من الاشارة الى أن اللاشعور الجمعي مستودع لاشعوري ، تغذّيه الغرائز بصورة مباشرة ، كغريزة المحافظة على البقاء وغريزة التناسل ، الخ . وعمل اللاشعور الجمعي يمكن ، في بعض الشروط ، أن يحوّل انفساً بكاملها . وذلك ما يُرى في بعض الأحلام الكبرى أو في بعض ضروب « احتياز الشعور » خلال التحليل النفسي . يضاف الى هذا أن اللاشعور الجمعي يتيح توحيد الشخصية بوساطة الرموز الكبرى .

١ ــ هل دماغ الوليد صفحة بيضاء ؟

تجربة المحللين النفسيين اليومية أيّدت آراء يونغ الهائلة . « إنه لخطأ فادح ، يقول يونغ ، أن نفترض **حياة الوليد النفسية صفحة بيضاء** ، بمعنى أنها فارغة فراغاً مطلقاً » . فالطفل ، بحسب رأي يونغ دائما ، يولد بدماغ حدّدته الوراثة تحديدا مسبقاً . إن هذا الدماغ إذن دماغ يتميز مسبقا بصفات خاصة . ولن يتصرف الوليد ، إذا حدث ظرف خارجي ، تصرفاً كيفياً ، بل سيتصرف ــ على عكس ما يمكن أن يعتقد الناس ــ **باتجاه يتصف مسبقا بأنه نوعي** . ويمكن أن نبرهن ، يتابع يونغ حديثه ، على أن قابلياته هي غرائز موروثة ونماذج ذات تكوين مسبق .

ويستأنف يونغ قائلا : « ويترتب على ذلك ان جميع هذه العوامل التي كانت أساسية لأجدادنا ، القريبين أو البعيدين ، هي أساسية لنا بسبب اندماجها بالجهاز العضوي الموروث » .

وذلك يعني إذن أن **الحياة النفسية** للوليد حياة متبنينة سلفا . ويقول رجل آخر من رجال العلم (ستيرنيمان) : **حياة الوليد النفسية** شبيهة بلوحة حسّاسة كانت قد تعرّضت للضوء خلال أجيال سابقة » .

وتتصف وجهة النظر هذه بأنها ذات اهمية أساسية . ولكن الشمس ، على اي حال ، انجزت مسيرتها دائماً . وتعاقب النهار والليل دائماً ، والمطر أخصب الارض دائماً . وكان الناس دائماً ، في كل زمان وكل جيل ، حريصين على المحافظة على حياتهم ، وعلى الطعام ، وعلى الأمل في المطر ، وعلى انتظار شروق الشمس ، الخ . واللاشعور الجمعي هو المستودع الذي يحتوي على مجموع هذه الانفعالات اللاشعورية ، ولكنها الفاعلة ، والتي ترجع الى عهود الأزمنة الانسانية السحيقة ، وتحدّد رموزاً قوية ، وضروباً من الابداع الفني ، وديانات ، وحركات شعبية جبّارة ، كما سنرى في الحال ...

٢ ـ الفصام واللاشعور الجمعي

الفصام(١) مرض نفسي خطير . والمصاب بالفصام « مصاب بالاغتراب» بصورة حقيقية ، بمعنى انه يفقد اتصاله بالواقع فقداناً كلياً . فالمريض مفصول عن الواقعي . ويظلّ دون رد فعل موضوعي . وهو يعيش حلمه الداخلي بوصفه لامبالياً . ويزول لديه وعي الواقعي . وينمو في ذهن المريض عالم مهلوس . وقد تم في بعض الأحيان عرض أعمال فنية تصويرية لمصابين بالفصام . فالإثارة الفكرية لهؤلاء المرضى مدهشة على الغالب ، وانجازاتهم رائعة . ويقال إنها العبقرية والشعر في حالتهما النقية . ولكننا نلاحظ أيضاً أن طابع هذه الأعمال الفنية طابع رمزي .

---

(١) انظر « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » .

وفي هذا المرض النفسي ، يزول الشعور وكأنه ارض غمرتها المياه . فاللاشعور الجمعي يفيض بسيل من الرموز والصور والشعر الخام . ولنستشهد بيونغ : « وهكذا ، فان ما يبدو ، بفعل زوال وظيفة الواقعي في الفصام ، ليس ضرباً من التكثيف في الجنسية ، بل عالم خيالي يحمل سمات قديمة واضحة » .

فاللاشعور الجمعي ، على هذا النحو إذن ، ضرب من « السجل » فوق الشخصي . إنه مجال لاشعوري ذو أعماق لا يمكن سبرها بصورة عملية . ولنقل إنه الكون اللاشعوري الذي يضم كوكبات لامعة : الأنماط الأوليـة .

٣ ـ اللاشعور الجمعي لا يصاب بالمرض ابدا

لماذا لا يتصف اللاشعور الجمعي بأنه مريض ابداً ؟ لانه ، بكل بساطة، غير شخصي . **إنه لا ينتمي الى التجربة الفردية** . فالكبت والعقد والكف عير موجودة **أبداً** في اللاشعور الجمعي ، بل هي موجودة في اللاشعور الشخصي .

والحقيقة ، ولنشرح فكرة يونغ ، أن بالإمكان موازنة اللاشعور الجمعي بموجود عملاق عاش خلال ملايين السنين ، وظلّ منذ آلاف السنين دون أن يطرأ عليه أي تغيير . فهو يستطيع أن يحيط بتاريخ الاسانية كله بنظرة خاطفة . ويتذكر جميع التجارب الانسانية العميقة ، وجميع المخاوف والانفعالات . إنه موجود موجود في كل فرد . ونحن نسبح ، بلاشعورنا الشخصي وأنانا ، في هذا اللاشعور الجمعي خلال حياة برمتها .

ولنتأمل قليلاً من جهة اخرى . ها هو رجل ذو عمر متوسط ، اربعين عاماً على سبيل المثال . لنأخذ الآن خمسين رجلاً بلغوا الأربعين من عمرهم ، ولنضعهم جنبا الى جنب في الزمان . خمسون رجلاً من عمر أربعين عاماً يساوي ٢٠٠٠ عام . هذا العدد الزهيد ، هؤلاء الرجال

الخمسون ، يعيدنا الى ما قبل ولادة المسيح . وخلال هذه الفترة **المؤلفة** من تكرار الخمسين أربعين مرة ، ثمة عشرات **الألوف** من الحروب قد نشبت . وعلى سطح الأرض ، ثمة ملايين الملايين من الناس كانوا قد امتزج بعضهم بعض ، وعشرات ملايين الملايين من«**الأناوات**» المختلفة **قد** اضطربت وعملت وتألمت وأبدعت وماتت . ولكن ، ثمة شيء كان مشتركاً وغير قابل للفساد في هذه الحركة الهائلة من الجزئيات الانسانية المتعاقبة : اللاشعور الجمعي ، الفاعل ، والمرئي ، والذي يولّد ، **انطلاقاً من مصدر واحد** ، تكاثراً في الرموز والأعمال والانفعالات ... ولنقتصر على أن نأخذ نمطاً أولياً ثابتاً واحداً : النمط الأولي **للمنقذ** الذي ولد رموزاً قوية تتغيّر بحسب العصور : المسيح ، والصحون الطائرة ، والراعي ، والمخلص ، وأبطال الغرب الأمريكي ، والحَمَل ، وهتلر ، الخ .

وهكذا ظلّت الحياة العميقة ، منذ الأزمنة الانسانية السحيقة ، هي ذاتها على وجه الدقة ، بصورة مستقلة عن العرق والدين والذكاء .

فاللاشعور الجمعي يتكوّن إذن ، عبر الزمن ، من صور نفسية مودعة وكأنها راسب **حي** . ولن أتكلم عليه إلا على سبيل الدراسة أو الفضول العلمي لو أن « كوكبات » اللاشعور الجمعي لا تفيد في إعادة بناء الموجود الانساني وتجعله ، في الوقت نفسه ، يتصرف ويفكر بالرغم منه تصرفاً وتفكيراً **لا يخضعان الى أي عقلانية ولا الى أي ارادة** . إنه إذن باهر ... وعمليّ في وقت واحد .

ويمكن أن نلخص قائلين إن اللاشعور الجمعي لاشعور سام . إنه إرث نفسي تشترك فيه الانسانية كلها ، دون تمييز في الثقافة أو العرق . ويتجلّى هذا اللاشعور الجمعي من خلال **الأنماط الأولية والرموز** . وهكذا يجعلنا اللاشعور الجمعي نمس أعمق أعماق الانسان ، التي لم تتغيّر منذ الأبد .

٤ ــ ماذا نلاحظ في التحليل النفسي ؟

عندما يتقدم تحليل **فردي** تقدماً كافياً ، وعندما يتم تنظيف **اللاشعور الشخصي** ، وجرفه ، ونزع قشرته ، وتطهيره ، وتحريره من ضروب توقفه ، وعقده المرضية ، وصنوف حصره وكفه ، وانكفاءاته ، الخ ،

ننفذ الى منطقة جديدة من اللاشعور ، واسعة ورائعة . هذه المنطقة هي اللاشعور الجمعي وأنماطه الأولية ،مصادر طاقات مذهلة في بعض الأحيان.

وهذا اللاشعور شبيه بأرض تحتوي ، على عمق مائة متر ، طبقة من البترول ظلّت ثابتة منذ آلاف السنين . ويصبح المريض عند ئذ ، في أثناء التحليل ، وكأنه مكتشف أغوار يغرق في النور ، بعد أن لهث في متاهات لاشعوره الشخصي المظلمة ، نور صالة واسعة تتراكم فيها الثروات التي تتصف دائماً بأنها فاعلة ، ثروات الناس الذين سبقونا خلال آلاف السنين.

ثمة اذن بعض الشروط الضرورية من أجل بلوغ اللاشعور الجمعي .

فلماذا ؟

اللاشعور الشخصي لاشعور فردي . إنه سليم أو مريض . ولكنه ، على اي الأحوال ، يضم جملة تجاربنا **الشخصية** . ولنفترض انه يحتوي على « عقدة » من العقد . ومن المؤكد أن هذه العقدة ذات طابع سلبي . واعني بذلك أن هذه العقدة تحول دون العمل الحر . إنها تجمّد الطاقة بدلاً من تحريرها . وما دام الشخص يتعثر بهذه العقدة ، فمن المستحيل، بالنسبة اليه أن ينزل في الجزء المقابل من اللاشعور الجمعي .

ولنضرب مثالاً . لنفرض أن رجلاً ظلّ متعلقا بأبيه وبالخوف من أبيه ، والخوف من الأب بصورة عامة ، والخوف من السلطة ، الخ . فللأب إذن ، في لاشعوره خاصة **سلبية ، شديدة الخطر ، مثيرة للحصر** . ويفهم المرء مباشرة انه سيصبح متعذراً على هذا الرجل أن يمسّ **النمط الأولي للأب** ، الموجود في لاشعوره الجمعي ، نمطاً إيجابيا ، منيراً ،مصنوعاً من الثقة الكلية إزاء الحياة . إنه يسبّب له الصداع نور مصباح كهربائي ، وهو ، لهذا السبب ، سيكون عاجزاً عن الاستمتاع بالشمس .

فهل اللاشعور الجمعي إذن وقف على « نخبة » ؟ على الاطلاق ، ولكنه منيع إلاّ على أولئك الذين أصبحوا واعين لذواتهم بصورة كافية ومتحررين من عقدهم المرضية . ومن الواضح إذن أن التصدي للاشعور الجمعي لا يتم إلا في نهاية التحليل النفسي .

بل من المتعذر أن يحسّ المريض ، خلال الجزء الأكبر من التحليل النفسي ، باللاشعور الجمعي ما دام الطريق مسدوداً بشبكة من الأسلاك الشائكة التي هي عقد اللاشعور الشخصي . كذلك ليس بوسعنا أن نجعل نفط الحديقة ينبعث ما دمنا مشغولين بإجلاء الحجارة الملتصقة بالأرض .

ومع ذلك ، فان اللاشعور الجمعي **يؤثر** على أي حال . وينتج أعمالاً تتلوّن تبعاً لضروب الكبت والعقد . ويسير الفرد دون أن يعلم لماذا! . ويرى العالم الخارجي وفق إسقاطاته الداخلية . والنتيجة ، على الغالب ، أن رؤيته تشمل أوهاماً واسعة . . .

ثانيا ـ الأنماط الأولية

النمط الأولي كلمة رائعة ! إنه على مستوى ما يمثّله . والأنماط الأولية هي كوكبات نجوم اللاشعور الجمعي ، كوكبات مشعّة ، فاعلة ، تتفجّر بالطاقة . فلنفكر على سبيل المثال بـ **النمط الأولي للاله** ، المغروس في لاشعور الناس الجمعي خلال الأزمنة جميعها ، ولنلاحظ قوته خلال الحركات الانسانية الواسعة ، الفنية والحربية والدينية والأخلاقية ، الخ ، التي أثارها . وانطلاقاً من هذا النمط الاولي الذي يتصف بصورة أبدية أنهإنساني ،تم مزج الملايين الملايين من الناس .وإذا « أسقطنا » هذا النمط الأولي على الشمس ، الاله الشمس الذي ينير ،ويخصب ، ويشعّ ، ويهدي كأب مجيد ، لاحظنا أنه أثار كذلك حركات كبيرة دينية وفنية وغيرهما خلال جميع العصور .

فالنمط الأولي إذن ضرب من الانفعال المكثّف ، يعيش في اللاشعور الجمعي وكأنه كوكبة تجمع نجومها في السماء . والنمط الأولي يدفع الناس نحو الأفكار ، والأعمال ، والانجازات ، والآراء المسبقة ، والحركات الجماهيرية . والنمط الأولي شبيه بالريح اللامرئية التي تعصف بأسطول من القوارب الشرعية .

فمن الضروري إذن للانسان : ١) أن يحتاز الشعور بأهمية الأنماط

الأولية ؛ ٢) أن يحاول الإحساس بها في ذاته ؛ ٣) أن يدمجها بصورة شعورية في شخصيته ، الأمر الذي لا يمكن أن يحدث إلا في أثناء التحليل.

ولنكرّر أن اللاشعور الجمعي بعيد عن العقد والكبت والعصاب . **وهذه المنطقة اللاشعورية ليست ملوّثة أبداً ؛ وهي تبقى على الدوام بعيدة عن التجربة الفردية .**

وليس النمط الأولي ضرباً من « التجريد » أو من « الرأي الفكري ». إنه واقع كامن . إنه يغذّي الشعور ، ويحدّد أعمالاً في ظل بعض الشروط. والأنماط الأولية تسكن في موجودات من لحم ودم ، موجودات هي المؤتمنات الحية عليها .

١ ـ كيف نحدّد نمطا أوليا ؟

الأنماط الأولية التي تنير اللاشعور الجمعي لخصّاف هي الأنماط الأولية الخاصة بكم عينها . والأنماط الأولية لعالم فرنسي مطابقة ، من الناحية العملية ، لتلك التي لفرد من سكان أوستراليا الأصليين .

فاللاشعور الجمعي يتصف بأنه « كوني » ، ما دام يشمل التجربة الانسانية الأبدية . والأنماط الأولية تتصف أيضا بأنها كونية ما دامت تصدر عنه .

وكل عالم من علماء نفس الأعماق يصادف النمط الأولي في كل منعطف من منعطفات **النفس** الانسانية . وهو يصادفه في التاريخ والأفكار وموحيات الناس ، وفي الأعماق اليومية . وتحدّد الأنماط الأولية أعمال الناس ؛ ومسيرات الجماهير ، وإنتاج الفنانين المشاهير ، وأسس الديانات ؛ والمقدس ، والأساطير ، والحب والحياة في كل يوم من الأيام .

قلت إن اللاشعور الجمعي يحتوي على الأنماط الأولية كما تحتوي الأرض على النفط . والنمط الأولي ، شأنه شأن النفط ، ثروة « بالقوة». فلا بد إذن من إيجاد المسبر والمواد والوسائل لتحويله إلى طاقة تصلح للاستعمال .

والحقيقة أن النمط الأولي **فعـل منعكس لاشعوري** . فـاذا لمست بإصبعك نمطاً أوليا (إذا جاز لي أن أقول ذلك) ، انبعثت الرموز . وسنرى أهمية ذلك في العلاج النفسي .

٢ ـ عالم من الأخيلة

يسـود في النفس الانسانية قانون لا يرحم : « **كل مـا يطفـو في اللاشعور يُحتمل أن يتم إسقاطه** ». وبعبارة أخرى : « **كل ما يجوس في اللاشعور ، وكل ما لا يتصف بأنه « مندمج » في الشخصية ، يُحتمل أن يتم إسقاطه في الخارج** » . فماذا يحدث في هذه الحالة ؟ لقد رأينا آليـة الاسقاط (فصل ذكريات الطفولة) التي يرى المرء وفقها العالم الخارجي بحسب عواطفه اللاشعورية الخاصة ، السوية أو المرضية .

كذلك فان الأنماط الأولية يمكن أن يتم إسقاطها . ومن المؤكد إذن أن المرء يرى العالم الخارجي في هذه اللحظة وفق النمط الأولي اللاشعوري . ويمكن لنا ، على هذا النحو ، أن نمضي الى ما هو أبعد بكثير ... ولا يحرم الانسان نفسه ، بصورة لاشعورية على الغالب ، من المضيّ بعيداً . فنعيش عند ئذ في عالم الأخيلة الذي تكلمت عليه فيما سبق .

ها هي تخطيطية مثال ضربته قبلاً :

النمط الأولي تبلور نفسي **لاشعوري** . فهو يولـد مفعولات **لاشعورية**. على صورة **رموز** . إنه شبيه بكوكب ، لامرئي في قعر السماء السوداء ، يقذف جزئيات تصبح مشعّة عندما تلامس الهواء . فالرمز إذن هو الرداء المرئي الذي يتدثّره النمط الأولي .

٣ ـ مثال : النمط الأولي للاله[1]

من المحتمل أن تكون فكرة الاله أقدم فكرة في تاريخ الناس . وقـد

---

(١) ان كون فكرة الاله نمطا أوليا لا يكوّن على الاطلاق برهانا على وجود الله أو عدمه . انظر المقدمة .

انغرست في اللاشعور انطلاقاً من انفعالات عميقة تدور حول قوة لامرئية، وقدرة خلاّقة أو مدمّرة ، وطاقة أبدية ، الخ .

والنمط الأولي لـ **الاله** مرتبط بالنمط الأولي لـ **الأب** ارتباطاً وثيقاً . وهذا النمط الأخير متبلور كذلك حول انفعالات قوية يستشعرها الانسان منذ الطفولة أمام **موجود** قوي وبطولي ومجيد، يقود وينير ويمهّد السبيل، أمام موجود يتصف هذا الانسان بأنه « ابنه » الذي يستحق العذاب والصفح والاستحسان والحب ، الخ .

أي النمطين الأولين هو الأقدم والأعمق ؟ هل هو النمط الأولي للاله أم النمط الأولي للأب ؟ لا يستطيع احد أن يفصل في ذلك . فالرموز المنبعثة منهما مرتبطة ارتباطاً لا ينفصل . إنها تبرز عبر التاريخ الانساني منذ رئيس القبيلة الى **الأب الشديد العقاب** في العهد القديم ، أو الى **الأب الرحيم** في العهد الجديد (ولنبق هنا في التاريخ الغربي وحده) .

بعض الرموز لنمطي الاله والأب الأولين

إنه أمر بسيط جدا في البدء اذا فكر المرء ب « أبانا الذي في السموات». لماذا في « السموات » ؟ لماذا « في الأعلى » ؟ لماذا لا يكون في مكان آخر ، تحت ، الى اليسار أو اليمين ؟ لأن نظرات الناس غاصت دائماً في هوة تسبّب الدوار ، هوة سماء ليست ذات حدود (« أبدية) ، سماء يبدو انها موجودة « في الأعلى » وفق أبعادنا الخاصة . فكان من المنطقي إذن أن نسقط فيها فكرة قوة جبارة لامرئية . وما حُرم منها أي شعب : كل الناس وضعوا الاله في قاع «السماء » وزوّدوه بالمعارف والسلطات المطلقة: التعذيب والخلق والقتل والقصاص والنبذ في جهنم الواقعة « في الأسفل» بالطبع ، كالكهف المظلم الذي يحبس فيه الطفل الخبيث . بل إن غالبية شعوب العالم منحته أسلحة واحدة : الصاعقة والرعد والريح ، الخ .

ويمكن للمرء أن يحصي ، من جهة أخرى ، ملايين الراشدين الذين يخشون بصورة لاشعورية أن تصيبهم الصاعقة عقاباً على « خطايا » هم ، أو الذين يصيحون أمام كارثة أرضية :« **إنه العذاب الذي يأتي من الاعلى**».

ونحن إذن ، هنا أيضا ، أمام النمط الأولي للأب الذي « يرى كل شيء » و « يعلم كل شيء » (إن بابا هو الذي قال ذلك ، إنها الحقيقة الخالصة إذن) ، ويعاقب الطفل الذي يخالف القانون .

وانطلاقاً من هذا النمط الأولي للاله (وللأب) ، نجد كثيراً من الرموز التي تسم الانسانية بصورة عامة وحياة كل فرد بصورة خاصة . وليس بوسعنا على وجه التأكيد أن نستعرض استعراضا سريعاً غير بعض منهـا على سبيل المثال .

وأول الرموز التي تتجلى هو **الشمس**(١) :

والشمس رمز رائع للاله والأب . وسنرى ذلك فيما بعد . والشمس « عين » ترى كل شيء ، و « منارة » تهدي وتطمئن بعد الليل الشديد الخطر ، وتخصب الأرض ــ الأم ، وتهب الوفرة والأمن ، وتنير الطريق. وتنظر بعض الشعوب الى أشعة الشمس على أنها وجود **صلب** ، ينفـذ في الأرض (الأرض ــ الأم) كما ينفذ القضيب في المرأة لكي يلقحها . وغير ضروري بالتأكيد أن يبحث المرء بعيداً ليجد رموزاً يومية مشتقة مـن الشمس : القلوب التي تتوهّج بالإيمان ، وشعلة الحب ، والشعلة الأبدية للذكرى ؛ وثمة بعض الحيوانات على سبيل المثال : ديك بطرس الرسول، الذي يتصف بأنه حيوان « شمسي » ، لا لأنه يلقح ويصيح عندما تشرق الشمس فحسب ، بل لأن لعرفه كذلك صورة الشمس المشعّة ؛ والثور، الملقّح القوي ، حيوان « شمسي » محاط بالإجلال في جميع العصور ، ومقترن بالسماء والصاعقة ومؤلّه ؛ وبعض الرجال العظام ، ذوي المنزلة « العالية » والأخلاقية « العالية » ، « شموس » حقيقية ، الخ .

فلنفكر بالملوك . فهم لا دلالة كبيرة لهم في لباسهم المدني . ولكنهم ما أن يضعوا التاج على رؤوسهم ويستووا على العرش حتى يتغير كـل شيء . ثمة انفعال يبدو . وشعوب تبدأ سيرها . لماذا ؟ إن التاج الملكي ،

---

(١) انظر كذلك ، فيما يلي ، النمط الاولي للبطل .

اللامع والمشع ، تاج « شمسي » . إنه يجسّد النمط الأولي للأب وللاله . يضاف الى هذا ان **خلافة العرش** تسجّل تغييراً في المستوى . فهي تتيح الصعود نحو الأعلى . وهكذا ينتقل الانسان من المادي الى الروحي . إنه يصبح **ملكاً** ، **أب** الشعب ، ولكنه **منفصل** عنه كالاله . وينسحب الملك، بفضل خلافة العرش ، الى مستوى أعلى ، ويصبح منيعاً كالاله .

٤ ــ من العظمة الى اليومي

من الواضح ان نمطاً أوليا واحداً يمكن أن يولّد رموزاً عديدة . فلنبق حاليا في النمط الأولي للاله . ويمكن للرمز أن « يتلوّن » تبعا لاتجاهات الفرد الشعورية واللاشعورية .

واليكم ، على سبيل المثال ، بعض الرموز الشائعة التي ترتكز على النمطين الأوليين للاله والأب .

ــ ينظر الى الطبيب أو المحلّل النفسي غالباً ، خلال مرحلة التحويل، على انهما ساحران ، موجودان قويان قوة مطلقة ، شيطانان شديدا الخطر ، إنسانان « يقودان المرء رغم أنفه »، و « سنيان »الشخصية أو يدمّرانها. وذلك يتم حتى ولو أن المريض يدافع عن نفسه دفاعاً عقلانياً ضد مثل هذه المشاعر . فنحن إذن بصدد نمط أولي تم **إسقاطه على الاختصاصي** المرصود لانقاذه .

ــ **يرغب** المريض ، خلال التحويل ، رغبة لاشعورية ، في أن لا يصاب المحلّل بالتعب أبداً ولا بالمرض ، وأن يكون جاهزاً من أجله على سبيل الحصر ، طاهراً طهارة مطلقة ، لا دَنَس يمسّه ولا ضعف ، كالاله ...

ــ والنمط الأولي للاله ، وكذلك للأب ، ترمز اليه السلطة **بلباسها الرسمي** ، كرجال الشرطة والمستخدمين الرسميين « المنسحبين » خلف كونهم المغفل ، و « المنعزلين » عن العامة ؛ ويرمز اليه شخص مدير عام ، منيع وبعيد ، شريطة ان يبقى كذلك . وجميع هؤلاء الناس حائزون على سلطة العقاب والغفران والرحمة أو النبذ ... ولكن ، ويل لنفوذ رجل

الشرطة الذي يخلع بزته الرسمية ! إنه يكفّ عند ئذ عن أن يكون « مغفلاً » و « منفصلاً » ، ويتدحرج من عليائه في زمن أقل من الزمن الذي يلزمنا لقول ذلك .

– ويرمز مديرو السجون الى الاب ، على نحو مؤكد ، بالنسبة لكثير من السجناء .

– وترمز الارهاط من الرجال غالباً الى نمطي الاله والأب ، النمطين الأوليين . ولقد رأينا مثالاً مشخصاً في بداية هذا الفصل . وترمز اليهما، على وجه الخصوص ، عندما يكون المقصود رهطاً يتوحّد في مثال مجيد كالاله والأب : الجيوش ، والتجمعات السياسية والثورية ، والطوائف الدينية ، الخ .

– بعض مظاهر البغاء تستند الى هذين النمطين الأوليين . فالبغي طفالية على الغالب ، وظمأى من الناحية الوجدانية ، وذلك لا علاقة له بالجنسية . ويصبح الحامي ، بالنسبة لها ، « أباً » حائزاً على جميع السلطات ، تتعلق به البغي تعلقاً عميقاً . والحامي كالأب العادل ، يضربها، وإذن يغفر لها بالتالي ، ويمكن أن يمنحها الأفضلية في « الأسرة » أي البغايا الأخريات ، وأن ينبذها ، ويكافئها عندما تسلّم ما حصلت عليه من مال كما تسلّمه « بنيّة عاقلة » . إنه يحميها ، ويجعلها آمنة ، الخ . كذلك فان البغي يمكن أن ترمز الى تلك الأم المواسية : انظر في هذا الفصل فقرة « الأم ، رحم كبير . . . » .

– وقس على ذلك كل ما يدور حول الطاقة والقوة والإشعاع والمناعة والإثمية والصفح والقصاص ، الخ .

ذلك كله لن يكون غير اهتمام علمي وتاريخي لو لم تكن الأنماط الأولية تحدّد الأعمال الانسانية . فهل تعتقدون أن عدداً من الرجال كانوا سيثيرون حركة من أكبر الحركات في التاريخ لو لم يكن ثمة أنماط الأب والمنقذ والبطل بالنسبة لهؤلاء الرجال ؟

٥ ـ من نمط أولي الى نمط أولي آخر

يمكن لنمط أولي أن « يتشظى » الى أنماط أولية أخرى ، شأنه في ذلك شأن النجم الذي ينقسم الى عدة أجزاء .

والنمط الاولي للاله يمكن ، على سبيل المثال ، أن يصطدم بالنمط الاولي للإثمية . فاذا أحس الناس بالاثم شعروا بالحاجة الى « الغفران » و « الإنقاذ » . وعند ئذ يكون لدينا نمط أولي جديد : النمط الأولي للمنقذ.

ويمكن للنمط الأولي للمنقذ أن يتجسّد رمزيا على انحاء شتى الى حد كبير ، بحسب العصور والأفراد . فنحن نجده على سبيل المثال في هذه الكلمات الخاصة بأحد المرضى :

ـ أحلم على الغالب بأن رجلا صالحاً جدا يقودني نحو عالم أفضل ..

ويلاحظ المرء في هذه الكلمات : (١ ـ حاجة هذا المريض الى الإنقاذ من وضعه الانساني البائس ، ومن « خطاياه » ، ومن نزاعاته الداخلية . (٢ ـ كونه يمضي نحو **عالم أفضل** ، نحو **الأرض الموعودة** عند المسيح ، ونحو **النظام الجديد** عند هتلر ، ونحو **العصر الذهبي** لدى بعض الطوائف الدينية ، الخ .

وكثير من المحامين عن حقوق الشعب ، من جهة أخرى ، يثيرون بصورة لاشعورية هذا النمط الأولي ، نمط المنقذ ، واعدين ... بـ **أرض الميعاد** . وثمة شعوب برمتها تتبع هؤلاء المحامين لبواعث **عقلانية** بادىء ذي بدء : الحصول على أفضل شروط في الحياة . وهذا أمر طبيعي . ولكن الباعث **اللاعقلاني** هو المنتصر دائماً قبل كل شيء . والحظ الأكبر حليف محامي الشعب الذي يرمز بالنسبة لمن يخاطبهم ، من الناحية الانفعالية، رمزاً على نحو أفضل ، الى ذلك النمط الأولي للمنقذ تبعا للظروف الراهنة . وسأتكلم على ذلك فيما بعد .

وثمة ضرب من « التراتب » على أي حال في الأنماط الأولية ، شأنها على وجه الدقة ، كما في السماء ، شأن بعض المجموعات من النجوم التي نسطع أكثر من غيرها . ولهذا السبب ، سنبقى في بعض الأمثلة الكبيرة .

ثالثا ـ سخرية المأساة

ولنعد الى الوراء في الزمن .

كان الناس (الناس القرود ؟) قد خرجوا ببطء من اللاوعي . وكان ثمة دخان يغزو دماغهم ، وبدأة من الوعي تتوهّج كأنها شعلة شمعة .

وكان الناس (أي عمر عقلي كان لهم ؟ سنتين ؟ ثلاث سنوات ؟) قد بدؤوا يفهمون ، وأصبحوا « على وعي بأنهم واعون » ، و « أدركوا أنهم يدركون » .

إنها سخرية المأساة في الواقع . فليس عسيراً أن نضع أنفسنا مكانهم ما دمنا لا نزال الى حد بعيد في مكانهم .

كان عمرهم العقلي سنتين أو ثلاث سنوات ، بالرغم من قواهم الجسدية . وكان لهم ، بوصفهم أقارب ، رؤساء قبائل أولو قوة ، قوة كلية ، شأنهم شأن مجتمعات الفقمات . وكانوا قد خرجوا من ليل اللاوعي الحيواني . ولكن هذا الليل كان بالنسبة لهم ليلاً عذباً وباعثاً على الطمأنينة كالليل اللاشعوري للجنين . وكانوا قد طرحوا ، كالطفل عند الولادة ، خارج اللاوعي وخارج راحته .

وكان يبدو قليل من الوعي كجزيرة صغيرة غير معيّنة في اقيانوس من الأخطار . ألم تكونوا أنتم عرضة للحصر الشديد أمام حرارة الشمس ، حرارة مرعبة أو مستحبة ، والقمر الأخضر المزرقّ ،والعواصف ، والأرض التي تنتج الثمار كالمرأة ، والمياه العميقة ، والغامضة ، والقادرة على أن تخصب الأرض ، وتهب الوفرة ، ولكنها القادرة أيضاً على ابتلاع كل شيء كما اللاشعور يبتلع الأنا ؟

وعندئذ ، نظروا ، وهم مصابون بالحصر ومبهورون ، الى حيث كانوا يستطيعون أن يروا . فـ « في الأعلى » ، كانت اللانهاية ، حيث لم يكن ممكنا أن يستوي على العرش غير شخصية لامتناهية . وبحثوا في هذا

الاتجاه عن المسؤول عما كان يحدث لهم . وبحثوا في هذا الاتجاه عن الهادي ، وعن «رئيس القبيلة » العظيم الذي كان يسوس الشمس والمطر، والرعد والموت ، والحياة والليل ، والذي كان لا بد من نيل الحظوة لديه.

ذلك ما فعلوا . وهذا هو ما لا نزال نفعل .

وكانت الأنماط الأولية من قبل تولد عبر الانفعالات التي يسبّبها « ما يأتي من الأعلى » : رئيس السماء ، والقصاص ، والصاعقة ، والشمس ، والحياة ، والقمر ، والموت ، والمطر ، والرعد ؛ و « ما يأتي من الأسفل » : أعماق المياه السوداء ، والخطر ، وأحشاء الأرض ، والأماكن المظلمة حيث يذهب أولئك الذين يُعذّبون ... فكيف كان باستطاعة الناس أن لا يحسوا بأنهم **آثمون لكونهم موجودين** أمام هذا العرض الهائل من القوى الطبيعية ؟

١ ـ الناس المحطمون

ولكن ثمة ماهو أكثر . لقد كان الناس من قبل في حالة اللاشعور كليا . كانوا كالحيوانات والطبيعة . ثم إنهم فجأة ليسوا كالطبيعة والحيوانات والنباتات . وكانوا قد أصبحوا مختلفين ، منفصلين عن هذه الطبيعة بفعل بدأة من الوعي لديهم . وكانوا قد أصبحوا مقسّمين . والحق أن ذلك كان لا بد من أن يكون مأساة مخيفة بالنسبة الى حياتهم النفسية ، وصدمة كبيرة كالصدمة التي يحس بها الطفل الذي يخرج من بطن أمه ، ويحتفظ طيلة حياته بالحنين اللاشعوري للعودة إليه .

وكان ذلك ضرباً من الكابوس بالنسبة لهؤلاء الناس الذين لم تكن أناهم غير رسم أولي ، والذين كانت أناهم تطفو ، وكأنها برميل مثقوب ، على مياه بحر شديد الخطر . ولكنهم كان لا بد لهم من البدء بالتوجه والاختيار والتقرير والقيادة والطاعة **وهم يعلمون بصورة مبهمة أنهم كانوا يفعلون ذلك .**

وهؤلاء الناس ، إياهم ، لم يعد الواحد منهم كلية لاشعورية . فكانوا

قد انقسموا الى شطرين : قليل من العقل الواعي من جهة، ولاشعور هائل من جهة أخرى .

وكان لا بد لهذا التاريخ أن يستمر حتى أيامنا هذه ، وربما استمر الى ما بعد أيامنا بزمن طويل .

٢ ـ الانسان الآثم(١)

إنه لأمر واقع أن ثمة إثمية خفية ، مبهمة ، معذّبة ، تستوطن الانسان منذ الأبد ، شأنها في ذلك شأن الحصر . ويمكن النظر الى أن ثمة نمطاً أوليا للإثمية . والمقصود عاطفة ثقيلة ومبهمة ، عاطفة الإثم « بسبب شيء من الأشياء » . وحسب المرء أن يدرس الديانات في كل العصور ليفهم ذلـك .

ولكنه آثم لأي سبب ؟ ألأنه يفكر ؟ أبسبب كونه واعياً بعض الوعي ؟ ربما . . .

يتيه الانسان في البحث عن أسباب هذه الإثمية الانسانية والمعممة .

من يقول « إنه آثم » يقول : إنه خالف القانون . ولكن أي قانون ؟ ومن سن القانون ؟

وفي كثير من القصص الخرافية ، نرى إنسانا يرتكب **خطيئة صغيرة** . إنها بسيطة جدا في الحقيقة : يرتكب خطأ صغيرا ، او يأكل ثمرة مبتذلة. ومنذ ئذ ، تنصبّ عليه لعنة مرعبة . فلنفكر بـ « آدم » . إنه ابتلع تفاحة ، وعصى كما يعصي الطفل أمام أبيه . ولكن علينا أن لا ننسى أن آدم كان طفلاً بالنظر الى العمر العقلي المنخفض الذي كان لا بد أنه متصف

---

(١) سأعود في فصل « الانسان الآثم والانسان المصاب بالحصر » الى عواطف الإثمية الموجودة دائما في العصاب . انها عواطف لاشعورية على الغالب وتولد أعراضا كالحصر المنتشر ، والمخاوف، ومشاعر الدونية ، والخجل، والسلوك المازوخي ، والخضوع، والعدوانية، والحاجة الى الظهور بمظهر الكامل ، الخ . ولكنني لن أتكلم هنا الا على الاثمية العادية التي تستقر في أعمق اعماق كل فرد .

به . لقد ارتكب آدم خطأ طفيفاً . وخالف قانون اله قوي كل القوة ، جبّار كرئيس قبيلة يتصف الاله بأنه إسقاطه . ومنذ ئذ ، ها هو جزء برمته من الانسانية يغوص في رعب الخطيئة وجهنم ، خلال قرون طويلة ، وفي اللعنات الأكثر سواداً . فعلى النساء أن « يلدن في الألم » ، وتبتعد الجنة، وتزخر الانسانية بذوي الوساوس ، والمذعورين من جهنم ، والمصابين بالحصر والعصاب ، وبأصحاب الخطايا ... وثمة ، في أيامنا هذه ، شعوب برمتها لا تأكل أي لحم في يوم معيّن من الاسبوع ، لا بفعل نظام رضيته لنفسها بحرية ، بل بفعل حصر عقوبة تأتي « من الأعلى » .

وكما يرى المرء ، لا يزال ثمة مئات الملايين من أمثال آدم .

والحال أننا نجد في كثير من الأساطير أوادم (جمع آدم) يأكلون ثمرة. فلماذا ؟ ولماذا مثل هذا الصدى عبر العصور ؟

ربما كان اله الناس الأوائل ضرباً من إسقاط رئيس القبيلة ، القوي، والحائز على جميع سلطات الحياة والموت ، وذي القوانين المطلقة .

ولكن ثمة ما هو أكثر : لنفكر بقانون من قوانين اللاشعور : **العدوانية تولّد الإثمية آليا** ، وبالأولى إذا كانت العدوانية مكبوتة كسمكة في الأعماق اللاشعورية . وماذا يعني أن يكون الانسان عدوانيا ؟ ذلك يعني الرغبة في استبعاد شخص من الأشخاص ، والحلول محله ، والقضاء على حججه، الخ . ولكن ما المدلول بالنسبة الى اللاشعور ؟ لا يعرف اللاشعور أي أخلاق . وهو لا يمضي في ذلك بسبل متعددة ، بل يمضي بصورة مستقيمة نحو الهدف تغذّيه الغرائز .

أن يكون الانسان عدوانيا ، بالنسبة الى اللاشعور ، يعني أن يستبعد الآخر ، إذن أن يقتله . والحال أن الناس القرود كان لا بد لهم من أن يكابدوا عدوانيات دامية ضد رؤساء قبائلهم . ولا بد للرغبة في الجريمة من أن تكون قد استقرت لديهم ليل نهار . ذلك كان قانون الغابةالبشري، وسيادة اللاشعور ، مع بعض الشعور الذي يكفي على وجه الضبط من أجل الفهم . وأمام هذه العدوانيات الدائمة ، كان لا بد للإثمية من الصعود وكأنها ماء شديد الخطر .

وليس آدم سوى الممثل لعدد لا يحصى من الناس الذين كانوا يثورون داخليا ضد رؤساء القبائل . وكان آدم يريد أن يكون قويا وقادراً كرؤساء القبائل الذين تم إسقاطهم الى الأعلى : الاله . فأكل ثمرة شجرة (المعرفة) . وهو إذ فعل ذلك ، أكل الأب (رمزيا) لكي يصبح مثله قويا لا يقهر . إنه آكل لحم البشر وقاتل أبيه ... مع ما ينجم عن ذلك من إثمية كبيرة . ونحن ، من جهة أخرى ، نجد هذا الطقس ، طقس أكل لحم البشر ، في سر القربان المقدس الذي يعني أكل القربان ، وأكل القربان يعني أن يكون الاله في ذات المتناول ، أي أن يصبح قويا كالاله(1) .

والحال أن هذه العدوانية تكررت خلال ملايين السنين في الملايين من القبائل وبين البلايين من الناس . ويتضح من ذلك إذن أن الزمن كان كافيا لكي يستقر النمط الأولي للإثمية بكل حرية .

يضاف الى هذا أن الناس كانوا « يسقطون » رؤساءهم المعروفين بالقوة الهائلة . فكهوف السماء ، بالنسبة لهم ، كانت تؤوي رئيس قبيلة مطلق ، غضوب لأتفه الأمور ، يتيح للشمس أن تهب الوفرة ، ولكنه يجعلها تحرق الأرض إذا لم يكن الناس « في الأسفل » اطفالاً عاقلين . ألم تكونوا ، أنتم ، ستتوسلون لكي تغفر خطاياكم الشائنة ؟ ألم تكونوا ستبذلون قصارى جهدكم لكي تنصبّ عليكم نعم رئيس القبيلة أو ، بالحري . لكي تتجنبوا سخط رئيس القبيلة ؟

هل ذلك كله بعيد الاحتمال ؟ينبغي الاعتقاد بأنه غير بعيد الاحتمال ما دامت الإثمية العميقة موجودة أبداً . أولاً ، لم يتغيّر اللاشعورالانساني اي تغير منذ بداية الأزمنة . يضاف الى ذلك أن العمر العقلي الوسطي للناس في أيامنا هذه يقع حوالي الاثني عشر عاماً . واللاشعور الجمعي يفكر من خلال آلاف السنين ، يقول يونغ . وذلك أمر منطقي ما دامت المشكلات الانسانية ظلت متشابهة منذ الأزل ...

وكما لو أن الإثمية العادية لم تكن كافية ، يتدبّر الناس أمرهم لكي

---

(1) انظر المقدمة .

يكدّسوا ، منذ أيام الطفولة ، راقات من الإثمية الجديدة المتصفة بأنها مرضية أكثر فأكثر(١) . إنها تهيئة رائعة للحياة كما ترون ...

رابعا – $\frac{1}{2} + \frac{1}{2}$ = لانهاية

ها هو ذا نمط أولي مجيد للطبيعة الانسانية . إنه نمط أولي من الأنماط الأكثر اتصافاً بأنه يولّد الحنين ، ويؤثر في الحياة اليومية باستمرار ، ويثير جزءاً كبيراً من مشكل الحب . وأول شيء علينا فعله أن نفتح آذاننا بصورة عادية .

– أنت وأنا لا نؤلف غير واحد ...
– لولاك لما كنت غير نصف إنسان ...
– لست أنا ذاتي إلا بفضلك ...
– لست كاملاً إلا بك ...
– انك نصفي ...
– سنكون جسماً واحداً وفكراً واحداً ...
– حبنا أبدي ...
– حبنا أقوى من الموت ...
– تذوب فيّ وأذوب فيك ...
– أنت الوحيدة (أو الوحيد) في العالم التي كانت مرصودة لي (أو الذي كان مرصوداً لي) ...
– عبر العالم برمته ، كان لا بد من أن أجدك ...

وقبل أن نذهب بعيداً ، لنقرأ الكتابات المقدسة المسيحية ، حتى لا نستشهد إلا بها : « ألم تقرؤوا أن من خلق كل شيء ، خلق الانسان ذكراً وانثى ؟ ... »

---

(١) انظر « الحصر » في فصل « الانسان الآثم والانسان المصاب بالحصر » .

هذا النمط الأولي ، شأنه شأن الأنماط الأخرى ، ليس ، « رأيا من آراء الفكر » . فواقعيته تتوطن في جميع الرجال وجميع النساء . إنها تدفعهم على الغالب نحو ألوان من الحب ، أو من « الحب من أول نظرة » ، ألوان يائسة ، متلهفة ، عاشقة ، تتهاوى في تسع حالات من عشر . وسنرى سبب ذلك .

فلنستشهد بافلاطون ويونغ . كان ثمة ، في راي **افلاطون** ، موجودات « كاملة » . وكانت تشتمل على عنصرين : المذكر والمؤنث .

وأوضح **يونغ** ، من جانبه ، أن شخصية كل رجل تحتوي على جزء مؤنث ، وأن كل امرأة تحتاز على جزء من الشخصية المذكرة . وسأعود الى الحديث عن ذلك فيما بعد .

هذه الموجودات الكاملة ، الخنثى ، ذكر وانثى في الوقت نفسه ، كانت ذات قوة هائلة . وكانت تهاجم حتى الآلهة .

وماذا بعد ؟ لنصغ الى افلاطون أيضاً .

ـ الحب يدفع الموجودات بعضها نحو بعض . فهو فطري في الطبيعة الانسانية . إنه يبحث عن تجديد **الطبيعة** . ويحاول جمع موجودين متمايزين ليكوّن منهماواحداً ، ويشفي الطبيعة الانسانية على هذا النحو .

ولكن من أي شيء يشفيها ؟ إننا إنما ننفذ هنا الى الحياة اليومية .

١ ـ حلم « الحب الكبير الأبدي »

حلم الحب ، حلمه الكبير ، هو البحث عن الحبيب أو الحبيبة (شقيق الروح) بحثاً يائساً . إنه الوقوع على **الوحيد ، الفريد** . وبهذا الحب ينصهر كائنان ، ويصبحان **واحداً** . وفي هذه اللحظة إنما يشعران بأن اتحادهما أقوى من الموت . إنهما يشعران بأنهما أصبحا كالآلهة ، اي **أبديين** .

يقال حقا إن الموجود يعتقد انه ، بهذا الحب ، يجد مجدّداً وحدة قديمة ضائعة .

ونكتشف على هذا النحو مدلول بعض العشاق ، كتريستان وإيزولد ، وكروميو وجوليت ، وكدون جوان الذي يبحث عن **ال** مـراة بصورة يائسة . هذه الشخصيات **تعتقد** أنها تحب الآخر،في حين أن كلا منها يبحث عن **نفسه** من خلال الآخر ، وتحاول أن تصبح كاملة مجدّداً ، رجلاً **و** امرأة في الوقت نفسه .

إنهما كذلك **العاشقان اللذان يكوّنان واحداً ويمضيان متحدين في الموت** ، اي موجوداً يعود ،وقد حقّق كليته المذكرة والمؤنثة، الى اللاشعور، الى الأبدية والطبيعة والأم الكبرى . إنها أيضاً هذه الضروب من الحـب المستحيل والمحرّم ، كالحب بين الإخوة والأخوات ، اليائس والمأساوي على الغالب ، الذي يبحث فيه الواحد من خلال الآخر عن نصفه .

٢ ـ الموجود الكامل

هنا إذن إنما يؤثر النمط الأولي . يقال على الغالب : إن ظهور الوعي لدى الانسان جحيمه . لقد **تحطّم** الى جزأين : شعور من جهة ، ولاشعور من جهة ثانية . وهو يحتفظ على نحو عميق بضرب من الحنين : حنينه الى كليته المفقودة . ولا يبحث إلا عن شيء واحد : ان يصبح كاملاً في ذاته مجدّدا . ويبدو الألم لدى الموجود الانساني في الوقت الذي يظهر لديه الاحساس بأنه « محطّم » و « مهشّم » ، و « منفصل » .

وعندئذ يحاول أن يجد **في الخارج** ماينقصه **في الداخـل** . وعندما يحدث لديه الانطباع السريع بأنه وجد « الوحيدة والفريدة » . . . **فذلك على الغالب لأن ثمةامراة تجسد الجزءالمؤنث منه قد بهرته.ويحدث**الشيء نفسه لدى النساء اللواتي يلاقين ذكورتهن الخاصة .

من هنا منشأ الانخداع الدائم امام هذا البحث عن الحب المطلق .

٣ ــ ((كمال الحب))

الانسان الذي تحطم الى اثنين يتألم ويموت . والخنثى ،المذكر والمؤنث معاً ، أي الكامل ، يحيا حياة أبدية . ذلك هو النمط الأولي الذي تنشأ منه قصص خرافية وكثير من أصناف الحب .

وكل ذلك يتجسّد في قصيدة **بودلير** المحزنة :

يابنيتي ، **يا أختي** ،
فكري بـ **عذوبة**
الذهاب الى هناك نعيش معاً . . .
نحب على مهل ،
نحب و **نموت**
في البلد **الذي يشبهك** . . .

لنشرح هذا المقطع :

يا أختي ، الجزء المؤنث من ذاتي الذي أبحث عنه بحنين ، فكري بـ **العذوبة** التي تملأ كياني اذا استطعت تحقيقك في ذاتي ، واذا اصبحت على هذا النحو كاملاً . . . بمقدوري عندئذ أن **أموت** وأنا أحس بأنني خالد و متألق كالإله ، فأعود **الى البلاد التي تشبه** المرأة ، الى اللاشعور السعيد ، الى الأم الكبرى التي تغلف الى الأبد . . .

ولنصغ الى **الكتابات المقدسة** :

ــ حين يصير البعث ، لا يتخذ المرء زوجة ولا زوجاً ، ولكنه في حال كالملائكة في السماء . . .

فهل في هذا تمجيد للعفة ؟ كلا ، فالنمط الأولي يعني :

ــ أولئك الذين يتصفون في ذواتهم بأنهم كاملون (رجل وامرأة معاً) ليسوا بحاجة الى أن يتزوجوا ، والى ان يجدوا الجزء المفقود من ذواتهم ، وهم خالدون .

هذا النمط الأولي قوي إذن. إنه يؤثر في غالبية ضروب الحب المراهق، الغرامي ، الذي لا بديل له ، والمطلق . وتأثيره متمثّل في عدم الرضى الدائم الناشىء من أن المرء لم يجد ال مرأة (أو الرجل) التي تناسب بصورة تامة . ويؤثر أيضا في بعض ألوان الحب الافلاطوني الذي يصونه المرء وكأنه سر خفي ، شريطة أن لا يكون هذا الحب « الافلاطوني » ثمرة العقد . ويؤثر في الاستيهامات : يحلم المرء بامرأة رائعة ، مثالية وفريدة ، بصبية رائعة تسكن القصر ، تائهة في الضباب (كما هو الأمر في « مون الكبير »*) ، بالأخت التي ما أنجبها الوالدان والتي « كان سيحبها أكثر من كل شيء » ، وبالمرأة التي تبدو فجأة وتجعله يقول « إنها هي التي كنت أبحث عنها منذ زمن بعيد » ، الخ .

ويتجلّى النمط الأولي في بعض الأحلام الليلية :

ـ رأيت في منامي أنني كنت أحب صبية ، أو أنه كان لي أخت عشقتها . وكان هذا الحب من الطهارة والروعة بحيث أن هذا الحلم سحرني خلال ثمانية أيام ... كان ذلك كما لو أن أي شيء لا يقدر على بلوغي أبداً ... أي كما لو أني كنت قد أصبحت شبيها بالاله ، معصوماً وخالداً ...

ويتجلى النمط الأولي في أحلام اخرى تتمثل فيها الذكورة والأنوثة بالرمز :

ـ حلمت بماء واسع وهادىء ...

ـ حلمت بحقل مترامي الأطراف تغطيه الأزهار المتفتحة ...

ـ حلمت بغابة واسعة ذات أشجار مستقيمة ...

هذا الصنف من الأحلام قوي على الغالب ، يثير الهيام ويترك آثاراً عميقة خلال زمن معيّن .

ويؤثر النمط الأولي في عبارات الحب ،عبارات قديمة قدم الانسانية:

(*) « مون الكبير » رواية مشهورة للروائي الفرنسي آلان فورنيه ، نقل فيها مغامرة من مغامرات العشق العابر باسلوب يمزج الواقع بالخيال مزجا مدهشا « م » .

ـ **سألتهمك حتى أحصل عليك في ذاتي ...**

ـ **سآكلك من القبل ...**

ـ **سأبتلعك لتكوّني (أو لتكوّن) جزءاً من ذاتي ...**

ـ **سألتهمك حتى أبيّن لك كم أحبك ...**

أمن أكل لحم البشر الى مرق الحب ؟ نعم ، ولكن بالمعنى التالي : **أكل الآخر** يعني **دمجه في الذات** ، كما هو الأمر في تناول القربان المقدس في الديانة المسيحية (انظر فقرة « الانسان الآثم »). والكل يفسّره ما يلي:

ـ إذا حصلت عليك في ذاتي ، أصبحت كاملاً ، رجلا وامرأة معاً . **وسأكون على هذا النحو سعيداً سعادة أبدية ...**

إنها إذن كلمات مبتذلة برزت في ظلام العصور ، وردّدتها مجموعات العشاق انطلاقاً من نمط أولي لاشعوري بعمق .

ومن المؤكد أن غالبية ألوان « الحب المطلق » تتحطم في الحياةاليومية. وبكل بساطة ، وأكرر ذلك ، لأن الانسان لن يجد في الخارج أبداً ما ينبغي أن يجده **في ذاته** : كليته وكماله . وها نحن نجد أنفسنا في التحليل النفسي.

خامسا ــ الجزء المؤنث من شخصية الذكر والجزء المذكر من شخصية الأنثى

اكتشف **يونغ** ، من الوجهة السريرية ، هذه المنطقة الواسعة من اللاشعور الانساني . وسأحاول حصراً أن أبرز بنيته . وهو أمر ليس بالهيّن : فالضباب يلفّ هذه المنطقة غالبا .

فلنتذكر أول الأمر بعض المفاهيم الأولية ، ولكنها الأساسية هنا :

ـ **تنصف الذكورة بأنها** : فاعلة ، نافذة ، ثاقبة ، مخصبة ،عدوانية، عقلانية ، مفكّرة ، صلبة .

ـ **تنصف الأنوثة بأنها** : مرنة ، نفوذ ، خصيب ، لاعقلانية ، حدسية، عاطفية ، حنون ، وديعة ، حفيّة .

ـ **القانون الأول** : تنطوي كل شخصية إنسانية على صفات مذكرة **وعلى** صفات مؤنثة . ومن اليسير فهم ذلك : فالرجل المتوازن يتصف معاً بأنه فاعل ومرن ، عقلاني وحدسي ، صلب وحنون ، عدواني وحفي ، الخ . كذلك فان المرأة المتوازنة حنون وفاعلة ، حدسية وعقلانية ، معاً، الخ .

ـ **القانون الثاني** : عندما ينصب الحديث على الرجل ، فلا ينبغي الخلط بين « الصفات المؤنثة » ، التي تتصف بأنها سوية ، وبين « التخنث» الذي يتسم بأنه غير سوي ، ويعني أن الرجل أصبح مؤنثا على حساب ذكورته . والأمر ذاته فيما يتعلق بالمرأة : لا تخلط بين الصفات المذكرة (كالعقل على سبيل المثال) والذكورة (كالمرأة المسترجلة من الوجهة النفسية) .

ـ **القانون الثالث** :

ـ لاشعور الرجل يحتوي على شخصية أنثوية .

ـ لاشعور المرأة يحتوي على شخصية مذكرة .

إذن :

الرجل ذو صفات مذكرة شعورية وذو صفات **انثوية لاشعورية** (الشخصية الأنثوية) ؛

والمرأة ذات صفات أنثوية شعورية وذات صفات **مذكرة لاشعورية** (الشخصية المذكرة) .

وماذا عن الحياة اليومية ؟

المشكل ذو أهمية كبرى . فهو ينطوي على مضاعفات عديدة . ويمكن أن يقود الى أوهام ونجاحات ، كما يمكن ان يقود الى كوارث في الحب والزواج واختيار مهنة من المهن ، الخ .

وسأحاول إذن ان أبقى في الخطوط العامة الى الحد الاقصى . ولكن

ثمة ، انطلاقا من هنا ،مقدارامن التشابكات الممكنة . واكرر أن **المقصود** ، على وجه الاحتمال ، مرحلة من أصعب المراحل « **تجاوزاً** » **في التحليل** النفسي ، بالنظر لعدد العناصر التي يمكن أن تنزلق في **مسننات تتصف** بانها بسيطة في البداية . **وسأقتصر ، لكيلا يكثر التعقيد ، على امثلةترتكز على الرجل .**

ـ **القانون الرابع** :إنه قانون رئيس: **كل ما هو غيرمندمج فيالشخصية يُحتمل أن يتمإسقاطه**(١) .

أو : **كل ما « يطفو » في اللاشعور ، كل ما يجوس في اللاشعور ،يُحتمل أن يتم إسقاطه** ؛

وذلك صحيح بالنسبة الى نمط أولي يتصف بأنه سوي . وعند ئذ فان المرء يرى العالم الخارجي في ضوء كبته وعقدته ، أو في ضوء رمز يولده النمط الأولي .

ها هو ذا ، **على سبيل المثال** ، رجل في لاشعوره ما يلي :

بصورة سوية	**بصورة غير سوية**
النمط الأولي للاله (والأب) .	ضروب من الكبت الخاصة بوالده الذي جرّده من رجولته وسحقه .

يعاني هذا الرجل مشاعر الخوف والخضوع والعدوانية المرضية إزاء أبيه ، ولكنه يعانيها إزاء الأب بصورة عامة ، وبالتالي إزاء كل سلطان بما فيه سلطان الاله .

آ ـ النمط الأولي للاله « يتلوّن » تبعا لضروب الكبت المرتبطة بوالد هذا الرجل ؛

ب ـ النمط الأولي المشوّه يتم إسقاطه . على ماذا ؟ على ديانة

---

(١) **انظر « الإسقاط » في فصل « ذكريات الطفولة »** .

هذا الرجل ، من بين الأشياء التي يتم إسقاطه عليها . ونور النمط الأولي سيبهت . وبدلاً من أن تكون الديانة إسقاط انفعال واثق ، فانها تسودّ بفعل الخوف والحذر والخشية . ويتمثّل الاله رمزيا ، بالنسبة الى هذا الرجل ، في سمات موجود شديد العقاب ، خبيث ، شديد الخطر ، موجود لا بد من تأمين نعمه بالخضوع خضوعاً مطلقاً ، وبتقديم القرابين واحترام الأنظمة التي تسبّب له الحصر .

من هنا منشأ التردد ، والوساوس ، والهوس ، والخوف من الجحيم ، ورهاب الخطيئة ، ومواقف « الصبي الصغير » إزاء إله مرعب . وعلى أي حال ، يتم إسقاط النمط الأولي للاله ، الذي ينبغي أن يولّد السلام والثقة الكليين إسقاطاً محفوفاً بالخوف .

يضاف الى ذلك أن هذا الرجل يقول :

ـ لا أحب الشمس . أشعر بانها تحرقني وتجفّفني . وذلك كما لو أن كشّافا من النور يلفت انتباه الجميع الي ، وكما لو أن عينا غير رحيمة تنظر الى شخصي النحيل قبل أن تسحقه ...

والحال أن الشمس رمز الاله والأب . فلا بد من أن تكون إذن مصدر الفرح والثقة . ويتضح هنا أن النمط الأولي للاله ، الذي تمّ إسقاطه على الشمس ، قد تحوّل في أثناء الطريق .

مثال آخر سنراه فيما بعد : يمكن للجزء الانثوي من الرجل أن يتم إسقاطه ما بقي لاشعوريا . وعندئذ يتعرّض الرجل الى أن يحب امرأة « حتى الجنون » ، في حين أن هذه المرأة ليست سوى إسقاط الشخصية الانثوية لهذا الرجل . وتتم اللعبة ذاتها فيما يتعلق بالشخصية المذكرة لامـرأة .

ـ **القانون الخامس** : إذا توقف كبت ، أو اذا أصبح شعوريا عنصر من العناصر اللاشعورية ، توقف الإسقاط كذلك . وهذا يمكن إذن أن يكون أمراً ذا أهمية كبرى عندما يتجلى حب ، أو مهنة ، أو رغبات نتمسك بها فوق كل شيء ، تجليا مفاجئا على أنها أشباح لا قوام لها . وعلى هذا النحو فان ملايين السياح ما كانوا أبداً سيتتابعون الى فيرون لو أن روميو

كان لديه الوقت لكي يتحقق من أن جولييت كانت ضربا من الإسقاط (وهؤلاء السياح يقومون كذلك بصنع إسقاطات من جهة أخرى) . وذلك للسبب البسيط المتمثل في أن روميو لم يكن ليعبد جولييت قط . ومن المؤكد أن هذا الأمر قد يثير مواقف متعددة ، وأن المسألة كبيرة الأهمية .

١ ـ « الحب من أول نظرة »

يتصف الحب من أول نظرة بأنه التمثيل الكلاسيكي للالتقاء مع الشخصية الأنثوية من الرجل . فالرجل يتجمّد مذهولاً : ويقول لنفسه بانفعال عميق : « **إنها هي ! إنها الوحيدة** التي كنت أنتظرها منذ الأبد ! ومعها ، **هي وحدها** ، أستطيع تحقيق ذاتي ... »

والرجل يتجمّد مبهوراً ... أمام ذاته ، أو ، على الأقل ، أمام الجزء المؤنث اللاشعوري من ذاته .

وهذا أمر منطقي ، إذ أنه يحاول أن يجد **في الخارج** ما لم يحققه **في الداخل** .

ويتضح الخطر إذن . فكثير من ضروب « الحب من أول نظرة » ليست غير ضروب « حب الشخصية الأنثوية من الرجل » أو « حب الشخصية المذكرة من المرأة » . وهي تتصف في بعض الأحيان بأنها ضروب « حب قذر » . ذلك أن الإسقاط قد يؤثر بحيث يجد رجل في رفيقته رفيقة مثالية ، بصورة تامة . أو تجد امرأة في رفيقها رفيقاً مثاليا بصورة تامة . ولكن « الحب الكبير » يتهاوى إذا « انقطع » الاسقاط . وهذا هو السبب الذي من أجله كان « الحب ـ الهوى » يتصف دائماً بأنه شديد الخطر الى حد كبير ...

٢ ـ بعض « الزيجات ذات الأركان الثلاثة »

هذا الوضع ، في غالب الأحيان ، تطبيق (لاشعوري !) لإسقاط الجزء المؤنث من شخصية الرجل الزوج . فالسيرورة هي ذاتها : رجل متزوج، محب لزوجته ، يجد فجأة أخت الروح (أي هو ذاته) . فيشعر انه في

منتهى السعادة بين زوجته التي يحبها « وعشيقته » ، أي الجزء المؤنث من ذاته .

ومن المؤكد أن الزوجة تدين الزوج ، « والعشيقة » لا تفهم شيئاً من ذلك ، ولا الزوج أيضاً . ويدوم هذا الوضع ما دام الإسقاط ... ويمكن لهذه الحالة بالتأكيد أن تبدو لدى المرأة التي تشعر بالسعادة بين زوج محبوب ورجل آخر هو إسقاط الجزء المذكر من شخصيتها .

٣ ـ الجزء المؤنث من شخصية الرجال والجزء المذكر من شخصية المراة ، الفاتنان والشديدا الخطر:

الجزء المؤنث من شخصية الرجل والجزء المذكر من شخصية المراة يتخذان،كما رأينا من قبل ، تلوينات شتى خلال الوجود (بحسب طبع الأم ، واللقاءات النسائية ، والقراءات ، والسينما ، الخ) .

والأمثلة كثيرة ، بالتأكيد ، عن هذه الأجزاء المؤنثة من شخصية الرجال ، المحسوسة بأنها شديدة الخطر وفاتنة في الوقت نفسه . ولنذكر منها مثالين مشهورين جدا .

المثال الأول كتاب بيير بونوا* « الأتلنتيد »* : يعرض هذا الكتاب امرأة ، هي الجزء المؤنث من شخصية الرجل ، جذّابة وقاتلة ، اسمها **أنتينيا** . وأنتينيا ترمز الى هذا الجزء المؤنث من الرجل ، الذي ظلّ مظلماً ، خفياً ، من الأفضل أن لا ينظر إليه وجهاً لوجه تحت طائلة الهلاك (اللاشعور) .

(*) بيير بونوا روائي فرنسي شهير ولد عام ١٨٨٦ . كتب روايات كثيرة ، وكانت « الأتلنتيد » أكثرها شهرة . وبطلة « الأتلنتيد » هي أنتينيا الغريبة ، المرأة التي تدعي أنها تنحدر من سكان الاتلنتيد القدماء . تعيش أنتينيا في قصر غريب حيث تجلب اليه المسافرين لكي تجعلهم يهيمون حبا بها ، ثم تهلكهم . والمغامرة الماساوية لضابطين فرنسيين وقعا تحت سيطرتها،خلال رحلة اكتشاف صحراوية،تشكّل موضوع الرواية التي تتصف بانها مزيج مسلّ من الخيال العبقري والمخيّلة التي تصل الى حد الدعابة « م » .

وجنيات البحر(*) من النوع نفسه ، إذ جاز لي أن أقول ذلك . فهي تمثّل الجزء المؤنث من شخصية الرجال ، إذ تجذبهم الى قعر لاشعورهم الخاص (المحيط) .

ويفهم المرء بسهولة أن كثيراً من الرجال يعانون انجذاباً نحو الجزء المؤنث من شخصيتهم يتصف معاً بأنه خفي وقوي ، ويحسون إحساساً غامضاً بأنه شديد الخطر . فهم إذن يعانون انجذابا نحو راق من أكثر الراقات عمقاً من لاشعورهم . وأم الصبي – كما سنرى – هي التمثيل الأول **المشخّص** للجزء المؤنث من شخصيته ... فالصبي إذن سينظر ، بصورة لاشعورية ، الى الجزء المؤنث من شخصيته تبعا لردود فعله الخاصة إزاء أمه : ثقة ، حب ممزوج بالعدوانية ، خطر ، افتتان ونفور . ذلك أن علينا عدم النسيان أن الأم ترمز بصورة قوية الى اللاشعور الذي خرجنا منه . وكذلك الأمر بالنسبة للمرأة التي يتصف الأب بأنه التشخيص الأول للجزء المذكر من شخصيتها .

وها هي ذي بعض الاسقاطات الكلاسيكية للجزء المؤنث من شخصية الرجل ، الجزء الشديد الخطر والجذاب : **لوريلي (**)** ، **مغويات الرجال** في السينما ، **والحبيبات** الأخريات الظمآوات والملتهمات ، المبتلعات والمهلكات ، الرائعات والمدمّرات ... انهن الحب والموت على وجه التقريب .

وقطاع الطرق ، الذين تعشقهم النساء ، هم من المستوى نفسه .

(*) جنية البحر : جنية شريرة يتم تمثيلها على صورة عصفورة أو سمكة ، لها راس امراة وصدرها ، وتمسك بيدها في بعض الاحيان قيثارة . وكانت الجنيات يجسّدن ، في الميثولوجيا اليونانية ، أخطار البحر وفنون الموت والموسيقى الجنائزية . وقد أدت جنيات البحر دورا هاما في الاوديسا . وكانت جنيات البحر ، وقد تم وضعهن في مضيق صقيليا ، يجتذبن البحّارة الى المهالك بفعل سحر صوتهن « م » .

(**) لوريلي Lorelei : صخرة تشرف على الضفة اليمنى من نهر الرين ، ربط بها الشاعر « برنتانو » أسطورة جنيّة تجذب السفن الى المهالك . وجعل الكاتب الالماني « هين » من هذه الاسطورة أسطورة شعبية « م » .

٤ ــ الأشياء والمهنة

يمكن للمرء أن يسقط عاطفة لاشعورية ، أو نمطاً أوليا ، على **شيء** من الأشياء كما يسقطها على شخص من الأشخاص .

ــ بعض **الآلات الموسيقية** تمثّل الجزء المؤنث من شخصية الرجل . وحسبك أن تراقب مراهقا تمثّل آلة الجيتار ، بالنسبة اليه ، « خطيبة » حقيقية . أنه يزيّنها ويلوّنها ، و « ينام جيدا معها » ، ويجعلها « تصدر أنغامها » من أعماق نفسه ، الخ . « إنها » تصبح صديقته والمؤتمنة على سره ، ويفصح بحرية عن نفسه بها ، الخ . ولنفكر أيضا بالكمان والفيولونسيل . فليس لهاتين الآلتين صورة المؤنث فحسب ، ولكنهما تمثّلان على الغالب إسقاطاً للجزء المؤنث من شخصية الرجل .

ــ ويمكن للرجل أن يسقط الجزء **المؤنث** من شخصيته على اختيار **مهنة ، كقائد السفينة** على سبيل المثال ، والسفن **مؤنثة** ، وتمثّل على الغالب إسقاط الجزء المؤنث من شخصية الرجل . وتكوّن السفينة وقائدها عندئذ **ثنائيا** حقيقيا . وهما ، مثلهما مثل أساطير الحب الكبرى ، **يموتان معاً** ويغرقان متشابكين في قعر المحيط ، أي اللاشعور والأم الكبرى .

ــ يمكن لبعض الآلات أيضا أن تمثّل الجزء المؤنث من شخصية الرجل الذي يقودها (الحب الكبير . . .) ، كالسيارة والقاطرة ، الخ .

٥ ــ حالة حنا والقارب الشراعي

القارب الشراعي ، بشكله الأصيل والضامر ، وبطهارة خطوطه ونعومة مادته ، مؤنث بصورة مؤكدة .

والحال إذن أن **حنا** ، رجلا « جافا » و « صلبا » له من العمر أربعون عاما ، كان قد حقّق حلم حياته : شراء قارب شراعي صغير . وكان يقول :

ـ قاربي احبه كما لو انه كان جزءاً من ذاتي ...

ولم يكن حنا يعتقد أنه أصاب بقوله الى هذا الحد . وكان ، **فضلا** عن ذلك ، يسميه **الحنة !**

وكان حنا قد أسقط الجزء **المؤنث** من شخصيته على **القارب الشراعي**. وخضع حنا الى تحليل نفسي كامل . وصعدت **شخصيته المؤنثة** ، **في** نهاية العمل ، الى الشعور ، واندمجت في شخصيته . **وبما أن هذا الجزء** المؤنث من الشخصية كان قد كفّ عن كونه لاشعوريا ، **فانه لم يعد من** المحتمل أن يتم اسقاطه .

وقال حنا بعد وقت قصير :

ـ إنه لأمر غريب مع ذلك ... حلمت بهذا القارب خلال سنين . ومنذ شهر ، لا أهتم به كليا ... ولم يعد يمثّل شيئاً بالنسبة لي ..

للجزء المؤنث من شخصية الرجل والجزء المذكر من شخصية المراة اهمية كبرى . انهما لاشعوريان ، ولكنهما مؤثّران . واكتشافهما في التحليل النفسي ، وصعودهما الى الشعور ، يمنحان « **انفعالا عنيفا** » وإحساسا غريبا بالتوحيد والكمالية .

وينفتح المجال الكبير عندئذ **لدى الرجل** ، مجال الحدس والوداعة والحنان والثقة والعفوية إزاء الحياة . ويختفي الخوف (**المحتمل**) من النساء ، ويتوقف البحث عن **ال** مرأة ، بحث حنيني ظامىء ، وتنقطع مئات الإسقاطات ، وتصبح أنتينا والجنيات الاخرى ضربا من الغبار .

أما لدى المرأة ، فتبرز فاعليتها الثاقبة وعقلها وتأكيد شخصيتها وفكرها . وتختفي المرأة « الوديعة » وتظهر المرأة المتفتحة والكاملة .

وتتضح إذن قدرة هذه المناطق اللاشعورية ، **إذ أنها تكوّن نصف الشخصية** .

٦ ـ بعض الأمثلة أيضا

ها هو ذا المثال الأكثر شيوعاً أول الأمر . ولنبق في **مجال الرجل** تلافياً للتعقيد . ويمكن للرجل ، وقد رأينا ذلك ، أن يكبت جزءا برمته من شخصيته . كذلك **يمكنه أن يكبت كل شخصيته المؤنثة .**

ومن المستهجن في حضارتنا ، حيث لا يزال الفصل بين الرجل والمرأة فصلا حاسماً ، أن يتصف رجل من الرجال بصفات انثوية .

يقول الناس ، على سبيل المثال ، عندما يربون الصبيان :

ـ الرجل لايبكي : فإظهار العواطف امر يناسب النساء ، ومضمون ذلك: ممنوع على المرء ان يحتفظ بشخصيته وان يكون عفويا .

ـ ليس للرجل حدس ، فهو امر يناسب النساء ، ومضمون ذلك انه يحرّم على الرجل أن يتبع صوتاً داخلياً يتصف في الغالب بأنه عظيم الفائدة .

ـ الرجل غير عاطفي : إنه أمر يناسب النساء ؛ ومضمون هذا القول أن على الرجل أن يمتنع عن إظهار صفتي المحبة والحنان .

ـ **خلق الرجل ليعمل ويفكر ؛** ومضمون ذلك أن ليس بمقدور الرجل سوى العمل والتفكير ، وعليه أن ينظر الى كل ما يتبقى على انه غير جدير بـه .

ويتضح بصورة مباشرة ان الفتى **سيتعجل كبت صفاته الانثوية** إذا كان الناس ينظرون اليها على أنها تحطّ من شأنه . وسيمنع نفسه من إظهار المودة ، والإصغاء الى حدسه ، والكشف عن عواطفه ، الخ . إنه ، بالاختصار ، سيكبت جزءاً برمته من شخصيته . **فهو إذن سيتحطم** الى جزأين ويصبح « هجيناً » بشريا . ويفقد عفويته ومرونته . وينظر بعين السوء الى تدخل دوافعه الغريزية العميقة التي يكبتها بقدر ما يستطيع . هذا إذا لم يصرّح بأنها « غير جديرة به » .

٧ ـ ماذا يبقى لهذا الرجل ؟

يبقى له الجزء المذكر من شخصيته . ولكي يعوّض ما ينقصه ، أي جزءه المؤنث ، يعزّز ذكورته ، فيضخمها ، ويصبح جافاً وعقلانيا بإفراط. ويضع الحياة في معادلات . إنه ، من الناحية النفسية ، يحمل نظارتين مستديرتين . ذلك هو بوليتكنيكي الوجود الذي يعرف كل شيء ، ولكنه لا يعلم شيئا .

ولكن ذلك لا يمنع من ان صفاته الانثوية موجودة دائما ، ما دامت مكبوتة في اللاشعور . فهي إذن ذات تأثير !

ماذا يحدث عندئذ ...

يجوس الكبت الواسع ، ويبقى حيا كالنبات المائي ، ويتجلى الكبت في « أحلام اليقظة » . ويستسلم الرجل ذو الذكورة المضخمة الى الاستيهامات عندئذ . وتبدو فيها الفتيات الوديعات واللطيفات ، المرنات والحفيّات ، الغامضات والمجهولات ، والنساء المغويات والشريرات كالهلاك الأبدي ، وبطلات الروايات والسينما ، البعيدات المنال كهذا الجزء المؤنث الذي كبته ، والذي يرغب لاشعوره في فرضه عليه ... فتذكروا حالة حنا ، « عاشق » القارب الشراعي .

ولكن الرجل العقلاني بإفراط يهتزّ . ولن يعترف إطلاقاً بهذه الأحلام الحنينية ، التي تنضح منه كما ينضح العرق من الجسم . إلاّ لمحلّله النفسي .

فإما أن « يقع » الكبت ، الذي يتم اسقاطه الى الخارج ، على امرأة من لحم ودم . وتلك عندئذ امرأة على قياس ما هو مكبوت : انثوية بافراط، غبية بعض الشيء ، أدنى من الرجل الذي ينتفع بها لكي يؤدي دور البطل ذي الذكاء العالي(١) . ويحسّ الرجل ، إذ يتزوجها ، بأنه وجد نفسه

---

(١) من الطبيعي أن يختار امرأته غبية بعض الشيء ، ما دام لاشعوره مشبعاً بفكرة مفادها أن كل ما هو مؤنث شيء زهيد .

مجدّدا ، وأصبح « كاملا » . **إنه يتزوج كبته بما انه يتزوج انوثته المكبوتة!** وهو إذ يفعل ذلك ، كما يقول **يونغ** ، فانه يتزوج ضعفه الاعظم ، اي جملة كبتـــه .

وإما أن يتم إسقاط كبته على رجل من الرجال . فثمة انجذاب نحو رجل مخنث . وتلك عندئذ لواطية كامنة أو صريحة ، حيث يؤدي الرجل المريض ، موضوع بحثنا ، دور الذكر الفاعل ... هـذا اذا لم يرتبط معه بصداقة « لا تفنى » ، أي أقوى من الموت .

٨ ـ تعقيد كبير

كل ما قدّمته حول الموضوع ، كما قلت سابقا ، ليس سوى مدخـل لميدان واسع . فالجزء المؤنث من شخصية الرجل يمكن أن يتم كبته بفعل عوامل أخرى . **ومثال ذلك** شاب ينمّي عواطف الكره اللاشعوري لأمه . إنه سيكبت كل ما هو شبيه بأمه لديه . وسيكبت كل ما هـو مؤنث لديه ، أي سيكبت الجزء المؤنث من شخصيته اذن . فاذا أسقط هذا الجزء الى الخارج ، كان ذلك الإسقاط مصحوبا بشحنة قوية من الكره . وسيعتقد عندئذ انه يحتقر النساء ويبغضهن ، في حين انه يبغض الجزء المؤنث من ذاته .

وانطلاقاً من هذه الاسس البسيطة ، يتضح لنا الى اي حد يتصف البناء بأنه معقد . والواقع أن الجزء المؤنث من شخصية الرجل يمكن أن يطرأ عليه تشوّهات عديدة جدا ، وأن يمتزج بضروب أخرى من الكبت والعقد ، الخ . وكذلك شأن الجزء المذكر من شخصية المرأة .

والأم ، كما قلت سابقا ، هي التمثيل الأول المشخص للجزء المؤنث من شخصية الذكر ، **وستترك بصمتها حتما** . ثم تليها اللقاءات الاولى مع العنصر المؤنث : البنات الصغيرات خلال الطفولة ، والفتيات ، ثم أولى « الحبيبات المستحيلات الابديات » خلال المراهقة ، اللواتي لسن

سوى اسقاطات الجزء المؤنث من شخصية الذكر ، الخ . أما بالنسبة للمراة ، فان للأب واللقاءات الأولى مع الذكور تأثيراً على الجزء المذكر من شخصيتها .

وهذا هو السبب الذي من أجله كان المشكل شديد الصعوبة في التحليل النفسي . ومع ذلك ، اكرّر أن الجزء المؤنث من شخصية الرجل والجزء المذكر من شخصية المراة لا يمكن ابداً ايجادهما في الخارج ، وانما في ذات كل منهما .

فماذا يعني « الشفاء » ؟ ذلك يعني أن يصبح المرء كليا ، كاملا ، غير منفصل عن ذاته ، غير « محطّم » . وذلك يعني اقامة الصلات العميقة بين شتى أجزاء الشخصية ، بما فيها الجزء المذكر والجزء المؤنث ، ويحقق الشخص ، في نهاية التحليل ، انصهار شخصيته المذكرة والمؤنثة. فيصبح عندئذ **كاملا بذاته** . واذا الرجل وجد امراة ، أو المراة وجدت رجلا ، فلن يكون ذلك على سبيل « إكمال » ما ينقصه أو ينقصها ، بل على سبيل « الإضافة » .

سادسا ــ من الشمس الى بعث الأبطال

الشمس رمز مشتق من النمط الاولي للاله والاب . ويدرك المرء مباشرة ان الشمس تحتل مكانا ملكيا بين الرموز الكبرى ، وانها تترك بصمتها على الحياة الانفعالية اليومية والفنون والفولكلور والاديان .

والناس في جميع العصور مصابون بهلوسة الموت والحياة . ويستحوذ عليهم ما يمنح الحياة ويحفظها ويغنيها . ويتوطن فيهم حَصَر المجهول . فكل ما يتصف بأنه « ظلام » و « غامض » ، ومن غير نور مادي أو روحي ، يثير الخوف . وذلك أمر منطقي . إنه ، من الناحية الانفعالية ، عالم الظلام والبرد والجحيم والموت ، بدون الشمس .

فالبطولة والبهاء والشجاعة والبراعة والانبعاثات المجيدة والمعبر

المنير الى الخلود ، الخ ، مرتبطة برمز الشمس ارتباطا وثيقا . فالبطل ، في الأساطير ، « يصعد الى السماء » . إنه « محاط بهالة من النور » أو اللهب . ولن يحدث أي انفعال إيجابي لو كان هذا البطل ذاته « ينزل » نحو « الظلمة » ، ناسياً في جهة من الجهات تاجه ، « تاج النور » ، أي تاجه الشمسي .

١ ـ الانسان متوحّد بالشمس

حياة الناس متوحّدة بمسار الشمس . فالنجم المتوهّج (كالاله) يولد مع الفجر . ويصعد نحو السمت ، ساطعاً وعديم الرحمة . ثم ينزل نحو الهوى (جمع هوة) ، ويولد مجدّدا مع الفجر الجديد . فعلى هذا النحو ، على الأقل ، إنما يعبّر الانفعال الانساني عن مسار الشمس .

والانسان ، كالشمس ، يولد ، ويحاول أن يشعّ ، وينتقل الى سمت الحياة ، ويتهاوى ، ويموت ، آملاً أن يصبح خالداً (أي **غير قابل للفناء ومنير** ، **له جسم « مجيد » كالشمس**) ، وآملاً أن يذهب الى السموات الواقعة « في الأعلى » ، كالشمس في كبد السماء .

والشمس ، هل تموت ، في الانفعال الانساني ، كل يوم ؟ على الاطلاق . فغيابها ليس موتا ، بل اختفاء مؤقت في الليل (**الظلام مملكة الموتى**) . ففي قارة اقيانوسيا ، حتى لا نذكر غير هذه الأماكن ، يعتقد الناس أن الموتى يتبعون الشمس في المحيط (والمحيط رمز اللاشعور) ويذهب الموتى عندئذ في قوارب ، وهذا هو **رمز العبور** ، الرمز المجيد .

لنلاحظ التخطيطية المخصصة للشمس (شكل رقم / ١٣ /) ، نر فيها أن المسيح والصحون الطائرة على وئام مع الحكام ، إذ أن هؤلاء « الأبطال الشمسيين » يشتركون بالنمط الأولي نفسه .

٢ ــ حياة الأبطال

الأبطال ، كالشمس ، لا يموتون . **ولا يمكنهم ان يموتوا** ، أو إن موتهم ، إذا ماتوا ، موت مؤقت كالشمس التي تختفي مؤقتاً في الظلام . فالبطل ينبغي أن يولد مجدداً ، أو يُبعث ، أو يظل خالداً (في فكر الناس على الأقل) .

يضاف الى هذا أن البطل لا يمكن أن يسقط إلاّ إذا تمت خيانته . فالمسيح كان له يهوذاه ، الخائن المختبىء في « الظلام » . وتمت خيانة هتلر الذي كان ، في نظر المؤمنين به ، بطلاً شمسيا ، ومنقذاً ، وأباً منيراً ، ومجيداً كالشمس . لقد اختفى مع ذلك في « الشهب » . ويبقى موته ، من الناحية الانفعالية ، أمراً موضع شك بالنسبة للمؤمنين به .

وإذا ذهبت الى السينما ، وجدت أن الأبطال مصابون بالتعب على وجه الاحتمال ، ولكنهم لا يموتون في أسرتهم . إنهم يُصرَعون « في أوج المجد » . وأبطال روايات الغرب الأمريكي محبّون للعدل وأخلاقيون . ويرفض الجمهور موتهم ، ولكنه يقبل أن يتعرّضوا للخيانة . والقائمة قد تكون مترامية الأطراف .

يشترك في الشمس إذن : جميع الأدلة المجيدين وغير القابلين للفناء ، و « الآباء » الكاملون ، والقلوب المشعة التي تهب الحب والأمن و «الدفء»، والملوك ذوو الرداء البرّاق والتاج اللامع (الشمسي) ، والأباطرة أولو عين النسر الذين يرون كل شيء كالاله والشمس ، ورؤساء الدول الكليانيون الذين يتصفون بأنهم « آباء » لا يقبلون الفناء وبأنهم أولو بطش ، والفرسان الذين يجلّلهم الذهب (لون شمسي) ، والبطل فانفان زهر الخزامى(*) ، وأبطال آخرون ، أبطال يستخفّون بالحياة والموت ، اي أنهم غير قابلين للفناء وبالتالي خالدون ، والرجال الجدد « يحملون النور »

(*) Fanfan la Tulipe : بطل أغنية شعبية ، نموذج جندي فرنسي يحب الخمر والنساء بقدر ما يحب المجد ، وهو مستعد دائما لنصرة القضايا العادلة « م » .

والبعث الروحي أو الاجتماعي ، والأبطـال الذين يصعدون الى النور ويختفون في الشهب ، وسيوف الفرسان اللامعــة ، والقلوب المقدسة المتوهّجة ، وهالات القديسين ، الخ .

وتشارك الأرتال العسكرية في الشمس ايضاً . إنها مجيدة ، قوية ، لا يأتيها الفناء ، لامعة ، ساطعة ، وتشتق كذلك من النمط الأولي للمنقذ (يمكن « الاعتماد عليها ») . إنها تحمي ، وتجعل العدالة محترمة ، وتفتح أرضا جديدة ، أي أرض الميعاد .

والانخراط في الجيش يعني على الغالب : البحث مجدّدا عن الأب الذي يمثّله بالرمز « تجمّع بطولي وقوي » .

والخلاصة أن كل ما يلمع ، ويحرق ، وينبعث ، وينخصب (الثور والديك) ، ويتألق ، ويغني ، ويقفز ، ويتفجّر ، يشارك في الشمس .

٣ ـ إطار شمسي جامع

الرمز الأول الذي يخطر للذهن رمز **الصعود** .

والبطل يصعد كالشمس . إنه محاط بهالة (على صورة الشمس) من نور (شمسي) . وفي صعوده السماوي ، يتخلّى البطل عن وجوده الانساني . إنه يختفي عن الأنظار الأرضية ، وينسحب الى الأبد ، الى مناطق متعذرة المنال .

ومن المعلوم أن **الاستواء** على العرش والمذبح والسماء تشارك في هذا الرمز : فالملك والكاهن يصعدان وينتقلان من المستوى الدنيوي الى المستوى الروحي . وكذلك ما يتعلق بـ « السلالم الطقسية » التي تقود الى السماء . والشيء نفسه ، من جهة أخرى ، عندما ينظر رجل الى رجل آخر « من عليائه » . ويتصف هذا الرجل **المنتصب والمستقيم والصلب** بأنه ، أول الأمر ، رمز قضيبي (اي قوي وعدواني) . إنه ينظر « من

الأعلى » ، مجسّداً على هذا النحو بالرمز تلك القوة والمناعة . وحتى لو أن ذلك غير ذي معنى من الناحية العقلانية ، فان هذا الموقف «يبلغ هدفه» دائماً من الناحية الانفعالية .

والنمط الأولي لـ **المنقذ** فحصناه فيما سبق . إنه يرمز ، على الغالب، الى سمات **بطل شمسي** . وقدر البطل الشمسي ، في الواقع ، أن ينقذ الناس من خطاياهم (مضمون هذا القول : من نزاعاتهم وشقائهم) . وكما أن الشمس تنقذ من الظلام والعوز والبرد ، ينقذ البطل من الموت والحصر ، ويستأصل الجهل والخبث، أي يجعل الناس واعين ويرفع عنهم لاشعورهم . إنه صالح صلاحاً دو نحدود ، أي إنه ، كالشمس والاله، لايمكن لأي شيء أن يبلغه . إنه « يقود » و « ينير »الطريق ويعاقب الاشرار الذين « يراهم » عقوبة لا رحمة فيها . ويقود نحو أرض الميعاد (المسيح)، ونحو إنسانية جديدة (المصلحون والطغاة والجماعات السياسية) ، ونحو الثورات (الاجتماعية والروحية) . ويقود بمعصومية نحو العدالة والحق (المروّضون « والمنقذون » في الأفلام السينمائية) .

وهكذا فان الرجل الشمس يمنح الوفرة ويوزّع النور الى الناس . . .

هذه الأنماط الأولية ترتبط إذن ارتباطاً شديداً وتعمل دون هدنة ، وذلك أمر يتصف بأنه طبيعي . وقد تكلمت سابقاً على الصحون الطائرة. إنها أبطال شمسية . فهي تلمع ، وهي محاطة بهالة من النور ، وتبدو بصورة غريبة ، ثم « تصعد » سريعاً : إنها تختفي عن أعين الناس كالأبطال الشمسيين . فأن تكون الصحون الطائرة موجودة من الناحية التقنية أم غير موجودة أمر لا يغيّر من المسألة شيئاً . **والمهم في هذا المجال هو الانفعال العميق المرتبط بها** . ذلك أن « الصحون الطائرة » كانت ستفقد جاذبيتها مباشرة لو أن الناس عرفوا أن المقصود بها محركات تقنية ، لا زوّاراً قادمين من الكواكب البعيدة ليبيّنوا للناس أرضاً جديدة موعودة. .

٤ ــ والدي اله ــ شمس

بيّنت الدور الشاق ، دور الأب ، في مؤلفي الأول(١) . ولكني أرى من المناسب أن أستعرض هذا الدور بسرعة .

---

(١) انظر « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » .

كل طفل يقتضي ، **بصورة لاشعورية** ، أن يكون والده قويا ، مجيداً ، وأن يكون دليلاً معصوماً وقويا . ويرغب الطفل ، بصورة لاشعورية دائماً ، في أن يكون أبوه دون خوف ولا نقيصة ، وبالتالي ، بطلاً شمسياً ، منقذاً . فما السبب ؟

السبب أن الأب ينبغي أن يهدي ويشعّ وينير (الطريق) ، ويقود الطفل نحو « أرض الميعاد » ، أي نحو سن الرشد والمسؤولية .

ويتضح لنا مباشرة أن الأب في **مواجهة** مع اللاشعور الجمعي لطفله .

وماذا يقتضي الطفل أيضا **بصورة لاشعورية** ؟ أن يكون الأب متصفاً بأنه لا يغلب كالأبطال الشمسيين . فاذا غلب ، كان ذلك ، ربما ، بفعل خيانة ، لا بسبب الضعف . ويقتضي الطفل أيضاً أن يكون أبوه « فحلاً » قويا سيقلّد رجولته من الناحية النفسية ، لكي يتجاوزها فيما بعد ويصبح مستقلاً .

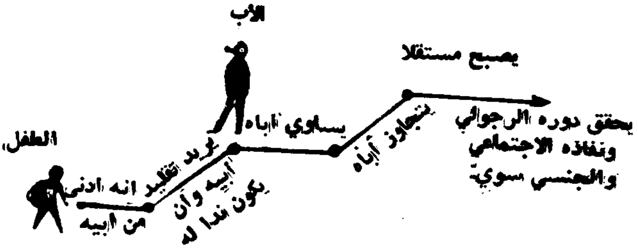

شكل رقم (١١)

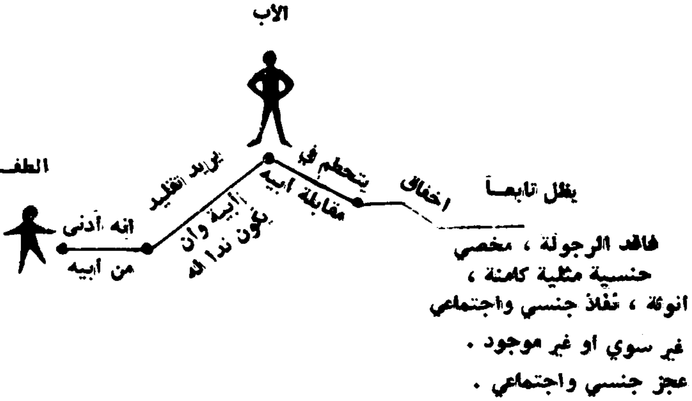

شكل رقم (١٢)

وخلاصة القول ، يقتضي لاشعور الطفل أن يكون أبوه مجيداً ، وقويا ، ولا يقهر ، وذو بطولة كالاله والشمس (١) .

فالأب يواجهه إذن دور يتعذر القيام به . ولا بد له من إيجاد حل من حلول التسوية بين ما **يمثله** في لاشعور طفله (اله شمسي) **وبين ما هو عليه** في الواقع (إنسان) .

وكيف يبدو الواقع ؟ كم من المراهقين سمعتهم يقولون بغضب يائس :

ــ **أبي ؟ إنه** . . . (كلمة تلخص ضعفاً فائق الحد) .

فلنوضح ذلك :

ــ أبي ليس بطلا شمسيا . إنه لا يلمع . ولا يتصف بأنه قوي ، ولا يتصف بأنه لا يغلب . وأنا ، أظل دون دليل ولا نور ، ومن غير شخص أصارعه كالسيد كومبيادور* الذي كان يصارع الشمس !

رأينا ، بالاضافة الى ذلك ، حالة مراهق خيب أبوه أمله بعمق (انظر بداية هذا الفصل) . وبحث المراهق عن أب آخر ، على أن يكون أبا مجيداً (كالشمس) . فأسس جماعة ذات نزعة مثالية (**رمز الأب**) كان يريد باسمها أن يدمر أولئك الذين كانوا يذكرونه بضعف أبيه الخاص . وتم ذلك بالاستناد الى رموز كان يجهل وجودها .

---

(١) كذلك يحتفظ كل راشد ب « الحنين الدائم » لدليل معصوم يقوم مقام المنقد بالنسبة اليه (ومقام الاب !) : الرؤساء الدينيين والعسكريين الكبار ، رؤساء الدولة ، سكان الكواكب الاخرى المتطورين جدا ، الخ .

(*) Cid Campéador : بطل اسباني عاش في القرن الحادي عشر . تعاون مع احد الملوك العرب المسلمين في اسبانيا (المقتدر) . وكان الجنود ينادونه « سيدي » . اصبحت شخصية هذا البطل اسطورية، وتجسدت لدى كثير من الشعراء والكتاب(م).

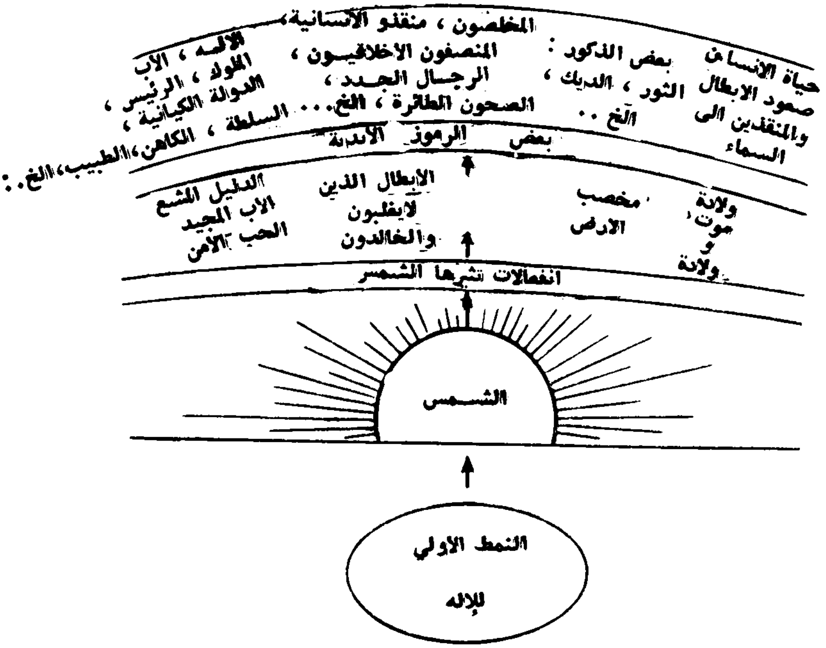

شكل رقم (١٣)

ولكن **الخطر ذاته موجود إذا كان الأب يذكّر كثيراً برمز الشمس** . وتلك هي حال أب « لامع جدا » ، على سبيل المثال . فهذا الأب يسحق شخصية ابنه و « يحرقها » مثله مثل شمس الظهيرة التي تحرق الأرض والزرع ... وتنشر الموت والحياة على حد سواء .

فدور الأب إذن دور غير يسير : وهذا أقل ما يمكن قوله . وكل شيء منوط بقوة الأب الداخلية وأصالته وتوازنه . وسواء كان عاملاً أم رئيس وزراء ، ذلك لا يغيّر شيئاً من المسألة .

سابعا ـ الى نهاية العالم

هذا هو رمز من أجمل رموز الانسانية ، منتشر في جميع الأماكن

منذ الأبد . ويمكن تطبيقه في العلاج النفسي بفضل ما لديه من استطاعة. إنه **رمز العبور** الذي ينتسب معاً الى **الماء والشمس** .

كيف يتجلى بصورة عامة ؟ ثمة **بطل** يغوص في الماء . وينطلق من **الغرب** (مغرب الشمس) نحو **الشرق** (مشرق الشمس = بعث وحياة جديدة) . وينجز عبوره **في بطن سمكة** (كما فعل يونس) أو في **قارب** أو **سفينة** (كنوح) .

والموضوع هو ذاته دائماً : **البطل يعبر الماء** (الذي يرمز الى اللاشعور) **في بطن غول** (رحم الأم ، الطفولة ، الماضي) . **وينطلق البطل نحو النور الصاعد** (ينبعث في حياة جديدة) ، **ويخرج من بطن الغول** (يخرج من رحم الأم ، يصبح راشداً) . وعلى الغالب ، **يشعل النار عند ئذ** (وعي الرشد ، روحية) .

ويتصف هذا الرمز بأنه من الرموز الأكثر انتشاراً في الأساطير كما في الحياة اليومية . إنه يمثل الحنين الى حياة جديدة ،مطهرة ، مسؤولة، متجددة . وهكذا كان **نوح** يمضي في سفينته نحو حياة جديدة بعد « التنظيف الكبير » (أي المعمودية الكبيرة ، التطهير الكبير) الذي قام بها الطوفان .

فلننقل ذلك الى الحياة اليومية : إننا نجد **الأنظمة الجديدة** التي وعد بها الحكام المستبدون والأنبياء والمروضون ... ورجال السياسة . فعلى الشعب أن يخرج من **ظلاميته** (اللاشعور) لكي يصل الى **الثورة** الاجتماعية أو الروحية (النور ، سن الرشد) . إنه يقوم بـ **رحلته** (الاجتماعية) بفضل **الدولة** أو **الرئيس** (الأب ، الأمن) . والشعب لا يزال في هذه المرحلة طفلاً ، ولكنه ، بعد « عبوره » ، سيكتشف **النور** (يصبح مسؤولاً عن مصيره ، وسيكون غنياً ، ولكل بيته وزاويته في الجنة وسيارته الصغيرة) .

ولنفكر أيضا بجميع أولئك الذين **يرغبون في عبور البحار لكي يذهبوا**

الى اقصى مكان في العالم ويجمعوا فيه ثروة . إننا ، على الغالب ، إزاء حلم قوي ذي قاعدة انفعالية يعرف كل فرد مع ذلك انه لا يطابق الواقع.

إنهم يرغبون في عبور البحر في **قارب** (الغول البحري ليونس) . ويريدون الوصول الى الثروة (الاستقلال ، الانفلات من الطفولة ، بلوغ الرشد) . وذلك من أجل الخروج من **حزنهم وحصرهم** (الظلام) .

واذا استجوبناهم رأينا أن أحلامهم تدور حول ما يلي :

ـ **أتمنى أن أجد الذهب والماس** . . . وقلما يتمنون القصدير والنفط! ولكن لنتذكر أن الذهب رمزان شمسيان (أصفر ، لامع) . والفرق الوحيد أنهم يحلمون بركوب السفينة بدلاً من « استئجار » حوت ، كما فعل يونس وكثير من الأبطال القدماء .

ويلتقي رمز **العبور** هذا برمز **الصعود** : فالانسان ينطلق نحو النور الصاعد (حياة جديدة) ، بدلاً من أن « يصعد » نحو السماء وخلودها المنير .

ثامنا ــ الأم ، رحم كبير

من الواضح أن المرضى يتكلمون ،خلال التحليل النفسي،على أمهاتهم . والذكريات المتعلقة بهن تتصف غالباً بأنها مشحونة بانفعالات مؤلمة ، وبالعدوانية ، وبتوترات بين الكره والحب ، الخ . ويذكر المرضى ، في تسع حالات من عشر ، أمهاتهم على نحو سلبي . والسبب ، أولاً ، أن معظم الأمهات يجهلن دورهن ، وبالتالي يقمن به على نحو سيء . والسبب، ثانيا ، **ان الأم رمز قوي** ، بالنسبة للاشعور ، قبل أن يتمثل هذا الرمز بأم مشخصة .

ويمكن القول إن النمط الأولي للأم قوي وواسع قوة النمط الأولي للاله وسعته . **فالأم ترمز الى اللاشعور الذي نخرج منه** (بطن الأم) ، **والذي نعود إليه مؤقتاً او نهائيا** (النوم والراحة والموت) . يضاف الى هذا أن الأم أعمق علاقات الطفولة .

وترمز الأم الى **الظلام العذب** (الظل ، الأديرة ، الكنيسة ، الكنائس ، الكهوف ، باطن الأرض ، الغطس تحت مياه البحار ، الخ ، الخ) . وترمز الى**البطن**(غول يونس) الذي ينبغي الانفلات منه لبلوغ الرشد .

والأم ترمز الى كل ما يهب الحياة أو يحمل الثمار : الأرض والمياه والأشجار المثمرة . . .

وترمز الأم الى ما هو جذّاب وشديد الخطر في الوقت نفسه ، والى كل ما « يغلّف » ويحمي ، والى كل ما هو غامض وبارد ، والى كل ما يمكن أن يقتل (الشخصية) : الماء والقمر **والين*** وأبي الهول والتنّين والساحرة ، الخ . وتمثّل حنيناً كبيراً : العودة الى دفء رحم الأم . وترمز الى كل ما « يستقبل » : أرض الوطن الأم ، التغلّف والموت في ثنايا العلم ، الخ .

انظروا ، من جهة أخرى ، الى الرسم في الشكل رقم /١٤/ . هذا الطفل يهرب من نور الشمس (إنه يخاف الاله وبابا اللذين يريان كل شيء ويعاقبان) ، ويركض نحو الظل (يلتجيء عند ماما مرموز اليها هنا بالظل الخفيّ الذي سيخبّئه) .

فكل أم يقابلها إذن رمز كبير لاشعوري . إنها هي التي **ينبغي أن** تستقبل دون تحفّظ ، وتحب دون شروط ، وهي الطاهرة دون دنس (من هنا منشأ عبادة معيّنة لمريم العذراء ، على سبيل المثال) . وهي، فضلا عن ذلك ، أول تمثيل للجزء المؤنث من شخصية الذكر ، الذي يتصف ، واذكر بذلك ، بأنه الأنوثة اللاشعورية للرجل .

فليس دور الأم **العملي** إذن دوراً سهلاً . ولا يمكن لأي أم في العالم

(*) الين واليانغ ، Yin , yang : كلمتان صينيتان تدلان على مقولتين اساسيتين في الفكر الطاوي الصيني ، تمثلان مظهرين متنافضين ومتكاملين من العالم . ومن تاليفهما ينشا المبدا الكبير للنظام الكلي : الين هو المبدا الانثوي واليانغ هو المبدا الذكري «م».

أن تنافس رمزاً بهذه السعة . ولكن من الواضح أن لاشعور الطفل يوازن **قبليا** ، موازنة مستمرة ، مثاله اللاشعوري وأمه التي تتجسّد في لحم ودم . وهو يرفض لاشعوريا ـ أو يكبت ـ كون أمه « غير طاهرة » أو مصابة بعصاب على سبيل المثال . ولنتذكّر أن دور الأب ليس أكثر سهولة ، إذ أن الأب يوازن باستمرار برمزي الاله والشمس .

شكل رقم « ١٤ »

ويتضح لنا الى أي حد يتصف انفصال المرء عن أمه وانفكاكه عنها ، انفكاكاً عميقاً ، بأنه عسير . والحال أن هذا الانفصال شرط مطلق لبلوغ سن الرشد . ويتضح لنا أيضا كم هو قليل عدد الأمهات (والنساء) اللواتي يعرفن العمق الكبير لدورهن . فعليهن أن يكنّ تنزُّلاً حفياً ، دون خطر ، حيث يمكن للشخصية أن تتفتّح في جو من **الثقة الكلية** والأمن .

وبدلاً من ذلك ، كم عدد الامهات المصابات بالعصاب ، الموجودات في الطرف الأقصى بالمقابل لما يمثلن بالنسبة للاشعور ؟ وعندئذ ، يقع الطفل والمراهق بين قطبين : ما **ينبغي** أن تكون عليه الأم ، وما **هي عليه** في الواقع .

وما الأم ،إنها رمز مجيد يتوطن فيما بعد في أم **واحدة شخصية** يسهل الآن أن يتصور المرء استطاعتها الخيّرة أو الشريرة .

ذلك أن كل ثقة عميقة بالأم تصبح ثقة بالحياة والموت . ولكن كل خوف ، وكل ريبة ، وكل عدوانية عميقة إزاء الأم ، تتجلّى بالخوف من الحياة والخوف من اللاشعور والموت .

وتتضح إذن أهمية المعالجـة الوقائية للامهـات واكتشاف دورهن ومدلوله في الأعماق .

ذلك أن معظم الأمهات ، في واقع أيامنا هذه ، حفيّات ... ولكن بأي شرط ! وكيف نريد ، من جهة أخرى ، أن يكن قادرات على إنجاز دورهن إن كنّ مريضات ؟ وسأعود الى ذلك فيما بعد .

١ ــ من جاك بقّار البطون الى العشاق في الأساطير

رأينا في عدة مناسبات الى أي حد تشترك سلوكات البشر في بحث واحد لاشعوري ، سواء كانت مجيدة أم مشوهة او مسحوقة أو «منحرفة على نحو مرعب » : إيجاد سلام عميق ، وأمن دافىء ، ووئام مع الذات والطبيعة والرموز العميقة والمطلق . ونعلم أيضا أن الموجود الانساني ، وقد غاص في الكهف المريح لبطن الأم ، إنما عرف **قبل** ولادته تلك **السعادة المطلقة الوحيدة** التي يمكن أن توهب له على هذه الأرض .

وانطلاقا من هنا ، يحاول كل موجود إنساني ــ من خلال كثير من الأعمال ــ تحقيق اتحاده برحم كل شيء . ولهذا السبب (وقد رأينا ذلك قبل قليل) تتصف الأم وفكرة الأم ورموز الأم بمثل هذه الأهمية .

ويمكن القول إن كل سلوك إنساني محاولة « صلاة » ، ناجحة تارة ، ومتصدّعة بصورة تثير الرثاء تارة أخرى . وثمة بالتأكيد فرق كبير بين صلاة قديس صادق وصلاة طفل ، أو مغترب عقلي ، أو ذي وسواس مرضي ، الخ .

وتبدو أهمية ذلك من ناحية تجلي الأبعاد البشرية . ولنقتصر على التفكير بالجنسية : **فالأعماق السحيقة والبحث الأساسي متطابقان ،**

سواء فيما يخص رجلا طفلا يريد « العودة الى ماما » ويرغب في « الدخول في جسم » الأم لكي يجد فيه مجدّدا غبطة دون مشكل ، أم يخص الرجل الذي حقّق امكانياته وانسجم مع العالم (الأم الكبرى ، الطبيعة ، الاله..)

ومن المؤكد ان الجنسية تتّخذ على هذا النحو تلوينات غريبة .

وهكذا ، فليس ثمة غير فرق في المستوى بين جاك بقّار البطون و العشّاق الاسطوريين . ويبحث جاك بقّار البطون ، وهو « يتمرّغ » بجسم المراة التي بقر بطنها ، بحثا لاشعوريا ، عن « العودة » الى جسم أمه لكي يجد فيه مجدّدا ذلك السلام السعيد ، سلام ما قبل الولادة . أما العاشقان الخالدان ، فانهما ، بوصفهما قد حقّقا انصهارهما بصدق ولا يكوّنان غير شخص واحد ، يرجعان متشابكين الى الاحساس بضرب من الأبدية والخلود اللذين وجداهما بعد ضياع .

وهذا هو الفرق بين المستوى الطفالي بصورة كلية ومستوى الانجاز الراشد . وعلى أي حال ، يبحث كلاهما عن سلام الأم وعن الاحساس بالمطلق ...

٢ ـ الأم في أثناء التحليل النفسي

عندما يتقدم المريض في التحليل ، يتجاوز مرحلة الذكريات الشخصية . ويتجاوز اللاشعور الشخصي حيث توجد الانفعالات والعقد المرتبطة **بأمه الخاصة به** ، ويصل الى اللاشعور الجمعي حيث توجد الانفعالات المرتبطة بـ **الأم** بصورة عامة .

وينتقل المريض على هذا النحو من العدوانية والريبة ازاء أمه الى الثقة الكلية بالأم ، الى الثقة باللاشعور ، الرحم الذي خرجت منه جميع الأشياء .

وهذه هي الثقة عندئذ بالحياة والموت ، والعودة الى الأم الكبرى(١).

---

(١) انظر حلم سائق السيارة في الفصل الحالي ، المقطع الحادي عشر « من الحلم الليلي الى الحلم المعاش » .

وذلك لا يحدث دائما دون عناء . إنه بعث . فالمرء يغادر على هذا النحو أمه وكل ما تمثله ، وينتقل الى سن الرشد ، بعد عبور راقات عديدة من اللاشعور .

فالأم واللاشعور مرتبطان ارتباطا وثيقا . وهنا يبدو رمز كبير هو الماء .

تاسعا ـ الماء

الماء رمز يعادل الشمس في أهميته . ويفهم المرء ذلك بيسر . إنني سأقتصر على بعض مظاهر الماء كما نجدها في الحياة الانفعالية ، والاحلام الليلية ، والأساطير ، والقصص الاسطورية ، وتداعيات الافكار لدى المرضى في التحليل النفسي ، والعلاج النفسي الرمزي ، الخ .

يظل الماء شبيها بذاته دائماً . فليس له نطاق . وهو يتخذ الأشكال . إنه مرن ويغلف .

ويرمز الماء الى **اللاشعور** قبل كل شيء . **ففي** عدد كبير من **اسفار التكوين** ، خرج العالم (أي الأرض والحياة الواعية) من لجة المياه (هوة اللاشعور) . وفي المعنى ذاته ، خرجت الحياة الواعية من « مياه الأم » (اللاشعور أيضا) .

ويتضح إذن الى أي حد يمكن للماء أن يرمز الى **الأم والمرأة والمؤنث الخالد** . والماء يجذب بصورة خفية ، ويستقبل ، ويحبك ، ويلتف ، ويغزو ...

والماء الرائق الصافي ، **من الناحية الموضوعية** ، شديد الخطر كالماء العكر والماء الأخضر المائل الى الزرقة ، وربما كان الماء الجاري شرا ، كالماء الساكن .

وما الموقف من الماء من الناحية الذاتية ؟ ليس الأمر كذلك ، بل هو مختلف كل الاختلاف !

كثير من الناس ينفرون من الماء الهادىء الساكن . والماء العكر مخيف ، لأن الانسان « **لا يعلم ما يوجد في الأسفل** » ، الخ .

ويخاف هؤلاء الناس ، في اغلب الاحيان ، من لاشعورهم ومما يكشف عنه . وآخرون يعـانون إزاء الماء ما يعانون من عواطف إزاء أمهاتهم (جذب ونفور معاً) . وتتغيّر هذه العواطف خلال التحليل النفسي . وكثير من الرجال لا يحبون الماء لأنهم يرفضون أنوثتهم الخاصة . ولكن الخوف من هذه المياه يزول في نهاية التحليل النفسي . ويقول المرضى :

ـ حلمت هذا الليل بماء ساكن وعميق ، حفيّ بصورة أمومية وهادىء ...

والمريض ، في هذه المرحلة « يجد الوئام » مع لاشعوره .

وقد يكون الماء أخضر مائلا الى الزرقة ، مخيفا ووديعـا في الوقت نفسه ، شديد الخطر وجذّاباً معاً . إنه عندئذ شبيه بالموت « الذي يحتضن العاشقين المتشابكين » . والموضوع معروف جيداً منذ زمن عريق في القـدم .

والواقع أننا لا نزال في رمزية الام . لقد رأينا في الفصل السابق ، مقطع « صوب الجنين » ، أن العودة الى رحم الأم كانت تمثل حنينـا دائماً . وذلك يعني : الانفلات من صعوبات الحياة ، والعودة الى البيت، والعودة الى الأم ، الخ . وذلك يعني : « الدخول في بطـن الأم الـذي خرجنا منه » ، والإحسـاس مجدّدا بالدفء الكامل ، والعذوبة الكاملة ، واللاوعي التام ، وجميعها نعرفها عندما كنا أجنة (١) .

ويرمز الماء هنا الى الموت والعودة الى اللاوعي السعيد . إنـه أم جذابة ، فاتنة ، يبدو أنها تعِد بأبدية من السلام .

ولكي يستشعر المرء ذلك في أعماق ذاته ، حسبه أن يقف على شاطىء مستنقع أخضر .

---

(١) ذلك ما يمكن ، من جهة أخرى ، أن يُرمز اليه بـ « الضباب » . فالضباب يمنح المرء شعورا بالاختفاء والملاذ والإحاطة ، وبأنه في شرنقة مغلّفة .

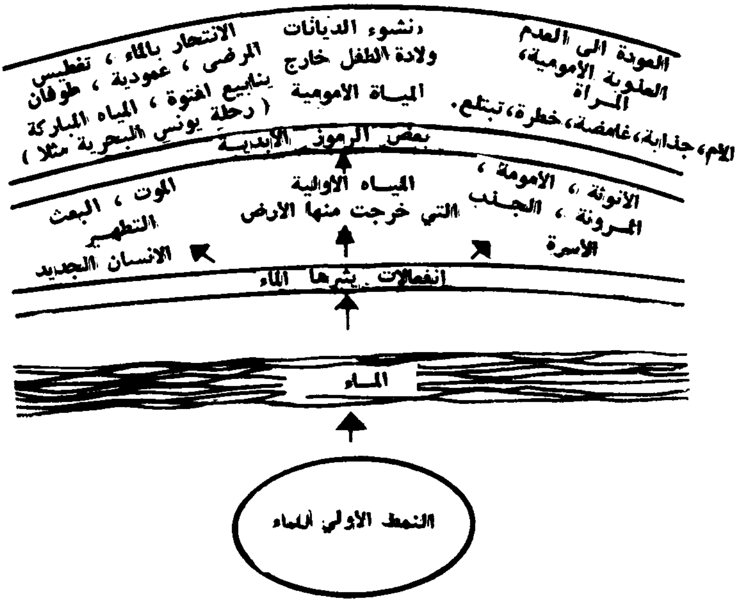

شكل رقـم (١٥)

وفي مرحلة متقدمة من التحليل النفسي ، يصبح الماء مجدّدا رمـز « الأم الكبرى » التي يمكن للمرء أن يترك نفسه لعفويتها فيه دون خوف . وذلك هو أيضاً موضوع الرسـم في الشكل رقم / ١٦ / : العاشـقان « المتشابكان » يرمزان الى الموجود الذي بلغ كليته ، والذي أصبح رجـلاً وامـرأة معاً ، والذي يدخل الخلود وقد توحّد توحّداً تامـاً .

١ ــ الماء الذي يغسل

الماء ، من الناحية المادية ، ينظّف ويغسل ويطهّر . ولنتقدّم خطوة انفعالية : يغسل الماء من الخطايا ، ويغسل من الأمراض ، ويطهّر مـن الخبثاء ، وينظّف أوساخ النفس .

ونحن نصل إذن الى الطقوس العديدة ، طقوس **تغطيس** المرضى في المياه ذات المعاجـز . ونكتشف ينابيع الفتوّة التي تزيـل « الأمراض (الشيخوخة) وتمنح الفتوّة (اي الخلود) .

كذلك تتصف طقوس **المعمودية** بأنها عديدة في مجرى الزمن .

وثمة ايضاً ، في الديانات البشرية ، أصناف من **الطوفان** :

ويظلّ الموضوع هو التالي : الناس آثمون بسبب التمرد (اي : الخطيئة بفعل العدوانية إزاء الرئيس الاله) . ويقرّر الخالق تطهيراً كبيراً (بالماء) . فيثير طوفاناً (إذن ، « تنظيفاً كبيراً » روحانيـا) . وتزول البشرية في تلاطم المياه (أي : تختفي في اللاشعور الذي خرجت منه) . ولكن ثمة رجل « طاهر » مسمّى ، **نوح** على سبيل المثال . إنه مكلف بتأسيس **نظام جديد** يجمع الناس الجدد والمطهّرين ، وذلك إذن هو موضوع « الموت والبعث » الذي يُفهم فهماً تاماً بعد الرموز التي رأيناها فيما سبق .

شكل رقـم (١٦)

هذا الرسم انجزه صبي في التاسعة عشرة . ويصف الرسم ، وصفاً جيداً ، موضوع « العاشقين المتشابكين » اللذين يعودان الى الأبدية (الماء يصبح الأم الكبرى ، أي سلام اللاشعور) .

٢ ـ ما قيمة العقل هنا ؟

ليس للعقل قيمة كبيرة هنا . والواقع انه لا علاقة له بهذا المجال . فنحن بصدد مستوى مختلف كل الاختلاف . فأسلوب المحاكمة يتطور تبعا للفرد واللحظة الحاضرة والظروف والأخلاق والحضارات ، الخ . والعقل يتغيّر زمنيا ونفسيا . أما اللاشعور الجمعي ، إياه ، فيظل شبيها بذاته ويؤثر باستمرار ـ وذلك غني عن البيان ـ في العقل . واللاشعور الجمعي شبيه بصوت آت من الأعماق النفسية ، ويردّد صدى الأجيال الكثيرة التي سبقتنا .

٣ ـ الإفراط والتفريط

وليس المقصود أن يستحوذ علينا اللاشعور الجمعي . إنها نهاية العقل عندئذ ، وإنه الاغتراب العقلي . ولكن على المرء أن تكون لديه القدرة على أن ينهل منه ، بعد أن يتحقق اتصاله بالأنماط الأولية الكبرى . وذلك ، من جهة أخرى ، هو الباب الذي ينفتح في نهاية التحليل النفسي . فاذا كان اللاشعور المتضخّم يعني جنوناً ، فان اللاشعور الضامر يعني عقلاً متورّماً . إنهم عندئذ هم الناس الذين يرسمون الحياة بالصلابة التي يتم بها رسم حاضرة أمريكية ، وهم ، في الواقع ، يلوذون بعقل متضخم خوفاً من لاشعورهم .

٤ ـ اللاشعور الجمعي والتحليل النفسي

النمط الأولي **فعل منعكس** لاشعوري كبير . إنه دائرة من الطاقة التي لا تنتظر غير الاصطدام حتى تنطلق بوساطة الرموز .

ومن يتصل من الناس بنمط أولي يتصف بأنه فريسة ضرب من

« الرعشة » لا يفهمه من لم يعان التجربة . ويمس المرء عندئذ ، في أعمق أعماق ذاته ، تجربة وانفعالاً إنسانيا خالداً .

ولا يمكن ارتياد اللاشعور الجمعي ، كما قلنا سابقا ، إلاّ عندما يتم تنظيف مشكلات اللاشعور الشخصي . فليس بمقدورنا ان نطلب الى انسان يعاني ألماً حادا في أسنانه أن يشعر بالفرح من إحساسه بالسير الوظائفي الكامل لكل جسمه . كذلك (وهذا مثال) يتعذّر على إنسان يغوص في صعوبات وجدانية ذات علاقة بأمه أن ينظر في **الأم** بصورة عامة ، مع ما يفترضه ذلك من جانب إيجابي . فمشكلات **أمه الخاصة به** تغلق البويب الذي يقود الى الرموز الكبرى الخاصة بـ **الأم بصورة عامة** . كذلك فان صعوباته إزاء أمه تولد ضروباً من الخشونة في علاقاته بالنساء . وسيكون متعذراً عليه إذن أن ينظر في **المرأة** بمظهرها الإيجابي . إنه سينسب الى النساء عواطف سلبية . وسيشعر بالريبة والعدوانية ، باستثناء ما إذا انقاد اليهن كصبي صغير يبحث عن أم مثالية ، الخ . ولكنه سيتعذّر عليه أن يحسّ بدور المرأة الأساسي إحساساً عميقا . وذلك لن يصل اليه إلا بعد أن يتحرّر من **أمه الخاصة به** ، ويتصل برموز اللاشعور وأنماطه الأولية .

وكل هذا ذو أهمية قصوى إذن . فبمجرد بلوغ اللاشعور ، تبدو احلام ليلية عظيمة . وتبرز رموز خالدة من الأعماق ، فتصبح وقائع يعيشها المرء انفعاليا ، وتوجّه الوجود توجيهاً جديداً . ويفطن المرء عندئذ الى أن فاعلية لاشعوره الرمزية تهدي عقله وأفعاله ، وتهدي أيضا فاعلياته الروحية والفنية والسياسية والتاريخية ، الخ .

وعندما يبلغ الانسان هذا اللاشعور الجمعي ، يشعر بالأسف دائماً على أنه لم يكن ، خلال سنين طويلة ، على صلة بالثروات العميقة التي كان يجهل وجودها .

عاشرا ــ العلاج النفسي الرمزي

الهدف النهائي من تحليل نفسي ــ كما رأينا ــ تحرير **الأنا** مما يخنقها وإعادة الأصالة والطاقة والحرية الى شخصية من الشخصيات ، وذلك بعد أن تكون راقات كبيرة من اللاشعور قد صعدت الى السطح .

ولكننا نعلم أن العمل التحليلي شاق ومؤلم ، ولا يناسب كل فرد . فثمة إذن سؤال يطرح نفسه : أبالإمكان بناء الانا بناء جديداً بوسائل أخرى ؟ وهل يمكن ارتياد اللاشعور بطريقة أخرى ؟ وهل يمكن المساعدة على ضروب من احتياز الشعور تقود الى الشفاء ؟

من المعلوم أن **الأنماط الأولية والرموز** مشحونة بطاقة وانفعالات بناءة . و « احتياز الشعور » برمز من الرموز يتيح للفرد أن ينفلت من أناه الشخصية ، ويمدّ شخصيته نحو مناخ أكثر اتساعا واكثر انسانية بصورة عميقة . وما دام الرمز مشحونا بالطاقة ، فهل بالإمكان سلوك « الدرب العكسي » والنزول نحوه ؟

وتبدو الأنماط الأولية والرموز ، بصورة عامة ، في الأحلام الليلية عندما يكون تحليل المريض متقدماً بصورة كافية . ويكفي على الغالب ، في هذه المرحلة ، لفت الانتباه الى هذا النمط الأولي حتى يولد مفعولاته . ولنتذكّر أن **النمط الأولي ضرب من المنعكس القوي اللاشعوري** . كذلك يمكن لعالم النفس ، ببعض الشروط وفي بعض الظروف ، أن يساعد المريض على أن « يمسّ » بعض الرموز . ولكن عالم النفس الممارس ينبغي أن يأخذ بالحسبان ــ على نحو مؤكد ــ حالة المريض **الراهنة** .

تكلمت من قبل على العلاج النفسي الرمزي في مؤلفي الأول (١) . وأتكلم الآن عليه من وجهة نظر أخرى . وهذا يكمل ذاك .

---

(١) انظر « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » .

فلنعــد الى الخيــال

في فصل « ذكريات الطفولة » بيّنت أن ثمة إمكاناً للجوء الى الخيال لكي نساعد المريض على إيجاد ذكريات « حرون أو مكبوتة » . فهل يقف تطبيق الخيال عند هذه الحدود ؟ لا ، بالتأكيد . ويمكن استخدام الخيال لغايات شتى : العودة الى منابع الشخصية ، والوئام مع أعماق هـذه الشخصية ، وتنمية الحدس والاحساسات العميقة ، وتوحيد الشخصية.

والخيال يتصف على وجه الاحتمال بأنه إحدى الوظائف الأكثر أهمية في الحياة الانسانية . ويكفي مع ذلك أن يستسلم الانسان لنفسه خـلال بعض اللحظات . فتنبعث عندئذ أضغاث أحلام ضعيفة كما تنبعث أحلام يقظة قوية يحسّ بأنه **يعيشها بصورة واقعية** . إنها ، في بعض الأحيان ، إلهامات فنية بمعناها الأسمى ، أعني بمعناها الأكثر اتصافاً على نحـو عميق وكلي بأنه إنساني . فالالهامات العظيمة الخالدة لدى بعض الفنانين، من جهة اخرى ، ليست في الحقيقة سوى صعود بعض الأنماط الأولية الكبرى الى السطح ، والانفعالات المرتبطة بها كذلك .

ومعظم الناس ، في مجتمعنـا ، « مشوّهو » خيـال حقيقيـون . فاعتبارهم له اعتبار هزيل ، وهم ، بالتالي ، ينفخون عقلهم كبالون مـن غشاء رقيق . والحال أن الانسان الـذي ينقصه الخيال مقطوع الـى جزأين ، ما دامت حياته العميقة تفوته .

١ ــ من الحلم الليلي الى الحلم المعاش

هل يمكن لمشهد خيالي أن يعيشه الفرد على نحو قوي بحيث يجتاح شخصيته كلها ؟ من المعلوم أن ذلك يحدث على نحو سلبي في بعض حالات المرض أو الهذيان . ولكن ألا يمكن أن نقلب الوضع ونجعل من الخيال قوة إيجابية ؟

ولم أتكلم في هذا الكتاب على **تفسير الاحلام** ،لان المقصود مجال متحرك

يتعذّر إزاءه سنّ القواعد . والحال أن تفسير الأحلام أمر رئيس على الغالب في أثناء تحليل نفسي . فالحلم ضرب من « الفكرة اللاشعورية » . واللاشعور يتكلم دائماً لغته الخاصة ، لغة رمزية . ولاشعورنا شبيه بآلة الكترونية تجري ضرباً من حساب الاحتمالات ،انطلاقاً من ملايين المعلومات التي تقدّم إليها .

وتصف بعض الأحلام حالة المريض اللاشعورية . وبعضها الآخر ينذر . وبما أن مهمة اللاشعور هي المحافظة على توازن الفرد ، فان بعض الأحلام تبدو بصورة حقيقية وكأنها تقول : « هذا ما ينبغي عمله لإصلاح الحالة أو للحيلولة دون أن تزداد سوءاً » .

وثمة أحلام صغرى وأحلام كبرى . فنقطة انطلاق الأحلام الصغرى كامنة على الغالب في بعض أوضاع الحياة اليومية . والى جانبها ، ثمة بعض الأحلام الكبرى التي تتصف بأنها أساسية . إنها تصدر عن الأعماق الإنسانية ، وتحقّق غالباً تجارب داخلية قوية جدا . وللرموز الكبرى التي تنبعث من هذه الأحلام تأثير « انعكاسي » . فالمريض يمكنه ، **حتى دون أن يعلم** ، تأمل هذه الرموز الكبرى وإنجاز خطوات حاسمة . وعلى هذا النحو إنما يتّضح أن بعض الأحلام الكبرى تعدّل توجيه حياة ...

آ ـ الأحلام في التحليل النفسي

ثمة ، على الأغلب ، اعتقاد لدى عامة الناس ، أن حيازة ضرب من « معجم الرموز » يكفي لتفسير الحلم ، ما دام الحلم رمزيا . وهذا الاعتقاد اعتقاد باطل بالتأكيد . **فليس ثمة رموز ثابتة أبداً** . وعلى المحلّل دائماً أن يأخذ بالحسبان حالة المريض الراهنة وتطوره الداخلي والخارجي ، الخ، لكي يفسّر حلماً من الأحلام .

ها هما مثالان . وقيمتهما هي قيمة الأمثلة ، أعني لا قيمة كبيرة لهما ما داما مفصولين عن سياقيهما . ولكنهما يبيّنان مع ذلك ، ضمن بعض الحدود ، مدى ما يتصف به تفسير الأحلام من سعة وصعوبة وحركية .

المثال الأول

استولى الغضب على أحد المرضى بعد أن تكلم طويلاً جداً على اللون الأبيض الذي برز في حلم من أحلامه . وللوهلة الأولى ، كان ثمة إمكان للاعتقاد بأن اللون الأبيض يقابل رمزاً أوليا كالطهارة والتطهّر ، الخ . والحال أن هذا المريض يقول :

ـ الأبيض ، بالنسبة لي ، هو اللون الذي يتصف بأنه أكثر الألوان إثارة للقرف . انه لون الاستسلام .

ويتضح إذن أن المحلل كان بامكانه أن يندم بعد لحظات لو أنه ، على هذا اللون الأبيض ، طبّق الرمز الذي كان قد قدّمه « المعجم » إليه .

المثال الثاني

الموضوع حلم ليلي :

ـ كنت في سيارة انسيابية ، أجري بهدوء في قلب غابة . وكانت الشمس ساطعة تقذف باشعتها . وكنت أتوجّه نحو فرجة كانت تتّسع بفتحة عميقة في الأشجار الملتفّة .

ماذا يمكن أن تكون التفسيرات ؟ انها منوطة بالحالة الداخلية الراهنة التي يوجد فيها الحالم .

ويمكن النظر الى هذا الحلم وفق مستويين : مستوى اللاشعور الشخصي أو مستوى اللاشعور الجمعي . ولكننا ندرك أن المريض لن يلامس اللاشعور الجمعي بالتأكيد ، ما دام « يتعثر » بمشكلاته الشخصية (انظر « ما هو اللاشعور الجمعي » في بداية هذا الفصل) . وبعبارة أخرى ، ما دام سطح البحيرة مضطربا بفعل العاصفة ، فمن غير المجدي أن نحاول رؤية الأعماق الكبيرة .

ها هما إذن تفسيران ممكنان لهذا الحلم نفسه :

أولا ــ على مستوى اللاشعور الشخصي

السيارة **الانسيابية** ترمز الى **القضيب** : إنها محدّبة ، ثاقبة ، وهي تنفذ كالقضيب .

ويتضح في الحال ان الفتحة في الغابة ترمز الىالعضو الجنسي المؤنث.

فالحلم إذن حلم جنسي بالمعنى الواسع . ويمكن أن يعني : آ) عودة الى رحم الأم (انظر « صوب الجنين ») ، أو قد يعني : ب) ثمة رغبة في الانكفاء وغشيان المحارم مع الأم . فنحن في مجال **عقدة أوديب** و **عقدة الخصاء** . وتحدث هذه الرغبة في غشيان المحارم تحت بصر **الأب (الشمس)** الذي يتصف بأنه **محرق** ، وبالتالي مهدّد ، ويحتمل أن « يسحق » ويخصي الابن الذي يرغب في أن تكون أمه له وحده .

ثانيا ــ على مستوى اللاشعور الجمعي

لا يمكن أن نقدّم التفسير التالي إلاّ اذا لم يعد للحالم اي مشكل يتعلّق بـ **« أمه الخاصة به »** .

يمكن لهذا الحلم أن يعني :

ــ السيارة المحدّبة تلمع تحت الشمس : انظر الاله والشمس في هذا الفصل .

ــ إنها شبيهة بسلاح **الأبطال** الشمسيين البرّاق ، أو بسيوفهم المتوهّجة . فالحالم أنجز كليته بوصفه رجلا : انظر الشمس والأبطال الشمسيين في هذا الفصل .

ــ يعود البطل الى اللاشعور (الغابة) . وبدلا من ان **ينكفىء نحو** أمه ، **يتقدّم** نحو **الأم** ، نحو الانسجام الكلي (الطبيعة) : انظر الأم في هذا الفصل .

والحالة الأخيرة تبيّن أن المريض بلغ مرحلة متقدمة جدا في تحليله النفسي : وهذا مشكوك فيه . الأمر الذي يعني أنه في الطريق الى التحقيق النهائي لشخصيته .

وغني عن البيان أن احلاماً اخرى (اساسها الانماط الأولية) تظهر ، قبل ظهور احلام من هذا النوع ، بكل ما يرافقها من « تشعبات » في الشخصية يفترضها ذلك ، اذ أن المرء يشعر ، كما قلت سابقاً ، بضرب من « الصدمة » عندما يتجلّى للشعور نمط أولي .

٢ ـ لنعد الى العلاج النفسي الرمزي

الطريقة الرمزية ، كما قلنا سابقاً ، يمكن استخدامها كما هي. ويمكن كذلك أن تتدخل خلال تحليل دقيق . ويمكن أن تتدخل ، كما بيّنت ، لكي تنتهي « حالة التوقف » لدى مريض . وقد نستخدمها لكي نعيد بناء الشخصية ونوحّدها بعد أن تكون مدحلة التحليل النفسي قد مرت عليها .

والمؤكد أن العمل الرمزي ينبغي أن يبحث عن أكبر نجوع علاجي . ولا بد له من أن يناسب كل شخص ، وكل حالة ، وكل مرحلة .

يضاف الى هذا أن بالامكان استخدام هذه الطريقة الرمزية عندما يكون الشخص عاجزا عن مباشرة تحليل نفسي دقيق .

ولن ادخل هنا في اي تفصيل تقني خاص بالعلاج النفسي الرمزي . وحسبي أن أضرب امثلة تتصف ، على ما يبدو لي ، أنها تتحدّث بنفسها . وسيلاحظ القارىء أن مشكل الأم يتكرّر على الأغلب ، الأم بوصفها في عداد الأنماط الاولية الاكثر قوة .

حالة جاك

جاك بلغ الخامسة والعشرين . إنه عازب ويعاني مشاعر عميقة من الدونية والاثمية ، ويعاني إحساساً بالعجز إزاء الحياة .

اليكم جزءا من جلسة من الجلسات :

ـ الحياة ، إنها شبيهة بالسلّم . أنا ، ما فعلت قط غير النزول ، ولكنني أريد الصعود . نعم ، نعم ، ذاك يحدث ... أرى سلّما يصعد ... انه لا يمضي عاليا جدا .

ولكن ، ثمة أخيرا عشرية تامة من الدرجات مع ذلك ... اراها جيدا ... كما لو اني كنت عليها ... واشعر أن قدميّ في أرض غضارية تمسك بهما ... واحسّ أن هـذه الارض تتحوّل الى يدين تمسكان بعرقوبيّ وتمنعاني من التقدّم ... ثم هناك امرأة منتصبة بصورة مستقيمة كل الاستقامة ، تقف فوق درجات السلم ...

ـ من هي هذه المرأة ؟

ـ انها تعتمر خوذة ... انها نوع من الولكيري(*) ... ومعها سلاح ذهبي يلمع ... انها تضحك مشيرة باصبعها اليّ ... وتمسك سيفا يابانيا ... ماذا عليّ أن افعل ؟

ـ ... (صمت المحلّل) .

ـ انني أتسلّق ... وأحس بانني أسحق بكعبي تلك اليدين اللتين تمسكان بي . ثمة درجة تتكسّر . أي احساس هذا الذي يمكن للمرء أن يحس به ! ... ومع ذلك ، فانا يقظ بصورة تامة وواعٍ بصورة تامة ... وارى هذه الولكيري التي تنظر اليّ ... انها تبدو قلقة ... ثمة سلّم آخر خلفها بدا ، سلّم لامع يصعد عاليا جدا ... احس بانني من هنا ينبغي أن أمضي ... ولكن هناك هذه المرأة التي تسدّ طريقي ...

ـ من يسدّ الطريق ؟

ـ سأصعد لكي أتأكد من ذلك . انني أعلم أن هذا كله حلم شعوري ، ولكنه يثير حصري كثيرا مع ذلك ... انظر الى السلّم اللامع وكأنه وعد محرّم ... والحقيقة ، كنت أعتقد ان ذلك كان محرّما بالنسبة لي ، لانني كنت أعتقد بنفسي عاجزا ... ولكن ... هل هذه المرأة تسدّ طريقي حقا ؟ ألست منخدعا ؟ أجد نفسي أمام هـذه المرأة ... انهـا تضع قناعا ، وسلاحها الآن ... مرميّ بالأرض . انه أصبح حديدا أبيض . أليس ذلك هو الذي كان يخيفني ؟

ـ حاول أن ترفع هذا القناع الذي تلبسه .

ـ انه لأمر مضحك . رفعت هذا القناع عنها بصورة هادئة جدا ، كما تُرفع ضمّادة الجرح ... واتخذت احتياطات كثيرة . ... في حين انني كنت أعتقد بأني سأقتلع ذلك بخشونة غريبة ... ان وجه أختي هو الذي يبدو خلف هذا الضماد ... وجهها حزين ... انها تحرّك رأسها ببطء ... واشعر بجانب اختي على انني أخ ... أمر غريب ، لم أعد اشعر

---

(1) الولكيري : الهة في الميثولوجيا السكندينافية ، مسؤولة عن قدر المحاربين « م » .

أنني كصبي صغير . وقالت لي انها أخفقت في حياتها ولا تريد أن أعاني المصير نفسه ... انني متسمّر في مكاني ... كانت تخيفني ، وها أنا أتردّد في تركها لكي أصعد الى أعلى ... فأشارت لي الى السلّم اللامع ...

ـ هل تلاحظ ؟

ـ نعم ، أنظر بحدة ... ثمة شعاع من نور ... يصبح ... ضربا من القرص الأصفر ...وأرى نفسي أمام القرص أوشك أن أبارز رجلا خرج منه ... وبارزت بالسيف . انني أرتدي دثار المبارزة اللامع ... انه يقذف برقا ... وانظر مذهولا... وأرى نفسي بالوضوح الذي أرى به على شاشة سينمائية واسعة ... أقاتل لاني احس برغبة في أن أتجاوز . ولكن أتجاوز ماذا ؟ هل سأمضي لأرى أبعد من القرص ؟ القرص يكمد ... ويطير ... أنظر اليه يذهب وأنا أشير اليه ... والآن أشعر في هذا المكان كما لو أنني كنت فيه ، ولديّ انطباع بأنني ، كيف أقول ... احترق بشدة في الداخل ... انني ... ولكن ماذا تجاوزت ؟

وهنا يبدأ جاك بالانتحاب انتحابا عميقا وطويلا .

فلنقف هنا لكي نفحص بسرعة هذا « الحلم » الذي جرى دون أن يكون على عالم النفس الممارس أن يتدخل بصورة واقعية .

ماذا نرى إما على نحو مباشر وإما بفعل تداعيات الأفكار التي أجراها جاك ؟

الأرض الفضارية . يقوم المريض بالتداعي من تلقاء ذاته ، بصوت خفيض جدا .

إنها رائعة ، الأرض ... هنا ، إنها من الدبق ، من الفضار الذي يحول بيني وبين الصعود ... أنا ، لم أخرج بعدُ من غضاري ... أبي وأختي كانا هذا الفضار . صنعاني بحسب أسلوبهما ، ولكن دون أن يمنحاني الحياة ... وحالا بيني وبين أن اكبر ... نعم ، إنها مع ذلك رائعة جدا ، الأرض ... فهي تهب الخبز للناس ، والقمح ... والانسان خرج من الأرض ... وأصبح جسما وروحا ... إنها رائعة ، الأرض ، عندما تغمرها الشمس ...

ويتضح هنا ظهور رمز **الأرض الأم** . واذكّر بأن الارض مرتبطة بالخصب أبد الدهر . والأرض التي يُخصبها الماء والشمس تحمل الثمار . إنها الأرض المغذّية ، الأرض الأم . فمن الطبيعي إذن أن يكون الناس قد شبّهوها بالمرأة دائماً . والأرض الخصيب تُفلح بسكة المحراث ، وسكة المحراث ترمز الى القضيب المذكر الذي « ينبش » أحشاء الأرض . ومع ذلك ، فان هذه الأرض الأم لا تزال ، بالنسبة لجاك ، من الدبق ، ومن **الفضار** . إنه لم يخرج بعدُ من هذا الفضار . ولم يتلقّ بعد « **نفحة الحياة** » التي يهبها **الخالق** الى الانسان الذي تصنعه الأرض .

ماذا يحدث أيضاً ؟ يشعر جاك بأنه يسحق اليدين اللتين تمسكان به . والمقصود انفصال عنيف وشرس .

ورأى جاك ، في الليل التالي ، حلماً بالاضافة الى ذلك ،حلماً رأى نفسه أنه في صِراع مع أخته ، الأمر الذي لم يكن يجرؤ على فعله في الواقع . وغمره هذا الحلم في حَصَر عميق خلال بضعة أيام ، ثم حدث ضرب من التحرّر .

وقال بعد ذلك بقليل :

ــ **لجموا دائما شخصيتي** الى حد انني كنت أشعر بالإثم لان لي شخصية ! ولكن اليس الانسان اثما مع ذلك لان له شخصية ؟

● **السلّم** . السلم يصعد في هذه الجلسة . ونحن ندخل هنا في رمزية **الصعود** . فلا يخطر ببال شخص أن يقول : « إنني « أصعد » نحو الظلام ، نحو ماضيّ » . فالانسان « يصعد » نحو النور ، ونحو المستقبل ، ونحو الروحانية ، كما يصعد نحو السماء .

يضاف الى هذا أن درجات السلّم ترمز الى « تغيّر في المستوى » ، مثلما رأينا ذلك .

● **الولكيري** . إنها المرأة المحاربة ، المرأة الخرافية التي تخطف الأرواح . وترمز الولكيري ، هنا ، الى سلطوية الأخت على سبيل الحصر ،

تلك الأخت التي قامت ، بالنسبة لجاك ، مقـام الأم التي تتصف ، في الحقيقية ، بأنها مستبدة جدا . ويرمز السيف الى « الخصاء » الذي عاناه الفتى : تجريده من شخصيته ورجولته . يضاف الى هـذا ان جـاك قال فيما بعـد :

ـ لم أقل لك ذلك ، ولكنني عندما رأيت الولكيري ، أحسست احساسا جسميا مرعبا، كما لو أن ثمة من سيقطع عضوي الجنسي ، وكما لو انني ساصبح امرأة ...

ومع ذلك ، استحال سلاح الولكيري الى **حديد أبيض** بعد أن صعد جاك بعض درجات السلم ، إذن ، بعد أن حلّ مستوى جديد لدى جاك محل المستوى الذي كان له من قبل . ولنلاحظ أيضـا أن « الأخت المرعبة » تصبح بعد ذلك أختا أماً . وتستعيد وجهها الحقيقي ، وجهها الحزين . ويحس جاك ، في هذه اللحظة ، بأن سلطوية أخته لم تكن سوى ضرب من الدفاع الذاتي . فتصبح الأخت المرعبة أما نصيراً ...

● **القرص الأصفر** . يذكّر بالشمس . **والسيف** هنا رمز **الرجولة** ، ورمز القضيب الذي « يثقب » . ويتبارز جاك مع الرجل الذي خرج من الشمس . وهذا الرجل يرمز الى **أبيه** . ويرى جاك نفسه في دثار مخصّر لامع . فنحن نلتقي هنا بالرمز الرائع ، رمز « البطل الشمسي » . وذلك يعني أن جاك ، من الناحية الرمزية ، أنجز ما كان عليه أن يفعل منذ زمن طويل : أن يتصارع مع أبيه (من الناحية النفسية) ، ويصل الى التكافؤ معه ، ثم الى تجاوزه .

وفي هذا الحلم ، يصبح جاك في الحقيقة « شمساً فتيّة » (إنه يرى نفسه يرتدي دثاراً مخصّراً لماعا . فالابن يحلّ محل الأب . والواقع أن الشمس (الأب) تكمد وتطير وتختفي . وينفصل الابن ، وقد بلغ سن الرشد ، عن أبيه ويبقى وحيداً . ثم إنه يمدّ يده الى أخته التي اكتشف وجهها الحقيقي .

وعلينا أن لا ننسى أن جاك عاش هذا الحلم بصورة عميقة . وكـان يقـول :

ـ كنت أحس بأنني أعيش هذا الحلم بكل جسمي ، وكل أعصابي ، وكل عضلاتي ...

وتجرّأ جاك ، فيما بعد ، أن يعود الى ذكريات الطفولة التي كان يرفض دائماً أن يتصدّى لها ، لأنها مؤلمة جدا . وتجرأ جاك أن يفحص سلوك والديه بموضوعية ، لا من خلال عدوانية وحشية كانت تثير مشاعر عنيفة من الإثمية .

واصبح الإنكار اللاشعوري ، هنا كذلك ، موضوعية واعية .

جزء آخـر من جلسة

موضوع كلامنا صبيّة جامعية تابعت حديثها دون أي تدخل مـن عالم النفس . وتمّ ذلك في اثناء جلسة مـن جلسات التحليل النفسي الدقيق .

ـ واستمر هذا ، تشتتي ، وافكاري الغريبة ، وخوفي من الآخرين ، وحواري مع ذاتي ... فأنا ، طيلة النهار ، متوتّرة ومهمومة وقلقة . وارقب الآخرين لكي أعلم رأيهم بي ، فأنا أترصّد أقل كلام . وعبثا أقول لنفسي : « ولكن ماذا يمكن أن يفعل ذلك لك ؟ » . انه أمر أقوى مني ، وذلك يمضي على نحو سيء جدا . فأنا عصبية ومتوتّرة ، صه ، لقد قلت هذا من قبل . كنت اول امس عند أحد الاطباء . قال لي انني كنت اتوهم وان ذلك ذو منشأ عصبي . انظر ماذا يقول . وقال لي : انصرفي مع خيالاتك وقومي بالتنزه في حديقة مـن الحدائق . ولكن أي حديقة ؟ ... انني حديقة ليست ذات اتساع ، وليست دائرية ولا حفيّة ، تسدّها الأسوار . ومع ذلك ، أعلم أن ثمة حقولا وراء السور ...

ـ ... (المحلّل صامت) .

ـ اشـعر بأنني مغلقـة ، حبيسة ذاتي . والشخصية الموجودة فيّ تقتـل شخصيتي الحقيقية .انني اتخيّل جيدا هذه الحديقة التي تمثّلني . فليس فيها نبات ، بل يسودها الغبار والجدب . وثمة شجرة غير نامية موجودة في وسطها . فهل من هذه الشجرة ينبغي أن ينطلق كل شيء ؟ وثمة ينبوع قرب هذه الشجرة وعلى يمينها ، ينبوع مصاب بالفُواق مثلي . انني مصابة بالفواق في الحياة ، وأتقدّم بقفزات صغيرة ... ارض الحديقة رخوة ورطبة . والرطوبة تذكّرني بالمرأة ، وهذا ... هذا يثير تقزّزي ... اكره أن اكون امراة بسبب ذلك ... ولو لم يكن الطمث موجودا ، لقبلت أن اكون امراة ... ومع ذلك ، فهي

أرض رطبة ... (**صمت طويل**) . فلاح للحديقة ، انه أمر رائع ... (الصوت منخفض اقصى ما يكون **الانخفاض**) : نعم ، رائع **الفلاح** ... (**صمت طويل جدا**) .

ــ ... (المحلّل صامت) .

ــ كآبة ، أوراق ميتة ، وكنّاس يرفع كل ذلك . فهل هذا الكنّاس هو الموت أو الأمل؟ هل هو الفلاح ؟ هل هو أنت ؟

ــ وكيف هي شجرة الحديقة ؟

ــ منحنية ، انها منحنية : مثلي . انني ملتوية ، منحنية نحو الارض كما لو أنني أحمل العالم ... واعتقد دائما أن الناس سيجعلوني سخرية ، وأنهم ... أنا ، انني أقوّض الاسوار ... ولديّ الانطباع دائما بأن الناس ينظرون اليّ .. لديّ انطباع بأنني موجودة بجانب هذه الشجرة غير النامية وبأنني أحاول أن أقوّم انحناءها ... ولكن دون جدوى ... أرى الآن رجلا يبتسم بجانب هذه الشجرة ... انه الفلاّح ... وها هي هذه الشجرة مستقيمة فجأة ، وتكسوها الاوراق والثمار ... أحس بما يشبه العذوبة اللامتناهية ... والآن أرى الينبوع الذي يسيل بهدوء والذي يسقي الارض ...

لنلاحظ هذا الجزء من الجلسة . فالصبيّة « تسلسل » حلمها دون ادنى دعوة من المحلّل . والحلم أثير على سبيل الحصر بفعل مجرد الارتباط بالحديقة التي تحدث عنها الطبيب اليها . ولنقتصر على النظر في الرموز ذات الاهمية ، علاوة على الحديقة التي توحّدت بها الصبيّة .

● **الأرض** . لم يكن يتعدّى الأمر في البداية مجرد ضرب من الارتباط . إنها رطبة . وتفكّر الصبية بالأعضاء التناسلية المؤنثة . والحال أنها كانت دائماً ، بصورة لاشعورية ، ترفض دورها ، دور المرأة ، لأنها قد توحّدت بأم كانت الصبيّة تكرهها .

ثم يبدو رمز جميل :

● **الفلاّح** . الفلاح « ينبش » الأرض ، ويبذرها ، ويحفر فيها الأتلام ، ويجعلها **خصبة** . فنحن ننفذ إذن هنا الى رمز **الأرض** ، **والمرأة والأم** . ولنتذكر كذلك أن الأدوات المستخدمة في « العمل » في الأرض ، كالمزقة والسكة والمنكوش وغيرها ، هي رموز القضيب ، إذ أن هذه الأدوات تنفذ الى الأرض . والفلاح - في هذا المجال ، هو الذي يُخصب .

وتظهر الصبيّة ، بلهجة صوتها وضروب صمتها ، **انها تقبل إمكانية** ان يُخصبها رجل من الرجال . يضاف الى هذا انها تظهر أيضا قبولها أن تكون في حمى الرجل : الفلاح يكنس الأوراق الميتة والهموم والذكريات القديمة والكآبات المزمنة . . .

● **الشجرة** . الشجرة منحنية : إنها صورة تبيّن الحالة الداخلية للصبيّة . ويبدو الفلاح بجانب الشجرة . وهذا الفلاح ، هنا ، يمثل **الرجـل** الذي « يقوّم » الحالة الداخلية ، ويتيح الخصب للشجرة . فتصبح الشجرة مستقيمة ، محمّلة بالثمار **مثل أم** (١) . والشجرة هنا رمز المرأة التي تمّ إلقاحها . يضاف الى هـذا أن الينبوع أصبح مـاء قويا يمتزج بالأرض لكي يخصبها .

جزء قصير من جلسة

موضوع حديثنا رجل في الثلاثين ، باشر عملاً سيكولوجيا بسبب « الخجل » . وكان يجهل أن خجله لم يكن سوى التعبير عـن العواطف اللاشعورية ، عواطف الإثمية . وكان قد ربّاه أبوان قطّرا له الخوف من الخطيئة ومن أتفه الأخطاء . ومنعاه ، بفعل ضرب دائم من المراقبة ونزعة التدقيق ، خلال خمسة وعشـرين عامـاً ، من أن يحتفظ بشخصيته على الاطـلاق .

فشخصية هذا الرجل كانت إذن قد بقيت محصورة . وكان إحساسه الدائم : « **لا اكاد املك الحق في الوجود . ولست موجوداً إلاّ تبعا لما يسمح به الآخرون** » . وظلّ هذا الإحساس لديه لاشعوريا .

وبعد أن تكلم المريض على عزلته الداخلية طويلا ، طلب اليه المحلل أن يجعل عزلته مرئية ، وان يجعلها تظهر في صور .

---

(١) **الشجرة المثمرة هنا مقبولة مع احساس بالعذوبة . ومع ذلك ، انظر الجلسة التي تعقب الجلسة التالية ، حيث تظهر كذلك شجرة مثمرة ، ولكنها يُنظر اليها نظرة قرف بالرغم من انها تمثل الرمز ذاته .**

ـ صورة عزلتي ! نعم ... أرى جيدا جدا ... انني في قلب الوسط من ... سهل من ... لا ... انه بالحري ، انه بالحري امتداد مترامي الاطراف من الالمنيوم الممتد حتى الافق من جميع الجهات ... والطقس بارد الى حد يتأوه الانسان منه . انني فيه وحيد ... وليس ثمة غوث من أي جهة ... (**صمت طويل جدا**) . ثمة طائرة تمر في السماء ... انها شبيهة بعصفور كبير خرافي ... سوداء فاحمة ... تطير على ارتفاع منخفض ، وتتجه اتجاها مستقيما نحوي ، وتتخذ شكل الانقضاض ... وارى على متنها رجالا يعتمرون الخوذات ويضعون النظارات . ينظر الرجال الي ، ويعدّون رشاشاتهم ... والطائرة تنقضّ دائما ... تقتلني ، وتعاقبني ... (يرفع المريض صوته ويبدأ بالصراخ) : ولكنني ماذا فعلت اذن حتى يقتلوني ؟ هل يريدون قتلي ، أو هل أنا الذي اريد ان أقتل نفسي ؟

هذا الجزء واضح بالتأكيد ، بالرغم من ظهور رمز قوي فيه . **والطائرة السوداء** هنا عصفور العذاب والموت : فهي رمز القصاص . فعلينا ان لا ننسى ، والحال هذه ، أن هذا الرجل كان يشعر دائماً بالإثم وكان يعاني الاحساس بوجوب تلقّي القصاص .

وتحتوي الطائرة السوداء رجالاً **يعتمرون الخوذات ويضعون النظارات** . فهم إذن غير معروفين . إنهم يمثلون العذاب الآتي « من الأعلى » . والعذاب هو « الانتقام » الآتي من السماء اذا صح القول . وهنا نمس رموز القصاص السماوي، والصاعقة أكثر هذه الرموز تكراراً .

ومع ذلك ، تكلمت على **الصحون الطائرة** التي يعود نجاحها الى كون الناس يرغبون بصورة لاشعورية في أن يكون على متنها موجودات عليا ، مكلفون بـ « إنقاذ » الناس وقيادتهم نحو « أرض موعودة » . والطائرة السوداء ، هنا ، هي صحن طائر « بالمقلوب » ، إذا جاز لي أن أقول ذلك . ويبدو في نهاية هذا الجزء ، مع ذلك ، أول ضرب من احتياز الشعور بعاطفة الإثمية والحاجة الى القصاص .

ـ ماذا فعلت إذن حتى يقتلوني ؟ هل انا الذي أريد ان اقتل نفسي ؟

واليكم ايضا جزءاً من جلسة :

اخترت هذا الجزء قصيراً جدا ، لان المرء يرى فيه ظهور الرمز الذي ظهر في جلسة الصبيّة الجامعية ، ولكن الاحساس به هنا إحساس على نحو متعارض كل التعارض .

ـ انها روضة واسعة ... وثمة شجرة ضخمة كثيفة ... محمّلة بالتفاح الضخم على نحو غريب ... ولا اعلم لماذا ، ولكنني احس بغمّ غريب ...بتقزّز على وجه التقريب ...

لماذا كان هذا الشخص ، الشاب ، يحسّ بمثل هذا القرف امام شجرة مثمرة ؟ وهذه هي تداعيات افكاره حول هذا الموضوع :

ـ هذه الشجرة تجعلني أفكر ب ... لا اجرؤ على القول ... بتنّورة ... ولدي انطباع بأنني لو ُوجدت تحت هذه الشجرة لكنت تحت تنورة امراة ... وبأنني ارتكب ضربا من ... وبأنني استرق النظر ... وشجرة التفاح هذه تجعلني افكر بامراة حبلى ذات صدر ضخم وبطن كبير ... وهذه الثمار هي التي تثير تقزّزي على وجه الخصوص . انها مع ذلك رائعة ...

هذا الجزء يتحدّث بذاته . فهذه الشجرة المثقلة بالثمار ، المستديرة والكثيفة ، تمثّل **المراة** . وهذه المراة ، في هذه الحالة المحدّدة ، هي أم المريض . وهذا المريض مصاب ب **عقـدة اوديب** (1) . إنه كبت انجذابه الجنسي نحو امه . يضاف الى هذا ان امه كانت « متعلقة » به تعلقا قويا . والحقيقة ان الأم والابن قد حققا ضربا من « الثنائي » كان يتمرد الابن ضده دائماً ... وهو ينمّي في الوقت نفسه نوعاً من الخضوع الكامل لأمه.

جـزء آخر من جلسة

موضوع الحديث مريض ، عامل ذكي ولكنه لا يتمتع بأي ثقافة رمزية

---

(1) انظر « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » .

أمكنها التأثير عليه . إنه يتكلم على وحدته ومخاوفه ، ودعي الى أن يدع المجال لظهور صورة تمثل حالتـــه .

ـ ميّال الى الوداعة ... أخضر مزرقّ ... كالقمر ... كالماء ... القمر والماء . هذا لا يتحرك ... ثمة قارب ساكن ... انني لا أرغب في ركوبه لكي أمضي لرؤية الجانب الآخر من الماء . فهل ثمة على وجه الاحتمال شمس في الجانب الآخر ؟ ... ميّال الى الوداعة ... عدم ... أرى منظرا قمريا ... باردا ... أبيض ... ينساب في هذا الماء ... ومع ذلك ، أليس هذا السكون ضربا من الوعد ؟ ... من العدم ؟ من الحياة الممكنة ؟

إننا هنا إزاء رمز رائع جدا يصبح إيجابيا في النهاية بعد أن كـان سلبيا في البداية . **القمر والمـاء** هما ، هنا ، رمز الموت . ثمة رغبة لدى المريض في الانتحار : غواية الانزلاق والانسياب في الأعماق الساكنة والعودة الى العدم . إنه **ضرب من العودة الى « رحم الأم »** ، الذي تكلمت عليه فيما سبق ، يمثل الوضع الانساني قبل الولادة مع ما يتصف به مـن عدم الوعي السعيد ، الخالي من المشكلات والصعوبات والمسؤوليات .

ثمة **قارب** يبدو . فنحن هنا في مجال الرمز الرائع ، رمز **العبـور** (انظر عنوان « خامساً » في هذا الفصل) : على البطل ان يعبر امتداداً من الماء لكي يبلغ حياة جديدة ويصل الى النور (« **هل ثمة على وجـه الاحتمال شمس في الجانب الآخر** ؟ ») . إنها قصة يونس وكثيرين آخرين . ولكن القارب يظل ، في اللحظة الراهنة ، ساكنا ، والعبور لا يتم .

ومع ذلك ، يطرح المريض على نفسه السؤال التالي : « **هل هذا الماء ضرب من الوعد** ؟ » فنحن ندخل في رمزية **مـاء الحياة** . والمقصود مـاء ساكن بالتأكيد ، ولكن ثمة إمكانا لانبجاس خلق منه (كمياه النشوء التي سبقت ظهور الأرض) . والمريض يشير الى ذلك : يحتوي هذا الماء على عدد كبير من البذور ، وهذه البذور يمكن أن تصبح حياة .

٣ ـ الخلاصة

فوائد هذه الطريقة عظيمة جدا على الغالب . ولكن من الضروري الوصول الى أن يعيش المريض حلمه بعمق . ويحدث غالباً ، بالاضافة

الى ذلك ، أن يحس المريض بحلمه ، على نحو يمضي الى الحد الأقصى ، حتى في عضلاته . فهو لا يمثّل حلمه تمثيلاً ، بل يعيشه . وتقدّم هذه الطريقة ، مثلما قلنا سابقاً ، فوائد عديدة : ينتعش التوتر السيكولوجي بسرعة على الغالب ، متيحاً على هذا النحو ضرباً من التحليل في العمق ، تحليل أكثر تنقيباً ، دون أن يحدث الحصر . ويمكن إذن لهذه الطريقة أن تمنح كثيراً من الحيوية . وهذه القوة الجديدة يمكن استخدامها في العمل وقتاً أطول (ولا أتكلم هنا على البحث عن ذكريات الطفولة) .

وتتيح هذه الطريقة كذلك أن نتوصل الى « عزل » بعض المضامين اللاشعورية . وتقوم هذه الطريقة أيضاً على ترك الفرد ينقاد الى لاشعوره الذي يملك المعارف القيّمة عن حاجاتــه الحقيقية ، ويمكن أن تقــود نحو تكاملهــا .

وكل شيء منوط بالمريض أيضاً . فبعضهم يسلسل حديثه انطلاقا من صور ، كما قد يسلسلونه انطلاقاً من كلمات (انظر ثانية ، حول هذا الموضوع ، مثال الحديقة) . وبعضهم الآخر يحتاجون الى الإرشاد ، خطوة خطوة ، في ارتيادهم الدهاليز . وآخرون يتركون حقا أنفسهم « تنساب » في لاشعورهم بكل ما يمكن أن يمثّله ذلك من أخطار لو لم يكن يرشدهم عالم النفس . وعلينا أن نتذكر أن اللاشعور يحتوي غالباً على تجارب مكبوتة من الأفضل عدم مواجهتها مواجهة صريحة .

هذه الامثلة القليلة العدد قصيرة جــدا بالتأكيــد . وهي ذاتهــا مستخلصة من أجزاء أطول ، ومأخوذة من عمل سيكولوجي طال زمنه . إنها محدودة جدا ، ولا يمكنها أن تقدّم غير فكرة غامضة جدا عن العلاج النفسي الرمزي وعن إمكاناته الواسعة في بعض الأحيان .

وعلينا أن لا ننسى أن **رمزاً من الرموز ليس رأيا من آراء الفكر** . بل إن الرمز مشحون بالانفعال والطاقة ، ويتوطّن في موجودات من لحم ودم . فالصور والرموز تصبح ، في العلاج النفسي الرمزي ، وقائع يحسّ بها الفرد إحساساً عميقاً . ومن الغريب في بعض الأحيان أن يلاحظ المرء

الى اي حد يمكن لرمز من الرموز أن يجعل ضرباً مـن الطاقة الهائلـة ينبجس ، ويزيد النشاط النفسي ، ويجعل الرؤيـة واضحة ، ويبني الشخصية بناء جديداً ويوحدها .

حادي عشر ــ اللاشعور الشخصي

اللاشعور الشخصي يتحدّد بذاته : إنه جزء من اللاشعور الذي يتكوّن وفقاً لتجاربنا **الفردية** وتاريخيتنا **الشخصية** . ويفهم المرء بصورة مباشرة أن اللاشعور الشخصي يكون على الغالب ملوّثاً ومريضاً .

وارتياده المعمّق أساسي في التحليل النفسي بصورة مؤكدة ، إذ أن حرية الأنا منوطة بـ « تنظيفه » .

التوجـه نحو العصاب

تكلمت على العصاب ، في مؤلفي الأول (*) ، بما فيه الكفاية بحيث لا حاجة للعودة اليه . ولنستعد مع ذلـك بعض المفاهيم الأساسية ، ولننظر في اللاشعور الشخصي من خلال وجهة نظر التحليل النفسي . ثم لنوسع مفهوم الكبت . اما فيما يخص العقدة ، فانني أحيلكم أيضاً الى كتابي الأول (أي الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث) . وأقتصر على « حالة » واحدة تبيّن الى أي حد ينبغي أن نتجنب اتخاذ العرض على أنه العقدة ذاتهـا .

لاشعورنا ، هـذا الواقي

يثير اللاشعور أمراضاً على الغالب ، والعصاب أشهرها . ولا بد من معرفة ما يلي قبل كل شيء : دور اللاشعور ، وقد رأينا ذلك سابقاً ، أن **يحافظ على التوازن** ، أو أن **يعزّز توازناً مهدداً** . فهل اللاشعور إذن

(*) ــ المقصود بذلك « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » .

حز ّأن محتواه أصناف الكبت والعصاب والعقد ؟ نعم ، بالتأكيد ، ولكن **لا بالمعنى الذي يفهمه المرء بصورة عامه** ، كما سنرى .

اليكم مثالاً : يمكن للاشعور أن يثير الحمّى . والحال أن الحمّى ، وإن كانت تحمي ، يمكنها أن تتجاوز الحدود الى الهلوسة والموت . وقس على ذلك معظم الآليات اللاشعورية ، آليات **الحمايــة** . فاذا تجاوزت حدوداً معيّنة ، فذلك هــو العصاب ، والحصر الكبــير ، والاغتراب العقلي أحيانا .

وعلينا أن لا ننسى أن مرض الانسان يمثل دائماً محاولة تقوم بها العضوية لتحقيق شفائه . وكل ما هو « مرضي » في لاشعورنا يتصف بأنه من الطراز نفســه .

١ ــ الكبت

الكبت آلية من آليات اللاشعور تحول دون أن يصل الدافع الى ساحة الشعور .

إن **فرويد** يعقد الموازنة التالية على وجه التقريب : ذلك كما لو أن شخصيات ذات شعر أشعث ، قذرة ، عارية كل العري « غير المعترف به » (الغرائز) ، كانت ترغب في أن تخرج من كهفها المظلم (اللاشعور) لكي تجتاح الصالة (الوجدان الأخلاقي) التي تصل فيها سهرة عالمية الى أوج نشــاطها .

بين الكهوف المظلمة والصالة المنيرة ، في الظليل ، يمكث رتل من رجال الشرطة : الأنا العليــا .

ويصعد الدافع الغريــزي ، الملتحي ، بعض الدرجات ، فيصطدم بقوات الأنا العليا ، وعليه أن يُبرز أوراقه . فاذا كان ثمة كبت ، رُدّ ساكن الكهوف الى حفره ، دون أي صورة أخرى من صور الدعوى . ولكن الشخصيات المنهمكة في الصالة **تجهل كل شيء** مما حدث .

وبعبارة اخرى : يجهل الشعور دائماً ان ثمة كبتاً قد حدث . ولا يعلم المرء بوجود الكبت إلا عندما تبدو الأعراض على السطح . فالحصر ، على سبيل المثال ، المحسوس بصورة شعورية ، يمكن أن يكون عرضاً من أعراض الكبت (اللاشعوري) .

لماذا يحـدث كبت ؟ ولماذا يظـلّ لاشعوريا ؟ إن الكبت يعمل على الدوافع الآتية من اللاشعور . وثمة كبت لأن الدافع يهدّد الشخصية بفقدان توازنها . فما التهديد ؟ وما المهدّد ؟ لقد تكلمت على الغرائز في فصل « خزّان الغرائز » . والحال أن الغرائز تجهل الأخلاق والمحرّمات والممنوعات والمباحات . واللاشعور يولّد الغرائز ، شأنه في ذلك شأن مفحم السيارة الذي يولّد بخار البنزين . فمن اليسير أن يفهم المرء أن ثمة « شيئا ما » يحدث بمجرد أن يكون **احـد الدوافع اللاشعورية** في حال من عدم الوفاق القوي مع الأخلاق اللاشعورية للأنا العليا . وهذا « الشيء » هو الكبت .

وما دام الكبت يتم انطلاقا من دافع قوي ، فانه دائماً مشحون بالطاقة والانفعالات . ولكن هذه الانفعالات لاشعورية كالكبت على حد سواء . فالانفعال وهذه الطاقة « يدوران » حول الكبت عندئذ كدوران الألكترونات حول النواة ...

ومع ذلك ، ينبغي انلا يتخيّل المرء ان كبت دافع من الدوافع يتم من وقت الى آخر . فهو يكبت دافعاً لأنه يمثل خطراً على شخصيته . ولكيلا يبدو الخطر ، **ينبغي أن يظلّ الدافع مكبوتا** ، الأمر الذي يقتضي بذل جهود لاشعورية مستمرة وكبيرة . مثل ذلك نهر (الدافع) يهاجم بصورة مستمرة سداً (الأنا العليا) يوقفه في كل محاولة من محاولاته في ان يسيل نحو الوادي (الشعور) . فثمة إذن صرف للطاقة دون جدوى ، وإضعاف للشخصية . وتفضي جملة من ضروب الكبت ، التي تستمر على الغالب طيلة حياة برمتها ، الى التعب والكفّ والاكتئاب . والسبب ان الحياة اليومية قد تكون بحاجة الى هذه الطاقة التي تجمّدت

بفعل الكبت الداخلي . ومثل ذلك مثل مصدر كهربائي كان عليه أن يغذّي مصابيح قوية غير مرئية ، وان يغذّي في الوقت نفسه مصابيح الاستعمال المنزلي التي يثير الدهشة مردودها الضعيف دون اكتشاف السبب .

عندما يكبت المرء جزءاً من شخصيته ...

نعلم الآن أن الرجل قد يكبت الجزء المؤنث من شخصيته ، وأن المرأة قد تكبت الجزء المذكر من شخصيتها (نصف الشخصية !) ، وأن بالامكان « إسقاط » هذه الضروب من الكبت بكل نتائجها الممكنة (حب ، زواج ، اختيار مهنة ، الخ) .

وسّع **يونغ** أيضاً مفهوم الكبت الذي اكتشفه **فرويد** . ولاحظ يونغ بالتجربة أنه كان ممكناً للمرء أن يكبت **وظيفة** من وظائف شخصيته .

فما هي الوظيفة ؟ يمكن موازنة الشخصية بدائرة مقسومة الى اربعة اقسام . وكل « ربع » منها يمثّل وظيفة .

ونلاحظ الوظائف التالية على هذا النحو :

● **الفكر** : الفكر وظيفة شعورية . إنه يقرّر ما هو موجود .

● **الاحساس** : وظيفة شعورية ولاشعورية معاً ، تتيح لنا أن ندرك الحياة إدراكاً عميقاً .

● **الحدس** : وظيفة لاشعورية تولّد « البداهات » ، دون أن تتدخّل المحاكمة .

● **العاطفة** : وظيفة ثانوية تتحد بالفكر والاحساس . إنها تخبرنا عما يبدو أنه يناسبنا .

ومن المعلوم ، بحسب التجربة الشخصية ، أن الوظيفة الأولى ، **الفكر** ، أكثر نمواً لدى الرجال ، وأن للنساء وظيفة ذات اهمية ، وظيفة **الحدس** (وكل هذا ليس سوى تخطيطية) .

ومع ذلك ، تشكل هذه الوظائف الأربع جزءاً من كل شخصية ، امرأة كانت أم رجلاً . ويدرك المرء تمام الادراك أن أي امرأة تتصف بأنها حدس **على سبيل الحصر** ، وبأن وظيفة « الفكر » غير موجودة لديها ، ليست سوى جزء من امرأة . كذلك فان أي رجل يتصف بأنه فكر **على سبيل الحصر** ، ودون حدس على سبيل المثال ، ليس سوى آلة حاسبة تثير الرثاء .

والمثالي أن نتوصّل إذن ، من خلال العلاج بالتحليل النفسي ، الى أن نعيد التوازن الى هذه الوظائف الأربع في قلب الشخصية وأن نوحّدها .

وقد يحدث غالبا ، والحالة هذه ، أن تكون إحدى الوظائف مكبوتة برمتها . ولنتخيل طفلاً يلجم عفويته باستمرار أب ٍ سلطوي . ولنفرض أن هذا الطفل يشعر ، بعد زمن معيّن ، بأنه آثم أو أحمق في كل مرة يحتفظ بشخصيته ، أي يكون عفوياً .

وبالتدريج ، يكبت الطفل إذن هذا الجزء من شخصيته ، الذي يمثّل التعبير عنه خطراً من الأخطار .

وسيقول في نفسه : « اذا كنت عفويا ، فانني أصطدم بمعارضة أبي التي تتصف بالاحتقار (أو بمعارضة أمي) . وأشعر بالإثم لكوني عفويا ، ولن أكون بعدُ عفوياً . وسأمثّل دوراً من الأدوار » .

ولنتخيّل أن هذا الطفل يكبت وظيفة **الاحساس** لديه . والحال أن هذه الوظيفة مشتقة من الغريزة . وقوامها « العفوية » و « الاحساس بالحياة » ، والانفتاح انفتاحاً واسعاً للوجود ، وكون المرء محتفظاً بشخصيته .

فاذا كانت هذه الوظيفة مكبوتة ، زال ربع الدائرة وكانت الشخصية مبتورة .

ولكن الفراغ لا بد من سده ! وإضعاف الشخصية لا بد من تعويضه

بتعزيز وظيفة أخرى . فتتضخم وظيفة اخرى وتنتفخ . ولتكن هذه الوظيفة على سبيل المثال وظيفة «**الفكر**» .

ولنتخيل هذا الطفل وقد أصبح رجلاً . فوظيفة « الإحساس » لديه مكبوتة ووظيفة « الفكر » لديه متضخمة . كيف سيكون هذا الرجل ؟ سيكون عقلانيا بافراط ، ويلجأ الى المحاكمة بدقة مغالية . ولن يعتمد إلا على عقله الذي يجري المحاكمات . وسيكون **مفصولاً** عن « إحساسه » ... وعن حدسه على وجه الاحتمال . ولن يصغي إلاّ الى حساب المحاكمات الجافة ، ولن يسمع أصواته الداخلية ، وسيكون هذا الرجل إذن عاجزاً عن الاحساس بشيء من الأشياء . وسيرفض ، رفضاً لاشعورياً ، أن ينقاد الى إحساساته وعفويته ، وسيفرض على نفسه ، بصورة لاشعورية ، تمثيل **دور** السيادة على الذات باستمرار ، ودور الكمال في الفكر والمحاكمة ، ودور الأخلاقية المزيفة والفضيلة المزيفة ، ودور الذكاء بأي ثمن ، الخ . وغنيّ عن البيان أن ذلك سيكون الكارثة في مجالات تقتضي العفوية ، مجالات الجنسية والصلات مع الغير ، الخ .

وقد يبدو اكتشاف هذه **الوظائف** الأربع اكتشافاً مجرداً ، أو أنه « رأي من آراء الفكر » . والحال أن ملاحظة هذه الوظائف الأربع وإعادة التوازن اليها تشكل جزءاً من العلاج بالتحليل النفسي . وتكوّن هذه الوظائف بنية الموجودات الحية . فاذا حرّرنا ، في التحليل النفسي ، هذه الوظيفة المكبوتة او تلك ، رأينا شخصية المريض تغتني وتتوحد ، مثلها مثل شجرة غير نامية اكتست بالثمار والأوراق والجذور .

ولنفترض أيضا رجلاً كبت وظيفة « الاحساس » لديه برمتها ... وكبت كل ما يدور حول هذه الوظيفة . فهو ، في الوقت نفسه ، يكبت الجزء المؤنث من شخصيته ، بالنظر الى أن وظيفتي الاحساس والحدس ذواتا مؤشر مؤنث . ولن يجرؤ أبداً أن يكون سلبياً ، ولن يجرؤ أبداً ان يكون مرناً ، ولن يجرؤ أبداً على أن يستسلم للحب ... ما دام غير قادر ، على الاطلاق ، « أن يكون عفوياً » ...

ماذا يحدث عندما « تصعد الى السطح ثانية » وظيفة من الوظائف في اثناء التحليل النفسي ؟ يحدث اول الأمر أن يستقرّ ضرب من التوازن ، وما كان متضخّماً يزول تضخمه . وعلى سبيل المثال ، سيكفّ هذا الرجل ، الذي كان موضوع حديثنا منذ قليل ، عن أن يكون عقلانياً **بافراط** ، ويمكنه أن « يدع نفسه على عفويتها » . وسنكون إزاء رجل جديد يعتمد على وظيفتين تتكاملان على نحو يدعو الى الإعجاب: الفكر والاحساس . وسيكون مختلفاً كل الاختلاف عما كان عليه من قبل . فثمة مجالات كاملة من الحياة تنفتح له ، مجالات كان يجهل وجودها .

ويصبح إذن : ١ ــ **متصفاً الى حد كافٍ بصفات الذكورة لكي** يفكر بوضوح وصفاء ، ويكون فحلاً دون مبالغة ، ويعطي ويحب ، ويهدي ويقود ، دون أن يكون متبجحاً ؛ ٢ ــ **متصفاً الى حد كافٍ بصفات الأنوثة لكي** يتلقى ، ويكون مرناً ، ويتمتع بالحياة ، ويستسلم الى مسراته الداخلية واللاعقلانية .

إنه إذن ، واكرر ذلك ، عالم جديد ينكشف عندئذ . ولكن الخطر يظلّ الخطر الذي رأيناه من قبل . فاذا « اختار » احد الرجال أصدقاءه وزوجته ومهنته ولهوه ، وبالاختصار ، إذا أقام حياته على ما **كان** ، تعرّض الى خطر أن يجد نفسه أمام كثير من العناصر التي لا تناسب ما هو **عليه** . ولكنه خطر موجود في كل تحليل نفسي ، خطر يتم على الغالب إبعاده بالذكاء والفهم . والواقع أن هذا الخطر قلّما يفضي الى إزعاجات جدية بالنسبة للوسط الذي يحيط به ، إلاّ إذا كنا إزاء وسط مصاب بالعصاب على نحو عميق .

٢ ــ العقد

اقدّم تعريفين مختصرين للعقدة ، ولكنهما واضحان :

تعريف يونغ : العصـــاب ضرب من تفكك الشخصية ، ناجم عن وجود العقد .

تعريف أدلر : العقدة مجموعـــة من النزاعـــات النفسية المشحونة بالطاقة الانفعالية .

والعقدة شخصية لاشعورية ، منفصلة عن الشخصية الشعوريـــة ومتعارضة معها . وبما أن العقدة مشحونة بالطاقة ، فان هذه الطاقة تظل **مجمّدة** . والشعور والارادة لا يستفيدان من هذه الطاقة إذا بقيت مجمدة . يضاف الى هذا أن عليهما أن يصارعا عدواً غير مرئي صراعاً خفياً . فثمة إذن كفّ ، وضعف في الارادة ، وانخفاض في التركيز ، ونقص في التلاؤم مع الحياة اليومية ، وتعب ، وتوتّر ، وإرهاق انفعالي .

ولهذا السبب كان فكّ العقد ذا أهمية كبرى في التحليل النفسي . وقد يكون الأمر متعلقاً في بعض الأحيان بـ « حوض » من الطاقة ما كان ممكناً للمريض أن تكون لديه فكرة عنه . إنها تجربة نفسية وجسمية ، إذ ان الطاقـــة غير المستخدمـــة تصبح جاهزة . وتزول ضروب الكفّ بالتأكيد ، وتختفي أيضاً صنوف من التعب او من المحدودية في العمل ما كان ممكناً لأحد أن يشرحها . ويبدو التركيز وسرعة الفكر مجدّداً . وهذا أمر يمكن فهمه بعد كل شيء ... إذ أن الشخصية تعود كاملة ، متحرّرة من جسم غريب « كان يتغذّى بدمها » .

إنني اضرب مثالاً يبيّن النزول في الأعماق نحو وضع عقدي(*) ، منطلقين من عرَض **يتواتر ظهوره كثيراً** .

حالة بول

الحالة التالية ، الموصوفة وصفاً يقتصر على الأساسي منها ، يمكن تطبيقها على العديد من الأعراض الأخرى . وانطلاقاً من عقدة مزعومة ، سنرى **الأنا العليا**[1] تعمل برشقات مسمومة ، وضرباً من الإثمية يقرض

(*) نسبة الى عقدة « م » .

(1) انظر في هذا المؤلف فصل « عندما الشيطان يقود الرقص » .

الشخصية ، وعقدة أوديب تبدو ، في النهاية ، على انها الشخصية الأخيرة في مشهد مأساوي .

وسنرى ان **الهوس** الذي تعانيه إحدى الصبايا لم يكن غير الشوكة الصغيرة ، الواخزة بالتأكيد ولكنها المستوطنة ، المغروسة في وضع عقدي عميق .

وبول امراة صبية بلغت العام السادس والعشرين ، تعيش مع ابويها . إنها جميلة جداً ولكنها تخاف خوفاً مذعوراً من الزواج ، وتعاني في الوقت نفسه لوناً من « الهوس » المنهك .

ـ تمنيت ان اتزوج ، ولكنني اخاف . ولا اريد ان اتزوج لأنني مصابة بـ « عقدة » الهوس . ففي المساء ، اقوم عشرين مرة بدورة في البيت لاتحقق من إغلاق الأبواب والمصاريع . ولا افلح في التخلص من ذلك ... واستأنف دون هدنة ... ولا بد لي من ان أبذل مجهودا كبيرا لكي أذهب للنوم . وعليّ ايضا أن استخدم حيلا لا يمكن تخيّلها حتى لا يستبين أبواي شيئا ... واستمر ذلك منذ سنتين وفي كل مساء ... وأصابني الإنهاك من هذا الصراع الذي تقف إرادتي عاجزة أمامه ... فكيف بمقدوري ان اتزوج في هذه الاحوال ؟ هل تظن بأن ثمة إمكانا لـ « رفع هذه العقدة » ؟

ـ إنها ليست عقدة . إنه مجرد عَرَض .

ـ هل يعني ان ثمة شيئا آخر اكثر عمقا ؟

ـ هو كذلك . وسنبحث عنه .

ـ آه نعم ! افضّل ان اكون عمياء على ان اعاني هذا **الوسواس** .

إن بول تقول ذلك : إنه وسواس ، شأنه شأن كثير من الوساوس ، يتعلّق هنا بإثمية لاشعورية .

ـ هل تملكين سيارة ؟

ـ نعم ، لماذا ؟ (**قالت ذلك بلهجة عدوانية**) . فهل تطلب من مالكي السيارات اجورا أعلى ؟

ـ يبتسم المحلّل .

ـ معذرة . لدي الانطباع دائما بأن العالم برمته يبحث عني ويحقد عليّ ... واشعر كما لو أن الناس يشيرون إليّ . ومع ذلك لم افعل قط شراً ! نعم ، عندي سيارة .

ـ هل ثمة بعض ضروب الهوس تبدو فيما يتعلق بالسيارة أيضاً ؟

ـ نعم ، ولكنها اقل شدة ... اتحقّق كل يوم ، ولكن من العسير عليّ ان لا اتحقق عدة مرات بعد ذلك . في موقف السيارات ، أسحب أبواب سيارتي بعنف حتى أكاد احطّمها لكي اتحقّق من أنني اغلقتها بالفعل إغلاقاً جيداً ... وفي بعض الأحيان ، أعود أدراجي ، كما لو أنني كنت اخشى أنني نسيت إغلاقها ، في حين انني اعلم علم اليقين انني أغلقت كل شيء .

ـ كيف تشعرين بنفسك في المجتمع ؟ هل تشعرين بالراحة ؟

ـ أوه كلا ، أبداً ... إنني دائما متصنّعة ، متصلّبة ، مستعدة للدفاع ... ولا أفلح أبداً في أن أكون عفوية ... ولديّ انطباع بأن الناس يلاحظونني ، وانهم يطلقون حكمهم عليّ ...

ننتقل مباشرة الى جزء آخر من الجلسة .

ـ ابي رجل عدواني ، واثق من نفسه ، واثق من نفسه دائما ...

ـ هل هو مغال في ثقته بنفسه ؟

ـ (تبتسم) اعتقد ، في الواقع ، ان ... كان يريد لأخي أن يتابع مهنته ، واجبره على متابعتها مع ذلك ...

ـ (يبتسم المحلّل) من اجل شرف اسم العائلة ؟

ـ نعم ... من أجل شرف اسم العائلة ... اما انا ، فقد كنت جديرة بالاطباق ... لم أكن سوى بنت ، أليس كذلك ! بنت ، هذه لا تصبح مهندساً ! ثم إن أبي كان يردّد لي بسخرية أن البنات ، هـذه كانت لا تمتطي الحصان وعاجـزة عن أن تنجز بعض الكيلومترات على الاقدام ، وعن أن تصطاد ، وعن أن ... (تنتحب) لم أكن جديرة بشيء ... وكل ما كنت أفعله كان سيئاً ، وموضع نقد .

ـ ...

ـ أبي ؟ لم نكن نعلم بمن نلوذ ... كنت أشعر بأنه كان **سجاناً ينبغي أن نبرر مسلكنا أمامه** ... ولكي أتجنّب سخريته ، كنت دائما في احسن لباس ، وكنت ... (**فضب**) ؛ وما كان ممكنا لي ان أخون الشرف ولا الواجب ولا الاحترام المفروض للذكور الاقوياء كل القوة . وهذا عدل كل العدل لو لم يكن عليّ ان اقبّل جزماتهم قبل ان المّعها . إنني أمثّل على الدوام دوراً ... وأراقب نفسي دائما ... ولا شيء مما كنت أفعله كان جيداً ... أبداً !

ـ (بهدوء) ألم يكن والدك ضعيفاً ؟ وأخوك ، ألم يكن مسحوقاً ، هو أيضاً ؟

ـ أبي ...؟ ولكن ماذا تقول ؟ ولكني كنت أعدّه هاتفاً إلهيا معصوما . وكان جميلاً وذكيا ! ومع ذلك ، حقيقي أنه كان حزيناً ... أعتقد انه لم يكن على وئام مع والدتي ... ولكنه كان يمثّل دوره تمثيلاً رائعا ... فلماذا كان على الاولاد أن يتحمّلوا عواقب الأمور في جميع هذه القصص ؟ إن علماء النفس يحسنون صنعاً إذ يهتمون بذلك !

ـ (يبتسم المحلل) إنهم يهتمون بذلك .

ـ آه ؟ (**صمت**) هل تعلم ؟ إنني مختلفة أمام الآخرين . أبحث دائما عن موقف يرضي الآخرين ... ولست عفوية أبداً ... ولا حرة بحركاتي ابدا ...

ـ الم تستطيعي قط أن تتكلمي مع والدك في جو من الثقة ؟

ـ أبداً . ما كنت لأجرؤ ، وما كان سيفهم شيئا . إنه كان سيتحصن بالمتاريس وسيهرب . وكان سينظر اليّ من علياء سخريته ... وثمة هذا الأمر أيضاً : **لا شيء يخيفني مثل كلمة « شرطة »** ...

ـ لماذا ؟

ـ لا أعلم ... كما لو ... لو تكلم الناس على احد ارتكب شرا ، شعرت بأن ذلك يتوجه اليّ ...

فلننزل

ماذا نرى في البداية ؟ نرى ضرباً من هوس التحقّق ، ووسواساً . ثم ماذا نرى ؟ **نرى أن أنا عليا آمرة ترتسم : لا بد من تبرير سلوكها ــ عدم الخيانة أبداً ــ مراقبة النفس دائماً** ، الخ .

ونرى كذلك إثمية معمّمة تبدو : فبول تسلك كما لو أنها كانت آثمة:

ـ لدي انطباع بان العالم برمته يحقد علي ّ ـ كما لو أن الناس يشيرون إليّ ـ لم افعل مع ذلك شراً ـ اشعر بأن الناس يطلقون احكامهم عليّ ـ لا شيء مما كنت افعله كان جيداً ـ لو تكلم الناس على احد ارتكب شرا ، شعرت ان ذلك يتوجّه اليّ ...

أي شيء يتصف بأنه شعوري في كل ذلك ؟ لا شيء ... فيما خلا الأعرض . ومع ذلك ، ثمة ، في لاشعور بول ، شبكة واسعة من الالتزامات الصلبة (**الأنا العليا**) . فهي تشعر دائماً بأنها ملزمة بتبرير سلوكها على أنها آثمة ! الى من ؟ الى أبيها ، وبالتعميم ، الى البشرية برمتها والى نفسها (الى أناها العليا) . إنها تنظر الى الآخرين بوصفهم راشدين يهدّدون الطفل « المذنب » ، هي ، أو ، على الأقل ، الطفل الذي تعتقد بصوره لاشعورية أنه هي .

وماذا بعد ؟

يمكن القول إن « بول تتحقق » من الشيء نفسه مئة مرة ، « كما لو أن عليها أن تبرّىء نفسها في حالة النسيان » . ذلك أن **النسيان** يعادل بالنسبة الى بول **خطيئة** . والحال أن الوقوع في الخطأ ، بالنسبة اليها ، يعني أن تكون موضع احتقار أبيها ولومه ونبذه . فعليها **إذن** أن تبرّر مسلكها أمام أبيها (وأمام الغير) ... بل أمام **أناها العليا** على وجه الخصوص ، **تلك الأنا العليا التي تراقبها باستمرار وكأنها رجل أمن داخلي** .

ها نحن الآن **إذن** بعيدون عن « الهوس » بالمعنى الصحيح للكلمة ... ما دام هذا السلوك ، سلوك « الآثم » ، **ينعكس في جميع أفعال الحياة اليومية** . والحقيقة أن الأنا العليا لبول تمنعها من كل حرية ، ومن كل عفوية ، **ومن كل خطأ** !

ثم ظهرت بعد ذلك بقليل **عقدة أوديب** (١) . والمقصود مع ذلك ،

---

(١) انظر فصل « ذكريات الطفولة » في هذا المؤلف ، وانظر « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » .

بالحري ، « وضع أوديبي » بمعناه الأوسع . وهذا الوضع هو الـذي كان ، من جهة أخرى ، يمنع الزواج ، والهوس لم يكن سوى ذريعة .

وماذا عن والد بول ؟ أرتني بول صورته ، وذلك على سبيل إعلامي كما كانت تقول لي ، في حين ان في عينيها كان يلمـع بريق مـن الكبر والعداوة كالبريق الذي يلمع في عيني بنت صغيرة إزاء معلـم محبوب ومكروه . إنه رجل فتيّ وجميل وذو صدغين بلون الفضة ، رجل ذو مظهر متعال ، واثق بنفسـه كل الثقة . إنه رجل مصاب بالخوف في قعر نفسه . وهذا الأب هو الذي كان ينبغي معالجته قبل حوالي عشرين عاماً .

واصبح الأب الها من الجمال والذكاء والفتنة بالنسبة لبول . وهـذا امر منطقي جدا . وظهر الحب الأوديبي . وماذا عن ام بول ؟ إنها ام لا وجود لها ، في سفر مستمر ، وعلى خلاف مع زوجهـا . وتلك إذن ، بالنسبة لبول ، مناسبة رائعة في أن يكون أبوها لها وحدها . ولكنهـا اصطدمت بالأخ الذي يحبه الأب . واصطدمت باحتقار ابيها . فأصاب الإحباط حبها . وهذا الاحباط ولد العداوة ، بل الكره . وكبت هـذا الكره فظهرت الإثمية . وخضعت لكيلا ينبذها ابوها وهي تبدي عداوتها له . وبدأت الدارة المغلقة .

قالت بول بعد زمن معيّن :

ـ كم شعرت بأنني آثمة وشنيعة يوم تمنيت ، امنية كالبرقّ الخاطف ، موت أبي ، وذلك بسبب كونه كان يجعلني اعاني العذاب ويحول بيني وبين ان احتفظ بشخصيتي ..!

فلدينا ، وكل ذلك ظلّ لاشعوريا :

حب ←←← إحباط هذا الحب ←←← كـره ←←← رغبة في موت الأب ←←← إثمية ←←← حاجة الى الصفح ←←← خضوع ←←← عدم ارتكاب أوهي الأخطاء أبداً ←←← التقيد دائماً بالقواعد ←←← التحقق بعناية من كل فعل ←←← الهوس (من جملة أعراض أخرى) .

وهذا يعطي الهرم التالي الذي ينبغي قراءته من الأسفل الى الأعلى :

(العرض الشعوري) : التحقق من الابواب مئة مرة (« هوس ») :
الانتباه الى كل شيء ــ وسواس عدم ارتكاب الاخطاء ــ وسواس المسؤولية عن كل شيء ؛ الامتناع عن أن تكون « حرة » و « عفوية » ، بما أن كل حرية يعاقب عليها الأب بالاحتقار ؛ الحصول على الصفح ، التقيّد بالقواعد بأي ثمن .

(اللاشعور) إثمية ــ خضوع ترافقه عداوة قوية ؛ إحباط ــ كره ــ رغبات في الموت ــ كبت ــ حب وجنسية إزاء الأب .

اتوقف هنا ، ولا استطيع ان اباشر الحديث عن مراحل العلاج والشفاء التي مرت بها بول . فقد أصبحت بول ، بالتدريج ، حرة وعفوية ومتحرّرة من الخوف . ويصعب على المرء أن يعرف انها هي . . . ولكننا رأينا مدى ما تبعد « عقدة الهوس » عن السبب الأساسي .

لم يكن ثمة إذن ، لدى بول ، عقدة ، بل وضع معمّم . وكانت لها شخصية منفصلة ولاشعورية ، ومشغولة دائماً بأن تحتمي من راي الآخرين ، ومشغولة دائماً بأن تتقيّد بالقواعد . والمرء يفهم المناخ المثير للوساوس الذي يمثّله ذلك ، والطاقة المجمّدة خلال سنين . . .

الفصل الرابع عشر

الانسان المصاب بالعصاب

اولاً ــ العصاب

في مؤلفي الأول (١) ، وصفت العصاب مع تصنيفاته الرئيسة . أما الآن ، فلننزل الى أغوار شخصية مصابة بالعصاب .

واليكم ، قبل كل شيء ، بعض التعريفات :

التعريفات القديمة الكلاسيكية :

● **العصاب** : انفعال « عصبي » كثير الانتشار ، ليس له أساس تشريحي معروف .

أو (وذلك يقترب أكثر من الواقع العميق) :

● **العصاب** ضرب من « التصدّع » في الشخصية ، ناجم عن وجود العقد .

أو كذلك :

● الموجود المصاب بالعصاب مضطرب في علاقاته مع ذاته ومع الآخرين . أو :

---

(١) في « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » ، قدمت التصنيف والوصف الرئيسين لضروب العصاب وأعراضهما . وسنراها في هذا الفصل من زاوية مختلفة : زاوية المرض بالمعنى الصحيح للكلمة كما يبدو في التحليل النفسي ، او لدى اشخاص كثيري العدد .

● **العصاب** محاولة فاشلة في التلاؤم مع الحياة ومع الواقع اليومي ، وسنرى في اي شيء يتصف هذا التعريف بانه تعريف رئيس .

أو كذلك ، واستشهد في هذا المجال بـ **يونـغ** :

● ما ينبعث أمام الطبيب **في العصاب** ليس مجالاً مرضياً مغلقاً ، بل موجود مريض ، مريض لا بفعل الخطأ في آلية من الآليات أو بفعل مركز منعزل من مراكز الإنتان ، وإنما مريض في **كلية** وجوده . وليس العصاب هو موضوع المعالجة ، بل حامل العصاب . فالعصاب القلبي على سبيل المثال لا ينجم ، مثلما هو معلوم منذ أمد طويل ،عن القلب ، بل ينجم عن نفس المريض المتالمة . إنه ناجم عن الحياة التي يعيشها موجود برمتـه خلال سنين وعقود من السـنين . والعصاب يغرز جذوره ايضا في الحيـاة النفسية لجماعة كاملة من الجماعات : الأسرة بل والمجتمع ، بالإضافة الى الحياة الفردية .

هذه التعريفات تجعل المشكل قريبـاً كل القرب منـا . وسنرى السبب .

ويكون العصاب إذن **مرضـاً** دون آفة عضويـة . ولكن التعريف اتّسـع .

ويجري على وجه العموم تصنيف ضروب العصاب الى : **الوهن ، والوهن العصبي ، والوهن النفسي ، والوسواس ، والرهاب ، والحصر ، والهستيريا** . وهذه التصنيفات ، على اهميتها ، تضيّق المشكل تضييقاً فريداً ، مع أن هذه الحالات منتشرة ومؤلمة أقصى الانتشار والألم . ولكن على المرء أن يدرك أن اعراض كل ضرب من ضروب العصاب هذه عديدة الى حد كبير . يضاف الى هذا أن أعراضاً معيّنة للوسواس موجودة في الحصر ، وأن اعراضاً معيّنة للرهاب موجودة في الوهن العصبي ، الخ . وثمة ، في اغلب الأحيان ايضا ، ميل الى تكويم الكل في سلة واحـدة : سلة « الاكتئاب العصبي » ، وذلك شبيه على وجه الدقة بتصنيف كثير من الأمراض الغامضة ، في الزمن الغابر ، تحت مصطلح « الهستيريا » .

ولا بد من أن يتذكر المرء ان **كل** عصاب قد يتجلى بأعراض جسمية أو سيكولوجية . فثمة ضروب من العصاب الجنسي والهضمي والقلبي الوعائي والجلدي والرئوي والعيني والوسواسي والحصري والرهابي ، الخ . وثمة بعض ضروب العصاب العميق التي قد تحدث بصورة رمزية ... وجسمية . واليكم مثالاً بين ألف مثال : ضروب قوية من كبت العدوانية والرغبة في الضرب قد تتجلى بتوقف الذراع الأيمن واليد اليمنى مرفوق بارتعاشات وتعذر الكتابة ، الخ .

فالعصاب يشكل إذن جزءاً من مجال واسع من مجالات الطب النفسي الجسمي الذي له الفضل في النظر الى الانسان على انه **كلية** . وهو ينظر الى انسان مريض على أنه شخصية تعاني الألم **برمتها** ، اني كان توطن المرض .

١ ـ هل ثمة مصاب بالعصاب دونما داع ؟

العصاب مرض كغيره من الأمراض الأخرى . والوسواس مرض بالصفة التي لمرض التدرّن او للزكام . فاذا قلنا لشخص مصاب بالعصاب : « هذا أمر عصبي ، وجملتك العصبية الأعاشية مصابة بالاضطراب « على سبيل الحصر » ، وما عليك إلاّ أن تبذل جهداً لكي تتخلص منه » ، كنا كمن يسبح على سطح مستنقع دون أن يعلم أن الماء يصل حتى قعره . وهذا أمر يخالف المنطق .

ويجب أن لا نعتقد ان هذه العقلية تلاشت ! ويفهم الرجل المتوسط فهماً قوياً جداً أن بالامكان معاناة ألم السرطان معاناة قاسية ، ولكنه لا يستطيع أن يتخيّل أن عصاباً يمكن أن يكون مؤلماً على حد سواء . ولا يستطيع التصور ان من الأفضل للانسان أن يُصاب بالتدرّن القوي من أن يُصاب بعصاب عميق يمثّل قرحة نفسية دائمة ، ولا يدع أي مجال للراحة . واذا كان الرجل المتوسط يعلم أن دورات الشعوذة أو الجهود الإرادية النزعة لا تستطيع استئصال تدرّن رئوي ، فانه يعتقد راضياً

أن ضربة مناسبة من ضربات مكنسة ، تستند الى إرادة عاتية ، إرادة لا يميّزها مع ذلك من التشنّج والتوتّر ، كافية لاستئصال العصاب . ولكن كيف يمكن لجهود إرادية ، وبالتالي **شعورية** ، أن تستأصل عصاباً يتصف بأنه **لاشعوري** ، وأعراضه هي الوحيدة المرئية ؟

ذلك أن الرجل المتوسط يجهل أن العصاب **اضطراب عميق في الشخصية برمتها** . فأي عصاب يغزو الشخصية كلها ، ويغزو جميع أفعال الحياة اليومية ، أيا كانت .

ومن المؤكد ان تصنيف الموجودات الانسانية في أدراج صغيرة تحمل لاصقات ، أمر يدعو الى الاطمئنان . فما حال فلان من الناس ؟ إنه ضعيف ، قوي ، مزهوّ ، متعجرف ، مصاب بالهوس ، قلق ، كسول ، مكبوت ، مصاب بالعصاب ، الخ . انه لأمر يسير : إن ذلك يمنح ضرباً معيّناً من عاطفة الأمن لمن « يصنّف » الآخر معتقداً بنفسه انه الأفضل او الأسمى .

ولكن ، إذا كان هذا يدعو الى الاطمئنان ويتصف بالسهولة ، فان ذلك لا يحلّ المشكل ، بل على العكس . ذلك أن الشخص المصاب بالعصاب إذا اصطدم بعدم الفهم و « الحكم الأخلاقي » ، كما لو أنه كان ثمة إمكان للحكم « حكماً أخلاقياً » على مريض ، فان هذا الحكم يصدر على الغالب عن شخص آخر مصاب بالعصاب ، يسقط نفسه على الشخص الأول ويخشى ، بالتالي ، أن يرى ضروب أمنه البائسة تنهار كقصر من الكرتون .

٢ ــ هل يمكن تصنيف العصاب ؟

إنه أمر متعذر . ولن نفلح في وضع أصناف العصاب على رفوف ، كما قلت سابقاً . ولنكرّر ان **كل عصاب ، سواء كان خفيفاً أو خطيراً ، اضطراب عام ودائم في الشخصية** . وإذا كان ثمة شخص « مصاب بالعقد » ، كما يقال ، فان هذه العقد ترشح في أي عمل من الأعمال ،

ولكن مع المحافظة على أن تظل لاشعورية بصورة تامة . ولنشر عابرين الى أن كثيراً من الأعراض العصابية تكتسي بأثواب فاخرة .

ــ أعاني الوهن النفسي . إن أوهى الجهود بالنسبة لي ضرب من الجبل . وأخشى كل صباح من الذهاب الى العمل . وفي نهاية ساعة من الزمن ، أكون الى درجة من الانهاك بحيث أنني عاجزة عن أرتب ثلاث أفكار .

وهن نفسي ؟ نعم ، بالتأكيد . إننا ننطلق عندئذ من العرض ، ثم « نحفد » ، **فنقع**، مثلاً ، على شخصية برمتها لا تجرؤ على أن تتجلّى بوضوح . فنكتشف، شخصاً يرافق ضرب من الحصر اللاشعوري على وجه التقريب كل عمل من أعماله . ونكتشف شخصاً لا يجرؤ على الاحتفاظ بشخصيته أبداً ، ولا على أن يكون عفويا . ونكتشف شخصاً لا يجرؤ على أن يتكلم جهاراً ، ولا أن يقول قولاً مخالفاً أو يعارض . ويستمر العلاج بالتحليل النفسي في الحفر . ويتم الوصول الى أب استبدادي ، والى طفولة سممتها المهانة والإثمية والحصر ، والى ضروب كثيرة من كبت العدوانية . وبالتالي ، **نبلغ إذن ضربا من الحصر المعمّم والقوي أمام كل تأكيد للذات** . إنه حصر يلتهم طاقة المريض الذي يسقط في الوهن النفسي منتقلا من ضعف الى ضعف .

وبناء عليه ، فان الأعراض ليست شيئاً في مقابل الواقع العميق للشخصية التي تعاني الألم في كليتها ، وإن كانت هذه الأعراض ذات أهمية ، وكان عددها قد يصل الى عشرات الألوف .

ذلك ما أقترح عليكم أن تنظروا إليه .

ثانيا ــ العصاب مرض

العصاب ضرب من المرض . ولا بد إذن أن يخضع للقوانين التي يخضع لها المرض . وهذا المفهوم مفهوم رئيس ، لا من أجل فهم العصاب عامة فحسب ، وانما من أجل جميع أولئك الذين أصابهم أيضاً ، ومن أجل

الآباء والمربين والأصدقاء والوسط . وكذلك من أجل فهم الأسلوب الذي يتناول العلاج به العصاب ويعالجه .

العصاب ضرب من المرض . **فاي** مرض ؟ **ومتى** يكون الانسان مريضا، **ولماذا ؟**

كل مرض رد فعل تقوم به العضوية . إنه إذن رد فعل ضد شيء من الأشياء . ضد ماذا ؟ ضد كل ما يسبّب الاضطراب في توازن هذه العضوية ويقلق راحتها . والعضوية ، كما قلت آنفاً ، تحاول دائماً أن **تستبعد** كل ما يضايقها ، وذلك بأي وسيلة من الوسائل . والمرض إحدى هذه الوسائل .

ولنضرب مثلاً أوليا : ليس الجرثوم هو المرض ، بل المرض هو رد فعل العضوية ضد هذا الجرثوم . فاذا كان ثمة جسم غريب يضايق العضوية ، فليس هذا الجسم الغريب هو المرض . بل المرض هو جيش الكريات الحمراء التي تنطلق الى المهاجمة (الصديد) . الخ .

فاذا ما نظرنا الى المرض من هذه الزاوية ، **لاحظنا مباشرة أن المرض حاجة** . إنه حاجة العضوية في بعض الظروف . إنه محاولة تقوم بها العضوية لإعادة التوازن .

وما الوضع في حالة العصاب ؟ إنه محاولة للتلاؤم مع الواقع . إذن ، فالعصاب حاجة وضرورة في اللحظة التي يثار فيها .

ذلك يغيّر كل شيء ! ينبغي للطبيب المعالج ، وهو يطرح السؤال التالي على نفسه : « ما منشأ هذا العصاب » ؟ ، أن يتساءل أيضاً : **لماذا** هذا العصاب ؟ **وما فائدته** ؟ ومم **يحمي العصاب** هذا الشخص ؟ **ولماذا** كان العصاب موضع تنمية ورعاية خلال كثير من السنين ؟

١ ــ مرض يدوم

الأمور تتعقد هنا . فالمرض في الحالات الجسمية ، كالصديد مثلاً ،

يزول عندما يصبح غير ذي جدوى . وذلك يبدو إذن بسيطاً جداً . والحال أن العصاب يدوم في بعض الأحيان حياة بكاملها ، في حين أن الظروف التي أثارته قد زالت .

وبناء عليه ، فاذا استمر العصاب ، **فان ذلك يعني أن الظروف تظلّ شديدة الخطر** . والعصاب عندئذ شبيه بصديد لا يتصف بأنه دائم فحسب ، بل يغزو الشخصية برمتها وجميع الأفعال وحياة الفرد كلها . فلماذا ؟

والسبب أن معظم الأخطار تصبح لاشعورية . إنها ، بالتأكيد ، موجودة خارج مراقبة الأنا الواعية . فضروب الكبت والعقد دائمة ، وتتغذّى بتجارب جديدة دون انقطاع ، وتكوّن شخصية منعزلة تعمل لحسابها الخاص في أعمق أعماق الشخصية ، وتركد في اللاشعور خارج متناول الذكاء والارادة .

وعلى هذا النحو ، يتقدّم الانسان في السن ... ولكن ضروب الكبت والعقد تبقى على ما كانت عليه ، مثلها مثل شخصية لا تتغيّر . فالخطر موجود دائماً . لقد أصبح غير مرئي ؛ ويستمرّ العصاب وينمو ...

فلنفحص الآن أمثلة تبيّن كيف يستمر عصاب . وتبيّن أيضاً أن العصاب محاولة (فاشلة) في التلاؤم مع الواقع .

حالة من الحالات

ـ خرجت من عيادتي التي عملت فيها خلال سنين (قال الدكتور س بعد زمن معين من التحليل النفسي) منهكاً كل الإنهاك . وكنت أعطي كل ما كان بمقدوري إعطاءه . وكنت ادرك ادراكاً غامضاً أن الاستشارة يمكن أن تنتهي خلال عشرين دقيقة . ولكنني كنت احتفظ بالمريض ثلاثة أرباع الساعة . وكنت أسوّغ وصفاتي ، وأشرح للمريض وأناقشه . وكنت أعتقد مخلصاً أن ذلك « تضحية بالذات » أقوم بها . وكنت أحدث اصدقائي احاديث عظيمة عن « الإيثار » الذي يقتضيه الطب . وكان مرضى عيادتي يقولون إن ذلك سيستهلك

صحتي ، الامر الذي يعني بالنسبة اليهم انني كنت طبيبا عظيما جدا . وكنت اعتقد بذلك انا نفسي .

ماذا كان يحدث ؟ هذا الإيثار ، على أي حال ، لم يكن يطابق الواقع اللاشعوري . فالطبيب كان يعاني ، في عداد ما يعاني ، مشاعر الإثمية (اللاشعورية) . وكان يتصرّف دائماً « **كما لو** » **أنه كان آثما** . فكان يحتفظ بالمرضى زمناً طويلاً لأنه لم يكن يجرؤ على إنهاء الاستشارة سريعاً، خوفاً من أن يحقدوا عليه . وكان لديه انطباع بأن كل مريض كان ينعم عليه كثيراً إذ يتنازل ويستشيره . وكان يقول لنفسه بصورة لاشعورية :

ـ أشعر بأنني آثم ودون الآخرين . ليس لي الحق ... وعليّ أن أبرّر كل ما أفعل .. عليّ أن أجعل الغير يغفر لي ويقبلني ...

حالة اخرى

ها هو ذا رجل يبدو ، للوهلة الأولى ، أنه يتصف بمجاملة لا مثيل لها . فلنراقبه أمام رئيسه في المكتب ، على سبيل المثال . الأمر الأول الذي نلاحظ أن هذا الرجل يخاف . ولكنه يخاف من ماذا ؟ فاذا سألناه عن ذلك ، أجاب :

ـ اخاف أن أفقد مكاني ، واخشى رئيسي لأنه سلطوي جدا وانا خجول ، الخ .

ولكننا نلاحظ أيضاً أن هذا الرجل عدواني جداً إزاء مرؤوسيه وبغيض . بل يمكن وصفه ، إذا نظرنا اليه من الخارج ، بأنه « خسيس ». وعندئذ يطرح السؤال نفسه : هل هذا الرجل مجامل ؟ نعم ، إنه لكذلك من الناحية الخارجية . ولكن ماذا يحدث في ذاته ؟

هذا الرجل متزلف لأنه يخاف أن يكون غير ذلك . فماذا يعني هذا القول ؟ لو لم يكن متزلفاً ، فان ذلك يعني أن شخصيته **تعارض بصورة**

(١) انظر الفصل التالي « الانسان الآثم والانسان المصاب بالحصر » .

طبيعية شخصية رئيسه . وسيكون ثمة ضرب من التنافس بينه وبين رئيسه . والحال أن التنافس أكثر الأمور التي تثير حصره . والسبب أن من يقول تنافس ، يقول غالب ومغلوب . وذلك يعني أيضا أن من المحتمل، في حال المنافسة، ان يثور رئيسه ويصرخ وان يلومه وينتقده ويهاجمه ، الخ . الأمر الذي لا يحتمله أيضا . فنحن إذن ، هنا ، أمام حصر ان يكون منبوذاً . ولكيلا يكون موضع هجوم ونبذ ، صغّر هذا الرجل نفسه وكان ذا خضوع مبالغ فيه . وبعبارة اخرى : إنه يفعل كل شيء حتى لا يكون ثمة إمكان لتوجيه لوم إليه أبداً . ويفعل كل شيء لكي يقول رئيسه : « أي صبي صغير لطيف هذا الذي يفعل حقا كل ما بامكانه من اجل ابيه ! »

فنحن نرى أن كل سلوك عصابي يستجيب لحاجة من الحاجات .
وبفضل هذا السلوك العصابي ، يحمي الفرد نفسه . فالطبيب على سبيل المثال ، في الحالة الأولى ، كان يحتمي بـ «التضحية بالذات »؛ والمستخدم، في الحالة الثانية ، كان يحتمي بالمازوخية التي كانت تجنّبه الدخول في المنافسة . ولو كان بمقدور هذا المستخدم أن يفحص نفسه لتساءل :

ـ أخاف من رئيسي . ولكي بي ، في الواقع ، خوف في الحياة بصورة عامة . إنني عدواني إزاء مرؤوسيّ ، الأمر الذي يبرهن كذلك على الخوف لديّ . فانا ، بحسب الظروف ، متشنّج أو متخشّر أو مراوغ أو متزلّف . إنني طيّع أما رئيسي ومتمرّد عندما لا يكون موجوداً ... فلماذا ؟ ومن أي شيء يحيمني ذلك ؟ ذلك يحميني من الخوف . اي خوف ؟ ماذا يمثّل رئيسي ؟ السلطة ؟ بالتأكيد ، ولكن لماذا كان لديّ مثل هذا الخوف من ان لا أقع موقع الاستحسان من السلطة ؟

وعلى هذا النحو : فلو كان بمقدور هذا الرجل أن يفحص نفسه ، لتعمق في معرفتها بالتدريج ، ولرأى بوضوح لمصلحته ومصلحة الآخرين، ولرأى كذلك أن غالبية أعماله كانت غير أصيلة ، منقوعة بالحصر : وأن ثمة عصاباً كان يلتهم كل شخصيته .

يمكننا إذن أن نستخلص الآن أمراً رئيساً : إن معظم ردود الفعل العصابية تحمي من الحصر ، الشعوري أو اللاشعوري .

٢ ــ العصاب والتحليل النفسي

يمكن للمرء أن يتساءل بعد هذا كله :

ــ اذا كان العصاب حاجة ، لماذا نحاول أن نزيله ؟ وكيف نفعل لاستئصاله ما دام من المحتمل أن يتعلق به المريض وكأنه عوّامة إنقاذ ؟

لماذا نزيل العصاب ؟ لأنه يدمّر أنفساً بكاملها ويزيّفها ويحرفها ويجعلها مقروحة ، ولأنه يسبّب لها على الغالب ألماً لا يحيط به وصف ، ولأنه يغرق الموجود الانساني في وحدة تتصف بالحصر ، ولأنه يعزل الموجود الانساني عن نفسه وعن الآخرين ، ولأنه يسبّب التصدّع ويحطم ويسحق . ثم ... ليس للسؤال معنى أكثر من معنى السؤال التالي :

لماذا نحاول إزالة الحمّى ما دامت الحمى حاجة للعضوية ؟

والحال أن الحمّى ليست هي التي نشفيها ، وانما ما يولّد هذه الحمى . والحمى تزول إذ تصبح غير ذات جدوى .

وندرك إذن أن علينا أن نبذل كل جهودنا حتى يكفّ العصاب عن أن يكون حاجة . ولا بد ، في تسع حالات من عشر ، من أن نستأصل ما أثار العصاب : الحصر اللاشعوري . ينبغي إذن إيجاد هذا الحصر الذي يمدّ جذوره في اغوار الشخصية . وعلى هذا النحو ، لا بد من أن يكف المصاب بالعصاب عن أن يكون بحاجة الى عصابه . والعصاب ، شأنه شأن الحمى التي اصبحت غير ذات جدوى ، يزول من تلقاء ذاته .

الرؤية الواضحة

إذا ألححت كثيرا على أن العصاب مرض مـن الأمراض ، فذلك لأن هذا التصور تصور رئيس . فثمة ميل الى الاعتقاد بأن العصاب ضرب من « الندبة » . وثمة ميل الى الاعتقاد بأنه « ليس شيئاً ذا اهمية » . ولدى الكثير من الناس انطباع بأن الارادة يمكنها التغلّب على العصاب . وهذا خطأ بصورة مطلقة .

وثمة اعتقاد أيضاً بأن المصاب بالعصاب يفتقر الى الطاقة ... لأنه عاجز عن أن يشفي نفسه بنفسه ! كيف يمكن ، أولاً ، بوساطة العقل والارادة ، شفاء شيء ما لاشعوري يتصف بأن هذا العقل لا يبلغه ولا هذه الارادة ؟ هل الناس الذي يعتقدون ذلك ، ثانيا ، يدركون الطاقة التي ينبغي له صرفها ، يوماً بعد يوم ودقيقة بعد دقيقة ، من أجل أن يصون حصونه الدفاعية ؟ وهذا شبيه بعض الشبه بمن يصون سلاحاً قوياً دون توقف وعلى حساب حافظة نقوده (إذن على حساب صحته هنا) .

والعصاب إذن ، بالنسبة لكثيرين ، ضرب من « الراسب » الآتي من الماضي ، شبيه على وجه الدقة بـ « كسر » من الكسور . وثمة اعتقاد بأن المرء يصاب يوماً بعصاب ... ثم ، ها هو ذا العصاب . وكل ذلك خطأ . فالعصاب ينطلق يوماً من الأيام ، وهذا أمر متفق عليه . ولكنه ينمو لأنه يُصان . واذا كان العصاب يصان ، فذلك لأن الشخص بحاجة الى صيانته لكي يحتمي من ظروف تظلّ شديدة الخطر بالنسبة اليه .

فبدلاً من أن يقول الانسان :

ـ لديّ عصاب منذ أربعين عاماً أصابني في جهة ما خلال طفولتي أو مراهقتي ...

عليه ان يقول :

ـ انصرمت اربعون عاماً وانا اصون بصورة لاشعورية عصاباً .

أنت ترى أن ذلك يغيّر وجهة النظر بصورة تامة ... والعلاج . وآمل أن يساعد ذلك كثيراً من الأشخاص على الرؤية بوضوح أكبر في حالاتهم الخاصة . وربما يفهم وسط الأشخاص المصابين بالعصاب ، فهماً أفضل ، آلية العصاب العميقة ، وذلك من أجل الخير الأعظم لأولئك المصابين به .

والخص :

إذا كان ثمة أمن داخلي ، فان ذلك ينجم عنه سعادة وأمن وتوازن . وإذا ساد عدم الأمن الداخلي ، نشأ عنه حصر وحماية من هذا الحصر (عصاب) .

٣ ـ هل المحلّل النفسي يشفي العصاب بصورة سريعة ؟

كل شيء متعلق بمدة العصاب وعمقه . والحقيقة أن المسألة هي التالية : هل مدة العلاج بالتحليل النفسي قصيرة أم طويلة ؟ أعتقد أن من الأفضل ذكر ملاحظة أحد الأشخاص ، ملاحظة تلتقي مع مئات من الملاحظات الأخرى .

ـ لدى المريض انطباع ، في بداية التحليل ، بأن كل شيء سيتم في ثمانية أيام . ثم يدرك تدريجيا أن الداخل كله ، ان الشخصية كلها هي التي ينبغي أن تكون موضع الإصلاح ، وهي التي ينبغي أن تغيّر وجهة النظر ، وأن تغيّر رؤيتها للأمور . ويدرك أن ما كان صحيحاً منذ زمن طويل لم يعد صحيحاً ، وأن حقيقة اليوم ستكون باطلا في الغد .. ويرى بالتدريج أنه عاش على رمل متحرك ، متخيّلاً أن ذلك كان من التراب . ويرى ببعض الحصر آلاف الأعمال التي باشرها معتقداً أنها حرة وارادية ... إنه مزيج داخلي هائل ... إنها حياة برمتها دفعتكم في الاتجاه السيء ، وصفّحتكم بالدفاعات ، وجعلتكم عدماً ... ثم يشعر المرء أنه وُلد ولادة جديدة لذاته . ويدرك للمرة الأولى ما هو عليه . إنني أفهم الآن أنني كنت قد تركت نفسي تنصبّ في الاكتئاب ، وأن هذا الاكتئاب كان ملاذي . وهنا على الاقل . لا وجود للصراع ... ففي الاكتئاب . كنت كالطفل الذي يحتمي في أحضان أمه . وكنت في كهف منعزل. والآن، وقد ولّى العصاب ، أفهم الى أي حد كنت أتعلق به دون أن أعلم . وافهم أيضا جميع المقاومات التي كنت أعارض بها العلاج ، بالرغم مني ... وبدأت أشعر بأنني حر ، وذلك انطباع مبارك ما كان ممكنا أن أجرؤ على تخيّله ...

وقال هذا الشخص في نهاية ملاحظته :

ـ أمر رائع أن يتخلّص المرء من الخوف ، وأن يستطيع المضيّ بعفوية نحو الآخرين ..

إذن ، ألا تستحق النتيجة ما يعاني المرء في سبيل الحصول عليها ؟

٤ ـ العصاب مرض ما هو إنساني في الانسان

العصاب **مرض يصيب ما يتصف بأنه إنساني في الانسان** ، بمعناه الأوسع والأعمق . إنه « ازمة في النمو » . وهو يصيب هذا أو ذاك من الأفراد الذين يصبحون عندئذ تبلوراً خاصاً للحصر الانساني الأبدي . . .

ويشدّد التحليل النفسي الحديث ،مع ذلك ، على **العصاب الذي يصيب الطبع** ، ذلك الذي رأينا أمثلة عديدة منه . إنها أصناف العصاب التي لا تتجلّى بالأعراض المشهدية جداً ، أعراض تتصف السينما والتلفزيون بأنهما نهمتان اليها ، وانما تلك التي تولّد سلوكاً ردود فعله (المرضيّة) تتكرّر خلال حياة الفرد كلها . وهذا هو السبب في أن الشخص عندئذ يستجيب دائماً على نحو واحد (سلوك ذو نمط واحد) ، إذ أن « طبع » هذا الشخص قد تكوّن بفعل آليات الدفاع .

وهكذا تتصف **أنا** الشخص بأنها مشوّهة بصورة « مزمنة » . فالسلوك صلب . . . في حين أن خاصية موجود سليم تكمن في أنه يستجيب بتنوع وعفوية في العدد الكبير من أوضاع الحياة .

وإليكم ما يتسم بالأهمية الكبرى : **العصاب يوقف إبداعية الشخص المريض ويشوّهها ويكفّها .**

ويمكن القول ، على وجه التقريب ، إن العصاب ، بالمعنى الواسع ، لا يصيب إلا أولئك الذين يحاولون اكتشاف شخصيتهم . ويمكن القول أيضا إن العصاب يبدو بمجرد أن يكون ثمة قيود تقيّد الموجود الانساني في حريته الداخلية وفي تفتح استقلاليته . وهنا إنما يمثّل العصاب هذه المحاولة اليائسة في التلاؤم ، التي تكلمت اليكم عليها .

ومن الواضح جدا أن الانسان المصاب بالعصاب يفكر بصورة تختلف عن إنسان غير مصاب به . والانسان المصاب بمشاعر الدونية العنيفة لا يرى العالم على النحو الذي يراه انسان واثق من نفسه . والانسان

الذي يشعر بأنه آثم يرى الآخرين من خلال موشورات مشوّهة ، ويصبح « الغير » خطراً بصورة آلية . ويبقى العصاب ، أيا كان ، حاضراً في جميع أفعال الشخصية الانسانية مهما كان عمقه وقوته . ويصبح العصاب عندئذ نمطاً من أنماط الحياة : فالانسان **يعيش** على عصابه **ومن خلال** عصابه .

ماذا يحدث في نهاية التحليل ؟ تزول الموشورات اللاشعورية . وينظر الانسان الى الظروف على نحو مختلف كل الاختلاف . ويعيش الانسان على معايير **مختلفة كل الاختلاف** عن تلك التي عرفها حتى ذلك الحين . إنه يعيش على معايير أخرى . فبدلاً من أن يشعر بأنه وحيد ، يشعر بأنه على صلة بالآخرين ؛ وبدلاً من أن يخاف ، يثق بذاته . وبدلاً من أن يكون غائصاً في ضروب تعويضه وكفه وكبته وعقده ، يصبح أصيلاً مجدّداً . وتنهار الواجهات التي كان يصونها من أجل حماية نفسه . ويكفّ عن التعلّق بالطفالات .

ويرى المريض الى أي حد تتصف الآليات اللاشعورية بأنها لاشعورية. وهذا يعني أنها ليست في متناول الارادة الواعية . وهذا يعني أيضا أنها تغزو الشخصية دون أن تستأذن أيا كان . ويدرك المرء أن المريض الذي انهى تحليله النفسي يكفّ عن الحكم على الآخرين حكماً أخلاقياً . وهو يكفّ على وجه الخصوص عن الحكم على الآخرين من خلال ذاته .

ولنفكر مجدّدا باختفاء الأنا العليا المرضية(١) . كانت هذه الأنا تثير ضروباً من الأخلاق المزيّفة والفضائل المزيفة . وكانت تمثّل أخلاقاً مغلقة ، وصلابة داخلية ، وتعلقا بعهود من الوجود انصرمت . وكان الانسان ، تحت ضغط الأنا العليا ، يعيش وفقاً لمعايير فرضها الآخرون ، الأبوان والمربون والأخلاق التقليدية والديانات المنظور اليها من خلال الخوف والإثمية ، الخ . وكانت سيرته تسلك ، دون أن يعلم ذلك بوضوح،

انظر فصل « عندما الشيطان يقود الرقص » .

خطوطاً تم تثبيتها بصورة نهائية . وكان سلوكه يحترم قوانين قديمة نابعة من طفولته ، واصبحت لاشعورية . ولكنه كان يعتقد أن سيرته حرة قرّرها هو ذاتــه !

وتتفجّر الأنا العليا عقب التحليل ، وتتهاوى ، وتصبح غباراً . وأعتقد أن « العينين تنفتحان » ، هنا على وجه الخصوص ، ويرى المرء مذعوراً كم كانت محدّدة سيرته التي كان يعتقد بأنها حرة . وتتحرّر الشخصية كلها في الوقت الذي تكفّ الأنا العليا عن أن تقطّر سمّها .

الفصل الخامس عشر

الإنسان الآثم
والانسان المصاب بالحصر

اشعر دائما بانني آثم ... ولكن اي خطأ كان بامكاني أن أرتكبه ما دمت لم اكن حرا ؟

وعندما ساكون حراً ، أعلم انني لن انجز ابداً فعلاً هدّاماً واحداً .

(مريض)

الحصر وعاطفة الإثمية توأمان . إنهما مرتبطان ارتباطاً لا ينفصم . وقد رأينا ذلك من خلال حالات عديدة . وهما موجودان دائماً بمجرد وجود العصاب . إنهما يكوّنان قاعدته ، سواء كان العصاب قوياً أم ضعيفاً .

أولاً ـ عاطفة الإثمية

تكلمت على عاطفة الاثمية في مؤلفي الأول . ولنتذكر مع ذلك الأعراض الرئيسة :

- إحساسات بالخطأ دائماً ؛
- خوف من النبذ واللوم والنقد ؛
- إحساسات ، متكرّرة أو دائمة ، بالنبذ ؛
- عزاء بمجرد الاحساس بالصفح والقبول ؛
- بذل جميع الجهود للحصول على الاحساس بالصفح ؛
- حياة تبعا لرأي الغير على الأغلب ؛ كدر واجترار إذا كان هذا الرأي غير ملائم ؛ وعزاء عندما يكون ملائماً .
- إحساس دائم بضرورة تبرير السلوك ، للمرؤوسين أو الرؤساء ؛
- حاجة دائمة الى البرهان على البراءة ؛
- تبنّي سلوكات تحمي من اللوم والنقد ؛
- حاجة الى إعجاب الآخرين والى تلقي دلائل خارجية للمودة أو الحب ؛
- حصر أو عدوانية بمجرد تلقي نصيحة أو نقد ؛
- مشاعر الدونية والخجل ؛ وجل وتصلّب الشخصية ؛
- استجابات ذات نمط ثابت لمعظم الظروف ؛ موقف يغالي في المرونة ، وموقف يغالي في التصلّب ، ولطف مغال جدا ، وتهذيب مغال جدا ، وخضوع ، الخ .

وتتصف عاطفة الإثمية في الأغلب بانها لاشعورية بصورة عميقة . ويمكن ان تتوافر جميع أعراضها لدى شخص ، ولكنه لن يكون له أي رد فعل على الإطلاق إذا قيل له إنه يعاني مشاعر الإثمية . ومع ذلك ، فهو يلاحظ بعض الأعراض في سلوكه : ضروباً شتى من الكفّ ، وكل انواع الخجل ، وحاجة الى إتقان العمل تتصف بالحصر ، ووجلاً ، الخ .

وعاطفة الإثم العميقة تولّد الوساوس كذلك وضروب هوس التحقّق التي تبتعد كثيراً عن السبب الحقيقي (وغير المرئي) . انظر حالة من حالاتها في فصل « جواز سفر الى اللانهاية » ، حالة بول .

وتتير عاطفة الإثمية ، بالاضافة الى ذلك ، سلوكات شتى . وهذا أمـر منطقي . فثمة حصر بمجرد وجود عاطفة الإثمية . ومن الطبيعي إذن أن يفعل الشخص **اي شيء** حتى لا يحسّ بها . **وهـذا هو السبب عندئذ في ان سلوكات تبدو ، سلوكات تصبح ، على الأغلب ، انماطاً في الحياة** ذات مظهر « برّاق » ، إيجابي وسلبي على حد سواء .

وقبل أن أتكلم على الحصر ، أود أن أحدّد هدف هـذا الفصل . وسنرى الحصر ومشاعر الإثمية من خلال علاج بالتحليل النفسي ، وفي سلوكات الحياة الجارية في الوقت نفسه . وسيتيح ذلك إذن للكثيرين أن يكتشفوا أنفسهم فيها وأن يروا انفسهم الى حد ما .

يضاف الى هذا أن من الضروري التأكيد بأن الحصر ليس ما يعتقده الناس بصورة عامة . فلا علاقة له ، في معظم الحالات ، ب « أزمات » الحصر . والحصر ، الذي يتصف غالباً بأنه شعوري ، شبيه بمناخ عميق يركد في الشخصية .

ثانيا ـ الحصر

الحصر بحيرة من ضروب العصاب ، بحيرة ذات مياه عكرة .

ويظهر الحصر في اغلب الأحيان :

- عندما يوجد خطر داخلي ،

عندما يوجد نزاع إما بين الشعور واللاشعور ، وإما في اللاشعور .

- عندما يعاني الشخص مأزقاً شديداً ، دون أن يشعر بذلك على الغالب .

فلنر ، قبل أن نمضي بعيداً ، بعض العموميات .

١ ـ الحصر الكلاسيكي

هـذا النـوع مـن الحصر شـعوري علـى الغالب . والمقصود بـه انفعال قد يكون ماديا أو معنويا ، مع أنه يتحدّد بفكرة خطر يقترب أو

بتوقّع كارثــة . ويمكن أن تختلف قوة هذا الحصر : فيبدأ من الانزعاج المعنوي مع أفكار سوداء وقلق غامض ؛ وفي الطرف الآخر من التشكيلة ، نجد الحصر المرعب .

ويمكن للحصر أن يحدّد وحده عصاباً : وهذا هو **عصاب الحصر** ، الأكثر شهرة لدى عامة الناس . ويكفي إذن وصفه في تجلّياته الرئيسة . ولكن من الضروري أن نقول مباشرة إن ن هذا العصاب ، عصاب الحصر ، هو الألم النفسي الأكبر والأكثر اتصافا بصعوبة أحتماله . وربما فضّــل الشخص الذي يعاني عصاب الحصر أن تقطع ساقاه على استمرار هــذا العذاب اللاإنســاني .

و « الأزمات » هي الأسلوب الذي ينتهجه عصاب الحصر . ويتطوّر في بعض الأحيان نحو حالة مألوفة من الجنون . فماذا يقول الأشخاص الذين يعانون عصاب الحصر ؟

ـ أقول لنفسي غالبا : لو كان ممكنا لأزمات حصري أن تستمر ، لما استطعت مقاومـة الانتحــار ...

والأزمات تعلن عن نفسها أو تحدث فجأة . وعندئذ ، فان المريض يخشى الأســوأ :

ـ إن ذلك لشبيه بكارثة تحوم فوق راسي بقوة تصل الى حد تدميري . واعتقد انـني عاجز عن أن افعل اي شيء ، وانني سأصبح مريضاً طيلة حياتي ، وانني سأفقد عملي ، وانني سأصبح مجنونا ... ثم ينقضي ذلك وكأنه كابوس ينتهي . وعند ئذ ، يحدث لديّ إحساس لامتناه بأنني أحيا مجدّدا .

وتلك هي المظاهر الجسدية أيضاً :

ـ أحمرّ واصفرّ ويسيل جسدي عرقا ، ويحدث لدي تقلّصات حشــوية وهضمية . وتنفسّي مصاب بالارتباك الشديد . وقلبي ينبض بسرعة قصوى . وكل أعضائي ترتجف على الغالــب ...

والمقصود هنا ارتعاش هيجاني . ويتبع الأزمة على الغالب وهن عام ناشيء من الإرهاق الهيجاني .

ولكن الحصر أكثر انتشاراً في بعض الأحيان :

- إنني متوتر دائماً وأتوقع « شيئاً ما » . أي شيء ؟ كل شيء ولا شيء . أصاب بالرعب في بعض الأحيان ، وأشعر أن كل شيء سيُصاب بالإخفاق ، وانني لا أصلح لشيء ، وأن كل فرد يحكم عليّ حكماً سيئاً ، وان كل فرد يحقد عليّ ، الخ .

نحن هنا في مجال الحصر المرتبط بعاطفة الإثمية .

- حالتي شبيهة بحالة من يلاحقه دائماً أحد أو شيء من الأشياء ... وبحالة من يراقب « ألناس » جميع أفعاله ... وبحالة من يوشك « الناس » أن يقولوا له : ليس لك الحق في الراحة ، وليس لك الحق في أن تتوقف ، وعليك أن تعمل دون هدنة ، وعلى كتفيك تقع جميع مسؤوليات العالم ...

والأنا العليا تعمل هنا عملها .

ولنشر الى أن الحصر غير ذي صلة بذكاء الفرد ، ولا بارادته ، ولا بمنزلته الموضوعية .

- أقول لنفسي غالباً : ماذا سيحدث لي ؟ أشعر وكأن خطراً ، غامضاً وشديداً في الوقت نفسه ، كان يحوم فوقي ... ومع ذلك ، فأنا غنيّ ولي منزلة رائعة متينة ، وليس ثمة ، من الناحية العملية ، شيء أخشاه من المستقبل ، وصحتي جيدة ... لماذا إذن هذا القلق الدائم ؟ إنه لأمر يثير الجنون ...

والواقع انه لأمر يثير الجنون ، ولا سيما أن **السطح لا يكون مقر الحصر إلا في حالات نادرة** . فلا بد من البحث عن منشئه وسببه في الأعماق اللاشعورية من الشخصية ، في تسع حالات من عشر .

وثمة كذلك حالات من الحصر عديدة جدا ، متموضعة في شيء شديد الخطر .

- ينتابني الخوف بمجرد أن أرى حبلاً ينجرّ على طاولة ... وأشعر باندفاعات مفاجئة تدفعني الى أن أشنق نفسي أو الى أن أخنق ولدي ... ومع ذلك أعلم أنني لن أفعلهما أبداً . ولكن خوفي هو من القوة بحيث لا بد لي من أن أخبّىء الحبل .

أو يقول أحدهم :

- أكابد حصر الجراثيم (**وكان على المرأة أن تقول : رهاب الجراثيم**) .

فاذا سعل شخص على بعد عشرة أمتار مني ، جريت لأغسل يدي . واذا لمست زلاجاً ؟ أنتظر حتى أستطيع غسل يديّ . ولا أجرؤ ، وأنا في حالة الانتظار ، أن ألمس وجهي ولا أن آكل أي شيء . ويمتدّ حصري على زوجي . إنني أقول دائماً : « هل غسل يديه ؟ » . وعندئذ ، أستعمل خفية كل الحيل التي يمكن تخيّلها : أطلب إليه ، على سبيل المثال ، أن يجلب الفحم ، مع احتمال أن ألقي في سلة القمامة ما يبقى في سطل الفحم ، أو أطلب اليه أي عمل آخر يلزمه بأن يغسل يديه ... إنه لأمر مضحك ، وأعلم ذلك، ولكنني أقف مكتوفة اليدين بشأنه. إنني أفعل كل شيء لكي أتخلّص من هذا الحصر...

هذه المرأة تعاني الحصر ، وذلك أمر واضح ، ولكن هذا الحصر ليس سوى العرض الخارجي للمشاعر العميقة ، مشاعر الإثمية .

وعلى هذا النحو إنما يحاول الشخص ، في العديد من ضروب **الرهاب والوساوس** من النوع نفسه ، استخدام « طقوس سحرية » ضد حصره ، والواقع أنها ضد عاطفة الإثمية لديه . فينظر ، **على سبيل المثال** ، الى صورة المسيح مئة مرة يوميا ، ويرسم إشارات الصليب في جيبه ، ويسعل بعنف لكي « يطرد الخطر » ، الخ . ولنقل مع ذلك إن المقصود أشخاص يعيشون حياتهم بصورة سوية تماماً ، ولكنهم يتألمون من عصاب عميق قليلاً أو كثيراً .

ولو فكرنا ، من جهة أخرى ، بمليارات الأشخاص الذين « يلمسون الخشب » ...

٢ ــ حصر الأعماق

هذا الحصر خفيّ ومنتشر . إنه ، في بعض الأحيان ، لاشعوري بصورة تامة .

فالفرد ، **على سبيل المثال** ، قد يعاني بعض مظاهر الحصر ، كالإسهال ، والحاجة المتكررة الى البول ، والشراهة ، والتسرع دون داع ، والوجل المفاجىء ، وضربات القلب دون سبب ظاهر ، والتعرّق دون سبب موضوعي ، الخ . ومع ذلك ، فالحصر الأساسي يظلّ لاشعوريا في

تسع حالات من عشر ، ولو أن هذه الأعراض شعورية . ولا يحس الشخص أي إحساس بأنه مصاب بالحصر أو كان مصاباً بالحصر . وهذا أمر طبيعي جداً اذا فكرنا بأن هذا النوع من الحصر ينشأ من مأزق مطمور بعمق .

ها هي ذي بعض الأمثلة المأخوذة من الحياة العادية .

ـ عندما أظن أنني ارتكبت عملاً أخرق ، ينتابني انزعاج شديد خلال ساعات ، بل خلال أيام . وأتساءل : « هل ودّعته بصورة مناسبة ؟ هل صافحته أم أنني نسيت ذلك ؟ وهل حييّته بلطف كاف » ؟ هذه الضروب من الاجترار تنتابني ، منذ سنين ، بعد كل زيارة ذات أهمية أقوم بها ... وأصبح على درجة كبيرة من التوتّر بحيث لا أقاوم أن أتصل هاتفيا بحجة من الحجج . وعندئذ أُبدي لطفاً نموذجيا . وأبدأ أدرك أنني أهتف له لكي أبيّن الى أي حد أتصف بأنني طيّع ، وكم أرغب في أن أتعزّى وأنا أسمع أن محدّثي لا يحقد عليّ مطلقا ...

نحن هنا إذن أمام الاجتماع الكلاسيكي ، اجتماع الحصر وعاطفة الإثمية .

١) يشعر الشخص بأنه آثم .

٢) يشعر بسرعة أنه منبوذ .

٣) إنه يبحث عن أوهى الأحداث التي يمكن أن تكون نقطة انطلاق لنقد ، أو لوم ، يوجّهه محدثه ، أو نقطة انطلاق لتعكير مزاج محدثه ، ويجترّ هذه الأحداث .

٤) فيظهر الحصر .

٥) ولكي يتخلّص الشخص من الحصر ، يبدي سلوكاً يستدعي العطف والصفح .

٧) فيختفي الحصر .

ونحن نجد هنا آلية شائعة :

١) يظهر الحصر في الوقت الذي يبدو الاحساس بخطر أو بعدم الأمن ؛

٢) يبحث الشخص عن حماية نفسه من هذا الخطر وعن إيجاد ضرب من **الأمن** ؛

٣) يستخدم وسيلة أو سلوكاً من السلوكات ليستعيد هذا الأمن ؛

٤) وحينما يعثر على الأمن مجدّدا يزول الاحساس **الواعي** بالحصر. ولكن المؤكد أن الحصر اللاشعوري مستمر في وجوده لكي يبدو ثانية عندما تسنح له أوهى المناسبات .

فلنر بعض الحالات الأخرى انطلاقا من هذا المثال .

يقول أحـد الرجـال :

لا أحب شيئاً أكثر من التفاهم بين الجميع . وأكون سعيداً سعادة عميقة عندما أستطيع أن أتصالح مع أحد الاشخاص . فأكون خالياً من الضغينة ...

هذا صحيح ، أو هذا باطل ... **باطل اذا كان ثمة ضرب من عاطفة الإثمية** . فماذا يحدث ؟ يحدث أن هذا الرجل **لا يتحمّل أن يكون على خصومة مع أحد** . والخصومة تظهر لديه حصراً . إنها تعني أن « الآخر غاضب مني وينبذني » . فهو إذن سعيد عندما تتمّ المصالحة ، ولكن لا للأسباب التي يوردها . **والواقع أنه غير سعيد ، بل في حالة من الانفراج** ، لأن لديه انطباعاً بأن الآخر « صفح » عنه . فلا يمكن إذن لهذا الرجل أن يعاني الضغينة : لأن الضغينة لا تنفكّ ترعى خصومة محتملة ؛ الأمر الذي لا يتحمله ، ما دام الحصر يبدو مباشرة .

فنحن ، هنا أيضا ، إزاء اجتماع الحصر ومشاعر الإثمية . **وهل هذا الرجل متسامح حقا** ؟ كلا : إنه ، من الناحية اللاشعورية ، عدواني بعمق ، ويحسب أنه على حق دائماً ، الخ . ولكنه يلعب لعبة التسامح دون أن يعلم . إنه يبدو متسامحاً ، لأن هذا الموقف يتيح له أن يكون موضع « اعتبار » وموضع إعجاب بسبب « طبعه الكامل » (١) . وهو يتجنّب إذن ، على هذا النحو ، أن يكون موضع نقد... وبالتالي يفلت من الحصر.

---

١ ـ انظر « كامل خوفاً من أن يكون غير كامل » فيما يلي من هذا الفصل .

هاكم أيضا بعض الامثلة المأخوذة من بين الأمثلة الأكثر شيوعاً . إنها تتيح لكثير من الأشخاص أن يحتازوا الشعور ببعض الآليات التي تتصف نسبيا بأنها عميقة الى درجة ليست قليلة ، وبأنها ، في جميع الأحوال منتشرة الى حد كبير . يضاف الى هذا أن الحصر وعاطفة الاثمية يتعاونان كذلك في هذه الأمثلة .

ثمة أشخاص يقولون . . .

ــ املك سيارة . وأعلم أنها لا تفقد زيتاً . ومع ذلك ، ففي كل يوم ، بل خلال مرتين في اليوم ، أتحقّق من مستوى الزيت . إنه أمر أقوى مني . وإذا لم أنجز هذه العملية ، أشعر بأنني على غير ما يُرام وأنا أقود سيارتي . وقد يُقال لي إن ذلك بسبب خوفي من إتلاف المحرّك ، ولكنني أشعر بأن الامر غير ذلك على الاطلاق . ثمة شيء في داخلي يقول لي : « أنت لم تفعل ما كان ينبغي أن تفعل . . . » .

ــ أعيش وحيداً . ولدي بعض الدخول التي تتيح لي أن أفعل ما أرغب . فأستطيع إذن ، إذا رغبت ، أن أنهض من فراشي العاشرة صباحاً ، أو أنهض الخامسة . والحال أنني أنهض من فراشي في السادسة . ويتعذّر عليّ أن أظلّ في سريري وقتاً أطول . فأشعر بالإثم إذا نعمت بالراحة فترة أطول . وإذا نلت بعض اللحظات من الراحة ، خلال النهار ، أشعر بأنني أسأت صنعاً . وأحسّ بأن أحداً سيلومني . . .

ــ إذا كان صاحب البقالة الموجودة على الزاوية ذا مزاج سيء ، أقول مباشرة إنه يحقد عليّ . فأشعر عندئذ بأنني على غير ما يرام ، وأقلّب الأمر على وجوهه ، وأشرد . وأتصل على الغالب بالهاتف ، فأطلب منه قائمة كبيرة من الأغراض .

فلنقسم ، ونحن نردّد ما قلناه سابقاً ، هذه الآليات الى أربع نقاط رئيسة :

١ ــ ضرب من الإحساس باللاأمن يظهر ، فيصعد الحصر إزاء هذا الظرف أو ذاك ؛

٢ ــ يبرز من اللاشعور ضرب من عاطفة الإثمية المتموضعة ؛

٣ ــ يفعل الشخص « شيئاً ما » من أجل أن يجد إحساساً بالأمن مجدداً ؛

٤ ــ فيختفي الحصر .

لناخذ الحالة الاخيرة : حالة السيد وصاحب البقالة .

١ ـ يبدو أن صاحب البقالة ذو مزاج سيء ، أو إنه كذلك فعلاً . وهذا المزاج السيء « يحرّك » عاطفة الإثمية التي يعانيها الشخص .

٢ ـ ويظهر ضرب من اللاامن (« هل صاحب البقالة يحقد عليّ ؟ »). ويعقبه الحصر مباشـرة .

٣ ـ وسيحاول الشخص أن يجد الأمن مجددا . ويهتف لصاحب البقالة ليطلب قائمة كبيرة من الأغراض . أولاً ، لأن من المفروض أن يمنحه هذا الطلب « عرفان » صاحب البقالة بالجميل . والواقع أن هذا السيد يبحث عن « عطف » الاب ... وصاحب البقالة على بعد الف فرسخ من ان يشتبه بدوره الرمزي ! ويشعر الشخص بأنه « موضع اعتبار » . ثانيا ، لأن هذا الطلب يتيح له في الوقت نفسه أن يتحقق ، بالهاتف، اذا كان صاحب البقالة ليس « غاضبا أبداً » منه ، أي اذا كان « أبوه » لن يقوم بخصائه .

٤ ـ ويشعر الشخص بأن الصفح عنه قد تحقّق (صفح الاب أو السلطة) . فيبدو الأمن مجدداً ، ويختفي الحصر .

نرى هنا اذن امراً ذا اهمية . فالشخص المصاب بالحصر والإثمية يحتاج الى حماية مباشرة من حصره ومن إثميته . وثمة هنا أمـران لهما أهمية كبرى :

١ ـ بما ان عاطفة الإثمية والحصر دائمان ، فالحاجة الى الأمن **دائمة كذلك** . ويتضح مباشرة أن هذا الشخص سيتبنّى ، **خلال حياتـه كلها في بعض الأحيان** ، سلوكات وأساليب في العيش تتيح له أن يفلت من حصره ، وأن لا يشعر بأنه آثم . فالخوف من السلطة سيتم إسقاطه على أي شخص ...

٢ ـ اذا أصيبت آلية الامن بـ « الإخفاق » ، ازداد الحصر . فلـو أن صاحب البقالة ، على سبيل المثال ، بدا غير لطيف خلال طلب الاغراض

بالهاتف ، لما احسّ الشخص بالصفح ، ولاتخذ حصره أبعاداً أكثر اتساعا .

فلا بد إذن من أن يطرح الانسان على نفسه هذه الأسئلة ذات الأهمية:

ماهي ضروب الأمن التي يستخدمها شخص معيّن ؟ على أي امن يرتكز توازن هذا الشخص ؟ ما هي الوسائل المستخدمة للإفلات من الحصر ؟

لنتناول الآن مجدّدا **حالة سائق السيارة** الذي يغالي في التحقّق من زيت سيارته .

ما هو حصره ؟ يمكن الاعتقاد ، للوهلة الأولى ، بأنه يخشى أن يتلف سيارته . وذلك أمر لا يصمد مطلقاً ، للوهلة الثانية . ويمكن تحليل هذا المثال الى أربع نقاط :

١ ــ إذا لم أتحقّق من زيت السيارة مرة واحدة في اليوم ، فلدي انطباع بأنني لست نظاميا ؛

٢ ــ إزاء هذا الانطباع بأنني لست نظامياً ، يظهر الحصر ؛

٣ ــ عليّ أن أبحث عن حماية وأمن من هذا الحصر ؛

٤ ــ فلا بد لي إذن من التحقّق والتحقق مجددا من مستوى زيت السيارة .

وثمة سؤال يطرح نفسه هنا : أمام **من** ينبغي على سائق السيارة هذا أن يكون نظاميا ؟ أمام شيء ما موجود **في نفسه** بالتأكيد . وهنا نقع مجدّدا على **الأنا العليا** التي تكلمت عليها مطوّلاً في الفصل الحادي عشر « عندما الشيطان يقود الرقص » . فثمة ، لدى هذا الشخص ، شبكة من الإثمية اللاشعورية تلزمه دائماً بتبرير سلوكه لجميع الناس ، بدءاً من رجل الأمن الشرس الموجود في نفسه .

فهذا الشخص سائق السيارة مصاب إذن بهوس ووسواس لا يزالان ضعيفين . ونرى ــ مرة أخرى ــ أن هذا الهوس ليس سوى عرض يرتكز على مشاعر عميقة من الإثمية .

٣ ـ عندما يغلق المرء أبواب الحصر بالمزلاج .

من المفيد ، قبل أن نمضي الى الامام كثيراً ، ونظراً لما أتينا على رؤيته ، أن نقدّم تفصيلاً لبعض صور الحصر الكثيرة الشيوع :

لنتذكر : الحصر ← الخطر العميق ← الصراع ← التمزّق ← المآزق اللاشعورية ← فقدان الأمن.

ولنكرّر أن الحصر لاشعوري على الغالب ، ويولّد آليات أمن تتصف ، في معظمها على الأقل ، بأنها لاشعورية أيضا .

ومن المؤكد ان كثيراً من صور الحصر ، في الجدول الذي سيلي ، تتلاقى . يضاف الى هذا أن بعض هذه الصور ستكون موضع تفصيل في حالات فردية فيما بعد . كذلك سنرى أيضاً حالات خاصة ذات علاقة على وجه الخصوص بعقدة أوديب وعقدة الخصاء . وسنفحص الإثمية الطفولية ، فيما بعد ، نقطة انطلاق لضروب الحصر العميقة والدائمة .

إليكم إذن مجموعة من ضروب الحصر الشائعة وضروب الأمن العصابية المثارة ضدها . وعلينا أن لا ننسى ، كما قلت ذلك آنفا ، أن معظم هذه السلوكات تغزو الحياة برمتها دون أن يكون لدى الفرد ، على الأغلب ، أدنى شعور بها . ومن المؤكد أن هذا الجدول يعرض ، عرضاً موجزاً ، سلوكات يقوم الواحد منها على الغالب مقام الآخر .

صور الحصر العميق يخاف من :	ضروب الأمن ضد الحصر يبذل كل جهد لكي :
	ـ يكون موضع اعتبار ـ يتجنّب كل خطأ ـ يبدو كاملاً ـ يبدو دون مطعن
ـ ان يكون منبوذاً	ـ يخفي أوهى معايبه(أو «يبسطها» بصراحة ليكون موضع إعجاب)
ـ ان يكون مهملاً	ـ يسبّب البهجة
ـ أن يكون موضع تسامح	ـ يجتذب العطف

ـ أن يكون موضع نقد ـ أن يكون موضع لوم ـ أن يكون موضع حكم سيء ـ أن لا يكون محبوباً ـ أن يظهر غير كامل ـ أن يبدو عدوانيا	ـ يحتفظ برقة لا مطعن فيها ـ لا يكون عدوانيا أبداً ،وغير غاضب أبداً ، وغير خبيث ـ لا يعارض ولا يعاكس ـ يبدو طيباًومتسامحاً ودبلوماسيا ـ يبحث عن الاحساس بأنه محبوب ومقبول وغير ذي موضع للطعن أبداً ، وموضع الصفح دائماً
ـ أن لا يكون افضل الجميع ـ أن لا يكون الأول بين الجميع	ـ أن يظهر كاملاً ، مرحاً ، ذكيا متواضعاً ، فهيماً ، موضع إعجاب ، آسراً
ـ أن يكون مخطئا	ـ يكون على حق بأي ثمن ـ يتجنب كل خطأ ـ يحتفظ بهدوء مزيف وبمرح مزيف ،وبصلابةأو بالظهور بمظهر اللامبالي
ـ أن يحتفظ بشخصيته ـ أن يكون عفويا	ـ يعظّم الارادة والعقل الصلب ويحتقر الغرائز
ـ أن يكون غير نظامي	ـ يسلك طريق « الواجب » ـ يبقى على « حذر »نفسي أمام الغير ـ يسوّغ أعماله ويقدّم تبريراً لها ـ يتحقّق الى درجة المبالغة من بعض الاعمال (هوس ووساوس) ـ يتملّق الغير ـ مازوخية ـ يقلّص حياته وحاجاته
ـ أن يؤكد ذاته (انظر « الخصاء »)	ـ يخضع لراي الغير خوفاً من إثارة الآخرين (زهو) ـ يصغّر نفسه ـ يعجب بنفسه ـ يبقى في حالة الدونية او الإخفاق ـ يعظّم التواضع

	ـ يكون « خجولاً »
	ـ يبحث عن العطف والحماية
	ـ يختار الوظائف الثانوية
	ـ يكون لديه براهين دائمة ومبالغ فيها على المودة أو الحب
ـ أن يكون غير محبوب	ـ يضبط سلوكه على سلوك الآخرين
	ـ لا يؤكد ذاته ، وثمة رعب لديه من أن لا يعجب الآخرين
	ـ يكون دون جوانا ، وثمة لديه خوف من النساء ومن السلطة
	ـ يكون موضع اعتبار كل سلطة
	ـ يكون لديه خضوع عدواني
	ـ وتخنث بالنسبة للرجال واسترجال بالنسبة للنساء
	ـ وحاجة لاشعورية الى الإخفاق
ـ أن يخصى (انظر هذا الأمر ذا الأهمية الكبيرة في الفصل الأخير)	ـ ومازوخية وخضوع للسلطة
	ـ وجنسية مثلية كامنة
	ـ وسيطرة عدوانية على الآخرين (سادية)
	ـ وغيرية مغالية وحاجة الى الألم الذي تضفى عليه المثالية (احتقار الآخرين في الواقع)
	ـ يفعل كل شيء للآخرين ولا شيء لنفسه
	ـ وثمة لديه خوف من أن « يخدع » وحاجة الى أن « يخدع » الآخرين (بعض رجال الأعمال)
	ـ وإعجاب بالعدوانية ، وبالنية السيئة في بعض الأحيان
	ـ وحاجة ملحة لتجاوز الآخرين
	ـ واحتقار لضعف الآخرين (والواقع انه احتقار لضعفه الذي يسقطه على الغير) .

ونرى على هذا النحو ، ونحن نلاحظ هذا الجدول ، ان حياة ملايين من الأشخاص يلخصها بعض الأسطر . . .

٤ ـ كامل خوفا من أن يكون غير كامل .

بالرغم من انني تكلمت على « الاستكمالية » في مؤلفي الاول (١) ، أعتقد أن من الضروري أن أتناولها مجددا من زاوية مختلفة كل الاختلاف . والمقصود بالفعل آلية **شائعة جدا** ، آلية دفاع ضد الحصر . إنه دفاع اجتماعي : فمن المنطقي إذن أن تكون الاستكمالية رائجة رواج الصلات الانسانية .

ويفضّل كل فرد ، بصورة طبيعية ، ان يكون محبوباً على أن يكون مكروها ، ويفضّل أن يكون مقبولاً في جماعة على أن يكون منبوذاً .

يضاف الى هذا أن الخوف من العزلة والإهمال والانفصال عن الآخرين يتصف بأنه ربما كان أشد خوف يتسلّط على الموجود الانساني .

وانطلاقا من هذا الحصر إنما ينمو الاستكمالي . والكلام ، في الحقيقه، ينصبّ على حصر الطفل الذي يخشى ان يهمله ابواه ، وأن يجد نفسه وحيداً في عالم عدائي وشديد الخطر .

وعاطفة الإثمية تمنح الإحساس العميق بـ « الخطيئه » . ويمكن للشخص الذي يعاني مشاعر الإثمية أن يوجّه لنفسه اكبر ضروب اللوم ، هذا من جهة . ولكنه ، من جهة ثانية ، لا يتحمّل أن يضع الغير ، ولو كان صديقاً ، شيئاً من الاشياء موضع الشك فيما يخصه . فثمة إذن ، في هذا المجال ، ضرب من التناقض الكبير يمكن فهمه مع ذلك بصورة جيّدة .

فالشخص الذي يعاني مشاعر الإثمية تابع لرأي الآخرين . إنه يعيش

---

١ ـ انظر « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » .

تبعا لرأي الآخريـن . ويكابد الحصر مباشرة إذا اعتقد بأن للناس رأياً غير مناسب فيــه .

يقول أحد الرجال :

ـ إنه لغريب مع ذلك أن يجعلني اغوص في مثل هذا الضيق رأي سيءيمكن أن يكون لدى أحد الناس فيّ ! ويستوي في ذلك أن يكون هذا الرأي رأي أحد المستخدمين عندي او رأي رئيسي . وأحسّ عندئذ بأنني سأقدم على أي تفاهة كانت ، حتى أزيل هــذا الانطباع بأنني موضع حكم سيء .

ويقول شخص آخر :

ـ أقع مريضاً بمجرد أن يبدو ذكائي موضع شك .

ولكن هذا الشخص ، الذي يرى الآن بوضوح أكبر ، يستأنف كلامه :

ـ والحقيقة أن ما أرغب فيه يتجسّد في أن أكون موضع إعجاب . فاذا لم أكن موضع إعجاب ، شعرت بالقلق وأنا أتساءل لماذا لا أستحق ذلك ، وما الشيء الـذي بسببه لا أستحقــه ...

ويدلّ هذا الرجل على آلية ذات أهمية . إنه ، في الحقيقة ، لا يرغب **في أن يكون موضع إعجاب** ! بل **يخاف أن يكون موضع احتقار** . وسنرى السبب حالاً .

وبما أن الشخص المصاب بمشاعر الإثمية يخشى أن يكون موضـع نقد ولوم ، فانه بالتأكيد **سيبذل قصارى جهده** لكيلا يكون موضع لوم . وسينمّي لديه سلوكاً يضعه في مأمن من كل نقــد ، وبالتالي في مأمن من الحصــر .

ويحاول الشخص عندئذ أن **يبدو للآخرين بمظهر هو مـن الكمال بحيث يصبح منيع الجانب به** . فهو يقول في نفسه بصورة لاشعورية :

ـ لا ارغب في أن أنزع قناعي . فلو نزعت قناعي ، لرآني الناس على ما أعتقد أنني عليه . واذا رآني الناس كما أنا ، فانهم لن يحبوني أبداً ، وسينبذونني .

وتستمر المحاكمة :

– عليّ أن أبدو بمظهر حيث يصبح متعذراً أن أكون موضع نقدهم .

ويفلت الشخص ، تدريجيا ، من الحصر بفضل مظهر الكمال لديه .

وثمة آلاف ممكنة من صور الاستكمالية . وتتصف هذه الصور في بعض الأحيان بأنها غير متقنة ، وبأنها في منتهى الإتقان أحيانا أخرى . فقد يبدو المرء ، على سبيل المثال ، مثقفاً بصورة كاملة ، ذكياً على أتم ما يكون الذكاء ، مهذباً الى أبعد حدود التهذيب ، لطيفاً في منتهى اللطف ، وأعني بذلك استبعاد كل عدوانية تعرّضه الى فقدان الاعتبار . ويمكن للمرء أن يبدو أنيسا كل الأنس ، علاّمة (ويتظاهر بما لا يتصف به إن كان لا يتصف) ، طيباً جدا ، متواضعاً جـدا ، هادئاً جدا ، عطوفاً جدا ، الخ .

ويمكن ، أخيراً ، أن يبدو المرء على أكمل ما يكون في كل ما يرغب . والهدف ، وأكرّر ذلك ، **أن لا يكون موضع نقـد وأن يكون محبوباً** . ومضمون ذلك : « **انظروا كم أنا كامل ، إذن لا تحقدوا عليّ ، احبّوني ولا تنبذوني ...** » .

ومن المؤكد أن بالإمكان الإكثار من الامثلة الى ما لا نهاية . فالاستكمالية تمثّل جهازاً من الدفاع يتصف بأنه هائل أحياناً . إنها ، على الغالب ، حياة برمتها تنبني ، ثانية بعد ثانية ، بهدف أن يكون المرء موضع الاعتبار **بأي وسيلة من الوسائل** .

والاستكمالية ، بدورها ، تولّد الحصر . فالخوف من النقد أو اللوم دائم . والحصر المنوط به دائم كذلك ، ويمكن لأوهى هفوة في السلوك أن تولّد ضروب الحصر والاجترار النفسي . وهذا يعني أن الحصن مهدّد باستمرار ، وأن الملاط الذي يمسك الآجرّ ينبغي تجديده يوميا . وهذا يكلّف كثيراً من الطاقة . ذلك أن الاستكمالية تولّد إرهاقا انفعاليا يزداد شدة بمقدار ما يتصف بأنه لاشـعوري . فالشخص الاستكمالي ، في المجتمع ، شخص يترصّد دائماً ويراقب نفسه أبداً ، ولا يتّسم على الاطلاق بأنه على سجيته . إنه يبحث ، بحثاً مستمراً لاشعوريا ، بأي

اسلوب يمكن أن يظهر بمظهر أكثر ما يكون اتصافا بانه مناسب . فثمة ، بالتالي ، توقف لكل عفوية ، والشخصية المزيفة دائمة ، مع ضروب الكف والحصر والتهيب ، الخ .

فلنكرر إذن ان الاستكمالية هي الجهاز الدفاعي الأكثر استخداماً بصور مختلفة ، لأنها تحمي ضد حصر إنساني شديد ، حصر أن يكون المرء منبوذاً ومهملاً .

يضاف الى هذا ان الاستكمالية ، شأنها شأن كل عصاب ، لا تنشأ في يوم واحد . إنها تنمو على الغالب انطلاقا من تربية تولد مشاعر الإثمية . فلا شيء ، هنا كذلك ، على السطح ، والشفاء منوط بضروب من احتياز الشعور التي يمكن إنجازها في اثناء التحليل النفسي .

راينا ، فيما سبق ، شتى حالات الاستكمالية . وها هي ذي حالة اخرى تدلف ، انطلاقاً من الاستكمالية ، نحو **عقدة أوديب والمازوخية وحصر الخصاء** ، وتلك اوضاع **رائجة جدا** بصورة عديدة ممكنة .

مساعد ناجح

السيد ل ، في الخمسين من عمره ، متزوج ، طفل ، يعاني مشاعر الدونية ، والتهيب الذي يشل ، والتهيج ، والتعب الشديد ، والحصر .

يقول السيد ل :

ـ أنهكني العمل في المكتب ، واعمل كثيراً من الساعات الإضافية و . . .

ـ هل هذه الساعات الاضافية ضرورية ؟

ـ آه أرجو ، ليست ضرورية مطلقا ! وظيفتي وظيفة ثقة . فأنا معاون مباشر للمدير ! ولكن ذلك ، بالتأكيد ، يجبرني على العودة متأخراً الى المنزل جدا . الامر الذي يجعل حياتي الزوجية لا تسير دائماً على أحسن ما يرام .

ثمة ، مع ذلك ، أمر يثير الدهشة لدى السيد ل :

ـ ما لا أفهمه هو أنني متهيّج في عملي دائماً . هل هو التعب ؟ لكنني لا أعتقد ذلك . فأنا دائماً في حال كأن شيطاناً يلاحقني . وعندئذ أتوزّع بين عشرة أعمال مختلفة ، ولا أنهي أيا منها ... على الأقل كما أتمنى ... ثم ، هذا الحصر الدائم على وجه التقريب ...

فماذا لدينا حتى الآن ؟

ساعات إضافية ـ إنهاك ـ تهيّج وتوزّع ـ حصر ... أعني ليس ثمة لدينا شيء هام محدّد .

وبدأ التحليل بصورة طبيعية. وما تخلّف السيد ل عن جلسة واحدة بالرغم من العمل الذي يرهقه .

ومع ذلك ، يقول السيد ل :

ـ عندما أبدأ شيئاً من الأشياء ، أقوم به **بصورة مخلصة والى أبعد حدود الإخلاص** . إنني أتعاون تعاوناً كاملاً . وذلك كما هو الشأن في المكتب : إنني أصل في الساعة المعتادة ولو كنت مريضاً .

والواقع أن السيد ل يصل دائماً قبل مديره بربع ساعة . فهل ذلك لكي يكون كل شيء جاهزاً قبل وصول الشخصية الرئيسة ؟ كلا ، على الاطلاق ، بل لكي يلاحظ المدير يوميا أن معاونه على رأس عمله باخلاص ودقة كاملين . فهل ذلك ضرب من التفاني ؟

لنر التتمّة :

ـ إنني ، يقول السيد ل ، رجل يمكن الاعتماد عليه .

هذا صحيح ، ولكننا سنرى أن الدافعيات مزيّفة ، وأن الحصر ليس موجوداً من أجل لا شيء ...

وشغرت وظيفة المدير يوماً من الأيام . وكلّف السيد ل نفسه كثيراً من الجهد ... ولكن لا من أجل ذاته ، لا من أجل أن يحصل على هذه الوظيفة الجدير بها مع ذلك ، بل من أجل مرشح ممتاز آخر .

ـ هل تفهم ؟ قال السيد ل . **صحتي** لا تسمح لي أن أصبح مديراً عاما . وفضّلت أن يكون شخصاً آخر **أبقى معاونه** . وعندئذ دعمت ترشيحه الى أبعد الحدود ...

وعلمت فيما بعد أنه كان يدعم على وجه الخصوص هذا الترشيح عندما كان بامكان المدير الجديد أن يعرف ذلك . فهل هذا تزلّف ؟ أم تملّق ؟ ليس هذا ولا ذاك على الاطلاق .

ها هو ذا المدير الجديد ، إذن ، قد استقرّ في وظيفته . واستأنف السيد ل ، بالحماسة نفسها ، دوره بصفته معاوناً للمدير لا غنى عنه ، ناجحاً ، يقضم عمل المدير ، الخ .

وقال السيد ل ، متشنجاً جداً ، في أحد الأيام (وهذا يلخص كل شيء . . .) :

ـ أنت تعلم ، فكرت كثيراً . حاولت أن افعل ذلك بإخلاص . وفهمت انني اشتغل ساعات إضافية لانني لا أجرؤ على الانصراف في الساعة المحدّدة . . .

ـ وهل ينصرف مديرك في الساعة المحدّدة ؟

ـ نعم ، دائماً . ولكنني أتدبّر أمري لكي يكون على علم بعملي في المساء . فأنا اضع على مكتبه رسالة ، أو كلمة ، أو شيئاً ما من هذا النوع . . . ولكن لماذا لا أجرؤ على الانصراف في الساعة المحدّدة ؟

ـ للسبب ذاته الذي يجعلك تصل ربع ساعة مبكراً في الصباح . . .

ماذا يحدث ؟

ما هو ظاهري	ما هو لاشعوري
مخلص	آلاف من « الوسائل » لكي يلاحظ الناس ان السيد ل مخلص ومتفان . فهو ، على سبيل المثال ، عندما يقول لمديره : « إنني ، عندما وصلت أمس الساعة السابعة . . . » ، في حين أن المكاتب تفتح أبوابها **الساعة التاسعة** وانه وصل **الساعة الثامنة والنصف** . ويعلم السيد ل أنه يكذب ، ولكن ذلك لا يمضي أكثر بعداً . وهو لا يعلم إلا بصورة غامضة جدا انه يبحث عن أن « يرفع من شأن نفسه » .

مهـــذب	عدوانية مكبوتـــة .
متواضـــع	شريطة أن يعلم الناس أنه متواضع ، كما هو الأمر بالنسبة للاخلاص ؛ الأمر الذي يمنحه الاحساس بأنه موضـــع إعجاب ، وبالتالي ، مقبول .
« متعاون » جـــدا	مستقل بصورة فظة وعدائي .
متوار وخجـــول	يتوارى كيما يتجنّب الدخول في منافسة . ويتذلّل حتى ينال الصفح .

قال السيد ل ذات يوم :

ـ خمس سنوات انصرمت لم أطلب خلالها أي زيادة على أجري ... كانت زوجتي تدفعني الى طلب الزيادة ، وكنت أجيبها بأنني أحصل على ما يكفي مقابل ما أقدمّه . ولكنني أرى الآن أن ذلك كان خدعة رائعة ! إن هذا لا يزال غامضاً جدا ... بيد أنني أحس بأن **الأمر كما لو أنه ليس لي الحق** بمرتبي (المرتفع الى حد ما) ، ، وأنني **لا أستحق دراهمي** ... والحقيقة أنني أعمل كثيرا لأمنح نفسي الانطباع أنني أدّيت على نحو واسع مقابل ما يدفعونه لي في نهاية الشهر ...

نحن إذن في حالة من الاستكمالية ، **مظاهرها هي التالية** : أن يكون مساعداً متفانياً كل التفاني ، مخلصاً كل الاخلاص ، لا يمكن نقده في أي مجال ، الأمر الذي يتيح للسيد ل أن يفلت من الحصر ، حصر كونـــه منبوذاً ، وحصر المنافسة .

بيد أننا ، بالاضافة الى ذلك ، **في وضع أوديبي** (انظر فيما بعد هذا المشكل ذا الأهمية الكبيرة جدا) . وإذ يُظهر السيد ل نفسه كثير التفاني و « رجل ثقة » كثيراً ، **فانه يضع نفسه تحت الحماية العطوف** ، حماية « أبيه » (المدير) . والسيد ل مصاب كذلك بـ **حصر الخصاء** (انظـــر الفصل التالي) . انه يخشى السلطة . وهو ، بموقفه ، يحاول الحصول على حسن التفاتها (حتى لا يكون موضع الخصاء) . والمقصود ، في نهاية الأمر ، **مشكل من مشكلات المازوخية** (وضع المرء نفسه في موضع أدنى ، وتصغير النفس ، والتجرد من الرجولة ، وتجنّب المنافسة ، والخضوع ،

الخ) **تحت مظاهر برّاقة** : إخلاص ودقة وعمل مثالي ، الخ .

فالسيد ل إذن في حالة « الجندي الكامل » الذي سنراه فيما بعد ، والذي يخفي إخلاصه التام للوطن ولرؤسائه (حصر الخصاء ذاته . . .)

ولكن من المؤكد أيضا أن السيد ل كان سيبقى ، لولا التحليل النفسي ، « مرؤوساً كاملاً » ، تزداد إصابته بالحصر ، حتى نهاية حياته . . .

ثالثا ـ البحيرة السوداء

يتضح إذن أن مشكل الحصر والإثمية مشكل رئيس . والحصر والإثمية هما المسؤولان الكبيران منذ أن يترك الوجود الانساني خطوط سيره ، وذلك ما يحدث منذ عهد الطفولة غالباً . ويتصف مشكل الحصر أيضا بأنه رئيس بالنسبة للآباء : إما لأنهم مصابون هم أنفسهم بالحصر ، ولا شيء أكثر اتصافا من الحصر بأنه ينتقل بالعدوى ؛ وإما لأن عليهم أن يعرفوا آليات الحصر الكبرى لدى الطفل والراشد . ذلك أن عدد الآباء المصابين بالعصاب كبير العدد اذا كان عدد الأطفال المصابين بالعصاب كبيراً جداً . فثمة في هذه المجال مشكل ذو أهمية قصوى ، مشكل من الاحتياط والوقاية .

بيد أن من الضروري ، من أجل ذلك ، أن ينتشر علم نفس الأعماق انتشاراً متزايداً . ولن يكون هذا الأمر قريبا ولا ريب : وبانتظار هذا الانتشار ، سيكون هناك أيضاً كثير من الحيوات الانسانية المحطّمة .

١ ـ طرف الأنف ليس طرف العالم

يظل صحيحاً ما قلته في بداية هذا الكتاب . فلن يكون ثمة أي « نصيحة صغيرة » لمحاربة الحصر . ذلك أن الحصر ليس ، **على الاطلاق** ، زبداً سطحيا . وموقعه دائماً في أعمق أعماق الشخصية حتى ولو كان المقصود أزمة حصر : بالنظر الى أن هذه الازمة ليست سوى التعبير عن

اضطراب عميق . وتتصف بعض التقنيات ، كالاسترخاء واليوغا ، بأنها قيّمة على الغالب . ولن اتكلم عليها . وبما أن العدو يختبىء غالباً في قعر اللاشعور ، فمن هناك انما ينبغي اقتلاعه .

كذلك فان الطبيب يصف المهدّئات عندما يكون الحصر شديداً . وهو مصيب بالتأكيد . فربما كانت المهدئات عقاراً من العقاقير الأكثر اتصافاً ، في الكيمياء الحديثة ، بأنها ثمينة .

ومن المعلوم أن المهدّئات غزت العالم . وذلـك يحمل على القول في بعض الأحيان إن أولئك الذيـن يتناولونها بافراط يظهرون ضرباً مـن « الجبن » أمام الحياة . وهذا قول عبث . فأن يكون ثمة خوف أمـام الحياة ، نعم ، أما الجبن ، فلا . إن الجبن لا يعني شيئاً ، وهو ليس سوى كلمة جوفاء وتعبير عن عرض من الأعراض . ولا موضع لإدانة عرض. فذلك يعادل ما لو أطلقنا حكماً على الهواء . فالجبن يعني الخوف والهرب. ولكن ، من يرغب ، بمقتضى العقل ، في أن يكون خائفاً وهارباً ؟ الخوف والهرب يعنيان أن ثمة سبباً ، وانه لا بد من البحث عنه .

واكثر اتصافا بالمنطق أن يقول المرء لنفسه : إنني خائف ومصاب بالحصر ، وجميع جهودي ينبغي أن تتجه صوب **سبب** هذا الخوف . وما أن يزول القناع عن هذا السبب حتى يزول خوفي (١) .

ذلك أننا ننسى في أغلب الأحيان أيضا ان الدماغ ليس سوى عضو كغيره ، وأن له الحق تماماً ، هو أيضاً ، في أن يكون له تداخـلات وأعطـال في التيـار .

وفي سـماء العصاب السوداء ، يتصف الحصر بأنـه ضرب مـن

---

(١) انظر فصل « احتياز الشعور » ، الفصل التاسع .

الماستودونت (*) غير المرئي على الغالب ، لأنه لاشعوري ، ولكنه يؤثر تأثيرا متزيداً دون عائق (١) .

ويعرض الحصر مئة الف وجه . وليس ثمة وجه واحد بينها واضحاً . وعندما يلتقي به موجود إنساني ، فانه ينهزم ويبحث عن حماية منه . وقد رأينا ذلك أيضاً . وعندئذ ينمّي الموجود الانساني مجموعة كاملة من الشخصيات المزيّفة التي ، للوهلة الأولى ، يمكنها ، في بعض الأحيان، أن تبدو أصيلة جدا ورائعة جدا . إن ذلك يشبه عندئذ ماء شديد الخطر ، يختفي تحت حديقة مزهرة .

ومما يدعو الى الاطمئنان معرفتنا أن التحليل النفسي يفلح في استئصال معظم صور الحصر .

٢ ـ الحصر في أثناء التحليل النفسي

يسلك المريض في أثناء التحليل النفسي مثلما يفعل في حياته اليومية . ومع ذلك ، تتصف سلوكاته بأنها تتجمّع وتتبلور وتتألف في اثناء جلسات التحليل . ومن المؤكد أن بواعث الحصر ، خلال التحليل ، عديدة الى اقصى حد . والمريض ، من حيث المبدأ ، ينبغي أن يظهر كما هو . وعليه أن يتعرّى ، ويكفّ عن التمثيل ، ويحاول أن يكون على سجيته بكل ما لهذا المصطلح من معنى . ونرى الآن أن ذلك هو الباعث الأول للحصر الذي يتصف في بعض الأحيان بأنه شديد . ولنفترض ، بالفعل ، مريضاً يعاني حصراً دائماً ، حصر فقدان الاعتبار ، والحكم السيء ، والنبذ ، الخ . فأن يكون الحصر جاهزاً في ميعاد الجلسات خلال جزء كبير من التحليل ، أمر مفهوم بصورة جيدة جدا . وهذا المريض ، على سبيل المثال ، « سيغش »

---

* ـ حيوان لبون متحجّر ، من العصر الحجري الثالث والعصر الحجري الرابع ، يشبه الفيل . والمقصود هنا شيء ذو حجم هائل «م» .

(١) ـ انظر « الطب النفسي الجسمي » في « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » .

ويحاول أن يجعل « المحلّل ينظر إليه « نظرة اعتبار » . فيجانب ذاته ويرفض ، شعوريا أو لاشعوريا ، أن يظهر كما هو . وثمة ، في الوقت نفسه ، توتّر يظهر لديه ، توتر تولّده الرغبة الشعورية في أن يظهر كما هو ، والخوف اللاشعوري من أن يفقد اعتباره . وهناك مثال آخر : العداوة التي يحسّ بها المريض إزاء محلّله ، تولد على الغالب ضروباً من الحصر الشديد جدا .

ويبدو الحصر أيضا في الوقت الذي تبدو فيه المقاومات . ويبدو الحصر كذلك عندما يتم الاقتراب من آليات الأمن العصابية أو عندما يجري مسّها ، أو عندما يتم الكشف عن بعض مظاهر شخصية المريض ، مظاهر يفضّل أن تبقى مستورة .

ولكن الحصر يبدو أيضا ـ بصورة مفارقة ـ عندما تبدو أوائل ضروب الشفاء . وقد بيّنت ذلك من قبل.إنه صنف حقيقي من « **حصر الحرية**» . إنه انتقال من مرحلة الطفالة الى مرحلة الرشد ، والخروج من السجن نحو الحرية : حرية مجهولة ما تصدّى لها المريض قط . ويفهم المرء تمام الفهم أن الحصر يبدو عندما يضطر المريض الى التخلّي عن ضروب أمنه ، وملاجئه ، وعكازيه ، وآرائه المسبقة ، ودروعه ، وأثوابه القديمة. إنه عندئذ الحصر نفسه الذي يستولي على مراهق يترك منزل الأسرة الذي كان يحميه ، ولكنه الذي كان يقيّد حريته ، لكي يخطو خطواته ، خطوات الرجل الراشد في حياة حرة وشديدة الخطر نسبياً .

٣ ـ الحلول الأكثر تواتراً لمواجهة الحصر

ثمة ثلاثة حلول مستخدمة على نحو شائع لمواجهة الحصر :

آ) بذل جميع الجهود للاحتفاظ به مطموراً ، ومحاولة إيجاد نمط من الحياة يجعله منسياً ، وذلك ما رأيناه وسنراه . وفي النسق ذاته من الأفكار ، يستخدم الشخص المصاب بالحصر مهدّئات ، وينطلق في عمل عنيف ، ويرتاد السينما خمس مرات في الأسبوع ، ويسافر ،

ويخرج ، ويتسلى ، ويشرب الخمر ،الخ . وتعني هنا إذن كلمة « نسق »: فعل كل شيء لمنع الحصر من أن يتجلى .

ب) يمكن أن يحاول الشخص المصاب بالعصاب أن **يتسامى** بالعصاب . فقد ينطلق على سبيل المثال ، تحت ضغط العصاب ، في مهنة فنية ، في نشاطات غيرية ، في رحلات كشف عظيمة ، في أسفار كبيرة ، الخ . وبناء عليه ، فان من العسير دائماً تمييز ما يتم إنجازه تحت ضغط الحصر مما يتم إنجازه دون ضغطه .

حـ) يمكن اقتلاع الحصر ونزح البحيرة المسمومة التي يمثلها . وهنا إنما يتدخل التحليل النفسي .

٤ ــ هل تستطيع الارادة أن تفعل شيئاً ضدالحصر؟

الارادة **عاجزة** ، بصورة عامة ، عن مواجهة الحصر . وكل ما يستطيع المصاب بالحصر ان يفعل هو محاولة إقناع نفسه انْ ليس ثمة اي داع لأن يكون مصابا بالحصر . ولا جدوى من ذلك في تسع حالات من عشر . فالحصر يستمر شبيهاً على الوجه الدقة بما لو ان اي محاولة لم يكن قد تمّ القيام بها لمواجهته .

وهذا امر يمكن فهمه جيدا . فالارادة والجهد ، الشعوري والارادي، يقعان في المستوى **الشعوري** . والحصر ، إياه ، يقع في المستوى **اللاشعوري** . فليس إذن بضرب الارض بالقدم إنما نحرّك كتلة من الصخر موجودة على عمق مئة قدم . ونصادف على الغالب ، من جهة أخرى ، اشخاصاً مصابين بالحصر أولي شخصية وإرادة قويتين . ومع ذلك ، لا يمكن لهاتين الخاصتين أن تفعلا شيئاً ضد حصرهم للأسباب التي اتيت على ذكرها .

فما ينبغي إذن قوله وتكراره مئة مرة هو أن موقع الحصر في الأعماق دائماً لا في السطح أبداً . وهذا هو السبب في أن التحليل النفسي هوالعلاج المثالي بصورة عامة .

ولكن من المؤكد أن المريض ، ما دام الاعتقاد سائداً بأن الارادة يمكنها استئصال ضروب حصر الأعماق ، يجد نفسه يغوص في حالة من العزلة وعدم الفهم وصنوف التمرد الشديد ، إذ أن الوسط ـ بفعل الجهل او الغباء أو عدم الفهم ـ يرهق الشخص المصاب بالحصر بنصائح تسبّب الضرر أكثر مما تسبّب النفع ، ولا تفلح إلاّ في جعل المريض يغوص في ضروب من الحصر والتشنج أكثر قوة ايضاً .

وفي هذا المجال إنما يواتي الحظ ، مرة اخرى كذلك ، تجّار الأوهام و « النصائح الصغيرة » .

رأينا من قبل الى اي حد تتصف اصناف الحصر بأنها متنوعة ، والى أي حد تتصف السلوكات الدفاعية المتبناة ضدها ، رغم انف المصاب ، بأنها عديدة . ورأينا كذلك كيف ان الأعراض نفسها قد توجد في ضروب مختلفة من العصاب . فلا شيء ينبغي ان يؤخذ على نحو صلب ، دقيق أو متموضع . فلنر الآن ما هي النقاط الرئيسة في تكوّن الحصر .

الفصل السادس عشر

مصادر الحصر الكبرى

أولا ـ الولادة والأعمار الاولى

إننا نمسّ هنا محركاً من المحركات الرئيسة للحياة الانسانية . فكل إنسان ، وهذا أمر يعرفه الجميع ، يبحث عن سعادته أو ، على الأقل ، عن وجود يتضمن أقل الصعوبات الممكنة . وأي انسان ، في الحالة المثالية، ليست لديه الرغبة الحنينية في **جنة** كل ما فيها دفء وعذوبة وسلام ؟

ومن جهة أخرى ، ما أكثر الناس الذين يلاحقهم الخوف من الحياة مع كل ما يفترضه من انطواء على الذات ، كما لو أن الانسان يستعيد على نحو نفسي وضعية الجنين المنثنية ، أو يلاحقهم الخوف من الموت مع النشاطات العديدة البارزة لكي يفلتوا منه !

وأساس المشكل بسيط . ويظلّ مشكل الراشد هو مشكل الطفل الصغير : إما « العودة الى ماما » اذا كانت الحياة قاسية ، وإما « الانقطاع» و « الانفصال » عن ماما لإنجاز حياة شخصية ، حرة ومستقلة ، شريطة أن يكون هذا الاستقلال أصيلاً وأن لا تصبح الحياة المغالية في الفردية هروباً أمام الحصر .

رأينا **حصر الولادة** في الفصل الثاني عشر . إنني اذكر به على نحو سريع : إن الجنين ، الذي يتصف بأن له حياة نفسية لاشعورية ، يسبح

في بطن الأم وتسبح عضوية الجنين في السعادة البالغة . ثم تحين لحظة الولادة : فتلقى عضوية الوليد بصورة عنيفة في عالم ذي وقائع هائلة . وذلك هو الخروج من رحم الأم . إن رحم الأم كان الجنة ، والولادة هي الجنة المفقودة . ويظهر بصورة مباشرة ضرب من الحنين العميق الى الأم ، والى اللاشعور ، والى الموت ، والى الظلام الدافىء العذب الذي كان كل شيء ممنوحاً فيه ، دون أن يكون ثمة شيء مطلوباً . وذلك يسم الى الأبد حياة الانسان النفسية .

والمرء ، بصورة مباشرة ، يرى الأهمية الرئيسة لـ **رمز الأم** الذي يمكن إسقاطه على كل ما هو حفيّ ، وعلى كل ما يمنح العذوبة والسلام : المرأة ، والأرض الأم ، والوطن ، والكنيسة ، وبعض البلدان البعيدة ، وبعض المدن الحفيّة ، والموت المريح ، والنوم ، الخ .

ويمكن القول إن كل شيء يبدأ بداية حسنة منذ الدخول في الحياة ، ما دام ذلك يُستهلّ بـ « صدمة الولادة » !

وتتلقّى إذن عضوية الوليد ، التي لا دفاع لديها ، صدمة عنيفة عند الولادة . إنها ، في راي **رانك** ، التجربة الانسانية **الأشد اتصافاً بإثارة الحصر** . وذلك أمر مفهوم أحسن الفهم ، إذ أن عضوية الوليد تنتقل من وضع في منتهى السعادة الى وضع مؤلم . فثمة إذن انقطاع في التوازن والم نفسي وحصر . والاستعداد للحصر لدى الأطفال معروف . ومصدره ، في رأي **رانك** ، صدمة الولادة . والطفولة برمتها ضرورية للوصول الى تجاوز هذه الصدمة . والمصابون بالعصاب ، من وجهة نظر **رانك** ، هم اولئك الذين ما استطاعوا إنجاز هذا العمل بنجاح ، والذين ظلّوا يغوصون في طفالات هي ، في الحقيقة ، الحاجة الدائمة لـ « العودة الى الأم » .

اليكم حلم احد المرضى :

ـ تخاصمت مع زوجتي ، فغادرت المنزل ، ودخلت كنيسة كان فيها سرير واسع . وكانت قبة السرير من المخمل الارجواني الدافىء ، والكنيسة مظلمة . وكان ثمة زنبق ينشر رائحة قوية . واضطجعت في السرير ونمت ...

والحلم يعني ، في الوضع **الراهن** ، وبناء على تداعيات الأفكار لدى هذا المريض :

ـ كان المريض في مواجهة مع وقائع سن الرشد ومسؤولياته (**تخاصم مع زوجته**) ؛

هرب المريض من هذه الوقائع ، وقائع سن الرشد (**غادر المنزل**) ؛

ـ دخل مكاناً مغلقاً حفياً ذا قباب مظلمة ؛ وعاد الى « أمنا » الكنيسة التي استقبلته في « حجرها » (**ودخل كنيسة**) ؛

ـ وكان رحم الأم حفياً ، دافئاً ، ذا حشوة (**سرير واسع ، قبة السرير من المخمل الارجواني الدافىء**) ؛

وجد في الكنيسة طفولته مجدّدا ، ووجد فيها كذلك الحفاوة غير المشروطة ، حفاوة الأم التي اصبحت هنا ضرباً من « مريم العذراء » (**الزنبق**) ؛

ـ احتمى برحم الأم ، ونام في حضن الأم ، وعاد فأصبح وكأنه جنين سعيد بغبطة بالغة (**اضطجعت في السرير ونمت . . .**) .

ثانيا ـ حصر الانفصال

نعلم أن شعور المرء بأنه منفصل ، ومنبوذ ، ومتروك ، ومنعزل ، حصر من اشد ضروب الحصر التي يمكن أن تسيطر على موجود إنساني . ورأينا كذلك الى أي حد **تبذل** هذه الموجودات الانسانية **كل جهد حتى** تكون مقبولة ، ولكي لا تكون منفصلة ، ولكي لا تحسّ بأن الآخرين ينبذونها .

إن **رانك** وسّع المشكل ، هنا كذلك . فشدّد بصورة قوية على الولادة التي تمثّل **انفصال** عضوية الطفل عن عضوية الأم .

ومفهوم الانفصال ذو اهمية قصوى بالنسبة الى العضوية الانسانية والحياة النفسية الانسانية . والانفصال وحده مولّد لضروب كثيرة من الحصر . ذلك أن ثمة فرقاً كبيراً بين الحالات التالية :

الحالات السوية	حالات الحصر
ـ انفصال المرء **بصورة إرادية** وسلوك دربه على نحو مستقل ، شريطة أن يكون هذا الاستقلال أصيلاً ، لا تمرداً ولا يأساً ؛	ـ **شعور المرء** بأنه منفصل عن الآخرين ؛
ـ كونه وحيداً ؛	ـ **شعوره** بأنه وحيد ومهمل ؛
ـ انسحابه بصورة إرادية وأصيلة .	ـ **شعوره** بأن الآخرين ينبذونه .

ويتّضح على هذا النحو أن المراحل السوية لنمو الشخصية ترتسم :

ـ ثمة أول الأمر انفصال عضوية الطفل عن عضوية الأم ؛

ـ يكوّن الفطام صدمة ثانية أقل أهمية **في ذاتها ؛**

ـ ينبغي ان يصبح الانفصال عن الأم انفصالاً سيكولوجياً . وهذا هو الفوز بالاستقلال الذي ينبغي للطفل أن ينجزه تدريجيا . وهذا الفوز بالشخصية المستقلة عسير وبطيء جدا . والواقع أن الإغراء الغالب بـ « العودة الى الوراء » (صوب الأم) تستحوذ على الطفل ثم على المراهق . فالمرء يدرك إذن ان **كل مرحلة صوب الاستقلال ، وذلك من الولادة حتى الموت ، ينبغي ان يتم تصورها على انها انفصال عن طور سابق من الحياة .**

ولنشر هنا إشارة عابرة الى ان كثيراً من الأطفال والمراهقين والراشدين يشعرون بأنهم **آثمون** لانفصالهم عن أمهاتهم و « تركهم لهن » ، هؤلاء الأمهات اللواتي يسقطون عليهن غالبا حصرهم الخاص بأنهم « مهملون ». وعندئذ تظهر اضطرابات وضروب من العصاب مع ما يرتبط بها من فقدان الأمن ومن الحصر . وذلك ما يقع في الأغلب عندما يواجه المرء زواجاً على سبيل المثال .

ثالثا ـ مصابون بالحصر وآثمون لأنهم موجودون

ها هي جموع من الناس تتالى : جموع من الناس الذين يعيشون مع الاحساس الدائم بأنهم **شيء زهيد** ، أو بأنهم **لا شيء** . إنها جموع الناس الذين يشعرون بأنهم غير مقبولين إلاّ بشق النفس ، وبأنهم منفصلون عن الآخرين . ولديهم الانطباع بأنهم ليسوا في مكانهم أينما حلّوا . ويشعرون بالإثم ، وبأنهم في ضيق ومصابون بالحصر كلما أظهروا رأيا شخصيا ، وكلما عارضوا الغير ، سواء كان هذا الغير مرؤوساً أو رئيساً . إنهم يعيشون مع إحساسهم بأنهم أطفال في وسط سلطات عليا .

ولا يستطيعون أن يحبوا . وكيف يستطيعون ذلك ما داموا يعتقدون أن أحداً لا يمكنه أن يحبهم ؟ إنهم غائصون في مشاعر الدونية ، وفي حصر خفيّ ودائم . ويكابدون حرجاً عميقاً عندما ينظر اليهم الغير أو يصغي اليهم . ويحسّون إحساساً مستمرا بأنهم « مسحوقون » . والطمأنينة لا تعود الى نفوسهم على الغالب إلاّ عندما يسحقون الآخرين ، الخ .

إنهم يشبهون أطفالاً أمام أبوين قويين كل القوة . وهذان الأبوان هما « الآخرون » ، أيا كانوا . ونحن ، هنا ، نلتقي بالمشاعر الأبدية ، مشاعر الإثمية والحصر ، التي تتوطن قلب الانسان ، ولكن ثمة ضرب من التربية العصابية التي ضخّمتها في أغلب الأحيان . . .

أقوال مرضى

تلتقي هذه الأقوال التقاء تاما مع ما رأيناه فيما سبق . انها التعبير **المتموضع** بالتأكيد لمشاعر **معمّمة** تغزو لاشعور الفرد ووجوده برمتيهما .

والتعبير عن الإثمية والحصر تعبير واحد دائماً ، بصورة عملية . ولكننا سنعيد فيما بعد هذه الأقوال ، أقوال المرضى ، الى السبب الرئيس : الى التربية التي منحها أبوان مصابان بالعصاب ، او ، بالحري، الى **رد فعل الفرد** إزاء هذه التربية. وسنرى ، مرة اخرى كذلك ، اهمية وقاية الآباء ، نظراً للعدد الذي لا يُحصى من الحالات الممكنة .

واليكم ، أول الأمر ، الصرخة الحقيقية من مريض ذكي ، « ناجح » ، نشيط ، صرخة تلخّص كثيراً من الأمور :

ـ اعيش كما لو كنت غير جدير بالعيش ، وكما لو كنت آثما ولا أصلح لشيء . ولكن ليتني كنت آثما لانني فعلت شيئا !

إذن ، **من الذي** جعله آثماً ؟ **من** اجبره على أن يشعر بأنه آثم ؟

فلنستمر في سرد اقوال تبيّن حاجة الى الإخفاق ، اي الحاجة الى السلام ، والحاجة الى أن لا يكون المرء مضطراً لأن يقول لنفسه :

ليس لي الحق في النجاح ، ولا الحق في ان أكون سعيداً ، ولا الحق في أن أكون على سجيتي ، ولا الحق في ان يكون لي شخصية ، الخ .

وقال مريض آخر :

ـ لم أسمع قط صوتي الخاص . وكنت أصغي دائما لصوت الآخرين . وبدات أدرك ذلك فقط . وكانت حياتي برمتها مرتكزة على رأي الآخرين . والسؤال التالي : « ماذا سيقول الناس عني ؟ » ، كان الأمر المطلق لكل وجودي . ذاتي ؟ لا أعرفها . هل أنا حر ؟ لا أعلم . ولكن ذلك كان لاشعوريا الى درجة كبيرة !

إليكم الملاحظة الذكية جدا ، ملاحظة صبيّة تبنّت الشخصية التي اقتضاها الأبوان ، خلال طفولتها كلها وخلال مراهقتها :

ـ كففت خلال سنين طويلة عن ان اكون ذكية ، وكنت ابذل قصارى جهدي لأبدو غير ذكية ...

فلنستمر مع أقوال المرضى :

ـ خضعت دائما حتى اتكيّف مع خوفي ...

ـ مثّلت دائما ذلك الدور الذي كانوا ينتظرونه مني ...

ـ الّفت شخصية لا يمكن ابدا لاي شخص ان يوّجه لها اي لوم ...

ـ قدّمت دائما خدماتي خوفا من ان اكون موضع استهجان ...

ـ كبت دائما عفويتي وشخصيتي ، ومنعت نفسي دائماً من أن تكون عفوية . كنت خائفة ، ولكن كان لا بد لي من ان اعيش ...

– ادركت للمرة الأولى في حياتي أنني كنت اخفض قلوعي بصورة غريزيه الى حد الوقوف باستعداد أمام رؤسائي . وكان زميلي يهزأ بصوت خافت ويحتقرني ... وقلت في نفسي : « كم من الزمن انقضى وانت تفعلين ذلك ، دون أن تدركي ، أمام الرؤساء ، وأمام النساء ، وأمام جميع أولئك الذين تلتقين بهم ! »

– لا أجرؤ أبداً على أن أقول لا ، ولا اجرؤ أبداً على ان اقول نعم ، بل اقول دائماً « ربما » . إنني دائماً أحذر الانفتاح على الآخرين حتى لا ينظروا إليّ شزراً . واذا مدّ عشيق زوجتي يده إليّ مصافحاً ، مددت إليه يدي . يضاف الى هذا انني ربما اقول له شكراً على تفضّله بمدّ يده إلي ...

إنني دائماً آخر من يصعد الى حافلة . كنت أقول لنفسي إنني لا احب الشغب ، وأكره الفظاظة ، وأحب اللطف فوق كل شيء . ولكنني ، في الحقيقة ، افعل ذلك لانني أخاف . وهكذا حاولت دائماً ، طيلة حياتي ، أن أقدّم تسويغات « نبيلة » لخوفي ...

– لدي عمّال دهان منذ ثمانية أيام . إنهم أصغر مني بكثير . اشعر بأنني ملزم ان أبرّر في أعينهم حضوري وكل ما آمرهم به أيضا . وهذا شبيه بما لو أنني كنت متوانيا وأنهم هم العمال العظام . وأقدم لهم لفائف التبغ ، ثم كأساً صغيراً من الخمر . ثم إنني أشفق عليهم للمبلغ الزهيد الذي يكسبونه ... وأرى الآن الى اي حد أحاول أن أجعلهم يغفرون لي حضوري ووجودي ...

– عندما اقف أمام شارة حمراء ويمرّ سائق سيارة في حدود الشارة الحمراء ، أستعمل منبّه السيارة كمن يكون في حالة من الغضب الشديد . واقول لنفسي إن النظام مصنوع لجميع الناس ، وإن كل شيء يسير على نحو افضل لو أن كل فرد يحترمه . ولكنني أعلم الآن أن الواقع مختلف كل الاختلاف . والحقيقة ان العدوانية لن يكون لها وجود لو كان جميع الناس يحترمون الأنظمة ، ولو كان جميع الناس متفاهمين ، ولو كان جميع الناس لطفاء ، وذلك سيتيح لي أن لا يكون لديّ اي خوف .

– قال لي أحدهم ذات يوم إنني كنت اتذلّل أمام رئيسي . وكان من الممكن ان انفجر في وجهه غاضباً لانني كنت أعتقد في نفسي أنني عامل عظيم يحترم التراتب . ولكنني عندما سعيت خلال شهر لأحاول فرض فكرة من الافكار يبدو أن رئيسي يضعها مجرد وضع موضع الشك ، فانني أتخلّى عنها الآن ... وذلك ليس من الجبن في شيء على الإطلاق . لقد أعلنت الحرب بكثير من الاستشهادات . بيد اني لا أجرؤ على المناقشة ابداً . فلماذا ؟

ـ تذبذبت أمام والديّ دائماً . وما كففت عن أن أتبنى موقفاً يروق لهما . وكنت أشعر أنني مصاب بالحصر كلما كان والدي يبدوان انهما يشكّان فيّ . وبتبني الموقف ، على هذا النحو ، الذي كان يروق لوالديّ بصورة افضل ، اصبحت دبلوماسيا ممتازا ... (**وأخذ المريض يضحك**) : انت ترى أن للعصاب فائدة مع ذلك ! وبتصرفي على هذا النحو ، خلال وجودي برمته ، أصبحت أفضل وسيط في معمل والدي ، إذ أنني لا أقول نعم أبداً ، ولا أقول لا أبداً ... ومن حسن الحظ أن أحداً لا يدرك أنني أتصرف على هذا النحو بفعل الحصر !

ـ في كل مرة أتكلم بين جماعة من الجماعات ، ألقي باستمرار نظرات سريعة صوب زوجتي كما لو أنه كان عليّ ان اطمئن على موافقتها ، وعلى أنني لا اتفوّه بحماقات ، وانني لست موضع استهجان . وأرى الآن الى اي حد اسقط امي على زوجتي . فما كنت حراً أمام والدتي أبداً . كانت باستمرار تقول لي : « افعل هذا ، ولا تفعل ذاك . لا تبدّد دراهمك . احذر ، الطقس بارد ... » وبالاختصار ، كانت دائماً ترهقني بوصاياها وبتدقيقاتها وتفرض عليّ حصرها وشخصيتها . أما أنا ، فقد كبت عداوتي لها زمناً طويلاً . وأصبحت صبياً لطيفاً وابناً باراً . ومنذ أن تزوجت ، تابعت كوني ابنا باراً وزوجاً صالحاً . كل ذلك بفعل الخوف ، وبسبب أنني لا أجرؤ أبداً أن أكون على سجيتي .

ـ كانت أمي ، لسبب تافه ، تحرد خلال ثمانية أيام ... وكان ذلك يسبّب لي ضروباً من الحصر يرافقها الانطباع بأنني مهمل . ولم أكن معها أعرف بأي رجل أرقص . وكنت أقول في نفسي : « كيف ينبغي أن أكون اليوم حتى لا أقع موقع استهجان منها ؟ » بيد أنها عندما كانت تحرد ، كان حسبي ان اتصرف تصرفا تقياً أو تصرفا فيه إحسان حتى أصبح معها مجدّدا على أحسن ما يرام . ومثال ذلك : أن اذهب لحضور القدّاس ، أن احسن الى فقير ، أن أصلي ... وعندئذ باشرت هذا الطريق . واصبحت صبياً تقياً جدا ، ومحسنا ، ووديعا جدا ، ومتواضعا جدا . كنت أذهب لحضور القداس يوميا . وكان لديّ الانطباع بأنني حسب الأصول وأنا أفعل ذلك . واكتسبت بالتدريج انطباعاً بأنني لست آمناً إلاّ عندما أخضع وأسحق نفسي ... (١)

والآن أقترح عليكم ، بعد أن اطلعتم على أقوال المرضى هذه ، أن تروا مصدراً ذا أهمية كبيرة من مصادر حصر الطفولة والرشد .

---

(١) ــ انظر « الخصاء » في هذا الفصل .

رابعا ـ من الطفيلية الى الشخصية

لدى كثير من الأشخاص المصابين بالعصاب مشكلات ذات أهمية ، خاصة ب **الأم** ، تنبعث دائماً من أعماق اللاشعور . فالطفل ، في البدء ، لا شيء . إنه عضوية لاشعورية تعيش على بعض الغرائز . وهو طفيلي أمه ومرتبط بها ارتباطاً كاملاً .

والطفل لا شيء . ويصبح بالتدريج « شيئا ما » . إنه يكتسب شخصية .

وهنا إنما يبدأ على الغالب كل شيء . فالأم هي التي تحتفي ، ولكنها التي يمكن أن تنبذ . إنها التي تحب ، ولكنها التي يمكن أن تحجب حبها. وهي التي تدين ، ولكنها التي يمكن لها أن تعفو ببعض الشروط . إنها تحتاز على قوة اللانهاية . والأم امرأة إله ، تمنح الحياة والحب ، ولكنها قادرة على أن تستعيدها في أي لحظة .

وعندئذ ، من الضروري أن يواجه الطفل شخصيته بشخصية امه . ولا بد له من أن يتعلّم السباحة . وهذا امر يتطلّب إذن ، على الغالب ، أن لا تكون الأم ماء عكراً . والحال أن كثيراً من الأمهات مصابات بالعصاب، أو يجهلن جهلاً مطبقاً آليات الحصر الطفولي . وذلك هو ما اقترح عليكم أن تطّلعوا عليه .

أ ـ ملعون لأنه سرق تفاحة

لا بد لنا من أن نكرّر القول ، قبل كل شيء ، إن من العبث أن نبحث عن « مسؤولين » . فلا أحد مسؤول عن الظروف ، ولا حيلة في ذلك لأم أو أب اذا كانت هذه الظروف هي التي **ارغمتهما** على أن يكونا مصابين بالعصاب ، مثلما أن لا أحد مسؤول عن كونه أصيب بالتيفوئيد أو الزكام . ومن اليسير جدا أن يبحث المرء عن اكباش الفداء. فالأب (أو الأم) المصاب بالعصاب حالة واقعية ، وهو في الوقت نفسه ،

ظرف تعيس **يجبر الطفل على أن « يستمر في العيش » بوساطة العصاب**. وتظل الحالة المثالية إذن أن يعرف المرء أنه مصاب بالعصاب ، وأن يقبل ذلك ، ثم أن يبذل كل الجهود لكي يتخلّص منه ، وأن يتعلم في الوقت نفسه دوره العميق (وبخاصة ما يتعلق بالأبوين) . ذلك أن الأبوين هما ، دائماً ، موضع موازنة بما **يمثلانه** في لاشعور الطفل .

وبعد أن قلنا قولنا هذا ، إليكم حالة تربوية شائعة جدا ، تولّد دائماً مزيجاً معقداً من الحصر والإثمية .

فلنتذكر أحد القوانين : **لا يتكوّن الطفل بفعل التربية في ذاتها ، بل بفعل رد فعله إزاء هذه التربية** .

وننقل الى الطفل قوانين ، وأوامر ، وأشياء مباحة وممنوعة ، يقوم إزاءها برد فعل : يقبل ، يرفض ، يُعجب ، يوازن ، يحتقر ، يقلّد ، يحاول أن يساوي وأن يتجاوز ، الخ .

واذا كانت شخصية الأم ، إذ أنها هي موضوع حديثنا هنا ، شخصية سوية ، فان جميع الفرص مؤاتية لكي تكون **ردود فعل** الطفل صحيّة ، ولكي تتفتح شخصيته تفتحا متناغماً . ولدى الطفل ، في هذه الحالة ، جميع الوسائل التي تتيح له أن **يصبح ما هو عليه** .

وهكذا تسود ، في المراحل الأولى من الحياة ، شخصية لا مثيل لها في ذاتها : « الأم » ، التي ينبغي أن تكون ضرباً من النزل .

٢ ـ عندما يكون النزل مغلقاً

هنا يتدخّل تصوّر التربية ذاته ، تلك التربية التي تقدّمها أمهات مصابات بالعصاب . وهؤلاء الأمهات يشعرن سريعاً ـ بفعل عصابهن ذاته ـ أنهن مصابات بالإحباط وأن عيشهن منغّص . إنهن ، في أغلب الأحيان ، **لا ينقلن تربية** ، بل سيطرة . وهن بحاجة الى فرض وجهة نظرهن . ويرغبن في علامات خارجية من الخضوع الدائم . ويمنحن حبهن بشروط جائرة في بعض الأحيان . ويفرضن على الطفل ضروب

قلقهن وحصرهن ، وإحساساتهن الدائمة بالخطر ، واستبدادهن ، وأمزجتهن ، وصنوف حردهن ، وأحقادهن ، وضغائنهن ، ويحتملن بصعوبة أن يكون للطفل شخصيته الخاصة . ويكابدن الحاجة الى أن **يظهر** لهن أولادهن أنهم يحبونهن ويطيعونهن ويحترمونهن ، الخ .

وسواء كنا بصدد أم أم لا ، فنحن إزاء امرأة مصابة بالعصاب ، تعاني سلوكاً عصابيا كلاسيكيا .

ذلك هو موكب الأمهات المستبدات (مستبدات باللطف أو بالعدوانية)، والأمهات اللواتي يخصين ويجرّدن من الرجولة والشخصية ، الخ .

ولنستشهد الآن ببعض أقوال مرضى ، أقوال يمكنها أن تلخص حالات لا يُحصى عددها .

ـ أمي ؟ لم أكن أعرف ما أفعل لأقع من نفسها موقع الرضى . . .

ـ كنت أشعر دائماً بأنني آثم أمام أمي . . .

ـ كنت أحس بأقل هفوة على أنها خطيئة فادحة عندما تكون أمي موجودة . . .

ولنتذكر أن الطفل بحاجة الى الحب بقدر ما هو بحاجة الى الخبز ، وأنه بحاجة الى الشعور بأنه موضع الحفاوة **كما هو عليه** . بيد أننا ندرك مباشرة أن لا شيء على ما يرام ، **اذا كانت هذه الحفاوة خاضعة لشروط عصابية** .

كيف يكون رد فعل الطفل إذا كانت الأم مصابة بالعصاب ؟

سيصطدم الطفل بتناقضات عميقة . فالأم باديء ذي بدء ، لا تطابق الرمز الذي يصنعه الطفل لها . وبدلاً من أن يكون له أم تستقبله دون شرط ، فهو إزاء أم مصابة بالخوف ، تحب ثم تكفّ عن الحب ، أم تفرض الحب لتسحبه فيما بعد ، الخ . من هنا منشأ ردود فعل الطفل: حصر ثم رد فعل ضد هذا الحصر .

وعلى أي حال ، لا يمكن للطفل أن **يكون عفويا في الاتجاه « صوب أمه »** . وهذا أمر واضح . إنه يلاحظ علامات خارجية من الحب ولكنه

لا يشعر بأنه محبوب . وهذا منطقي ، ما دامت القدرة على الحب تتآكل دائماً **بفعل العصاب** . وتلك عندئذ هي ضروب **الحب الامومي المزيّف** الذي يتجلّى ، مثلما قلنا سابقاً ، بوجوه من الاستبداد واللطف المفرط ، والحصر المدقّق ، والحاجة الى الاحتفاظ بالولد لنفسها وحدها ، **بفعل** الخوف اللاشعوري من أن « يكبر » ، وبفعل التعلق الجنسي اللاشعوري ، الخ .

وسيكون رد فعل الطفل ، أمام هذه « التربية » ، رد فعل سيئاً . إنه سيقوم برد فعل لكي **يحمي نفسه** . وسيشعر بأنه في حالة من فقدان الأمن . ولا بد له من البحث عن الأمن **بأي ثمن** .

ويمكن للطفل ، لكي يجد ضربا من الأمن مجدّداً :

ـ أن يبذل كل جهد في سبيل إرضاء أمه ، وبالتالي أن يتجنّب كل عمل يمكن أن يكون موضع استهجانها .

ـ أن يخضع ، مقيّداً بيديه ورجليه ، لكل رغبات أمه ، ولجميع صنوف استبدادها ، ولنزواتها كافة . وتلك هي الآن مازوخية مصغّرة .

ـ أن ينبذ التربية التي تُعطى له ، وأن ينمّي سلوكاً دائماً من العدوانية والمراءاة والخضوع المزيّف ، الخ .

ـ أن يكبت بعض الدوافع . ومن المؤكد أن العداوة ، بل والحقد ، سيظهران سريعاً . وبناء عليه ، فان هذا الطفل يجد نفسه أمام أم مقدّسة ، يُحرَّم التمرد ضدها ، ويحرّم ، بالاضافة الى ذلك ، تنمية العداوة أو الحقد .

ـ أن يشعر بالإثم : والمقصود هنا سلوك سنرى تفصيله في الصفحات التاليـة .

ـ أن يرفض بصورة لاشعورية كون أمه لا تطابق المثال الذي صنعه لها . وسيبذل الطفل كل جهد من أجل أن تظلّ أمه ضربا من « مريم العذراء » التي لا يمكن الطعن بها . وسيكون لديه نزعة الى أن ينظر

الى أمه أنها على حق ، بصورة آلية ، وأنه على خطأ . والواقع أنــه سيرفض على نحو لاشعوري كون أمه مصابة بالعصاب .

ولن تستطيع شخصية الطفل ، على أي حال ، أن تتصرف تصرفاً سويا . ولن تقدر على أن تسلك الدرب الذي يتصف بأنه دربها . وعلينا ، بناءً عليه ، أن لا ننسى احتمال الإصابة بالعصاب بمجرد أن يكـون تفتح الشخصية الصحيح معوقاً . وسنرى الآن كيف يحدث ذلك على الأغلب .

لماذا يتصرف كثير من الأشخاص **كما لو** أنهم كانوا آثمين ، **وكما لو** أنهم يجدون أنفسهم مخطئين ؟ فأي ذنب اقترفوا حتى يكونوا آثمين ؟ **ولماذا ؟** فهؤلاء الأشخاص لم يقترفوا ، **بصورة موضوعية** ، شيئاً معيبــاً الى مثل هذا الحد . وها هم يتصرفون كما لو أن العالم برمته كان يحقد عليهم ، وكما لوكانعليهم دائماً أن يبرّروا لكل شخص ما فعلوا .

كل يعلم أن إخافة الطفل يعني إخفاء أفعى في جيبه . والحال أن الخوف ، في الأوضاع التي تلي ، يتم **تقطيره** ، نقطة نقطة ، ويوما بعد يوم، وعاما بعد عام . إنه خوف خفيّ ، لاشعوري على الغالب ، يمسّ ألياف الطفل الأكثر عمقاً ، ثم ألياف المراهق فالراشد .

ماذا يحدث إذا كان لدى الطفل انطباع بأن أمه تسحب حبها له ؟

إنه الوضع الأكثر اتصافا بانه مثير للحصر بعمق ، بالنسبة اليه ، حتــى ولو لم يدرك ذلك بصورة شعورية . والحصر الأشد الذي يمكن أن يستولي على طفل من الاطفال ينشأ من الاحساس بأنه مهمل ، إذن ، من الإحساس بفقدان كل أمن . والمقصود هنا ليس الإهمال المادي بــل الاهمال السيكولوجي ، الذي يتصف بأنه أشد عمقا وخطورة بكثير .

فأي خوف إذن يتشرّبه الطفل هنا ؟

٣ ـ الخوف من الوحدة

ما أن **يشعر** الانسان بأنه وحيد أو « منفصل » حتى يستولي عليه

الحصر : ويستوي في ذلك أن يكون في الشهر السادس من عمره أو أن يكون قد بلغ التسعين عاما . ونحن نعلم بأن لا شيء أشد ألماً في ضروب العصاب، على سبيل المثال ، من هذه المشاعر ، مشاعر النبذ .

وكل طفل لديه نزعة **سوية** الى أن يفرض نفسه في الحياة ، وأن « يختبر » الوجود وفقا لشخصيته . يضاف الى هذا أن كل طفل تقوده **الحاجة الى الأمن والراحة** . وحب الأم وحمايتها يمنحانه أمنه الأعظم .

فالأمن الأساسي بالنسبة الى الطفل إذن هو أن يحتفظ بحب أمه . **وحصره الأعظم** أن يحسّ بأنه فقد هذا الحب ، وبأنه منبوذ من الناحية المعنويـــة .

فكيف يمكن **لذلك** أن يحد ث؟ ذلك يتجلى عندما يعاقب الطفـل على ذنوب أو أخطاء ارتكبها ، أو على التعبير عن شخصيته ، بكـفّ الأم عن حبها له ، من نوع : « إذا اقترفت خطأ ، واذا أبديت شخصيتك، فانني لن أحبك بعدها » . ومضمون ذلك بالنسبة للطفل : سأتخلى عنك.

ماذا **يحدث** فيما بعد ؟ على الطفل ، من الناحية المنطقية ، أن يكون بامكانه أن يقول في نفسه : « اقترفت ذنبا ، وعليّ أن أتحمل تبعتـه بكل عدل ، هذا هو القانون » . وبدلاً من ذلك ، فهو مضطر للتفكير على النحو التالي : « ارتكبت خطأ ؛ ومن أجل هذه الهفوة ، لم تعد أمي تحبني ، وستنبذني » .

ها هي أيضا بعض من أقوال المرضى :

ـ كانت أمي تقول لي دائما : « إذا عصيت ، **لن أحبك بعد ذلك** ... »

أو :

ـ في كل مرة كنت خبيثا ، كانت أمي تحرد وكأنني كنت مجرما ...

أو :

ـ إذا كنت لا تزال خبيثا ، سأتركك في زاوية من زوايا أحد الشوارع ، وسيهملك الرب الجوّاد كذلك (!) ، وسيأتي الشيطان (!) ليأخذك ...

(هذا امر ينافي الحس السليم ، أليس كذلك ؟ ولكن الأمر على هذا النحو) .

أو :

سمعت أمي ، حتى بلغت الخامسة عشرة من عمري ، تكرّر قولها لي ــ أو كل موقفها كان يقول ذلك ــ : « لقد عصيت ، ولن أكلمك ثانية إلاّ عندما تطلب الصفح مني » ...

(وهذا ينافي الحس السليم ، أليس كذلك ؟)

أو :

ــ كان عليّ أن أحيي الجار تحية الصباح في يوم ، وعليّ أن لا أنظر اليه في اليوم التالي . وذلك كله لأن والدتي كانت عاجزة عن التفاهم مع أي كان ، وباستمرار تختلف وتصالح . وإذا قلت صباح الخير للجار عندما كانت تحرّم عليّ ذلك لأنها كانت على خلاف معه ، فتلك كانت حكاية كاملة خلال عدة أيام . ويحدث الشيء نفسه في الحالة العكسية . وكان لديّ انطباع بأنني موزّع باستمرار بين قوى متناقضة ، وفي النهاية لا أعرف من كنت ولا ما كانت عليه شخصيتي . وكل ذلك يرافقه الاحساس بأنني مذنب دائماً أمام أمي . وما كنت أتحمّل حردها الذي يدوم طويلاً . وكان لديّ في فترات حردها كثير من ضروب الحصر ، بل وكثير من الحقد أيضاً . فما كنت على سجيتي أبداً . كان عليّ أن أكون مثلما كانت أمي ترغب في أن أكون . وأعلم تمام العلم أن ضروب حردها كانت ، بالرغم من عداوتي لها ، تسبّب لي الحصر الى درجة أنني كنت أفعل أي شيء حتى أكون موضع استحسانها . إنني أدرك الآن الى أي حد كان ذلك كله لاشعوريا بصورة فظيعة ...

وموقف الأم المصابة بالعصاب يتلخّص على الغالب ، وفقا لما أتينا على رؤيته ، كما يلي :

ــ إذا لم تمثّل الدور الذي أقتضيه منك،واذا خالفت قانوني ، واذا كنت غير ما أرغب في أن تكون ، واذا لم تفعل ما أريد أن تفعل ، سأتخلّى عنك . وسيكون لديك الإحساس بأنك مذنب من الناحية الاخلاقية . ولن أغفر لك ، ولن أقبلك مجدّداً إلاّ عندما تخضع ثانية لقانوني .

والمآل المنطقي إذن : عندما يرتكب الطفل خطيئة (أو بالحري : خطأ) فانه يشعر معنويا بأنه آثم ومهدّد بفقدان حب أمه ، وفقدان كل أمن في الوقت نفسه .

ولنشر إشارة عابرة الى أننا نجد هنا مجددا حالة الناس الأوائل الذين ذكرتهم أسفار التكوين في الديانات . فلنتذكّر آدم الذي ارتكب خطأ زهيداً أمام أب كلّي القدرة وكلّي القوة ، والذي جرّ الانسانية ، عقب ذلك ، الى إثمية فظيعة . . .

فلنلخص إذن : خطيئة الطفل – خطيئة « أخلاقية » – آثم – مهمل – مخصيّ – حصر .

٤ – التراجع خوفاً

موضوع حديثنا ، بصورة عامة ، مناخ من التربية دائم .

فحصنا من قبل عدوانية الطفل . وتعني هذه العدوانية ، **السوية** لدى طفل **سوي** ، مجرد أن شخصية في حالة التكوّن تبحث عن فرض حياتها .

فماذا يحدث هنا ؟ بمجرد ان يدخل الطفل في تناقض مع أمه ، يشعر شعوراً عميقاً بأنه آثم ومصاب بالحصر كما لو أنه لم يكن يملك الحق في أن يكون له شخصية . وهذا أمر منطقي ، بما أن كل عمل شخصي ، وكل خطأ ، ينجازى عليهما وكأنهما خطيئتان أخلاقيتان ، ويعاقب بالكف عن حبه !

والحقيقة ان الطفل يشعر بأنه آثم لأنه يبدو على حقيقته . **فهو يشعر بالإثم لأنه موجود** .

ويقول في نفسه بصورة لاشعورية :

– هل أشعر بأنني مهمل ومصاب بالحصر إذا كنت على سجيتي ، واذا كنت شخصيا ، واذا ارتكبت أخطاء وخطيئات ؟ إذن ، لن أكون على سجيتي !

ويكفّ الطفل عن أن يبدو على حقيقته . فيضع شخصيته في جيبه ويقفل على كل شيء بقفل ثلاثي الدورات . ذلك أن عدم إظهار شخصيته

أفضل وسيلة لتجنب الاحتمال في ارتكاب الخطأ ، وافضل وسيلة ، في هذه الحالة ، لتجنب الشعور بالإثم .

ويستمر المنطق . فيشرع الطفل في تمثيل دور من الادوار ، لأنه يرفض أن يشعر على نحو غير عادل بأن عيشه منغص وكأنه آثم اخلاقي ، وإن كان يحب العدل الموضوعي ويحب ان يُعاقَب على خطيئته بعدل . فأن يُعاقب ، نعم ، أما أن يُهمل إهمالاً وجدانيا ، فلا .

وماذا يفعل الطفل عندئذ ؟ بما أنه مهمل ، وبما أن ثمة حقداً عليه ، وبما أنه « آثم » ، فانه يفعل كل شيء ليكون ثانية موضع **صفح ومحبة** . ولكن من الضروري أن يدرك المرء تماماً أن هذا النحو في التصرف يدوم أبداً ؛ إذ أنه لا يكفّ عن معاناة حصر النبذ **لأتفه الأمور** .

يفعل الطفل إذن كل شيء حتى لا يكون مذنبا أبداً ، ولكي لا يتألم من الحصر الذي ينشأ من ذلك . وعلى هذا النحو يستبعد شخصيته الأصيلة ويمثّل شخصية ليست شخصيته .

أي دور سيمثل ؟ سيمثل أي دور حين يشعر بانه محبوب .

أيرغبون في أن يكون خاضعاً ؟ إنه خاضع . أيرغبون في أن يكون عبقريا ؟ إنه عبقري . أيرغبون في أن يكون بهيمة ؟ إنه بهيمة . أنيساً ؟ إنه كذلك . متمرداً ؟ إنه كذلك . مثالياً ؟ يصبح مثاليا . أيرغبون في أن ينجح نجاحا باهراً في المدرسة ؟ إنه الأول في صفه .

ويصبح الطفل حرباء ، دبلوماسياً . ويخاتل ويتذبذب . ويبذل كل جهد لكي لا يدخل في تعارض أو تضاد . ويحدث له على الغالب أن يكذب باستمرار ، بالنظر الى أن شخصيته المزيّفة ، في ذاتها ، كذب دائم ، ويسقط على قدميه ببراعة فائقة .

ولكن من المؤكد أنه ، في حقيقة ذاته وبصورة لاشعورية ، غير « راضٍ » . فنحن هنا في مظهر من مظاهر **المازوخية** : الخضوع للغير

خضوعاً كليا ، ولكنه يحتفظ في اعماق ذاته بحاجة عنيفة الى الاستقلال . والطفل واقع دائما بين توترين قويين : ما هو عليه واقعيا ، والشخصية التي عليه أن يظهرها .

وماذا تصبح العفوية ؟ إنها تصبح كل ما يرغب الآخرون في **أن تصبح** ، ولكنها في جميع الأحوال لا ترى . فثمة شلل في العفوية التي تختفي في شبكة من ضروب الحصر .

إنه إذن عصاب عميق يبدأ ، يرافقه انطباع بالإثم **دائماً ، في حين أن** لا شيء يسوّغه من الناحية الموضوعية .

وتستمر اللعبة الصغيرة . ولنفرض الآن – كما يحدث ذلك دائماً – أن اللعب يدوم سنين . فالطفل ثم المراهق يريان شخصيتهما تزداد شللاً . وتكبت عدوانيتهما **السوية ما دامت** عقوبة هذه العدوانية هي الكفّ عن حبهما .

وتتعقد الأمور أيضاً . فكلما شعر الطفل والمراهق بأنهما مجرّدان من شخصيتيهما ، أصبحا عدوانيين وعدائيين **بصورة غير سوية** . وكلما كبتا كل شيء ، شعرا بصورة مبهمة أنهما آثمان .

وبالتدريج ، ينطبق فكا كمّاشة العصاب الواحد منهما على الآخر بقوة .

ويكون ممكناً وضع جميع هذه الحالات في معادلة : **كون تصرف المرء تصرفا شخصيا ← كونه على سجيته ← خطر ← حصر ← إثمية .**

من هنا منشأ ضرب من رد الفعل ، أي معادلة جديدة : **لنتجنب التصرف الشخصي ← لنمثّل ← لنتبنّ موقفاً يحول بيننا وبين الشعور بالإثم ويمنحنا الانطباع بأننا محبوبون .**

وذلك عندئذ هو البحث اليائس عن الاحساس بأن الانسان محبوب ؛ بحث يتم في كل زمان ، وفي كل مكان ، وأيا كان الباحث .

وتموت العفوية والأصالة والاستقلال . ويصبح رأي الغير كلب حارس ينبغي الاعتماد عليه دون انقطاع ، وينبغي التنسيق معه باستمرار . ونستطيع ، في الختام ، تلخيص جميع هذه الحالات في الجدول التالي :

أم مصابة بالعصاب	طفل
ـ حب مزيّف وأمن مزيّف ، بما أنهما يرتكزان على عصاب .	ـ حاجة للحب والأمن .
ـ تهديد بالكفّ عن الحب .	ـ ارتكاب خطيئة أو خطأ .
ـ الكفّ عن الحب .	ـ إحساس بأنه مهمل ـ خوف وعداوة وإثمية .
ـ صفح ؛ الحب المزيّف والأمن المزيّف مجدّداً .	ـ خضوع ليجد الحب ثانيةً .

٥ ـ « إنني عاجز عن أن أحقد على أحد » (حالة جاك) .

ـ انني عاجز عن ان أحقد على أحد ، **قال جاك** . وافهم تمام الفهم أن كثيرا من الناس حمقى أكثر مما هم خبثاء . ولا أتذكّر أنني غضبت أبدا الاّ على أمي عندما كنت صغيرا . ومن المؤكد أن لهذا الاسلوب في النظر الى الامور محاذيره ! فالمرء يستسلم ، ويعفو عن كل شيء ، ولا يكون حذرا ... ولكنني وضعت مثالي كله في هذا التصور ، ذلك أنني مسيحي بعمق . ولكن ثمة مع ذلك شيء يزعجني ، من وجهة النظر المسيحية دائما : ان ذلك انما هو طبيعي بالنسبة لي ولا يقتضي أي جهد مني ... والشيء الوحيد الذي يجعلني مطمئنا أنني أتألم لخبث الناس . ولكنني اقسمت أن لا أبغضهم . انني أعفو عن الجميع ...

وبالرغم ، مع ذلك ، من هذا « التطور » (الأصيل ، فهو يتطلّب قوة داخلية هائلة) ، فان جاك يعاني الحصر ومشاعر الدونية وشتى

الاضطرابات التي تكوّن إقطاعة العصاب . ولا يبدو جاك ، مع ذلك ، عدوانيا (أقل مما ينبغي أن يكون !) إذا نظرنا اليه من الخارج .

ويقرّر جاك ، بعد كل حساب ، مباشرة تحليل نفسي ، أمام مشاعر الدونية التي تحول بينه وبين التقدم في الحياة الاجتماعية . وبرزت بسرعة كبيرة مواد ذات أهمية . ولست قادراً بالتأكيد على أن أتناولها كلها ، ولكن اليكم بعضاً منها :

ـ كانت أمي مصابة بالعصاب . وما كنت أرى أبي أبدا على وجه التقريب : كان عسكريا . وكانت أمي عصبية الى أقصى حد واستبدادية ... وذات نزق ، وأي نزق ! وعندما كنت لا أروق لها واتّجه صوبها ، كانت تقول لي : « لا تعد لتقبيلي ما دمت لم تصبح عاقلا مجدّدا ! » وكنت أطلب اليها ، اذا كتبت وظائفي المدرسية ، أن تساعدني فيها ، وكنت أطرح عليها السؤال التالي : « هل أنت لا تزالين بعد غاضبة ؟ » وكانت تجيبني اجابة لا تتغيّر : « سنرى ذلك فيما بعد ، عندما أصفح عنك ! » لقد بدأ ذلك عندما كان لي منالعمرعشرة أعوام ، واستمر الى حين زواجي ، في الثالثة والعشرين من عمري. .

ـ وهل كان ذلك يحدث غالبا ؟

ـ ولكن ... كل أسبوع . وفي كل مرة ، خلال يومين أو ثلاثة أيام ، كانت أمي تردّني، الى أن يأتي اليوم الذي فيه تصفح عني أخيرا ... ويا للشيطان ! ذلك ما كان يريحني من عبء ! وكان لدي الانطباع بأنني مسخ صغير ، تخلّى عنه الاله والناس ، منبوذ كأنه « قذِر » في زاويته ، غير جدير بحب أم ! ولم تكن تحرم نفسها ، فضلا عن ذلك ، من أن تقول لي : « انك تستطيع على الاقل أن تحب أمك بصورة مناسبة ، بعد كل ما فعلته من أجلك ! » ...

ـ وماذا بعد ؟

ـ ثم ... حسن ، هذا كل شيء ! وكنت أبحث بارتياب وتردّد ، واتقرّب ، واخضع ، شأني في ذلك على وجه الدقة شأن « بنت محتقرة » صغيرة ، تلك كانت حالتي . الأمر الذي ارغمني ، على هذا المنوال ، على أن أكرهها حينئذ ، الا تصدّق ذلك ؟

ـ ...

ـ الا تصدق ! ولكنني لم أدرك ذلك ، أنت تعلم ! قال لي صديق عندما كنت في الثامنة عشرة : « أمك ! إنها جمل رائع ! أنت تعلم ، إنني لو كنت مكانك لصرفتها بخشونة مع مظاهرها ، مظاهر الشهيد غير المفهومة . ولست ، أنت ، سوى رجل ضعيف الشخصية ». وتعاركت ككلب مع هذا الصديق ...

وساد الصمت .

ـ ألأنه كان على وجه الاحتمال قد سدّد تسديداً محكماً ! ... وأخيراً ، **كل ذلك لا قيمة له ، إنه منسيّ ومغفور** . وما يقلقني هو هذه « العقد من الدونية » التي تجعلني أمضي مغلوباً ...

٦ـ وضع جاك

خضع جاك ، خلال ثلاثة عشر عاماً ، الى الرغبات « الشهيدية » والسادية والنزوية ، رغبات أمه . ومن اليسير أن نحسب العدد الهائل من دقائق التمرد والكبت والحقد والحصر ، التي تراكمت خلال هذه الفترة .

ولن أقول شيئاً عن عواطف غشيان المحارم ، العواطف اللاشعورية الموجودة لدى الأم تجاه ابنها . ولنشر مع ذلك (بصورة عامة) الى أن الأم كانت ذات نزعات ذكرية عدوانية . وكانت تكره الرجال ... وتكره ابنها بصورة لاشعورية **بوصفه صبيا** . وكان عليها إذن تتصرف بحيث تجعل من ابنها « بنتا » لا رجلاً . فقد كان على هذه الأم ، من جهة ، أن « تخصي » ابنها . وهي ، من جهة أخرى ، كانت تتوحّد بابنها الذي كان جنسه المذكر يعوّض الجنس المؤنث الذي تأسف على اتصافها به . ويمكن القول ، على وجه التقريب ، إن قضيب ابنها كان قد أصبح إقطاعتها **الخاصة بها** ... شريطة أن يكون لها كليا . من هنا منشأ سحق الابن ، وخصائه النفسي ، ومنعه من أن يكون له شخصية ذات رجولة ، الخ .

ويتصف جاك بأنه ، بالتأكيد ، « محبوب سيء الحظ » . وتبدو **القطيعة الوجدانية** سريعاً بينه وبين أمه ، قطيعة لاشعورية يكبت

مظاهرها ... إذ أن الحصر يظهر منذ أن يعاني الإحساس بأن أمه تتخلى عنه . وبدلاً من أن « يقطع » جاك الروابط ، فان عليه إذن أن «يعزّزها » : وهدفه دائماً أن يتجنّب الحصر ... وبمساعدة كبت الكره .

لنعبّر عما يمكن لجاك أن يقول في سن الرشد :

ـ فقدت بالتدريج إرادتي وشخصيتي . واختفت أناي وقد غزتها الأنا العليا . وكان عليّ أن أتوحّد بأمي لاتجنّب نبذها لي . ولكنني كنت أكره هذا التوحّد الذي كان يجعل مني « بنتا محتقرة » . وكان عضوي المذكر قد أصبح صفة شديد الخطر : صفة شخصية مذكرة كان محرّماً عليّ أن أظهرها . وكانت هذه الشخصية ، بالفعل ، على النقيض مما كانت تتطلّبه أمي مني . وكان عليّ أن أبذل كل جهد لكي أفلت من الإحساس بأنني « طفل غير أهل » . و« ورديء المعاشرة » ، ونعوت اخرى تلاحقني عندما كنت أجرؤ ـ نادراً ـ أن أكون على سجيتي بصورة تتصف بالرجولة . وكنت ملزما بالتوحّد بأمي ، وبأن أصبح ما كانت تريد أن أكون : أن أصبح مثلها ، وأن أتخلّى عن شخصيتي . وكان عليّ أن أتصرف **كما لو أنني كنت لا أمتلك عضو الذكر** : كان عليّ إذن أن أصبح شبيهاً ببنت طيّعة . كل ذلك من أجل الحصول على مظهر من مظاهر الأمن والسلام ...

ونمّى جاك ، بالتأكيد ، عدة نزعات الى الخضوع (لا يقول شيئاً أبداً ، يستسلم ، يعفو رغم معارضة الجميع) . كذلك أيقن جاك بصورة لاشعورية أنــه لن يكون محبوباً إلاّ : ١) إذا كان ما يقتضي الآخرون أن يكــون ؛ ٢) إذا قمع كل نزعة تتصف بالرجولة . فنحن هنا في حالة رأيناها سابقاً : إنه يضع عضوه المذكر في الداخل مثل امرأة ، بدلاً من أن يجرؤ ، بصورة رمزية ونفسية ، على الاحتفاظ به نحو الخارج . وبدلا من أن ينفذ الى المجتمع كما ينفذ الرجل ، ترك المجتمع ينفذ اليه . فهو عاجز من الناحيتين الاجتماعية والجنسية .

ثمة كذلك عامل آخر يتدخل : **لم تعد الأم هنا لكي تعفو !** ومعنى ذلك : بدلاً من أن يكون جاك موضعاً لحب أمه (بوصفه مطيعاً) ، فانه موضع احتقار الآخرين (بسبب هذا الخضوع) . وبالرغم من ذلك ، لا يجرؤ على الدخول في منافسة ...

وغنيّ عن البيان أن ضرباً من العدوانية الهائلة (واللاشعورية) تغمر شخصية جاك ، عدوانية ستقدّم له عوناً ثميناً خلال التحليل . ولنشر أيضا ، إشارة عابرة ، الى أن جاك يبرّر سلوكه بوساطة مثل رفيعة (« وضعت كل مثالي في هذا التصور ، ذلك أنني مسيحي بعمق » ...) ، الأمر الذي يبيّن أن مثالاً من مثل السلام بأي ثمن يمكن وضعه في خدمة المازوخية كما يمكن وضعه في خدمة الأصالة .

خامساً ـ مصادر الحصر الداخلية

إذا كان الحصر ينشأ من الاحساس العميق بخطر ، فان المرء يدرك بسهولة أن الخطر الأول موجود فينا . والحيوان ، في كل منا ، يجوس متنفساً بدوافعه البدئية التي تتصف بأن أكثرها فاعلية هي الدوافع العدوانية . ولنتذكّر أن هذه الدوافع اللاشعورية تقتضي التحقق المباشر، وأن كل مانع ، ينبغي استبعاده بمقتضى مبدأ « اللذة »(١) . والدرب الأكثر مباشرة ، بالنسبة للاشعور ، هو إزالة المانع دون أي إجراء آخر ، وهذه هي رغبة الموت التي رأيناها في الفصل الثاني عشر .

وتقتضي دوافع الحيوان ، من جهة ، إشباعاً فوريا . ومن جهة أخرى، تصطدم هذه الدوافع على وجه العموم بسدود الأخلاق ، والأسلاك الشائكة للمحرمات ، وحصار القوانين المعروفة .

من هنا منشأ النزاع ، العنيف على وجه التقريب ، بين الدافع الذي يصعد من الكهوف وبين الغطاء الأخلاقي الذي يسعى الى الاحتفاظ به تحت الأرض . فالخطر بدا وكذلك التناقض العميق : والحصر يتفجر وكأنه مستنقع . وسيكون الحصر أشد بالتأكيد كلما كان الدافع قويا وكانت القوانين الأخلاقية مصبوغة بالإثمية .

ها هو ذا مثال (لا يتجلّى أبداً بهذه البساطة في الواقع) .

---

(١) انظر التخطيطية الموجودة في الصفحة الاولى من الفصل الثاني عشر .

لنفرض أن ثمة رجلاً يشعر بانجذاب نحو امرأة صديق . ولنفرض كذلك أن فكرة هذه الرغبة نفذت الى فكر هذا الرجل (ويمكن لهذه الرغبة أن تكون مع ذلك لاشعورية بصورة تامة ، ومثلها ردود الفعل التي تعقبها) . ويجهل الرجل في هذه الحال كل ما يحدث في ذاته .

الدافع : « أرغب في امرأة » ، دافع سوي . ولا يرتبك اللاشعور مطلقا من أن المرأة هي الآن لرجل « آخر » . ولا يعني لفظ « صديق » شيئاً على الاطلاق ، بالنسبة الى اللاشعور ، إللهم مجرد مانع لتحقيق الدافع تحقيقاً مباشراً . ويقوم اللاشعور برد فعل يستبعد المانع بكل بساطة ، كما يفعل على وجه الدقة إنسان فظ بدائي .

لنر المراحل الثلاث الممكنة لدى الانسان « المتمدن » من خلال هذا المثال :

المرحلة الأولى : الدافع الجنسي نحو المرأة متبوع مباشرة بالحاجة الى استبعاد المانع . وهذه الحاجة يمكن التعبير عنها بضرب من « **تمني الموت** »، موجه للصديق . ويواجه الدافع الجنسي وتمني الموت سد الأنا العليا القوية . ويحصل الكبت . وقد يكون كل شيء لاشعوريا بصورة تامة . فثمة حصر يمكن أن يتكوّن ، ولكنه يظلّ (**كذلك**) لاشعوريا بصورة تامة .

المرحلة الثانية : الدافع الجنسي يظهر الفكرة التالية : « لو مات صديقي لتمكنت أن أحظى بامرأته . وهذا الدافع يبلغ الأنا العليا ويتجاوز السد ، ثم يبلغ الشعور . فيشعر الانسان بأنه مصاب بالحصر والإثم أمام رغبة يحكم عليها بأنها « **فظيعة** » .

المرحلة الثالثة (**الأكثر اتصافا بانها سوية**) : إذا الرجل استبعد الأنا العليا ، صعد الدافع الى الشعور دونما صعوبة . فالرجل **يقمع بصورة إرادية** هذا الدافع الذي يتصف بأنه **لا** يتلاءم مع أخلاقه **الفردية** . وليس ثمة إثمية ولا حصر .

ردود الفعل الممكنة لهذا الرجل : كل شيء منوط بقوة الدافع وبالسدود التي تعترضه . ويمكن لهذا الرجل أن يشعر بأنه مصاب بالحصر دون أن يعلم السبب . ويمكن كذلك أن يشعر شعوراً غامضاً بالإثم امام صديقه ، ويعاني الحاجة الى الصفح . وفي هذه الحالة ، يمكن ان يحيطه بالرعاية ، ويقدّم له الهدايا ، ويكون لطيفاً جداً معه ، الخ (رأينا الحالة ذاتها) . ويمكن أيضا أن يعاني الحاجة الى الاعتراف ب « خطيئته » كيما يشعر ب « العزاء » اي كيما يشعر بالغفران وبزوال الحصر .

سادساً ـ العدوانية والحصر

العداونية والعداوة مصدران قويان من مصادر الحصر . وتتصف العدوانية على الغالب بأنها كالسلاح المرتدّ الذي يعود فيسبّب انتفاخاً في وجه من أطلقه . لماذا ؟

إذا كانت العدوانية تولّد الحصر ، فذلك لأنها تظهر خطراً ، وذلك لانها تهدّد شيئاً ما . ولكن ما هو هذا التهديد ؟

من يقول عدوانية يقول عداوة . وهذا يعني أن الآخر يمكن أن يقوم برد فعل ، إما بالعدوانية او الكره أو الاحتقار ، وإما بالخضوع أو اللامبالاة ، الخ .

وعلى اي حال ، إن **العداوة تعني التنافس مع ما يترتب عليه من غالب ومغلوب** .

ولكن ما الوضع إذا كان ثمة شخص يخاف التنافس كما يمكن أن نرى ذلك في اغلب الأحيان ؟ واذا كان يخاف أن يكون منبوذا ومحتقراً ومهملاً وموضع نقد ولوم ؟

فلنفكر بالحالات الأربع الأكثر شيوعاً :

ـ شخص يخاف أن ينظر اليه الناس على أنه غير كامل . فالعدوانية

تمثل بالنسبة اليه « نقصاً » . وعدوانيته تعرّضه الى خطر فقدان اعتباره . فيكبت أو يقمع هذه العدوانية .

ـ طفل ، أو مراهق ، يخاف الدخول في معارضة عدوانية مع أبيه أو مع أمه . ويخشى أن يعاقب على هذه المعارضة بالكفّ عن حبه (« إذا كنت خبيثا ، كفّوا عن حبي ») .

ـ شخص عدواني يخاف عدوانية خصمه . فيعزّز عداوته (« يصرخ أقوى من الآخر ») .

ـ العدوانية مكبوتة بفعل حصر الخصاء (انظر « أوديب وحصر الخصاء » في الصفحات التالية) .

وفي أغلب الاحيان ، يقول الشخص في نفسه : « إني عدائي ، إني مهدّد . فامني مهدّد . وأتعرض الى خطر أن أكون منبوذاً » .

وهكذا يكبت هذا الشخص عدوانيته كيما يستبعد الخطر . وبدلا من أن **يبدو** عدوانيا ، يبذل كل جهد في سبيل أن **يبدو** لطيفاً . ولنشر هنا الى أن ذلك لا علاقة له بمراءاة الصالون التاحبة ، بل المقصود آلية لاشعورية مخصّصة للحماية من الحصر . والشخص ، من جهة اخرى ، **مقتنع** بأنه لطيف وأنيس وغيريّ ، وبأنه ينظر الى خير الآخرين قبل خيره ، الخ (انظر حالة ماري جان فيما يلي) . ويبدو النزاع القوي ، عندئذ ، بين التبعية والاستقلال .

ومن جهة أخرى ، وذلك ما نراه في التحليل النفسي كما بيّنت من قبل ، فقد يبدو مريض ، عدواني بصورة لاشعورية ، ذا طاعة مثالية وتهذيب لا يتزعزع . إنه صورة من صور المقاومة(1) : فالمريض يقاوم ، إذ أن ترك عدوانيته تخرج ، يمثّل ، في ذهنه ، خطراً خطيراً ، خطر أن يحتقره المحلّل ويدينه .

---

(1) انظر « المريض يقاوم » في الفصل الرابع .

حالة ماري جان

كانت ماري جان عاجزة عن أن تترك أمها أكثر من نصف ساعة . ولم تكن تتيح لنفسها غير نزهة قصيرة في حيّها . أما السينما والسهرات والاستجمام ، فقد كانت ممنوعة بالنسبة اليها . وأي انفصال عن أمها كان يولّد لديها حصراً لا يمكن احتماله . كانت تقول :

ـ عندما كنت أترك البيت ، كنت أتخيّل كثيراً من الأمور : سقوط أمي عن السلّم ، واحتراق البيت ، ومرض أمي وموتها دون أن أكون موجودة ، الخ . وعندما كنت اخرج لفترة تزيد على النصف ساعة ، كان ينتابني ضرب من الذعر . بل ما كنت أجرؤ على دخول البيت ، وكنت اقترب منه ، وانظر اليه من بعيد لأرى « إن كان لم يحدث شيء » . وعندما كنت اضع المفتاح في القفل ، كان الحصر يصعد متزايداً . وكنت أصغي لاسمع أمي تذهب وتجيء ... وعندئذ كان يبدو بالتدريج ضرب من الراحة ...

وكان المرء يلمح ، عندما يلاحظ ماري جان ويصغي إليها ، أن سلوكها تجاه أمها كان مجبولا بطيبة قصوى ولطف لامتناه . وكانت ماري جان تعتني بأمها عناية لطيفة بصورة مستمرة . وتجنّبها أوهى الصعوبات . وكان الألم الخفيف الذي يصيب أمها يجعلها كذلك تغرق في الحصر .

ويبدو بالتأكيد ، للوهلة الأولى ، أن هذا كله مرضيّ ومبالغ فيه . ويمكن الاعتقاد بأن ماري جان ظلّت متعلّقة بأمها بفعل ضرب من الإفراط في الحب . والحال أن ليس ثمة شيء من هذا ، والواقع مختلف كل الاختلاف ، بل الواقع هو العكس ...

من كانت أم ماري جان ؟

أم ماري جان أم تضفي الإثمية . أم تحرد لأتفه الأمور ، وتذل شخصية ماري جان ، وتغتاظ كلما كانت ماري جان تدلي برأي شخصي ، وتنجز عملا مستقلا ، وتنظر في أن تسافر وحيدة ، الخ . ولكن لنتخيّل أن هذه الألوان من « الإذلال لشخصية » ماري جان كانت قد استمرت منذ سنين ، ثانية بعد ثانية .

كيف كان رد فعل ماري جان ؟ أمام هذا التجريد من الشخصية ، وأمام هذه الأم التي كانت تضفي عليها الإثمية لاتفه الأمور ، **من المؤكد أن رد فعل** ماري جان كان لا بد من أن يتصف بعدوانية قوية . فالأم تمنع تفتح شخصية ابنتها . إنها كانت إذن مانعاً قوياً . **وكان لا بد** لرد الفعل لدى لاشعور ماري جان من أن يكون ، ثانية بعد ثانية ، « استبعاد » الأم ، الأمر الذي يعني أن يتمنى موتها باستمرار .

ودامت هذه الحالة اللاشعورية زمنا طويلاً بالتأكيد .

وبرزت إثمية عميقة لدى ماري جان . وكانت تفكر بصورة لاشعورية على الوجـه التالي :

بالنظر لكل ما تمنّيته لامي ، سأتحمل وزر كل ما يمكن أن يحدث لها من سوء ، ما دمت قد تمنيته لها ...

ولا بد للعدوانية والحقد ، **من الناحية المنطقية** ، من أن يكونا قد بانا لدى ماري جان . ولكن هذه العدوانية كانت تمثّل تهديداً لها . فاذا كانت الأم تعاقب ابنتها على أوهى عمل شخصي تقوم به ، أدرك المـرء جيدا أنها ستكفّ كليا عن حب ابنتها عقاباً على عدوانيتها . فنحـن إذن ، على الدوام ، في الحالة نفسها : «لن أكون محبوبا إذا كنت خبيثا» .

فكان لا بد إذن لماري جان من أن تفلت من الحصر . وكان لا بد لها ، بصورة لاشعورية ، من أن تثير ضرباً من الأمن ضد الحصر والإثمية اللذين كانا مستوطنين لديها . وعلى هذا النحو إنما أصبحت ماري جان تعتني بأمها عناية رقيقة . وكانت تخفي ، هي أيضاً ، رُشيشاً تحت الأزهار . ولكن الحصر ، مع ذلك ، كان يتجلّى بضروب الذعر التي تنتاب ماري جان كلما كانت تترك أمها أكثر من نصف ساعة ، إذ أن المحاكمة الداخلية كانت تظلّ دائماً : « لو وجدت أمي مريضة أو ميتة ، لوقع وزر ذلـك عليّ ما دمت قد تمنيته لها » .

سابعاً ـ أوديب وحصر الخصاء

هذه الألفاظ الخاصة بالتحليل النفسي نزلت الى الشارع مع كل ما يفترضه ذلك من تشويه ، شأنها في ذلك شأن كلمة « عقدة » . ومع ذلك ، فان هذه المصطلحات تستر عدداً لا يحصى من الحيوات الفاشلة من النواحي الداخلية والجنسية والاجتماعية .

يضاف الى ذلك أن هذا المفهوم يبيّن أهمية **عضو** الذكر **ورحم** الأنثى ، الأهمية الجنسية والاجتماعية على حد سواء .

والإحاطة بالمشكل أمر لا غنى عنه ، ولا سيما أن معرفته تتيح توضيح عدد كبير من السلوكات التي لا يمكن فهمها للوهلة الاولى .

والفهم العميق لهذه المشكلات ، فضلاً عن ذلك ، يتيح للآباء والمربين ان يتجنبوا الوقوع في غلطات كبيرة ، عديدة بقدر ما هي مؤذية . ذلك أن من غير المعقول أن يرغب اي كان في أن يجعل من ابنه أو من ابنته موجوداً مخصياً .

تكلمت على « عقدة اوديب » في مؤلفي الأول(١) . ولكنني أتناول هنا هذه العقدة بالبحث مجدّداً من زاوية مختلفة كل الاختلاف : زاوية مشاعر الإثمية والحصر التي تتصف بأنها مصدر عظيم من مصادر هذه العقدة .

ولكن لنلاحظ ، قبل كل شيء ، سلوكات موجودين انسانيين . ولن تكون هذه السلوكات غير نقاط صوى . فقد تتجمّع وتتوافق وتتجلّى بمظاهر تبدو متناقضة . وعلى أي حال ، فانها تنشأ من نقطة واحدة سنفحصها فيما بعد ، منطلقين من المتموضع الى العام .

---

(١) انظر « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » .

لنلاحظ سلوكات أحد الرجال :

- ثمة صعوبات اجتماعية وجنسية ، أو عجز اجتماعي وجنسي ، أو الاثنان معا .
- خوف من النساء .
- كره النساء .
- مغالاة في الجاذبية إزاء النساء .
- خوف من الجنسية .
- كره الجنسية .
- خوف من الغرائز .
- خوف من « العفوية » .
- جنسية مغالية لا تشبع أبداً .
- ممارسة العادة السرية ، إما منعزلاً وإما مع شريكته .
- خوف من مسؤوليات الرجولة ، مع كل ضروب التعويض العدواني الذي يفترضه ذلك .
- تخنّث إما مرئي وإما تموّهه سلوكات « عنيفة » .
- تبجّح جنسي .
- حاجة الى جعل النساء قذرات في اعين رجال اخرين .
- كونه شبيهاً بـ « صبي صغير ودود » إزاء النساء .
- إحساس بالأمن ، بالقرب من نساء متقدّمات في السن على وجه الحصر .
- خوف من النساء المتقدمات في السن .
- خوف من الرجال .
- كره الرجال .

ـ تنافس شرس مع الرجال .

ـ خوف من السلطة ، مع كل ضروب التعويض الممكنة .

ـ حاجة الى أن تقبله السلطة وتحبه (رؤساء ، تجمعات ، جيوش ، الخ) .

ـ خجل وعدوانية .

ـ خضوع دائم للسلطة .

ـ تمرد دائم ضد السلطة .

ـ دبلوماسية كبيرة وسهولة كبيرة في المخاتلة ، ومواهب خاصة في « السقوط على القدمين » .

ـ عاطفة قوية من الدونية .

ـ عاطفة من الإثمية ، منتشرة ودون باعث ظاهر .

ـ البحث عن الألم ، كالمغالاة في التقشف على سبيل المثال ، يبرّره على الغالب ببواعث تبدو موضوعية للوهلة الاولى .

ـ مازوخية .

ـ بعض صور التضحية والغيرية .

ـ بعض الانتماءات الى جماعات « أخوية » من الذكور ، كالجيش والكنيسة والسياسة ، الخ .

ـ بحث عن الإخفاق .

ـ حاجة مغالية الى التبعية يرافقها توتر ضدها .

ـ حاجة مغالية الى الاستقلال يرافقها توتر ضدها .

ـ جنسية مثلية كامنة أو صريحة .

ـ حاجة متصفة بالحصر الى تلقي دلائل الودّ **الخارجية** .

ـ بعض صور الرهاب أو الوسواس .

ـ مخاوف دائمة من تأكيد الشخصية .

ـ حاجة مغالية الى تأكيد شخصيته بأي ثمن ، حتى بأكثر الأكاذيب بعداً عن الإتقان .

ـ الخ .

لنلاحظ سلوكات امرأة :

ـ امرأة طفل ، ذات نزوات تتجمّع حول نفسها .
ـ مغالية في الفتنة إزاء الرجال .
ـ عدوانية وسلطوية ، استبداد كامن أو صريح .
ـ رفض الأمومة رفضاً شعوريا أو لاشعوريا .
ـ استرجال (جسم جاف ، متقلص ، وغير متفتح) .
ـ رفض للتعاون مع الزوج رفضا شعوريا أو لاشعوريا ، تنافس مع الزوج .
ـ رفض « الطاعة » للرجل .
ـ ممارسة العادة السرية ممارسة منعزلة او بملامسات الشريك .
ـ برودة جنسية .
ـ خضوع ومازوخية معنوية .
ـ مشاعر الدونية .
ـ مشاعر الإثمية ، مشاعر شائعة وبدون باعث ظاهر .
ـ البحث عن رجال متقدمين في السن .
ـ البحث عن رجال « يجعلونها قذرة » .
ـ حاجة مغالية الى التبعية يرافقها توتر ضدها .
ـ حاجة مغالية الى الاستقلال يرافقها توتر ضدها .
ـ جنسية مثلية كامنة أو صريحة .
ـ خوف من توطيد شخصيتها .
ـ حاجة دائمة الى دلائل **خارجية** للمودّة والحب .
ـ خجل .
ـ حاجة متصفة بالحصر الى أن يقبلها الآخرون .
ـ بعض صور التضحية والغيرية .
ـ بعض « الميول » نحو التبشير الديني .
ـ الخ .

١ ـ عقدة اوديب الكلاسيكية

عقدة أوديب مرتكزة على **الغريزة**(١) . إنها مشهورة جدا ، في صورتها **الكلاسيكية والمتموضعة** على الاقل . وسأقتصر على التذكير بتخطيطيتها.

حالة الصبي الصغير : إنه ، بوصفه منجذباً بأمه ، يجد نفسه امام مانع قوي ، الأب . وتظهر الغيرة لديه . فهو يرغب في امتلاك أمه وحده ، وينز ع الى ردع (« إقصاء ») الأب . وتظهرالعدوانية والإثمية . ويدخل الصبي الصغير في منافسة مع الأب . **فاذا انسجم الوضع** ، بحث الصبي عن تقليد ابيه من ناحية الرجولة ، وعن مساواته وتجاوزه . وهو يحوّل انجذابه نحو امه ، في الوقت نفسه ، الى حماية تزداد رجولة حتى سن الرشد .

حالة البنت : إنها ، بوصفها منجذبة بالأب ، تدخل في منافسة مع أمها التي تكون موضع غيرتها بوصفها منافسة . فتقف من أمها موقف المعارضة العدوانية (« أنت عجوز ... أنت عديمة الذوق في لباسك ... أنت لا تروقين للرجال ... ») . والعدوانية تولّد الحصر (الخوف من ان تتخلى عنها الأم) والإثمية . وتتوحّد البنت تدريجيا بالأم ، وتتعلّم على هذا النحو فن الإغراء . وبعد أن حاولت ازاحتها لتحلّ محلها قرب الأب ، فانها تصبح صديقتها وتوجّه إغراءها نحن الرجال الآخرين وقد انجزت أنوثتها كاملة .

٢ ـ حصر الخصاء الكلاسيكي

آ ـ الخصاء ، **من الناحية الكلاسيكية** ، يدلّ على استئصال أعضاء الذكر الجنسية . وذلك يبدو بمعنى أن البنت لا يمكن أن تكون « مخصيّة » . وسنرى أن هذا غير صحيح . ويولد حصر الخصاء لدى الصبي ، على الغالب ، من كلام عبثي عندما يلاحظ الأبوين أن الصبي

---

(١) **انظر « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث »** .

الصغير يوجّه اهتمامه الى جسمه ، أو يمارس العادة السرية : « اذا لمسته بعد ، قطعوه » ، أو : « اذا فعلت ذلك (أي اذا مارست العادة السرية(١)) ، أصبحت شبيهاً ببنت » ، الخ .

ب ـ الاقوال الاخيرة تحمل على الافتراض أن البنت صبي «ينقصه شيء ما » . وإذا كانت هذه هي ذهنية البنت ، فانها تعدّ نفسها في الحال موجوداً مخصيّا « ذات شق كبير في أسفل بطني » ، كما كانت قد قالت لي بنت صغيرة في العاشرة من عمرها ، يوماً من الأيام . فالبنت تعتقد في نفسها أنها ناقصة ، وتنمّي مشاعر الدونية .

وعلى هذا النحو إنما ترغب **بعض الأمهات** (نفسيا) في الاحتياز على عضو الذكر الخاص بأبنائهن . إنهن يأسفن على كونهن نساء **ويطالبن** بعضو الذكر . . . الذي لا يمتلكنه . فعليهن إذن ، من الناحية الوجدانية ، أن يجدنه في مكان آخر ، وبالمناسبة ، لدى الابن الذي يصبح أروع « زينة » قضيبية . ومضمون ذلك : ابني ، إنه أنا ، ويعوّض عضو الذكر لابني أسفي على أنني لم أمتلكه ، ويحدث لديّ الانطباع بأنني امتلك واحداً ! وكل ذلك يظلّ ، بالطبع ، لاشعوريا .

إنهن عندئذ يمجّدن الابن في جميع الاتجاهات : فهو الأجمل والأذكى والأقوى والأنشط ، الخ . وغنيّ عن البيان أن كل امرأة « تنظر بعين الحسد » الى ابنها تصبح منافسة شديدة الخطر على الثنائي «أم ـ ابن» . وتلك هي ، على أي حال ، ضروب التدليل التي تجرّد من الرجولة ، والسلطوية المتملّقة أو الاستبداد الصريح . . .

وهكذا ، فان خصاء الابن يتحقّق على نحو تام .

ج ـ عندما ينجذب الصبي الصغير نحو أمه جنسيا ، فانه يخشى سخط أبيه المنافس . ويخشى في الوقت ذاته أن ينتزع أبوه رجولته

---

(١) انظر « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » ، حيث عالجنا عقدة أوديب ذات الأهمية الكبرى معالجة مفصلة ، وعالجنا ايضا مشكل العادة السرية ، الترجمة العربية .

منه ، ويشوّهه ويخصيه عقوبة له . وتزداد هذه الخشية بمقدار ما تلتقي عقلية الأبوين بما تضمنته الفقرة (آ) . وعندئذ يعتقد الصبي الصغير أن « ارتكاب الإثم يعني التعرّض الى خطر الخصاء » .

والخلاصة : لنعلم قبل كل شيء أن حصر الخصاء (أي التشويه) سوي جدا **في ذاته** . ذلك أن من المنطقي أن تنصبّ الوجدانيةوالحساسية على مناطق من الجسم « ترمز » الى ما نحن عليه . وحصر الخصاء ، **لدى الصبي** ، يتبلور في تجسيد شخصيته المذكّرة : **عضوه المذكر** . ويتبلور ، لدى البنت ، في تجسيد شخصيتها المؤنثة : **رحمها** .

وماذا بعد ؟ : يمكن لكلمة « خصاء » أن تؤخذ بالمعنى **المادي** للكلمة: فالصبي الصغير يعاني عندئذ خوفاً ماديا من أن يقطع عضوه المذكر ويمكن ان تؤخذ بالمعنى **الوجداني** : يخشى الصبي الصغير أن تتشوّه **شخصيته** المذكّرة . وتلك هي الحال عندما الآباء يضيّقون الخناق على الصبي ، ويغزونه بحضور يغالي في المحبة ، أو يخصونه نفسيا بكل مظاهر الاستبداد الممكنة . وسنرى فيما بعد حالة المراة المخصيّة .

٣ ــ الخصاء بصورة عامة

نحن نعلم الآن ان للأعضاء الجنسية دلالة مادية بقدر ما لها دلالة اجتماعية ووجدانية .

بالنسبة لصبي : امتلاك العضو المذكر يعني أن عليه ان يكون قادراً على الولوج بالمعنى الجنسي والاجتماعي على حد سواء . والمقصود بالمعنى الاجتماعي أن يبدي قدرة فعّالة على النفوذ في المجتمع ، ويبدي عدوانية سوية متجهة نحو الخارج ، الخ .

بالنسبة لبنت : يتيح الرحم للمراة ان « تنفتح » جنسيا واجتماعيا ، اي ان تنفتح على الغير ، وأن تمتلك القدرة على « الاستقبال » ، وان تكون تلك التي يسكن **إليها** ، الخ .

ولنشر هنا الى ان على الرجل ايضاً ان يتجه نحو الداخل ، فينمي خصائصه الأنثوية اللاشعورية . كذلك فان على المراة أن تنمي خصائصها المذكّرة اللاشعورية ، وتصبح قادرة على العمل الموجّه نحو الخارج . وهذه الأمور ذات الاهمية كانت موضع معالجة فيما سبق .

إن الخصاء يعني إذن بالمعنى العام : فقدان المرء خصائص جنسه ، ومعاناة ضرب من التشوّه في شخصيته ، و « الانفصال » عن إمكاناته الطبيعية .

فهو يعني ، **بالنسبة للرجل** ، ان يكفّ عن ان يكون قادراً على « الولوج » ، وأن يصبح مخنثّا .

ويعني ، **بالنسبة للمراة** ، ان تكفّ عن أن تكون « منفتحة » على العالم وعلى الرجل ، وأن تصبح مسترجلة .

ولنشر كذلك الى ان من الضروري أن لا نركن ابداً الى المظاهر ، في هذا المجال اكثر من اي مجال آخر ! فالرجل المخصيّ نفسيا يمكن له ، على نحو جيد جدا ، ان يكون عاجزاً عن ولوج المجتمع ، ولكنه يظهر بمظهر الفحل . ويمكن لهذا الرجل المخصيّ نفسيا ان يعرض مظاهر من المغالاة في الذكورة ، وأن يبدو عنيفاً ومفرطاً في ثقته بنفسه ، وأن يجري وراء مغامرات جنسية مع عدد من النساء ... في حين انه يتصف ، في أعماق نفسه ، بأنه موجود ذليل ، وخاضع للسلطة ، ومازوخي في نهاية الأمر .

كذلك يمكن لامراة مخصيّة من الناحية النفسية ان تبدو بمظاهر فتانة تخفي ذكورة وحاجة الى السيطرة .

ومن المؤكد ان الوجدانية ، في جميع هذه الحالات ، تظلّ متوقّفة في الماضي .

فثمة **قاعدة عامة** مفادها ان الخصاء ينبغي النظر اليه في المجال **الجنسي** وفي المجال **الوجداني** . والغلبة للأول تارة ، وطوراً للثاني ، كما سنرى .

والآن ، فلنتناول العقدة المتموضعة ولنوسّعها .

٤ ـ الخصاء لدى الصبي

الفتى منجذب نحو امه . ويرغب في أن تكون له وحده : إما جنسيا أو وجدانيا ، وإما بالأسلوبين في وقت واحد .

فكل شيء منوط إذن بكثير من الظروف التي تتجلى في الوسط العائلي.

ولنفرض أن ثمة فتى ذو رجولة قوية وأن أمه فتية وجميلة جدا . ويفهم المرء جيداً جداً ان هذا الفتى منجذب ، بصورة لاشعورية على الغالب ، بالمراة الجميلة التي تتصف في الوقت نفسه بأنها أمه . ويفهم المرء انه ، عندما يخرج معها ، فخور بها أمام رفاقه الصغار ، شأنه في ذللك على وجه الدقة شأنه لو انه « كان يخرج » باحدى الفتيات . فاذا كان الوالد ، بالاضافة الى ذلك ، غير موجود ، كأن يكون ضعيفاً أو مخنثا او غائباً ، غزا الإحساس ب « تكوين ثنائي رائع » مع أمه لاشعور الفتى بصورة متزايدة ... وتعزز الوضع الأوديبي .

ولنعرض الآن أن الأم متقدمة في السن الى درجة ما ، وهي بشعة ، وحدباء بالاضافة الى ذلك . ويبدو إذن أن ثمة استحالة في أن يكون الصبي منجذباً بأمه . بيد أن الحالة **الوجدانية** تحدث ولو انه ليس للوضع الأوديبي ، هنا ، تأثير **من الناحية الجنسية** . وكل طفل يبحث عن الأمن، ويخشى قبل كل شيء فقدان الحب ورعاية ابويه . فاذا كانت الأم طيّبة وحفيّة ، كان للوضع الأوديبي تأثيره أيضا .

ومن الممكن أن نذكر افتراضات لا حصر لها . وعلى أي حال ، فان كل شيء منوط بالأسلوب الذي « يتجاوز » به الوضع الأوديبي صبي من الصبيان . فلنكرر مرة أخرى تذكيرنا بهذه العقدة ، عقدة أوديب : الحاجة الى العودة الى الأم ، والحاجة الى أن تكون الأم له ، والحاجة الى الاتحاد بالأم للحصول على الأمن والسلام .

ولكن شخصية الأب تتدخّل هنا . ومن السوي أن يحسّ الفتى سريعاً بضرب من فقدان الأمن أمام هذا الرئيس ، « رئيس القبيلة » ،

الذي : آ) يستولي على كل السلطات ؛ ب) يحتاز على صكوك ملكيته للأم ؛ جـ) يمثّل ، في لاشعور الصبي ، ذكراً قويا ، وشمساً ، بل يمثل إلهـا .

وتبدو ضروب فقدان الأمن لدى الصبي . ويصبح مفهوم الخطيئة الأخلاقية (الرغبة في غشيان المحارم) متسلطاً على نحو خفيّ ، وكذلك الإحساس بالإثمية (« أرغب في أن أسرق ماما من بابا ، إنني منافس أبي في حب امي ، الخ) .

وهنا أيضاً ، ثمة كثير من الأمور منوطة بالصبي ، بل وبالمناخ العام للأسرة ، وبذكاء كل فرد منها ، وبالممنوعات الجنسية والوجدانية التي تسودها ، وبالآراء المسبقة وبنوع الأخلاق ، الخ .

ومن المؤكد ان الصبي يتعرّض الى خطر التعلّق بأمه ، التي تمثّل امنه الوحيد ، اذا كانت هذه الأم « طيّبة بصورة فاتنة » وكان الأب مستبدا وغبياً وظالماً . واليكم مثالاً آخر : اذا كانت الام جميلة ، ولكنها قاسية ومتعالية ، واذا كان الأب لامعاً وجميلاً وموضع إعجاب وطاغياً ، شعر الفتى ، على نحو يرثى له ، ان الجهتين تنبذانه . وسيعتقد في نفسه ان أبويه « يعاقبانه » بسبب « الخطيئة » التي ارتكبها : سرقة أمه من ابيه مع مناخ يسوده غشيان المحارم بصورة عميقة . وسيشعر بأنه آثم « وكأنه قذر » . فاذا استمر الوضع ، كان المآل شابا يتصدّع من الحصر أمام العالم برمته رجالاً ونساءً — مع كل ضروب الأمن اللاشعورية ضد الحصر ، التي يفترضها ذلك .

فلنتذكر ، والحال هذه ، أن ليس ثمة ستة وثلاثون حلا بالنسبة الى صبي . ثمة حلان في الواقع : إما أن يحقّق دوره بوصفه رجلاً إذ يصبح نفاذا بكل معنى من معاني الكلمة ، وإما أن يصبح سلبيا ونفوذاً مع كل ما ينشأ عن ذلك من أصداء جنسية واجتماعية .

وللفتى انا ضعيفة . إنه يخشى ، في الوضع الأوديبي ، عقاب الأب، ويخشى أن يذلّه الأب وينبذه ويعذّبه ويخصيه ، وأن يفقد على هذا

النحو شخصيته ، شخصية الذكر . وهو ، من الناحية النفسية ، مصاب بحصر فقدان عضوه ، عضو الذكر ، وما يمثله هذا العضو .

وامام هذا الوضع ، شتى ردود الفعل يمكن أن تظهر ، منها رد فعل شائع جدا : يكبت الصبي الصغير عداوته لأبيه . فيتخذ الموقف المعاكس.

ويبدأ في « التراجع » خوفاً ، كيما لا يكون موضع عقاب (خصاء) . ويتسلل دون أن يُرى ، ويظهر « واجهة » لا مطعن فيها ، ويصبح ذا مودّة جديرة بكل الميداليات. إنه يصبح لطيفاً مع أبيه ، يظهر له الاحترام ، أنيساً . إنه ، بعبارة اخرى ، يتخنث ، ويخضع ، ويضع نفسه تحت أبيه . كل ذلك لأنه لا يجرؤ على الدخول في منافسة مع أبيه ، منافسة يشعر إزاءها بأنه آثم ويعتقد في نفسه بأنها تهدّده . فيتعلّق بأمه . ويظهر الخوف من الرجولة التي هي الأب هنا .

واذا امتدّ الوضع ، أمكن للصبي ان ينمّي ضرباً من المازوخية الأخلاقية . فهو ، من جهة ، يخاف من أبيه خوفاً متصفاً بالحصر . إنه ينتقص من قيمة نفسه ، ويجعل من نفسه صبياً صغيراً جداً ، ويضع نفسه تحت أبيه .

ومن المحتمل ، في هذه الحالة ، أن ينبعث الأب مجدّداً في كل سلطة . وفي المدرسة والتجهيز ، وأمام اساتذته والصبيان الأكبر سنا ، يبدي الطفل ، ثم المراهق ، انساً ولطفاً مهما كانت الظروف . وتنمو مشاعر الدونية . ويكبت ، في الوقت الذي يبدو أنه خاضع ، عدوانية لاشعورية كبيرة .

ويصبح شعار هذا الصبي ، اللاشعوري : أن لا يكون ابداً موضع عقوبة أو نقد ؛ بذل جميع الجهود ليتجنّب الخصاء ، كما لو انه كان يقول في نفسه : « ما دمت معرّضا الى خطر التشوّه والخصاء ، عليّ أن أفعل كما لو انني محروم من عضو الذكر ؛ وعليّ أن اموّه رجولتي ، وأن لا ادخل في منافسة مع رجل .

وتبدو جنسية مثلية خفيّة : فيضع الصبي نفسه في موضع « ادنى» من كل سلطة .

وسنرى ذلك من خلال بعض الأمثلة الشائعة .

رأينا سابقاً حالة رجل أصبح « معاوناً كاملاً » ذا إخلاص ومواظبة مثاليين ، وذلك حتى تنظر اليه السلطة (رئيسه) « نظرة اعتبار » . وهذه ، في الحقيقة ، حالة من حالات حصر الخصاء : فهذا الرجل يشوّه شخصيته (إذ ظلّ معاوناً) ، ويضع نفسه تحت حماية أبيه الخيّرة (رئيسه) بفضل كمال سلوكه . إنه يتجنّب على هذا النحو احتمال خصائه . وإذ يهرب من المنافسة ويظلّ في ظل ابيه ، فانه لا يتعرّض الى خطر النبذ والقهر والذل .

اليكم مثالاً آخر :

ها هو رجل ينخرط في **الجيش** لأنه يعاني هذا الحصر ذاته ، حصر الخصاء . وأصبح فيه جنديا مثاليا ، يحترم رؤساءه احتراماً كاملا (إنه خاضع في الواقع) . ويعجز المرء عن أن يسجّل في تصرفه أقل هفوة . وهو يتجنّب ، إذ يفعل ذلك ، كل منافسة ، ويتجنّب الخطأ الذي يمكن أن ينشأ عنها . ويطمئن ، بفعل سيرته ، الى عطف ابيه (رؤسائه أصحاب الرتب) وحمايته . فثمة كل الفرص المؤاتية لكي يضفي المثالية هذا الجندي على الجيش و « الأخوة » في السلاح ، **والوطن والعلم** ، ولكي يكون موضع الثواب . ومن المحتمل أن يكون مقتنعاً بصحة « مثاله » .. في حين أنه لا يبحث إلاّ عن اليقين بأنه لن يكون مخصياً .

ويمكن للرجال الذين يعانون حصر الخصاء ان يبحثوا عن **تجمعات** يفرض فيها الأخوة بالأعراف ، ويتماسك فيها الأعضاء « وكأنهم رجل واحد » . وتتيح لهم استقامتهم في « الأخوة » أن يشعروا ، هنا أيضا ، بأنهم تحت رعاية الأب (التجمع) الذي يطمئنون الى أفضاله بسلوك ليس موضع لوم .

وعلى هذا النحو (**دون تعميم** !) إنما يمكن لبعض **التجمعات التي اضفيت عليها المثالية** ان تمثّل الأب في حال وجود حصر الخصاء . **والمثال الاخلاقي** سيسوّغ **الخضوع** هنا أيضاً .

ولنكرر أن علينا أن لا نعمّم أبداً ! ولكن الانسان « المخصيّ » يمكن أن **يتخلى عن الجنسية** وعن المراة بحجة نذر العفة والطهـارة ، أي تطهير مشاعر الإثمية . وهو ، إذ يفعل ذلك ، يضع نفسـه تحت حماية الأب (السماوي) حتى لا يخصيه ، أي حتى لا ينبذه الرب يوم « الحساب » .

وبما أن مشاعر الإثمية قوية لدى رجل من هذا النوع ، فانه سيضحّي من أجل الآخرين ويفعل كل شيء من أجلهم ... ولكنه لن يفعل شيئاً من أجل نفسـه ما دامت مشاعر الإثمية تمنحه إحساساً بأنه لا حق له بشيء ...

وسيكون لدى هذا الرجل نفسه في بعض الأحيان ميل الى البحث عن **التضحية بذاتـه** وعن **الألـم** ، إذ أنه يشعر بالإثم وعليه أن يكفّر . وسيكون لديه ، هنا كذلك ، ميل الى « إضفاء المثالية » على تضحيته والى تبريرها بواسطة بواعث تبدو للوهلة الأولى فتّانة .

واذا كان هذا الرجل متزوجاً ، كان كل تطفّل لرجل آخر في حياته الزوجية يستشعره وكأنه خطـر مباشر . وسيسوّغ هـذا الخطر بـ « الغيرة » . والواقع أن الأمر على غير هذا النحو إطلاقاً . فهذا الرجل **يسقط أمه** على امرأته ، **ويسقط أباه** على الرجل الذي ينفذ الى منزله . إنه يعاني الانطباع بصورة مباشرة أنه شبيه بطفل بين أبويه ، وانه منبوذ ومستضعف ومتروك ومخصي .

وعلى أي حال ، يكبت هذا الرجل غرائزه حتى يصل الى كبت كل شخصيته ، شخصية الذكر . إنه لا يجرؤ على توكيد ذاته ، ويعيش في الخوف الدائم من راي الغير .

والأم ، إياها ، تتجلّى في النساء ، فتكبت الجنسية إزاء النساء « السويات » . ولا يمكن لهذا الرجل أن يستسلم لغرائزه ، إلاّ ، في بعض الأحيان ، مع نساء من مستوى وضيع . فهؤلاء النساء يمثّلن **الأم** ... ولكن ليس ثمة أب يمكن أن يعاقبهن . فالحامي يمثّل **أبا غير شـديد الخطر** ، ما دام يسمح بالاتصال بالأم ، أي بالبغيّ .

فكل هجوم ، وكل نقد ، وكل لوم ، يحسّ به رجل مخصيّ على انه تشويه وجرح عميق . والرجال المخصيّون من الناحية الوجدانية « يحاذون الجدران » ، حتى في ظل مظاهر من الرجولة المزيّفة في بعض الأحيان . ومن المؤكد أنهم لا يشعرون بذلك : فهم يعتقدون على الأكثر ، اعتقاداً مبهماً ، بأنهم يعانون الخجل أو « عقدة الدونية » .

وخلاصة القول إن الرجل المخصيّ يتوارى لدى أدنى تقطيب جبين يبدو على السلطة . إنه يبحث دائماً عن إضفاء المثالية على الواقع الذي يمثّل خطراً دائماً بالنسبة له . ومن المؤكد انه يصبح دبلوماسيا ومنافقاً وكذابا دون أن يدرك ذلك ، إذ أن عليه باستمرار ، لكيلا يشعر بأنه آثم ، أن يطمئن الى رأي الآخرين العطوف . ويمكن القول إنه مصاب بـ « **عقدة الابن الطيب** » ، أي : كونه لطيفاً وودوداً مع الناس جميعهم ، وكونه غير عدواني أبداً ، ويفعل كل شيء ليطمئن الى حماية الغير ، أي السلطة والأب .

ويتم ذلك في بعض الأحيان تحت مظاهر هي من الكمال والروعة بحيث يبدو متعذراً للوهلة الأولى أن يوجد فيها أدنى تصدّع ...

٥ ـ الخصاء لدى البنت

البنت ، في الوضع الأوديبي ، أقل اتصافاً من الصبي بأنها مهدّدة ، على وجه العموم . ومع ذلك ، يحدث أيضا ، في بعض الأحيان ، أن « يتجمّد » الوضع الأوديبي في أثناء السير على درب النمو . وتلك عندئذ هي الطّفالة الجنسية بالنسبة للبنت . كذلك فان الصبي ، في هذه الحالة، ذو ميل الى التخنّث ، والبنت ذات ميل الى **الاسترجال** .

وندخل هنا في ضرب من المفارقة . فبالنظر الى أن العضو المذكر صفة للذكر ، يمكن الاعتقاد بأن حصر الخصاء غير موجود إلاّ لدى الصبي . والحال أنه موجود لدى البنت أيضاً . ولنتذكر أن الخصائص النسوية

هي **الانفتاح** بالمعنى الاجتماعي والمعنى الجنسي على حد سواء . فالمرأة استقبال ، قدرها أن **ينفذ** اليها الرجل . إنها كالوعاء الذي ينبغي على الحياة أن تملأه . ونمو **الرحم** يجب أن يتمّ من الناحية الجنسية ومن الناحية – ولنقل – الرمزية على حد سواء . والواقع أن طبيعة المرأة ينبغي أن تكتسب ، وهي تتفتّح ، عذوبة واستقبالية .

ولنتذكر كذلك ، والحال هذه ، أن **الخصاء** يرادف نقص الامكانات أو بترها . وهنا إنما نرى أن رحم المرأة يقاسي العاقبة الجسدية والنفسية .

وتبقى الفتاة هزيلة وجافة بدلاً من أن تتفتّح . يضاف الى هذا أن بعض الآباء المخنثين ، الذين يكرهون المرأة ، يبذلون كل الجهود لكي تكون البنت شبيهة بالصبي أكثر ما يمكن .

وفي جميع هذه الحالات **تنغلق** الفتاة بدلاً من أن **تنفتح** . وينمو الرحم نمواً سيئاً . والعادة الشهرية مؤلمة على الغالب ، بل إنها تنقطع في بعض الأحيان .

المرأة المخصيّة في الحياة الاجتماعية

إنه ، على أي حال ، هو التوقف في التفتّح النسوي والإخفاق . فالمرأة ، بوصفها استقرّت في عمر وجداني طفالي ، تتغضّن وتجفّ . وهي ، عندما تتزوج ، تختار رجلاً متخنثاً . وتنظر الى الزواج علىَ انه سيطرة وتنافس عدواني مع الزوج . وتنمّي عقلها المعتمد على المحاكمات ، وتكبت إحساساتها العميقة . وما دامت غير « منفتحة » ، فهي ترفض ولوج الرجل . ويمتدّ رفضها الى الاجتماعي . وتصبح مسترجلة ، أي نافذة ومسيطرة . و « تختار » مهناً توافق رغبتها في أن تنفذ ، أي الذكورة . وعلينا أن نتجنب التعميم هنا ، شأننا في أي موضع آخر : فقد يكون هذا الاختيار اختياراً أصيلاً بصورة تامة !

وقد يكون **التطفل** محسوساً بأنه ضرب من « النفوذ » ، وتشويه الشخصية ، وهتك حرمتها . وهكذا إنما كانت تقول إحدى المريضات :

« عندما تفتح أمي احدى خزائني ، أتشنّج كما لو أنها كانت تهتك حرمة ما هو أكثر صميمية من ذاتي ... » .

والإثمية والحصر ناميان جدا . وتلك عندئذ هي الحاجة الدائمة الى ان يقبلها الآخرون ، وأن لا تكون منبوذة ، مثلما يبدو دائماً في مشاعر الإثمية .

وتتعوّد البنت على أن تتّهم نفسها بأنها سبب الشر إذا تعاملت مع أم مسترجلة وعدوانية . وتلك عندئذ هي ولادة المازوخية مع الميل الى الألم . ويتعلّق الطفل بالأبوين . واذا كان ثمة تعلّق بـ « أم عدو » ، ظهر الميل الى الألم مع استحالة أن تكون سعيدة ومحبوبة . ولا يمكن عندئذ للمرأة الصبيّة أن تنجح إلاّ في الشقاء .

وذلك هو السبب عندئذ في أننا نرى غالباً صبايا يحرمن أنفسهن من الغذاء (فقدان الشهية النفسي) . والصيام ، في الواقع ، وسيلة كاملة للتوبة وقصاص النفس . وثمة نساء شابات « يحتمين » بالمرض ، كالتدرّن الرئوي على وجه الخصوص ، مع كل ما يقتضيه ذلك من « طمأنينة الفكر » في الألم .

وبعضهن ينطلقن ، وقد أصبحن مازوخيات ، في كثير من المغامرات الجنسية ، مع الحاجة اللاشعورية الى التكفير . فنرى منهن على هذا النحو من يبحثن عن تدمير جمالهن والذبول والذل ، وعن الوصول في نهاية المطاف الى الإخفاق الأكثر اتصافاً بأنه كلي ، إن لم يكن الى أن يصبحن « لا شيء » بكل معاني الكلمة ...

ثامناً ــ الموت من اجل الاستمرار في الحياة

مشاعر الدونية ، التي عثرنا عليها بوفرة في هذا المؤلف ، تجر على الغالب ، قليلاً أو كثيراً ، نفوس أصحابها المعذّبة في خط السير نفسه : **الخضوع وذل النفس والبحث عن العقوبة والعذاب والحاجة الى الإخفاق**، وضروب أخرى من القرف من الذات . ويرافق ذلك ، بالطبع ، مظاهر عديدة أو صنوف من التعويض يمكن أن تموّهها .

وعلى هذا النحو نعثر على مظهر جديد من المشكل : المازوخية(١) . ولقد مسسنا المازوخية مساً خفيفاً مئات المرات ونحن ندرس بعض السلوكات . **والمازوخية** تجوس حول أنماط من الحياة تعني : « أريد أن أكون محبوباً بأي ثمن كان » . وهي تشمل الناس الذين يحطّون من شأن أنفسهم حتى يقبلهم الغير . وهكذا ، فان كل عاطفة عميقة للاثمية يُحتمل أن تنصبّ ، كل برهة ، في الحفر الواسعة ، حفرة المازوخية . . .

١ ــ خطأ ينبغي تصحيحه :

والمقصود بالحري تحديد ينبغي رفعه . فعامة الناس يعتقدون ان الموجود المازوخي يتميز بعرض وحيد يتمثل في البحث عن المتعة الجنسية من خلال العذاب ، من حيث هو مغلوب ، مضروب بالسوط ، ويعاني احتقار الشريك أو الشريكة ، من حيث هو موضع الإذلال . وانطلاقا من هذا الواقع ، ثمة ميل الى الاعتقاد بأن المازوخيين نادرون نسبيا .

والحال أن مشكل المازوخية مختلف كل الاختلاف ، والسبب في ذلك :

آ) أن المازوخية ليست بالضرورة ذات طبيعة جنسية ، وكثير من

---

(١) انظر كذلك « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » حيث كنا قد نظرنا الى المازوخية من زاوية مختلفة كل الاختلاف .

المازوخيين يبدون سلوكاً جنسياً مظهره سوي ؛ ب) أن المازوخية منتشرة انتشار مشاعر الإثمية التي تلتصق المازوخية بها التصاق العلقة ؛ ج) أن المازوخية ، على الأغلب ، أسلوب في التفكير والتصرف إزاء الغير ... وإزاء الذات ؛ د) أن المازوخية دفاع ضد الحصر العميق على الغالب .

٢ ـ لنلاحظ مفعولات المازوخية

يمكن للسلوكات التالية ، شأنها شأن كثير من الأمور التي رأيناها سابقاً ، أن تتجمّع وتتوافق وتتجلّى بلمسات صغيرة أو ببقع كبيرة : ذلك أن المازوخية تعبّر عن نفسها من خلال سلوكات بارعة وأعراض خطيرة على حد سواء .

اليكم إذن بعض الحالات المازوخية :

ـ يتصرف المازوخي بحيث يحصل على الفوائد أو الأمجاد بابراز تعاساته وصعوباته على وجه الحصر .

ـ يحسّ ، غالباً أو دائماً ، بأنه لا أهمية له في رأي الغير ، ولو أن مئة ألف شخص يبرهنون على العكس ، ولو أن النجاح الشخصي يبدو أنه يكذّب هذه الحالة .

ـ يقبل **بصورة عميقة** (ولا شعوريا على الغالب) أن ينبذه الغير وبذلّه ، كما لو أن الأمر كان بديهيا ، وعلى الرغم من ضروب التمرد والعدوانية الخارجية .

ـ يكابد الإحساس الدائم بأنه لا شيء ، ولا يقدر على شيء ، ولا حق له في شيء : لا في النجاح ، ولا في السعادة ، ولا في الأمجاد ، ولا في المكافآت . وعندما تحدث هذه الأمور الأخيرة الايجابية ، فانه ينظر اليها على أنها خطأ أو « فرصة » عابرة .

– ينتظر كل شيء من الآخرين ولا شيء من نفسه . فهو يناور ، بلباقة أو بفظاظة ، حتى يتولّى الغير كل شيء . وفي ذلك يتكرّر الأمر نفسه : فاما أن تكون مناوراته مكشوفة ، وإما أن تتم بأعمال ، أو كلام ، أو سلوكات ، تمتدّ من « الخداع » الى بعض المهارات الباهرة .

– يبسط تعاساته ، لا دون « داع » كما يظن الناس ، وانما ليثير شفقة الغير ، ويحس بأنه محبوب . ويمكن لذلك أن يغطي تشكيلة واسعة جدا : المبالغة في همومه ، واختراع الحوادث والعراقيل ، وتحويل مرض الى كارثة ، وممارسة التشويه الذاتي ، وإثارة العديد من الأمراض النفسية الجسمية كالتدرّن والتشنج والربو ، الخ ، ورعاية هذه الأمراض لاشعوريا .

– يتعلّق بكل شخص يبدي التعاطف ، ويبذل كل الجهود لكي يصبح هذا التعلق التصاقا .

– يعاني عداوة عنيفة لأولئك الذين لا يعترفون بالألم المازوخي أو لا يلاحظونه . ومضمون ذلك : « ولكن ماذا أفعل لكي ترثي لحالي ؟ » .

– يتصف بعدوانية عميقة تسترها مظاهر الخضوع . وتلك هي اللعبة المزدوجة : الحاجة الى التبعية والحاجة الى الاستقلال (انظر فيما سبق) .

– يبرّر نفسه إزاء بعض الأعمال الشخصية . إنه يفكر أو يكرّر القول كثيراً : « اعذرني ... أسمح لنفسي أن ... » . ويصغّر من اهمية أعماله ونجاحاته كما لو أنها « لم تكن ذات أهمية » . ويتباهى تباهيا كبيراً بجهود تمّ إنجازها . فنحن نلتقي هنا بـ **الاستكمالية** ، (انظر بداية الفصل الخامس عشر) .

– يخاف خوفاً عميقا من تأكيد الذات ، ومن كونه عدوانيا ، ومن لفت الأنظار إليه ، ومن النجاح والتوفيق ، ومن أن تلقى عليه تبعات

يكون قادراً من الناحية الموضوعية على الاضطلاع بها . يستولي الذعر عليه منذ ان يراه الغير او يسمعه .

ـ يعيش كما لو انه ينتظر الكارثة باستمرار ، والإخفاق ، وضربات القدر ، والقصاص ، والعذاب .

ـ يرتعش داخليا أمام كل صورة من صور السلطة (انظر « حصر الخصاء » في هذا الفصل) ، ويظهر بالتأكيد بمظهر المغالاة في الأنس والتهذيب والخضوع أمام هذه السلطة ذاتها .

ـ يتصرف على نحو يجعل السلطة تخفي مخالبها وتصبح لطيفة ، ويلجأ في ذلك على وجه الخصوص الى الوسائل السلبية ، كعرض تعاساته على سبيل المثال .

ـ يشعر بأنه « أحسن حالاً » وبأنه موضع صفح وقبول جديد بعد تلقي اللوم .

ـ يضفي المثالية على العذاب والذل والتواري والتفاني والغيرية والتضحية بالذات ، إضفاء يقتصر على بعض الصور على الأقل (احذر التعميم) .

ـ يصاب بذعر حاد أو خفي أمام عدوانيته الخاصة ، ذعر ترافقه على وجه الاحتمال ، عقوبات ذاتية : تشنج وتعب مفاجىء وصداع ، الخ .

ـ يتعلق ، في النهاية ، تعلقاً قويا ، بهذا الإحساس التالي : « ليس لي اي اهمية ، وقدري الوحيد ان أمنى بالإخفاق ... » .

٣ ـ الثياب لا تصنع الراهب

من خلال هذا القليل من النقاط التي لا تحدد المشكل إطلاقاً ، نرى الآن الى أي حد يمكن لبعض هذه المظاهر أن تغطي واقعاً مختلفاً كل الاختلاف . وهنا إنما يفرض الحذر نفسه على نحو خطير جدا . والواقع

ان بعض الأعمال التي تبدو أنها تصدر عن « قوة في النفس » ، يمكن ان تكون صادرة عن المازوخية الخالصة ... في حين أن بعض السلوكات يمكن التصريح بأنها مازوخية مع انها تستند الى قوة داخلية وتحقيق للذات تحقيقاً تامــا .

وهذ ا ،من جهة أخرى ، هو ما سنتلمّحه ونحن نفحص بعض أنماط الحياة التي « تدور حول » هذا المظهر الخارجي أو ذاك .

آ ـ حول الخلو من كل عيب

إننا نجد سلوكات رأيناها ســابقاً : ها هو ذا رجــل يظهر كمالاً حقيقيا في التواضع والطيبة والتسامح واحترام الآخرين ، الخ . هــل يصدر هذا الكمال عن المازوخية ام عن قوة في النفس ؟ وهذا الرجل ، في الواقع ، يضع نفسه في موضع « أدنى » من الآخرين إن كان الكمال صادراً عن المازوخية . وهو يبحث ، بسلوكاته « الرائعة » ، عن الفوز بعطف الغير ، ويخشى ، اكثر ما يخشى ، أن يكون موضع احتقاره . فمحاكمته هي التالية : بما أنه ليس لي أي اهمية ، وبما أنني غير جدير إلا بالنبذ والاحتقار ، فان عليّ أن اتصرّف بحيث أكون موضع إعجاب دائم » . وعلى هذا النحو إنما تسقط الاستكمالية في المازوخية .

ومع أننا ، من قبلُ ، رأينا السلوكات التي تدور حول المحور نفسه ، فلنتذكر هذه السلوكات : الظرف المغالي ، والجاذبية المغالية ، واللطف المغالي ، والاستعداد المغالي للخدمة ، الخ . والشخص ، هنا كذلك ، يضع نفسه في موضع « أدنى » من الآخر ، ومضمون هذا : « انظر كم أحاول ان أكون لطيفاً معك ، أياً كنت ... » .

ب ـ حول عظمة النفس

ينبغي ـ مع الأسف ـ ملاحظة ما يلي : كل ما يمس الغيرية موضع شبهة على الغالب . وهذا امر سوي جدا ، ما دام كل موجود إنساني

يبحث عن أمنه الداخلي قبل كل شيء . ولكن لنتذكر أن بامكانه أن يفعل ذلك بعدد كبير من الوسائل ، تمضي من الانطواء على الذات الى الأعمال ، النبيلة بصورة مزيّفة ، الهادفة الى جذب الآخرين بالتملّق . ولكن بامكانه أن يجد أمنه من خلال مشاعر الإثمية . فهو عندئذ شبيه بمجرم يحس بالراحة عندما يوقفه رجال الأمن أو ترتسم المقصلة ... كذلك يمكن أن يشعر المازوخي بأنه موضع « الصفح » (إذ أنه يشعر بالإثم) وهو يضحّي بنفسه ، وهو يخفق ، وهو ينجز لحساب الآخرين « أعمالاً قذرة » .

ويمكن للمشكل أن يمضي بعيداً جداً ... فقد يفعل شخص مازوخي كل شيء للآخرين لأنه يعتقد بأن لا حق له في أن يفعل شيئاً لنفسه . ويمكن أن « يبرّر » أعماله بكل المثل الممكنة . ولكن الأساس يظلّ مع ذلك : « ليس لي الحق في أن أكون أنانيا ، بل ولا أن أستريح ، ولا في أن أفكر في نفسي ، ولا في التمتّع باللهو ، ولا في أن أنسى شقاء العالم » . يضاف الى هذا أن المحاكمة اللاشعورية تستمر : « إنني آثم ، واشعر بالخطيئة : فعليّ إذن أن أكون موضع الصفح ، وأن أكفرّ ، وأن اتطهّر ... » .

وتلك ، عندئذ ، مفاهيم مزيّفة في التضحية ، مع كل ما ينشأ عنها : إخلاص كليّ للغير يرافقه نسيان مطلق للذات ... إنه ، في الواقع ، ضرب من الانتحار اللاشعوري .

اليكم ما كانت تقوله صبية مازوخية .وفي قولها ، نجد الحاجة الى الإخفاق ، والرغبة في أن تصبح حطاما وفي أن تكون موضع النسيان والغفران :

ـ ...انني رخوة ولا وجود لي ... لا أضحك أبدا بصورة حقيقية ، ولا أبكي أبدا ، ولا أصدقاء لي . الناس لا يحبونني ، وهذا أمر غير ممكن ... بي رغبة في أن أجعل نفسي تعسة جدا لكي يحبوني ... انه غباء كبير مع ذلك ، ولكني لا أفلح في أن أتصرف ... الاعمال ، والاسفار ، والدروس ، فراغ في حياتي ... فلأذهب الي الشيطان ، ولاقبر

نفسي وأمت ... عندما يبدي لي أحد الاشخاص تعاطفا ، أبكي ، ثم أتراجع ، واغلق نفسي كالحلزون ... أظن أنك تحتقرني ... لا وسيلة لان اكون محبوبة ... بغيّ ... اتمنى أن أكون بغيّا ... بغيّ ... قوّاد ... وحل ... زهرة ذابلة ... أنا ... لا أصلح لان أكون سوى مغلوبة ، موضوعة في سلة القمامة ... أو أن أتعاطى الدعارة لصالح حام ... أن اكون موضع الصفح ... وأفعل أمورا حسنة للآخرين ... أرى نفسي في سجن ... وأتحرك حركة دائرية طبيعية ... ثمة ضرب من السعادة ... أرى نفسي في دير ، أفعل أكثر الاعمال قذارة ...

ح ـ إرادة جليدية

تحت مظاهر الخضوع ، يخفي المازوخي تصميماً بارداً . كان ثمة فتى يتمتم باستمرار عندما ينظر الى أمه التي كان أمامها وديعاً كالحمل :

ـ نعم ماما ، لا ماما ، ولكن نعم ، ولكن لا ، أتج ، أتج ، أتج ...

ما معنى هذا اللفظ « أتج » أو (أ ـ ت ـ ج) ؟ لقد شرحه لي الفتى وعيناه تعبّران عن تصميم ماكر بشراسة :

ـ انني أفعل كل ما ترغب حتى تتركني بسلام . ولكنني أقول لها دائما « في نفسي » : « أنت تستطيعين أن تجري ، أنت تستطيعين أن تجري ، أنت تستطيعين أن تجري ! » .

إننا رأينا ، مع ذلك ، هذا المشكل ونحن ندرس الإثمية الطفولية . فالطفل ، أمام أحد أبويه ، يخفي شخصيته الحقيقية ، ويشرع في تمثيل الدور الذي يقتضيه منه . وذلك من أجل الحصول على « السلام » أي (ليشعر بأنه آمن) . ومع ذلك ، فهو يحتفظ في أعمق أعماق ذاته بتصميم مفاده أن لا يتصرف إلا كما يشاء . ويصبح ضرباً من « المتغطرس المتواضع » .

والمازوخي يتصرف مع ذلك . إنه يفعل أي شيء لكي يكون محبوباً : فيخضع ، ويذلّ نفسه ، ويستجدي ، ويعرض شقاءه ، ويتصف بأنه مهذب ووديع ومتواضع . ولكن ، ثمة صوت لديه يصرّ باستمرار : « سأفعل كل ما تريدون أن أفعل ولكنكم **لن تفوزوا بي !** » .

وعلى هذا النحو إنما يطيع المريض المازوخي ، في التحليل النفسي ، جميع القواعد ، وينجز كل ما يطلب اليه المحلّل أن ينجزه ، ويصغي إصغاء جيداً لكل ما يقول الطبيب الممارس ... ولكنــه لا يتحرك قيد أنملة إلا بصعوبة . ومضمون ذلك : « إنني ، ظاهريا ، كل ما تريد أن أكون ؛ اما داخليا ، فليس ثمة من حيلة : إنك لن تفوز بي ! » وهذا الموقف يختفي عندما تكون العدوانية المستورة قد برزت .

د ـ حاجتان متناقضتان

يحتاج الشخص المازوخي ، من جهة ، حاجة عميقة الى أن يكــون تابعاً ، إذ انه عاجز عن فعل أي شيء بالاعتماد على ذاته . وهو ، من جهة اخرى ، يصون حاجات عنيفة الى الاستقلال . يضاف الى هذا أنالشخص المازوخي يكره الآخرين ، لأنه يشعر الى اي حد يتصف بأنه تابع لهم .

ويفهم المرء إذن ، على نحو جيد ، أن الحصر ينشأ من هذا التوتــر بين الحاجات المتناقضة : التبعية للآخرين بهدف الحصول على دعمهم الكلي ، والرغبة في التحرر من هذه الحاجة . ولكن علينا أن لا ننسى أن من المحتمل ، إذا ما تحرّر هذا الشخص بعنف وعدوانية ، أن يرى نفسه مهملاً ... الأمر الذي لا يحتمله .

وهكذا نرى ، ونحن نقفل حلقة الحصر العميق ، الى أي حد تتيح المازوخية ، هي أيضاً ، إفلاتا من الخوف مــن الغير حين تقدّم الأمــن المزيّف الذي يقوم على أن يصغّر المرء نفسه لكي يتعظّم ، وعلى أن يموت لكي يحاول الاستمرار في الحياة ...

ذيل

الحقيقة ليست وقفاً على نخبة

هذا الحوار بين جامون وداكو يبغي الإجابة عن بعض الاسئلة التي يود" القارىء ، ولا ريب ، لو يطرحها على المحلل النفسي ، ويبغي بصورة خاصة إبراز العون الذي يقد"مه علم النفس التحليلي الى أولئك الذين لا يستطيعون اللجوء اليه أيضا .

س ١ ــ الا تخشى أن يبعث كتابك ، لدى كثير من القر"اء ، ضروبا جديدة من القلق النفسي لانه ، على وجه الدقة ، يتوجّه الى جمهور واسع ! ثمة الكثير من الاسر التي تعيش في حال من العصاب . فاذا تعر"فت احدى الامهات المستبدات على صورتها في الاوصاف التي تعرضها ، فانها تتألم حين تحتاز الشعور بحالة كانت قد أخفتها عن نفسها حتى ذلك الوقت ... وهي تتألم دونما جدوى ، ما دامت عاجزة وحدها عن علاجها . من هنا منشأ مشاعر جديدة من الإثمية ، وربما تعاظمت خطورة هذه الحالة التي تتصف الآن بأنها حالة صعبة .

ج ١ ــ من المؤكد أن هذه الأم الاستبدادية تتألم حين تدرك ، على نحو أفضل ، حالتها الخاصة والأذى الذي سبّبته لوسطها . ولكن ليس كل الم يولـد صدمة بالضرورة . ولن يصبح الألم كذلك إلا بقدر ما يظل" « مجهولا" » ، أي إلا بقدر ما يُسقط الفرد ، وهو لا يجرؤ على مواجهة حصره ، هذا الخوف على حالات ليست ذات صلة بالحدث الداخلي أو الخارجي الذي سبّب هذا الحصر . فهذه الأم المستبد"ة ربما تكون ، على سبيل المثال ، مجر"د امراة تشك في انوثتها ، أو ترفضها بصورة

لاشعورية . وهي تستخدم ولدها لتعوّض عدم رضاها هذا . ويبيّن هذا الكتاب لهذه المرأة :

ـ أنها ليست « آثمة » بالمعنى الذي تعتقده ؛

ـ أن للأعراض العصابية ، لديها وحولها ، دلالة إنسانية بصورة عميقة ، وأن ذلك ليس فظيعاً وغير إنساني ؛

ـ أن ثمة مخرجاً لمثل هذه الحالات ؛

ـ أن ثمة أسلوباً إنسانيا ليواجه المرء عصابه الخاص ويشفيه .

س ٢ ـ يوجّه كارل ياسبيرز للتحليل النفسي ، الفرويدي في الحقيقة ، اعتراضا يبدو لي ذا وزن . « يقود التحليل النفسي بصورة ضمنية الى الايحاء بحالة مثالية ، ولا يقود دون شك الى تصور هذه الحالة ، يكون الانسان فيها متحرّرا من جميع التوترات وكل ضروب الإلزام ـ التي يمكنها وحدها أن توصله الى ذاته ـ ويكتسب طبيعة تعفيه من أن يكون انسانا كذلك (**الوضع الروحي في أيامنا هذه** ، ص ١٨٤) .

ج ٢ ـ لنفكر بشكسبير التلميذ الذي يصارع قواعد اللغة الانغليزية، ثم بشكسبير الراشد الذي يناضل في تأليف هملت . **فعمل المحلّل** تحليلاً نفسياً يقتصر ، مهما كانت آلامه ، على **إعداده** لمواجهة العمل الحقيقي في حياة سن الرشد . واذا خضع للتحليل النفسي أحد الزوجين ، على سبيل المثال ، فذلك ، على وجه الدقة ، لكي يكون قادراً على مواجهة مشكلات الزواج **الحقيقية** مواجهة صحيحة ورشيدة ، تلك المشكلات التي كان قد اقتصر حتى ذلك الحين على تمويهها وكبتها . وقس على ذلك بالنسبة لكل قصور .

س ٣ ـ كتب **جان بول سارتر** في كتابه **الوجود والعدم** متحدثا عن اللواطي الذي يرفض أن ينظر الى نفسه على أنه شاذ من الناحية الجنسية ، مع انه يعترف بميله : « انه لا يريد أن ينظر اليه الآخرون على انه شيء . فلديه قدرة قوية وغامضة على أن يفهم أن شخصا لواطيا ليس لواطيا شبيها بهذه الطاولة أنها طاولة ، وبهذا الرجل الاصهب أنه أصهب . ويبدو له ... أن الديمومة النفسية ، بذاتها ، تبرّئه من كل خطيئة ، وتكوّن له مستقبلا غير متعيّن ، وتجعله يولد ولادة جديدة . وبهذا ذاته ، ألا يعترف بالخاصة الفريدة التي لا يمكن اختزالها ، خاصة الواقع الانساني ؟

ويبدو لي أن الامر لا يختلف في كل مرض نفسي . فانا أجعل من هذا الشخص موضوعا أعلّق عليه لصيقة عصاب ، وأجعله مغتربا في صورة سيكولوجية لنفسه ، صورة بالنسبة له ، وبالنسبة لوسطه ، حقيقته الوحيدة من الآن فصاعدا . وينسى الناس ، نسيانا تكتنفه بعض المغالاة ، أن المصاب بالعصاب شخص ، أي موجود لا يمكن لأي شيء أبدا أن يجعله مغتربا اغترابا كاملا .

ج ٣ – سارتر على صواب الف مرة . فاللواطي ليس لواطيا (والمصاب بالعصاب ليس مصاباً بالعصاب) كما الطاولة هي طاولة . والتحليل النفسي سيكون متعذّرا لو لم يكن ثمة يقين، في الأساس ، أن أي حالة إنسانية تظلّ ، بالتعريف ، مفتوحة دائماً ، وأن أي موجود إنساني يتصف بأنه يرجح بالقياس الى عيوبه ، كما يرجح ، من جهة أخرى ، بالقياس الى صفاته .

س ٤ – يزعجني التفكير بأن بلوغ الجدارة الانسانية بالنسبة لي منوط باختصاصيّ اذا كنت مصابا بأي عصاب . انني أقبل أن تكون صحتي ، بوصفي مريضا ، منوطة بطبيب ممارس : ذلك أنني أعلم أن الموت هو الفعل الاكثر أهمية في حياتنا ولا شك ، ويمكن اذن للمرض ، بالحري ، أن يكون ذا معنى انساني بعمق . بيد أن التحليل النفسي يبدو انه لا يكفّ عن الإيحاء بأن المصاب بالعصاب لا يمكنه أن يصبح انسانا الاّ بوساطة المحلّل النفسي .

ج ٤ – العصاب ، بوصفه كذلك ، ليس « فقدان » الجدارة الانسانية على الاطلاق .

فللعصاب ، بادىء ذي بدء ، معنى يتصف بأنه إنساني بعمق أكثر بكثير من أي مرض جسدي . والمصاب بالعصاب إنسان يسحقه حصره ، إنسان يبحث **بأي ثمن** عن الاستمرار في الحياة ، وعن البقاء متواصلاً مع الآخرين . فالعصاب يمثّل دفاع المصاب به لكي لا « يموت » موتا تاما في نظر نفسه ، ولكي يقول أيضاً « أنا » مهما كان أسلوب قوله مشوّها . والعصاب ، بالنسبة لمن يتقن سماعه ، إشارة استغاثة ، إشارة حقيقية .

وثمة كذلك **سوء فهم فظيع** عندما نتّهم العصاب بـ « الانحطاط »

الانساني . فليس ثمة ، في البدء ، أي طرحٍ لموضوع ضربٍ من التراجع في إمكاناتنا . وكلما كان العصاب قويا ، كان من الواجب أن نرى فيه علامة حيوية لا يمكن كبحها . وعندما يستمر العصاب و « يتكيّس » ، يتّخذ تدريجيا ، في هذا الحين فقط ، مظهر ورم سرطاني يُحتمل أن يدمّر الشخصية كلها . ومن المثير للسخرية ، حتى هنا ، أن يطلق الانسان حكماً . كتب كارل ياسبرز ، وهو طبيب للأمراض العقلية أصبح فيلسوفا ، حول موضوع المصابين بالفصام ، يقول :« ربما كانت التجربة الميتافيزيائية الأكثر عمقاً ، تلك التجربة التي يحتاز فيها الموجود ذلك الشعور بالمطلق ، غير ممكنة إلا في اللحظة التي تتصف فيها النفس بأنها من التصدّع بحيث لا يمكنها بعدُ أن تنهض من دمارها . » (من كتابه سترندبرغ وغوغ ، ص ١٩٥) .

والحاجة الى المحلّل النفسي تجسيد خاص لهذه الضرورة التي نحن فيها جميعاً ، ضرورة الدخول في تواصل مع الآخر لكي يكون لنا وجود حقيقي . وكون هذا الآخر اختصاصياً ، أمر ثانوي بصورة نسبية . فالمحلّل النفسي ، قبل كل شيء ، إنسان قادر على سماع التمني الأكثر عمقاً ، تمني الفرد ، من خلال أعراضه العصابية ومن ورائها . ودوره أن يقود الفرد صوب ضروب من احتياز الشعور لا يمكن أن ينجزها وحده ، وشفاؤه مرتبط بها .

ومع ذلك ، لن يكون التحليل النفسي أبداً — من حيث المبدأ — موضع نصح لشخص ذي خلفية ذهانية . ويرى المرء الى أي حد يتصف تحديد ما نسميه « الحالات الحدية » بأنه صعب ، ولاسيما أننا نرى أحياناً بعض المرضى ، المصابين إصابة قوية في البدء ، يستعيدون أناهم في نهاية التحليل ، ولكن بعد أن يجتازوا فترة قصيرة من الذهان .

س ٥ — قال لي بعض الاصدقاء ، الذين كانوا يستقبلون في بعض الاحيان محلّلا نفسيا ذا شهرة ، كم كانت تصبح كل علاقة معه علاقة يكتنفها الالتباس . فقد كان لديهم الانطباع دائما بأنه كان يدرك بعض العوج خلف الحركات الاكثر بساطة ، والكلام الاكثر بعدا عن

الايذاء . فلنعترف بأن التحليل النفسي لا يؤمن بالمقاصد الخالصة الا ايمانا ضعيفا . لقد اتّجه في وقت مبكر الى الكشف عن طفالة وجدانية لدى الشيوعي أو الكاثوليكي اللذين ارتدّا الى المذهب الارثوذكسي ، وعن جنسية مثلية كامنة في كل عزوبة ، وعن تخلّف جنسي وجداني لدى الميتافيزيائي ، الخ ، الخ .

ج ٥ ـ من المؤكد أن « علم النفس » يمكن أن يصبح ضرباً حقيقياً من الهوس . وعلى هذا النحو إنما يعجز بعض الذين تعوّدوا على « جماعات التدريب » عن حضور اجتماع ودي دون أن يثيروا« التوترات »وسيرورات أخرى احتازوا الشعور بها في أثناء التدريب . والاجتماع ، منذئذ ، لم يعد يتصف بأي شيء طبيعي ولا عفوي ، وثمة افتعال لتوترات ما كان ممكنا أن تبرز أبداً على نحو آخر ... فأن يكون النضال ضد هذه الانحرافات شيء ضروري ، ذلك أمر واضح أشد الوضوح .

ولكن التحليل النفسي ينضمّ لتوّه الى تأكيد أعظم رجال الانسانية الروحانيين ، عندما يضع موضع التساؤل طهارة مقاصدنا العميقة . فهو يشير لنا على هذا النحو الى أننا ما كان ممكنا لنا أن نكفّ أبداً عن أن نصبح أناساً .

س ٦ ـ وهكذا اذن يهدّد بعض التضخّم في السيكولوجي من لم يفهم المرمى الاساسي للتحليل النفسي فهما جيدا . وبعبارة أخرى ، ليس التحليل النفسي ترياقا ، لا بوصفه علما ولا بوصفه علاجا .

أفليس من المثير للاهتمام منذئذ ان تلفت الانتباه الى وجود دروب أخرى غير التحليل النفسي لكي نبني حياة انسانية تكون جديرة بهذا الاسم ، من أجل جميع أولئك الذين يتمنون أن يباشروا عملا سيكولوجيا في الاعماق ، ولكنهم لا يستطيعون أن يطلبوا عون اختصاصي لسبب من الاسباب ، مالي أو غير مالي ؟

ج ٦ ـ ينبغي تماماً أن نميّز **تقنية** التحليل النفسي من **قصد** التحليل النفسي . وتقنية التحليل النفسي ليست بالتأكيد في متناول كثير من الأشخاص الذين قد يكونون بحاجة الى العون . ومن الخطر بمكان أن

يقصد المرء « تمثيل » دور عالم النفس بالنسبة لنفسه ، وبالنسبة للآخرين ، انطلاقاً من مفاهيم يفترفها من الكتب . ولكن القصد ، قصد التحليل النفسي ، يتطابق مع ضرب من وجهة النظر في المشكلات الانسانية. ومن المستحب ، بل مما لا غنى عنه ، أن ندخل جميعا في وجهة النظر هذه .

ويمكن تعريف وجهة النظر هذه على النحو التالي : يعجز الموجود الانساني عن بلوغ ذاته إلاّ في نطاق الدخول في تواصل واقعي مع موجود آخر ، آخر يتقن « الإصغاء » الى رغبة الفرد الأكثر عمقاً ، و « سماعها »، وقبولها ، تلك الرغبة التي تعبّر عن نفسها تعبيراً مشوّهاً بصورة مفرطة من خلال كلامه وسيرته . وهذا هو السبب الذي من أجله كان كل تواصل يشجّع قبول الذات ويحلّ عقدة الحصر ، يلتقي بالمشروع الأساسي للتحليل النفسي .

وقد يكون يسيراً أن نبيّن أن شخصيات عظيمة ـ كغاندي ودستوفسكي وجان دو لاكروا ـ توصّلت الى ما كانت عليه لا بفضل ضرب من التحليل الذاتي بالتأكيد ، بل بفضل ضرب من التطهير الذي يوازي سيرورات التحليل النفسي . ومن الضروري ، في نهاية المطاف ، أن نضع أنفسنا موضع التساؤل ، وأن نقبلها كما هي أمام ذواتنا وأمام الآخرين وأمام المطلق .

س ٧ ـ على المريض ، شاء أم أبى ، أن يتبنّى موقفا من العصاب . فإغلاق العينين ومحاولة النسيان ، أمر يتّسم ايضا بانه موقف . أليس ثمة موقف أكثر اتصافا بانه ملائم ، بل ربما طريقة تتيح له أن يتخلّص من المأزق وحده ؟

ج ٧ ـ لا يخرج المرء من مستنقعاته الخاصة وحده ابداً . والاعتقاد بقدرته على ذلك مرتكز على خاصة مهجورة من خصائص الإرادة المزيّفة.. أو على غطرسة طفولية . والوحدة التي تصيغ الرجال ليست انعزالاً ، شأنها ، على وجه الدقة ، شأن الصمت الذي لا يتصف بأنه من الخرس

في شيء . ولا وجود للوحدة الحقيقية إلاّ بالنسبة لمن كان قادراً على الحوار .

في مؤلف شهير بعنوان « **التحليل الذاتي** » ، حاول المحلّل النفسي كارن هورني أن يبرهن على احتمال أن يكون بمقدور احد المرضى أن يتخلّص من المأزق وحده ، بفعل ذاته ، وضمن بعض الحدود ، بالرغم من ان ذلك يكون أطول مدة ، وأقل وضوحاً ، وبفضل تداعي الأفكار الحر . ولكن الأمثلة التي ضربها لم تقنعني قط .

واوثر ان اقول : ١) إن المريض هو الذي ينبغي دائماً ، وفي كل حالة ، أن يجد بذاته حقيقته الخاصة ؛ ٢) ولكنه لن يستطيع تحطيم الحلقات المفرغة التي تورّط فيها إلاّ – لكي نستعيد عبارة **مرلو بونتي** – إذا ارتبط بشخص آخر بصلات وجود جديدة . فعليه أن يعيش ماضيه عيشاً جديداً وهو يراه في منظور تعايشه مع شخص آخر : ذلك أن ضروب احتياز الشعور ليست فعّالة إلاّ إذا قادها التزام آخر . وبعبارة أخرى، لا بد من جعل الإبرة التي تدور في خط واحد من الأسطوانة ، دوراناً لا نهاية له ، تنزلق نحو خط جديد يوجد في نهايته شخص آخر ٣٠) وليس من الضروري أن يكون هذا الشخص الآخر هو المحلّل النفسي .

وبصورة مشخّصة : **ينبغي ان يسلّم المريض اول الأمر بانه ليس عرضة لضربات قاضية لا مفرّ منها** ، وبأن لحالته مخرجاً ولو أنه لا يرى ما يمكن أن يكون عليه المخرج حاليا . **وعليه بعد ذلك ان يدخل في حوار مع محاور جدير بهذا الاسم** . إن فرويد ذاته ظلّ طيلة فترة الإيضاح المأساوي لعصابه الخاص ، على صلة حميمية بمعلمه بروير وصديقه فليس .

وتقوم المرحلة الأولى على « الجراة » في أن نصيغ الأعراض ، التي تجعلنا نتألم حاليا ، والتجارب الجارحة التي نتذكرها ، بصوت جهوري أمام موجود يحبنا بعمق **ومن اجله** . وقد تبدو هذه الأعراض مضحكة : كذعر الفرد بمجرد أن ينصبّ الحديث على الأرقام والحساب . ولكن

ليس من اليسير على المرء بالتاكيد ان يقصّ على شخص آخر ــ ولو اننا نثق به ــ هذه الحوادث الصغيرة التي تبدو مهينة جدا ، وان يقصها بتفصيلاتها . ومما لا ريب فيه أن من الأصعب علينا كذلك أن نقصّ بصدق ، ودون أن نخفي شيئاً ، تجربة جنسية معيّنة من طفولتنا لا تكفّ تلازمنا ، أو أن نقصّ مشهداً معيّناً لا نزال نحتفظ منه بذكرى بشعة ، للأبوين دخل فيها .

ومع ذلك ، لا بد لنا من ان نتفاهم : ليس الموضوع هنا موضوع طريقة أو تقنية . إنني أحاول على سبيل الحصر ان أوضّح أن الحوار الانساني يمكن ان يقدّم نفعاً حقيقيا منذ أن يبلغ ضرباً معينا من الصدق . ومع ذلك ، اذا كان ممكناً ، في العادة ، أن ننتظر من الحوار تخفيفاً لآلامنا النفسية ، فانه لا يزيل العصاب ذاته . لقد استطاع باسكال أن يكتشف وحده أسس الهندسة الاقليدية . ومن الحماقة أن يستنتج المرء من ذلك أن غالبية الأطفال قادرون على هذا الاكتشاف بدورهم . كذلك فاذا كانت ثمة عبقرية ، كعبقرية فرويد ، استطاعت ان تحلّل عصابها الخاص بفضل عمل شخصي وبفضل مجرد الحوار الانساني ، فذلك لا يعني أن الأمر ممكن للجميع .

والحقيقة أن ضرباً من الحوار الانساني يتيح معاً ، بمجرد أن يكون موقعه ذا عمق معيّن ، تخفيف الآلام ، ومواجهة الاضطرابات النفسية على وجه الخصوص ، بحيث تحتفظ الحياة بضرب من المعنى .

ــ س ٨ ــ في هذا المؤلف نفسه ، المؤلف الذي كنت قد تكلمت عليه فيما سبق ، كتب كارل ياسبيرز أيضا : « عندما كانت ماهية الراي العام اكثر غنى وكان يقدّم للأفراد سنداً، كان الزواج اقل اتصافا بالدلالة . اما الآن ، فان الانسان ، اذا صح القول ، سقط ثانية في المكان الاضيق من منشئه . وهنا (في الزواج) إنما ينبغي عليه ان يقرّر ما إذا كان يرغب في ان يظل إنسانا » .

ويبدو لي ــ واتجرّأ على التاكيد بأن التجربة تؤكد ذلك ــ أن الحب الزوجي (وبالتالي غير المشروط) اسمى فرصة مهياة لنا من اجل التغلب تدريجيا على هذه القوى

من الكره والفساد التي تعمل فينا جميعاً ، على وجه التقريب . تلك هي النتيجة التي توصّل إليها المحلّل النفسي دويكرتز أيضاً في كتابه الرائع تكوين الرباط الجنسي ... وربما باستثناء الحالة التي يكون فيها الشريكان « مصابين بالعقد » الى حد يصبح متعذراً كل حوار حقيقي بينهما . فما رأيك في ذلك ؟

ج ٨ ـ تلك ، ربما ، هي لحظة التأكيد على أن الحوار ، الذي يجد الفرد حقيقته من خلاله ، لا يتألف من كلمات فقط . فألوان الصمت لدى المحلّل ، في أثناء الجلسات على سبيل المثال ، تفعل فعلها بوصفها « كاشفاً » . والقول إن على المحلّل النفسي أن يبقى حياديا قول كلاسيكي . بيد أن الكلمة ، في نهاية المطاف ، ليست دقيقة جدا . ومن المؤكد أنه يظلّ حياديا في نطاق هذا المعنى ، بمعنى أنه لا يصدر حكماً قيميا على الاطلاق ولا يقدّم أي نصيحة ، ولكن صمته صمت فاعل على نحو فريد ومثقل بالدلالة . فلنفرض أن المريض يبدو عدوانياً ويلوم المحلّل على صمته هذا . والمحلّل ، بصمته ورفضه الاستجابة الى هذه الدعوة ، يوجّه ، إذا صح القول ، نداء الى المريض يطلب اليه أن يمضي الى ما وراء هذه الرغبة الأولى وأن ينزل في ذاته بصورة اكثر عمقاً .

وثمة شيء يحدث في العلاقة الزوجية الحقيقية . فمن المتعذر أن لا يلوح ما تحت الشعور في أثناء الحياة المشتركة ومن خلال آلاف الحركات الصغيرة في الحياة اليومية . والحفاوة بالآخر ـ مع الافتراض بأن هذا الآخر مستمر في حب زوجه بالرغم من كل شيء ، ومع الافتراض بأنه لا يطلق حكماً ويقبل جميع هذه المظاهر من العصبية قبولاً لطيفاً (أي هذه المظاهر من الخوف والحصر المكبوتين) ـ أقول إن الحفاوة العميقة بالشريك ستفعل أيضاً فعلها بصفتها ضرباً من الكاشف . وسيقول الشريك بصورة لاشعورية : « إنه ، أو إنها ، يقبلني كما أنا ؛ فأنا إذن لست المسخ الذي كنت اعتقد ، وبالتالي أستطيع تماماً ان أقبل نفسي هبة » . فنحن الآن في فجر تغيّر كلي . ومن هنا منشأ هذه الضروب من الثنائي الذي تقدّم به العمر : ذلك أنه لا بد من زمن طويل قبل أن يعمّ السلام وجود الموجود برمته .

هذا من جهة ؛ ومن جهة اخرى ، « تتصف الجنسية بأنها الوظيفة العاجزة عن الكذب » ، كما يقول شـوارز . ومنذئذ ، يتجلّى المجال النفسي ، شريطة أن يكون المقصود علاقة أُريد لها أن تكون نهائية ، على أنه المجال ذو الامتياز الذي يتعلّم فيه كل من الزوجين معرفـة الزوج الآخـر وقبولـه .

ويمكن اخيراً أن نتذكر مثال دوستوفسكي،مثال لاعب مدمن على القمار شفاه الحب الذي اعترفت به امرأته له .

س ٩ ــ أسمح لنفسي في الإلحاح : الواقع أن هذه الآراء اذا كانت صحيحة ــ كما اعتقد ــ ، وبالنظر الى أن « كوكبة الافاعي » العائلية هي مصدر غالبية ضروب العصاب، فليس بالإمكان التقليل من اهمية هذه المدارس ، « مدارس الزواج » ، التي تتّسع في أيامنا هذه اتساعاً كبيراً . ويمكن لهذه المدارس أن تجد الجزء الأساسي من برنامجها هنا .

ج ٩ ــ المهم ، اكثر بكثير من شفاء مريض من المرضى ، قطع هذه السلسلة اللامتناهية من الآلام التي ينزع كل عصاب الى أن يبدأها : أب فعال في صرامته يخنق شخصية ابنه ، وحين يصبح هذا الابن أباً فيما بعد يسقط مجدّداً صراعه الخاص على أولاده ، وهكذا دواليك .

ولا بد ، لتحطيم هـذه السلسلة من الآلام غير المجدية ، مـن أحد حلين : إمـا شفاء العصاب ، وهذا هو دور المحلل النفسي ، وإمـا أن يستطيع المصاب بالعصاب مواجهة اضطرابه والاضطلاع به . . . بدلاً من أن يسقطه على وسطه ، وهنا إنما يتجلّى الحب الزوجي الصادق على انه في منتهى النجـوع .

واذا لم تجد السلام في اتحادها كثير من الزيجات ،فذلك لأن الأزواج والزوجات يظلّون ، دون أن يدركوا الأمر غالباً ، على حب قوامه الهوى والعاطفة : لذلك لا يبلغ حوارهم ، اللفظي أو الحركي ، تلك الراقات العميقة من الشخصية . ويتطلّب أن يقبل أحد الزوجين نفسه ، وأن يقبل الزوج الآخر ، صبراً طويلاً . فالعلاقة بين الزوجين في البدء ، لا

حين يكونان معوقين سيكولوجيا فقط ، ليست اكثر صدقا من العلاقة بين المحلّل والمحلَّل : فكم من الأزواج يبحثون عن أمهاتهم في زوجاتهم ، والعكس بالعكس ! إننا ، من خطأ الى خطأ ، نمضي نحو الحقيقة ، ولا بد لنا دائماً من أن نمرّ بـ **ليل** ربما جعل كثيراً من ضروب الشجاعة فاترة .

س ١٠ ـ ما الدور الذي يمكن أن يكون للوسط في التبنين الجديد ، تبنين الشخصية، سواء خارج تقنيات التحليل النفسي أم بصور موازية لها ؟ وكيف تستطيع زوجة أو اخ ، أو كيف يستطيع الابوان ، مساعدة عضو من أعضاء الأسرة مصاب برهاب الخلاء على سبيل المثال ؟

ج ١٠ ـ لكي يستطيع الوسط تقديم العون الى شخص يتعرّض لصعوبات سيكولوجية ، عليه :

ـ أن يتخلى عن الراي المسبق القديم الضار جدا : « إذا اردت استطعت ! » فمن الخطأ أن يكون بمقدور هذا الشخص أن يشفى بمساعدة الارادة . ويستشهد الاختصاصيون بحالة صبيّة أرادت أن تتخلّص من ضرب من العادة السرية اللازبة بقوة الارادة ، وانتهى بها الأمر الى الإشراف على الجنون .

ـ أن لا يشعر بالإثم بسبب صعوبات الآخر . فالأم الاستبدادية على سبيل المثال مصدر لفقدان التوازن لدى الطفل بالتأكيد : هذا واقع . ولكن ، بين الواقع والخطيئة ، ثمة هوة فاصلة . والخلط ، من جهة أخرى ، الذي يتكرّر كثيراً ، بين الإثمية بالمعنى السيكولوجي للكلمة وبين الخطيئة بالمعنى الديني للمصطلح يكوّن سمّاً حقيقيا نفسيا . فاعتراف المرء بأنه مسؤول عن وضع من الأوضاع لا يعني أن يكره نفسه . « واذا لم أقبل نفسي ، فلن أستطيع بالتأكيد قبول الآخر كما هو ، وبالتالي لا أستطيع أن أساعده » .

ـ أن يقبل أعضاء الوسط وضع انفسهم موضع التساؤل : والهدف ، دون شك ، تصحيح موقفهم ما أمكن لهم أن يفعلوا ذلك ، بل ،

والهدف ، على وجـه الخصوص ، عـدم نبذ المريض في عالم منعزل ولا يعنيهم .

فاذا أدركنا أن هذه الأعراض العصابية ليست سوى تعبير مشوّه عن رغبة أعمق ، رغبة في التواصل الحقيقي ، استطعنا عندئذ ، بل عندئذ فقط ، عدم الدخول في لعبة المريض وقول الحقيقة له دون خبث ودون جرحه مع ذلك . ولكي يكون بامكان الحقيقة أن تنفذ ، فلا بد من أن تقال بالحب وأن لا يحس فيها من تتوجّه اليه بأي أثر من الاحتقـار . ونحن نكتشف على هذا النحو مبدأ التحليل النفسي .

س ١١ ـ في مقابلة إذاعية مع السيدة إيفرس ، محلّل نفسي أيضا ، عرّفت الرجل « السوي » بقدرته على « الخلق » : خلق اسرة ، او مشروع ، او عمل فني ، الخ . الا يمكن القول ، بالتبادل ، إن كل عمل خلاّق ميّال الى التقليل من آثار النزاعات الطفالية لدينا ، التي اخفقنا في مواجهتها ؟

ج ١١ ـ أتقن بودلير بلوغ عظمة فنية وإنسانية لا يفكر شخص في ايامنا هذه ان ينكرها عليه ، لأنه ـ بصورة شعورية ـ التزم بجميـع التبعات التي كان بالإمكان أن تجعل سيره متثاقلاً . كتب يقول :

أيهـا الراهب الخامل ! متى يمكنني إذن ان أجعل
من المشهد الحي لتعاستي الخاصة
عمـل يـدي وحـب عينـي !

وان يتبع المرء أيضاً ، في رسائل فان غوغ الى اخيه ، جهد الفنان ، جهده العجيب ، لكي يتوصّل الى اعظم ما يمكن من الصدق في مواجهة اضطراباته ذاتها ، أمر بليغ الأثـرعلى نحو فريد . ذلك أن المشكل الأولي يكمن هنا : رؤية حصره كما يتجلّى . ولا شك أن أحد اكبر الأخطار التي تترصّد المصابين إصابة ضعيفة بالعصاب على وجه الخصوص هو بعض التباهي بالنسبة للعصاب ذاته : شأنهم في ذلك بعض الشيء شأن أولئك الأشخاص الذين يستقرون في العذاب ويغذّونه بعد أن عانوا تعاسـة

حقيقية . ويحكي كارل ياسبرز : «في كولون عام ١٩١٢ ، وفي هذا المعرض الذي كان المرء يرى فيه لوحات ، مختلفة المصادر ولكنها ذات رتابة غريبة ، متجمّعة حول لوحات فان غوغ الرائعة ، احسست بأن فان غوغ كان العظيم الوحيد ، والمجنون الحقيقي الوحيد ، والوحيد الذي كان مجنونا رغم انفه ، بين كثير من الناس الذين كانوا يريدون الشهرة بأنهم مجانين ، في حين أنه لم يكن لديهم غير ضرب من المغالاة في الحس السليم».

ولكي يمكن للرسم أن يكون محرّراً لدى فنان من الفنانين المصابين بالعصاب إصابة قوية أو ضعيفة ، لا بد من أن يفلح الرسام في إلقاء حصره على لوحته بالمستوى الذي يحسه به حاليا .

كذلك ليس من النادر كثيراً أن ينساق بعض الذين يهتمون ب « الحالات الاجتماعية » الى الاعتراف بأنهم كانوا مدفوعين الى هذا العمل بفعل صعوبات داخلية . والادعاء بأن هذه الاستعدادات هي استعدادات مزيّفة يتصف بالنزعة التبسيطية . إنني اعتقد بأن أعمالهم قد تكون « خلاّقة » وبالتالي ناجعة بالنسبة لهم : ولكن بشرط صريح مفاده أن يحاولوا ، بكل قواهم التي يتمتعون بها ، جعل « المشهد الحي لشقائهم **الخاص** عمل ايديهم وحب أعينهم » .

س ١٢ – هل يمكن ان تقدّم « **جماعات التدريب** » ، التي تتكاثر تكاثرا متزايدا ، عونا سيكولوجيا الي أولئك الذين يشتركون فيها ؟

ج ١٢ – هدف « **جماعات التدريب** » هذه ان تتيح للمشتركين فيها ان يدركوا ، وهم يعيشون هذا الواقع ، أنّ الجماعة وحدة تحرّضها دينامية حقيقية . فالمشارك فيها يتعلم الإصغاء الى الآخر ، بدلاً من أن ينتظر حتى يفرغ المتحدث من كلامه كيما يكون بمقدوره أن يتكلم بدوره ، والاصغاء الى ضربات نبض الجماعة ، والاعتراف بالنمط الذي يتصف به حضورنا اجتماعاً من الاجتماعات : حضور ميّال الى التسلط ، حضور باهت ، الخ . وغنيّ عن البيان أن هذا كله رائع وضروري .

والخطر الذي ينبغي ان لا نقلل من اهميته يكمن في ان نلعب لعبة « من يتدرّب على السحر » . فثمة توتّرات لا بد لها من أن ترتفع . وهذا التوتر القريب جدا من الحصر يُحتمل ، إذا جانبنا الحذر ، أن يفجّر بصورة مفاجئة ، لدى هذا « المشارك » أو ذاك ، صراعاً عميقا كان قد احتجب حتى ذلك الحين . والحال ان « هذه » الجماعة عاجزة عن تقديم مخرج ، وعن تقديم علاج لهذا المشكل الداخلي الذي ظهر فجاة . وهذا هو السبب الذي من أجله ، مع ذلك ، يتجهون اتجاهاً متزايداً نحو اختيار المشاركين .

وثمة خطر آخر يكمن في أن المشاركين يتعلقون بالطريقة والبحث اكثر مما يتعلقون بالهدف المنشود . وكان هنري لوفيفر قد أوضح اخيراً (**صحيفة العالم** ، ١٧ ــ ٢ ــ ١٩٦٥) ، فيما يخص القدرة الكلية للطريقة ، أن هذا هو فخ العلوم النفسية الاجتماعية الراهن (روائز ، الخ). ويبدو لي ذلك صحيحاً بالنسبة لـ « جماعات التدريب » : فالحياة ، مهما كان هذا التدريب ضروريا ، موجودة في مكان آخر .

س ١٣ ــ ظهور المرشدين من كل نوع ظاهرة خاصة بعصرنا : علماء نفس تقنيين ، وموجّهين مهنيين ، ومربين في ميدان إعادة التربية ، ومرشدين في مجال الحياة الزوجية ، الخ ... دون أن نذكر الأطباء بينهم . ما رايك في دورهم بالنسبة للموضوع الذي نحن بصدده ؟

ج ١٣ ــ ما ان توغل الصراعات السيكولوجية بعض الشيء في العمق حتى تتجلى بالضرورة الى الخارج في اضطرابات على مستوى العلاقات (إخفاق في المدرسة ، انفصال في الحياة الزوجية ، الخ) ، بل وتتجلى في اضطرابات جسدية . ومن الواضح أن من الضروري محاولة تقليص هذه الاضطرابات بأسرع ما يمكن ، وعلى وجه الخصوص عندما يكون مستقبل الفرد أو الحياة الزوجية في خطر . وهنا إنما يجد المرشدون مكانهم .

ومما لا غنى عنه ان يكون مختلف هؤلاء المرشدين مزوّديـن بتكوين في مجال التحليل النفسي بالمعنى الصحيح للمصطلح ، بسبب كونهم ، على وجه الدقة ، **يعملون على مستوى الأعراض المرضية** : وليس بامكان المحلّل النفسي إلا أن يرتاح لمثل هذا التعاون . وثمة شرط مع ذلك . فللطبيب أسلوب في معالجة الاضطرابات الهضمية يدخل في ذهن المريض ان هذه القرحة المعدية ، على سبيل المثال ، هي السبب النهائي لجميـع هذه الآلام ، في حين ان القرحة ربما كانت ذات علاقة بعوامل نفسية . وكما يقول الدكتور نخت : « ينبغي أن لا نقتصر أبداً على ثلاثة فحوص كلاسيكية : تاريخ المرض والفحص السريري وبحوث المختبر ، بل علينا ان نضيف فحصاً رابعاً : **فحص شخصية المريض** » .

او لنفرض كذلك أبوين قدما يستشيران الموجّه المهني (او المربي في مجال إعادة التربية) في موضوع الاخفاقات المدرسية أو الاضطرابات في الطبع ، كالكذب والسرقـة ، الخ ، التي تصيب أطفالهمـا . فحين يستجيب المرشد بأسلوب معيّن لطلب الأبوين ، ويعدّ هذه الإخفاقات وهذه الاضطرابات على أنها المشكل الحقيقي ، **لا على انها العرض لضرب من الاضطراب الاكثر عمقا** ، يجعل من نفسه متواطئاً مع الأبوين اللذين يحاولان ، بصورة غامضة ، إلقاء مسؤولياتهما على شخص ثالث . وهو ، من جهة أخرى ، قد يعرّض الطفل الى أن يبتعد كذلك ، ابتعاداً يزداد بعض الشيء ، عن الدرب الوحيد الذي قد يجد فيه حقيقته . وقس على ذلك بالنسبة لكل مرشد .

ومع ذلك ، فان هذه الاضطرابات ، سواء كانت عضوية أم قصوراً في الطبع ، وسواء كان المصاب بها طفلا أم أسرة تعاني صعوبات التفاهم ، تقتضي غالبا ، **وإن لم تكن سوى اعراض** ، تخفيفاً من وطأتها او استئصال شأفتها بأسرع ما يمكن ، تجنباً لعواقب لا علاج لها : ذلك أن مستقبل الطفل او مصير الأسرة يصبحان على الغالب عرضة للخطر . ولا بد من تقديم علاج مباشر ، ولو أنه لا يعدو كونه علاجاً مؤقتاً . وللمرشدين التقنيين ، هنا ، دور كبير عليهم أن يؤدوه .

س ١٤ ـ هل ثمة حد للعمر في مباشرة تحليل نفسي ، والمسألة تعنيني من هـذا الجانب : فقد يحدث ان يكون لرجال تقدّم بهم العمر (ستون عاماً واكثر) منازعة مع

القضاء لان انحرافا جنسيا (كإظهار العورات ، الخ) ، لا يزال حتى ذلك الحين مقموعاً على وجه التقريب ، أصبح غير ممكن ضبطه . هل يمكن للتحليل النفسي ان يقدّم إليهم عوناً حقيقياً ؟

ج ١٤ ـ غالبية المحلّلين النفسيين من ذوي الاتجاه الفرويدي الدقيق يرون أن نتائج التحليل النفسي في الجزء الثاني من الحياة ، أي منذ حوالي الخمسين من العمر ، نتائج غير مضمونة جدا .

والشيخوخة ، بالنسبة الى يونغ وبودوان ، ليست حياة منقوصة . فكما أن الطفولة والمراهقة تكوّنان عالمين متمايزين من سن الرشد ولهما معناهما الخاص ، كذلك للشيخوخة دلالة خاصة ، والموت مجرد فعل . ولكن ، كما أن من العسير على الطفل أن ينتقل الى سن المراهقة وعلى المراهق أن يواجه مسؤوليات سن الرشد ، كذلك فان الراشدين يبدون نفوراً عندما يكونون ملزمين بالدخول في سن الشيخوخة ويمضون نحو الموت .

وليس ثمة تفكير بانكار المظهر السلبي في الشيخوخة : فهذه التشوّهات من كل نوع تجعل من الشيخوخة سيرورة من الانحلال الخلوي . ولكن يونغ وبودوان يعتقدان بأن ثمة مظهراً إيجابيا الى جانب هذا المظهر السلبي ، وبأننا مدعوون ، في شيخوختنا ، الى الدخول في عالم جديد ، فوق الشبهات ، له ديناميته الخاصة ، شأنه في ذلك شأن دنيا الطفل . ومن خلال الرموز ، يعتقد علم النفس اليونغي بالقدرة على عقد حوار حقيقي مع شيخ ، ومساعدته ، على هذا النحو ، على إيجاد « الحكمة » .

ولا شيء ، ربما ، يمكن أن يحدّد الدلالة لعلم نفس الأعماق ، مثلما تصوّره يونغ وبودوان ، افضل من هذه الملاحظة لـ **كاموس في كرّاساته** :

« إنه لمن الخطأ ، إذا كان للانسان نفس ، أن نعتقد بأنها وُهبت لنا تامة في تكوينها . إنها تتكوّن هنا على مدى الحياة . وليست الحياة شيئا آخر غير هذه الولادة الطويلة المعذّبة . وعندما تكون النفس جاهزة ، اتممنا نحن والالم تكوينها ، فهذا هو الموت » .

الموت ، الذي يتصف بانه ذروة الحياة .

الفهرس

مقدمة	: وجهة نظر انسانية النزعة ومسيحية	٩
الفصل الاول	: من علم النفس الى التحليل النفسي	٣٣
	ـ شتى فروع علم النفس	٣٦
	ـ علم نفس السطح	٣٨
	ـ سيكولوجيا الاعماق	٤١
	ـ لماذا الشروع في تحليل نفسي ؟	٤٩
	ـ بعض المسائل الاولى	٦١
الفصل الثاني	: الاتصالات الاولى بالمحلل النفسي	٧١
الفصل الثالث	: البدايات الاولى في تحليل نفسي	٨٥
	ـ بعض بدايات التحليل	٩١
	ـ من هو المحلل النفسي ؟	١٠٢
الفصل الرابع	: صوب منبع النهر	١١١
	ـ القصة المرضية	١١٨
	ـ غبطة البدء	١٢٧
	ـ مقاومة المريض	١٣٢
	ـ بعض الامثلة عن المقاومة	١٣٥
الفصل الخامس	: أنا موجود ، اذن أنا عدواني	١٤٣
	ـ الطفل والعدوانية	١٤٦
	ـ وجوه العدوانية	١٥١
	ـ ماذا تبرهن هذه الامثلة ؟	١٦٧
الفصل السادس	: ملاك يمر	١٧٣
	ـ لماذا هذه الضروب من الصمت ؟	١٧٦
	ـ بعض ضروب الصمت المبارك	١٨١
	ـ تدخلات المحلل النفسي	١٨٣
	ـ المفارقة النهائية	١٩٣
الفصل السابع	: ذكريات الطفولة	١٩٥
	ـ الماضي الابدي	١٩٦

	ـ « كلية » الحياة	٢٠٣
	ـ الارباح في الطاقة	٢٠٩
	ـ الاسقاط	٢٠٩
	ـ الطاقة المستردّة	٢١٦
	ـ هل ثمة انتزاع لبعض الذكريات من اللاشعور ؟	٢١٩
	ـ اللجوء الى الخيال	٢٢٣
	ـ مزايا هذه الطريقة	٢٣٢
الفصل الثامن	**: « محبوب » بقدر ما هو « مكروه »**	**٢٣٧**
	ـ ما هو التحويل ؟	٢٤١
	ـ الانسان ، باحث عن المطلق	٢٥٣
الفصل التاسع	**: احتياز الشعور**	**٢٦١**
	ـ ممر صعب	٢٦٥
	ـ ردود فعل المريض	٢٧٠
الفصل العاشر	**: الحرية والاغلال**	**٢٧٩**
	ـ « الأنا » ملكة دولة صغيرة	٢٨١
الفصل الحادي عشر	**: عندما الشيطان يقود الرقص**	**٢٩١**
	ـ الأنا العليا السوية	٢٩٢
	ـ عندما يحتجب الشيطان	٢٩٦
	ـ بعض الامثلة اليومية	٢٩٩
	ـ من الاخلاق المغلقة الى الاخلاق المفتوحة	٣٠٦
الفصل الثاني عشر	**: مستودع الغرائز**	**٣٠٩**
	ـ اللاشعور ذو المنشأ الغريزي	٣١١
	غريزة اللذة	٣١٥
	غريزة الموت	٣١٦
	صوب الجنين	٣١٧
الفصل الثالث عشر	**: جواز سفر الى اللانهاية**	**٣٢٣**
	ـ ما هو اللاشعور الجمعي ؟	٣٢٦
	ـ الانماط الاولية	٣٣١
	ـ سخرية المأساة	٣٣٩
	ـ الجزء المؤنث من شخصية الذكر	

	والجزء المذكر مـــن شخصية الانثى	٣٤٩
	ـ من الشمس الى بعث الابطال	٣٦١
	ـ الى نهاية العالم	٣٦٨
	ـ الام ، رحم كبير	٣٧٠
	ـ المـاء	٣٧٥
	ـ العلاج النفسي الرمزي	٣٨١
	ـ من الحلم الليلي الى الحلم المعاش	٣٨٢
	ـ لنعد الى العلاج النفسي الرمزي	٣٨٦
	ـ اللاشعور الشخصي	٣٩٨
	ـ الكبت	٣٩٩
	ـ العقدة	٤٠٤
الفصل الرابع عشر	**: الانسان المصاب بالعصاب**	**٤١٣**
	ـ العصاب مرض	٤١٧
الفصل الخامس عشر	**: الانسان الآثم والانسان المصاب بالحصر**	**٤٢٩**
	ـ عاطفة الإثمية	٤٢٩
	ـ الحصر	٤٣١
	ـ الحصر الكلاسيكي	٤٣١
	ـ حصر الاعماق	٤٣٤
	ـ كامل خوفا من أن يكون غير كامل	٤٤٣
	ـ البحيرة السوداء	٤٥٠
الفصل الخامس عشر	**: مصادر الحصر الكبرى**	**٤٥٧**
	ـ الولادة والاعمار الاولى	٤٥٧
	ـ حصر الانفصال	٤٥٩
	ـ مصاب بالحصر وآثم لانه موجود	٤٦١
	ـ من الطفيلية الى الشخصية	٤٦٥
	ـ مصادر الحصر الداخلية	٤٧٩
	ـ العدوانية والحصر	٤٨١
	ـ أوديب وحصر الخصاء	٤٨٥
	ـ الخصاء لدى الصبي	٤٩٣
	ـ الخصاء لدى البنت	٤٩٨
	ـ الموت من أجل الاستمرار في الحياة	٥٠١
ذيــل	**: الحقيقة ليست وقفا على نخبة**	**٥٠٩**